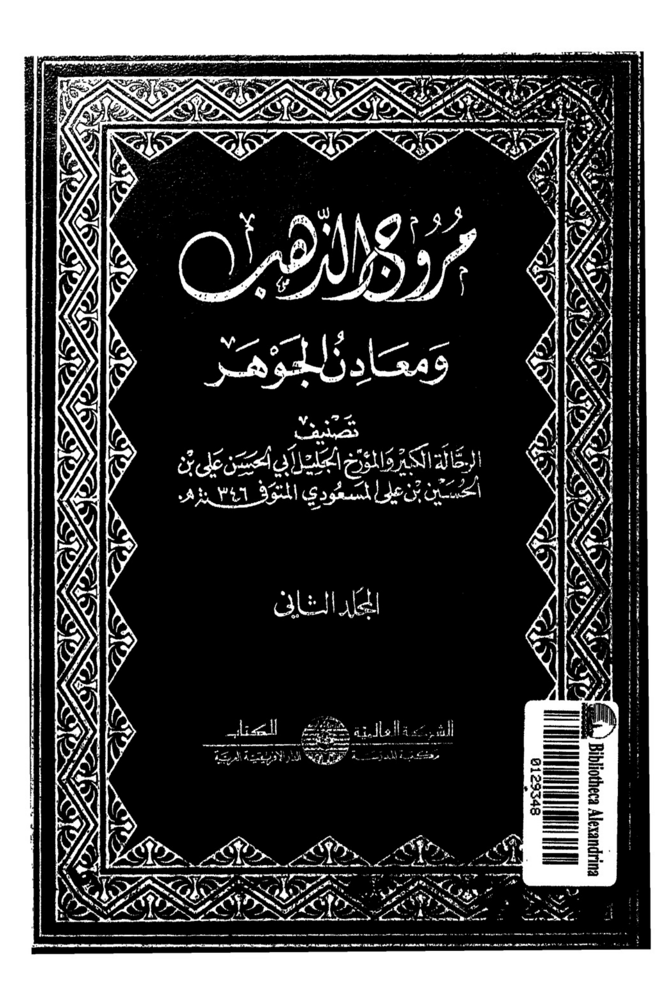

مروج الذهب
ومعادن الجوهر
تصنيف
الرحالة الكبير والمؤرخ الجليل أبي الحسن علي بن
الحسين بن علي المسعودي المتوفى ٣٤٦ هـ
المجلد الثاني
الشركة العالمية للكتاب
مكتبة المدرسة الدار الإفريقية العربية
Bibliotheca Alexandrina
0129348

مروج الذهب

ومعادن الجوهر

تصنيف

الرحالة الكبير والمؤرخ الجليل أبي الحسن علي بن
الحسين بن علي المسعودي المتوفى ٣٤٦ هـ

المجلد الثاني

الشركة العالمية للكتاب ش. م. ل.
دار الكتاب العالمي الدار الافريقية العربية



الشركة العالمية للكتاب ش م ل

طباعة - نشر - توزيع

مكتبة المدرسة

دار الكتاب العالمي

الدار الافريقية العربية

الادارة العامة

الصنائع - مقابل الاذاعة اللبنانية
هاتف ٣٤٩٠٥٥-٣٤٩٣٧٠ - ص ب ٣١٧٦
تلكس LE ٢٢٨٦٥ - برقياً: كتالبان
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية ١٩٩٠

ذِكر خِلافة مُعاوية بن أبي سُفيان

موجز

وبويع معاوية في شوال سنة إحدى وأربعين ببيت المقدس ، فكانت أيامه تسع عشرة سنة وثمانية أشهر ، وتوفي في رجب سنة احدى وستين ، وله ثمانون سنة ، ودفن بدمشق بباب الصغير ، وقبره يزار الى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) ، وعليه بيت مبني يفتح كل يوم اثنين وخميس .

ذِكر لمع مِن أخبَاره وَسِيَره وَنوَادِر مِن بَعض أفعَاله

مقتل حجر الكندي

وفي سنة ثلاث وخمسين قتل معاوية حجر بن عدي الكندي ، وهو أول من قتل صبرا في الاسلام : حمله زياد من الكوفة ومعه تسعة نفر من أصحابه من أهل الكوفة وأربعة من غيرها ، فلما صار على أميال من الكوفة يراد به دمشق أنشأت ابنته تقول ، ولا عقب له من غيرها :

ترفع أيها القمر المنير	لعلك أن ترى حجرا يسير
يسير الى معاوية بن حرب	ليقتله ، كذا زعم الأمير
ويصلبه على بابي دمشق	وتأكل من محاسنه النسور
تخيرت الخبائر بعد حجر	وطاب لها الخورنق والسدير
ألا يا حجر حجر بني عدي	تلقتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أردى عليا	وشيخا في دمشق له زئير
ألا يا ليت حجرا مات موتا	ولم ينحر كما نحر البعير
فان تهلك فكل عميد قوم	الى هلك من الدنيا يصير

ولما صار الى مرج عذراء على اثني عشر ميلا من دمشق تقدم البريد بأخبارهم الى معاوية ، فبعث برجل أعور ، فلما أشرف على حجر وأصحابه قال رجل منهم : إن صدق الزجر فانه سيقتل منا النصف وينجو الباقون .

فقيل له : وكيف ذلك ؟

قال : أما ترون الرجل المقبل مصابا باحدى عينيه .

فلما وصل اليهم قال لحجر : إن أمير المؤمنين قد أمرني بقتلك يا رأس الضلال ومعدن الكفر والطغيان ، والمتولي لأبي تراب ، وقتل أصحابك ، إلا أن ترجعوا عن كفركم ، وتلعنوا صاحبكم وتتبرأوا منه .

فقال حجر وجماعة ممن كان معه : إن الصبر على حد السيف لأيسر علينا مما تدعونا اليه ، ثم القدوم على الله وعلى نبيه وعلى وصيه أحب الينا من دخول النار .

وأجاب نصف من كان معه الى البراءة من علي .

فلما قدم حجر ليقتل قال : دعوني أصلي ركعتين .

فجعل يطول في صلاته ، فقيل له : أجزعا من الموت ؟

فقال : لا ، ولكني ما تطهرت للصلاة قط الا صليت ، وما صليت قط أخف من هذه ، وكيف لا أجزع ، واني لأرى قبرا محفورا ، وسيفا مشهورا ، وكفنا منشورا .

ثم تقدم فنحر ، وألحق به من وافقه على قوله من أصحابه ، وقيل : إن قتلهم كان في سنة خمسين .

عدي بن حاتم ومعاوية

وذكر أن عدي بن حاتم الطائي دخل على معاوية ، فقال له معاوية : ما فعلت الطرفات (يعني أولاده) ؟

قال : قتلوا مع علي .

قال : ما أنصفك علي قتل أولادك وبقي أولاده .

فقال عدي : ما أنصفت عليا اذ قتل وبقيت بعده .

فقال معاوية : أما انه قد بقيت قطرة من دم عثمان ما يمحوها الا دم شريف من أشراف اليمن .

فقال عدي : والله إن قلوبنا التي أبغضناك بها لفي صدورنا ، وإن أسيافنا التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا ، ولئن أدنيت الينا من الغدر فترا لندنينَّ اليك من الشر شبرا ، وإن حز الحلقوم ، وحشرجة الحيزوم لأهون علينا من أن نسمع المساءة في علي ، فسلم السيف يا معاوية لباعث السيف .

فقال معاوية : هذه كلمات حكم فاكتبوها ، وأقبل على عدي محادثا له كأنه ما خاطبه بشيء .

بين عمرو بن عثمان وأسامة
عند معاوية

وذكر أن معاوية بن أبي سفيان تنازع اليه عمرو بن عثمان بن عفان وأسامة بن زيد

مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أرض ، فقال عمرو لأسامة : كأنك تنكرني .
فقال أسامة : ما يسرني نسبك بولائي .
فقام مروان بن الحكم فجلس الى جانب عمرو بن عثمان ، وقام الحسن فجلس الى جانب الحسن ، وقام عبد الله بن عامر فجلس الى جانب مروان ، فقام الحسين فجلس الى جانب الحسن . وقام عبد الله بن عامر فجلس الى جانب سعيد ، فقام عبد الله بن جعفر فجلس الى جانب الحسين ، وقام عبد الرحمن بن الحكم فجلس الى جانب ابن عامر ، فقام عبد الله بن العباس فجلس الى جانب ابن جعفر .
فلما رأى ذلك معاوية قال : لا تعجلوا ، أنا كنت شاهدا اذ أقطعها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة .
فقال الهاشميون فخرجوا ظاهرين ، وأقبل الأمويون عليه فقالوا : ألا كنت أصلحت بيننا .
قال : دعوني ، فوالله ما ذكرت عيونهم تحت المغافر بصفين الا لبس على عقلي ، وإن الحرب أولها نجوى ، وأوسطها شكوى ، وآخرها بلوى .
وتمثل بأبيات امرىء القيس المتقدمة في هذا الكتاب في أخبار عمر رضي الله عنه ، وأولها :

الحرب أول ما تكون فتية تدنو بزينتها لكل جهول

ثم قال : ما في القلوب يشب الحروب ، والأمر الكبير يدفعه الأمر الصغير وتمثل :

قد يلحق الصغير بالجليل وانما القرم من الأفيل
وتسحق النخل من الفسيل

***

الحاق زياد بأبي سفيان

قال المسعودي : ولما هم معاوية بالحاق زياد بأبي سفيان أبيه ـ وذلك في سنة أربع وأربعين ـ شهد عنده زياد بن أسماء الحرمازي ومالك بن ربيعة السلولي والمنذر بن الزبير بن العوام أن أبا سفيان أخبر أنه ابنه ، وأن أبا سفيان قال لعلي عليه السلام حين ذكر زياد عند عمر بن الخطاب :

أما واللّـه لولا خوف شخص يراني يا علي من الأعادي
لبين أمره صخر بن حرب ولـم يكـن المجمجم عن زياد
ولـكني أخاف صروف كف لها نقم ونفي عن بلادي
فقد طالـت محاولتي ثقيفا وتركـي فيهـم ثمر الفؤاد

ثم زاده يقينا الى ذلك شهادة أبي مريم السلـولي ، وكـان أخبر الناس ببدء الأمر ، وذلك أنه جمع بين أبي سفيان وسمية أم زياد في الجاهلية على زنا ، وكانت سمية من ذوات الرايات بالطائف تؤدي الضريبة الى الحارث بن كلدة ، وكانت تنزل بالموضع الذي تنزل فيه البغايا بالطائف خارجا عن الحضر في محلة يقال لها حارة البغايا .

وكان سبب ادعاء معاوية له فيما ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى أن عليا كان ولاه فارس حين أخرج منها سهل بن حنيف ، فضرب زياد ببعضهم بعضا حتى غلب عليها ، وما زال يتنقل في كورها حتى صلح أمر فارس .

ثم ولاه على اصطخر وكان معاوية يتهدده ، ثم أخذ بسر بن أرطاة عبيد اللّه وسالما ولديه وكتب اليه يقسم ليقتلنهما ان لم يراجع ويدخل في طاعة معاوية .

وكتب معاوية الى بسر ألا يعرض بابني زياد ، وكتب الى زياد أن يدخل في طاعته ، ويرده الى عمله ، فقدم زياد على معاوية ، فصالحه على مال وحلي ، ودعاه معاوية الى أن يستخلفه فأبى زياد ذلك .

وكان المغيرة بن شعبة قال لزياد قبل قدومه على معاوية : أرم بالغرض الأقصى ، ودع عنك الفضول ، فإن هذا الأمر لا يمد اليه أحد يدا الا الحسن بن علي وقد بايع لمعاوية ، فخذ لنفسك قبل التوطين .

فقال زياد : فأشر علي .

قال : أرى أن تنقل أصلك الى أصله ، وتصل حبلك بحبله ، وأن تعير الناس منك أذنا صماء .

فقال زياد : يا ابن شعبة ، أأغرس عودا في غير منبته ، ولا مدرة فتحييه ولا عرق فيسقيه ؟

ثم إن زيادا عزم على قبول الدعوى وأخذ برأي ابن شعبة .

وأرسلت اليه جويرية بنت أبي سفيان عن أمر أخيها معاوية فأتاها ، فأذنت له وكشفت عن شعرها بين يديه ، وقالت : أنت اخي أخبرني بذلك أبو مريم .

ثم اخرجه معاوية الى المسجد ، وجمع الناس فقام أبو مريم السلولي فقال : أشهد أن أبا سفيان قدم علينا بالطائف وأنا خمار في الجاهلية فقال : ابغني بغيا .

فأتيته وقلت له : لم أجد الا جارية الحارث بن كلدة سمية ، فقال : ائتني بها على ذفرها وقذرها ..

فقال له زياد : مهلا يا أبا مريم ، انما بعثت شاهدا ، ولم تبعث شاتما .

فقال أبو مريم : لو كنتم اعفيتموني لكان أحب الي ، وانما شهدت بما عاينت ورأيت . . . واللّه لقد أخذ بكم درعها وأغلقت الباب عليهما وقعدت دهشانا ، فلم ألبث أن خرج علي يمسح جبينه ، فقلت : مه يا أبا سفيان ! فقال : ما أصبت مثلها يا أبا مريم ، لولا استرخاء من ثديها وذفر من فيها .

فقام زياد فقال : أيها الناس ، هذا الشاهد قد ذكر ما سمعتم ، ولست أدري حق ذلك من باطله ، وإنما كان عبيد ربيبا مبرورا أو وليا شكورا ، والشهود أعلم بما قالوا .

فقام يونس بن عبيد أخو صفية بنت عبيد بن أسيد بن علاج الثقفي ـ وكانت صفية مولاة سمية ـ فقال : يا معاوية ، قضى رسول الله صلى اللّه عليه وسلم أن الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وقضيت أنت أن الولد للعاهر وأن الحجر للفراش ، مخالفة لكتاب الله تعالى وانصرافا عن سنة رسول الله صلى اللّه عليه وسلم ، بشهادة أبي مريم على زنا أبي سفيان .

فقال معاوية : واللّه يا يونس لتنتهين أو لأطيرن بك طيرة بطيئا وقوعها .

قال يونس : هل الا الى اللّه ثم أقع ؟

قال : نعم وأستغفر اللّه .

فقال عبد الرحمن بن أم الحكم في ذلك ، ويقال انه ليزيد بن مفرغ الحميري :

ألا أبلغ معاوية بن حرب — مغلغلة عن الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عف — وترضى أن يقال أبوك زاني
فأشهد أن رحمك من زياد — كرحم الفيل من ولد الأتان

وفي زياد واخوته يقول خالد النجاري :

إنّ زيادا ونافعا وأبا — بكرة عندي من أعجب العجب

ان رجالا ثلاثة خلقوا من رحم أنثى مخالفي النسب
ذا قرشي فيما يقول ، وذا مولى ، وهـذا بزعمه عربي

بين معاوية وعبد الله بن هاشم المرقال

ولما قتل علي كرم الله وجهه كان في نفس معاوية من يوم صفين على هاشم بن عتبة بن أبي وقاص المرقال وولده عبد اللّه بن هاشم أحن ، فلما استعمل معاوية زيادا على العراق كتب اليه : أما بعد ، فانظر عبد اللّه بن هاشم ابن عتبة ، فشد يده الى عنقه ، ثم ابعث به الي .

فحمله زياد من البصرة مقيدا مغلولا الى دمشق ، وقد كان زياد طرفه بالليل في منزله بالبصرة ، فأدخل الى معاوية وعنده عمرو بن العاص ، فقال معاوية لعمرو بن العاص : هل تعرف هذا ؟

قال : لا .

قال : هذا الذي يقول أبوه يوم صفين :

إني شريت النفس لما اعتلا وأكثر اللوم وما أقلا
أعور يبغي أهله محلا قد عالج الحياة حتى ملا
لا بد أن يفل أو يفلا أشلهم بذي الكعوب شلا
لا خير عندي في كريم ولى

فقال عمرو متمثلا .

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

دونك يا أمير المؤمنين الضب المضب فاشخب أوذاجه على أسباجه ، ولا ترده الى أهل العراق ، فانه لا يصبر عن النفاق ، وهم أهل غدر وشقاق ، وحزب ابليس ليوم هيجاء ، وإن له هوى سيرديه ، ورأيا سيطغيه ، وبطانة ستقويه ، وجزاء سيئة سيئة مثلها .

فقال عبد اللّه : يا عمرو ، إن أقتل فرجل أسلمه قومه ، وأدركه يومه ، أفلا كان هذا منك اذ تحيد عن القتال ، ونحن ندعوك الى النزال ، وأنت تلوذ بسمال النطاف ، وعقائق الرصاف ، كالأمة السوداء ، والنعجة القوداء ، لا تدفع يد لامس !

فقال عمرو : أما والله لقد وقعت في لهاذم شذقم للأقران ذي لبد ، ولا أحسبك منفلتا

من مخاليب أمير المؤمنين !

فقال عبد اللّه : أما واللّه يا ابن العاص انك لبطر في الرخاء ، جبان عند اللقاء ، غشوم اذا وليت ، هيابة اذا لقيت ، تهدر كما يهدر العود المنكوس المقيد بين مجرى الشول ، لا يستعجل في المدة ، ولا يرتجى في الشدة ، أفلا كان هذا منك اذ غمرك أقوام لم يعنفوا صغارا ، ولم يمزقوا كبارا ، لهم أيد شداد ، وألسنة حداد ، يدعمون العوج ، ويذهبون الحرج ، يكثرون القليل ، ويشفون الغليل ، ويعزون الذليل !

فقال عمرو : أما واللّه لقد رأيت أباك يومئذ تخفق أحشاؤه ، وتبق أمعاؤه ، وتضطرب أطلاؤه ، كأنما انطبق عليه صمد .

فقال عبد اللّه : يا عمرو : أنا قد بلـوناك ومقالتك فوجدنا لسانك كذوبا غادرا ، خلوت بأقوام لا يعرفونك ، وجند لا يسامونك ، ولو رمت المنطق في غير أهل الشام لجحظ اليك عقلك ، ولتلجلج لسانك ، ولاضطرب فخذاك اضطراب القعود الذي أثقله حمله .

فقال معاوية : ايها عنكما ، وأمر باطلاق عبد اللّه ، فقال عمرو لمعاوية :

أمرتك أمرا حازما فعصيتني	وكان من التوفيق قتل ابن هاشم
أليس أبوه يا معاويـة الذي	أعـان عليـا يوم حز الغلاصم
فلـم ينثن حتى جرت من دمائنا	بصفين أمثال البحور الخضارم
وهـذا ابنه والمـرء يشبه شيخه	ويـوشك أن تقرع به سن نادم

فقال عبد اللّه يجيبه :

معـاوي ان المـرء عمرا أبت له	ضغينة صدر غشهـا غـير نائم
يرى لك قتلي يا ابن هند ، وإنما	يرى ما يرى عمرو ملوك الأعاجم
على أنهم لا يقتلـون أسيرهم	إذا منعـت عنه عهـود المسالم
وقد كان منا يوم صفين نفرة	عليـك جناهـا هاشم وابن هاشم
قضى ما انقضى منها وليس الذي مضى	ولا ما جرى الا كأضغـاث حالم
فان تعف عني تعف عن ذي قرابة	وان تـر قتلي تسـتحل محارمي

فقال معاوية :

أرى العفو عن عليا قريش وسيلة ... الى اللّه في يوم العصيب القماطر
ولست أرى قتلي الغداة ابن هاشم ... بادراك ثاري في لؤي وعامر
بل العفو عنه بعدما بان جرمه ... وزلت به احدى الجدود العواثر
فكان أبوه يوم صفين جمرة ... علينا فأردته رماح نهابر

وحضر عبد اللّه بن هاشم ذات يوم مجلس معاوية ، فقال معاوية : من يخبرني عن الجود والنجدة والمروءة ؟ .

فقال عبد اللّه : يا أمير المؤمنين ، أما الجود فابتذال المال ، والعطية قبل السؤال ، وأما النجدة فالجراءة على الأقوام ، والصبر عند ازورار الأقدام ، وأما المروءة فالصلاح في الدين ، والاصلاح للمال ، والمحاماة عن الجار .

بين معاوية ومحمد بن أبي بكر

ولما صرف علي رضي اللّه عنه قيس بن سعد بن عبادة عن مصر وجه مكانه محمد بن أبي بكر ، فلما وصل اليها كتب الى معاوية كتابا فيه :

« من محمد بن أبي بكر ، الى الغاوي معاوية بن صخر .

« أما بعد ، فان اللّه بعظمته وسلطانه خلق خلقه بلا عبث منه ، ولا ضعف في قوته ، ولا حاجة به الى خلقهم ، ولكنه خلقهم عبيدا ، وجعل منهم غويا ورشيدا ، وشقيا وسعيدا .

« ثم اختار على علم واصطفى وانتخب منهم محمدا صلى اللّه عليه وسلم ، فانتخبه بعلمه ، واصطفاه برسالته ، وائتمنه على وحيه ، وبعثه رسولا ومبشرا ونذيرا ووكيلا .

« فكان أول من أجاب وأناب وآمن وصدق وأسلم وسلم أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب . . . صدقه بالغيب المكتوم ، وآثره على كل حميم ، ووقاه بنفسه من كل هول ، وحارب حربه ، وسالم سلمه ، فلم يبرح مبتذلا لنفسه في ساعات الليل والنهار والخوف والجوع والخضوع ، حتى برز سابقا لا نظير له فيمن اتبعه ، ولا مقارب له في فعله .

« وقد رأيتك تساميه وأنت أنت ، وهو هو : أصدق الناس نية ، وأفضل الناس ذرية ، وخير الناس زوجة ، وأفضل الناس ابن عم : أخوه الشاري بنفسه يوم مؤتة ، وعمه سيد الشهداء يوم أحد ، وأبوه الذاب عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعن حوزته . وأنت اللعين ابن اللعين ، لم تزل أنت وأبوك تبغيان لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الغوائل ، وتجهدان في اطفاء نور اللّه ، تجمعان على ذلك الجموع ، وتبذلان فيه المال ، وتؤلبان عليه القبائل ، وعلى ذلك مات أبوك . وعليه خلفته .

« والشهيد عليك من تدني ويلجأ اليك من بقية الأحزاب ورؤساء النفاق ، والشاهد لعلي ـ مع فضله المبين القديم ـ أنصاره الذين معه ، وهم الذين ذكرهم اللّه بفضلهم ، وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار ، وهم معه كتائب وعصائب ، يرون الحق في أتباعه والشقاء في خلافه .

« فكيف يا لك الويل تعدل نفسك بعلي وهو وارث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وآله ووصيه وأبو ولده : أول الناس له أتباعا ، وأقربهم به عهدا ، يخبره بسره ، ويطلعه على أمره ، وأنت عدوه وابن عدوه ؟!

« فتمتع في دنياك ما استطعت بباطلك ، وليمددك ابن العاص في غوايتك ، فكأن أجلك قد انقضى ، وكيدك قد وهى ، ثم يتبين لك لمن تكون العاقبة العليا . واعلم أنك انما تكايد ربك الذي أمنت كيده ، ويئست من روحه ، فهو لك بالمرصاد ، وأنت منه في غرور ، والسلام على من اتبع الهدى » .

فكتب اليه معاوية :

« من معاوية بن صخر ، الى الزاري على أبيه محمد بن أبي بكر .

« أما بعد ، فقد أتاني كتابك تذكر فيه ما الله أهله في عظمته وقدرته وسلطانه ، وما اصطفى به رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعلى آله ، مع كلام كثير لك فيه تضعيف ، ولأبيك فيه تعنيف ، ذكرت فضل ابن أبي طالب ، وقديم سوابقه ، وقرابته الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومواساته اياه في كل هول وخوف ، فكان احتجاجك علي وعيبك لي بفضل غيرك لا بفضلك ، فاحمد ربا صرف هذا الفضل عنك ، وجعله لغيرك .

« فقد كنا وأبوك فينا نعرف فضل ابن أبي طالب وحقه لازما لنا مبرورا علينا ، فلما اختار الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ما عنده ، وأتم له ما وعده ، وأظهر دعوته ، وأبلج حجته ، وقبضه اللّه اليه صلوات اللّه عليه ، فكان أبوك وفاروقه أول من ابتزه حقه ، وخالفه على أمره ، على ذلك اتفقا واتسقا .

« ثم انهما دعواه الى بيعتهما فأبطأ عنهما ، وتلكأ عليهما ، فهما به الهموم ، وأرادا به العظيم ، ثم انه بايع لهما وسلم لهما ، وأقاما لا يشركانه في أمرهما ، ولا يطلعانه على سرهما ، حتى قبضهما اللّه .

«ثم قام ثالثهما عثمان فهدى بهديهما وسار بسيرهما ، فعبته أنت وصاحبك حتى طمع فيه الأقاصي من أهل المعاصي ، فطلبتما له الغوائل ، واظهرتما عداوتكما فيه حتى بلغتما فيه مناكما .

« فخذ حذرك يا ابن أبي بكر ، وقس شبرك بفترك ، يقصر عن أن توازي أو تساوي من يزن الجبال بحلمه ، لا يلين عن قسر قناته ، ولا يدرك ذو مقال أناته ، أبوك مهد مهاده ، وبنى لملكه وساده . فان يك ما نحن فيه صوابا فأبوك استبد به ونحن شركاؤه ، ولولا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا ابن أبي طالب ، ولسلمنا اليه ، ولكنا رأينا أباك فعل ذلك من قبلنا فأخذنا بمثله ، فعب أباك بما بدا لك أو دع ذلك . والسلام على من أناب » .

من معاوية الى علي

ومما كتب به معاوية الى علي :

« أما بعد ، فلو علمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض ، وأنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما نرم به ما مضى ، ونصلح به ما بقي ، وقد كنت سألتك الشام على ألا تلزمني لك طاعة ، وأنا أدعوك اليوم الى ما دعوتك اليه أمس ، فانك لا ترجو من البقاء الا ما أرجو ، ولا تخاف من القتال ، الا ما أخاف ، وقد والله رقت الأجناد ، وذهبت الرجال ، ونحن بنو عبد مناف ، وليس لبعضنا على بعض فضل يستذل به عزيز ، ويسترق به حر والسلام » .

جواب علي لمعاوية

فكتب اليه علي كرم الله وجهه :

« من علي بن أبي طالب الى معاوية بن أبي سفيان .

« أما بعد ، فقد جاءني كتابك تذكر فيه أنك لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض ، وإنا وإياك نلتمس منها غاية لم نبلغها بعد .

« فأما طلبك مني الشام فاني لم أكن أعطيك اليوم ما منعتك أمس .

« وأما استواؤنا في الخوف والرجاء فلست بأمضى على الشك مني على اليقين ، وليس أهل الشام على الدنيا بأحرص من أهل العراق على الآخرة .

« وأما قولك نحن بنو عبد مناف ، فكذلك نحن ، وليس أمية كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبي طالب ، ولا الطليق كالمهاجر ، ولا المبطل كالمحق ، وفي أيدينا فضل النبوة التي قتلنا بها العزيز ، وبعنا بها الحر . والسلام » .

بين معاوية وسعد

وحدث أبوجعفر محمد بن جرير الطبري ، عن محمد بن حميد الرازي ، عن أبي نجيح ، قال : لما حج معاوية طاف بالبيت ومعه سعد ، فلما فرغ انصرف معاوية الى دار الندوة ، فأجلسه معه على سريره ، ووقع معاوية في علي وشرع في سبه ، فزحف سعد ، ثم

قال : أجلستني معك على سريرك ثم شرعت في سب علي ، والله لأن يكون في خصلة واحدة من خصال كانت لعلي أحب الي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس :

واللّه لأن أكون صهرا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وأن لي من الولد ما لعلي ، أحب الي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس .

والله لأن يكون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال لي ما قاله يوم خيبر : « لأعطين الراية غدا رجلا يحبه اللّه ورسوله ، ويحب اللّـه ورسولـه ، ليس بفرار ، يفتح اللّـه على يديه » ، أحب اليّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس .

واللّه لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي ما قال له في غزوة تبوك : « ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي » ، أحب الي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس .

وايم اللّه لا دخلت لك دارا ما بقيت . . . ثم نهض .

ووجدت في وجه آخر من الروايات ، وذلك في كتاب علي بن محمد بن سليمان النوفلي في « الأخبار » ، عن ابن عائشة وغيره ، أن سعد لما قال هذه المقالة لمعاوية ونهض ليقوم ضرط له معاوية ، وقال له : اقعد حتى تسمع جواب ما قلت : ما كنت عندي قط ألأم منك الآن ، فهلا نصرته ، ولم قعدت عن بيعته ؟ فإني لو سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم مثل الذي سمعت فيه لكنت خادما لعلي ما عشت .

فقال سعد : واللّه إني لأحق بموضعك منك .

فقال معاوية : يأبى عليك ذلك بنو عذرة .

وكان سعد فيما يقال لرجل من بني عذرة .

قال النوفلي : وفي ذلك يقول السيد بن محمد الحميري :

سائل قريشا بها ان كنت ذا عمه	من كان أثبتها في الدين أوتادا
من كان أقدمها سلما ، وأكثرها	علما ، وأطهرها أهلا وأولادا
من وحد اللّـه اذ كانت مكذبة	تدعو مع اللّـه أوثانا وأندادا
من كان يقدم في الهيجاء إن نكلوا	عنها ، وإن بخلوا في أزمة جادا
من كان أعدلها حكما ، وأقسطها	حلما ، وأصدقها وعدا وايعادا
إن يصدقوك فلم يعدوا أبا حسن	إن أنت لم تلق للأبرار حسادا
ان أنت لم تلق من تيم أخا صلف	ومن عدي لحق اللّـه جحادا

أو من بني عامر ، أو من بني أسد | رهط العبيد ذوي جهل وأوغادا
أو رهط سعد ، وسعد كان قد علموا | عن مستقيم صراط اللّه صدادا
قوم تداعوا زنيا ثم سادهم | لولا خمول بني زهر لما سادا

وكان سعد وأسامة بن زيد وعبد اللّه بن عمر ومحمد بن مسلمة ممن قعد عن علي بن أبي طالب ، وأبوا أن يبايعوه هم وغيرهم ممن ذكرنا من القعاد عن بيعته .

وذلك أنهم قالوا : إنها فتنة . ومنهم من قال لعلي : أعطنا سيوفا نقاتل بها معك ، فاذا ضربنا بها المؤمنين لم تعمل فيهم ونبت عن أجسامهم ، واذا ضربنا بها الكافرين سرت في أبدانهم .

فأعرض عنهم علي ، وقال : « ولو علم اللّه فيهم خيرا لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » .

بين معاوية وأبى الطفيل الكناني

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى وغيره من الأخباريين أن الأمر لما أفضى الى معاوية أتاه أبو الطفيل الكناني فقال له معاوية : كيف وجدك على خليلك أبي الحسن ؟

قال : كوجد أم موسى على موسى ، وأشكو الى اللّه التقصير .

فقال معاوية : أكنت فيمن حضر قتل عثمان ؟

قال : لا ، ولكني فيمن حضر فلم ينصره .

قال : فما منعك من ذلك وقد كانت نصرته عليك واجبة ؟

قال : منعني ما منعك ، إذ تربص به ريب المنون وأنت بالشام .

قال : أو ما ترى طلبي لدمه نصرة له ؟

قال : بلى ، ولكنك واياه كما قال الجعدي :

لا ألفينك بعد الموت تندبني | وفي حياتي ما زودتني زادا

ودخل على معاوية ضرار بن الخطاب فقال له : كيف حزنك على أبي الحسن ؟

قال : حزن من ذبح ولدها على صدرها ، فما ترقأ عبرتها ، ولا يسكن حزنها .

بين معاوية وقيس بن سعد

ومما جرى بين معاوية وبين قيس بن سعد بن عبادة حين كان عاملا لعلي على مصر ، فكتب اليه معاوية : أما بعد ، فانك يهودي ابن يهودي ، إن ظفر أحب الفريقين اليك عزلك واستبدل بك ، وأن ظفر أبغضهما اليك نكل بك وقتلك . وقد كان أبوك أوتر قوسه ، ورمى غرضه ، فأكثر الحز وأخطأ المفصل ، فخذلـه قومه ، وأدركـه يومه ، ثم مات بحوران طريدا .

فكتب اليه قيس بن سعد : أمـابعد ، فانما أنت وثني ابـن وثنـي ، دخلت في الاسلام كرها ، وخرجت منه طوعـا ، لم يقدم ايمانك ، ولـم يحدث نفاقك ، وقد كان أبي أوتر قوسه ، ورمى غرضه ، فشغب به من لـم يبلغ عقبه ، ولا شق غباره ، ونحن أنصار الدين الذي منه خرجت ، وأعداء الدين الذي فيه دخلت .

ودخل قيس بن سعد بعد وفاة عليّ ووقوع الصلح في جماعة من الأنصار على معاوية ، فقال لهم معاوية : يا معشر الأنصار ، بم تطلبون ما قبلي ؟ فواللّه لقد كنتم قليلا معي كثيرا علي ، ولفللتم حدي يوم صفين حين رأيت المنايا تلظى في أسنتكم ، وهجوتموني في أسلافي بأشد من وقع الأسنة ، حتى اذا أقام الله ما حاولتم ميله قلتم : أرع فينا وصية رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، هيهات يأبى الحقين العذرة .

فقال قيس : نطلب ما قبلك بالاسلام الكافي به اللّه ، لا بما تمت به اليك الأحزاب واما عداوتنا لك فلو شئت كففتها عنك ، وأما هجاؤنا اياك فقول يزول باطلـه ، ويثبـت حقه ، وأما استقامة الأمر فعلى كره كان منا ، وأما فلنا حدك يوم صفين فانا كنا مع رجل نرى طاعته للّه طاعة ، وأما وصية رسول اللّه بنا فمن آمن به رعاها بعده ، وأما قولك يأبى الحقين العذرة فليس دون اللّه يد تحجزك منا يا معاوية .

فقال معاوية يموه : ارفعوا حوائجكم .

من مناقب قيس بن سعد

وقد كان قيس بن سعد من الزهد والديانة والميل الى علي بالموضع العظيم .

وبلغ من خوفه اللّه وطاعته اياه أنه كان يصلي فلما أهوى للسجود اذا في موضع سجوده ثعبان عظيم مطوق ، فمال عن الثعبان برأسه ، وسجد الى جانبه ، فتطوق الثعبان برقبته ، فلـم يقصر من صلاته ولا نقص منهـا شيئا ، حتى فرغ ، ثم أخذ الثعبان فرمى به . . . كذلك ذكر الحسن بن علي بن عبد الله بن المغيرة ، عن معمر بن خلاد ، عن أبي الحسن علي ابن موسى الرضا .

بين معاوية وعمرو

وقال عمرو بن العاص لمعاوية ذات يوم : قد أعياني أن أعلم أجبان أنت أم شجاع ، لأني أراك تتقدم حتى أقول أراد القتال ، ثم تتأخر حتى أقول أراد الفرار .

فقال معاوية : واللّه ما أتقدم حتى أرى التقدم غنما ، ولا أتأخر حتى أرى التأخر حزما ، كما قال القطامي :

شجاع اذا ما أمكنتني فرصة ... والا تكن لي فرصة فجبان

العباس بن ربيعة

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى ، عن أبي الأعز التيمي ، قال : بينا أنا واقف بصفين اذ مر بي العباس بن ربيعة مغفرا بالسلاح ، وعيناه تبصان من تحت المغفر كأنهما شعلتا نار أو عينا أرقم ، وبيده صفيحة له يمانية يقلبها ، والمنايا تلوح في شفرتها ، وهو على فرس صعب . فبينا هو يبعثه ويمنعه ويلين من عريكته ، لذ هتف به هاتف يقال له عرار بن أدهم من أهل الشام : يا عباس ، هلم الى النزال .

قال : فالنزول اذن ، فانه اياس من الحياة .

فنزل اليه الشامي وهو يقول :

إن تركبوا فركوب الخيل عادتنا ... أو تنزلون فانا معشر نزل

وثنى العباس وركه وهو يقول :

اللّه يعلم أنا لانحبكم ... ولا نلومكم ألا تحبونا

ثم عصر فضلات درعه في محزمه يريد منطقته ودفع فرسه الى غلام له أسود كأني واللّه أنظر الى فلافل شعره ، ثم زحف كل واحد منهما الى صاحبه ، وكف الفريقان أعنة الخيول ينظرون ما يكون من الرجلين ، فتكافحا بسيفيهما مليا من نهارهما لا يصل واحد منهما الى صاحبه لكمال لأمته ، الى أن لحظ العباس وهنا في درع الشامي فأهوى اليه بيده وهتكه الى ثندؤته ، ثم عاد لمحاولته ، وقد أفرج له مفتق الدرع ، فضربه العباس ضربة انتظم بها جوانح صدره ، فخر الشامي لوجهه .

فكبر الناس تكبيرة ارتجت لها الأرض من تحتهم ، وانساب العباس في الناس . فاذا قائل يقول من ورائي : « قاتلوهم يعذبهم اللّه بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين » .

فالتفت فاذا بعلي رضي اللّه عنه ، فقال : يا ابن الأعز ، من المبارز لعدونا ؟

قلت : ابن أخيكم العباس بن ربيعة .

قال : وإنه لهو العباس ؟

قلت : نعم .

فقال : يا عباس ، ألم أنهك وعبد اللّه بن عباس أن تخلا بمركز أو تبارزا أحدا ؟

قال : إن ذلك كما قلت .

قال علي : فما عدا مما بدا ؟

قال : أفأدعى الى البراز فلا أجيب ؟

قال : طاعة امامك أولى بك من اجابة عدوك . وتغيظ واستطار ، ثم تطامن وسكن ، ورفع يديه مبتهلا ، فقال : اللهم اشكر للعباس مقامه ، واغفر ذنبه ، اللهم اني قد غفرت له فاغفر له .

وتأسف معاوية على عرار بن أدهم ، وقال : متى ينطق فحل بمثله أبطل دمه ، لا هاللّه ألا رجل يشري نفسه يطلب بدم عرار .

فانتدب له رجلان من لخم من أهل البأس ومن صناديد الشام ، فقال : اذهبا فأيكما قتل العباس فله مائة أوقية من التبر ومثلها من اللجين وبعددهما من برود اليمن .

فأتياه فدعواه الى البراز ، وصاحا بين الصفين : يا عباس ، يا عباس ، ابرز الى الداعي .

فقال : إن لي سيدا أريد أن اؤامره .

فأتى عليا وهو في جناح الميمنة يحرض الناس فأخبره الخبر ، فقال علي : واللّه لود معاوية أنه ما بقي من بني هاشم نافخ ضرمة الا طعن في بطنه اطفاء لنور اللّه « ويأبى اللّه ألا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » . أنا واللّه ليملكنهم منا رجال ورجال يسومونهم سوم الخسف حتى تعفو الآثار .

ثم قال : يا عباس ، ناقلني سلاحك بسلاحي .

فناقله ، ووثب على فرس العباس ، وقصد اللخميين ، فلم يشكا أنه العباس ، فقالا له : أذن لك صاحبك ؟

فتحرج أن يقول نعم ، فقال : « إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير » .

وكان العباس أشبه الناس في جسمه وركوبه بعلي . فبرز له أحدهما فما أخطأه ، ثم برز له الآخر فألحقه بالأول . ثم أقبل وهو يقول :

« الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

ثم قال : يا عباس ، خذ سلاحك وهات سلاحي ، فإن عاد لك أحد فعد لي .

ونما الخبر الى معاوية ، فقال : قبح اللّه اللجاج انه لعقور ما ركبته قط الا خذلت .

فقال عمرو بن العاص : المخذول واللّه اللخميان ، والمغرور من غررته ، لأنت المخذول .

قال : اسكت أيها الرجل فليس هذا من شأنك .

قال : وإن لم يكن ، رحم اللّه اللخميين ، ولا أراه يفعل .

قال : ذلك واللّه أضيق لحجتك وأخسر لصفقتك .

قال : قد علمت ذلك ، ولولا مصر وولايتها لركبت النجاة منها ، فاني أعلم أن علي ابن أبي طالب على الحق وأنت على ضده .

فقال معاوية : مصر واللّه أعمتك ، ولولا مصر لألفيتك بصيرا .

ثم ضحك معاوية ضحكا ذهب به كل مذهب .

قال : مم تضحك يا أمير المؤمنين أضحك الله سنك ؟

قال : أضحك من حضور ذهنك يوم بارزت عليا ، وابدائك سوأتك ، أما واللّه يا عمرو لقد واقعت المنايا ، ورأيت الموت عيانا ، ولو شاء لقتلك ، ولكن أبي ابن أبي طالب في قتلك الا تكرما .

فقال عمرو : أما واللّه اني لعن يمينك حين دعاك الى البراز فاحولت عيناك ، وبدا سحرك وبدا منك ما أكره ذكره لك ، فمن نفسك فاضحك أو دع .

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى أن معاوية برز في بعض أيام صفين أمام الناس وكر على ميسرة علي ، وكان علي فيها في ذلك الوقت يعبىء الناس ، فغير على لأمته وجواده ، وخرج بلأمة بعض اصحابه ، وصمد له معاوية ، فلما تدانيا انتبه معاوية فغمز برجليه على جواده وعلي وراءه ، حتى فاته ودخل في مصاف أهل الشام ، فأصاب علي رجلا من مصافهم دونه ، ثم رجع وهو يقول :

يا لهف نفسي فاتني معاوية فوق طمر كالعقاب الضارية

وقدم عمرو بن العاص من مصر على معاوية في بعض الأيام ، فلما رآه معاوية قال :

يموت الصالحون وأنت حي تخطاك المنايا لا تموت

فأجابه عمرو :

فلست بميت ما دمت حيا ولست بميت حتى تموت

وذكر أن معاوية لما نظر الى عسكر أهل العراق - وقد أشرفت وأخذت الرجال مراتبها من الصفوف - ونظر الى علي على فرس أشقر حاسر الرأس يرتب الصفوف كأنه يغرسهم في الأرض غرسا فيثبتون كأنهم بنيان مرصوص ، قال لعمرو : يا أبا عبد الله ، أما تنظر الى ابن أبي طالب وما هو عليه ؟

فقال له عمرو : من طلب عظيما خاطر بعظيم .

بسر بن أرطأة

وقد كان معاوية في سنة أربعين بعث بسر بن أرطاة في ثلاثة آلاف حتى قدم المدينة وعليها أبو أيوب الأنصاري فتنحى ، وجاء بسر حتى صعد المنبر وتهدد أهل المدينة بالقتل ، فأجابوه الى بيعة معاوية .

وبلغ الخبر عليا ، فأنفذ حارثة بن قدامة السعدي في ألفين ووهب بن مسعود في ألفين .

ومضى بسر الى مكة ، ثم سار الى اليمن ، وكان عُبيد الله بن العباس بها ، فخرج عنها ولحق بعلي واستخلف عليها عبد الله بن عبد المدان الحارثي ، وخلف ابنيه عبد الرحمن وقثم عند أمهما جويرية بنت قارظ الكناني ، فقتلهما بسر وقتل معهما خالا لهما من ثقيف .

وقد كان بسر بن أرطأة العامري - عامر بن لؤي بن غالب - قتل بالمدينة وبين المسجدين خلقا كثيرا من خزاعة وغيرهم ، وكذلك بالجرف قتل بها خلقا كثيرا من رجال همدان ، وقتل بصنعاء خلقا كثيرا من الأبناء ، ولم يبلغه عن أحد أنه يمالىء عليا أو يهواه الا قتله .

ونمى اليه خبر حارثة بن قدامة السعدي فهرب ، وظفر حارثة بابن أخي بسر مع أربعين من أهل بيته ، فقتلهم .

وكانت جويرية أم ابني عبيد الله بن العباس اللذين قتلهما بسر تدور حول البيت ناشرة شعرها ، وهي من أجمل النساء ، وهي تقول ترثيهما :

ها من أحسن من ابني اللذين هما — كالدرتين تشظى عنهما الصدف
هامن أحسن من ابني اللذين هما — سمعي وقلبي ، فعقلي اليوم مختطف
هامن أحسن من ابني اللذين هما — مخ العظام فمحي اليوم مزدهف
نبئت بسرا ، وماصدقت مازعموا — قولهم ومن الافك الذي وصفوا
أنحى على ودجي ابني مرهفة — مشحوذة ، وكذاك الاثم يقترف

بين معاوية وعمرو بن العاص ووردان

وذكر الواقدي قال : دخل عمرو بن العاص يوما على معاوية بعد ما كبر ودق ومعه مولاه وردان ، فأخذا في الحديث ، وليس عندهما غير وردان ، فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ، ما بقي مما تستلذه ؟

فقال : أما النساء فلا أرب لي فيهن ، وأما الثياب فقد لبست من لينها وجيدها حتى وهي بها جلدي فما أدري أيها ألين ، وأما الطعام فقد أكلت من لينه وطيبه حتى ما أدرى أيها ألذ وأطيب ، وأما الطيب فقد دخل خياشيمي منه حتى ما أدري أيه أطيب ، فما شيء لذ عندي من شراب بارد في يوم صائف ، ومن أن أنظر الى بني وبني بني يدورون حولي . فما بقي منك يا عمرو .

قال : مال أغرسه فأصيب من ثمرته ومن غلته .

فالتفت معاوية الى وردان فقال : ما بقي منك يا وردان .

قال : صنيعة كريمة سنية أعلقها في أعناق قوم ذوي فضل وأخطار لا يكافئونني بها حتى ألقى الله تعالى وتكون لعقبي في أعقابهم بعدي .

فقال معاوية : تبا لمجلسنا سائر هذا اليوم ، إن هذا العبد غلبني وغلبك .

وفاة عمرو بن العاص

وفي سنة ثلاث وأربعين مات عمرو بن العاص بن وائل بن سهم بن سعيد بن سعد بمصر ، وله تسعون سنة ، وكانت ولايته مصر عشر سنين وأربعة أشهر .

ولما حضرته الوفاة قال : اللهم لا براءة لي فأعتذر ، ولا قوة لي فأنتصر ، أمرتنا فعصينا ، ونهيتنا فركبنا ، اللهم هذه يدي الى ذقني .

ثم قال : خذوا لي في الأرض خدا ، وسنوا على التراب سنا .

ثم وضع اصبعه في فيه حتى مات ، وصلى عليه ابنه عبد اللّه يوم الفطر ، فبدأ بالصلاة عليه قبل صلاة العيد ، ثم صلى بالناس بعد ذلك صلاة العيد .

وكان أبوه من المستهزئين ، وفيه نزلت : « ان شانئك هو الأبتر » .

وولى معاوية ابنه عبد اللّه بن عمرو ما كان لأبيه .

تركته

وخلف عمرو من العين ثلثمائة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار ، ومن الورق ألف درهم ، وغلة مائتي ألف دينار بمصر ، وضيعته المعروفة بمصر بالوهط قيمتها عشرة آلاف ألف درهم .

وفيه يقول ابن الزبير الأسدي الشاعر من أبيات :

ألـم تر أن الدهـر أخنت صروفه   على عمرو السهمي تجبى له مصر
فلـم يغـن عنه حزمه واحتياله   ولا جمعـه لمـا أتيـح له الدهر
وأمسى مقيما بالعـراء وضللت   مكايـده عنه وأموالـه الدثر

***

وفي سنة خمس وأربعين ولى معاوية زياد بن أبيه البصرة وأعمالها ، وقال لما دخلها :

ألا رب مسـرور بنـا لا نسـره   وآخـر محـزون بنـا لا نضـره

وقد كان معاوية أغزى في هذه السنة سفيان بن عوف العامري ، وأمره أن يبلغ الطوانة ، فأصيب معه خلق من الناس ، فعم الناس الحزن بمن أصيب بأرض الروم ، وبلغ معاوية أن يزيد ابنه لما بلغه خبرهم وهو على شرابه مع ندمائه قال :

أهـون علي بما لاقت جموعهم يوم الـطوانة من حمى ومن موم
اذا اتكـأت على الأنماط مرتفقا بديـر مران عندي أم كلثوم

فحلف عليه ليغزون ، وأردف به سفيان ، فسميت هذه الغزاة غزاة الرادفة ، وبلغ الناس فيهـا الى القسطنطينيـة ، وفيهـا مات أبو أيـوب الأنصاري ودفن هناك على باب القسطنطينية .

أبو أيوب الأنصاري

واسم أبي أيوب خالد بن زيد . وقد قيل : إن أبا أيوب مات في سنة احدى وخمسين غازيا مع يزيد .

وقد أتينا على خبر هذه الغزاة وما كان من يزيد فيها في الكتاب الأوسط .

المغيرة بن شعبة

وفي سنة تسع وأربعين كان الطاعون بالكوفة فهرب منهـا المغـيرة بن شعبة ، وكـان واليها ، ثم عاد اليها فطعن فمات ، فمر أعرابي عليه وهو يدفن فقال :

أرسم ديـار للمغـيرة تعرف عليهـا ذوي الأنس والجن تعزف
فان كنت قد لاقيـت هامان بعدنا وفرعون فاعلم أن ذا العرش منصف

وذكر أن المغـيرة ركـب الى هند بنت النعمان بن المنذر ، وهـي في ديـر لها في الحيرة مترهبة ، وهو أمير الكوفة يومئذ ، وقد كانت هند عميت ، فلما جاء الدير استأذن عليها ، فأتتها جاريتها فقالت : هذا المغيرة يستأذن عليك .

فقالت للجارية : ألقي اليه أثاثا .

فألقت اليه وسادة من شعر ، فلما دخل قعد عليها ، وقال : أنا المغيرة .

فقالت له : قد عرفتك عامل المدرة ، فما جاء بك ؟

قال : أتيتك خاطبا اليك نفسك .

قالت : أما والصليب لو أردتني لدين أو جمال ما رجعت الا بخاجتك ، ولكني أخبرك الذي أردت ذلك له .

قال : وما هو ؟

قالت : أردت أن تتزوجني حتى تقوم في الموسم في العرب فتقول : تزوجت ابنة النعمان .

قال : ذلك أردت ، ولكن أخبريني ما كان أبوك يقول في هذا الحي من ثقيف ؟

قالت : كان ينسبهم في أياد . وقد افتخر عنده رجلان من ثقيف احدهما من بني سالم والآخر من بني يسار ، فسألهما عن أنسابهما فانتسب أحدهما الى هوازن والآخر الى اياد ، فقال أبي : ما لحي معد على أياد فضل .

فخرجا وأبي يقول :

إن ثقيفا لم تكن هوازنا ولم تناسب عامرا ومازنا

الا حديثا وافق المحاسنا

فقال المغيرة ؛ أما نحن فمن هوازن وأبوك أعلم .

قال : فأخبريني أي العرب كان أحب الى أبيك .

قالت : أطوعهم له .

قال : ومن اولئك ؟

قالت : بكر بن وائل .

قال : فأين بنو تميم ؟

قالت : ما استعنتهم في طاعة .

قال : فقيس ؟

قالت : ما اقتربوا اليه بما يحب الا استعقبوه بما يكره .

قال : فكيف أطاع فارس ؟

قالت : كانت طاعته اياهم فيما يهوى .

فانصرف المغيرة .

ولما هلك المغيرة ضم معاوية الكوفة الى زياد ، فكان أول من جمع له ولاية العراقين : البصرة والكوفة .

وفي سنة ثمان وأربعين قبض معاوية فدك من مروان بن الحكم ، وقد كان وهبها له قبل ذلك فاستردها .

وقد كان معاوية حج في سنة خمسين وأمر بحمل منبر النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة الى الشام ، فلما حمل كسفت الشمس ورؤيت الكواكب بالنهار ، فجزع من ذلك

وأعظمه ، ورده الى موضعه ، وزاد فيه ست مراقٍ .

موت زياد

وفي سنة ثلاث وخمسين هلك زياد بن أبيه بالكوفة في شهر رمضان ، وكان يكنى أبا المغيرة ، وقد كان كتب الى معاوية أنه قد ضبط العراق بيمينه ، وشماله فارغة ، فجمع له الحجاز مع العراقين .

واتصلت ولايته بأهل المدينة ، فاجتمع الصغير والكبير بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضجوا الى الله ، ولاذوا بقبر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ، لعلمهم بما هو عليه من الظلم والعسف .

فخرجت في كفه بثرة ثم حكها ثم سرت واسودت فصارت آكلة سوداء ، فهلك بذلك وهو ابن خمس وخمسين سنة ، وقيل : اثنتين وخمسين ، ودفن بالثوية من أرض الكوفة .

وقد كان زياد جمع الناس بالكوفة بباب قصره يحرضهم على لعن علي ، فمن أبى ذلك عرضه على السيف .

فذكر عبد الرحمن بن السائب قال : حضرت فصرت الى الرحبة ومعي جماعة من الأنصار ، فرأيت شيئا في منامي وأنا جالس في الجماعة ، وقد خفقت ، وهو أني رأيت شيئا طويلا قد أقبل ، فقلت : ما هذا ؟

فقال : أنا النقاد ذو الرقبة ، بعثت الى صاحب هذا القصر . فانتبهت فزعا ، فما كان الا مقدار ساعة حتى خرج خارج من القصر فقال : انصرفوا فان الأمير عنكم مشغول ، واذا به قد أصابه ما ذكرنا من البلاء .

وفي ذلك يقول عبد الله بن السائب من أبيات :

ما كان منتهيا عما أراد بنا ... حتى تأتى له النقاد ذو الرقبة
فأسقط الشق منه ضربة ثبتت ... لما تناول ظلما صاحب الرحبة

يعني بصاحب الرحبة علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وقد ذهب جماعة الى أن عليا دفن في القصر بالكوفة .

ويقال : إن زيادا طعن في يده ، وأنه شاور شريحا في قطعها فقال له : لك رزق مقسوم ، وأجل معلوم ، وإني أكره ان كانت لك مدة أن تعيش أجذم ، وإن حم أجلك أن تلقى ربك مقطوع اليد ، فاذا سألك لم قطعتها ؟ قلت : بغضا للقائك ، وفرارا من قضائك .

فلام الناس شريحا ، فقال لهم : إنه استشارني والمستشار مؤتمن ولولا أمانة المشورة لوددت أن الله قطع يده يوما ، ورجله يوما ، وسائر جسده يوما .

البيعة ليزيد

وفي سنة تسع وخمسين وفد على معاوية وفد الأمصار من العراق وغيرها ، فكان ممن وفد من أهل العراق الأحنف بن قيس في آخرين من وجوه الناس .

فقال معاوية للضحاك بن قيس : إني جالس من عد للناس فأتكلم بما شاء الله ، فاذا فرغت من كلامي فقل في يزيد الذي يحق عليك ، وادع الى بيعته ، فاني قد أمرت عبد الرحمن بن عثمان الثقفي وعبد الله بن عصاة الأشعري وثور بن معن السلمي أن يصدقوك في كلامك ، وأن يجيبوك الى الذي دعوتهم اليه .

فلما كان من الغد قعد معاوية فأعلم الناس بما رأى من حسن رعية يزيد ابنه وهديه وأن ذلك دعاه الى أن يوليه عهده ، ثم قام الضحاك بن قيس فأجابه الى ذلك ، وحض الناس على البيعة ليزيد ، وقال لمعاوية : اعزم على ما أردت .

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي وعبد الله بن عضاة الأشعري وثور بن معن فصدقوا قوله .

ثم قال معاوية : أين الأحنف بن قيس ؟

فقام الأحنف فقال : إن الناس قد أمسوا في منكر زمان قد سلف ، ومعروف زمان يؤتنف ، ويزيد حبيب قريب ، فان توله عهدك فعن غير كبر مفن ، أو مرض مضن ، وقد حلبت الدهور ، وجربت الأمور ، فاعرف من تسند اليه عهدك ، ومن توليه الأمر من بعدك ، واعص رأي من يأمرك ولا يقدر لك ، ويشير عليك ولا ينظر لك .

فقام الضحاك بن قيس مغضبا فذكر أهل العراق بالشقاق والنفاق ، وقال : اردد رأيهم في نحورهم .

وقام عبد الرحمن بن عثمان فتكلم بنحو كلام الضحاك .

ثم قام رجل من الأزد ، فأشار الى معاوية وقال : أنت أمير المؤمنين ، فاذا مت فأمير المؤمنين يزيد ، فمن أبى هذا فهذا (وأخذ بقائم سيفه فسله) .

فقال له معاوية : اقعد فانت من أخطب الناس .

فكان معاوية أول من بايع ليزيد ابنه بولاية العهد ، وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن همام السلولي :

فان تأتوا برملة أو بهند   نبايعها أميرة مؤمنينا

اذا ما مات كسرى قام كسرى نعــد ثــلاثــة متناسقينا
فيــا لهفا لــو ان لنا أنوفا ولكــن لا نعــود كما عنينا
اذن لضــربتم حتى تعودوا بمكــة تلعقون بها السحينا
خشينا الغيــظ حتى لو شربنا دماء بني أميــة ما روينا
لقد ضاعــت رعيتكــم وأنتم تصيــدون الأرانب غافلينا

وأنفذت الكتب ببيعة يزيد الى الأمصار ، وكتب معاوية الى مروان بن الحكم ـ وكان عامله على المدينة ـ يعلمه باختياره يزيد ، ومبايعته اياه بولاية العهـد ، ويـأمره بمبايعته ، وأخذ البيعة له على من قبله .

فلما قرأ مروان ذلك خرج مغضبا في أهل بيته وأخواله من بني كنانة ، حتى أتى دمشق فنزلها ، ودخل على معاوية يمشي بين السماطين ، حتى اذا كان منه بقدر ما يسمعـه صوته سلم ، وتكلم بكلام كثير يوبخ به معاوية ، منه : أقم الأمور يا ابن أبي سفيان ؛ واعدل عن تأميرك الصبيان ، واعلم أن لك من قومك نظراء ، وأن لك على مناوأتهم وزراء .

فقال له معاوية : أنت نظير أمير المؤمنين ، وعدته في كل شديدة ، وعضده ، والثاني بعد ولي عهده .

وجعله ولي عهد يزيد ، ورده الى المدينة ، ثم انه عزله عنها ، وولاها الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان ، ولم يف لمروان بما جعل له من ولاية عهد يزيد بن معاوية .

ذكر جُمَل مِن أخلاقِهِ وَسِيَاسَتِهِ
وَطرائف مِن عيُون أخبَارِه

قد ذكرنا فيا تقدم جملا من أخبار معاوية وسيره ، فلنذكر الآن في هذا الباب جملا من أخلاقه وسياساته وأخباره ، وغير ذلك مما لحق هذا المعنى الى وفاته .

من أخلاق معاوية وعاداته

كان من أخلاق معاوية أنه كان يأذن في اليوم والليلة خمس مرات . كان اذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه ، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ جزأه ، ثم يدخل الى منزله فيأمر وينهي، ثم يصلي أربع ركعات، ثم يخرج الى مجلسه، فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويحدثونه ، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم الى العشي .

ثم يؤتى بالغداء الأصغر ـ وهو فضلة عشائه من جدي بارد أو فرخ أو ما يشبهه ـ ثم يتحدث طويلا ، ثم يدخل منزله لما أراد .

ثم يخرج فيقول : يا غلام ، أخرج الكرسي ، فيخرج الى المسجد فيوضع فيسند ظهره الى المقصورة ويجلس على الكرسي ، ويقوم الأحراس ، فيتقدم اليه الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له ، فيقول ظلمت .

فيقول : أعزوه .

ويقول : عدي علي .

فيقول : ابعثوا معه .

ويقول : صنع بي .

فيقول : انظروا في أمره . . . حتى اذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير .

ثم يقول : ائذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلني أحد عن رد السلام .

فيقال : كيف أصبح أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ؟

فيقول : بنعمة من الله .

فاذا استووا جلوسا قال : يا هؤلاء ، انما سميتم أشرافا ، لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس ، ارفعوا الينا حوائج من لا يصل الينا .

فيقوم الرجل فيقول : استشهد فلان .

فيقول : افرضوا لولده .

ويقول آخر : غاب فلان عن أهله .

فيقول : تعاهدوهم ، أعطوهم ، اقضوا حوائجهم ،اخدموهم .

ثم يؤتى بالغداء ، ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه ، ويقدم الرجل فيقول له : اجلس على المائدة ، فيجلس ، فيمد يده فيأكل لقمتين او ثلاثا ـ والكاتب يقرأ كتابه ـ فيأمر فيه بأمره ، فيقال : يا عبد الله أعقب .

فيقوم ويتقدم آخر . . . حتى يأتي على أصحاب الحوائج كلهم ، وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء .

ثم يرفع الغداء ويقال للناس : أجيزوا . فينصرفون ، فيدخل منزله ، فلا يطمع فيه طامع .

حتى ينادى بالظهر ، فيخرج فيصلي ثم يدخل فيصلي أربع ركعات ، ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة .

فإن كان الوقت وقت شتاء أتاهم بزاد الحاج من الأخبصة اليابسة والخشكنانج والأقراص المعجونة باللبن والسكر والدقيق السميذ والكعك المسمن والفواكه اليابسة والذانجوج وان كان وقت صيف أتاهم بالفواكه الرطبة .

ويدخل اليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا اليه بقية يومهم ، ويجلس الى العصر ، ثم يخرج فيصلي العصر ، ثم يدخل الى منزله فلا يطمع فيه طامع .

حتى اذا كان في آخر أوقات العصر خرج فجلس على سريره ويؤذن للناس على منازلهم ، فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ما ينادى بالمغرب ، ولا ينادي له أصحاب الحوائج .

ثم يرفع العشاء وينادى بالمغرب فيخرج فيصليها ثم يصلي بعدها أربع ركعات يقرأ في كل ركعة خمسين آية ، يجهر تارة ويخافت أخرى .

ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع ، حتى ينادى بالعشاء الآخرة فيخرج فيصلي ، ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية ، فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدرا من ليلتهم .

ويستمر الى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة .

ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر دفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه

كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات .

ثم يخرج فيصلي الصبح ، ثم يعودِ فيفعل ما وصفنا في كل يوم .

وقد كان هم بأخلاقه جماعة بعده مثل عبد الملك بن مروان وغيره فلم يدركوا حلمه ، ولا اتقانه للسياسة ، ولا التأني للأمور ، ولا مداراته للناس على منازلهم ، ورفقه بهم على طبقاتهم .

من دهاء معاوية

وبلغ من احكامه للسياسة واتقانه لها واجتذابه قلوب خواصه وعوامه أن رجلا من أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق في حال منصرفهم عن صفين ، فتعلق به رجل من دمشق فقال : هذه ناقتي ، أخذت مني بصفين .

فارتفع أمرهما الى معاوية ، وأقام الدمشقي خمسين رجلا بينة يشهدون انها ناقته ، فقضى معاوية على الكوفي ، وأمره بتسليم البعير اليه .

فقال الكوفي : أصلحك الله ، انه جمل وليس بناقة .

فقال معاوية : هذا حكم قد مضى .

ودس الى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره ، وسأله عن ثمن بعيره ، فدفع اليه ضعفه ، وبره وأحسن اليه ، وقال له : أبلغ عليا أني أقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل .

وقد بلغ من أمرهم في طاعته أنه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة في يوم الأربعاء ، وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها ، وركنوا الى قول عمرو بن العاص : ان عليا هو الذي قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته ، ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته الى أن جعلوا لعن علي سنة ، ينشأ عليها الصغير ، ويهلك عليها الكبير .

من غفلة أهل الشام والعراق

قال المسعودي : وذكر بعض الأخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأي والعقل منهم : من أبو تراب هذا الذي يلعنه الامام على المنبر ؟

قال : أراه لصا من لصوص الفتن .

وحكى الجاحظ قال : سمعت رجلا من العامة وهو حاج وقد ذكر له البيت يقول : اذا أتيته من يكلمني منه ؟

وأنه أخبره صديق له أنه قال له رجل منهم وقد سمعه يصلي على محمد صلى الله عليه وسلم : ما تقول في محمد هذا ؟ أربنا هو ؟

وذكر ثمامة بن أشرس قال : كنت مارا في السوق ببغداد ، فاذا أنا برجل عليه الناس مجتمعون ، فنزلت عن بغلتي وقلت : لشيء ما هذا الاجتماع ، ودخلت بين الناس ، واذا برجل يصف كحلا معه أنه ينجح من كل داء يصيب العين ، فنظرت فاذا عينه الواحدة برشاء والأخرى مأسوكة ، فقلت له : يا هذا ، لو كان كحلك كما تقول نفع عينيك .

فقال لي : يا جاهل ، أهاهنا اشتكت عيناي ؟انما اشتكتا بمصر .

فقال كلهم : صدق .

وذكر أنه ما انفلت من نعالهم الا بعد كد .

وذكر لي بعض اخواني ان رجلا من العامة بمدينة السلام رفع الى بعض الولاة الطالبين لأصحاب الكلام على جار له أنه يتزندق ، فسأله الوالي عن مذهب الرجل ، فقال : انه مرجىء قدري ناصبي رافضي .

فلما قصه عن ذلك قال : انه يبغض معاوية بن الخطاب الذي قاتل علي بن العاص ، فقال له الوالي : ما أدري على أي شيء أحسدك : على علمك بالمقالات ، أو على بصرك بالأنساب ؟!

وأخبرني رجل من اخواننا من أهل العلم ، قال : كنا نقعد نتناظر في أبي بكر وعمر وعلي ومعاوية ، ونذكر ما يذكره أهل العلم ، وكان قوم من العامة يأتون فيستمعون منا ، فقال لي ذات يوم بعضهم وكان من أعقلهم وكبرهم لحية : كم تطنبون في علي ومعاوية وفلان وفلان .

قلت : فما تقول أنت في ذلك ؟

قال : من تريد ؟

قلت : علي ، ما تقول فيه !

قال : أليس هو أبو فاطمة ؟

قلت : ومن كانت فاطمة !

قال : امرأة النبي عليه السلام بنت عائشة أخت معاوية .

قلت : فما كانت قصة علي ؟

قال : قتل في عزاة حنين مع النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد كان عبد الله بن على حين خرج في طلب مروان الى الشام ، وكان من قصة مروان ومقتله ما قد ذكر ، ونزل عبد الله بن علي الشام ، ووجه الى أبي العباس السفاح أشياخا من أهل من أرباب النعم والرياسة ، من سائر أجناد الشام ، فحلفوا لأبي العباس السفاح أنهم

ما علموا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى وليتم الخلافة .

فقال في ذلك ابراهيم بن المهاجر البجلي :

أيها الناس اسمعوا أخبركم عجبا زاد على كل العجب
عجبا من عبد شمس ، انهم فتحوا للناس أبواب الكذب
ورثوا أحمد فيما زعموا دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا واللّه ما نعلمه يحرز الميراث الا من قرب

متطبب في عهد الرشيد

وقد كان ببغداد رجل في أيام هارون الرشيد متطبب يطبب العامة بصفاته ، وكان دهريا ، يظهر أنه من أهل السنة والجماعة ، ويلعن أهل البدع ، ويعرف بالسني تنقاد اليه العامة . فكان يجتمع أليه في كل يوم بقوارير الماء خلق من الناس ، فاذا اجتمعوا وثب قائما على قدميه فقال لهم : معاشر المسلمين ، قلتم لا ضار ولا نافع الا اللّه فلأي شيء مصيركم الي تسأولنني عن مضاركم ومنافعكم ؟ الجأوا الى ربكم ، وتوكلوا على بارئكم حتى يكون فعلكم مثل قولكم .

فيقبل بعضهم على بعض فيقولون : اي واللّه قد صدقنا ، فكم من مريض لم يعالج حتى مات ، ومنهم من كان يتركه حتى يسكن ثم يريه الماء فيصف له الدواء ، فيقول : ايمانك ضعيف ، ولولا ذلك لتوكلت على اللّه كما أمرضك فهو يبرئك ، فكان يقتل بقوله هذا خلقا كثيرا لتزهيده اياهم في معالجة مرضاهم .

من أخلاق العامة

ومن أخلاق العامة أن يسودوا غير السيد ، ويفضلوا غير الفاضل ، ويقولوا بعلم غير العالم ، وهم أتباع من سبق اليهم من غير تمييز بين الفاضل والمفضول ، والفضل والنقصان ، ولا معرفة للحق من الباطل عندهم .

ثم انظر هل ترى اذا اعتبرت ما ذكرنا ونظرت في مجالس العلماء ، هل تشاهدها الا مشحونة بالخاصة من أولي التمييز والمروءة والحجا ، وتفقد العامة في احتشادها وجموعها ، فلا تراهم الدهر الا مرقلين الى قائد دب ، وضارب بدف على سياسة قرد ، أو متشوقين الى اللهو واللعب ، أو مختلفين الى مشعبذ متنمس ممخرق ، أو مستمعين الى قاص كذاب ، أو

مجتمعين حول مضروب، أو وقوفا عند مصلوب: ينعق بهم فيتبعون، ويصاح بهم فلا يرتدعون ، لا ينكرون منكرا ، ولا يعرفون معروفا ، ولا يبالون أن يلحقوا البار بالفاجر ، والمؤمن بالكافر .

وقد بين ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فيهم حيث يقول « الناس اثنان : عالم ومتعلم ، وما عدا ذلك همج رعاع لا يعبأ اللّه بهم » .

وكذلك ذكر عن علي وقد سئل عن العامة فقال : همج رعاع أتباع كل ناعق ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا الى ركن وثيق .

وأجمع الناس في تسميتهم على أنهم غوغاء ، وهم الذين اذا اجتمعوا غلبوا ، واذا تفرقوا لم يعرفوا .

ثم تدبر تفرقهم في أحوالهم ومذاهبهم ، فانظر الى اجماع ملئهم ، ان رسول الله صلى اللّه عليه وسلم أقام يدعو الخلق الى اللّه اثنتين وعشرين سنة وهو ينزل عليه الوحي ويمليه على أصحابه فيكتبونه ويدونونه ، ويلتقطونه لفظة لفظة ، وكان معاوية في هذه المدة بحيث علم اللّه ، ثم كتب له ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ قبل وفاته بشهور ، فأشادوا بذكره ، ورفعوا من منزلته بأن جعلوه كاتبا للوحي ، وعظموه بهذه الكلمة ، وأضافوه اليها ، وسلبوها عن غيره ، وأسقطوا ذكر سواه .

كلام في العادة

وأصل ذلك العادة والالف ، وما ولدوا عليه ، وما نشأوا فيه ، فألفوا وقت التحصيل والبلوغ . وقد عملت العادة عملها ، وبلغت مبالغها .

وفي العادة قالت الشعراء وتكلم أهل الدراية والأدباء ، قال الشاعر :

لا تهني بعد اذ أكرمتني فشديد عادة منتزعة

وقال آخر معاتبا لصاحبه :

ولكن فطام النفس أثقل محملا من الصخرةالصماء حين ترومها

وقد قالت حكماء العرب : العادة أملك بالأرب .

وقالت حكماء العجم : العادة هي الطبيعة الثانية .

وقد صنف أبو عقال الكاتب كتابا في أخلاق العوام يصف فيه أخلاقهم وشيمهم ومخاطباتهم ، وسماه بالملهى . ولولا أني أكره التطويل والخروج عما قصدنا اليه في هذا الكتاب من الايجاز ، لشرحت من نوادر العامة وأخلاقها ، وظرائف أفعالها عجائب ، ولذكرت مراتب الناس في أخلاقهم وتصرفهم في أحوالهم .

فلنرجع الآن الى أخبار معاوية وسياسته ، وما أوسع الناس من أخلاقه ، وما أفاض عليهم من بره وعطائه ، وشملهم من احسانه ، مما اجتذب به القلوب ، واستدعى به النفوس ، حتى آثروه على الأهل والقرابات .

بين معاوية وعقيل بن أبي طالب

من ذلك أنه وفد عليه عقيل بن أبي طالب منتجعا وزائرا ، فرحب به معاوية ، وسر بوروده ، لاختياره اياه على أخيه ، وأوسعه حلما واحتمالا ، فقال له : يا أبا يزيد ، كيف تركت عليا ؟

قال : تركته على ما يحب اللّه ورسوله ، وألفيتك على ما يكره اللّه ورسوله .

فقال له معاوية : لولا أنك زائرمنتجع جنابنا لرددت عليك أبا يزيد جوابا تألم منه .

ثم أحب معاوية أن يقطع كلامه مخافة أن يأتي بشيء يخفضه ، فوثب عن مجلسه ، وأمر له بنزل وحمل اليه مالا عظيما

فلما كان من غد جلس وأرسل اليه فأتاه ، فقال له : يا أبا يزيد ، كيف تركت عليا أخاك ؟

قال : تركته خيرا لنفسه منك ، وأنت خير لي منه .

فقال له معاوية : أنت واللّه كما قال الشاعر :

واذا عددت فخار آل محرق ... فالمجد منهم في بني عتاب

فمحل المجد من بني هاشم منوط فيك ، يا أبا يزيد ما تغيرك الأيام والليالي .

فقال عقيل :

اصبر لحرب أنت جانيها ... لا بد أن تصلى بحاميها

وأنت واللّه يا ابن أبي سفيان كما قال الآخر :

واذا هوازن أقبلت بفخارها يوما فخرتهم بآل مجاشع
بالحاملين على الموالي غرمهم والضاربين الهام يوم الفازع

ولكن أنت يا معاوية اذا افتخرت بنو أمية فبمن تفخر ؟

فقال معاوية : عزمت عليك ياأبا يزيد لما أمسكت ، فاني لم أجلس لهذا ، وانما أردت أن أسألك عن أصحاب علي فانك ذو معرفة بهم .

فقال عقيل : سل عما بدا لك .

فقال : ميز لي أصحاب علي ، وابدأ بآل صوحان فانهم مخاريق الكلام .

قال : أما صعصعة فعظيم الشان ، عضب اللسان ، قائد فرسان ، قاتل أقران ، يرتق ما فتق ، ويفتق ما رتق ، قليل النظير . وأما زيد وعبد اللّه فانهما نهران جاريان ، يصب فيهما الخلجان ، ويغاث بهما البلدان ، رجلا جد لا لعب معه . وبنو صوحان كما قال الشاعر :

اذا نزل العدو فان عندي أسودا تخلس الأسد النفوسا

من صعصعة الى عقيل

فاتصل كلام عقيل بصعصعة فكتب اليه « بسم اللّه الرحمن الرحيم ، ذكر اللّه أكبر ، وبه يستفتح المستفتحون ، وأنتم مفاتيح الدنيا والآخرة .

« أما بعد ، فقد بلغ مولاك كلامك لعدو اللّه وعدو رسوله ، فحمدت اللّه على ذلك ، وسألته أن يفيء بك الى الدرجة العليا ، والقضيب الأحمر ، والعمود الأسود ، فانه عمود من فارقه فارق الدين الأزهر .

« ولئن نزعت بك نفسك الى معاوية طلبا لماله انك لذو علم بجميع خصاله ، فاحذر أن تعلق بك ناره فيضلك عن الحجة ، فان اللّه قد رفع عنكم أهل البيت ما وضعه في غيركم ، فما كان من فضل أو احسان فيكم وصل الينا .

« فأجل اللّه أقداركم ، وحمى أخطاركم ، وكتب آثاركم ، فان أقداركم مرضية ، وأخطاركم محمية ، وآثاركم بدرية ، وأنتم سلم الله الى خلقه ، ووسيلته الى طرقه ، أيد علية ، ووجوه جلية ، وأنتم كما قال الشاعر :

فما كان من خير أتوه فانما توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطي الا وشيجه وتغرس الا في منابتها النخل

بين علي ووجوه اصحابه

وحدث الهيثم عن أبي سفيان عمرو بن يزيد ، عن البراء بن يزيد ، عن محمد بن عبد الله بن الحارث الطائي ثم أحد بني عفان ، قال : لما انصرف علي من الجمل قال لآذنه : من بالباب من وجوه العرب ؟.

قال : محمد بن عمير بن عطارد التيمي والأحنف بن قيس وصعصعة بن صوحان العبدي ، في رجال سماهم .

فقال : ائذن لهم .

فدخلوا فسلموا عليه بالخلافة ، فقال لهم : أنتم وجوه العرب عندي ، ورؤساء أصحابي ، فأشيروا علي في أمر هذا الغلام المترف ، يعني معاوية .

فافتنت بهم المشورة عليه ، فقال صعصعة : ان معاوية أترفه الهوى ، وحببت اليه الدنيا ، فهانت عليه مصارع الرجال ، وابتاع آخرته بدنياهم ، فان تعمل فيه برأي ترشد وتصب ، ان شاء الله ، والتوفيق بالله وبرسوله وبك يا أمير المؤمنين . والرأي أن ترسل له عينا من عيونك ، وثقة من ثقاتك ، بكتاب تدعوه الى بيعتك ، فان أجاب وأناب كان له مالك وعليه ما عليك ، والا جاهدته وصبرت لقضاء الله حتى يأتيك اليقين .

فقال علي : عزمت عليك يا صعصعة الا كتبت الكتاب بيديك ، وتوجهت به الى معاوية ، واجعل صدر الكتاب تحذيرا وتخويفا ، وعجزه استتابة واستنابة ، وليكن فاتحة الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله علي أمير المؤمنين الى معاوية ، سلام عليك ، أما بعد » ثم اكتب ما أشرت به علي ، واجعل عنوان الكتاب « ألا الى الله تصير الأمور » .

قال : اعفني من ذلك .

قال : عزمت عليك لتفعلن .

قال : افعل .

فخرج بالكتاب وتجهز وسار حتى ورد دمشق ، فأتى باب معاوية فقال لآذنه : استأذن لرسول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وبالباب أزفلة[1] من بني أمية ، فأخذته الأيدي والنعال لقوله وهو يقول : « أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله » .

وكثرت الجلبة واللغط ، فاتصل ذلك بمعاوية فوجه من يكشف الناس عنه ، فكشفوا ، ثم أذن لهم فدخلوا ، فقال لهم : من هذا الرجل ؟

---

(١) الأزفلة : الجماعة .

فقالوا : رجل من العرب يقال له صعصعة بن صوحان معه كتاب من علي .

فقال : والله لقد بلغني أمره ، هذا أحد سهام علي وخطباء العرب ، ولقد كنت الى لقائه شيقا ، ائذن له يا غلام .

فدخل عليه فقال : السلام عليك يا ابن أبي سفيان ، هذا كتاب أمير المؤمنين .

فقال معاوية : أما انه لو كانت الرسل تقتل في جاهلية أو اسلام لقتلتك .

ثم اعترضه معاوية في الكلام ، وأراد أن يستخرجه ليعرف قريحته أطبعا أم تكلفا ، فقال : ممن الرجل ؟

قال : من نزار .

قال : وما كان نزار ؟

قال : كان اذا غزا نكس ، واذا لقي افترس ، واذا انصرف احترس .

قال : فمن أي أولاده أنت ؟

قال : من ربيعة .

قال : وما كان ربيعة .

قال : كان يطيل النجاد ، ويعول العباد ، ويضرب ببقاع الأرض العماد .

قال : فمن أي أولاده أنت ؟

قال : من جديلة .

قال : وما كان جديلة ؟

قال : كان في الحرب سيفا قاطعا ، وفي المكرمات غيثا نافعا ، وفي اللقاء لهبا ساطعا .

قال : فمن أي أولاده أنت ؟

قال : من عبد القيس .

قال : وما كان عبد القيس ؟

قال : كان خصيبا خضرما أبيض وهابا لضيفه ما يجد ، ولا يسأل عما فقد ، كثير المرق ، طيب العرق ، يقوم للناس مقام الغيث من السماء .

قال : ويحك يا ابن صوحان ، فما تركت لهذا الحي من قريش مجدا ولا فخرا .

قال : بلى والله يا ابن أبي سفيان ، تركت لهم ما لا يصلح الا بهم ، ولهم تركت الأبيض والأحمر والأصفر والأشقر ، والسرير والمنبر ، والملك الى المحشر ، وأنى لا يكون ذلك كذلك وهم منار الله في الأرض ونجومه في السماء ؟

ففرح معاوية وظن أن كلامه يشتمل على قريش كلها ، فقال : صدقت يا ابن صوحان ، ان ذلك لكذلك .

فعرف صعصعة ما أراد ، فقال : ليس لك ولا لقومك في ذلك اصدار ولا ايراد ، بعدتم عن أنف المرعى ، وعلوتم عن عذب الماء .

قال : فلم ذلك ويلك يا ابن صوحان ؟!

قال : الويل لأهل النار ، ذلك لبني هاشم .

قال : قم ، فأخرجوه .

فقال صعصعة : الصدق ينبيء عنك لا الوعيد ، من أراد المشاجرة قبل المحاورة .

فقال معاوية : لشيء ما سوده قومه ، وددت والله أني من صلبه .

ثم التفت الى بني أمية فقال : هكذا فلتكن الرجال .

معاوية وجماعة من أصحاب علي

وحدث منصور بن وحشي ، عن أبي الفياض عبد الله بن محمد الهاشمي ، عن الوليد ابن البختري العبسي، عن الحارث بن مسمار البهراني ، قال : حبس معاوية صعصعة بن صوحان العبدي وعبد الله بن الكواء اليشكري ورجالا من أصحاب علي مع رجال من قريش ، فدخل عليهم معاوية يوما فقال : نشدتكم بالله الا ما قلتم حقا وصدقا ، أي الخلفاء رأيتموني ؟

فقال ابن الكواء : لولا أنك عزمت علينا ما قلنا لأنك جبار عنيد ، لا تراقب الله في قتل الأخيار ، ولكنا نقول : انك ـ ما علمنا ـ واسع الدنيا ، ضيق الآخرة ، قريب الثرى ، بعيد المرعى ، تجعل الظلمات نورا ، والنور ظلمات .

فقال معاوية : ان الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام الذابين عن بيضته ، التاركين لمحارمه ، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق المنتهكين لمحارم الله ، والمحلين ما حرم الله ، والمحرمين ما أحل الله .

فقال عبد الله بن الكواء : يا ابن أبي سفيان ان لكل كلام جوابا ، ونحن نخاف جبروتك ، فان كنت تطلق السنتنا ذببنا عن أهل العراق بألسنة حداد لا تأخذها في الله لومة لائم ، والا فانا صابرون حتى يحكم الله ويضعنا على فرجه .

قال : والله لا يطلق لك لسان .

ثم تكلم صعصعة فقال : تكلمت يا ابن أبي سفيان فأبلغت ، ولم تقصر عما أردت ، وليس الأمر على ما ذكرت ، أنى يكون الخليفة من ملك الناس قهرا ، ودانهم كبرا ، واستولى بأسباب الباطل كذبا ومكرا ؟ أما والله ما لك في يوم بدر مضرب ولا مرمى ، وما كنت فيه الا كما قال القائل : « لا حلى ولا سيرى » ، ولقد كنت أنت وأبوك في العير

والنفير ممن أجلب على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وانما أنت طليق ابن طليق ، أطلقكما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنى تصلح الخلافة لطليق ؟

فقال معاوية : لولا أني أرجع الى قول أبي طالب حيث يقول :

قابلت جهلهم حلما ومغفرة والعفوعن قدرةضرب من الكرم

لقتلتكم .

صعصعة بن صوحان عند معاوية
يصف له اهل الثغور

وحدث أبو جعفر محمد بن حبيب ، قال : أبو الهيثم يزيد بن رجاء الغنوي قال : أخبرنا الوليد بن البختري ، عن أبيه ، عن ابن مردوع الكلبي قال : دخل صعصعة بن صوحان العبدي على معاوية ، فقال له : يا ابن صوحان ، أنت ذو معرفة بالعرب وبحالها ، فأخبرني عن أهل البصرة ، واياك والحمل على قوم لقوم .

قال : البصرة واسطة العرب ، ومنتهى الشرف والسؤدد ، وهم أهل الخطط في أول الدهر وآخره ، وقد دارت بهم سروات العرب كدوران الرحا على قطبها .

قال : فأخبرني عن أهل الكوفة .

فقال : قبة الاسلام ، وذروة الكلام ، ومظان ذوي الأعلام ، الا أن بها أجلافا تمنع ذوي الأمر الطاعة ، وتخرجهم عن الجماعة ، وتلك أخلاق ذوي الهيئة والقناعة .

قال : فأخبرني عن أهل الحجاز .

قال : أسرع الناس الى فتنة ، وأضعفهم عنها ، وأقلهم غناء فيها ، غير أن لهم ثباتا في الدين ، وتمسكا بعروة اليقين ، يتبعون الأئمة الأبرار ، ويخلعون الفسقة الفجار .

فقال معاوية : من البررة والفسقة ؟

فقال : يا ابن أبي سفيان ، ترك الخداع من كشف القناع ، علي وأصحابه من الأئمة الأبرار ، وأنت وأصحابك من اولئك .

ثم أحب معاوية أن يمضي صعصعة في كلامه بعد أن بان فيه الغضب ، فقال : أخبرني عن القبة الحمراء في ديار مضر .

قال : أسد مضر بسلان بين غيلين ، اذا أرسلتها افترست ، واذا تركتها احترست .

فقال معاوية : هنالك يا ابن صوحان العز الراسي ، فهل في قومك مثل هذا ؟

قال : هذا لأهله دونك يا ابن أبي سفيان ، ومن أحب قوما حشر معهم .

قال : فأخبرني عن ديار ربيعة ولا يستخفنك الجهل وسابقة الحمية بالتعصب لقومك .

قال : والله ما أنا عنهم براض ، ولكني أقول فيهم وعليهم : هم والله أعلام الليل ، وأذناب في الدين والميل ، لن تغلب رايتها اذا رسخت ، خوارج الدين ، برازخ اليقين ، من نصروه فلج ، ومن خذلوه زلج .

قال : فأخبرني عن مضر .

قال : كنانة العرب ، ومعدن العز والحسب ، يقذف البحر بها آذيه ، والبر رديه .

ثم أمسك معاوية ، فقال له صعصعة : سل يا معاوية ، والا أخبرتك بما تحيد عنه .

قال : وما ذاك يا ابن صوحان ؟

قال : أهل الشام .

قال : فأخبرني عنهم .

قال : أطوع الناس للمخلوق وأعصاهم للخالق ، عصاة الجبار ، وخلفة الأشرار ، فعليهم الدمار ، ولهم سوء الدار .

فقال معاوية : والله يا ابن صوحان انك لحامل مديتك منذ أزمان ، الا أن حلم ابن أبي سفيان يرد عنك .

فقال صعصعة : بل أمر الله وقدرته ، ان أمر الله كان قدرا مقدورا .

صعصعة أيضا

وحدث أبو الهيثم قال : حدثني أبو البشير محمد بن بشر الفزاري ، عن ابراهيم بن عقيل البصري ، قال : قال معاوية يوما وعنده صعصعة ، وكان قد قدم عليه بكتاب علي ، وعنده وجوه الناس : الأرض لله ، وأنا خليفة الله ، فما آخذ من مال الله فهو لي ، وما تركت منه كان جائزا لي .

فقال صعصعة :

تمنيك نفسك ما لا يكو ن جهلا معاوي لا تأثم

فقال معاوية : يا صعصعة ، تعلمت الكلام .

قال : العلم بالتعلم ، ومن لا يعلم يجهل .

قال معاوية : ما أحوجك الى أن أذيقك وبال أمرك .

قال : ليس ذلك بيدك ، ذلك بيد الذي لا يؤخر نفسا اذا جاء أجلها .

قال : ومن يحول بيني وبينك ؟
قال : الذي يحول بين المرء وقلبه .
قال معاوية : اتسع بطنك للكلام كما اتسع بطن البعير للشعير .
قال : اتسع بطن من لا يشبع ، ودعا عليه من لا يجمع .

***

من أخبار صعصعة

قال المسعودي : ولصعصعة بن صوحان أخبار حسان ، وكلام في نهاية البلاغة والفصاحة والايضاح عن المعاني ، على ايجاز واختصار .

ومن ذلك خبره مع عبد الله بن العباس ، وهو ما حدث به المدائني ، عن زيد بن طليح الذهلي الشيباني ، قال : أخبرني أبي ، عن مصقلة بن هبيرة الشيباني ، قال : سمعت صعصعة بن صوحان وقد سأله ابن عباس : ما السؤدد فيكم ؟

فقال : اطعام الطعام ، ولين الكلام ، وبذل النوال ، وكف المرء نفسه عن السؤال والتودد للصغير والكبير ، وأن يكون الناس عندك شرعا .

قال : فما المروءة ؟

قال : أخوان اجتمعا ، فان لقيا قهرا ، حارسها قليل ، وصاحبها جليل ، يحتاجان الى صيانة مع نزاهة وديانة .

قال : فهل تحفظ في ذلك شعرا ؟

قال : نعم ، أما سمعت قول مرة بن ذهل بن شيبان حيث يقول :

ان السيادة والمروءة علقا — حيث السماء من السماك الأعزل
وإذا تقابل مجريان لغاية — عثر الهجين وأسلمته الأرجل
ويجي الصريح مع العتاق معودا — قرب الجياد فلم يجئه الأفكل

في أبيات .

فقال ابن عباس : لو أن رجلا ضرب آباط ابله مشرقا ومغربا لفائدة هذه الأبيات ما عنفته . أنا منك يا ابن صوحان لعلى علم وحكم واستنباط ما قد عفا من أخبار العرب ، فمن الحكيم فيكم ؟

قال : من ملك غضبه فلم يعجل ، وسعى اليه بحق أو باطل فلم يقبل ، ووجد قاتل

أبيه وأخيه فصفح ولم يقتل ، ذلك الحكيم يا ابن عباس .

قال : فهل تجد ذلك فيكم كثيرا ؟

قال : ولا قليلا ، وانما وصفت لك أقواما لا تجدهم الا خاشعين راهبين لله مريدين ، ينيلون ولا ينالون ، فأما الآخرون فانهم سبق جهلهم حلمهم ، ولا يبالي أحدهم اذا ظفر ببغيته ، ولو وتره أبوه لقتل أباه ، أو أخوه لقتل أخاه . أما سمعت الى قول زبان بن عمرو ابن زبان .

وذلك أن عمرا أباه قتله مالك بن كومة ، فأقام زبان زمانا ، ثم غزا مالكا ، فأتاه في مائتي فارس صباحا وهو في أربعين بيتا فقتله ، وقتل أصحابه وقتل عمه فيمن قتل ، ويقال : بل كان أخاه ، وذلك أنه كان جاورهم ، فقيل لزبان في ذلك : قتلت صاحبنا . فقال :

فلو أمي ثقفت بحيث كانوا لبل ثيابها علق عصيب
ولو كانت أمية أخت عمرو بهذا الماء ظل لها نحيب
شهرت السيف في الأدنين مني ولم تعطف أواصرنا قلوب

فقال له ابن عباس : فمن الفارس فيكم ؟ حد لي حدا أسمعه منك فانك تضع الأشياء مواضعها يا ابن صوحان .

قال : الفارس من قصر أجله في نفسه ، وضغم على أمله بضرسه ، وكانت الحرب أهون عليه من أمسه ، ذلك الفارس اذا وقدت الحروب ، واشتدت بالأنفس الكروب ، وتداعوا للنزال ، وتزاحفوا للقتال ، وتخالسوا المهج ، واقتحموا بالسيوف اللجج .

قال : أحسنت والله يا ابن صوحان ، انك لسليل أقوام كرام خطباء فصحاء ، ما ورثت هذا عن كلالة ، زدني .

قال : نعم ، الفارس كثير الحذر ، مدير النظر ، يلتفت بقلبه ، ولا يدير خرزات صلبه .

قال : أحسنت والله يا ابن صوحان الوصف ، فهل في مثل هذه الصفة من شعر ؟

قال : نعم ، لزهير بن جناب الكلبي يرثي ابنه عمرا حيث يقول :

فارس تكلأ الصحابة منه بحسام يمر مر الحريق

لا تراه لدى الوغى في مجال يغفل الطرف، لا ، ولا في مضيق
من يراه يخلـه في الحرب يوما أنه أخرق مضل الطريق

في أبيات .

فقال له ابن عباس : فأين أخواك منك يا ابن صوحان ؟ صفهما لأعرف وزنكم .

قال : أما زيد فكما قال أخو غنى :

فتى لا يبالي أن يكون بوجهه اذا خلات الكرام شحوب
اذا ماتراه الرجال تحفظوا فلم ينطقوا العوراء وهو قريب
حليف الندى يدعو الندى فيجيبه اليه ويدعوه الندى فيجيب
يبيت الندى ياأم عمرو ضجيعه اذا لم يكن في المنقيات حلوب
كأن بيوت الحي مالم يكن بها بسابس مايلقى بهن عريب

في أبيات .

كان والله يا ابن عباس عظيم المروءة ، شريف الأخوة ، جليل الخطر ، بعيد الأثر ، كميش العروة ، أليف البدوة ، سليم جوانح الصدر ، قليل وساوس الدهر ، ذاكر الله طرفي النهار وزلفا من الليل ، الجوع والشبع عنده سيان ، لا ينافس في الدنيا ، وأقل أصحابه من ينافس فيها ، يطيل السكوت ، ويحفظ الكلام ، وان نطق بعقام ، يهرب منه الدعار الأشرار ، ويألفه الأحرار الأخيار .

فقال ابن عباس : ما ظنك برجل من أهل الجنة، رحم الله زيدا ،فأين كان عبد الله منه ؟

قال : كان عبد الله سيدا شجاعا ، مألفا مطاعا ، خيره وساع ، وشره دفاع ، قلبي النحيزة ، أحوزي الغريزة ، لا ينهنهه منهنه عما أراده، ولا يركب من الأمر الا عتاده ، سمام عدي ، وباذل قرى ، صعب المقادة ، جزل الرفادة ، أخو اخوان ، وفتى فتيان . وهو كما قال البرجمي عامر بن سنان :

سمام عدى، بالنبل يقتل من رمى وبالسيف والرمح الرديني مشغب
مهيب مفيد للنوال معود بفعل الندى والمكرمات مجرب

في أبيات .

فقال ابن عباس له : أنت يا ابن صوحان باقر علم العرب .

ومن أخبار صعصعة ما حدث به أبو جعفر محمد بن حبيب الهاشمي ، عن أبي الهيثم يزيد بن رجاء الغنوي قال : أخبرني رجل من بني فزارة ثم من بني عدي ، قال : وقف رجل من بني فزّارة على صعصعة ، فأسمعه كلاما منه : بسطت لسانك يا ابن صوحان على الناس فتهيبوك ، أما لئن شئت لأكونن لك لصاقا ، فلا تنطق الا حددت لسانك بأذرب من ظبة السيف ، بعضب قوي ، ولسان علي ، ثم لا يكون لك في ذلك حل ولا ترحال .

فقال صعصعة : لو أجد غرضا منك لرميت ، بل أرى شبحا ولا أرى مثالا ، الا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ، أما لو كنت كفؤا لرميت حصائلك بأذرب من ذلك السنان ، ولرشقتك بنبال تردعك عن النضال ، ولخطمتك بخطام يخزم منك موضع الزمام .

فاتصل الكلام بابن‌عباس فاستضحك من الفزاري وقال : أما لو كلف أخو فزارة نفسه نقل الصخور من جبال شمام الى الهضام ، لكان أهون عليه من منازعة أخي عبد القيس ، خاب أبوه ، ما أجهله يستجهل أخا عبد القيس ، وقواه المريرة .

ثم تمثل :

صبت عليك ولم تنصب من أمم ان الشقاء على الأشقين مصبوب

صعصعة وأبو أيوب

وحدث المبرد ، عن الرياشي ، عن ربيعة بن عبد اللّه النميري ، قال : أخبرني رجل من الأزد قال : نظرت الى أبي أيوب الأنصاري ، في يوم النهروان ، وقد علا عبد اللّه بن وهب الراسبي ، فضربه ضربة على كتفه ، فأبان يده ، وقال : بؤ بها الى النار يا مارق .

فقال عبد اللّه : ستعلم أينا أولى بها صليا .

قال : وأبيك اني لأعلم .

اذ أقبل صعصعة بن صوحان فوقف وقال : أولى بها واللّه صليا من ضل في الدنيا عميا ، وصار الى الآخرة شقيا ، أبعدك الله وأنزحك ، أما واللّه لقد أنذرتك هذه الصرعة بالأمس ، فأبيت الا نكوصا على عقبيك ، فذق يا مارق وبال أمرك .

وشرك أبا أيوب في قتله : ضربه ضربة بالسيف أبان بها رجله ، وأدركه بأخرى في بطنه وقال : لقد صرت الى نار لا تطفأ ، ولا يبوخ سعيرها ، ثم احتزا رأسه ، وأتيا به عليا ،

فقالا : هذا رأس الفاسق ، الناكث ، المارق ، عبد اللّه بن وهب .
فنظر اليه فقطب ، وقال : شاه هذا الوجه ، حتى خيل الينا أنه يبكي .
ثم قال : قد كان أخو راسب حافظا لكتاب الله ، تاركا لحدود الله .
ثم قال لهما : اطلبا لي ذا الثدية ، فطلب فلم يوجد ، فرجعا اليه وقالا : ما أصبنا شيئا .
فقال : والله لقد قتل في يومه هذا ، وما كذبني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا كذبت عليه ، قوموا بجمعكم فاطلبوه .
فقامت جماعة من اصحابه ، فتفرقوا في القتلى ، فأصابوه في دهاس من الأرض ، فوقه زهاء مائة قتيل ، فأخرجوه يجر برجله ، ثم أتى به علي ، فقال : اشهدوا انه ذو الثدية .
وقد ذكرنا أخبار ذي الثدية فيما سلف من هذا الكتاب .

من قول علي في ربيعة

ولعلي في ربيعة كلام كثير يمدحهم فيه ، ويرثيهم شعرا ومنثورا ، وقد كانوا أنصاره واعوانه ، والركن المنيع من أركانه ، فمن بعض ذلك قوله يوم صفين :

لمن راية سوداء يخفق ظلها ... اذا قيل قدمها حضين تقدما
فيوردها في الصف حتى يعلها ... حياض المنايا تقطر الموت والدما
جزى اللّه قوما قاتلوا في لقائه ... لدى الموت قدما ما أعز وأكرما
وأطيب أخبارا ، وأكرم شيمة ، ... اذا كان أصوات الرجال تغمغما
ربيعة أعني ، إنهم أهل نجدة ... وبأس اذا لاقوا خميسا عرمرما

معاوية وجميل بن كعب

وذكر المدائني أن معاوية أسر جميل بن كعب الثعلبي ـ وكان من سادات ربيعة وشيعة علي وأنصاره ـ فلما وقف بين يديه قال : الحمد للّه الذي أمكنني منك ، ألست القائل يوم الجمل :

أصبحت الأمة في أمر عجب ... والملك مجموع غدا لمن غلب
قد قلت قولا صادقا غير كذب ... ان غدا تهلك أعلام العرب

قال : لا تقل ذلك فانها مصيبة .

قال معاوية : وأي نعمة أكبر من أن يكون اللّه قد أظفرني برجل قد قتل في ساعة واحدة عدة من حماة أصحابي ؟ اضربوا عنقه .

فقال : اللهم اشهد أن معاوية لم يقتلني فيك ، ولا لأنك ترضى قتلي ، ولكن قتلني على حطام الدنيا ، فان فعل فافعل به ما هو أهله ، وان لم يفعل فافعل به ما أنت أهله .

فقال معاوية : قاتلك اللّه ، لقد سببت فأبلغت في السب ، ودعوت فبالغت في الدعاء .

ثم أمر به فأطلق ، وتمثل معاوية بأبيات للنعمان بن المنذر ، لم يقل النعمان غيرها ، فيما ذكر ابن الكلبي ، وهي :

تعفو الملوك عن الجليل من الأمور بفضلها
ولقد تعاقب في اليسير ، وليس ذاك لجهلها
الا ليعـرف فضلهـا ويخـاف شدة نكلها

معاوية عند موته

وذكر لوط بن يحيى وابن دأب والهيثم بن عدي وغيرهم من نقلة الأخبار أن معاوية لما حتضر تمثل :

هو الموت ،لا منجى من الموت ،والذي تحاذر بعد الموت ادهى وأفظع

ثم قال : اللهم أقل العثرة ، واعف عن الزلة ، وجد بحلمك على جهل من لم يرج غيرك ، ولم يثق الا بك ، فانك واسع المغفرة ، وليس لذي خطيئة مهرب .

فبلغ ذلك سعيد بن المسيب ، فقال : لقد رغب الى من لا مرغوب اليه مثله ، واني لأرجو ألا يعذبه اللّه .

وذكر محمد بن اسحاق وغيره من نقلة الآثار أن معاوية دخل الحمام في بدء علته التي كانت وفاته فيها ، فرأى نحول جسمه ، فبكى لفنائه وما قد أشرف عليه من الدثور الواقع بالخليقة ، وقال متمثلا :

أرى الليالي أسرعت في نقضي　　أخذن بعضي وتركن بعضي
حنين طولي وحنين عرضي　　أقعدنني من بعد طول نهضي

ولما أزف أمره ، وحان فراقه ، واشتدت علته ، وأيس من برئه ، أنشأ يقول :

فياليتني لم أعن في الملك ساعة　　ولم أك في اللذات اعشى النواظر
وكنت كذي طمرين عاش ببلغة　　من الدهر حتى زار أهل المقابر

***

قال المسعودي : ولمعاوية أخبار كثيرة مع علي وغيره ، وقد أتينا على الغرر من أخباره ، وما كان في أيامه في كتابينا : « أخبار الزمان » والأوسط ، وغيرهما من كتبنا ، مما أفرد للآثار ، وهذا باب كبير ، والكلام فيه وفي غيره مما تقدم وتأخر في هذا الكتاب كثير ، ومن ضمن الاختصار لم يجز له الاكثار .

وانما نذكر في كل باب من هذا الكتاب طرفا من كل نوع من العلوم والأخبار ، وما انتخبناه من طرائف الآثار ، ليستدل الناظر فيه بما ذكرنا على المراد ، مما تركنا ذكره ، وقد تقدم وصفه وبسطه فيما سلف من كتبنا .

واذ قد تقدم ما ذكرنا ، فلنذكر الآن جملا من فضل الصحابة ، وغيرهم عليهم السلام ، اذ كانوا حجة على من بعدهم ، وقدوة لمن تأخر عنهم ، وبالله التأييد .

ذِكرُ الصَّحَابة وَمَدحهُم وَعَلي وَالعبَّاس وَفضلهمَا

معاوية وعبد الله بن العباس

دخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وجوه قريش ، فلما سلم وجلس قال له معاوية : اني أريد أن أسألك عن مسائل ؟

قال : سل عما بدا ذلك .

قال : ما تقول في أبي بكر ؟

وصف أبي بكر

قال : رحم الله أبا بكر ، كان والله للقرآن تاليا وعن المنكرات ناهيا ، وبذنبه

عارفا ، ومن اللّه خائفا ، وعن الشبهات زاجرا ، وبالمعروف آمرا ، وبالليل قائما ، وبالنهار صائما ، فاق أصحابه ورعا وكفافا ، وسادهم زهدا وعفافا ، فغضب اللّه على من أبغضه وطعن عليه .

وصف عمر

قال معاوية : أيها يا ابن عباس ، فما تقول في عمر بن الخطاب ؟

قال : رحم اللّه أبا حفص عمر ، كان واللّه حليف الاسلام ، ومأوى الأيتام ، ومنتهى الاحسان ، ومحل الايمان ، وكهف الضعفاء ، ومعقل الحنفاء ، قام بحق اللّه عز وجل صابرا محتسبا ، حتى أوضح الدين ، وفتح البلاد ، وأمن العباد ، فأعقب اللّه على من تنقصه اللعنة الى يوم الدين .

وصف عثمان

قال : فما تقول في عثمان ؟

قال : رحم اللّه أبا عمرو ، كان واللّه أكرم الحفدة ، وأفضل البررة ، هجادا بالأسحار ، كثير الدموع عند ذكر النار ، نهاضا عند كل مكرمة ، سباقا الى كل منحة ، حييا أبيا وفيا ، صاحب جيش العسرة ، ختن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وآله ، فأعقب اللّه على من يلعنه لعنة اللاعنين ، الى يوم الدين .

وصف علي

فقال : فما تقول في علي ؟

قال : رضي اللّه عن أبي الحسن ، كان واللّه علم الهدى ، وكهف التقى ، ومحل الحجا ، وبحر الندى ، وطود النهى ، وكهف العلا ، للورى داعيا الى المحجة العظمى ، متمسكا بالعروة الوثقى ، خير من آمن واتقى ، وأفضل من تقمص وارتدى ، وأبر من انتعل وسعى ، وأفصح من تنفس وقرا ، وأكثر من شهد النجوى ، سوى الأنبياء والنبي المصطفى . صاحب القبلتين ، فهل يوازيه أحد ، وهو أبو السبطين فهل يقارنه بشر ، وزوج خير النساء فهل يفوقه قاطن بلد ؟ للأسود قتال ، وفي الحروب ختال ، لم تر عيني مثله ولن ترى ، فعلى من انتقصه لعنة اللّه والعباد الى يوم التناد .

وصف العباس

قال : ايها يا ابن عباس ، لقد أكثرت في ابن عمك ، فما تقول في أبيك العباس ؟

قال : رحم اللّه العباس أبا الفضل ، كان صنو نبي اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وقرة عين صفي اللّه ، سيد الأعمام ، له أخلاق آبائه الأجواد ، وأحلام اجداده الأمجاد ، تباعدت

الأسباب في فضيلته ، صاحب البيت والسقاية ، والمشاعر والتلاوة ، ولم لا يكون كذلك وقد ساسه أكرم من دب ؟

فقال معاوية : يا ابن عباس ، أنا أعلم أنك كلماني في أهل بيتك .

قال : ولم لا أكون كذلك ، وقد قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » ؟

وصف الصحابة عامة

ثم قال ابن عباس بعد هذا الكلام :

يا معاوية ، ان اللّـه جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه خص نبيه محمدا صلى اللّه عليه وسلم بصحابة آثروه على الأنفس والأموال ، وبذلوا النفوس دونه في كل حال ، ووصفهم اللّه في كتابه فقال : « رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من اللّـه ورضوانا ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ، ليغيظ بهم الكفار ، وعد اللّه الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » .

قاموا بمعالم الدين ، وناصحوا الاجتهاد للمسلمين ، حتى تهذبت طرقه ، وقويت اسبابه ، وظهرت آلاء اللّه ، واستقر دينه ، ووضحت أعلامه ، وأذل بهم الشرك ، وأزال رؤوسه ومحا دعائمه ، وصارت كلمة اللّه العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

فصلوات اللّه ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزاكية ، والأرواح الطاهرة العالية ، فقد كانوا في الحياة للّه أولياء ، وكانوا بعد الموت أحياء ، وكانوا لعباد اللّه نصحاء ، رحلوا الى الآخرة قبل أن يصلوا اليها ، وخرجوا من الدنيا وهم بعد فيها .

فقطع عليه معاوية الكلام وقال : ايها يا ابن عباس ، حدثنا في غير هذا .

ذِكر أيّام يَزيد بن مُعَاوية بن أبي سُفيَان

موجز

وبويع يزيد بن معاوية ، فكانت أيامه ثلاث سنين وثمانية أشهر الا ثماني ليال ، وأخذ يزيد لابنه معاوية بن يزيد البيعة على الناس قبل موته ، ففي ذلك يقول عبد اللّه بن همام السلولي :

تلقفها يزيد عن أبيه ... فخذها يا معاوي عن يزيدا

لقد علقت بكم فتلقفوها ... ولا ترموا بها الغرض البعيدا

وهلك يزيد بحوارين من أرض دمشق لسبع عشرة ليلة خلت من صفر سنة أربع وستين ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وفي ذلك يقول رجل من عنزة :

يا أيها القبر بحوارينا ضممت شر الناس أجمعينا

وقد رثاه الأخطل النصراني ، فقال من قصيدة :

لعمري لقد دلى الى اللحد خالد جنازة لا نكس الفؤاد ولا غمر
مقيم بحوارين ليس يريمها سقته الغوادي من نوى ومن قبر

في أبيات .

ذكر مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ومن قتل معه من أهل بيته وشيعته

أهل الكوفة يدعون الحسين

ولما مات معاوية أرسل أهل الكوفة الى الحسين بن علي : انا قد حبسنا أنفسنا على بيعتك ، ونحن نموت دونك ، ولسنا نحضر جمعة ولا جماعة بسببك .

وطولب الحسين بالبيعة ليزيد بالمدينة فسام التأخير ، وخرج يتهادى بين مواليه ويقول :

لا ذعرت السوام في فلق الصبح مغيرا ولا دعيت يزيدا
يوم أعطى مخافة الموت ضيما والمنايا ترصدنني أن أحيدا

مسلم بن عقيل يتقدم الحسين الى الكوفة

ولحق بمكة ، فأرسل بابن عمه مسلم بن عقيل الى الكوفة ، وقال له : سر الى أهل الكوفة ، فان كان حقا ما كتبوا به عرفني حتى ألحق بك .

فخرج مسلم من مكة في النصف من شهر رمضان حتى قدم الكوفة لخمس خلون من

شوال ، والأمير عليهـا النعمان بن بشير الأنصاري ، فنزل على رجل يقال له عوسجة مستترا ، فلما ذاع خبر قدومه بايعه من أهل الكوفة اثنا عشر ألف رجل ، وقيل : ثمانية عشر ألفا .

فكتب بالخبر الى الحسين ، وسأله القدوم اليه .

ابن عباس ينصح الحسين

فلما هم الحسين بالخروج الى العراق أتاه ابن العباس فقال له : يا ابن عم ، قد بلغني أنك تريد العراق ، وأنهم أهل غدر ، وانما يدعونك للحرب ، فلا تعجل . وان أبيت الا محاربة هذا الجبار وكرهت المقام بمكة فاشخص الى اليمن ، فانها في عزلة ، ولك فيها أنصار واخوان ، فأقم بها وبث دعـاتك ، واكتب الى أهـل الكـوفة وأنصارك بالعـراق فيخرجوا أميرهم ، فان قووا على ذلك ونفوه عنها ، ولم يكن بها أحد يعاديك أتيتهم ، وما أنا لغدرهم بآمن ، وان لم يفعلوا أقمت بمكانك الى أن يأتي اللّه بأمره ، فان فيها حصونا وشعابا .

فقال الحسين : يا ابن عم ، اني لأعلم أنك لي ناصح وعلي شفيق ، ولكن مسلم بن عقيل كتب الي باجتماع أهل المصر على بيعتي ونصرتي ، وقد أجمعت على المسير اليهم .

قال : انهم من خبرت وجربت وهم أصحاب أبيك وأخيك وقتلتك غدا مع أميرهم ، انك لو قد خرجت فبلغ ابن زياد خروجك استنفرهم اليك ، وكان الذين كتبوا اليك أشد من عدوك . فان عصيتني وأبيت الا الخروج الى الكوفة فلا تخرجن نساءك وولدك معك ، فواللّه اني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون اليه .

فكان الذي رد عليه : لأن أقتل واللّه بمكان كذا أحب الي من أستحل بمكة .

فيئس ابن عباس منه ، وخرج من عنده ، فمر بعبد اللّه بن الزبير فقال : قرت عينك يا ابن الزبير ، وأنشد :

يـا لك مـن قـبرة بمعمر خـلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري

هذا حسين يخرج الى العراق ويخليك والحجاز .

الحسين وابن الزبير

وبلغ ابن الزبير أنه يريد الخروج الى الكوفة وهو أثقل الناس عليه ، قد غمه مكانه بمكة ، لأن الناس ما كانوا يعدلونه بالحسين ، فلم يكن شيء يؤتاه أحب اليه من شخوص

الحسين عن مكة ، فأتاه فقال : أبا عبد اللّه ، ما عندك ؟ فواللّه لقد خفت اللّه في ترك جهاد هؤلاء القوم على ظلمهم واستذلالهم الصالحين من عباد اللّه .

فقال حسين : قد عزمت على اتيان الكوفة .

فقال : وفقك اللّه ، أما لو أن لي بها مثل أنصارك ما عدلت عنها .

ثم خاف أن يتهمه فقال : ولو أقمت بمكانك فدعوتنا وأهل الحجاز الى بيعتك أجبناك وكنا اليك سراعا ، وكنت أحق بذلك من يزيد وأبي يزيد .

نصيحة أبي بكر بن هشام

ودخل أبو بكر بن الحارث بن هشام على الحسين فقال : يا ابن عم ، ان الرحم يظائرني عليك ، ولا أدري كيف أنا في النصيحة لك .

فقال : يا أبا بكر ما أنت ممن يستغش ولا يتهم ، فقل .

فقال أبو بكر : كان أبوك أقدم سابقة ، وأحسن في الاسلام أثرا ، وأشد بأسا ، والناس له أرجى ، ومنه أسمع ، وعليه أجمع . فسار إلى معاوية والناس مجتمعون عليه الا أهل الشام وهو أعز منه ، فخذلوه وتثاقلوا عنه ، حرصا على الدنيا ، وضنا بها ، فجرعوه الغيظ ، وخالفوه حتى صار الى ما صار اليه من كرامة اللّه ورضوانه .

ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا . وقد شهدت ذلك كله ورأيته ، ثم أنت تريد أن تسير الى الذين عدوا على أبيك وأخيك تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق ومن هو أعد منك وأقوى ، والناس منه أخوف ، وله أرجى .

فلو بلغهم مسيرك اليهم لاستطغوا الناس بالأموال ، وهم عبيد الدنيا ، فيقاتلك من وعدك أن ينصرك ، ويخذلك من أنت أحب اليه ممن ينصره ، فاذكر اللّه في نفسك .

فقال الحسين : جزاك اللّه خيرا يا ابن عم ، فقد أجهدك رأيك ، ومهما يقض اللّه يكن .

فقال : انا للّه ، وعند اللّه نحتسب يا أبا عبد اللّه .

ثم دخل على الحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي والي مكة وهو يقول :

كم نرى ناصحا يقول فيعصى وظنين المغيب يلقي نصيحا

فقال : وما ذاك ؟

فأخبره بما قال للحسين .

فقال : نصحت له ورب الكعبة .

يزيد يستعد

واتصل الخبر بيزيد ، فكتب الى عبيد اللّه بن زياد بتولية الكوفة ، فخرج من البصرة مسرعا حتى قدم الكوفة على الظهر ، فدخلها في أهله وحشمه وعليه عمامة سوداء قد تلثم بها ، وهو راكب بغلة ، والناس يتوقعون قدوم الحسين ، فجعل ابن زياد يسلم على الناس فيقولون : وعليك السلام يا ابن رسول اللّه ، قدمت خير مقدم .

حتى انتهى الى القصر وفيه النعمان بن بشير ، فتحصن فيه ، ثم أشرف عليه ، فقال : يا ابن رسول اللّه ما لي ولك ؟ وما حملك على قصد بلدي من بين البلدان ؟

فقال ابن زياد : لقد طال نومك يا نعيم . وحسر اللثام عن فيه ، فعرفه ففتح له ، وتنادى الناس : ابن مرجانة ، وحصبوه بالحصباء ، ففاتهم ودخل القصر .

اول الغدر

ولما اتصل خبر ابن زياد بمسلم تحول الى هانىء بن عروة المرادي ، ووضع ابن زياد الرصد على مسلم حتى علم بموضعه ، فوجه محمد بن الأشعث بن قيس الى هانىء ، فجاءه فسأله عن مسلم ، فأنكره ، فأغلظ له ابن زياد القول ، فقال هانىء : ان لزياد أبيك عندي بلاء حسنا ، وأنا أحب مكافأته به ، فهل لك في خير ؟

فقال ابن زياد : وما هو ؟

قال : تشخص الى أهل الشام أنت وأهل بيتك سالمين بأموالكم ، فانه قد جاء حق من هو أحق من حقك وحق صاحبك .

فقال ابن زياد : أدنوه مني ، فأدنوه منه ، فضرب وجهه بقضيب كان في يده حتى كسر أنفه وشق حاجبه ، ونثر لحم وجنته ، وكسر القضيب على وجهه ورأسه .

وضرب هانىء بيده الى قائم سيف شرطي من تلك الشرط ، فجاذبه الرجل ، ومنعه السيف .

فصاح أصحاب هانىء بالباب : قتل صاحبنا ، فخافهم ابن زياد ، وأمر بحبسه في بيت الى جانب مجلسه ، وأخرج اليهم ابن زياد شريحا القاضي ، فشهد عندهم أنه حي لم يقتل ، فانصرفوا .

ولما بلغ مسلما ما فعل ابن زياد بهانىء ، أمر مناديا فنادى « يا منصور » ، وكانت شعارهم ، فتنادى أهل الكوفة بها ، فاجتمع اليه في وقت واحد ثمانية عشر ألف رجل ، فسار الى ابن زياد ، فتحصن منه ، فحصروه في القصر .

فلم يمس مسلم ومعه غير مائة رجل ، فلما نظر الى الناس يتفرقون عنه سار نحو أبواب

كندة ، فلما بلغ الباب الا ومعه منهم ثلاثة ، ثم خرج من الباب فإذا ليس معه منهم أحد ، فبقي حائرا لا يدري أين يذهب ، ولا يجد أحدا يدله على الطريق .

فنزل عن فرسه ومشى متلددا في أزقة الكوفة لا يدري أين يتوجه ، حتى انتهى الى باب مولاة للأشعث بن قيس ، فاستسقاها ماء فسقته ،ثم سألته عن حاله ، فأعلمها بقضيته ، فرقت له وآوته .

وجاء ابنها فعلم بموضعه ، فلما أصبح غدا الى محمد بن الأشعث فأعلمه ، فمضى ابن الأشعث الى ابن زياد فأعلمه ، فقال : انطلق فأتني به ، ووجه معه عبد الله بن العباس السلمي في سبعين رجلا ، فاقتحموا على مسلم الدار ، فثار عليهم بسيفه ، وشد عليهم فأخرجهم من الدار ، ثم حملوا عليه ثانية ، فشد عليهم وأخرجهم أيضا .

فلما رأوا ذلك علوا ظهر البيوت فرموه بالحجارة ، وجعلوا يلهبون النار بأطراف القصب ، ثم يلقونها عليه من فوق البيوت .

مقتل مسلم بن عقيل

فلما رأى ذلك قال : أكل ما أرى من الأجلاب لقتل مسلم بن عقيل ؟ يا نفس اخرجي الى الموت الذي ليس عنه محيص ، فخرج اليهم مصلتا سيفه الى السكة ، فقاتلهم ، واختلف هو وبكير بن حمران الأحمري ضربتين : فضرب بكير فم مسلم فقطع السيف شفته العليا وشرع في السفلى ، وضربه مسلم ضربة منكرة في رأسه ، ثم ضربة أخرى على حبل العاتق فكاد يصل الى جوفه ، وهو يرتجز ويقول :

أقسم لا أقتل الا حرا ... وان رأيت الموت شيئا مرا
كل امرىء يوما ملاق شرا ... أخاف أن أكذب او أغرا

فلما رأوا ذلك منه تقدم اليه محمد بن الأشعث فقال له : فانك لا تكذب ولا تغر ، وأعطاه الأمان ، فأمكنهم من نفسه ، وحملوه على بغلة وأتوا به ابن زياد .

وقد سلبه ابن الأشعث حين أعطاه الأمان سيفه وسلاحه ، وفي ذلك يقول بعض الشعراء في كلمة يهجو فيها ابن الأشعث :

وتركت عمك أن تقاتل دونه ... فشلا ، ولولا أنت كان منيعا
وقتلت وافد آل بيت محمد ... وسلبت أسيافا له ودروعا

فلما صار مسلم الى باب القصر نظر الى قلة مبردة ، فاستسقاهم منها ، فمنعهم مسلم ابن عمرو الباهلي ـ وهو أبو قتيبة بن مسلم ـ أن يسقوه ، فوجه عمرو بن حريث فأتاه بماء في قدح ، فلما رفعه الى فيه امتلأ دما ، فصبه وملأه له ثـانيـة ، فلما رفعه الى فيه سقطت ثناياه فيه وامتلأ دما ، فقال : الحمد للّه ، لو كان من الرزق المقسوم لشربته ، ثم أدخل الى ابن زياد .

فلما انقضى كلامه ، ومسلم يغلظ له في الجواب ، أمر بـه فأصعد الى أعلى القصر ، ثم دعا الأحمري الذي ضربه مسلـم فقال : كن أنت الـذي تضرب عنقه لتأخذ بثأرك من ضربته .

فأصعدوه الى أعلى القصر ، فضرب بكير الأحمري عنقه ، فأهوى رأسه الى الأرض ، ثم أتبعوا رأسه جسده .

مقتل هانىء بن عروة

ثم أمر بهانىء بن عروة فأخرج الى السوق فضرب عنقه صبرا ، وهو يصيح : يا آل مراد ، وهو شيخها وزعيمها ، وهو يومئذ يركب في أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل ، واذا اجابتها أحلافها من كندة وغيرها كان في ثلاثين ألف دارع ، فـلم يجد زعيمهم منهـم أحدا فشلا وخذلانا ، فقال الشاعر وهو يرثي هانىء بـن عروة ومسلم بن عقيل ويذكر ما نالهما :

اذا كنت لا تدرين ما المـوت فانظري	الى هانىء في السوق وابن عقيل
الى بطل قد هشـم السيف وجهه	وآخر يهوي في طمار قتيل
أصابهما أمر الأمير فأصبحا	أحاديث من يسعـى بكـل سبيل
ترى جسدا قد غـيـر المـوت لونه	ونضح دم قد سال كل مسيل
أيترك أسماء المهايـنـج آمنا	وقد طلبته مذحج بذحول
فتى هو أحيـى من فتاة حيية	وأقطع من ذي شفرتين صقيل

ثم دعا ابن زياد ببكير بن حمران الذي ضرب عنق مسلم فقال : أقتلته ؟

قال : نعم .

قال : فما كان يقول وأنتم تصعدون به لتقتلوه ؟

قال : كان يكبر ويسبح اللّه ويهلل ويستغفر اللّه ، فلما أدنيناه لنضرب عنقه قال :

اللهم أحكم بيننا وبين قوم أغرونا وكذبونا ثم خذلونا وقتلونا ، فقلت : الحمد للّه الذي أقادني منك ، وضربته ضربة لم تعمل شيئا ، فقال لي : أوما يكفيك وفي خدش مني وفاء بدمك أيها العبد .

قال ابن زياد : أو فخرا عند الموت ؟

قال : وضربته الثانية فقتلته ، ثم أتبعنا رأسه جسده .

وكان ظهور مسلم بالكوفة يوم الثلاثاء لثمان ليال مضين من ذي الحجة سنة ستين ، وهو اليوم الذي ارتحل فيه الحسين من مكة الى الكوفة ، وقيل : يوم الأربعاء يوم عرفة لتسع مضين من ذي الحجة سنة ستين .

ثم أمر ابن زياد بجثة مسلم فصلبت ، وحمل رأسه الى دمشق ، وهذا أول قتيل صلبت جثته من بني هاشم ، وأول رأس حمل من رؤوسهم الى دمشق .

الحسين يقاتل جيش ابن زياد

فلما بلغ الحسين القادسية لقيه الحر بن يزيد التميمي فقال له : أين تريد يا ابن رسول اللّه .

قال : أريد هذا المصر .

فعرفه بقتل مسلم وما كان من خبره ، ثم قال : ارجع فاني لم أدع خلفي خيرا أرجوه لك .

فهم بالرجوع فقال له اخوه مسلم : واللّه لا نرجع حتى نصيب ثأرنا أو نقتل كلنا .

فقال الحسين : لا خير في الحياة بعدكم .

ثم سار حتى لقي خيل عبيد اللّه بن زياد عليها عمرو بن سعد بن أبي وقاص ، فعدل الى كربلاء ، وهو في مقدار خمسمائة فارس من أهل بيته وأصحابه ونحو مائة راجل .

فلما كثرت العساكر على الحسين أيقن أنه لا محيص له فقال : اللهم احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا ثم هم يقتلوننا .

مقتل الحسين

فلم يزل يقاتل حتى قتل رضوان اللّه عليه ، وكان الذي تولى قتله رجل من مذحج واحتز رأسه ، وانطلق به الى ابن زياد وهو يرتجز :

أوقر ركابي فضة وذهبا   أنا قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أما وأبا   وخيرهم اذ ينسبون نسبا

فبعث به ابن زياد الى يزيد بن معاوية ومعه الرأس ، فدخل الى يزيد وعنده أبو برزة الأسلمي فوضع الرأس بين يديه ، فأقبل ينكت بالقضيب فيه ويقول :

نفلــق هاما من رجال أحبة عليـنا ، وهـم كانوا أعــق وأظلما

فقال له ابو برزة : ارفع قضيبك فطال والله ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع فمه على فمه يلثمه .

من قتل مع الحسين

وكان جميع من حضر مقتل الحسين من العساكر وحاربه وتولى قتله من أهل الكوفة خاصة ، لم يحضرهم شامي ، وكان جميع من قتل مع الحسين في يوم عاشوراء بكربلاء سبعا وثمانين ، منهم ابنه علي بن الحسين الأكبر ، وكان يرتجز ويقول :

أنا علي بن الحسين بن علي نحن وبيــت اللّــه أولى بالنبي
تالله لا يحكم فينا ابن الدعي

وقتل من ولد أخيه الحسن بن علي : عبد الله بن الحسن ، والقاسم بن الحسن وأبو بكر بـن الحسن .

ومن اخوته العباس بن علي ، وعبد الله بن علي ، وجعفر بن علي ، وعثمان بن علي ، ومحمد بن علي .

ومن ولد جعفر بن أبي طالب : محمد بن عبد الله بن جعفر ، وعون بن عبد الله بن جعفر .

ومن ولد عقيل بن أبي طالب : عبد الله بن عقيل ، وعبد الله بن مسلم بن عقيل .

وذلك لعشر خلون من المحرم سنة احدى وستين .

وقتل الحسين وهو ابن خمس وخمسين سنة ، وقيل : ابن تسع وخمسين سنة ، وقيل غير ذلك .

ووجد بالحسين يوم قتل ثلاث وثلاثون طعنة ، وأربع وثلاثون ضربة ، ضرب زرعة ابن شريك التميمي كفه اليسرى ، وطعنه سنان بـن أنس النخعي ، ثم نزل فاحتز رأسه ، وفي ذلك يقول الشاعر :

واي رزيـــة عدلـــت حسينا غداة تبينه كفـــا سنان

وقتل معه من الأنصار أربعة ، وباقي من قتل معـه من أصحابه ـ على ما قدمنا من العدة ـ من سائر العرب ، وفي ذلك يقول مسلم بن قتيبة مولى بني هاشم :

عـــين جودي بعبرة وعويل واندبي ان ندبت آل الرسول
واندبي تسعـــة لصلـــب علي قد أصيبوا ، وخمسة لعقيل
وابن عم النبي عونا أخاهم ليس فيما ينوب بالمخذول
وسمي النبي غودر فيهم قد علـــوه بصارم مصقول
واندبي كهلهـــم فليس اذا ما عد في الخير كهلهـــم كالكهول
لعـــن اللّـــه حيـــث كان زيادا وابنه والعجوز ذات البعول

وأمر عمرو بن سعد أصحابه أن يوطئوا خيلهم الحسين، فانتدب لذلك اسحاق بن حيوة الحضرمي في نفر معه ، فوطئوه بخيلهم ، ودفن أهل العاضرية ـ وهم من بني عاضر من بني أسد ـ الحسين وأصحابه بعد قتلهم بيوم ، وكان عدة من قتل من أصحاب عمرو بـن سعد في حرب الحسين عليه السلام ثمانية وثمانين رجلا .

ذكر أسماء ولد علي بن أبي طالب

رضي الله تعالى عنه

أسماء ولد علي وأمهاتهم

الحسن ، والحسين ، ومحسن ، وأم كلثوم الكبرى ، وزينب الكبرى : أمهم فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومحمد ، وأمه خولة بنت اياس الحنفية ، وقيل : ابنة جعفر بن قيس بن مسلمة الحنفي .

وعبيد الله ، وأبو بكر : أمهما ليلى بنت مسعود النهشلي .

وعمر ، ورقية ، أمهما تغلبية .

ويحيى ، وأمه أسماء بنت عميس الخثعمية .

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب أن جعفرا الطيار استشهد وخلف عليها عونا ومحمدا وعبد الله ، وأن عقب جعفر منها من عبد الله بن جعفر ، وأن أبا بكر الصديق تزوجها بعده ، وخلف عليها محمدا ، ثم تزوجها علي فخلف عليها يحيى ، وأنها ابنة العجوز الحرشية التي كانت أكرم الناس أصهارا ، وقد تقدم فيما سلف من هذا الكتاب تسمية أصهار العجوز الحرشية ، وأن أولهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجعفر والعباس وعبد الله : أمهم أم البنين بنت حرام الوحيدية .

ورملة وأم الحسن : أمهما أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفي .

وأم كلثوم الصغرى ، وزينب الصغرى ، وجمانة ، وميمونة ، وخديجة ، وفاطمة ، وأم الكرام ، ونفيسة ، وأم سلمة ، وأم أبيها .

وقد أتينا على أنساب آل أبي طالب ، ومن أعقب منهم ومصارعهم ، وغير ذلك من أخبارهم في كتابنا « أخبار الزمان » .

ذو العقب من أولاد علي

والعقب لعلي من خمسة : الحسن ، والحسين ، ومحمد ، وعمر ، والعباس . وقد استقصى انسابهم ، وأتى على ذكر من لا عقب له منهم ومن له العقب ، وأنساب غيرهم من قريش من بني هاشم وغيرهم : الزبير بن بكار في كتابه في « أنساب قريش » .

وأحسن من هذا الكتاب في أنساب آل أبي طالب الكتاب الذي سمع من طاهر بن يحيى العلوي الحسيني بمدينة النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد صنف في أنساب آل أبي طالب كتب كثيرة : منها كتاب العباس من ولد العباس

ابن علي ، وكتاب أبي علي الجعفري ، وكتاب المهلوس العلوي من ولد موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه .

رثاء قتيل الطف

وفي قتيل الطف يقول سليمان بن قتة يرثيه على ما ذكره الزبير بن بكار في كتاب « أنساب قريش » من أبيات :

فان قتيل الطف من آل هاشم	اذل رقابا من قريش فذلت
فان يتبعوه عائذ البيت يصبحوا	كعاد تعمت عن هداها فضلت
ألم تر أن الأرض أضحت مريضة	بقتل حسين والبلاد اقشعرت
فلا يبعد اللّه الديار وأهلها	وان أصبحت منهم برعمي تخلت

ذكر لمع من أخبار يزيد وسيره ونوادر من بعض أفعاله

خروج يزيد لوفود العرب

ولما أفضى الأمر الى يزيد بن معاوية دخل منزله ، فلم يظهر للناس ثلاثا ، فاجتمع ببابه أشراف العرب ووفود البلدان وأمراء الأجناد لتعزيته بأبيه وتهنئته بالأمر .

فلما كان في اليوم الرابع خرج اشعث أغبر فصعد المنبر ، فحمد اللّه وأثنى عليه ، ثم قال : ان معاوية كان حبلا من حبال اللّه مده اللّه ما شاء أن يمده ، ثم قطعه حين شاء أن يقطعه ، وكان دون من كان قبله ، وخير من بعده ، ان يغفر اللّه له فهو أهله ، وان يعذبه فبذنبه .

وقد وليت الأمر بعده ، ولست أعتذر عن جهل ، ولا أشتغل بطلب علم ، فعلى رسلكم ، فان اللّه لو أراد شيئا كان ، اذكروا اللّه واستغفروه .

ثم نزل ، ودخل منزله ، ثم أذن للناس ، فدخلوا عليه لا يدرون أيهنئونه . أم يعزونه ، فقام عاصم بن أبي صيفي ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة اللّه وبركاته ، أصبحت قد رزئت خليفة اللّه وأعطيت خلافة اللّه ، ومنحت هبة اللّه ، قضى معاوية نحبه ، فغفر اللّه له ذنبه ، وأعطيت بعده الرياسة ، فاحتسب عند اللّه أعظم الرزية ، واحمده على أفضل العطية .

فقال يزيد : ادن مني يا ابن أبي صيفي ، فدنا منه حتى جلس قريبا منه .

ثم قام عبد اللّه بن مازن فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، رزئت خير الآباء ، وسميت خير الأسماء ، ومنحت أفضل الأشياء ، فهنأك اللّه بالعطية ، وأعانك على الرعية ، فقد أصبحت قريش مفجوعة بعد ساستها ، مسرورة بما أحسن اللّه اليها من الخلافة بك ، والعقبى من بعده .

ثم أنشأ يقول :

اللّه أعطاك التي لا فوقها	وقد أراد الملحدون عوقها
عنك فيأبى اللّه الا سوقها	اليك حتى قلدوك طوقها

فقال له يزيد : ادن مني يا ابن مازن ، فدنا حتى جلس قريبا منه .

ثم قام عبد اللّه بن همام فقال : آجرك اللّه يا أمير المؤمنين على الرزية ، وصبرك على المصيبة ، وبارك لك في العطية ، ومنحك محبة الرعية ، مضى معاوية لسبيله غفر اللّه له ، وأورده موارد السرور ، ووفقك بعده لصالح الأمور ، فقد رزئت جليلا ، واعطيت جزيلا ، جئت بعده للرياسة ، ووليت السياسة ، أصبت بأعظم المصائب ، ومنحت أفضل الرغائب ، فاحتسب عند اللّه أعظم الرزية ، وأشكره على أفضل العطية ، وأحدث لخالقك حمدا ، واللّه يمتعنا بك ويحفظك ، ويحفظ بك وعليك .

وأنشأ يقول :

اصبر يزيد فقد فارقت ذا مقة	واشكر حباء الذي بالملك أصفاكا
أصبحت لا رزء في الأقوام نعلمه	كما رزئت ولا عقبى كعقباكا
أعطيت طاعة خلق اللّه كلهم	وأنت ترعاهم واللّه يرعاكا
وفي معاوية الباقي لنا خلف	أما نعيت ولا نسمع بمنعاكا

فقال يزيد : ادن مني يا همام ، فدنا حتى جلس قريبا منه .

ثم قام الناس يعزونه ويهنئونه بالخلافة ، فلما ارتفع عن مجلسه أمر لكل واحد منهم بمال على مقداره في نفسه ، ومحله في قومه ، وزاد في عطائهم ، ورفع مراتبهم .

وقد أتينا في كتابنا « أخبار الزمان » على ما كان من خبر يزيد وغيبته في حال وفاة أبيه معاوية ، ومسيره من ناحية حمص حين بلغه ما بأبيه من العلة ، وورود على ثنية العقاب من أرض دمشق ، فأغنى ذلك عن اعادة هذا الخبر في هذا الكتاب .

بين يزيد وعبد الملك

وذكر عدة من الأخباريين وأهل السير أن عبد الملك بن مروان دخل على يزيد ، فقال : أريضة لك الى جانب أرض لي ، ولي فيها سعة ، فأقطعنيها .

فقال : يا عبد الملك ، انه لا يتعاظمني كبير ، ولا أجزع من صغير ، فأخبرني عنها ، والا سألت غيرك .

فقال : ما بالحجاز أعظم منها قدرا .

قال : قد أقطعتك .

فشكره عبد الملك ودعا له .

فلما ولي قال يزيد : ان الناس يزعمون أن هذا يصير خليفة ، فان صدقوا فقد صانعناه ، وان كذبوا فقد وصلناه .

فسوق يزيد وعماله

وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب . وجلس ذات يوم على شرابه ، وعن يمينه ابن زياد ، وذلك بعد قتل الحسين ، فأقبل على ساقيه فقال :

اسقني شربة تروي مشاشي ثم مل فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السر والأمانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي

ثم أمر المغنين فغنوا به .

وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق ، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهي ، وأظهر الناس شرب الشراب ، وكان له قرد يكنى بأبي قيس يحضره مجلس منادمته ، ويطرح له متكئا ، وكان قردا خبيثا .

وكان يحمله على أتان وحشية قد ريضت وذللت لذلك بسرج ولجام ، ويسابق بها الخيل يوم الحلبة ، فجاء في بعض الأيام سابقا ، فتناول القصبة ودخل الحجرة قبل الخيل ، وعلى أبي قيس قباء من الحرير الأحمر والأصفر مشمر ، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق ، وعلى الأتان سرج من الحرير الأحمر منقوش ملمع بأنواع من الألوان ، فقال في ذلك بعض شعراء الشام في ذلك اليوم :

تمسك أبا قيس بفضل عنانها فليس عليها ان سقطت ضمان
الا من رأى القرد الذي سبقت به جياد أمير المؤمنين أتان

وفي يزيد وتملكه وتجبره وانقياد الناس الى ملكه يقول الأحوص :

ملك تدين له الملوك مبارك كادت لهيبته الجبال تزول
تجبى له بلخ ودجلة كلها وله الفرات وما سقى والنيل

وقيل : ان الأحوص قال هذا في معاوية بعد وفاته يرثيه .

ما قيل في مقتل الحسين

ولما قتل الحسين بن علي رضي اللّه عنهما بكربلاء وحمل رأسه ابن زياد الى يزيد خرجت بنت عقيل بن أبي طالب في نساء من قومها حواسر حائرات ، لما قد ورد عليهن من قتل السادات ، وهي تقول :

ماذاتقولون ان قال النبي لكم : ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي نصف أسارى ونصف ضرجوا بدم
ماكان هذاجزائي اذ نصحت لكم أن تخلفوني بشر في ذوي رحمي

وفي فعل ابن زياد بالحسين يقول أبو الأسود الدؤلي من قصيدة :

أقول وذاك من جزع ووجد أزال اللّه ملك بني زياد
وابعدهم ، بما غدروا وخانوا كما بعدت ثمود وقوم عاد

أهل المدينة وعمال يزيد

ولما شمل الناس جور يزيد وعماله ، وعمهم ظلمه ، وما ظهر من فسقه : من قتله ابن بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأنصاره ، وما أظهر من شرب الخمور وسيره سيرة فرعون ، بل كان فرعون أعدل منه في رعيته ، وأنصف منه لخاصته وعامته . . أخرج أهل المدينة عامله عليهم ـ وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان ـ ومروان بن الحكم ، وسائر بني

أمية ، وذلك عند تنسك ابن الزبير وتألهه ، واظهار الدعـوة لنفسه ، وذلك في سنة ثلاث وستين .

وكان اخراجهم لما ذكرنا من بني أمية وعامل يزيد عن اذن ابن الزبير ، فاغتنمها مروان منهم ، اذ لم يقبضوا عليهم ويحملوهم الى ابن الزبير ، فحثوا السير نحو الشام .

صنع مسلم بن عقبة بالمدينة

ونمي فعل أهل المدينة ببني أمية وعامل يزيد الى يزيد ، فسير اليهم بالجيوش من أهل الشام عليهم مسلم بن عقبة المري الذي أخاف المدينة ونهبها ، وقتل أهلها ، وبايعه أهلها على أنهم عبيد ليزيد ، وسماها نتنة ، وقد سماها رسول اللّه صلى اللّه علية وسلم طيبة ، وقال : « من أخاف المدينة أخافه اللّه » فسمى مسلم هذا لعنه اللّه بمجرم ومسرف ، لما كان من فعله ، ويقال : ان يزيد حين جرد هذا الجيش وعرض عليه أنشأ يقول :

أبلـــغ أبا بكـــر اذا الأمر انبرى وأشرف القوم على وادي القرى
أجمع السكران من قوم ترى

يريد بهذا القول عبد اللّه بن الزبير ، وكان عبد اللّه يكنى بأبي بكر ، وكان يسمى يزيد السكران الخمير ، وكتب الى ابن الزبير :

أدعــو الهك في السماء فانني أدعــو عليــك رجال عك وأشعر
كيف النجاة أبا خبيــب منهم فاحتل لنفسك قبل أتى العسكر

وقعة الحرة

ولما انتهى الجيش من المدينة الى الموضع المعروف بالحرة وعليهم مسرف خرج الى حربه أهلها عليهم عبد اللّه بن مطيع العدوي وعبد اللّه بن حنظلة الغسيل الأنصاري . وكانت وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من الناس من بني هاشم وسائر قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس .

فممن قتل من آل أبي طالب اثنان : عبد اللّه بـن جعفر بن أبي طالب ، وجعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب .

ومن بني هاشم من غير آل أبي طالب : الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن

عبد المطلب ، وحمزة بن عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، والعباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب ، وبضع وتسعون رجلا من سائر قريش ومثلهم من الأنصار ، وأربعة آلاف من سائر الناس ممن أدركه الاحصاء دون من لم يعرف .

وبايع الناس على أنهم عبيد ليزيد ، ومن أبى ذلك أمره مسرف على السيف غير علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب السجاد وعلي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب .

وفي وقعة الحرة يقول محمد بن أسلم :

فان تقتلونا يوم حرة واقم فنحن على الاسلام أول من قتل
ونحن تركناكم ببدر أذلة وأبنا بأسياف لنا منكم تفل

ونظر الناس الى علي بن الحسين السجاد وقد لاذ بالقبر وهو يدعو ، فأتى به الى مسرف وهو مغتاظ عليه ، فتبرأ منه ومن آبائه ، فلما رآه وقد أشرف عليه ارتعد ، وقام له ، وأقعده الى جانبه ، وقال له : سلني حوائجك .

فلم يسأله في أحد ممن قدم الى السيف الا شفعه فيه ، ثم انصرف عنه .

فقيل لعلي : رأيناك تحرك شفتيك ، فما الذي قلت ؟

قال : قلت : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، والأرضين السبع وما أقللن ، رب العرش العظيم ، رب محمد وآله الطاهرين ، أعوذ بك من شره ، وأدرأ بك في نحره ، أسألك أن تؤتيني خيره ، وتكفيني شره .

وقيل لمسلم : رأيناك تسب هذا الغلام وسلفه ، فلما أتى اليك رفعت منزلته ؟

فقال : ما كان ذلك الرأي مني ، لقد ملىء قلبي منه رعبا .

وأما علي بن عبد الله بن العباس ، فان أخواله من كندة منعوه منه ، وأناس من ربيعة كانوا في جيشه ، فقال علي في ذلك :

أبي العباس قرم بني لؤي وأخوالي الملوك بنو وليعه
هم منعوا ذماري يوم جاءت كتائب مسرف وبني اللكيعه
أراد بي التي لا عز فيها فحالت دونه أيدي ربيعه

ولما نزل بأهل المدينة ما وصفنا من القتل والنهب والرق والسبي وغير ذلك مما عنه

أعرضنا من مسرف خرج عنها يريد مكة في جيوشه من أهل الشام ، ليوقع بابن الزبير وأهل مكة ، بأمر يزيد ، وذلك في سنة أربع وستين .

فلما انتهى الى الموضع المعروف بقديد مات مسرف لعنه اللّه ، واستخلف على الجيش الحصين بن نمير ، فسار الحصين حتى أتى مكة وأحاط بها ، وعاذ ابن الزبير بالبيت الحرام .

وكان قد سمى نفسه العائذ بالبيت ، وشهر بهذا حتى ذكرته الشعراء في أشعارها ، من ذلك ما قدمنا من قول سليمان بن قتة :

فان تتبعوه عائذ البيت تصبحوا ... كعاد تعمت عن هداها فضلت

ونصب الحصين فيمن معه من أهل الشام المجانيق والعرادات على مكة والمسجد من الجبال والفجاج ، وابن الزبير في المسجد ، ومعه المختار بن أبي عبيد الثقفي داخلا في جملته منضافا الى بيعته ، منقادا الى أمامته ، على شرائط شرطها عليه لا يخالف له رأيا ولا يعصى له أمرا .

رمي الكعبة بالمجانيق

فتواردت أحجار المجانيق والعرادات على البيت ، ورمي مع الأحجار بالنار والنفط ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحرقات ، وانهدمت الكعبة ، واحترقت البنية .

ووقعت صاعقة فأحرقت من أصحاب المجانيق أحد عشر رجلا ، وقيل أكثر من ذلك ، وذلك يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة ، قبل وفاة يزيد بأحد عشر يوما .

واشتد الأمر على أهل مكة وابن الزبير ، واتصل الأذى بالأحجار والنار والسيف ، ففي ذلك يقول أبو وجزة المدني :

ابن نمير بئس ما تولى ... قد أحرق المقام والمصلى

وليزيد وغيره أخبار عجيبة ، ومثالب كثيرة : من شرب الخمر ، وقتل ابن بنت الرسول ، ولعن الوصي ، وهدم البيت واحراقه ، وسفك الدماء ، والفسق والفجور ، وغير ذلك مما قد ورد فيه الوعيد باليأس من غفرانه ، كوروده فيمن جحد توحيده وخالف رسله . وقد أتينا على الغرر من ذلك فيما تقدم وسلف من كتبنا . واللّه ولي التوفيق .

ذكر أيام معاوية بن يزيد بن معاوية ومروان بن الحكم، والمختار بن أبي عبيد وعبد الله بن الزبير، ولمع من أخبارهم وسيرهم وبعض ما كان في أيامهم

موجز عن معاوية بن يزيد

قال المسعودي : وملك معاوية بن يزيد بن معاوية بعد أبيه ، فكانت أيامه أربعين يوما إلى أن مات ، وقيل شهرين ، وقيل غير ذلك . وكان يكنى بأبي يزيد ، وكني حين ولي الخلافة بأبي ليلى ، وكانت هذه الكنية للمستضعف من العرب ، وفيه يقول الشاعر :

اني أرى فتنة هاجت مراجلها   والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا

ولما حضرته الوفاة اجتمعت اليه بنو أمية فقالوا له : اعهد الى من رأيت من أهل بيتك .

فقال : واللّه ما ذقت حلاوة خلافتكم فكيف أتقلد وزرها ، وتتعجلون أنتم حلاوتها ، وأتعجل مرارتها ، اللهم أني بريء منها ، متخل عنها ، اللهم اني لا أجد نفرا كأهل الشورى فأجعلها اليهم ينصبون لها من يرونه أهلا لها .

فقالت له أمه : ليت أني خرقة حيضة ولم أسمع منك هذا الكلام .

فقال لها : وليتني يا أماه خرقة حيض ولم أتقلد هذا الأمر ، أتفوز بنو أمية بحلاوتها وأبوء بوزرها ومنعها أهلها ؟ كلا ، اني لبريء منها .

وقد تنوزع في سبب وفاته ، فمنهم من رأى أنه سقي شربة ، ومنهم من رأى أنه مات حتف أنفه ، ومنهم من رأى أنه طعن . وقبض وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، ودفن بدمشق . وصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، ليكون الأمر له من بعده ، فلما كبر الثانية طعن فسقط ميتا قبل تمام الصلاة ، فقدم عثمان بن عتبة بن أبي سفيان ، فقالوا : نبايعك .

قال : على ألا أحارب ولا أباشر قتالا .

فأبوا ذلك عليه ، فصار الى مكة ، ودخل في جملة ابن الزبير .

وزال الأمر عن آل حرب فلم يكن فيهم من يرومها ، ولا يتشوف نحوها ، ولا يرتجى أحد منهم لها .

المختار في الكوفة

وبايع أهل العراق عبد الله بن الزبير ، فاستعمل على الكوفة عبد اللّه بن مطيع العدوي .

فقال المختار بن أبي عبيد الثقفي لابن الزبير اني لأعرف قوماً لو أن لهم رجلا له رفق وعلم مما يأتي لاستخرج لك منهم جندا تغلب بهم أهل الشام .

قال : من هم ؟

قال : شيعة بني هاشم بالكوفة .

قال : كن أنت ذلك الرجل ، فبعثه الى الكوفة .

فنزل ناحية منها ، وجعل يظهر البكاء على الطالبيين وشيعتهم ، ويظهر الحنين والجزع لهم ، ويحث على أخذ الثأر لهم ، والمطالبة بدمائهم .

فمالت الشيعة اليه وانضافوا الى جملته ، وسار الى قصر الامارة فأخرج ابن مطيع منه ، وغلب على الكوفة ، وابتنى لنفسه دارا ، واتخذ بستانا أنفق عليه أموالا عظيمة أخرجها من بيت المال ، وفرق الأموال على الناس بها تفرقة واسعة .

وكتب الى ابن الزبير يعلمه أنه انما أخرج ابن مطيع عن الكوفة لعجزه عن القيام بها ، ويسوم ابن الزبير أن يحسب له بما أنفقه من بيت المال . فأبى ابن الزبير ذلك عليه ، فخلع المختار طاعته ، وجحد بيعته .

وكتب المختار كتابا الى علي بن الحسين السجاد يريده على أن يبايع له ، ويقول بامامته ويظهر دعوته ، وأنفذ اليه مالا كثيرا .

فأبى علي أن يقبل ذلك منه أو يجيبه عن كتابه ، وسبه على رؤوس الملأ في مسجد النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وأظهر كذبه وفجوره ، ودخوله على الناس باظهار الميل الى آل أبي طالب .

فلما يئس المختار من علي بن الحسين كتب الى عمه محمد بن الحنفية يريده على مثل ذلك ، فأشار عليه علي بن الحسين ألا يجيبه الى شيء من ذلك ، فان الذي يحمله على ذلك اجتذابه لقلوب الناس بهم ، وتقربه اليهم بمحبتهم ، وباطنه مخالف لظاهره في الميل اليهم والتولي لهم والبراءة من أعدائهم ، بل هو من أعدائهم لا من أوليائهم ، والواجب عليه أن يشهر أمره ، ويظهر كذبه ، على حسب ما فعل هو وما أظهر من القول في مسجد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

فأتى ابن الحنفية ابن عباس فأخبره بذلك ، فقال له ابن عباس : لا تفعل ، فانك لا

تدري ما أنت عليه من ابن الزبير .

فأطاع ابن عباس وسكت عن عيب المختار .

واشتد أمر المختار بالكوفة ، وكثر رجاله ، ومال الناس اليه ، وأقبل يدعو الناس على طبقاتهم ومقاديرهم في أنفسهم وعقولهم ، فمنهم من يخاطبه بامامة محمد بن الحنفية ، ومنهم من يدفعه عن هذا فيخاطبه بأن الملك يأتيه بالوحي ويخبره بالغيب .

وتتبع قتلة الحسين فقتلهم : قتل عمرو بن سعد بن أبي وقاص الزهري ، وهو الذي تولى حرب الحسين يوم كربلاء وقتله ومن معه ، فزاد ميل أهل الكوفة اليه ومحبتهم له .

ابن الزبير

وأظهر ابن الزبير الزهد في الدنيا والعبادة مع الحرص على الخلافة ، وقال : انما بطني شبر ، فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا ، وأنا العائذ بالبيت ، والمستجير بالرب .

وكثرت أذيته لبني هاشم مع شحه بالدنيا على سائر الناس ، ففي ذلك يقول أبو حرة مولى الزبير :

ان الموالي أمست وهي عاتبة   على الخليفة تشكوالجوع والحربا
ماذا علينا وماذا كان يرزؤنا   أي الملوك على ما حولنا غلبا ؟

وفيه يقول بعد مفارقته اياه :

ما زال في سورة الأعراف يقرؤها   حتى فؤادي مثل الخز في اللين
لوكان بطني شبرا قد شبعت وقد   أفضلت فضلا كثيرا للمساكين
ان امرأ كنت مولاه فضيعني   يرجو الفلاح لعمري حق مغبون

وفيه يقول أيضا :

فيا راكبا اما عرضت فبلغن   كبير بني العوام ان قيل : من تعني
تخبر من لاقيت أنك عائذ   وتكثر قتلا بين زمزم والركن

وفيه يقول أيضا الضحاك بن فيروز الديلمي :

تخبرنا أن سوف تكفيك قبضة — وبطنك شبر أو أقل من الشبر
وأنت اذا ما نلت شيئا قضمته — كما قضمت نار الغضى حطب السدر
فلو كنت تجزى اذ تبيت بنعمة — قريبا لردتك العطوف على عمرو

ابن الزبير وأخوه عمرو

وذلك أن يزيد بن معاوية كان قد ولى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان المدينة فسرح منها جيشا الى مكة لحرب ابن الزبير عليه عمرو بن الزبير أخوه ، وكان عمرو منحرفا عن عبد الله ، فلما تصافّ القوم انهزم رجال عمرو وأسلموه ، فظفر به أخوه عبد الله ، فأقامه للناس بباب المسجد الحرام مجردا ، ولم يزل يضرب به بالسياط حتى مات .

ابن الزبير وعبد الله بن محمد بن الحنفية

وحبس عبد الله بن الزبير الحسن بن محمد ابن الحنفية في الحبس المعروف بحبس عارم ، وهو حبس موحش مظلم ، وأراد قتله . فعمل الحيلة حتى تخلص من السجن ، وتعسف الطريق على الجبال حتى أتى منى وبها أبوه محمد بن الحنفية ، ففي ذلك يقول كثير :

تخبر من لاقيت أنك عائذ — بل العائذ المظلوم في سجن عارم
ومن ير هذا الشيخ بالخيف من منى — من الناس يعلم أنه غير ظالم
سمي نبي اللّه وابن وصيه — وفكاك أغلال وقاضي مغارم

وقد كان ابن الزبير عمد الى من بمكة من بني هاشم فحصرهم في الشعب ، وجمع لهم حطبا عظيما لو وقعت فيه شرارة من نار لم يسلم من الموت أحد ، وفي القوم محمد بن الحنفية .

ابن الزبير وآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

وحدث النوفلي علي بن سليمان ، عن فضيل بن عبد الوهاب الكوفي ، عن أبي عمران الرازي ، عن فطر بن خليفة ، عن الديال بن حرملة ، قال : كنت فيمن استنفره أبو عبد الله الجدلي من أهل الكوفة من قبل المختار ، فنفرنا معه في أربعة آلاف فارس ، فقال أبو عبد الله : هذه خيل عظيمة ، وأخاف أن يبلغ ابن الزبير الخبر فيعجل على بني هاشم ، فيأتي عليهم ، فانتدبوا معي .

فانتدبنا معه في ثمانمائة فارس جريدة خيل ، فما شعر ابن الزبير الا والرايات تخفق على

رأسه .

قال : فجئنا الى بني هاشم ، فاذا هم في الشعب ، فاستخرجناهم ، فقال لنا ابن الحنفية : لا تقاتلوا ألا من قاتلكم .

فلما رأى ابن الزبير تنمرنا له واقدامنا عليه لاذ بأستار الكعبة ، وقال : أنا عائذ الله .

وحدث النوفلي في كتابه في الأخبار ، عن ابن عائشة ، عن أبيه ، عن حماد بن سلمة ، قال : كان عروة بن الزبير يعذر أخاه اذا جرى ذكر بني هاشم وحصره أياهم في الشعب وجمعه لهم الحطب لتحريقهم ، ويقول : انما أراد بذلك ارهابهم ليدخلوا في طاعته ، اذ هم أبوا البيعة فيما سلف .

وهذاخبر لا يحتمل ذكره هنا ، وقد أتينا على ذكره في كتابنا في مناقب أهل البيت وأخبارهم المترجم بكتاب « حدائق الأذهان » .

وخطب ابن الزبير فقال : قد بايعني الناس ولم يتخلف عن بيعتي الا هذا الغلام محمد ابن الحنفية ، والموعد بيني وبينه أن تغرب الشمس ، ثم أضرم داره عليه نارا .

فدخل ابن العباس على ابن الحنفية فقال : يا ابن عم ، اني لا آمنه عليك فبايعه .

فقال : سيمنعه عني حجاب قوي .

فجعل ابن عباس ينظر الى الشمس ، ويفكر في كلام ابن الحنفية ، وقد كادت الشمس أن تغرب ، فوافاهم أبو عبد اللّه الجدلي فيما ذكرنا من الخيل ، وقالوا لابن الحنفية : ائذن لنا فيه ، فأبى ، وخرج الى أيلة فأقام بها سنين ، ثم قتل ابن الزبير . . . كذلك حدث عمر بن شبة النميري ، عن عطاء بن مسلم ، فيما أخبرنا به أبو الحسن المهراني المصري بمصر ، وأبو أسحاق الجوهري بالبصرة ، وغيرهما .

الكيسانية وقولهم في ابن الحنفية

وهؤلاء الذين وردوا الى ابن الحنفية هم الشيعة الكيسانية ، وهم القائلون بامامة محمد ابن الحنفية ، وقد تنازعت الكيسانية بعد قولهم بامامة محمد بن الحنفية : فمنهم من قطع بموته ، ومنهم من زعم أنه لم يمت وأنه حي في جبال رضوى ، وقد تنازع كل فريق من هؤلاء أيضا .

وانما سموا الكيسانية لاضافتهم الى المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وكان اسمه كيسان ، ويكنى أبا عمرة ، وأن علي بن أبي طالب سماه بذلك . ومنهم من رأى أن كيسان أبا عمرة هو غير المختار .

وقد أتيناعلى أقاويل فرق الكيسانيةوغيرهم من فرق الشيعة وطوائف الأمة في كتابنا في « المقالات في أصول الديانات » ، وذكرنا قول كل فريق منهم ، وما أيد به مذهبه وقول من

ذكر منهم أن ابن الحنفية دخل الى شعب رضوى في جماعة من أصحابه فلم يعرف لهم خبر الى هذه الغاية .

وفد ذكر جماعةمن الأخباريين أن كثيرا الشاعر كان كيسانيا، ويقول: ان محمد ابن الحنفية هو المهدي الذي يملأ الأرض عدلا كما ملئت شرا وجورا .

وحكى الزبير بن بكار في كتابه « أنساب قريش » في أنساب آل أبي طالب وأخبارهم منه قال : أخبرني عمي ، قال : قال كثير أبياتا له يذكر ابن الحنفية رضي اللّه عنه ، وأولها ·

هو المهـدي خبرنـاه كعب — أخـو الأحبـار في الحقـب الخوالي
أقـر اللّـه عينـي اذ دعاني — أمـين اللّـه يلـطف في السؤال
وأثنـى في هواي علي خيرا — وسـاءل عن بَنـيٍّ وكيف حالي

وفيه يقول أيضا كثير :

ألا ان الأئمـة من قريش — ولاة الحـق أربعـة سواء
علي والثلاثـة من بنيه — هم الأسبـاط ليس بهـم خفاء
فسبـط سبـط ايمـان وبر — وسبـط غيبتـه كربلاء
وسبـط لا تراه العـين حتى — يقـود الخيل يتبعهـا اللواء
تغيب لا يرى فيهـم زمانا — برضـوى عنـده عسـل وماء

وفيه يقول السيد الحميري ، وكان كيسانيا :

ألا قل للـوصي فدتـك نفسي — أطلـت بذلك الجبـل المقاما
أضر بمعشر والـوْك منا — وسمـوك الخليفـة والاماما
وعـادوا فيك أهـل الأرض طرا — مغيبـك عنهـم سبعـين عاما
ومـا ذاق ابـن خولـة طعـم موت — ولا وارت له أرض عظاما
لقد أمسى بمـردف شعـب رضوى — تراجعـه الملائـكة الكلاما

وفيه يقول السيد أيضاً :

ياشعـب رضـوى ما لمن بك لا يرى — ومـا اليه من الصبابـة أولق
حتى متى؟ والى متى؟ وكم المدى ؟ — يا ابن الرسـول وأنـت حي ترزق

وللسيد فيه أشعار كثيرة لا يأتي عليها كتابنا هذا .

وذكر علي بن محمد بن سليمان النوفلي في كتابه الأخبار مما سمعناه من أبي العباس بن عمار ، قال : حدثنا جعفر بن محمد النوفلي قال : حدثنا اسماعيل الساحر ، وكان راوية للسيد الحميري ، قال : ما مات السيد الا على قوله بالكيسانية . وأنكر قوله في القصيدة التي أولها :

*تجعفرت باسم اللّه ، واللّه أكبر *

قال أبو الحسن علي بن محمد النوفلي عقيب هذا الخبر : وليس يشبه هذا شعر السيد ، لأن السيد مع فصاحته وجزالة قوله لا يقول : « تجعفرت باسم اللّه » .

وذكر عمر بن شبة النميري ، عن مساور بن السائب ، أن ابن الزبير خطب أربعين يوما لا يصلي على النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وقال : لا يمنعني أن أصلي عليه الا أن تشمخ رجال بآنافها .

بين ابن عباس وابن الزبير

وذكر سعيد بن جبير أن عبد اللّه بن عباس دخل على ابن الزبير فقال له ابن الزبير : أنت الذي تؤنبني وتبخلني ؟

قال ابن عباس : نعم سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول « ليس المسلم الذي يشبع ويجوع جاره » .

فقال ابن الزبير : إني لأكتم بغضكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة .

وجرى بينهما خطب طويل ، فخرج ابن عباس من مكة خوفا على نفسه ، فنزل الطائف فتوفي هنالك . . . ذكر هذا الخبر عمر بن شبة النميري ، عن سويد بن سعيد ، يرفعه الى سعيد بن جبير فيما حدثنا به المهراني بمصر ، والكلابي بالبصرة ، وغيرهما ، عن عمر بن شبة .

بين ابن الحنفية وابن الزبير

وحدث النوفلي في كتابه في الأخبار عن الوليد بن هشام المخزومي ، قال : خطب ابن الزبير فنال من علي ، فبلغ ذلك ابنه محمد بن الحنفية فجاء حتى وضع له كرسي قدامه ، فعلاه وقال : يا معشر قريش ، شاهت الوجوه ، أينتقص علي وأنتم حضور ؟ ان عليا كان سهما صادقا أحد مرامي اللّه على أعدائه ، يقتلهم لكفرهم ويهوعهم مآكلهم ، فثقل عليهم ، فرموه بقرفة الأباطيل ، وانا معشر له على ثبج من أمره بنو النخبة من الأنصار ، فان

تكـن لنا في الأيام دولة ننثر عظامهم ونحسر عن أجسادهم ، والأبدان يومئذ بالية ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

فعاد ابن الزبير الى خطبته ، وقال : عذرت بني الفواطم يتكلمـون ، فما بال ابـن الحنفية ؟

فقال محمد : يا ابن أم رومان ، ومالى لا أتكلم ؟ أليست فاطمة بنت محمد حليلة أبي وأم أخوتي ؟ أو ليست فاطمة بنت أسد بن هاشم جدتي ؟ أو ليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ جدة أبي ؟ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ما تركت في بني أسد عظما الا هشمته وان نالتني فيه المصائب صبرت .

ابن الزبير ينتقص ابن العباس

حدثنا ابن عمار ، عن علي بن سليمان النوفلي ، قال : حدثني ابن عائشة والعتبي جميعا عن أبويهما ، وألفاظهما متقاربة ، قالا : خطب ابن الزبير فقال : ما بال أقوام يفتون في المتعة ، وينتقصون حوارى الرسول وأم المؤمنين عائشة ، ما بالهم أعمى اللّـه قلوبهـم كما أعمى أبصارهم . . . يعرض بابن عباس .

فقال ابن عباس : يا غلام ، اصمدني صمده .

فقال : يا ابن الزبير :

قد أنصف القـارة من راماها انــا اذا ما فئــة نلقاها
نرد أولاها على أخراها

أما قولك في المتعة فسل أمك تخبرك ، فان أول متعة سطع مجمرها المجمل سطع بين أمك وأبيك (يريد متعة الحج) ، وأما قولك « أم المؤمنين » فبنا سميت أم المؤمنين ، وبنا ضرب عليها الحجاب . وأما قولك « حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، فقد لقيت أباك في الزحف وأنا مع امام هدى ، فان يكن على ما أقول فقد كفر بقتالنا ، وان يكن على ما تقول فقد كفر بهربه عنا .

فانقطع ابن الزبير ودخل على أمه أسماء فأخبرها ، فقالت : صدق .

***

قال المسعودي : وفي هذا الخبر زيادات من ذكر البردة والعوسجة ، وقد أتينا على الخبر بتمامه وما قاله الناس في متعة النساء ومتعة الحج ، وتنازعهم في ذلك ، وما ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنه حرمها عام خيبر ولحوم الحمر الأهلية وما ذكر في حديث الربيع بن

سبرة عن أبيه وقول عمر « كانت في عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ولو تقدمت بالنهى لفعلت بفاعل ذلك كذا وكذا » . وما روي عن جابر قال : تمتعنا في عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وخلافة أبي بكر وصدر من خلافة عمر ، وغير ذلك من أقاويلهم ، في كتابنا المترجم بكتاب « الاستبصار » ، وفي كتاب « الصفوة » ، وفي كتابنا المترجم بالكتاب « الواجب في الفروض واللوازم » ، وما قال الناس في غسل الرجلين ، ومسحهما ، والمسح على الخفين ، وطلاق السنة ، وطلاق العدة ، وطلاق التعدي وغير ذلك .

وقد حدث النوفلي ، عن أبي عاصم ، عن ابن جريج ، قال : حدثني المنصور بن شيبة ، عن صفية بنت أبي عبيد ، عن أسماء بنت أبي بكر ، قالت : لما قدمنا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في حجة الوداع أمر من لم يكن معه هدي أن يحل .

قالت : فأحللت ، فلبست ثيابي ، وتطييت ، وجئت حتى جلست الى جنب الزبير ، فقال : قومي عني .

فقلت : ما تخاف ؟

قال : أخاف أن أثب عليك .

فهذا الذي أراد ابن عباس .

وقد ذكر هذا الحديث عن أبي عاصم غير النوفلي ، وقد تنازع الناس في ذلك : فمنهم من رأى أنه عنى متعة النساء ، ومنهم من رأى أنه اراد متعة الحج ، لأن الزبير تزوج أسماء بكرا في الاسلام ، زوجه أبو بكر معلنا ، فكيف تكون متعة النساء .

بين ابن الزبير والحصين بن نمير

ولما هلك يزيد بن معاوية ووليها معاوية بن يزيد ، نمي ذلك الى الحصين بن نمير ومن معه في الجيش من أهل الشام ، وهو على حرب ابن الزبير ، فهادنوا ابن الزبير ، ونزلوا مكة ، فلقي الحصين عبد اللّه في المسجد ، فقال له : هل لك يا ابن الزبير أن أحملك الى الشام وأبايع لك بالخلافة ؟

فقال له عبد اللّه رافعا صوته : أبعد قتل أهل الحرة ، لا واللّه حتى أقتل بكل رجل خمسة من أهل الشام .

فقال الحصين : من زعم يا ابن الزبير أنك داهية فهو أحمق ، أكلمك سرا وتكلمني علانية ، أدعوك الى أن استخلفك فترفع الحرب وتزعم أنك تقاتلنا ، فستعلم أينا المقتول .

وانصرف أهل الشام الى بلادهم مع الحصين فلما صاروا الى المدينة جعل أهلها يهتفون بهم ، ويتوعدونهم ، ويذكرون قتلاهم بالحرة ، فلما أكثروا من ذلك وخافوا الفتنة

وهيجها ، صعد روح بن زنباع الجذامي على منبر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وكان في ذلك الجيش ، فقال : يا أهل المدينة ، ما هذا الايعاد الذي توعدوننا ؟ انا واللّه ما دعوناكم الى كلب لمبايعة رجل منهم ، ولا الى رجل من بلقين ، ولا الى رجل من لخم أو جذام ، ولا غيرهم من العرب والموالي ، ولكن دعوناكم الى هذا الحي من قريش (يعني بني أمية) ثم الى طاعة يزيد بن معاوية ، وعلى طاعته قاتلناكم ، فايانا توعدون ؟ أما واللّه انا لأبناء الطعن والطاعون ، وفضلات الموت والمنون ، فما شئتم .

ومضى القوم الى الشام .

ابن الزبير يبني الكعبة
على قواعد ابراهيم

وحمل الى ابن الزبير من صنعاء الفسيفساء التي كان بناها أبرهة الحبشي في كنيسته التي اتخذها هنالك ، ومعها ثلاثة أساطين من رخام فيها وشي منقوش قد حشي النقش السندورس وأنواع الألوان من الأصباغ فمن رآه ظنه ذهبا .

وشرع ابن الزبير في بناء الكعبة ، وشهد عنده سبعون شيخا من قريش أن قريشا حين بنت الكعبة عجزت نفقتهم فنقصوا من سعة البيت سبعة أذرع من أساس ابراهيم الخليل الذي أسسه هو واسماعيل عليهما السلام .

فبناه ابن الزبير وزاد فيه الأذرع المذكورة ، وجعل فيه الفسيفساء والأساطين ، وجعل له بابين : بابا يدخل منه ، وبابا يخرج منه .

فلم يزل البيت على ذلك حتى قتل الحجاج عبد اللّه بن الزبير ، وكتب الى عبد الملك ابن مروان يعلمه بما زاده ابن الزبير في البيت ، فأمره عبد الملك بهدمه ، ورده الى ما كان عليه آنفا من بناء قريش وعصر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وأن يجعل له بابا واحدا .

ففعل الحجاج ذلك .

واستوثق الأمر لابن الزبير ، وأخذت له البيعة بالشام ، وخطب له على سائر منابر الاسلام ، الا منبر طبرية من بلاد الأردن ، فان حسان بن مالك بن بجدل أبى ان يبايع لابن الزبير ، وأرادها لخالد بن يزيد بن معاوية ، وكان القيم بأمر بيعة ابن الزبير بمكة عبد اللّه ابن مطيع العدوي ، ففي ذلك يقول قضاعة الأسدي ، وكان بايع لابن الزبير ثم نكث :

دعا ابن مطيع للبياع فجئته ... الى بيعة قلبي لها غير آلف

فناولني خشناء لما لمستها ... بكفي ليست من أكف الخلائف

عبيد اللّه بن زياد والخلافة

وهلك يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد ، وعبيد اللّه بن زياد على البصرة أمير ، فخطب الناس وأعلمهم بموتها ، وان الأمر شورى ، لم ينصب له أحد .

وقال : لا أرض اليوم أوسع من أرضكم ، ولا عدد أكثر من عددكم ، ولا مال أكثر من مالكم ، في بيت مالكم مائة ألف الف درهم ، ومقاتلتكم ستون ألفا ، وعطاؤهم وعطاء العيال ستون ألف ألف درهم ، فانظروا رجلا ترضونه يقوم بأمركم ويجاهد عودكم ، وينصف مظلومكم من ظالمكم ، ويوزع بينكم أموالكم .

فقام اليه أشراف أهلها ـ ومنهم الأحنف بن قيس التميمي ، وقيس بن الهيثم السلمي ، ومسمع بن مالك العبدي ـ فقالوا : ما نعلم ذلك الرجل غيرك أيها الامير ، وأنت أحق من قام على أمرنا حتى يجتمع الناس على خليفة .

فقال : أما لو استعملتم غيري لسمعت وأطعت .

الكوفة تأبى الانقياد له

وقد كان على الكوفة عمرو بن حريث الخزاعي عاملا لعبيد اللّه بن زياد ، فكتب اليه عبيد اللّه يعلمه بما دخل فيه أهل البصرة ، ويأمره أن يأمر أهل الكوفة بما دخل فيه أهل البصرة ، فصعد عمرو بن حريث على المنبر ، فخطب الناس وذكر لهم ما دخل فيه أهل البصرة ، فقام يزيد بن رويم الشيباني فقال : الحمد للّه الذي أطلق أيماننا ، لا حاجة لنا في بني أمية ، ولا في امارة ابن مرجانة (وهي أم عبيد اللّه ، وأم أبيه زياد سمية على ما ذكرنا آنفا) انما البيعة لأهل الحجر . . . يعني أهل الحجاز .

فخلع أهل الكوفة ولاية بني أمية وامارة ابن زياد وأرادوا أن ينصبوا لهم أميرا الى أن ينظروا في أمرهم ، فقال جماعة : عمرو بن سعد بن أبي وقاص يصلح لها .

فلما هموا بتأميره أقبلت نساء من همدان وغيرهن من نساء كهلان والأنصار وربيعة والنخع حتى دخلن المسجد الجامع صارخات باكيات معولات يندبن الحسين ويقلن : أما رضي عمرو بن سعد بقتل الحسين حتى أراد أن يكون أميرا علينا على الكوفة ؟

فبكى الناس ، وأعرضوا عن عمرو .

وكانت المبرزات في ذلك نساء همدان ، وقد كان علي عليه السلام مائلا الى همدان مؤثرا لهم ، وهو القائل :

فلو كنت بوابا على باب جنة ... لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقال:

*عبيت همدان وعبوا حميرا *

ولم يكن بصفين منهم احد مع معاوية وأهل الشام الا ناس كانوا بغوطة دمشق ، بقرية تعرف بعين ثرما ، فيها منهم قوم الى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) .

ولما اتصل خبر أهل الكوفة بابن الزبير أنفذ اليهم عبد اللّه بن مطيع العدوي ، على ما قدمنا آنفا ، فتولى أمرهم حتى وجه المختار في أثره .

تدبير مروان بن الحكم

ونظر مروان بن الحكم في اطباق الناس على مبايعة ابن الزبير ، واجابتهم له ، فأراد أن يلحق به وينضاف الى جملته ، فمنعه من ذلك عبيد اللّه بن زياد عند لحاقه بالشام : وقال له : انك شيخ بني عبد مناف فلا تعجل .

فصار مروان الى الجابية ، من أرض الجولان ، بين دمشق والأردن ، وأراد دمشق ، فسبقه اليها الأشدق : عمرو بن سعيد بن العاص ، فدخلها ، وصار الضحاك الى حوران والبثنة وأظهر الدعوة لابن الزبير .

والتقى الأشدق ومروان ، فقال الأشدق لمروان : هل لك فيما أقوله لك فهو خير لي ولك ؟

قال مروان : وما هو ؟

قال : أدعو الناس اليك وآخذها لك على أن تكون لي من بعدك .

فقال مروان : لا ، بل بعد خالد بن يزيد ابن معاوية .

فرضي الأشدق بذلك ، ودعا الناس الى بيعة مروان فأجابوا. ومضى الأشدق الى حسان ابن مالك بالأردن ، فأرغبه في بيعة مروان فجنح لها .

البيعة لمروان

وبويع مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ويكنى أبا عبد الملك ، وأمه آمنة بنت علقمة بن صفوان ، وذلك بالأردن ، وكان أول من بايعه أهلها ، وتمت بيعته .

وكان مروان أول من أخذها بالسيف كرها على ما قيل بغير رضا من عصبة من الناس ، بل كل خوفه الا عددا يسيرا حملوه على وثوبه عليها ، وقد كان غيره ممن سلف أخذها بعدد وأعوان ، الا مروان ، فانه أخذها على ما وصفنا .

وبايع مروان بعده لخالد بن يزيد ، ولعمرو بن سعيد الاشدق بعد خالد ، وكان مروان يلقب بخيط باطل ، وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن الحكم أخوه :

لحا اللّه قوما أمروا خيط باطل　　على الناس يعطي من يشاء ويمنع

واشترط حسان بن مالك ـ وكان رئيس قحطان وسيدها بالشام ـ على مروان ما كان لهم من الشروط على معاوية ، وابنه يزيد ، وابنه معاوية بن يزيد : منها أن يفرض لهم لألفي رجل ألفين ألفين ، وان مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه ، وعلى أن يكون لهم الأمر والنهي ، وصدر المجلس ، وكل ما كان من حل وعقد فعن رأي منهم ومشورة .

فرضي مروان بذلك ، فانقاد اليه ، وقال له مالك بن هبيرة اليشكري : انه ليست لك في أعناقنا بيعة ، وليس نقاتل الا عن عرض دنيا ، فان تكن لنا على ما كان لنا معاوية ويزيد نصرناك ، وان تكن الأخرى فواللّه ما قريش عندنا الا سواء .

فأجابه مروان الى ما سأل .

لقاء مروان والضحاك بن قيس

وسار مروان نحو الضحاك بن قيس الفهري ، وقد انحازت قيس وسائر مضر وغيرهم من نزار الى الضحاك ، ومعه أناس من قضاعة عليهم وائل بن عمرو العدوي ، وكانت معه راية عقدها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لأبيه ، وأظهر الضحاك ومن معه خلافة ابن الزبير .

والتقى مروان والضحاك ومن معهما بمرج راهط على أميال من دمشق ، فكانت بينهم الحروب سجالا ، وكثرت اليمانية عليهم وبواديها مع مروان ، فقتل الضحاك بن قيس رئيس جيش ابن الزبير ، قتله رجل من تيم اللات ، وقتل من معه من نزار ، وأكثرهم من قيس ، مقتلة عظيمة لم ير مثلها قط ، وفي ذلك يقول مروان بن الحكم :

لما رأيت الناس صاروا جربا　　والمال لا يؤخذ الا غصبا
دعوت غسانا لهم وكلبا　　والسكسكيين رجالا غلبا
والقين تمشي في الحديد نكبا　　والأعوجيات يثبن وثبا
يحملن سروات ودينا صلبا

وفي ذلك يقول أخوه عبد الرحمن بن الحكم :

أرى أحاديث أهل المرج قد بلغت　　أهل الفرات وأهل الفيض والنيل

وكان زفر بن الحارث العامري ، ثم الكلابي ، مع الضحاك ، فلما أمعن السيف في قومه ولي معه رجلان من بني سليم ، فقصر فرساهما وغشيتهما اليمانية من خيل مروان ، فقالا له : انج بنفسك فانا مقتولان ، فولى راكضا ، ولحق الرجلان فقتلا . وفي هذا اليوم يقول زفر بن الحارث الكلابي من أبيات كثيرة :

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط	لمروان صدعا بينـا متنائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى	وتبقى حزازات النفوس كما هيا
أريني سلاحي لا أبا لك انني	أرى الحرب لا تزداد الا تماديا
أتذهب كلب لم تنلها رماحنا	وتترك قتلى راهط هي ماهيا
فلم تر مني نبوة قبل هذه	فراري ، وتركي صاحبيٍّ ورائيا
عشية أغدو في الفريقين لا أرى	من القوم الا من علي ولا ليا
أيذهب يوم واحد ان أسأته	بصالح أيامي وحسن بلائيا
أبعد ابن عمرو وابن معن تتابعا	ومقتل همام أمني الأمانيا

وتلاحق الناس ممن حضر الوقعة بأجنادهم من أرض الشام ، وكان النعمان بن بشير واليا على حمص قد خطب لابن الزبير ممالئا للضحاك ، فلما بلغه قتله وهزيمة الزبيرية خرج عن حمص هاربا ، فسار ليلته جمعاء متحيرا لا يدري أين يأخذ ، فأتبعه خالد بن عدي الكلاعي فيمن خف معه من أهل حمص ، فلحقه وقتله ، وبعث برأسه الى مروان .

وانتهى زفر بن الحارث الكلابي في هزيمته الى قرقيسيا ، فغلب عليها ، واستقام الشام لمروان ، وبث فيه رجاله وعماله .

وسار مروان في جنوده من الشام الى أهل مصر ، فحاصرها وخندق عليها خندقا مما يلي المقبرة ، وكانوا زبيرية عليهم لابن الزبير عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم ، وسيد الفسطاط يومئذ وزعيمها أبو رشد بن كريب بن أبرهة بن الصباح ، فكان بينهم وبين مروان قتال يسير ، وتوافقوا على الصلح .

وقتل مروان أكيدر بن الحمام صبرا ، وكان فارس مضر ، فقال أبو رشد لمروان : ان شئت والله أعدناها جذعة ، يعني يوم الدار بالمدينة .

فقال مروان : ما أشاء من ذلك شيئا .

وانصرف عنها وقد استعمل عليها ابنه عبد العزيز .

وقدم مروان الشام.فنزل الصميرة على ميلين من طبرية من بلاد الأردن ، فأحضر

حسان بن مالك ، وأرغبه وأرهبه ، فقام حسان في الناس خطيبا ، ودعاهم الى بيعة عبد الملك بن مروان بعد مروان ، وبيعة عبد العزيز بن مروان بعد عبد الملك ، فلم يخالفه في ذلك أحد .

موت مروان بن الحكم

وهلك مروان بدمشق في هذه السنة (وهي سنة خمس وستين) .

وقد تنازع أهل التواريخ وأصحاب السير ومن عني بأخبارهم في سبب وفاته :

فمنهم من رأى أنه مات مطعونا .

ومنهم من رأى أنه مات حتف أنفه .

ومنهم من رأى أن فاختة بنت أبي هاشم بن عتبة أم خالد بن يزيد بن معاوية هي التي قتلته .

وذلك أن مروان حين أخذ البيعة لنفسه، ولخالد بن يزيد بعده وعمرو بن سعيد بعد خالد . ثم بدا له غير ذلك فجعلها لابنه عبد الملك بعده ، ثم لابنه عبد العزيز بعد عبد الملك .

ودخل عليه خالد بن يزيد فكلمه وأغلظ له ، فغضب من ذلك وقال : أتكلمني يا ابن الرطبة .

وكان مروان قد تزوج بأمه فاختة ليذله بذلك ويضع منه ، فدخل خالد على أمه فقبح لها تزوجها بمروان ، وشكا اليها ما نزل به منه ، فقالت : لا يعيبك بعدها .

فمنهم من رأى أنها وضعت على نفسه وسادة ، وقعدت فوقها مع جواريها حتى مات .

ومنهم من رأى أنها أعدت له لبنا مسموما فلما دخل عليها ناولته اياه فشرب ، فلما استقر في جوفه وقع يجود بنفسه وأمسك لسانه . فحضره عبد الملك وغيره من ولده ، فجعل مروان يشير الى أم خالد برأسه يخبرهم أنها قتلته ، وأم خالد تقول : بأبي وأمي أنت ، حتى عند النزع لم تشتغل عني ، انه يوصيكم بي . . . حتى هلك .

فكانت أيامه تسعة أشهر وأياما قلائل ، وقيل : ثمانية أشهر ، وقيل غير ذلك مما سنورده عند ذكرنا للمدة التي ملكت فيها بنو أمية من الأعوام ، فيما يرد من هذا الكتاب ، ان شاء اللّه تعالى .

ترجمة مروان

وهلك مروان وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وقد ذكر غير ذلك في سنه ، وكان قصيرا أحمر ، ومولده لسنتين خلتا من الهجرة ، وهلك بعد أخذ البيعة لولده بثلاثة أشهر .

وقد ذكر ابن أبي خيثمة في كتابه في التاريخ أن النبي صلى اللّه عليه وسلم توفي ومروان ابن ثماني سنين ، وكان لمروان عشرون أخا وثماني أخوات ، وله من الولد أحد عشر ذكرا وثلاث بنات ، وهم : عبد الملك ، وعبد العزيز ، وعبد اللّه ، وأبان ، وداود ، وعمر ، وأم عمر ، وعبد الرحمن ، وأم عثمان ، وعمرو ، وأم عمرو ، وبشر ، ومحمد ، ومعاوية ، وقد ذكرنا هؤلاء من أعقب منهم ومن لم يعقب .

ولد يزيد بن معاوية

وقد كان يزيد بن معاوية خلف من الولد أكثر مما خلف مروان ، وذلك أنه خلف : معاوية ، وخالدا ، وعبد اللّه الأكبر ، وأبا سفيان ، وعبد اللّه الأصغر ، وعمر ، وعاتكة ، وعبد الرحمن ، وعبد اللّه الذي لقبه الأصغر ، وعثمان ، وعتبة الأعور ، وأبا بكر ، ومحمدا ، ويزيد ، وأم يزيد ، وأم عبد الرحمن ، ورملة .

ولد معاوية

وخلف أبوه معاوية بن أبي سفيان من الولد : عبد الرحمن ، ويزيد ، وعبد اللّه ، وهندا ، ورملة ، وصفية .

ذِكر أيّام عَبد المَلِك بن مَروَان

موجز

وبويع عبد الملك بن مروان ليلة الأحد غرة شهر رمضان من سنة خمس وستين ، ثم بعث الحجاج بن يوسف الى عبد اللّه بن الزبير ومن معه من الناس بمكة .

فقتل عبد اللّه بن الزبير ومن معه من الناس بمكة .

فقتل عبد اللّه يوم الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين .

وكانت ولاية ابن الزبير تسع سنين وعشر ليال ، وسنذكر مدة ابن الزبير بعد هذا الموضع من هذا الكتاب عند ذكرنا لجامع مدة ملك بني أمية .

ثم هاجت فتنة ابن الأشعث في شعبان من سنة اثنتين وثمانين ، ثم توفي عبد الملك بن مروان بدمشق يوم السبت لأربع عشرة مضت من شوال سنة ست وثمانين .

وكانت ولايته منذ بويع الى أن توفي احدى وعشرين سنة وشهرا ونصفا ، وبقي بعد عبد الله بن الزبير واجتماع من اجتمع عليه من الناس ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر الا سبع ليال .

وسنذكر ما فعله من وقت استقامة من استقام له من الناس .

وقبض وهو ابن ست وستين سنة ، وقيل أكثر من ذلك ، وكان يحب الشعر والفخر والتقريظ والمدح . وكان الغالب عليه البخل .

وكان له اقدام على الدماء .

وكان عماله على مثل مذهبه ، كالحجاج بالعراق ، والمهلب بخراسان ، وهشام بن اسماعيل بالمدينة ، وغيرهم بغيرها ، وكان الحجاج من أظلمهم وأسفكهم للدماء ، وسنذكر في هذا الكتاب جوامع من ذكره فيما يلي هذا الباب .

ذِكر جُمَل مِن أفعَاله وَسِيَره وَلُمع مّمّا كَان في أيّامِه ، وَنوَادِر مِن أخبَارِه

منادمة الشعبي لعبد الملك

ولما أفضى الأمر الى عبد الملك بن مروان تاقت نفسه الى محادثة الرجال والاشراف على أخبار الناس ، فلم يجد من يصلح لمنادمته غير الشعبي ، فلما حمل اليه ونادمه وحظي عنده ، قال له : يا شعبي ، لا تساعدني على ما قبح ، ولا ترد على الخطأ في مجلسي ، ولا تكلفني جواب التشميت والتهنئة ، ولا جواب السؤال والتعزية . ودع عنك كيف أصبح الأمير وكيف أمسى ، وكلمني بقدر ما أستطعمك ، واجعل بدل المدح لي صواب الاستماع مني .

أدب النديم

واعلم أن صواب الاستماع أكثر من صواب القول .

واذا سمعتني أتحدث فلا يفوتنك منه شيء ، وأرني فهمك في طرفك وسمعك ، ولا تجهد نفسك في تطرية جوابي ، ولا تستدع بذلك الزيادة في كلامي ، فان أسوأ الناس حالا من استكد الملوك بالباطل ، وأن أسوأ حالا منهم من استخف بحقهم .

واعلم يا شعبي ان أقل من هذا يذهب بسالف الاحسان ، ويسقط حق الحرمة ، فان الصمت في موضعه ربما كان أبلغ من المنطق في موضعه ، وعند اصابته فرصة .

مهب الرياح

وقال عبد الملك للشعبي يوما : من أين تهب الرياح ؟

قال : لا علم لي يا أمير المؤمنين .

قال عبد الملك : أما مهب الشمال فمن مطلع بنات نعش الى مطلع الشمس ، وأما مهب الصبا فمن مطلع الشمس الى مطلع سهيل ، وأما الجنوب فمن مطلع سهيل الى مغرب الشمس ، وأما الدبور فمن مغرب الشمس الى مطلع بنات نعش .

حركة للشيعة

وفي سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة ، وتلاقوا بالتلاوم والتنادم حين قتل الحسين فلم يغيثوه ، ورأوا أنهم قد أخطأوا خطأ كبيرا ، بدعاء الحسين اياهم ولم يجيبوه ، ولمقتله الى جانبهم فلم ينصروه ، ورأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم الا قتل من قتله او القتل فيه .

ففزعوا الى خمسة نفر منهم : سليمان بن صرد الخزاعي ، والمسيب بن نجبة الفزاري ، وعبد اللّه بن سعد بن نفيل الأزدي ،وعبد اللّه بن وال التميمي ، ورفاعة بن شداد البجلي ، فعسكروا بالنخيلة ، بعد أن كان لهم مع المختار بن أبي عبيد الثقفي خطب طويل بتثبيطه الناس عنهم ممن أراد الخروج معهم ، ففي ذلك يقول عبد اللّه بن الأحمر يحرض على الخروج والقتال من أبيات :

صحوت وودعت الصبا والغوانيا وقلت لأصحابي : أجيبوا المناديا

وقولوا له اذ قام يدعو الى الهدى وقبل الدعا : لبيك لبيك داعيا

في شعر طويل يحث فيه على الخروج ، ويرثي الحسين ومن قتل معه ، ويلوم شيعته بتخلفهم عنه ، ويذكر أنهم قد تابوا الى اللّه وأنابوا اليه من الكبائر التي ارتكبوها اذ لم

ينصروه ، ويقول أيضا في هذا الشعر :

ألا وانع خير الناس جدا ووالدا حسينا لأهل الدين ان كنت ناعيا
ليبك حسينا مرمل ذو خصاصة عديم وأيتام تشكي المواليا
فأضحى حسين للرماح دريئة وغودر مسلوبا لدى الطف ثاويا
فياليتني اذ ذاك كنت شهدته فضاربت عنه الشانئين الأعاديا
سقى الله قبرا ضمن المجد والتقى بغربية الطف الغمام العواديا
فيا أمة تاهت وضلت سفاهة أنيبوا فأرضوا الواحد المتعاليا

ثم ساروا يقدمهم من سمينا من الرؤساء وعبد اللّٰه بن الأحمر يقول :

خرجن يلمعن بنا أرسالا عوابسا يحملننا أبطالا
نريد أن نلقى بها الأقبالا القاسطين الغدر الضلالا
وقد رفضنا الولد والأموالا والخفرات والبيض والحجالا
نرضى به ذا النعم المفضالا

موقعة عين الوردة

فانتهوا الى قرقيسياء من شاطىء الفرات وبها زفر بن الحارث الكلابي ، فأخرج اليهم الأنزال ، وساروا من قرقيسياء ليسبقوا الى عين الوردة .

وقد كان عبيد اللّه بن زياد توجه من الشام الى حربهم في ثلاثين ألفا ، وانفصل على مقدمته من الرقة خمسة أمراء ، منهم الحصين بن نمير السكوني ، وشرحبيل بن ذي الكلاع الحميري ، وأدهم بن محرز الباهلي ، وربيعة بن المخارق الغنوي ، وجبلة بن عبد اللّه الخثعمي ، حتى اذا صاروا الى عين الوردة التقى الأقوام .

وقد كان قبل ذلك لهم مناوشات في الطلائع ، فاستشهد سليمان بن صرد الخزاعي ، بعد أن قتل من القوم مقتلة عظيمة ، وأبلى وحث وحرض ، ورماه يزيد بن الحصين بن نمير بسهم فقتله .

فأخذ الراية المسيب بن نجبة الفزاري ، وكان من وجوه أصحاب علي رضي اللّه عنه ، وكر على القوم وهو يقول :

قد علمت ميالة الذوائب واضحة اللبات والترائب

أنـــي غداة الــروع والمقانب أشجــع من ذي لبــدة مواثب

فقاتل حتى قتل ، فاستقتل التراببيون ، وكسروا أجفان السيوف ، وسالـت عليهـم عساكر أهل الشام بالليل ، ينادون الجنة الجنة الى البقية من أصحاب أبي تراب الجنة الجنة الى الترابية .

وأخذ راية التراببين عبد اللّه بن سعد بن نفيل ، وأتاهم اخوانهم يحثون السير خلفهم من أهل البصرة وأهل المدائن في نحو من خمسمائة فارس عليهم المثنى بن مخرمة ، وسعد بـن حذيفة ، وهـم يقولون : أقلنا ربنا تفريطنا فقد تبنا .

فقيل لعبد اللّه بن سعد بن نفيل وهو في القتال : إن اخواننا قد لحقونـا من البصرة والمدائن .

فقال : ذاك لو جاءوا ونحن أحياء .

فكان أول من استشهد في ذلك من لحقهم من أهل المدائن كثير بن عمرو المدني ، وطعن سعد بن أبي سعد الحنفي ، وعبد اللّه بن الخطل الطائي ، وقتل عبد اللّه بن سعد بن نفيل .

فلما علم من بقي من التراببين أن لا طاقة لهم بمن بازائهم من أهل الشام ، انحازوا عنهم ، وارتحلوا وعليهم رفاعة بن شداد البجلي .

وتأخر أبو الحويرث العبـدي في جابية النـاس ، وطلـب منهـم أهـل الشـام المكافـة والمتاركة ، لما رأوا من بأسهم وصبرهم مع قلتهم ، فلحق أهل الكوفة بمصرهـم ، وأهـل المدائن والبصرة ببلادهم ، وسمع من التراببين في مسيرهم ورجوعهم من عين الوردة قائلا يقول ، رافعا عقيرته :

يا عـين بكي ابـن الصرد بكـى اذا الليل خمد
كان اذا البـأس نكـد تخالـه فيه أسـد
مضى حميدا قد رشد فى طاعــة الأعلى الصمد

وقد ذكر أبو مخنف لوط بن يحيى وغيره من أصحـاب التـواريخ والسـير من قتـل من التراببين مع سليمان بن صرد الخزاعي على عين الوردة وأسماءهم ، فقللهم .

وحكى أبو مخنف في كتابه في أخبار التراببين بعين الوردة قصيدة عزاها الى أعشى همدان طويلة يرثي بها أهل عين وردة من التراببين ويصف ما فعلوه منها :

توجــه من دون الثنية سائرا الى ابن زياد في الجمـوع الكتائب

فساروا وهم من بين ملتمس التقى	وآخــر ممــا جر بالأمس تائب
فلاقوا بعين الوردة الجيش فاضلا	عليهــم فحيوهــم ببيض قواضب
فجاءهــم جمــع من الشــام بعده	جموع كموج البحر من كل جانب
فما برحــوا حتــى أبيدت جموعهم	ولـم ينـج منهـم ثم غـير عصائب
وغودرأهل الصبرصرعى فأصبحوا	تعاورهــم ريح الصبــا والجنائب
وأضحى الخزاعـي الـرئيس مجدلا	كأن لم يقاتــل مرة ويحارب
ورأس بنـي شمـخ وفـارس قومه	جميعـا مع التيمـي هادي الكتائب
وعمرو بن عمرو بن بشر وخالد	وبــكر وزيد والحليس بن غالب
أبوا غـير ضرب يفلـق الهـام وقعه	وطعـن بأطـراف الأسنــة صائب
فياخــير جيش للعــراق وأهله	سقيتـم روايا كل أسحــم ساكب
فلا تبعــدوا فرساننــا وحماتنا	اذاالبيض أبدت عن خدام الكواعب
فان تقتلــوا فالقتــل أكرم ميتة	وكل فتـى يومـا لإحــدى النوائب
ومـا قتلـوا حتـى أصابـوا عصابة	محلــين حورا كالليوث الضوارب

وصف القرآن لعلي كرم الله وجهه

وفي سنة ست وستين ، في أيام عبد الملك بن مروان توفي الحارث الأعور صاحب علي عليه السلام ، وهو الذي دخل على عليٍّ فقال : يا أمير المؤمنين ، ألا ترى الى الناس قد أقبلوا على هذه الأحاديث وتركوا كتاب اللّه ؟

قال : وقد فعلوها ؟

قال : نعم .

قال : أما اني سمعت رسول الله صلى اللّه عليه وسلم يقول : « ستكون فتنة » .

قلت : فما المخرج منها يا رسول اللّه ؟

قال : « كتاب الله : فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه اللّه ، ومن أراد الهدى في غيره أضله اللّه . هو حبل اللّه المتين ، وهو الذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، وهـو الـذي لا تزيغ عنـه العقول ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يعلم علم مثله . هو الذي لما سمعته الجن قالوا : أنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدي الى الرشد ، من قال به صدق ، ومن زال

عنه عدا ، ومن عمل به أجر ، ومن تمسك به هدى الى صراط مستقيم » . . . . خذها اليك يا أعور .

مقتل عبيد اللّه بن زياد

ولما كان من وقعة عين الوردة ما قدمنا سارعبيد اللّه بن زياد في عساكر الشام يؤم العراق .

فلما انتهى الى الموصل (وذلك في سنة ست وستين) التقى هو وابراهيم بن الأشتر النخعي ، وابراهيم على خيل العراق من قبل المختار بالخازر ، فكانت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها ابن مرجانة عبيد اللّه بن زياد ، والحصين بن نمير ، وشرحبيل بن ذي الكلاع ، وابن حوشب ذي ظليم ، وعبد اللّه بن اياس السلمى ، وأبو أشرس ، وغالب الباهلي ، وأشراف أهل الشام .

وذلك أن عمير بن الحباب السلمي كان على ميمنة ابن زياد في ذلك الجيش ، وكان في نفسه ما فعل بقومه من مضر وغيرهم من نزار يوم مرج راهط ، فصاح : يالثارات قيس ، يالمضر ، يالنزار .

فتزاحمت نزار من مضر وربيعة على من كان معهم في جيشهم من أهل الشام من قحطان .

وقد كان عمير كاتب ابراهيم بن الأشتر سرا قبل ذلك ، والتقيا ، فتواطآ على ما ذكرنا .

وحمل ابراهيم بن الأشتر رأس ابن زياد وغيره الى المختار ، فبعث به المختار الى عبد اللّه بن الزبير بمكة .

اضطراب في كل ناحية

وقد كان عبد الملك بن مروان سار في جيوش أهل الشام فنزل بطنان ينتظر ما يكون من أمر ابن زياد ، فأتاه خبر مقتله ومقتل من كان معه وهزيمة الجيش بالليل .

وأتاه في تلك الليلة مقتل حبيش بن دلجة ، وكان على الجيش بالمدينة لحرب ابن الزبير .

ثم جاءه خبر دخول ناتل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير ومسير مصعب بن الزبير من المدينة الى فلسطين .

ثم جاءه مسير ملك الروم لاوي بن فلنط ونزوله المصيصة يريد الشام .

ثم جاءه خبر دمشق وأن عبيدها وأوباشها ودعارها قد خرجوا على أهلها ، ونزلوا

الجبل .

ثم أتاه أن من في السجن بدمشق فتحوا السجن وخرجوا منه مكابرة ، وأن خيل الأعراب أغارت على حمص وبعلبك والبقاع .

وغير ذلك مما نمي اليه من المفظعات في تلك الليلة ، فلم ير عبد الملك في ليلة قبلها أشد ضحكا ، ولا أحسن وجها ، ولا أبسط لسانا ، ولا أثبت جنانا منه تلك الليلة ، تجلدا وسياسة للملوك ، وترك اظهار الفشل .

من سياسة عبد الملك

وبعث بأموال وهدايا الى ملك الروم ، فشغله وهادنه ، وسار الى فلسطين وبها ناتل ابن قيس على جيش ابن الزبير ، فالتقوا بأجنادين ، فقتل ناتل بن قيس وعامة أصحابه ، وانهزم الباقون ، ونمى خبر قتله وهزيمة الجيش الى مصعب بن الزبير وهو في الطريق ، فولى راجعا الى المدينة .

ففي ذلك يقول رجل من كلب من المروانية :

قتلنا بأجنادين سعدا وناتلا ... قصاصا بما لاقى حبيش ومنذر

ورجع عبد الملك الى دمشق فنزلها ، وسار ابراهيم بن الأشتر فنزل نصيبين ، وتحصن منه أهل الجزيرة ، ثم استخلف على نصيبين ، ولحق بالمختار بالكوفة .

بين مصعب والمختار الثقفي
ومقتل المختار

وفي سنة سبع وستين سار مصعب بن الزبير من البصرة ، وقد كان أخوه عبد اللّه بن الزبير أنفذه الى العراق واليا ، فنزل حروراء ، والتقى هو والمختار فكانت بينهم حروب عظيمة ، وقتل ذريع ، وانهزم المختار . وقد قتل محمد بن الأشعث وابنان له ، ودخل قصر الامارة بالكوفة وتحصن فيه .

وجعل يخرج كل يوم لمحاربة مصعب وأصحابه من أهل الكوفة وغيرهم والمختار معه خلق كثير من الشيعة قد سموا الخشبية من الكيسانية وغيرهم .

فخرج اليهم ذات يوم وهو على بغلة شهباء ، فحمل عليه رجل من بني حنيفة يقال له عبد الرحمن بن أسد فقتله واحتز رأسه ، وتنادوا بقتله ، فقطعه أهل الكوفة وأصحاب مصعب أعضاء .

وأبى مصعب أن يعطي الأمان لمن بقي في القصر من أصحابه ، فحاربوا الى أن أضر

بهم الجهد ، ثم أمنهم وقتلهم بعد ذلك . فكان ممن قتل مع المختار عبيد الله بن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ، وله خبر مع المختار في تخلصه منه ومضيه الى البصرة وخوفه على نفسه من مصعب الى أن خرج معه في جيشه وقد أتينا على خبره وسائر ما أومأنا اليه في كتابنا « أخبار الزمان » .

فكان جملة من أدركه الاحصاء ممن قتله مصعب مع المختار سبعة آلاف رجل ، كل هؤلاء طالبوا بدم الحسين ، وقتلة أعدائه ، فقتلهم مصعب ، وسماهم الخشبية .

وتتبع مصعب الشيعة بالقتل بالكوفة وغيرها ، وأتى بحرم المختار فدعاهن الى البراءة منه ففعلن الا حرمتين له احداهما بنت سمرة بن جندب الفزاري والثانية ابنة النعمان بن بشير الأنصارى ، وقالتا : كيف نتبرأ من رجل يقول ربي اللّه ؟ كان صائم نهاره قائم ليله ، قد بذل دمه للّه ولرسوله في طلب قتلة ابن بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأهله وشيعته ، فأمكنه اللّه منهم حتى شفى النفوس .

فكتب مصعب الى أخيه عبد الله بخبرهما وما قالتاه ، فكتب اليه ان هما رجعتا عما هما عليه وتبرأتا منه ، والا فاقتلهما ، فعرضهما مصعب على السيف ، فرجعت بنت سمرة ولعنته وتبرأت منه ، وقالت : لودعوتني الى الكفر مع السيف لكفرت : أشهد أن المختار كافر . .

وأبت ابنة النعمان بن بشير ، وقالت : شهادة أرزقها فأتركها ؟ كلا انها موتة ثم الجنة والقدوم على الرسول وأهل بيته ، واللّه لا يكون ، آتي مع ابن هند فأتبعه وأترك ابن أبي طالب ؟ اللهم اشهد أني متبعة لنبيك وابن بنته وأهل بيته وشيعته .

ثم قدمها فقتلت صبرا ، ففي ذلك يقول الشاعر :

إن من أعجب الأعاجيب عندي ... قتل بيضاء حرة عطبول
قتلوها ظلما على غير جرم ... ان للّه درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا ... وعلى الغانيات جر الذيول

ولم نتعرض في هذا الكتاب لذكر المهلب وقتله لنافع بن الأزرق ، وذلك في سنة خمس وستين ، ونافع هو الذي تنسب اليه الأزارقة من الخوارج ، اذ كنا أتينا في كتابنا « أخبار الزمان » على ذكر حروب الخوارج مع المهلب وغيره ممن سلف وخلف ، وذكرنا شأن مرداس ابن عمرو بن بلال التميمي ، وعطية بن الأسود الحنفي ، وأبي فديك ، وشوذب الشيباني ، وسويد الشيباني ، وقطامة الشيباني ، والمهذب السكوني ، وقطري بن الفجاءة ، والضحاك بن قيس الشيباني ، ووقعة ابن الماجور الخارجي مع المهلب ومقتله ، وظفر المهلب بهم في ذلك اليوم . وخبر عبد ربه ، وأخبار خوارج اليمن كأبي حمزة المختار بن

عوف الأزدي ، وابن بيهس الهيصمي . مع ما تقدم من ذكرنا لفرق الخوارج في كتابنا « المقالات في أصول الديانات » ٠ من الأباضية وهم شراة عمان من الأزد وغيرهم من الأزارقة والنجدات والحمرية والجابية والصفرية وغيرهم من فرق الخوارج وبلدانهم من الأرض . . . مثل بلاد سنجار وتل أعفر من بلاد ديار ربيعة والسن والبوازيج والحديقة مما يلي بلاد الموصل ، ثم من سكن من الأكراد بلاد أذربيجان ، وهم المعروفون بالشراة منهم ، وأسلم المعروف بابن شادلويه ، وقد كان تملك على أعمال ابن أبي الساج من بلاد أذربيجان وأران والبيلقان وأرمينية ، ومن سكن منهم بلاد سجستان وجبال هراة وكوهستانة وبوشنج من بلاد خراسان ومن بلاد مكران على ساحل البحر بين بلاد السند وكرمان ، وأكثرهم صفرية وحمرية ، ومنهم ببلاد حمران اصطخر وصاهك بين كرمان وفارس ، ومنهم ببلاد تيهرت المغرب ، ومنهم ببلاد حضرموت وغيرها من بقاع الأرض .

وفاة عبد الله بن العباس

وفي سلطنة عبد الملك مات أبو العباس عبد الله بن العباس بن عبد المطلب في سنة ثمان وستين ـ وقيل : في سنة تسع وستين ـ بالطائف ، وأمه لبابة بنت الحارث بن حزن ، من ولد عامر بن صعصعة ، وله احدى وسبعون سنة ، وقيل : إنه ولد قبل الهجرة بثلاث سنين .

وقد ذكر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس انه قال : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن عشر سنين ، وصلى عليه محمد ابن الحنفية ، وكان قد ذهب بصره لبكائه على علي والحسن والحسين ، وكانت له وفرة طويلة يخضب شيبه بالحناء ، وهو الذي يقول :

ان يأخذ الله من عيني نورهما ففي لساني وقلبي منهما نور
قلبي ذكي ، وعقلي غير مدخل وفي فمي صارم كالسيف مأثور

وقد كان النبي صلى اللّه عليه وسلم دعا له حين وضع له الماء للطهور في بيت خالته ميمونة زوج النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فقال : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل » .

وقيل لابن عباس رضي الله عنه : ما منع عليا رضي الله عنه أن يبعثك مكان أبي موسى في يوم الحكمين ؟

فقال : منعه من ذلك حائل القدر ، وقصر المدة ، ومحنة الابتلاء ، أما واللّه لو بعثني مكانه لاعترضت مدارج نفسه ، ناقضا لما أبرم ومبرما لما نقض ، أسف اذا طار ، وأطير اذا أسف ، ولكن مضى قدر ، وبقي أسف ، ومع اليوم غد ، وللآخرة خير للمتقين .

وكان لابن عباس من الولد : علي ، وهو أبو الخلفاء من بني العباس ، والعباس ، ومحمد ، والفضل ، وعبد الرحمن ، وعبيد الله ، ولبابة ، وأمهم زرعة بنت مشرح الكندية ، فأما عبيد الله ومحمد والفضل فلا أعقاب لهم .

مقتل عمرو بن سعيد الأشدق

وفي سنة سبعين قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق ، وهو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وكان ذا شهامة وفصاحة وبلاغة واقدام ، وقد كان بينه وبين عبد الملك محادثات ومكاتبات وخطب طويل طلبا للملك .

وكان فيما كتب اليه عبد الملك : إنك لتطمع نفسك بالخلافة ، ولست لها بأهل .

فكتب اليه عمرو : استدراج النعم اياك أفادك البغي ، ورائحة الغدر أورثتك الغفلة ، زجرت عما وافقت عليه ، وندبت الى ما تركت سبيله ، ولو كان ضعف الأسباب يؤيس الطالب ما انتقل سلطان ولا ذل عزيز ، وعن قريب يتبين من صريع بغي وأسير غفلة .

وقد كان عبد الملك سار الى زفر بن الحارث الكلابي وهو بقرقيسياء وبلاد الرحبة وخلف عمرو بن سعيد بدمشق فبلغه أن عمرا قد دعا الناس الى بيعته بدمشق ، فكر راجعا اليها ، فامتنع عمرو فيها .

فناشده عبد الملك الرحم ، وقال له : لا تفسد أمر أهل بيتك وما هم عليك من اجتماع الكلمة ، وفيما صنعت قوة لابن الزبير ، ارجع الى بيتك فاني سأجعل لك العهد .

فرضي وصالح ، ودخل عبد الملك وعمرو متحيز منه في نحو خمسمائة فارس يزولون معه حيث زال .

وقد تنازع أهل السير في كيفية قتل عبد الملك اياه : فمنهم من رأى أن عبد الملك قال لحاجبه : ويحك ، أتستطيع اذا دخل عمرو أن تغلق الباب ؟

فقال : نعم .

قال : فافعل .

وكان عمرو رجلا عظيم الكبر لا يرى أن لأحد عليه فضلا ، ولا يلتفت وراءه اذامشى في أحد ، فلما فتح الحاجب الباب دخل عمرو ، فأغلق الحاجب الباب دون أصحابه ، ومضى عمرو لا يلتفت ، وهو يظن أن أصحابه قد دخلوا معه كما كانوا يدخلون ، فعاتبه عبد الملك طويلا وقد كان وصى صاحب حرسه أبا الزعيزعة بأن يضرب عنقه ، فكلمه عبد

الملك ، وأغلظ له القول ، فقال : يا عبد الملك ، أتستطيل علي كأنك ترى لك علي فضلا ؟ إن شئت والّله نقضت العهد بيني وبينك ، ثم نصبت لك الحرب .

فقال عبد الملك : قد شئت ذلك .

فقال : وأنا قد فعلت .

فقال عبد الملك : يا أبا الزعيزعة شأنك .

فالتفت عمرو الى أصحابه فلم يرهم في الدار ، فدنا من عبد الملك ، فقال : ما يدنيك مني ؟

قال : لتمسني رحمك .

وكانت أم عمرو عمة عبد الملك ، كانت تحت الحكم بن أبي العاص بن وائل .

فضربه أبو الزعيزعة فقتله ، فقال له عبد الملك : ارم برأسه الى أصحابه .

فلما رأوا رأسه تفرقوا .

ثم خرج عبد الملك فصعد المنبر وذكر عمرا فوقع فيه ، وذكر خلافه وشقاقه ، ونزل من المنبر وهو يقول :

أدنيته مني لتسكن نفرة فأصول صولة حازم مستمكن
غضبا ومحماة لديني ، إنه ليس المسيء سبيله كالمحسن

وقيل : إن عمرا خرج من منزله يريد عبد الملك ، فعثر بالبساط ، فقالت له امرأته نائلة بنت قريص بن وكيع بن مسعود : أنشدك الّله الا تأتيه .

فقال : دعيني عنك ، فوالّله لو كنت نائما ما أيقظني .

وخرج وهو مكفر بالدرع ، فلما دخل على عبد الملك قام من هناك من بني أمية ، فقال عبد الملك وقد أخذت الأبواب : إني كنت حلفت لئن ملكتك لأشدنك في جامعة ، فأتى بجامعة فوضعها في عنقه وشدها عليه فأيقن عمرو أنه قاتله ، فقال : أنشدك الّله يا أمير المؤمنين .

فقال له عبد الملك : يا أبا أمية ، مالك جئت في الدرع أللقتال ؟

فأيقن عمرو بالشر فقال : أنشدك الّله أن تخرجني الى الناس في الجامعة .

فقال له عبد الملك : وتماكرني أيضا وأنا أمكر منك ؟ تريد أن أخرجك الى الناس فيمنعوك ويستنقذوك من يدي .

وخرج عبد الملك الى الصلاة وأمر أخاه عبد العزيز ـ وكان قد قدم من مصر في ذلك اليوم ـ بقتله اذا خرج .

وقد قيل : أمر ابنه الوليد بذلك ، فلما دنا منه عبد العزيز ناشده عمرو بالرحم فتركه .

فلما رجع عبد الملك من الصلاة ورآه حيا قال لعبد العزيز : والله ما أردت قتله الا من أجلكم ألا لا يجوزها دونكم ، ثم أضجعه ، فقال له عمرو : اغدر يا ابن الزرقاء . فذبحه ، ووافى أخو عمرو يحيى بن سعيد الى الباب بمن معه من رجاله ليكسره ، فخرج اليه الوليد وموالي عبد الملك ، فاقتتلوا ، واختلف الوليد ويحيى ، فضربه يحيى بالسيف على اليته فانصرع ، وألقى رأس عمرو الى الناس ، فلما رأوه تفرقوا من بعد أن ألقى عليهم من أعلى الدار بدر الدنانير ، فاشتغلوا بها عن القتال ، وقال عبد الملك : وأبيك لئن كانوا قتلوا الوليد لقد أصابوا بثأرهم .

وقد كان الوليد فقد حين ضرب ، وذلك أن ابراهيم بن عدي احتمله فأدخله بيت القراطيس في المعمعة ، وأتى عبد الملك بيحيى بن سعيد ، واجتمعت الكلمة على عبد الملك ، وانقاد الناس اليه .

وقد قيل في مقتله غير ما ذكرنا ، وقد أتينا على ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » وقد ذكرنا شعر أخته فيه ـ وكانت تحت الوليد بن عبد الملك ـ فيما يرد من هذا الكتاب في أخبار المنصور ، اذ هو الموضع المستحق له دون هذا الموضع لما تغلغل بنا اليه الكلام ، وتسلسل بنا القول نحوه .

وأقام عبد الملك بدمشق بقية سنة سبعين ، وقد كان مصعب بن الزبير خرج حين صفا له العراق بعد قتل المختار وأصحابه ، حتى انتهى الى الموضع المعروف بباجميرا مما يلي الجزيرة يريد الشام لحرب عبد الملك . فبلغه مسير خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد من مكة الى البصرة في ولده وعدة من مواليه ناكثا لبيعة عبد الله بن الزبير ، فنزل بعض نواحي البصرة ، وأن قوما قد انضافوا اليه من ربيعة ومضر ، ومنهم عبد الله بن الوليد ، ومالك بن مسمع البكري ، وصفوان بن الأهتم التميمي ، وصعصعة بن معاوية عم الأحنف .

فكانت لهم بالبصرة حروب كانت آخرا على خالد بن عبد الله ، فخرج هاربا بابنيه في البر حتى لحقوا بعبد الملك ، وانصرف مصعب راجعا الى البصرة ، وذلك في سنة احدى وسبعين ، ثم عاد من العراق الى باجميرا ، ففي ذلك يقول الشاعر :

أبيت يا مصعب الا سيرا   في كل يوم لك باجميرا

ونزل عبد الملك بن مروان على قرقيسياء ، فحاصر بها زفر بن الحارث العامري الكلابي ، وكان يدعو الى ابن الزبير ، فنزل على امامته وبايعه ، وسار عبد الملك فنزل على نصيبين ـ وفيها يزيد والحبشي موليا الحارث في ألفي فارس ممن بقي من أصحاب المختار يدعون الى امامة محمد بن الحنفية ـ فحاصرهم ، فنزلوا على امامته ، وانضافوا الى جملته .

وخرج مصعب في أهل العراق ـ وذلك في سنة اثنتين وسبعين ـ يريد عبد الملك ، ودلف اليه عبد الملك في عساكر مصر والجزيرة والشام ، فالتقوا بمسكن (قرية من أرض العراق على شاطىء دجلة) ، وعلى مقدمة عبد الملك الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل الثقفي ، وقيل : على ساقته ، وقد أحمد أمره في قيامه بما أهل له .

فكاتب عبد الملك رؤساء أهل العراق ممن هم بعسكر مصعب وغيرهم سرا ، وصار يرغبهم ويرهبهم ، فكان فيمن كتب اليه ابراهيم بن الأشتر النخعي ، فلما أتاه كتابه مع الجاسوس اعتقله في رحله ، وأتى مصعبا بالكتاب قبل أن يفضه ويعلم ما فيه .

فقال له مصعب : أقرأته ؟

فقال : أعوذ باللّه أن اقرأه حتى يقرأه الأمير ، وآتى يوم القيامة غادرا قد نقضت بيعته وخلعت طاعته ، فلما تأمل مصعب ما فيه وجده أمانا له وولاية لما شاء من العراق واقطاعا وغير ذلك .

ثم قال ابراهيم لمصعب : هل أتاك أحد من أشراف العساكر بكتاب ؟

فقال مصعب : لا .

فقال ابراهيم : واللّه لقد كاتبهم وما كاتبني حتى كاتب غيري ، ولا امتنعوا عن ايصالها اليك الا للرضا به والغدر بك ، فأطعني وابدأ بهم ، فأمرهم على السيف ، أو استوثق منهم في الحديد ، والق هذا الرجل .

فأبى مصعب ذلك وتحيز من كان في عسكره من ربيعة لقتله ابن زياد بن ظبيان البكري ، وكان من سادات ربيعة وزعماء بكر بن وائل .

وسار ابراهيم بن الأشتر على مقدمة مصعب في متسرعة الخيل ، فلقي خيل عبد الملك ومقدمته عليها أخوه محمد بن مروان ، وبلغ عبد الملك ورود ابراهيم ومنازلته محمدا أخاه ، فبعث الى محمد : عزمت عليك ألا تقاتل في هذا اليوم ، وقد كان مع عبد الملك منجم مقدم ، وقد أشار على عبد الملك ألا تحارب له خيل في ذلك اليوم ، فانه منحوس ، ولتكن حربه بعد ثلاث فانه ينصر .

فبعث اليه محمد : وأنا أعزم على نفسي لأقاتلن ولا ألتفت الى زخاريف منجمك ، والمحالات من الكذب .

فقال عبد الملك للمنجم ولمن حضره : ألا ترون ؟

ثم رفع طرفه الى السماء ، وقال : اللهم ان مصعبا أصبح يدعو الى أخيه ، وأصبحت أدعو لنفسي ، اللهم فانصر خيرنا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

فالتقى محمد بن مروان وابن الأشتر ، ومحمديرتجز ويقول :

مثلي على مثلك أولى بالسلب   محجل الرجلين أعرب الذنب

فاقتتلوا حتى غشيهم المساء ، فقال عتاب بن ورقاء التميمي ، وكان مع ابن الأشتر : يا ابراهيم ، إن الناس قد جهدوا فمرهم بالانصراف . . . حسدا له لاشرافه على الفتح .

فقال له ابراهيم : وكيف ينصرفون وعدوهم بازائهم ؟

فقال عتاب : فمر الميمنة أن تنصرف .

فأبى ابراهيم ذلك ، فمضى اليهم عتاب وأمرهم بالانصراف .

فلما زالوا عن مصافهم أكبت ميسرة محمد عليهم ، واختلط الرجال ، وصمدت الفرسان لابراهيم ، واشتبكت عليه الأسنة ، فبرى منها عدة رماح وأسلمه من كان معه ، فاقتلع من سرجه ودار به الرجال ، وازدحموا عليه ، فقتل بعد أن أبلى ونكأ فيهم .

وقد تنوزع في آخذ رأسه : فمنهم من زعم أن ثابت بن يزيد مولى الحصين بن نمير الكندي هو الذي أخذ رأسه ، ومنهم من ذكر ان عبيد بن ميسرة ، مولى بني يشكر ، ثم من بني رفاعة ، هو الذي أخذ رأسه .

وأتى عبد الملك بجسد ابراهيم فألقي بين يديه ، فأخذه مولى الحصين بن نمير ، فجمع عليه حطبا وأحرقه بالنار .

وسار عبد الملك في صبيحة تلك الليلة من موضعه حتى نزل بدير الجاثليق من أرض السوداء ، وأقبل عبيد الله بن زياد بن ظبيان وعكرمة بن ربعي الى رايات ربيعة فأضافوها الى عسكر عبد الملك ودخلوا في طاعته .

ثم تصاف القوم ، فأفرد مصعب ، وتخلى عنه من كان معه من مضر واليمن ، وبقي في سبعة نفر منهم اسماعيل بن طلحة بن عبيد الله التميمي ، وابنه عيسى بن مصعب ، فقال لابنه عيسى : يا بني اركب فرسك فانج بنفسك ، فالحق بمكة بعمك ، فأخبره بما صنع بي أهل العراق ، ودعني فاني مقتول .

فقال له : لا والله ، لا يتحدث نساء قريش أني فررت عنك ، ولا أحدثهم عنك أبدا .

فقال له مصعب : أما اذا أبيت فتقدم أمامي حتى أحتسبك . فتقدم عيسى فقاتل حتى قتل .

وسأل محمد بن مروان أخاه عبد الملك أن يؤمن مصعبا ، فاستشار عبد الملك من حضره ، فقال له علي بن عبد اللّه بن العباس بن عبد المطلب : لا تؤمنه .

وقال خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان : بل أمنه .

وارتفع الكلام بين علي وخالد حتى تسابا على مصافهما ، فأمر عبد الملك أخاه محمد أن يمضي الى مصعب فيؤمنه ويعطيه عنه ما أراد .

فمضى محمد فوقف قريبا من مصعب ، ثم قال : يا مصعب ، هلم الي ، أنا ابن عمك محمد بن مروان ، وقد أمنك أمير المؤمنين على نفسك ومالك ، وكل ما أحدثت ، وأن تنزل أي البلاد شئت ، ولو أراد بك غير ذلك لانزله بك ، فأنشدك الله في نفسك .

وأقبل رجل من أهل الشام الى عيسى بن مصعب ليحتز رأسه ، فعطف عليه مصعب والرجل غافل ، فناداه أهل الشام : ويلك يا فلان ، الأسد قد أقبل نحوك .

ولحقه مصعب فقده ، وعرقب فرس مصعب ، وبقي راجلا ، فأقبل عليه عبيد اللّه ابن زياد بن ظبيان فاختلفا ضربتين ، سبق مصعب بالضربة الى رأسه . وكان مصعب قد أثخن بالجراح ، وضربه عبيد اللّه فقتله ، واحتز رأسه ، وأتى به عبد الملك .

فسجد عبد الملك ، وقبض عبيد اللّه بن زياد على قائم سيفه فاجتذبه من غمده حتى أتى على أكثره سلا ليضرب عبد الملك في حال سجوده ثم ندم واسترجع ، فكان يقول بعد ذلك : ذهب الفتك من الناس ، اذ هممت ولم أفعل فأكون قد قتلت عبد اللّه ومصعبا ملكي العرب في ساعة واحدة .

وتمثل عبيد اللّه في مجيئه برأس مصعب :

نعاطي الملوك الحق ما قسطوا لنا   وليس علينا قتلهم بمحرم

وقال عبد الملك : متى تلد قريش مثل مصعب ؟

وكان قتل مصعب يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين ، وأمر عبد الملك بمصعب وابنه عيسى فدفنا بدير الجاثليق ، ودعا عبد الملك أهل العراق الى بيعته فبايعوه .

وقد كان مسلم بن عمرو الباهلي من صنائع معاوية وابنه يزيد ، وكان في ذلك اليوم في جيش مصعب ، فأتى عبد الملك وقد أخذ له الأمان ، فقيل له : أنت ميت لا ترجو الحياة لما

بك من الجراح ، فما تصنع بالأمان ؟

قال : ليسلم مالي ويأمن ولدي بعدي .

فلما وضع بين يدي عبد الملك قال : قطع الله يد ضاربك ، كيف لم يجهز عليك ؟ أكفرت صنائع آل حرب معك ؟

فأمنه على ماله وولده ومات من ساعته .

وفي مصرع مصعب بدير الجاثليق من أرض العراق ، يقول عبد اللّه بن قيس الرقيات :

لقد أورث المصرين عارا وذلة ... قتيل بدير الجاثليق مقيم

فما نصحت للّه بكر بن وائل ، ... ولا صبرت عند اللقاء تميم

ولكنه ضاع الذمار ، ولم يكن ... بها مضري يوم ذاك كريم

جزى اللّه بصريا بذاك ملامة ... وكوفيهم ، ان المليم مليم

وفي ذلك يقول شاعر أهل الشام من أبيات :

لعمري لقد أضجرت خيلنا ... بأكناف دجلة للمصعب

يهزون كل طويل القنا ... ة معتدل النصل والثعلب

إذا ما منافق أهل العرا ... ق عوتب يوما فلم يعتب

دلفنا اليه لدى موقف ... قليل التفقد للغيب

وقد كان مصعب ذا حسن وجمال وهيئة ، وكمال في الصورة ، وفيه يقول ابن الرقيات . من كلمة :

إنما مصعب شهاب من اللـ ... ـه تجلت عن وجهه الظلماء

وقد أتينا على أخبار مصعب ، وسكينة بنت الحسين زوجه ، وعائشة بنت طلحة وليلى من نسائه وغير ذلك من أخباره في الكتاب الأوسط .

أربع رؤوس في مكان واحد

وحدث المنقري ، قال : حدثني سويد بن سعيد ، قال : حدثنا مروان بن معاوية الفزاري ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن أبي مسلم النخعي ، قال : رأيت رأس الحسين

جيء به ، فوضع في دار الامارة بالكوفة بين يدي عبيد اللّه بن زياد ، ثم رأيت رأس عبيد اللّه بن زياد قد جيء به ، فوضع لي ذلك الموضع ، ثم رأيت رأس المختار جيء به ، فوضع في دار الامارة بالكوفة بين يدي عبيد الله بن زياد ، ثم رأيت رأس عبيد الله بن زياد قد جيء به ، فوضع في ذلك الموضع بين يدي المختار ، ثم رأيت رأس المختار قد جيء به فوضع بين يدي مصعب بن الزبير ، ثم رأيت رأس مصعب بن الزبير قد جيء به فوضع في ذلك الموضع بين يدي عبد الملك .

وقد قيل في وجه آخر من الروايات : قال الرواي : فرأى عبد الملك مني اضطرابا ، فسألني ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، دخلت هذه الدار فرأيت رأس الحسين بين يدي ابن زياد في هذا الموضع ، ثم دخلتها فرأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار فيه ، ثم دخلتها فرأيت رأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير ، وهذا رأس مصعب بين يديك ، فوقاك الله يا أمير المؤمنين .

قال : فوثب عبد الملك بن مروان ، وأمر بهدم الطاق الذي على المجلس . . . . ذكر هذا الحديث عن الوليد بن خباب وغيره .

الناس يبايعون عبد الملك

وسار عبد الملك من دير الجاثليق حتى نزل النخيلة بظهر الكوفة ، فخرج اليه أهل الكوفة فبايعوه . ووفى الناس بما كان وعدهم به في مكاتبته اياهم سرا ، وخلع وأجاز وأقطع ، ورتب الناس على قدر مراتبهم ، وعمهم ترغيبه وترهيبه .

وولى على البصرة خالد بن عبد اللّه بن خالد بن أسد ، وعلى الكوفة بشر بن مروان أخاه ، وخلف معه جماعة من أهل الرأي والمشورة من أهل الشام منهم روح بن زنباع الجذامي ، وبعث الحجاج بن يوسف لحرب ابن الزبير بمكة ، وسار في بقية أهل الشام الى دار ملكه دمشق .

روح بن زنباع وبشر بن مروان

وكان بشر بن مروان أديبا ظريفا ، يحب الشعر والسمر والسماع والمعاقرة ، وقد كان أخوه عبد الملك قال له : إن روحا عمك الذي لا ينبغي أن تقطع امرا دونه ، لصدقه وعفافه ومناصحته ومحبته لنا أهل البيت .

فاحتشم بشر منه ، وقال لندمائه : أخاف ان انبسطنا أن يكتب روح الى أمير المؤمنين بذلك ، وإني لأحب من الأنس والاجتماع ما يحبه مثلي .

فقال له بعض ندمائه من أهل العراق بحسن مساعدته ولطيف حيلته : أنا أكفيك أمره حتى ينصرف عنك الى أمير المؤمنين غير شاك ولا لائم .

فسر بشر ، ووعده الجائزة وحسن المكافأة ان هو تأتى له ما وعد به .

وكان روح شديد الغيرة ، وكانت له جارية اذا خرج من منزله الى المسجد أو غيره ختم بابه حتى يعود بعد أن يقفله .

فأخذ الفتى دواة وأتى منزل روح عشيا مختفيا ، وخرج روح للصلاة .

فتوصل الفتى الى دخول الدهليز في حال خروج روح ، وكمن تحت الدرجة ، ولم يزل يحتال ليلته حتى توصل الى بيت روح ، فكتب على حائط في أقرب المواضع من مرقد روح :

يا روح من لبنيات وأرملة	اذا نعاك لأهل المغرب الناعي
إن ابن مروان قد حانت منيته	فاحتل لنفسك يا روح بن زنباع
ولا يغرنك أبكار منعمة	واسمع هديت مقال الناصح الواعي

ورجع الى مكانه بالدهليز ، فبات فيه .

فلما أصبح روح خرج الى الصلاة فتبعه غلمانه ، والفتى متنكر في جملتهم مختلط بهم ، فلما عاد روح وافتتح باب حجرته تبين الكتابة وقرأها ، فراعه ذلك وأنكره ، وقال : ما هذا ؟ فوالله ما يدخل حجرتي انسي سواي ولا حظ لي في المقام بالعراق .

ثم نهض الى بشر ، فقال له : يا ابن أخي ، أوصني بما أحببت من حاجة او سبب عند امير المؤمنين .

قال : أو تريد الشخوص يا عم ؟

قال : نعم .

قال : ولم ؟ هل انكرت شيئا ، أو رأيت قبيحا لا يسعك المقام عليه ؟

قال : لا والله ، بل جزاك الله عن نفسك وعن سلطانك خيرا ، ولكن أمر حدث ، ولا بد لي من الانصراف الى أمير المؤمنين .

فأقسم عليه أن يخبره ، فقال له : إن أمير المؤمنين قد مات أو هو ميت الى أيام .

قال : ومن أين علمت ذلك ؟

فأخبره بخبر الكتابة ، وقال : ليس يدخل حجرتي غيري وغير جاريتي فلانة ، وما كتب ذلك الا الجن أو الملائكة .

فقال له بشر : أقم فاني أرجو ألا يكون لهذا حقيقة .

فلم يثنه شيء ، وسار الى الشام ، فأقبل بشر على الشراب والطرب ، فلما لقي روح عبد الملك أنكر أمره ، وقال : ما اقدامك الا لحادثة حدثت على بشر أو لأمر كرهته .

فأثنى على بشر ، وحمد سيرته ، وقال : لا ، بل لأمر لا يمكنني ذكره حتى تخلو .

فقال عبد الملك لجلسائه : انصرفوا .

وخلا بروح ؛ فأخبره بقصته وأنشده الأبيات ، فضحك عبد الملك حتى استغرق ، وقال : ثقلت على بشر وأصحابه حتى احتالوا لك بما رأيت ، فلا ترع .

عبد الله بن الزبير ينعي أخاه مصعبا

ولما اتصل قتل مصعب بأخيه عبد اللّه أضرب عن ذكره حتى تحدث بذلك العبيد والاماء في سكك المدينة ومكة ، فصعد المنبر وجبينه يرشح عرقا ، فقال : الحمد لله ملك الدنيا والآخرة ، يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير .

ألا إنه لن يذل الله من كان الحق معه ، ولن يعز من أولياء الشيطان حزبه ، إنه أتانا خبر من العراق أحزننا وأفرحنا ، وهو قتل مصعب : فأما الذي أحزننا من ذلك فان لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يرعوي من بعد ذلك الى كريم الصبر وجميل العزاء ، وأما الذي أفرحنا فان القتل له شهادة ، ويجعل الله لنا وله في ذلك الخيرة أما والله لا نموت حتفا كميتة آل أبي العاص ، وانما نموت قعصا بالرماح ، وقتلا تحت ظلال السيوف ، ألا وان الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ولا يتبدل ، فان تقبل الدنيا علي لا آخذها أخذ الأشر البطر ، وإن تدبر عني لا أبكي عليها بكاء الحزين المهين .

الحجاج في مكة

فأتى الحجاج الطائف ، فأقام بها شهوراً ، ثم زحف الى مكة ، فحاصر ابن الزبير بها ، وكتب الى عبد الملك : إني قد ظفرت بأبي قبيس .

فلما ورد كتابه على عبد الملك بحصار ابن الزبير بمكة والظفر بأبي قبيس كبر عبد الملك فكبر من معه في داره ، واتصل التكبير بمن في جامع دمشق فكبروا ، واتصل ذلك بأهل الأسواق فكبروا ، ثم سألوا عن الخبر فقيل لهم : إن الحجاج حاصر ابن الزبير بمكة وظفر بأبي قبيس .

فقالوا : لا نرضى حتى يحمله الينا مكبلا على رأسه برنس على جمل يمر بنا في الأسواق ، الترابي الملعون .

وكان حصار الحجاج لابن الزبير بمكة هلال ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين ، وفيها قتل

مصعب ، وما ذكرنا من قول أهل دمشق في ابن الزبير فذكره عمر بن شبة النميري عن ابن عاصم .

ومنع ابن الزبير الحجاج ان يطوف بالبيت . ووقف الحجاج بالناس بعرفة محرما في درع ومغفر ، وهو من أبناء احدى وثلاثين سنة ، ونحر ابن الزبير بمكة ، ولم يخرج الى عرفة بسبب الحجاج ، فكانت مدة حصار الحجاج لابن الزبير بمكة خمسين ليلة .

ابن الزبير وأمه اسماء بنت أبي بكر

ودخل ابن الزبير على أمة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقد بلغت من السن مائة سنة لم تقع لها سن ، ولا ابيض لها شعر ، ولم ينكر لها عقل ، على حسب ما قدمنا من خبرها في هذا الكتاب ، فقال : يا أمه ، كيف تجدينك ؟

قالت : إني لشاكية يا بني .

فقال لها : إن في الموت راحة .

قالت : لعلك تتمناه لي ، وما أحب أن أموت حتى يأتي على أحد طرفيك : أما قتلت فأحتسبك ، وأما ظفرت فقرت عيني بك .

وأوصى عبد الله بما يحتاج من أمره وأمر نسائه اذا سمعن الواعية عليه أن يضممن أمه أسماء اليهن .

وكان عروة بن الزبير على رأي عمه عبد الملك بن مروان ، وكانت كتب عبد الملك بن مروان الى الحجاج متصلة يأمره بتعاهد عروة وألا يسوءه في نفسه وماله .

فخرج عروة الى الحجاج ، ورجع الى أخيه فقال له : هذا خالد بن عبد الله بن خالد ابن أسيد وعمرو بن عثمان بن عفان يعطيانك أمان عبدالملك على ما أحدثت أنت ومن معك ، وأن تنزل أي البلاد شئت ، لك بذلك عهد الله وميثاقه ، وغير ذلك من الكلام .

فأبى عبد الله قبول ذلك . وقالت أمه أسماء : أي بني ، لا تقبل خطة تخاف على نفسك منها مخافة القتل ، مت كريما ، واياك أن تؤسر ، أو تعطي بيديك .

فقال : يا أمه ، اني اخاف ان يمثل بي بعد القتل .

فقالت : يا بني ، وهل تتألم الشاة من ألم السلخ بعد الذبح ؟

ودخلوا على ابن الزبير في المسجد وقت الصلاة ، وقد التجأ الى البيت وهم ينادون : يا ابن ذات النطاقين .

فقال ابن الزبير متمثلا :

وعيرها الواشون أني أحبها ... وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

ونظر الى طائفة منهم قد أقبلوا نحوه بالسيوف ، فقال لأصحابه : من هؤلاء ؟
قالوا : أهل مصر .
قال : قتلة عثمان أمير المؤمنين ورب الكعبة .
فحمل عليهم فضرب رجلا منهم به أدمة فقده ، وقال : صبرا يا ابن حام .
وتكاثر عليه الرجال من أهل الشام ومصر ، فلم يزل يضرب فيهم حتى أخرجهم عن المسجد ورجع الى البيت وهو يقول :

ولست بمبتاع الحياة بسبة ولا أبتغي من رهبة الموت سلما

فاستلم الحجر ، ثم تكاثروا عليه ، فحمل عليهم ، وهو يقول :

قد سن أصحابك ضرب الأعناق وقامت الحرب بنا على ساق

فأتاه حجر فصك جبينه فأدماه وأوضحه ، فقال :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

فكشفهم عن المسجد ، ورجع على من بقي من أصحابه عند البيت ، فقال لهم : ألقوا أغماد السيوف ، وليصن كل رجل منكم سيفه كما يصون وجهه ، لا ينكسر سيف أحدكم فيقعد كالمرأة ، ولا يسأل رجل منكم : أين عبد الله ، من يسأل عني فاني في الرعيل الأول .
ثم أنشأ يقول :

يا رب ان جنود الشام قد كثروا وهتكوا من حجاب البيت أستارا
يا رب اني ضعيف الركن مضطهد فابعث الي جنودا منك أنصارا

وتكاثر أهل الشام عليه ألوفا من كل باب ، فحمل عليهم ، فشدخ بالحجارة ، فانصرع ، وأكب عليه موليان له ، وأحدهما يقول :

* العبد يحمي ربه ويحتمي *

حتى قتلوا جميعا ، وتفرق من كان معه من أصحابه ، وأمر به الحجاج فصلب بمكة ، وكان مقتله يوم الثلاثاء ، لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى ، سنة ثلاث وسبعين .

وكلمت أسماء أمه الحجاج في دفنه ، فأبى عليها ، فقالت للحجاج : أشهد أني لسمعت رسول الله الله صلى اللّه عليه وسلم يقول : « يخرج من ثقيف كذاب ومبير » : فأما الكذاب فهو المختار ، وأما المبير فما أظنك الا هو .

وسنذكر لمعا من أخبار الحجاج فيما يرد من هذا الكتاب ، وإن كنا قد أتينا على مبسوطها فيما تقدم من كتبنا .

ولاية الحجاج الحجاز

وأقام الحجاج واليا على مكة والمدينة والحجاز واليمن واليمامة ثلاث سنين ، ثم جمع له العراق بعد موت بشر بن مروان بالبصرة .

جابر بن عبد الله

ومات جابر بن عبد الله الأنصاري في أيام عبد الملك بالمدينة ، وذلك في سنة ثمان وسبعين ، وقد ذهب بصره ، وهو ابن نيف وتسعين سنة .

وقد كان قدم الى معاوية بدمشق ، فلم يأذن له أياما ، فلما أذن له قال : يا معاوية ، أما سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : « من حجب ذا فاقة وحاجة حجبه الله يوم القيامة ، يوم فاقته وحاجته » .

فغضب معاوية ، وقال له : لقد سمعته يقول : « انكم ستلقون بعدي أثرة ، فاصبروا حتى تردوا على الحوض » . أفلا صبرت ؟

قال : ذكرتني ما نسيت ، وخرج فاستوى على راحلته ومضى ، فوجه اليه معاوية بستمائة دينار ، فردها وكتب اليه :

واني لأختار القنوع على الغنى	اذا اجتمعا والماء بالبارد المحض
وأقضي على نفسي اذا الأمر نابني	وفي الناس من يقضى عليه ولا يقضي
وألبس أثواب الحياء ، وقد أرى	مكان الغنى ألا أهين به عرضي

وقال لرسوله : قل له والله يا ابن آكلة الأكباد ، لا وجدت في صحيفتك حسنة أنا سببها أبدا

محمد ابن الحنفية

ومات محمد بن علي بن أبي طالب ، ابن الحنفية في سنة احدى وثمانين في أيامه

بالمدينة ، ودفن بالبقيع ، وصلى عليه ابان بن عثمان بن عفان باذن ابنه أبي هاشم . وكان محمد يكنى بأبي القاسم ، وقبض وهو ابن خمس وستين سنة .

وقيل : إنه خرج الى الطائف هاربا من ابن الزبير فمات بها ، وقيل : إنه مات ببلاد أيلة .

وقد تنوزع في موضع قبره ، وقد قدمنا قول الكيسانية ومن قال منهم انه بجبل رضوى .

وكان له من الولد : الحسن ؛ وأبو هاشم ، وعبد الله ، وجعفر الأكبر ، وحمزة ، وعلي لأم ولد ، وجعفر الأصغر ، وعون ، أمهما أم جعفر ، والقاسم ، وابراهيم .

حدثنا نصر بن علي قال : حدثنا أبو أحمد الزبيري ، عن يونس بن أبي اسحاق قال : حدثنا سهل بن عبيد بن عمرو الخابوري قال : كتب ابن الحنفية الى عبد الملك : أن الحجاج قد قدم بلدنا ، وقد خفته ، فأحب ألا تجعل له علي سلطانا بيد ولا لسان .

فكتب عبد الملك الى الحجاج : إن محمد بن علي كتب الي يستعفيني منك ، وقد أخرجت يدك عنه ، فلم أجعل لك عليه سلطانا بيد ولا لسان ، فلا تتعرض له .

فلقيه في الطواف فعض على شفته ، ثم قال : لم يأذن لي فيك أمير المؤمنين .

فقال له محمد : ويحك ، أو ما علمت أن لله تبارك وتعالى في كل يوم وليلة ثلثمائة وستين لحظة (أو قال نظرة) لعله ان ينظر الي منها بنظرة (أو قال يلحظني بلحظة) فيرحمني ، فلا يجعل لك علي سلطانا بيد ولا لسان .

قال : فكتب بها الحجاج الى عبد الملك ، فكتب بها عبد الملك الى ملك الروم ، وكان قد توعده ، فكتب اليه ملك الروم : ليست هذه من سجيتك ولا من سجية آبائك ، ما قالها الا نبي ، أو رجل من أهل بيت نبي .

ملك الروم والشعبي

وذكر الشعبي قال : أنفذني عبد الملك الى ملك الروم ، فلما وصلت اليه جعل لا يسألني عن شيء إلا أجبته . وكانت الرسل لا تطيل الاقامةعنده ، فحبسني أياماً كثيرة ، حتى استحببت خروجي ، فلما أردت الانصراف قال لي : من أهل بيت المملكة أنت ؟

قلت : لا ، ولكني رجل من العرب في الجملة .

فهمس بشيء ، فدفعت الي رقعة ، وقيل لي : إذا أديت الرسائل عند وصولك الى صاحبك أوصل اليه هذه الرقعة .

قال : فأديت الرسائل عند وصولي الى عبد الملك ، ونسيت الرقعة فلما صرت في

بعض الدار ، إذ بـدأت بالخروج ، تذكرتها فرجعت فأوصلتها اليه فلما قرأها قال لي : أقال لك شيئا قبل أن يدفعها اليك ؟

قلت : نعم ، قال لي : من أهل بيت المملكة أنت ؟ قلت : لا ، ولكني رجل من العرب في الجملة .

ثم خرجت من عنده ، فلما بلغت الباب رددت ، فلما مثلت بين يديه قال لي : أتدري ما في الرقعة ؟

قلت : لا .

قال : اقرأها .

فلما قرأتها فاذا فيها : عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره ؟

فقلت له : والله لو علمت ما فيها ما حملتها ، وإنما قال هذا لأنه لم يرك .

قال : أفتدري لم كتبها ؟

قلت : لا .

قال : حسدني عليك وأراد أن يغريني بقتلك .

قال : فتأدى ذلك الى ملك الروم ، فقال : ما أردت الا ما قال .

معاوية يصف عبد الملك

وذكر عند معاوية عبد الملك فقال : هو آخذ بقلوب النـاس اذا حدث ، وبحسـن الاستماع اذا حُدِّث ، وبأيسر الأمرين اذا خولف ، تارك للمماراة ، تارك للغيبة ، تارك لما يعتذر منه .

وقال لعبد الملك بعض جلسائه يوما : أريد الخلوة بك .

فلما خلا به قال له عبد الملك : بشرط ثلاث خصال : لا تطر نفسي عندك فأنا أعلم بها منك ، ولا تغتب عندي أحدا فلست أسمع منك ، ولا تكذبني فلا رأي لمكذب .

قال : أتأذن لي في الانصراف ؟

قال : اذا شئت .

عبد الملك وعامل له قبل هدية

وذكر الهيثم وغيره من الأخباريين أن عبد الملك بلغه عن عامل من عمالـه أنـه قبـل الهدايا ، فأشخصه اليه ، فلما دخل عليه قال له : أقبلت هدية منذ وليت ؟

قال له : يا أمير المؤمنين ، بلادك عامرة ، وخراجك موفور ، ورعيتك على أفضـل حال .

قال : أجب فيما سألتك عنه ، أقبلت هدية منذ وليتك ؟

قال : نعم .

قال : إن كنت قبلت ولم تعوض انك للئيم ، ولئن كنت أنلت مهديها من غير مالك أو استكفيته ما لم يكن مثله مستكفاه انك لخائن جائر ، وما أتيت أمر لا تخلو فيه من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع .

وأمر بصرفه من عمله .

عبد الملك وعمرو بن بلال
يصلح بينه وبين زوجته

وحدث المنقري عن الضبي قال : قال الوليد بن اسحاق : قال ابن عباس : كانت عاتكة بنت يزيد بن معاوية ـ وأمها أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر ـ تحت عبد الملك بن مروان ، فغضبت عليه ، فطلب رضاها بكل شيء ، فأبت عليه . وكانت أحب الناس اليه ، فشكا ذلك الى خاصته ، فقال له عمرو بن بلال ، رجل من بني أسد كان قد تزوج بنت زنباع الجذامي : ما لي عليك ان أرضيتها ؟

قال : حكمك .

فخرج وجلس ببابها يبكي ، فقالت له خاصتها : مالك تبكي أبا حفص ؟

قال : فزعت الى ابنة عمي فاستأذنوا لي عليها .

فأذنت له وبينهما ستر فقال : قد عرفت حالي مع أمراء المؤمنين معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك ، ولم يكن لي غير ابنين فعدا احدهما على الآخر فقتله ، فقال أمير المؤمنين : أنا قاتل المعتدي ، قلت له : أنا ولي الدم وقد عفوت ، فأبى علي وقال : ما أحب ان أعود رعيتي هذا ، وهو قاتله بالغداة ، فأنشدك الله الا ما طلبته منه .

فقالت : لا أكلمه .

قال : ما أظنك تكسبين شيئا هو أفضل من احياء نفس ، ولم يزل بها خواصها وخدمها وحاشيتها حتى قالت : علي بثيابي .

فلبست ، وكان بينها وبين عبد الملك باب ، وكانت قد ردمته ، فأمرت بفتحه ، ثم دخلت فأقبل الخصي يشتد فقال : يا أمير المؤمنين ، هذه عاتكة .

قال : ويلك ، ورأيتها ؟

قال : نعم ، اذ طلعت وعبد الملك على سريره ، فسلمت ، فسكت .

فقالت له : أما والله لولا مكان عمرو بن بلال ما أتيتك ، آلله أن عدا أحد ابنيه على الآخر فقتله وهو ولي الدم وقد عفا عنه أعزمت لتقتلنه .

قال : أي والله ، وهو راغم .

فأخذت بيده ، فأعرض عنها ، فأخذت برجله فقبلتها .

فقال : هو لك . وتراضيا بعد أن نكحها ثلاثا .

وراح عبدالملك فجلس مجلسه للخاصة ، فدخل عمرو بن بلال ، فقال له : يا أبا حفص ، ألطفت الحيلة في القيادة ، ولك الحكم .

فقال : يا أمير المؤمنين ، ألف دينار ومزرعة بما فيها من الآلات والرقيق .

قال : هي لك .

قال : وفرائض لولدي وأهل بيتي .

قال : وذلك كله .

وبلغ عاتكة الخبر ، فقالت : ويلي على القواد ، إنما خدعني .

الحجاج يصف الفتنة

وكتب عبد الملك الى الحجاج أن صف لي الفتنة .

فكتب اليه : إن الفتنة تشب بالنجوى ، وتحصد بالشكوى ، وتنتج بالخطب .

فكتب اليه : إنك قد أصبت وأحسنت الصفة ، فان أردت أن يستقيم لك من قبلك فخذهم بالجماعة ، وأعطهم عطاء الفرقة ، وألصق بهم الحاجة .

وحدثنا المنقري ، قال : حدثنا أبو الوليد الصباح بن الوليد قال : حدثنا أبو رياش ضبة بن نفاقة ، عن مقلس بن سابق الدمشقي ثم السكسكي ، أن عبد الملك لما بلغه خلع ابن الأشعث صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن أهل العراق استعجلوا قدري قبل انقضاء أجلي ، اللهم لا تسلطنا على من هو خير منا ، ولا تسلط علينا من نحن خير منه ، اللهم سلط سيف أهل الشام على أهل العراق حتى يبلغ رضاك ، فاذا بلغه فلا تجاوز به سخطك .

كتاب من عبد الملك الى الحجاج لم يفهمه

وكتب عبد الملك الى الحجاج : أنت عندي سالم ، فلم يعرف ما أراد بذلك ، فكتب الى قتيبة بن مسلم يسأله عن ذلك ، وبعث الكتاب مع رسول ، فلما ورد على قتيبة وناوله الكتاب ضرط الرسول ، فخجل واستحيا ، فقرأه قتيبة وأراد أن يقول له اقعد ، فقال : اضرط .

قال : قد فعلت .

فاستحيا قتيبة ، وقال : ما أردت الا أن أقول لك اقعد فغلطت .

فقال : قد غلطت أنا وغلطت أنت .

قال قتيبة : ولا سواء ، أغلط أنا من فمي ، وتغلط أنت من استك ، أعلم الأمير ان سالما كان عبدا لرجل ، وكان عنده أثيرا ، وكان يسعى به اليه كثيرا ، فقال :

يديرونني عن سالم وأديرهم وجلدة بين العين والأنف سالم

فأراد عبد الملك أنك عندي بمنزلة سالم ، فلما أتى الحجاج بالرسالة كتب له عهدا على خراسان .

وقد روي نحو هذا الخبر عن رجل كان في مجلس خالد بن عبد الله القسري فضرط ، فلما حضر الغداء قام ذلك الرجل ، فقال له خالد : اقعد ، فأبى .

فقال له : أقسمت عليك لتضرطن .

قال : قد ضرطت .

فخجل خالد ، واعتذر اليه وأمر له بمال .

وأهدى الى عبد الملك أترسة مكللة بالدرر والياقوت ، فأعجبته ، وعنده جماعة من خاصته وأهل خلوته ، فقال لرجل من جلسائه اسمه خالد : اغمز منها ترسا ، وأراد أن يمتحن صلابته .

فقام فغمز فضرط ، فاستضحك عبد الملك ، فضحك جلساؤه ، فقال : كم دية الضرطة ؟

فقال بعضهم : أربعمائة درهم وقطيفة .

فأمر له بذلك ، فأنشأ رجل من القوم :

أيضرط خالد من غمز ترس ويحبوه الأمير بها بدورا

فيالك ضرطة جلبت غناء ويالك ضرطة أغنت فقيرا

يود الناس لو ضرطوا فنالوا من المال الذي اعطى عشيرا

ولو نعلم بأن الضرط يغني ضرطنا ، أصلح الله الأميرا

فقال عبد الملك : أعطوه أربعة آلاف درهم ، ولا حاجة لنا في ضراطك .

عبدالملك يحج

وحدثنا أحمد بن سعيد الدمشقي والطوسي وغيرهما في كتاب الأخبار المعروف

بالموقعيات ، عن الزبير بن بكار ، قال : حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن يزيد عن عتبة بن أبي لهب ، قال : حج عبد الملك في بعض أعوامه ، فأمر للناس بالعطاء ، فخرجت بدرة مكتوب عليها « من الصدقة » ، فأبى أهل المدينة من قبولها وقالوا : إنما كان عطاؤنا من الفيء .

فقال عبد الملك وهو على المنبر : يا معشر قريش ، مثلنا ومثلكم أن أخوين في الجاهلية خرجا مسافرين ، فنزلا في ظل شجرة تحت صفاة ، فلما دنا الرواح خرجت اليهما من تحت الصفاة حية تحمل دينارا فألقته اليهما .

فقالا : إن هذا لمن كنز .

فأقاما عليها ثلاثة أيام ، كل يوم تخرج اليهما دينارا ، فقال أحدهما لصاحبه ، الى متى ننتظر هذه الحية ؟ ألا نقتلها ونحفر هذا الكنز فنأخذه ؟

فنهاه أخوه ، وقال له : ما تدري لعلك تعطب ولا تدرك المال .

فأبى عليه ، وأخذ فأسا معه ورصد الحية حتى خرجت ، فضربها ضربة جرحت رأسها ولم تقتلها ، فثارت الحية فقتلته ، ورجعت الى جحرها ، فقام أخوه فدفنه. وأقام حتى اذا كان من الغد خرجت الحية معصوبا رأسها ليس معها شيء ، فقال لها : يا هذه ، إني والله ما رضيت ما أصابك ، ولقد نهيت أخي عن ذلك ، فهل لك ان تجعلي الله بيننا ألا تضريني ولا أضرك ، ترجعين الى ما كنت عليه ؟

قالت الحية : لا .

قال : ولم ذلك ؟

قالت : إني لأعلم أن نفسك لا تطيب لي أبدا وأنت ترى قبر أخيك ، ونفسي لا تطيب لك أبدا وأنا أذكر هذه الشجة .

وأنشدهم شعر النابغة :

فقالت : أرى قبرا تراه مقابلي وضربة فأس فوق رأسي فاقره

فيا معشر قريش ، وليكم عمر بن الخطاب فكان فظا غليظا مضيقا عليكم ، فسمعتم له وأطعتم ، ثم وليكم عثمان فكان سهلا لينا كريما فعدوتم عليه فقتلتموه ، وبعثنا عليكم مسلما يوم الحرة فقتلتموه . فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تحبوننا أبدا وأنتم تذكرون يوم الحرة ، ونحن لا نحبكم أبدا ونحن نذكر مقتل عثمان .

روح بن زنباع وعبد الملك

وحدث المدائني وابن دأب ان روح بن زنباع جليس عبد الملك رأى منه اعراضا وجفوة ، فقال للوليد بن عبد الملك : أما ترى ما أنا فيه من أمير المؤمنين باعراضه عني بوجهه حتى لقد فغرت السباع بأفواهها نحوي ، وأهوت بمخالبها الى وجهي ؟

فقال له الوليد : احتل له في حديث تضحكه به كما احتال مرزبان نديم سابور بن سابور ملك فارس .

قال روح : وما كان من خبره مع الملك ؟

قال الوليد : كان مرزبان هذا من سمار سابور ، فظهرت له من سابور جفوة ، فلما علم ذلك تعلم نباح الكلاب ، وعواء الذئاب ، ونهيق الحمير ، وزقاء الديوك ، وشحيج البغل ، وصهيل الخيل ، ومثل هذا .

ثم احتال حتى توصل الى موضع يقرب من مجلس خلوة الملك وفراشه ، وأخفى أثره ، فلما خلا الملك نبح نباح الكلاب ، فلم يشك الملك أنه كلب ، فقال الملك : انظروا ما هذا ؟

فعوى عواء الذئاب ، فنزل الملك عن سريره ، فنهق نهيق الحمير ، فمضى الملك هاربا ، ومضى الغلمان يتبعون الأثر والصوت ، فكلما دنوا منه ترك ذلك الصوت وأحدث صوتا آخر من أصوات البهائم ، فأحجموا عنه .

ثم اجتمعوا فاقتحموا عليه فأخرجوه ، فلما نظروا اليه قالوا للملك : هذا مرزبان المضحك .

فضحك الملك ضحكا شديدا ، وقال له : ويلك ، ما حملك على هذا ؟

قال : إن الله مسخني كلبا وذئبا وحمارا وكل خلق لما غضبت علي .

فأمر الملك بالخلع عليه ، ورده الى مرتبته التي كان فيها ، وتجدد للملك به سرور .

فقال روح للوليد : اذا اطمأن المجلس بأمير المؤمنين فاسألني عن عبد الله بن عمر هل كان يمزح أو يسمع مزاحا ؟

قال الوليد : أفعل .

وكان ابن عمر صاحب سلامة لا يمزح ولا يعرف شيئا من المزاح .

فتقدم الوليد وسبقه بالدخول ، فتبعه روح ، فلما اطمأن بهما مجلس عبد الملك قال الوليد لروح : يا أبا زرعة ، هل كان ابن عمر يمزح أو يسمع المزاح ؟

قال روح : حدثني ابن أبي عتيق أن امرأته عاتكة بنت عبد الرحمن المخزومية هجته فقالت :

ذهــب الالــه بمــا تعيش به وقمــرت عيشــك أيمــا قمر
أنفقــت مالك غــير محتشم في كل زانية وفي الخمر

وكان ابن أبي عتيق صاحب غزل وفكاهة ، فأخذ هذين البيتين في رقعة وخرج بهذا الشعر ، فاذا هو بـابن عمر ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، انظر في هذه الرقعة وأشر علي برأيك فيها .

فلما قرأها عبد الله استرجع .

فقال له : ما ترى فيمن هجاني بهذا الشعر ؟

قال : أرى أن تعفو وتصفح .

قال : والله يا أبا عبد الرحمن لئن لقيته بناحية لأنكحنه نكاحا جيدا .

فأخذت ابن عمر أفكل ورعدة واربد لونه ، وقال : ما لك غضب الله عليك ؟

فقال : ما هو الا ما قلت لك .

وافترقا ، فلما كان بعد أيام لقيه فأعرض عنه ابن عمر ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، اني لقيت صاحب البيتين ونكحته .

فصعق عبد الله بن عمر ، فلما رأى ما حل به دنا منه وقال له في أذنه : انها امرأتي .

فقام ابن عمر فقبل ما بين عينيه وضحك ، وقال : أحسنت ، فزدها .

فضحك عبد الملك حتى فحص برجله ، وقال له : قاتلك الله يا روح ، ما أطيب حديثك .

ومد يده اليه ، فقام اليه روح فأكب عليه وقبل أطرافه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، الذنب فأعتذر ، أم لملالة فأصطبر وأرجو عاقبتها ؟

قال : لا والله ما ذاك لشيء تكرهه .

ثم عاد الى أحسن حالاته .

عبد الملك الهمذاني
وسليمان بن المنصور

وقد حكي مثل هذا عن عبد الملك بن مهلهل الهمذاني ، وكان سميرا لسليمان بن المنصور ، وكان سليمان قد جفاه ، فأتاه يوما في قائم الظهيرة واحتدام الهجيرة فاستأذن ، فقال له الحاجب : ليس هذا بوقت اذن على الأمير .

فقال له : أعلمه بمكاني .

فدخل فاستأذن له ، فقال له سليمان : مرة يسلم قائما ويخفف .

فخرج الحاجب ، فأذن له وأمره بالتخفيف .

فدخل فسلم قائما ثم قال : أصلح الله الأمير ، اني انصرفت بالأمس الى نحو منزلي وقد أمسيت ، فبينا أنا في طريقي اذ أذن مؤذن ، فدنوت ، ثم صعدت الى مسجد مغلق ، فصعدت ، ثم صعدت ، ثم صعدت .

قال سليمان : فبلغت السماء فكان ماذا ؟

قال : فتقدم انسان اما كردي أو طمطماني فأم القوم بكلام لم أفهمه ولغة ما أعرفها ، فقال : ويل لكل زممة زما مالا وعده .

قال: يريد ويل لكل همزة لمزة، الذي جمع مالا وعدده، فاذا خلفه سكران ما يعقل سكرا ، فلما سمع قراءته ضرب بيديه ورجليه وجعل يقول : أيرعبكي درليلكا في حر ام قارئك ومصليك .

فضحك سليمان حتى تمرغ على فراشه ، وقال : ادن مني يا أبا محمد ، فأنت أطيب أمة محمد .

ثم دعا بخلعة ، وقال : الزم الباب واغد في كل يوم ، وعاد الى أحسن حالاته عنده .

ذِكر طَرَف مِن أخبَار الحجَّاج وَخُطَبِهِ
وَمَا كانَ مِنـه في بَعضِ أفعَالِهِ

سبب ولوع الحجاج بسفك الدماء

كانت أم الحجاج عند الحارث بن كلدة ، فدخل عليها في السحر فوجدها تتخلل ، فبعث اليها بطلاقها ، فقالت : لم بعثت الي بطلاقي ؟ ألشيء رابك مني ؟

قال : نعم ، دخلت عليك عند السحر وأنت تتخللين، فان كنت بادرت الغداء فأنت شرهة ، وان كنت بت والطعام بين أسنانك فأنت قذرة .

فقالت : كل ذلك لم يكن ، لكني تخللت من شظايا السواك .

فتزوجها بعده يوسف بن أبي عقيل الثقفي أبو الحجاج ، فولدت له الحجاج بن يوسف مشوها لا دبر له ، فثقب عن دبره ، وأبى أن يقبل ثدي أمه أو غيرها ، فأعياهم أمره ، فيقال : ان الشيطان تصور لهم في صورة الحارث بن كلدة ، فقال : ما خبركم ؟

فقالوا : ابن ولد ليوسف من الفارعة ـ وكان اسمها ـ وقد أبى أن يقبل ثدي أمه أو غيرها .

فقال : اذبحوا جديا أسود وأولغوه دمه ، فاذا كان في اليوم الثاني فافعلوا به كذلك ، فاذا كان في اليوم الثالث فاذبحوا له تيسا أسود وأولغوه دمه ، ثم اذبحوا له أسود سالخا فأولغوه دمه وأطلوا به وجهه ، فانه يقبل الثدي في اليوم الرابع .

قال : ففعلوا به ذلك ، فكان بعد لا يصبر عن سفك الدماء لما كان منه في بدء أمره هذا .

وكان الحجاج يخبر عن نفسه أن أكثر لذاته سفك الدماء ، وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره ، ولا سبق اليها سواه .

عبد الملك يولي المهلب
قتال الخوارج

حدثنا أبو جعفر محمد بن سليمان بن داود البصري المنقري ، قال : حدثني ابن عائشة وغيره قال : سمعت أبي يقول : لما غلبت الخوارج على البصرة ، بعث اليهم عبد الملك جيشا فهزموه ، ثم بعث اليهم آخر فهزموه ، فقال : من للبصرة والخوارج ؟

فقيل له : ليس لهم الا المهلب بن أبي صفرة ، فبعث الى المهلب ، فقال : على أن لي خراج ما أجليتهم عنه .

قال : اذن تشركني في ملكي .

قال : فثلثاه .

قال : لا .

قال : فنصفه ، والله لا أنقص منه شيئا ، على أن تمدني بالرجال ، فاذا أخللت فلا حق لك علي .

فجعلوا يقولون : ولّى عبد الملك على العراق رجلا ضعيفا .

وجعل يقول : بعثت المهلب حتى يحارب الخوارج فركب دجلة .

عبد الملك يولي الحجاج العراق

ثم كتب المهلب الى عبد الملك : انه ليس عندي رجال أقاتل بهم ، فاما بعثت الي بالرجال واما خليت بينهم وبين البصرة .

فخرج عبد الملك الى أصحابه فقال : ويلكم ، من للعراق ؟

فسكت الناس وقام الحجاج وقال : أنا لها .

قال : اجلس .

ثم قال : ويلكم ، من للعراق ؟

فصمتوا ، وقام الحجاج وقال : أنا لها .

قال : اجلس .

ثم قال : ويلكم ، من للعراق ؟

فصمتوا ، وقام الحجاج الثالثة فقال : والله أنا لها يا أمير المؤمنين .

قال : أنت زنبورها .

فكتب اليه عهده ، فلما بلغ القادسية أمر الجيش أن يقبلوا وأن يروحوا وراءه ، ودعا بجمل عليه قتب ، فجلس عليه بغير حشية ولا وطاء ، وأخذ الكتاب بيده ، ولبس ثياب السفر ، وتعمم بعمامته حتى دخل الكوفة وحده ، فجعل ينادي : الصلاة جامعة ، وما منهم رجل جالس في مجلسه الا ومعه العشرون والثلاثون وأكثر من ذلك من أهله ومواليه .

وصعد المنبر متلثما متنكبا قوسه ، فجلس واضعا ابهامه على فيه ، فقال بعضهم لبعض : قوموا حتى نحصبه .

فدخل محمد بن عمير الدارمي في مواليه ، فلما رأى الحجاج جالسا على المنبر لا يجنب ولا ينطق قال : لعن الله بني أمية حين يولون العراق مثل هذا ، لقد ضيع الله العراق حيث يكون مثل هذا عليها .

ثم ضرب بيده الى حصباء المسجد ليحصبه ، وقال : واللّه لو وجدوا أذم من هذا لبعثوه الينا .

فلما هم أن يحصبه قال له بعض أهل بيته : أصلحك اللّه ، أكفف عن الرجل حتى نسمع ما يقول .

فمن قائل يقول : حصر الرجل فما يقدر على الكلام .

ومن قائل يقول : أعرابي ما أبصر حجته .

خطبة الحجاج مقدمه العراق

فلما غص المسجد بأهله حسر اللثام عن وجهه ثم قام ، ونحى العمامة عن رأسه ، فواللّه ما حمد اللّه ولا أثنى عليه ، ولا صلى على نبيه ، وكان أول ما بدأهم به أن قال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

اني واللّه لأرى أبصارا طامحة ، وأعناقا متطاولة ، ورؤوسا قد أينعت وحان قطافها ، واني أنا صاحبها . كأني أنظر الى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى .

هذا أوان الحرب فاشتدي زيم قد لفها الليل بسواق حطم
ليس براعي ابل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم

وقال :

قد لفها الليل بعصلبي أروع خِراج من الدوي

مهاجر ليس بأعرابي

وقال :

قد شمرت عن ساقها فكدوا وجدت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وتر عرد مثل ذراع البكر أو أشد

ان أمير المؤمنين نثر كنانته ، فوجدني أمّرها طعما وأحدها سنانا ، وأقواها قداحا . فان

تستقيموا تستقم لكم الأمور ، وان تأخذوا لي بنيات الطريق تجدوني لكل مرصد مرصدا ، والله لا أقيل لكم عثرة ، ولا أقبل منكم عذرة .

يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق ، والله ما أغمز كتغماز التين ، ولا يقعقع لي بالشنان ، ولقد فررت عن ذكاء ، وفتشت عن تجربة ، والله لألحونكم لحو العود ، ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل ، ولأقرعنكم قرع المروة .

يا أهل العراق ، طالما سعيتم في الضلالة ، وسلكتم سبيل الغواية ، وسننتم سنن السوء ، وتماديتم في الجهالة . يا عبيد العصا وأولاد الاماء ، أنا الحجاج بن يوسف ، اني والله لا أعد الا وفيت ، فاياكم وهذه الزرافات والجماعات ، وقال وقيل ، وما يكون وما هو كائن ، وما أنتم وذاك يا بني اللكيعة ؟ لينظر الرجل في أمر نفسه ، وليحذر أن يكون من فرائسي .

يا أهل العراق ، انما مثلكم كما قال الله عز وجل : « كمثل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف . . . » .

فأسرعوا واستقيموا ، واعتدلوا ولا تميلوا ، وشايعوا وبايعوا واخضعوا ، واعلموا أنه ليس مني الاكثار والاهذار ، ولا منكم الفرار والنفار ، انما هو انتضاء السيف ، ثم لا أغمده في شتاء ولا صيف ، حتى يقيم الله لأمير المؤمنين أودكم ، ويذل له صعبكم .

إني نظرت فوجدت الصدق مع البر ، ووجدت البر في الجنة ، ووجدت الكذب مع الفجور ، ووجدت الفجور في النار .

ألا وان أمير المؤمنين أمرني باعطائكم أعطياتكم ، واشخاصكم الى محاربة عدوكم مع المهلب ، وقد أمرتكم بذلك ، وأجلت لكم ثلاثا ، وأعطيت الله عهدا يؤاخذني به ويستوفيه مني ألا أجد أحدا من بعث المهلب بعدها الا ضربت عنقه ، وانتهبت ماله .

يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين .

فقال الكاتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين الى من بالعراق من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم ، فاني اليكم أحمد الله الذي لا اله الا هو .

فقال الحجاج : اسكت يا غلام .

ثم قال مغضبا : يا أهل العراق ، يا أهل النفاق والشقاق ومساوىء الأخلاق ، يا

أهل الفرقة والضلال ، يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون عليه السلام ؟ أما والله لئن بقيت لكم لألحونكم لحو العود ، ولأؤدبنكم أدبا سوى هذا الأدب ، هذا أدب ابن سمية (وهو صاحب شرطة كان بالعراق) ، اقرأ ياغلام الكتاب .

فلما بلغ السلام ، قال أهل المسجد : وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته .

ثم نزل ، وأمر للناس بأعطياتهم ، والمهلب يومئذ بمهرجان قدق يقاتل الأزارقة .

فلما كان اليوم الثالث جلس الحجاج بنفسه يعرض الناس ، فمر به عمير بن ضابىء التميمي البرجمي ، ثم أحد بني الحدادية ، وكان من أشراف أهل الكوفة ، وكان من بعث المهلب ، فقال : أصلح الله الأمير ، اني شيخ كبير زمن عليل ضعيف ، ولي عدة أولاد ، فليختر الأمير أيهم شاء مكاني ، أشدهم ظهرا ، وأكرمهم فرسا ، وأتمهم أداة .

قال الحجاج : لا بأس بشاب مكان شيخ .

فلما ولي قال له عنبسة بن سعيد ومالك ابن أسماء : أصلح الله الأمير ، أتعرف هذا ؟

قال : لا .

قالا : هو عمير بن ضابىء التميمي الذي وثب على أمير المؤمنين عثمان وهو مقتول فكسر ضلعا من أضلاعه .

فقال الحجاج : علي به .

فأتي به ، فقال له : أيها الشيخ ، أنت الواثب على أمير المؤمنين عثمان بعد قتله ، والكاسر ضلعا من أضلاعه ؟

فقال له : انه كان حبس أبي شيخا كبيرا ضعيفا فلم يطلقه حتى مات في سجنه .

فقال الحجاج : أما أمير المؤمنين عثمان فتغزوه بنفسك ، وأما الأزارقة فتبعث اليهم بالبدلاء ، أو ليس أبوك الذي يقول :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني فعلت وأوليت البكاء حلائله

أما والله ان في قتلك أيها الشيخ لصلاح المصرين ، ثم أقبل يصعد بصره اليه ويصوبه ، ويعض على لحيته مرة ويسرحها أخرى ، ثم أقبل عليه فقال : يا عمير سمعت مقالتي على المنبر ؟

فقال : نعم .

قال : والله انه لقبيح بمثلي أن يكون كذابا قم اليه يا غلام فاضرب عنقه .

ففعل ، فلما قتل ركب الناس كل صعب وذلول ، وخرجوا على وجوههم يريدون المهلب فازدحموا على الجسر حتى سقط بعض الناس في الفرات ، فأتاه صاحب الجسر فقال : أصلح اللّه الأمير ، قد سقط بعض الناس في الفرات .

قال : ويحك ، ولم ذلك ؟

قال : أهل هذا البعث ازدحموا على الجسر حتى ضاق بهم .

قال : انطلق فاعقد لهم جسرين .

وخرج عبد اللّه بن الزبير الأسدي مذعورا ، حتى اذا كان عند اللجامين لقيه رجل من قومه يقال له ابراهيم ، فقال له : ما الخبر ؟

فقال ابن الزبير : الشر الشر ، قتل عمير من بعث المهلب ، وأنشأ يقول :

أقول لابراهيم لما لقيته	أرى الأمر أمسى مهلكا متصعبا
تجهز فاما أن تزور ابن ضابىء	عميرا واما أن تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما	ركوبك حوليا من الثلج أشهبا
فأضحى ولو كانت خراسان دونه	رآها مكان السوق أو هو أقربا
والا فما الحجاج مغمد سيفه	مدى الدهر حتى يترك الطفل أشيبا

وخرج الناس هربا الى السواد ، وأرسلوا الى أهاليهم أن زودونا ونحن بمكاننا .

وقال الحجاج لصاحب الجسر : افتح ولا تحل بين أحد وبين الخروج ، ووجه العراض الى المهلب .

فما أتت على المهلب عاشرة حتى ازدحموا عليه ، فقال : من هذا الذي استعمل على العراق ، هذا واللّه الذكر من الرجال ؟ فويل واللّه للعدو ان شاء اللّه تعالى .

خروج ابن الأشعث

وقد كان الحجاج استعمل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على سجستان وبست والرخج ، فحارب من هنالك من أمم الترك ، وهم انواع من الترك يقال لهم العوز والخلج ، وحارب من يلي تلك البلاد من ملوك الهند ، مثل رتبيل وغيره .

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب مراتب ملوك الهند وغيرهم من ملوك العالم . وذكرنا مملكة كل واحد منهم ، والصقع الذي هو به ، وذوي السمات منهم ، وبينا أن كل ملك يلي هذا الصقع من بلاد الهند يقال له رتبيل .

فخلع ابن الأشعث طاعة الحجاج ، وصار الى بلاد كرمان ، فثنى بخلع عبد الملك ،

وانقاد الى طاعته أهل البصرة والجبال مما يلي الكوفة والبصرة وغيرهما ، وسار الحجاج الى البصرة ، وسار ابن الأشعث اليه ، فكانت له حروب عظيمة ، وفي عبد الرحمن بن الأشعث يقول الشاعر :

خلع الملوك وصار تحت لوائه   شجر العرى وعراعر الأقوام

وكتب الحجاج بن يوسف الى عبد الملك يعلمه بخبر ابن الأشعث ، فكتب اليه عبد الملك : لعمري لقد خلع طاعة اللّه بيمينه ، وسلطانه بشماله ، وخرج من الدين عريانا ، واني لأرجو أن يكون هلاكه وهلاك أهل بيته واستئصالهم في ذلك على يدي أمير المؤمنين ، وما جوابه عندي في خلع الطاعة الا قول القائل :

أناة وحلما وانتظارا بهم غدا   فما أنا بالواني ولا الضرع الغمر
أظن صروف الدهر والجهل منهم   ستحملكم مني على مركب وعر
ألم تعلموا أني تخاف عرامتي   وأن قناتي لا تلين على الكسر

ودخل ابن الأشعث بالكوفة ، وكتب الحجاج كتابا الى عبد الملك يذكر فيه جيوش ابن الأشعث وكثرتها ، ويستنجد عبد الملك ويسأله الأمداد ، وقال في كتابه : واغوثاه يا اللّه ، واغوثاه يا اللّه ، واغوثاه يا اللّه .

فأمده بالجيوش وكتب اليه : يالبيك ، يا لبيك ، يا لبيك .

وقائع دير الجماجم وقتل ابن الأشعث

فالتقى الحجاج وابن الأشعث بالموضع المعروف بدير الجماجم ، فكانت بينهم وقائع نيف وثمانون وقعة تفانى فيها خلق ، وذلك في سنة اثنتين وثمانين ، وكانت على ابن الأشعث ، فمضى حتى انتهى الى ملوك الهند .

ولم يزل الحجاج يحتال في قتله حتى قتل ، وأتى برأسه ، فعلا الحجاج منبر الكوفة ، فحمد اللّه وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى اللّه عليه وسلم ، ثم قال : يا أهل العراق ، ان الشيطان استبطنكم ، فخالط اللحم منكم والعظم والأطراف والأعضاء ، وجرى منكم مجرى الدم ، وأفضى الى الأضلاع والأمخاخ ، فحشا ما هناك شقاقا واختلافا ونفاقا . ثم أربع فيه فعشش ، وباض فيه ففرخ ، واتخذتموه دليلا تتابعونه ، وقائدا تطاوعونه ومؤمرا تستأمرونه .

ألستم أصحابي بالأهواز حين سعيتم بالغدر بي فاستجمعتم علي وحيث ظننتم أن اللّه سيخذل دينه وخلافته . وأقسم باللّه اني لأراكم بطرفي وأنتم تتسللون لواذا منهزمين ، سراعا مفترقين ، كل امرىء منكم على عنقه السيف رعبا وجبنا .
ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية ؟ بها كان فشلكم وتخاذلكم ، وبراءة اللّه منكم ، وتوليكم على أكتافكم السيوف هاربين ، ونكوص وليكم عنكم ، اذ وليتم كالابل الشوارد الى أوطانها ، لا يسأل الرجل عن بنيه ، ولا يلوي امرؤ على أخيه ، حتى عضتكم السلاح ، وقصفتكم الرماح ، ويوم دير الجماجم ، بها كانت الملاحم ، والمعارك العظائم :

ضربا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

فما الذي أرجوه منكم يا أهل العراق ، أم ما الذي أتوقعه ، ولماذا أستبقيكم ، ولأي شيء أدخركم ؟ أللفجرات بعد العدوات ، أم للنزوة بعد النزوات ، وما الذي أراقب لكم ، وما الذي أنتظر فيكم ؟ . . ان بعثتم الى ثغوركم جبنتم ، وان أمنتم أو خفتم نافقتم ، لا تجزون بحسنة ولا تشكرون بنعمة .
يا أهل العراق ، هل استنبحكم نابح ، أو استشلاكم غاو ، أو استخفكم ناكث ، أو استنفركم عاص الا تابعتموه وبايعتموه ، وآويتموه وكفيتموه ؟
يا آهل العراق ، هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو دبي كاذب الا كنتم أنصاره وأشياعه ؟

يا أهل العراق ، لم تنفعكم التجارب وتحفظكم المواعظ ، وتعظكم الوقائع ، هل يقع في صدوركم ما أوقع اللّه بكم عند مصادر الأمور ومواردها .
يا أهل الشام ، أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ، ينفي عنهن القذى ، ويكنفهن من المطر ، ويحفظهن من الذئاب ، ويحميهن من سائر الدواب ، لا يخلص اليهن معه قذى ، ولا يفضي اليهن ردى ، ولا يمسهن أذى .
يا أهل الشام ، أنتم العدة والعدد ، والجنة في الحرب ، ان نحارب حاربتم ، أو نجانب جانبتم ، وما أنتم وأهل العراق الا كما قال نابغة بني جعدة :

وان تداعيهم حظهم ولم ترزقوه ولم نكذب
كقول اليهود : قتلنا المسيح ولم يقتلوه ولم يصلب

في أبيات .

من عبد الملك الى الحجاج

ولما أسرف الحجاج في قتل أسارى دير الجماجم واعطائه الأموال بلغ ذلك عبد الملك ، فكتب اليه ، أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك في الدماء ، وتبذيرك في الأموال ، ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس ، وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الدماء في الخطأ الدية وفي العمد القود ، وفي الأموال ردها الى مواضعها ، ثم العمل فيها برأيه . فانما أمير المؤمنين أمين اللّه ، وسيان عنده منع حق واعطاء باطل .

فان كنت أردت الناس له فما أغناهم عنك ، وان كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم ، وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران لين وشدة ، فلا يؤنسنك الا الطاعة ، ولا يوحشنك الا المعصية ، وظن بأمير المؤمنين كل شيء الا احتمالك على الخطأ ، واذا أعطاك الظفر على قوم فلا تقتلن جانحا ولا أسيرا .

وكتب في أسفل كتابه :

اذا أنت لم تترك أمورا كرهتها	وتطلب رضائي بالذي أنا طالبه
وتخشى الذي يخشاه مثلك هاربا	الى اللّه منه ضيع الدر حالبه
فان تر مني غفلة قرشية	فيا ربما قد غص بالماء شاربه
وان تر مني وثبة أموية	فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه
فلا لا تلمني والحوادث جمة	فانك مجزي بما أنت كاسبه
ولا تعد ما يأتيك مني وان تعد	يقوم بها يوما عليك نوادبه
ولا تنقصن للناس حقا علمته	ولا تعطين ما ليس للّه جانبه

وهي أبيات من جيد ما اخترناه من قول عبد الملك .

جواب الحجاج

فلما قرأ الحجاج كتابه كتب : أما بعد فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفي في الدماء ، وتبذيري في الأموال ، ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية ما هم أهله ، وما قضيت حق أهل الطاعة بما استحقوه ، فان كان قتلي أولئك العصاة سرفا واعطائي أولئك تبذيرا فليسوغني أمير المؤمنين ما سلف ، وليحد لي فيه حدا أنتهي اليه ان شاء اللّه تعالى ، ولا قوة الا باللّه ، وواللّه ما علي من عقل ولا قود ، ما أصبت القوم فأديهم ، ولا ظلمتهم فأقاديهم ، ولا أعطيتهم الا لك ، ولا قتلتهم الا فيك .

وأما ما أنا منتظره من أمريك فألينهما عدة ، وأعظمهما محنة ، فقد عبأت للعدة الجلاد ؛ وللمحنة الصبر .

وكتب في أسفل كتابه :

اذا أنا لم أتبع رضاك وأتقي	أذاك فيومي لا تزول كواكبه
وما لامرىء بعد الخليفة جنة	تقيه من الأمر الذي هو كاسبه
أسالم من سالمت من ذي قرابة	ومن لم تسالمه فاني محاربه
اذا قارف الحجاج منك خطيئة	فقامت عليه في الصباح نوادبه
اذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه	وأقصي الذي تسري الي عقاربه
فمن ذا الذي يرجو نوالي ويتقي	مصاولتي ، والدهر جم نوائبه ؟
فقف بي على حد الرضا لا أجوزه	مدى الدهر حتى يرجع الدر حالبه
والا فدعني والأمور فانني	شفيق رفيق أحكمتني تجاربه

وهي أبيات من جيد ما اخترنا من شعر الحجاج .

فلما انتهى كتابه الى عبد الملك قال : خاف أبو محمد صولتي ، ولن أعود لشيء يكرهه .

الحجاج يلتمس محدثا مؤنسا

وحدث حماد الراوية أن الحجاج سهر ليلة بالكوفة ، فقال لحرسي : ائتني بمحدث من المسجد .

فاعترض رجلا جسيما عظيما ، فقال له : أجب الأمير .

فانطلق به حتى أدخله اليه ، فلم يسلّم ولا نطق حتى قال له الحجاج : ايه ما عندك ؟

فلم يتكلم ، فقال للحرسي : أخرجه أخرج اللّه نفسك ، أمرتك أن تأتيني بمحدث فأتيتني بمرعوب قد ذهب فؤاده .

فخرج الحجاج ومعه صرة دراهم الى المسجد ، فجعل يناول الناس فيأخذونها ، حتى انتهى الى شيخ ، فأعطاه الحجاج فنبذها ، فأعادها الحجاج فردها ، ففعل ذلك الحجاج ثلاثا . فدنا منه الحجاج وقال : أنا الحجاج ، فأخذها .

ودخل القصر ، وقال للحرسي : ألحقني به .

فدخل فسلم بلسان ذلق وقلب شديد ، فقال له الحجاج : ممن الرجل ؟

فقال : من بني شيبان .
قال : ما اسمك ؟
قال : سميرة بن الجعد .
قال : ياسميرة ، هل قرأت القرآن ؟
قال : جمعته في صدري ، فان عملت به فقد حفظته ، وان لم أعمل به ضيعته .
قال : فهل تفرض ؟
قال : اني لأفرض الصلب ، وأعرف الاختلاف في الجد .
قال : فهل تبصر الفقه ؟
قال : اني لأبصر ما أقوم به أهلي ، وأرشد ذا العمى من قومي .
قال : فهل تعرف النجوم ؟
قال : اني لأعرف منازل القمر ، وما أهتدي به في السفر .
قال : فهل تروي الشعر ؟
قال : اني لأروي المثل والشاهد .
قال : المثل قد عرفناه ، فما الشاهد ؟
قال : اليوم يكون للعرب من أيامها عليه شاهد من الشعر ، فاني أروي ذلك الشاهد .

فاتخذه الحجاج سميرا ، فلم يك يطلب شيئا من الحديث الا وجد عنده منه علما ، وكان يرى رأي الخوارج ، وكان من أصحاب قطري بن الفجاءة التميمي ، والفجاءة أمه ، وكانت من بني شيبان ، وانما هو رجل من تميم .

وكان قطري يومئذ يحارب المهلب ، فبلغ قطريا مكان سميرة من الحجاج ، فكتب اليه بأبيات منها :

لشتان ما بين ابن جعد وبيننا ... اذا نحن رحنا في الحديد المظاهر
نجاهد فرسان المهلب كلنا ... صبور على وقع السيوف البواتر
وراح يجز الخز عند أميره ... أمير بتقوى ربه غير آمر
أبا الجعد ، أين العلم والحلم والنهي ... وميراث آباء كرام العناصر
ألم تر أن الموت لا شك نازل ... ولا بد من بعث الألى في المقابر
حفاة عراة والثواب لربهم ... فمن بين ذي ربح وآخر خاسر

فان الذي قد نلت يفنى ، وانما حياتك في الدنيا كوقعة طائر
فراجع أبا جعد ولاتك مفضيا على ظلمة أعشت جميع النواظر
وتب توبة تهدي اليك شهادة فانك ذو ذنب ولست بكافر
وسر نحونا تلق الجهاد غنيمة تفدك ابتياعا رابحا غير خاسر
هي الغاية القصوى الرغيب ثوابها اذا نال في الدنيا الغنى كل تاجر

فلما قرأ كتابه بكى وركب فرسه وأخذ سلاحه ، ولحق بقطري ، وطلبه الحجاج فلم يقدر عليه . ولم يشعر الحجاج الا وكتاب قد بدر منه فيه شعر قطري الذي كان كتب به اليه ، وفي أسفل الكتاب الى الحجاج أبيات ، منها :

فمن مبلغ الحجاج أن سميرة قلا كل دين غير دين الخوارج
رأى الناس الا من رأى مثل رأيه ملاعين تراكين قصد المخارج
فأقبلت نحو اللّه باللّه واثقا وما كربتي غير الاله بفارج
الى عصبة ، أما النهار فانهم هم الأسد أسد الغيل عند التهايج
وأما اذا ما الليل جن فانهم قيام كأنواح النساء النواشج
ينادون للتحكيم ، تاللّه انهم رأوا حكم عمرو كالرياح الهوائج
وحكم ابن قيس مثل ذاك فأعصموا بحبل شديد المتن ليس بناهج

فطرح الحجاج هذا الكتاب الى عنبسة بن سعيد ، فقال : هذا من سميرنا الشيباني ، وهو من الخوارج ، ولا نعلم به .
ولأبي الجعد سميرة بن الجعد سمير الحجاج هذا أشعار كثيرة ، منها قوله من أبيات :

عجبت لحالات البلاء وللدهر وللحين يأتي المرء من حيث لا يدري
وللناس يأتون الضلالة بعدما أتاهم من الرحمن نور من البدر
وللّه لا يخفى عليه صنيعنا حفيظ علينا في المقام وفي السفر
علا فوق عرش فوق سبع ، ودونه سماء يرى الأرواح من دونها تجري

وقد قيل : ان هذا الشعر لغيره من الخوارج .

بعض ما اتفق عليه الخوارج
وما اختلفوا عليه

ولأصناف من الخوارج أخبار حسان من الأزارقة والأباضية وغيرهم ، وقد أتينا على ذكرها في كتابينا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، وذكرنا ما اتفقت عليه الخوارج واجتمعت عليه من الأصول : من اكفارهم عثمان وعليا ، والخروج على الامام الجائر ، وتكفير مرتكب الكبائر ، والبراءة من الحكمين أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري وعمرو ابن العاص السهمي، وحكمهما ، والبراءة ممن صوب حكمهما أو رضي به ، واكفار معاوية وناصريه ومقلديه ومحبيه ، فهذا ما اتفقت عليه الخوارج من الشراة والحرورية .

ثم اختلفوا بعد ذلك في مواضع من العبارة عن التوحيد والوعد والوعيد ، والامامة ، وغير ذلك من آرائهم .

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في باب ذكر الحكمين أن أول من حكم بصفين عروة بن أذية التميمي ، وقيل : ان أول من حكم بصفين يزيد بن عاصم المحاربي ، وقيل : ان أول من حكم رجل من بني سعد بن زيد مناة بن تميم .

وكان أول من شرى بصفين من المحكمة رجل من بني يشكر ، وكان من وجوه ربيعة ممن كان مع علي ، فانه في ذلك اليوم ، قال : لا حكم الا لله ، ولا طاعة لمن عصى الله .

وخرج عن الصف ، فحمل على أصحاب علي فقتل منهم رجلا ، ثم حمل على أصحاب معاوية فتحاموه ولم يقدر على قتل أحد منهم ، وكر على أصحاب علي فقتله رجل من همدان .

ذكر بعض الخوارج

وقد أتى الهيثم بن عدي وأبو الحسن المدائني وأبو البختري القاضي وغيرهم على أخبار الخوارج وأصنافهم فيما أفردوه من كتبهم .

وذكر أصحاب المقالات في الآراء والديانات ما تنازعوا فيه من مذاهبهم عند تباينهم في فروعهم ، وما اجتمعوا عليه من أصولهم .

وقد أتينا على ما تنازعوا فيه من مذاهبهم في كتابنا في « المقالات في أصول الديانات » وذكرنا من خرج منهم من وقت التحكيم في عصر عصر ، الى آخر من خرج منهم بديار ربيعة على بني حمدان ، وذلك في سنة ثماني عشرة وثلثمائة ، وهو المعروف بعرون ، وخرج ببلاد كفر توثي ، وورد الى نصيبين ، فكانت له مع أهلها حرب أسر فيها وقتل منهم خلق عظيم ، والمعروف بأبي شعيب ، خرج في بني مالك وغيرهم من ربيعة ، وقد كان أدخل على المقتدر بالله .

وقد كان بعد العشرين والثلثمائة للأباضية ببلاد عمان مما يلي بلاد بروى وغيرها حروب وتحكيم وخروج وامام نصبوه فقتل وقتل من كان معه .

الحجاج وشبيب الخارجي

وفي سنة سبع وسبعين كانت للحجاج حروب مع شبيب الخارجي ، وولى عنه الحجاج بعد قتل ذريع كان في اصحابه حتى حصى عددهم بالقضيب ، فدخل الكوفة وتحصن في دار الامارة ، ودخل شبيب وأمه وزوجته غزالة الكوفة عند الصباح .

غزالة امرأة شبيب

وقد كانت غزالة نذرت أن تدخل مسجد الكوفة فتصلي فيه ركعتين تقرأ فيهما سورة البقرة وآل عمران ، فأتوا الجامع في سبعين رجلا ، فصلوا به الغداة ، وخرجت غزالة مما كانت أوجبته على نفسها .

فقال الناس بالكوفة في تلك السنة :

وفـت الغـزالـة نـذرها يـا رب لا تغفـر لهـا

وكانت الغزالة من الشجاعة والفروسية بالموضع العظيم ، وكذلك أم شبيب .

وقد كان عبد الملك ـ حين بلغه خبر هرب الحجاج ، وتحصنه في دار الامارة بالكوفة من شبيب ـ بعث من الشام بعساكر كثيرة عليها سفيان بن الأبرد الكلبي لقتال شبيب ، فقدم على الحجاج بالكوفة ، فخرجوا الى شبيب فحاربوه فانهزم شبيب وقتلت الغزالة وأمه .

ومضى شبيب في فوارس من أصحابـه ، وأتبعـه سفيان في أهـل الشـام ، فلحقــه بالأهواز ، فولى شبيب ، فلما وصل الى جسر دجيل نفر به فرسه وعليه الحديد الثقيل من درع ومغفر ، فألقاه في الماء ، فقال له بعض أصحابه : أغرقا يا أمير المؤمنين ؟

قال : ذلك تقدير العزيز العليم .

فألقاه دجيل ميتا بشطه ، فحمل على البريد الى الحجاج ، فأمر الحجاج بشق بطنـه واستخراج قلبه ، فاستخرج فاذا هو كالحجر اذا ضربت به الأرض نبا عنها . فشق فاذا في داخله قلب صغير كالكرة ، فشق فأصيب علقة الدم في داخله .

ابن القرية

وفي سنة اثنتين وثمانين قتل الحجاج ابن القرية لخروجه مع ابن الأشعث ، وانشائه الكتب له ، ووضعه الصدور والخطب ، وكان ابن القرية من البلاغة والعلم والفصاحـة

بالموضع الموصوف ، وقد أتينا على خبر مقتله ، وما كان من كلامه مع الحجاج ، وقد كان قتله صبرا ، في الكتاب الأوسط ، وأن قتله اياه كان بالسيف ، وقيل : بل قدم اليه فضربه الحجاج بحربة في نحره فأتى عليه .

وابن القرية القائل : الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر : فأما العاقل فان الدين شريعته ، والحلم طبيعته ، والرأي الحسن سجيته ، ان نطق أصاب ، وان كلم أجاب ، وان سمع العلم وعى ، وان سمع الفقه روى .

وأما الأحمق فان تكلم عجل ، وان حدث ذهل ، وان حمل على القبيح حمل .

وأما الفاجر فان استأمنته خانك ، وان صاحبته شانك ، وان استكتم لم يكتم ، وان علم لم يعلم ، وان حدث لم يصدق ، وان فقه لم يفقه .

ليلى الأخيلية والحجاج

وذكر المدائني أن الحجاج لم يكن يظهر لندمائه منه بشاشة ولا سماحة في الخلق الا في يوم دخلت عليه ليلى الأخيلية ، فقال لها : لقد بلغني أنك مررت بقبر توبة بن الحمير وعدلت عنه ، فوالله ما وفيت له ، ولو كان هو بمكانك وأنت بمكانه ما عدل عنك .

قالت : أصلح الله الأمير لي عذر .

قال : وما هو ؟

قالت : اني سمعته وهو يقول :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت ... علي وفوقي جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا ... اليها صدى من جانب القبر صائح

وكان معي نسوة قد سمعن قوله ، فكرهت أن أكذبه .

فاستحسن الحجاج قولها وقضى حوائجها ، وانبسط في محادثتها ، فلم تُر منه بشاشة وأريحية داخلته مثل ذلك اليوم .

وذكر حماد الراوية غير هذا الوجه ، وهو أن زوج ليلى حلف عليها ـ وقد خاف عليها وقد اجتازوا بقبر توبة ليلا ـ أن تنزل وتأتي قبره وتسلم عليه وتكذبه حيث يقول . . . وذكر البيتين المتقدمين .

قال : وأبت أن تفعل ، فأقسم عليها زوجها ، فنزلت حتى جاءت الى القبر ودموعها كغر السحاب ، فقالت : السلام عليك يا توبة .

فلم تستتم النداء حتى انفرج القبر عن طائر كالحمامة البيضاء ، فضربت صدرها

فوقعت ميتة ، فأخذوا في جهازها وكفنها ، ودفنت الى جانب قبره .

بعض عادات العرب

وللعرب فيا ذكرنا كلام كثير ، على حسب ما قدمنا فيا سلف من هذا الكتاب في آرائهم ومذاهبهم في الهام والصدى والصفر .

وقد كانت العرب تعقل الى جانب قبر الميت اذا دفن ناقة ، وتجعل عليه برذعة أو حشية يسمونها البلية . وقد ضربوا بذلك أمثالهم ، وذكره خطباؤهم في خطبهم ، فقالوا : البلايا على الولايا .

وقد كان بعضهم يتطير بالسانح ، ويتيامن بالبارح ، وبعضهم يضاد هذا ، فيتطير بالبارح ويتيامن بالسانح : فأهل نجد يتيامنون بالسانح ، وأهل التهائم بالضد من ذلك . . . على حسب ما قدمنا من قول عبيد الراعي فيا سلف من هذا الكتاب .

خطبة لعلي بن أبي طالب يعاتب أصحابه

حدثنا المنقري ، قال : حدثنا عبد العزيز بن الخطاب الكوفي ، قال : حدثنا فضيل ابن مرزوق، قال : لما غلب بسر بن أرطأة على اليمن ، وكان من قبله لابني عبيد اللّه بن عباس ـ وكان لأهل مكة والمدينة واليمن ـ ما كان ، قام علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه خطيبا ، فحمد اللّه وأثنى عليه ، وصلى على نبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ثم قال : ان بسر بن أرطأة قد غلب على اليمن ، واللّه ما أرى هؤلاء القوم الا سيغلبون على ما في أيديكم ، وما ذلك بحق في أيديهم ، ولكن بطاعتهم واستقامتهم لصاحبهم ، ومعصيتكم لي ، وتناصرهم وتخاذلكم ، واصلاح بلادهم وافساد بلادكم . وتاللّه يا أهل الكوفة لوددت أني صرفتكم صرف الدنانير العشرة بواحد .

ثم رفع يديه فقال : اللهم اني قد مللتهم وملوني ، وسئمتهم وسئموني ، فأبدلني بهم خيرا منهم ، وأبدلهم بي شرا مني . اللهم عجل عليهم بالغلام الثقفي الذيال الميال ، يأكل خضرتها ، ويلبس فروتها ، ويحكم فيها بحكم الجاهلية : لا يقبل من محسنها ، ولا يتجاوز عن مسيئها .

قال : وما كان ولد الحجاج يومئذ .

الحجاج يسأل عن النعمة

حدثنا الجوهري : عن سليان بن أبي شيخ الواسطي ، عن محمد بن يزيد ، عن سفيان بن حسين ، قال : سأل الحجاج الجوهري : ما النعمة ؟

قال : الأمن ، فاني رأيت الخائف لا ينتفع بعيش .

قال : زدني .
قال : الصحة ، فاني رأيت السقيم لا ينتفع بعيش .
قال : زدني .
قال : الشباب ، فاني رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش .
قال : زدني .
قال : الغنى ، فاني رأيت الفقير لا ينتفع بعيش .
قال : زدني .
قال : لا أجد مزيدا .

خطبة للحجاج وقد أرجف الناس بموته

حدثنا الجوهري ، عن مسلم بن ابراهيم أبي عمرو الفراهيدي ، عن الصلت بن دينار ، قال : مرض الحجاج فأرجف به أهل الكوفة فلما تماثل من علته صعد المنبر وهو يتثنى على أعواده فقال : ان أهل الشقاق والنفاق نفخ الشيطان في مناخرهم فقالوا : مات الحجاج ، ومات الحجاج فمه ؟ والله ما أرجو الخير كله الا بعد الموت ، وما رضي الله الخلود لأحد من خلقه في الدنيا الا لأهونهم عليه ، وهو ابليس .

والله لقد قال العبد الصالح سليمان بن داود : رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي ، فكان ذلك ، ثم اضمحل فكأن لم يكن .

يا أيها الرجل ، وكلكم ذلك الرجل ، كأني بكل حي ميتا ، وبكل رطب يابسا ، وقد نقل كل امرىء بثياب ظهره الى حفرته ، فخد له في الأرض ثلاثة أذرع طولا في ذراعين عرضا ، فأكلت الأرض لحمه ، ومصت من صديده ودمه ، وانقلب الحبيبان يقتسم أحدهما صاحبه : حبيبه من ولده يقتسم حبيبه من ماله . أما الذين يعملون فسيعلمون ما أقول . والسلام .

خطبة للحجاج يهدد ويتوعد

حدثنا المنقري ، عن مسلم بن ابراهيم أبي عمرو الفراهيدي ، عن الصلت بن دينار ، قال : سمعت الحجاج يقول : قال الله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » ، فهذه والله ، وفيها مثنوية[1] . وقال : « واسمعوا وأطيعوا » ، وهذه لعبد الله وخليفة الله ونجيب الله عبد الملك .

أما والله لو أمر الناس أن يدخلوا في هذا الشعب فدخلوا في غيره لكانت دماؤهم لي حلالا .

---

١ ـ مثنوية : أي استثناء .

عذيري من أهل هذه الحمراء ، يلقي أحدهم الحجر الى الأرض ويقول : إلى أن يبلغها يكون فرج الله ! لأجعلنهم كالرسم الداثر ، وكالأمس الغابر .

عذيري من عبد هذيل ، يقرأ القرآن كأنه رجز الأعراب . أما والله لو أدركته لضربت عنقه (يعني عبد الله بن مسعود) .

عذيري من سليمان بن داود يقول لربه ، « رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي » ، كان والله فيما علمت عبدا حسودا بخيلا .

الحجاج وعبد الله بن هانىء

وحدثنا المنقري ، عن عبيد بن ابي السري ، عن محمد بن هشام بن السائب عن أبيه ، عن عبد الرحمن بن السائب قال : قال الحجاج يوما لعبد الله بن هانىء وهو رجل من أود حي من اليمن ، وكان شريفا في قومه ، وقد شهد مع الحجاج مشاهده كلها ، وشهد معه تحريق البيت ، وكان من أنصاره وشيعته : والله ما كافأناك بعد .

ثم أرسل الى أسماء بن خارجة ـ وكان من فزارة ـ أن زوج عبد الله بن هانىء ابنتك .

فقال : لا والله ، ولا كرامة .

فدعا له بالسياط ، فقال : أنا أزوجه ، فزوجه .

ثم بعث الى سعيد بن قيس الهمداني رئيس اليمانية أن زوج عبد الله بن هانىء ابنتك .

قال : ومن أود ؟ والله لا أزوجه ولا كرامة .

قال : هاتوا السيف .

فقال : دعني حتى أشاور أهلي .

فشاورهم ، فقالوا : زوجه ، لا يقتلك هذا الفاسق ، فزوجه .

فقال له الحجاج : يا عبد الله ، قد زوجتك بنت سيد بني فزارة ، وابنة سيد همدان وعظيم كهلان ، وما أود هنالك .

فقال : لا تقل أصلح الله الأمير ذلك ، فان لنا مناقب ما هي لأحد من العرب .

قال : وما هذه المناقب ؟

قال : ما سب أمير المؤمنين عثمان في ناد لنا قط .

قال : هذه والله منقبة .

قال : وشهد منا صفين مع أمير المؤمنين معاوية سبعون رجلا ، وما شهدها مع أبي تراب منا الا رجل واحد ، وكان والله ـ ما علمته ـ امرأ سوء .

قال : وهذه والله منقبة .

قال : وما منا أحد تزوج امرأة تحب أبا تراب وتتولاه .
قال : وهذه واللّه منقبة .
قال : ومامنا امرأة الا نذرت ان قتل الحسين أن تنحر عشر جزائر لها ، ففعلت .
قال : وهذه واللّه منقبة .
قال : وما منا رجل عرض عليه شتم أبي تراب ولعنه الا فعل وقال : وأزيدكم ابنيه الحسن والحسين وأمهما فاطمة .
قال : وهذه واللّه منقبة .
قال : وما أحد من العرب له من الملاحة والصباحة ما لنا .
وضحك ، وكان دميا ، شديد الأدمة ، مجدورا في رأسه ، أعجر ، مائل الشدق ، أحول ، قبيح الوجه ، وحش المنظر .

الحجاج والشعبي

حدثنا المنقري ، عن جعفر بن عمرو الحرصي ، عن مجدي بن رجاء قال : سمعت عمران بن مسلم بن أبي بكر الهذلي يقول : سمعت الشعبي يقول : أتى بي الحجاج موثقا ، فلما دخلت عليه استقبلني يزيد بن مسلم فقال : انا للّه يا شعبي ، على ما بين دفتيك من العلم ، وليس بيوم شفاعة ، بؤ للأمير بالشرك وبالنفاق على نفسك فبالحري أن تنجو منه .
فلما دخلت عليه استقبلني محمد بن الحجاج فقال لي مثل مقالة يزيد .
فلما مثلت بين يدي الحجاج قال : وأنت يا شعبي فيمن خرج علينا وكثر .
قلت : نعم ، أصلح اللّه الأمير ، أحزن بنا المبرك ، وأجدب بنا الجناب وضاق المسلك ، واكتحلنا السهاد ، واستجلسنا الخوف ، ووقعنا في فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء .
قال : صدق ، واللّه ما بروا بخروجهم علينا ، ولا قووا اذ فجروا ، أطلقوا عنه .
قال الشعبي : ثم احتاج الى فريضة ، فقال : ما تقول في أخت وأم وجد ؟
قلت : اختلف فيها خمسة من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : عبد اللّه ، وزيد ، وعلي ، وعثمان ، وابن عباس .
قال : فماذا قال فيها ابن عباس ، فلقد كان متقيا ؟
قلت : جعل الجد أبا ، وأعطى الأم الثلث ، ولم يعط الأخت شيئا .
قال : فماذا قال فيها عبد اللّه ؟
قلت : جعلها من ستة ، فأعطى الأخت النصف ، وأعطى الأم السدس ، وأعطى

الجد الثلث .

قال : فما قال فيها زيد ؟

قلت : جعلها من تسعة ، فأعطى الأم ثلاثة ، وأعطى الأخت سهمين ، وأعطى الجد أربعة .

قال : فما قال فيها أمير المؤمنين عثمان ؟

قلت جعلها أثلاثا .

قال : فما قال فيها أبو تراب ؟

قلت : جعلها من ستة ، أعطى الأخت النصف ، وأعطى الأم الثلث ، وأعطى الجد السدس .

قال : فضرب بيده على أنفه ، وقال : انه المرء لا يرغب عن قوله .

ثم قال للقاضي : أمرها على مذهب أمير المؤمنين عثمان .

الحجاج يريد الحج

حدثنا المنقري ، عن أبي عبد الرحمن العتبي ، عن أبيه قال : أراد الحجاج الحج فخطب الناس وقال : يا أهل العراق ، اني قد استعملت عليكم محمدا وبه الرغبة عنكم ، أما انكم لا تستأهلونه ، وقد أوصيته فيكم بخلاف وصية رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالأنصار ، فانه أوصى أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وقد أوصيته ألا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم . أما اني اذا وليت عنكم أعلم أنكم تقولون : لا أحسن اللّه له الصحابة ، وما منعكم من تعجيله الا الفراق ، وأنا أعجل لكم الجواب ، لا أحسن اللّه عليكم الخلافة .

ثم نزل .

عبيد بن أبي المخارق
يتولى عملا ويطلب المشورة

حدثنا العتبي ، عن عبد الغني بن محمد بن جعفر ، عن الهيثم بن عدي ، عن أبي عبد الرحمن الكناني ، عن ابن عباس الهمداني ، عن عبيد بن أبي المخارق ، قال : استعملني الحجاج على الفلوجة فقلت : أههنا دهقان يستعان برأيه ؟

فقالوا : جميل بن صهيب .

فأرسلت اليه فجاءني شيخ كبير قد سقطت حاجباه على عينيه ، فقال : أزعجتني وأنا شيخ كبير .

قلت : أردت يمنك وبركتك ومشورتك .

فأمر بحاجبيه فرفعا بخرقة حرير ، وقال : ما حاجتك ؟

قلت : استعملني الحجاج على الفلوجة وهو ممن لا يؤمن شره ، فأشر علي .

قال : أيما أحب اليك : رضا الحجاج ، أو رضا بيت المال ، أو رضا نفسك ؟

قلت : أحب أن أرضي كل هؤلاء ، وأخاف الحجاج فانه جبار عنيد .

قال : فاحفظ عني أربع خلال : افتح بابك ولا يكن لك حاجب ، فيأتيك الرجل وهو على ثقة من لقائك ، وهو أجدر أن يخافك عمالك . وأطل الجلوس لأهل عملك ، فانه قلما أطال عامل الجلوس الا هيب مكانه . ولا يختلف حكمك بين الناس ، وليكن حكمك على الشريف والوضيع سواء . ولا يطمع فيك أحد من أهل عملك . ولا تقبل من أهل عملك هدية ، فان مهديها لا يرضى من ثوابها الا بأضعافها ، مع ما في ذلك من المقالة القبيحة . ثم اسلخ ما بين أقفيتهم الى عجوب أذنابهم ، فيرضوا عنك ، ولا يكون للحجاج عليك سبيل .

حدث المنقري ، عن يوسف بن موسى القطان ، عن جرير ، عن المغيرة ، عن الربيع بن خالد ، قال : سمعت الحجاج يخطب على المنبر وهو يقول : أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله في حاجته ؟

فقلت : للّه على ألا أصلي خلفك صلاة أبدا ، ولئن رأيت قوما يجاهدونك لأقاتلنك معهم ، فقاتل في دير الجماجم حتى قتل .

الغضبان بن القبعثري

حدث المنقري ، عن العتبي ، عن أبيه ، أن الحجاج وجه الغضبان بن القبعثري الى بلاد كرمان ليأتيه بخبر ابن الأشعث عند خلعه ، ففصل من عنده .

فلما صار ببلاد كرمان ضرب خباءه ونزل ، فاذا هو بأعرابي قد أقبل عليه فقال : السلام عليك .

فقال الغضبان : كلمة مقولة .

قال له الأعرابي : من أين جئت ؟

قال : من ورائي .

قال : وأين تريد ؟

قال : أمامي .

قال : وعلام جئت ؟

قال : على فرسي .
قال : وفيم جئت ؟
قال : في ثيابي .
قال : أتأذن لي أن أدنو اليك .
قال : وراءك أوسع لك .
قال : واللّه ما أريد طعامك ولا شرابك .
قال : لا تعرض بهما فواللّه لا تذوقهما .
قال : أوليس عندك الا ما أرى ؟
قال : بل هراوة من أرزن أضرب بها رأسك .
قال : ان الرمضاء قد أحرقت قدميّ .
قال : بُلْ عليهما يبردان .
قال : فكيف ترى فرسي هذا ؟
قال : أراه خيرا من آخر شر منه ، وأرى آخر أفره منه .
قال : قد علمت هذا .
قال : لو علمته ما سألتني عنه .

فتركه الأعرابي وولى ، ثم دخل على عبد الرحمن بن الأشعث فقال : ما وراءك يا غضبان ؟

قال : الشر ، تغدَّ بالحجاج قبل أن يتعشى بك ، ثم صعد المنبر فخطب بمعايب الحجاج والبراءة منه ، ودخل مع ابن الأشعث في أمره . فلم يلبث الا قليلا ثم أسر ابن الأشعث ، فأخذ الغضبان فيمن أسر ، فلما أدخل على الحجاج قال : يا غضبان ، كيف رأيت بلاد كرمان ؟

قال : أصلح اللّه الأمير ، بلاد ماؤها وشل ، وثمرها دقل ، ولصها بطل ، والخيل بها ضعاف ، وان كثر الجند بها جاعوا ، وان قلوا ضاعوا .

قال : ألست صاحب الكلمة الخبيثة « تغدَّ بالحجاج قبل أن يتعشى بك » .
قال : أصلح اللّه الأمير ، ما نفعت من قيلت له ، ولا ضرت من قيلت فيه .
قال : لأقطعن يديك ورجليك من خلاف ثم لأصلبنك .
قال : لا أرى الأمير أصلحه اللّه يفعل ذلك .

فأمر به فقيد وألقي في السجن ، فأقام به حتى بنى الحجاج خضراء واسط ، فلما استتم بناءها جلس في صحنها ، وقال : كيف ترون قبتي هذه ؟

قالوا : ما بني لخلق قبلك مثلها .

قال : فان فيها مع ذلك عيبا فهل فيكم مخبري به ؟

فأمر باحضار الغضبان ، فأتى به يرسف في قيوده ، فلما دخل عليه قال له الحجاج : أراك يا غضبان سمينا .

قال : أيها الأمير القيد والرتعة ، ومن يكن ضيف الأمير يسمن .

قال : فكيف ترى قبتي هذه ؟

قال : أرى قبة ما بني لأحد مثلها الا أن بها عيبا ، فان أمنني الأمير أخبرته به .

قال : قل آمناً .

قال : بنيت في غير بلدك ، لغير ولدك ، لا يتمتع به ولا تنعم ، فما لما لا يتمتع فيه من طيب ولا لذة .

قال : ردوه ، فانه صاحب الكلمة الخبيثة .

قال : أصلح اللّه الأمير ، ان الحديد قد أكل لحمي وبرى عظمي .

فقال : احملوه .

فلما استقل به الرجال قال : « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » .

قال : أنزلوه .

فلما استوى على الأرض قال : « اللهم أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين » .

قال : جروه .

فلما جروه قال : « بسم اللّه مجريها مرساها ، ان ربي لغفور رحيم » .

قال : أطلقوا عنه .

***

حدث المنقري ، عن عبد اللّه بن محمد بن حفص التميمي ، عن الحسين بن عيسى الحنفي ، قال : لما هلك بشر بن مروان وولى الحجاج العراق بلغ ذلك أهل العراق ، فقام الغضبان بن القبعثري الشيباني بالمسجد الجامع بالكوفة خطيبا ، فحمد اللّه وأثنى عليه ، ثم قال : يا أهل العراق ، ويا أهل الكوفة ، ان عبد الملك قد ولى عليكم من لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم ، الظلوم الغشوم ، الحجاج ، ألا وان لكم من عبد الملك منزلة بما كان منكم من خذلان مصعب وقتله . فاعترضوا هذا الخبيث في الطريق فاقتلوه ، فان ذلك لا يعد منكم خلعا ، فانه متى يعلوكم على متن منبركم وصدر سريركم وقاعة قصركم ، ثم قتلتموه عد خلعا . فأطيعوني وتغدوا به قبل أن يتعشى بكم .

فقال له أهل الكوفة : جبنت يا غضبان ، بل ننتظر سيرته ، فان رأينا منكرا غيرناه .
قال : ستعلمون .
فلما قدم الحجاج الكوفة بلغته مقالته ، فأمر به فحبس ، فأقام في حبسه ثلاث سنين ، حتى ورد على الحجاج كتاب من عبد الملك يأمره أن يبعث اليه بثلاثين جارية : عشرا من النجائب ، وعشرا من قعد النكاح ، وعشرا من ذوات الأحلام .
فلما نظر الى الكتاب لم يدر ما وصفه له من الجواري ، فعرضه على أصحابه فلم يعرفوه ، فقال له بعضهم : أصلح اللّه الأمير ، ينبغي أن يعرف هذا من كان في أوليته بدويا فله معرفة أهل البدو ، ثم غزا فله معرفة أهل الغزو ، ثم شرب الشراب فله بذاءة أهل الشراب .
قال : وأين هذا ؟
قيل : في حبسك .
قال : ومن هو ؟
قيل : الغضبان الشيباني .
فأحضر ، فلما مثل بن يديه قال : أنت القائل لأهل الكوفة يتغدون بي قبل أن أتعشى بهم .
قال : أصلح اللّه الأمير ، ما نفعت من قالها ، ولا ضرت من قيلت فيه .
قال : ان أمير المؤمنين كتب الي كتابا لم أدر ما فيه ، فهل عندك شيء منه ؟
قال : يُقرأ علي .
فقرىء عليه ، فقال : هذا بين .
قال : وما هو ؟
قال : أما النجيبة من النساء فالتي عظمت هامتها ، وطال عنقها ، وبعد ما بين منكبيها وثدييها ، واتسعت راحتها ، وثخنت ركبتها ، فهذه اذا جاءت بالولد جاءت به كالليث العادي .
وأما قعد النكاح فهن ذوات الأعجاز ، منكسرات الثدي ، كثيرات اللحم ، يقرب بعضهن من بعض ، فأولئك يشفين القرم ، ويروين الظمآن .
وأما ذوات الأحلام فبنات خمس وثلاثين الى الأربعين ، فتلك التي تبسه كما يبس الحالب الناقة ، فتستخرجه من كل شعر وظفر وعرق .
قال الحجاج : أخبرني بشر النساء .
قال : أصلح اللّه الأمير ، شرهن الصغيرة الرقبة ، الحديدة الركبة ، السريعة

الوثبة ، الواسطة في نساء الحي ، التي اذا غضبت غضب لها مائة ، واذا سمعت كلمة قالت : لا واللّه لا أنتهي حتى أقرها قرارها ، التي في بطنها جارية ، ويتبعها جارية ، وفي حجرها جارية .

فقال الحجاج : على هذه لعنة اللّه .

ثم قال : ويحك ، فأخبرني بخير النساء .

قال : خيرهن القريبة القامة من السماء ، الكثيرة الأخذ من الأرض ، الودود الولود ، التي في بطنها غلام ، وفي حجرها غلام ، ويتبعها غلام .

قال : ويحك ، فأخبرني بشر الرجال .

قال : شرهم السبوط الربوط ، المحمود في حرم الحي ، الذي اذا سقط لاحداهن دلو في بئر انحط عليه حتى يخرجه ، فهن يجزينه الخير أو يقلن : عافى اللّه فلانا .

قال : على هذا لعنة اللّه ، فأخبرني بخير الرجال .

قال : خيرهم الذي يقول فيه الشماخ التغلبي :

فتى ليس بالراضي بأدنى معيشة ولا في بيوت الحي بالمتولج

فتى يملأ الشيزى ويروي سنانه ويضرب في رأس الكمي المدجج

قال : حسبك ، كم حبسنا عطاءك ؟

قال : ثلاث سنين .

فأمر له بها وخلى سبيله .

وصف البصرة والكوفة

حدث المنقري ، عن محمد بن ابي السري ، عن هشام بن محمد بن السائب ، عن ابي عبد اللّه النخعي ، قال : لما فرع الحجاج من دير الجماجم وفد على عبد الملك ومعه أشراف أهل المصرين فأدخلهم عليه ، فبينما هم عنده يوما اذ تذاكروا البلدان ، فقال محمد ابن عمير بن عطارد : أصلح اللّه الأمير ، ان الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وحرها وعمقها ، وسفلت عن الشام ووبائها وبردها ، وجاورها الفرات فعذب ماؤها وطاب ثمرها .

وقال خالد بن صفوان الأهتمي : أصلح اللّه الأمير ، نحن أوسع منهم برية ، وأسرع منهم في السرية ، وأكثر منهم قندا وعاجا وساجا ، ماؤنا صفو ، وخيرنا عفو ، لا

يخرج من عندنا الا قائد وساثق ناعق .

فقال الحجاج : أصلح اللّه أمير المؤمنين ، اني بالبلدين خبير ، وقد وطئتهما جميعا .

فقال له : قل فأنت عندنا مصدق .

فقال : أما البصرة فعجوز شمطاء دفراء بخراء ، أوتيت من كل حلى وزينة . وأما الكوفة فشابة حسناء جميلة ، لا حلى لها ولا زينة .

فقال عبد الملك : فضلت الكوفة على البصرة .

الحجاج يصف الدنيا

حدث المنقري عن عمرو بن الحباب الباهلي ، عن اسماعيل بن خالد قال : سمعت الشعبي يقول : سمعت الحجاج يتكلم بكلام ما سبقه اليه أحد ، سمعته يقول : أما بعد فان اللّه عز وجل كتب على الدنيا الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، فلا فناء لما كتب عليه البقاء ، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء ، فلا يغرنكم شاهد الدنيا من غائب الآخرة ، فطول الأمل يقصر الأجل .

رسول المهلب الى الحجاج

حدث المنقري عن سهل بن تمام بن بزيع عن عباد بن حبيب بن المهلب ، عن أبيه قال : لما قتل المهلب عبد ربه بن الصعتر بكرمان قال :

ائتوني برجل له بيان وعقل ومعرفة أوجهه الى الحجاج برؤوس من قتلنا .

فدلوه على بشر بن مالك الجرشي ، فلما دخل على الحجاج قال : ما اسمك ؟

قال : بشر بن مالك الجرشي .

قال : كيف تركت المهلب ؟

قال : تركته صالحا نال ما رجا وأمن ما خاف .

قال : فكيف فاتكم قطري ؟

قال : كادنا من حيث كدناه .

قال : أفلا طلبتموه ؟

قال : كان فلا ، وكان الجد أهم علينا من الفل .

قال : أصبتم ، فكيف كان بنو المهلب ؟

قال : كانوا أعداء البيات حتى يأمنوا ، وأصحاب السرج حتى يردوا .

قال : أجل ، فأيهم أفضل ؟

قال : ذاك الى أبيهم أيهم شاء أن يستكفيه أمرا كفاه .

قال : اني أرى لك عقلا فقل .
قال : هم كالحلقة المستوية لا يدرى أين طرفها .
قال : أين هم من أبيهم ؟
قال : فضله عليهم كفضلهم على سائر الناس .
قال : كيف كان الجند ؟
قال : أرضاهم الحق ، وأشبعهم الفضل ، وكانوا مع وال يقاتل بهم مقاتلة الصعلوك ويسوسهم سياسة الملوك ، فله منهم بر الأولاد ، ولهم منه شفقة الوالد .
قال : هل كنت هيأت ما أرى ؟
قال : لا يعلم الغيب الا اللّه .
قال : فالتفت الحجاج الى عنبسة فقال : هذا الكلام المطبوع ، لا الكلام المصنوع .

الحجاج وجرير بن الخطفي

وأخذ الحجاج جرير بن الخطفي ، فأراد قتله ، فمشى اليه قومه من مضر فقالوا : أصلح اللّه الأمير ، لسان مضر وشاعرها ، هبه لنا . فوهبه لهم .

وكانت هند بنت أسماء زوج الحجاج ممن طالب به ، فقالت للحجاج : أتأذن لجرير علي يوما أستنشده من وراء حجاب ؟

فقال لها : نعم .

فأمرت بمجلس لها فهيىء فجلست فيه والحجاج معها ، ثم بعث الى جرير ، فدخل عليها يسمع كلامها ولا يراها .

فقالت : يا ابن الخطفي ، أنشدني ما شببت به في النساء .

فقال لها : ما شببت بامرأة قط ، ولا خلق اللّه شيئا هو أبغض الي من النساء .

قالت : دع عنك هذا ، فأين قولك :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعي بسلام
تجري السواك على أغر كأنه ... برد تحدر من متون غمام
لو كنت صادقة بما حدثتنا ... لوصلت ذاك فكان غير لمام
سرت الهموم فبتن غير نيام ... وأخو الهموم يروم كل مرام

قال : ما قلت هذا ، ولكني أنا الذي أقول :

لقد جرد الحجاج للحق سيفه ألا فاستقيموا لا يميلن مائل
وما يستوي داعي الضلالة والهدى ولا حجة الخصمين حق وباطل

قالت : دع عنك هذا ، فأين قولك :

خليلي لا تستغزرا الدمع في هند أعيذكما باللّه أن تجدا وجدي
ظمئت الى شرب الشراب وحسنه كذي فرية يرجو هداها وما يجدي

قال لها : ما قلت هذا ، ولكني أنا الذي أقول :

ومن يأمن الحجاج ؟ أما عقابه فمر ، وأما عقده فوثيق
يسر لك البغضاء كل منافق كما كل ذي بر عليك شفيق

قالت : دع عنك هذا ، فأين قولك :

يا عاذليّ دعا الملام وأقصرا طال الهوى وأطلتما التنفيدا
اني وجدت ، ولو أردت زيادة في الحب عندي ما وجدت مزيدا

فقال : باطل أصلحك اللّه ، ولكني أنا الذي أقول :

من سد مطلع النفاق عليهم أم من يصول كصولة الحجاج ؟
أم من يغار على النساء حفيظة اذ لا يثقن بغيرة الأزواج ؟
هذا ابن يوسف فافهموا وتيقنوا ماضي البصيرة واضح المنهاج
فاستوثقوا وتبينوا سبل الهدى ودعوا النجى فليس حين تناج
فلرب ناكث بيعتين تركته وخضاب لحيته دم الأوداج

فقال الحجاج : يا عدو اللّه ، تحرض على النساء ؟
فقال : لا والذي أكرمك أيها الأمير ، ما فطنت لهذا البيت قبل ساعتي هذه ، وما

علمت بمكانك ، فأقلني جعلني اللّه فداك .

قال : قد فعلت .

فأمرت له هند بجارية وكسوة ؛ وأوفده الحجاج على عبد الملك .

بين الحجاج وأعشى همدان

ولما انهزم ابن الأشعث بدير الجماجم حلف الحجاج ألا يؤتى بأسير الا ضرب عنقه ، فأتي بأسرى كثيرة ، وكان أول من أتى به أعشى همدان الشاعر ، وهو أول من خلع عبد الملك والحجاج بين يدي ابن الأشعث بسجستان ، فقال له الحجاج : ايه أنت القائل :

من مبلـغ الحجـاج أني قد جنيت عليه حربا
وصفقـت في كف امرىء جلـد اذا ما الأمـر عبى
أنـت الـرئيس ابـن الرئيـ ـس وأنـت أعلى النـاس كعبا
فابعـث عطية بالخيو ل يكبهـن عليه كبا
وانهض هديت لعله يجلـو بك الرحمـن كربا
نبئـت أن بُنـيَّ يو سف خر من زلـق فتبا

وهي أبيات . . . وأنت القائل :

شطـت نوى من داره الايوان ايوان كسرى ذي القرى والريحان
من عاشـق أمسى بزابلستان ان ثقيفـا منهـم الكذابان
كذابهـا الماضي وكذاب ثان أمـكن ربـي من ثقيف همدان
يوما من الليل يسلي ما كان

وأنت القائل :

وسألتمانـي المجـد أين محله فالمجـد بـين محمـد وسعيد
بـين الأشـج وبـين قيس باذخ بخ بخ لوالـده وللمولود

قال : لا ، ولكني الذي أقول :

أبـى اللّـه الا أن يتمـم نوره ويطفـىء نور الفقعتـين فيخمدا
وينـزل ذلا بالعـراق وأهله بمـا نقضـوا العهـد الـوثيق المؤكدا
ومـا أحدثـوا من بدعـة وضلالة من القول لم يصعد الى اللّه مصعدا

قال : لسنا نحمدك على هذا القول ، انما قلته تأسفا على ألا تكون ظفرت وظهرت ، وتحريضا لأصحابك علينا ، وليس عن هذا سألتك ، أخبرني عن قولك :

أمـكن ربـي من ثقيف همدان يومـا من الليل يسلي ما كان

فكيف ترى اللّه أمكن ثقيفا من همـدان ، ولـم يمـكن همـدان من ثقيف ؟ وعـن قولك :

بـين الأشـج وبـين قيس باذخ بخ بخ لوالـده وللمولود

واللّه لا تبخبخ لأحد بعدها ، وأمر به فضربت عنقه .

ولم يزل يؤتى برجل رجل حتى أتى برجل من بني عامر ، وكان من فرسان الجماجم مع ابن الأشعث ، فقال له : واللّه لأقتلنك شر قتلة .

قال : واللّه ما ذلك لك .

قال : ولم ؟

قال : لأن اللّه يقول في كتابه العزيز : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فاما منا بعد واما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها » ، وأنت قد قتلت فأثخنت ، وأسرت فأوثقت ، فاما أن تمن علينا أو تفدينا عشائرنا .

فقال له الحجاج : أكفرت ؟

قال : نعم وغيرت وبدلت .

قال : خلوا سبيله .

ثم أتى برجل من ثقيف فقال له الحجاج : أكفرت ؟

قال : نعم .

قال له الحجاج : لكن هذا الذي خلفك لم يكفر .

وخلفه رجل من السكون ، فقال السكوني : أعن نفسي تخادعني ؟ بلى واللّه ولو كان شيء أشد من الكفر لبؤت به ، فخلى سبيلها .

***

فهذه جمل من أخبار عبد الملك والحجاج ، وقد أتينا على مبسوط هذه الأخبار مما لم نورده في هذا الكتاب في كتابينا « أخبار الزمان » و« الأوسط » التالي له الـذي كتابنـا هذا تاليه ، وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب من أخبار الحجاج لمعا ، على حسب ما قدمنـا من الشرط فيما سلف من هذا الكتاب ، واللّه العون والقوة .

ذكر أيام الوليد بن عبد الملك بن مروان

موجـز

وبويع الوليد بن عبد الملك بدمشق في اليوم الذي توفي فيه عبد الملك ، وتولى الوليد بدمشق للنصف من جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين ، فكانت ولايته تسع سنين وثمانية أشهر وليلتين ، وهلك وهو ابن ثلاث وأربعين سنة ، وكان يكنى بأبي العباس .

ذكر لمع من أخباره وسيره وما كان من الحجاج في أيامه

خلق الوليد وولده

كان الوليد جبارا عنيدا ، ظلوما غشوما ، وخلف من الولد أربعة عشر ذكرا منهم يزيد ، وعمرو ، وبشر العالم ،و العباس ، وكان يدعى فارس بني مروان لشهامته . فعدل الوليد بالأمر عن ولده اتباعا لوصية عبد الملك على حسب ما رتبها .

وكان نقش خاتمه « يا وليد انك ميت » ، فكان كلما هم أن يجعل الأمر لولده قلب الفص وقرأ « انك ميت » فيقول : لاها الله ، لا خالفت ما أمرني به أبي ، اني لميت .

بناء مسجدي دمشق والمدينة

وفي سنة سبع وثمانين ابتدأ الوليد ببناء المسجد الجامع بدمشق ، وبناء مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فأنفق عليهما الأموال الجليلة ، وكان المتولي للنفقة على ذلك عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى .

وحكى عثمان بن مرة الخولاني قال : لما ابتدأ الوليد ببناء مسجد دمشق وجد في حائط المسجد لوحا من حجارة فيه كتابة باليونانية ، فعرض على جماعة من أهل الكتاب ، فلم يقدروا على قراءته ، فوجه به الى وهب بن منبه ، فقال : هذا مكتوب في أيام سليمان بن داود عليهما السلام .

فقرأه ، فاذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، يا ابن آدم ، لو عاينت ما بقي من يسير أجلك ، لزهدت فيما بقي من طول أملك ، وقصرت عن رغبتك وحيلك ، وانما تلقى ندمك ، اذا زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك ، وانصرف عنك الحبيب ، وودعك القريب ، ثم صرت تدعى فلا تجيب ، فلا أنت الى أهلك عائد ، ولا في عملك زائد ،

فاغتنم الحياة قبلَ الموت ، والقوة قبل الفوت ، وقبل أن يؤخذ منك بالكظم ، ويحال بينك وبين العمل .

وكتب زمن سليمان بن داود .

فأمر الوليد أن يكتب بالذهب على اللازورد في حائط المسجد : ربنا اللّه ، لا نعبد الا اللّه ، أمر ببناء هذا المسجد ، وهدم الكنيسة التي كانت فيه ، عبد اللّه الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين .

وهذا الكلام مكتوب بالذهب في مسجد دمشق الى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة .

بين الوليد والحجاج

ووفد الحجاج بن يوسف على الوليد ، فوجده في بعض نزهه ، فاستقبله ، فلما رآه ترجل له ، وقبل يده ، وجعل يمشي وعليه درع وكنانة وقوس عربية ، فقال له الوليد : اركب يا أبا محمد .

فقال : دعني يا أمير المؤمنين أستكثر من الجهاد ، فان ابن الزبير وابن الأشعث شغلاني عنك .

فعزم عليه الوليد حتى ركب ، ودخل الوليد داره ، وتفضل في غلالة ، ثم أذن للحجاج فدخل عليه في حاله تلك وأطال الجلوس عنده ، فبينما هو يحادثه اذ جاءت جارية فسارَّت الوليد ومضت ، ثم عادت فسارّته ثم انصرفت ، فقال الوليد للحجاج : أتدري ما قالت هذه يا أبا محمد ؟

قال : لا واللّه .

قال : بعثتها الي ابنة عمي أم البنين بنت عبد العزيز تقول : ما مجالستك لهذا الأعرابي المتسلح في السلاح وأنت في غلالة ؟ فأرسلت اليها انه الحجاج ، فراعها ذلك ، وقالت : واللّه ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق .

فقال الحجاج : يا أمير المؤمنين ، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فانما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ، فلا تطلعهن على سرك ، ولا مكايدة عدوك ، ولا تطعهن في غير أنفسهن ، ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن ، واياك ومشاورتهن في الأمور ، فان رأيهن الى أفن ، وغزمهن الى وهن ، واكفف عليهن من أبصارهن بحجبك ، ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها ، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الجلوس معهن والخلوة بهن ، فان ذلك أوفر لعقلك وأبين لفضلك .

ثم نهض الحجاج فخرج .

بين الحجاج وأم البنين

ودخل الوليد على أم البنين فأخبرها بمقالة الحجاج ، فقالت : يا أمير المؤمنين أحب أن تأمره غدا بالتسليم علي .

فقال : أفعل .

فلما غدا الحجاج على الوليد قال له : يا أبا محمد ، سر الى أم البنين فسلم عليها .

فقال : أعفني من ذلك يا أمير المؤمنين .

فقال : لابد من ذلك .

فمضى الحجاج اليها ، فحجبته طويلا ، ثم أذنت له فأقرته قائما ، ولم تأذن له في الجلوس ، ثم قالت : ايه يا حجاج ، أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث ؟ أما والله لولا أن الله جعلك أهون خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة ، ولا بقتل ابن ذات النطاقين ، وأول مولود في الاسلام .

وأما ابن الأشعث فقد والله والى عليك الهزائم ، حتى لذت بأمير المؤمنين عبد الملك فأغاثك بأهل الشام وأنت في أضيق من القرن ، فأظلتك رماحهم وأنجاك كفاحهم ، وطالما نفض نساء أمير المؤمنين المسك من غدائرهن وبعنه في الأسواق في أرزاق البعوث اليك ، ولولا ذلك لكنت أذل من النقد .

وأما ما أشرت به على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه ، فان كنُ ينفرجن عن مثل ما انفرجت به عنك أمك فما أحقه بالأخذ عنك والقبول منك ، وان كن ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فانه غير قابل منك ولا مصغ الى نصيحتك .

قاتل الله الشاعر وقد نظر اليك وسنان غزالة الحرورية بين كتفيك حيث يقول :

أسـد علي وفي الحـروب نعامة	فزعـاء تفـزع من صفـير الصافر
هلا برزت الى غزالـة في الوغى	بل كان قلبـك في جناحـي طائر

ثم قالت لجواريها : أخرجنه عني .

فدخل الى الوليد من فوره ، فقال له : يا أبا محمد ما كنت فيه ؟

فقال : والله يا أمير المؤمنين ما سكت حتى كان بطن الأرض أحب الي من ظاهرها .

فضحك الوليد حتى فحص برجله ، ثم قال : يا أبا محمد ، انها بنت عبد العزيز .

ولأم البنين هذه أخبار كثيرة في الجود وغيره ، وقد أتينا على ذكرها في غير هذا الكتاب .

موت علي بن الحسين السجاد

وفي سنة خمس وتسعين قبض علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في ملك الوليد ، ودفن بالمدينة في بقيع الغرقد مع عمه الحسن بن علي ، وهو ابن سبع وخمسين سنة ، ويقال : انه قبض سنة أربع وتسعين ، وكل عقب الحسين من علي بن الحسين هذا ، وهو السجاد على ما ذكرنا ، وذو الثفنات ، وزين العابدين .

موت عبد الملك بن مروان

وذكر المدائني قال : دخل الوليد على أبيه عبد الملك عند وفاته ، فجعل يبكي عليه وقال : كيف أصبح أمير المؤمنين ؟

فقال عبد الملك :

ومشتغل عنا يريد بنا الردى ومستعبرات والعيون سواجم

أشار بالمصراع الأول الى الوليد ، ثم حول وجهه عنه ، وأشار بالمصراع الثاني الى نسائه ، وهن المستعبرات .

وذكر العتبي وغيره من الأخباريين أن عبد الملك لما سأله الوليد عن خبره وهو يجود بنفسه أنشأ يقول :

كم عائد رجلا وليس يعوده الا لينظر هل يراه يموت

وقيل : ان عبد الملك نظر الى الوليد وهو يبكي عليه عند رأسه فقال : ياهذا ، أحنين الحمامة ؟ اذا أنا مت فشمر واتزر ، والبس جلد نمر ، وضع سيفك على عاتقك ، فمن أبدى ذات نفسه لك فاضرب عنقه ، ومن سكت مات بدائه .

وصية عبد الملك عند موته

ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا ، فقال : ان طويلك لقصير ، وان كثيرك لقليل ، وان كنا منك لفي غرور .

ثم أقبل على جميع ولده فقال : أوصيكم بتقوى اللّه فانها عصمة باقية ، وجنة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل في المعاد ، وهي أحصن كهف ، وليعطف الكبير منكم على

الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير ، مع سلامة الصدور ، والأخذ بجميل الأمور ، واياكم والبغي والتحاسد ، فبهما هلك الملوك الماضون ، وذوو العز المكين . يابني ، أخوكم مسلمة نابكم الذي تفترون عنه ، ومجنكم الذي تستجنون به ، اصدروا عن رأيه ، وأكرموا الحجاج فانه الذي وطأ لكم هذا الأمر ، وكونوا أولادا أبرارا ، وفي الحروب أحرارا ، وللمعروف منارا ، وعليكم السلام .

وسأله بعض شيوخ بني أمية ـ وقد فرغ من وصية أولاده هذه ـ قال : كيف تجدك يا أمير المؤمنين ؟

قال : كما قال اللّه عز وجل : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، قد تقطع بينكم ، وضل عنكم ما كنتم تزعمون » .

فكان هذا آخر كلام سمع منه .

فلما قضى سجاه الوليد ، ثم صعد المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه ، ثم قال : لم أر مثلها مصيبة ، ولا مثلها نعمة ، فقدت الخليفة ، وتقلدت الخلافة ، فانا للّه وانا اليه راجعون على المصيبة ، والحمد للّه رب العالمين على النعمة .

ثم دعا الناس الى بيعته فبايعوا ، ولم يختلف عليه أحد .

موت عبيد اللّه بن العباس

ومات في أيام الوليد عبيد اللّه بن العباس بن عبد المطلب ، وذلك في سنة سبع وثمانين .

وكان جوادا كريما ، وذكر أن سائلا وقف عليه فقال له : تصدق مما رزقك اللّه ، فاني نبئت أن عبيد اللّه بن العباس أعطى سائلا ألف درهم واعتذر اليه .

فقال : وأين أنا من عبيد اللّه ؟

قال له : وأين أنت منه في الحسب أم في كثرة المال ؟

قال : فيهما جميعا .

قال : ان الحسب في الرجل مروءته وحسن فعله ، فاذا فعلت ذلك كنت حسيبا .

فأعطاه ألفي درهم ، واعتذر له .

فقال له السائل : ان لم تكن عبيد اللّه فأنت خير منه ، وان كنت هو فأنت اليوم خير منك أمس .

فأعطاه ألفا أيضا .

فقال : لئن كنت عبيد اللّه انك لأسمح أهل دهرك ، وما اخالك الا من رهط فيهم محمد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فأسألك باللّه أأنت هو ؟

قال : نعم .

قال : واللّه ما أخطأت الا باعتراض الشك بين جوانحي ، والا فهذه الصورة الجميلة والهيئة المنيرة لا تكون الا في نبي أو عترة نبي .

وذكر أن معاوية وصله بخمسمائة ألف درهم ، ثم وجه له من يتعرف له خبره ، فانصرف اليه فأعلمه أنه قسمها في سماره واخوانه حصصا بالسوية ، وأبقى لنفسه مثل نصيب أحدهم .

فقال معاوية : ان ذلك ليسوؤني ويسرني ، فأما الذي يسرني فان عبد مناف والده ، وأما الذي يسوؤني فقرابته من أبي تراب دوني .

***

قال المسعودي : وقد قدمنا خبر مقتل ابني عبيد اللّه فيما سلف من هذا الكتاب ، وهما عبد الرحمن وقثم ، وما رثتهما به أمهما أم حكيم جويرية بنت فارط بن خالد الكنانية .

عبيد اللّه بن العباس وبسر بن أرطأة

وقد كان عبيد اللّه بن العباس دخل يوما على معاوية وعنده قاتلهما بسر بن أرطأة العامري ، فقال له عبيد اللّه : أيها الشيخ ، أنت قاتل الصبيين ؟

قال : نعم .

قال : واللّه لوددت أن الأرض أنبتتني عندك يومئذ .

فقال له بسر : فقد أنبتتك الساعة .

فقال عبيد اللّه : ألا سيف .

فقال بسر : هاك سيفي .

فلما هوى عبيد اللّه الى السيف ليتناوله قبض معاوية ومن حضره على يد عبيد اللّه قبل أن يقبض على السيف .

ثم أقبل معاوية على بسر فقال : أخزاك اللّه من شيخ ، قد كبرت وذهل عقلك ، تعمد الى رجل موتور من بني هاشم فتدفع اليه سيفك ، انك لغافل عن قلوب بني هاشم ، واللّه لوتمكن من السيف لبدأ بنا قبلك .

قال عبيد اللّه : ذلك واللّه أردت .

وكان علي عليه السلام ـ حين أتاه خبر قتل بسر لابني عبيد اللّه قثم وعبد الرحمن ـ دعا

على بسر ، فقال : اللهم اسلبه دينه وعقله .

فخرف الشيخ حتى ذهل عقله ، واشتهر بالسيف فكان لا يفارقه ، فجعل له سيف من خشب ، وجعل بين يديه زق منفوخ يضربه ، وكلما تخرق أبدل .

فلم يزل يضرب ذلك الزق بذلك السيف ، حتى مات ذاهل العقل يلعب بخرئه .

وربما كان يتناول منه ثم يقبل على من يراه فيقول : انظروا كيف يطعمني هذان الغلامان ابنا عبيد اللّه ؟

وكان ربما شدت يداه الى وراء منعا من ذلك ، فأنجى ذات يوم في مكانه ، ثم أهوى بفيه فتناول منه ، فبادروا الى منعه ، فقال : أنتم تمنعوني وعبد الرحمن وقثم يطعمانني .

ومات بسر في أيام الوليد بن عبد الملك سنة ست وثمانين .

موت عبد اللّه بن عتبة بن مسعود الهذلي

وفيها مات عبد اللّه بن عتبة بن مسعود الهذلي ، وعتبة مهاجر ، وهو أخو عبد اللّه بن مسعود بن غافل بن حبيب بن سمح بن مخزوم بن صبح بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد ابن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار .

وكانت الرياسة في الجاهلية في صبح بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل ، وكان عبيد اللّه ولد عبد اللّه بن عتبة من كبار أهل العلم ، وذكر ابن أبي خيثمة قال : سمعت ابن الأصبهاني يقول : قال سفيان : قال الزهري : كنت أظن أني نلت من العلم ، حتى جالست عبيد اللّه بن عبد اللّه فكأنما هو البحر .

مقتل سعيد بن جبير

وفي سنة أربع وتسعين قتل الحجاج سعيد بن جبير ، فذكر عون بن أبي راشد العبدي قال : لما ظفر الحجاج بسعيد بن جبير وأوصل اليه ، قال له : ما اسمك ؟

قال : اسمي سعيد بن جبير .

قال : بل شقي بن كسير .

قال : أبي كان أعلم باسمي منك .

قال : لقد شقيت وشقي أبوك .

قال له : الغيب انما يعلمه غيرك .

قال : لأبدلنك بالدنيا نارا تلظى .

قال : لوعلمت أن ذلك بيدك ما اتخذت الها غيرك .

قال : فما قولك في الخلفاء ؟

قال : لست عليهم بوكيل .

قال : فاختر يا شقي لنفسك ، فواللّه ما تقتلني اليوم بقتلة إلا قتلتك في الآخرة بمثلها .

فأمر الحجاج ، فأخرج ليقتل ، فلما ولى ضحك .

فأمر الحجاج برده ، وسأله عن ضحكه ، فقال : عجبت من جراءتك على اللّه وحلم اللّه عنك .

فأمر به فذبح ، فلما كب لوجهه قال : أشهد أن لا اله الا اللّه وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن الحجاج غير مؤمن باللّه ، ثم قال : اللهم لا تسلط الحجاج على أحد يقتله من بعدي .

فذبح واحتز رأسه .

ولم يعش الحجاج بعده الا خمس عشرة ليلة حتى وقعت في جوفه الأكلة فمات من ذلك .

ويروى أنه كان يقول بعد قتل سعيد : يا قوم ، مالي ولسعيد بن جبير ؟ كلما عزمت على النوم أخذ بحلقي .

بين الوليد وأخيه سليمان

واشتكى الوليد ، فبلغه عن أخيه سليمان تمن لموته لما له من العهد بعده ، فكتب اليه الوليد يعتب عليه الذي بلغه ، وكتب في آخر كتابه هذه الأبيات :

تمنى رجال أن أموت ، وان أمت   فتلك سبيل لست فيها بأوحد
لعل الذي يرجو فنائي ويدعي   به قبل موتي أن يكون هو الردي
فما موت من قد مات قبلي بضائري   ولاعيش من قدعاش بعدي بمخلدي
فقل للذى يرجو خلاف الذي مضى   تزود لأخرى غيرها فكأن قد
منيته تجري لوقت ، وحتفه   سيلحقه يوما على غير موعد

فأجابه سليمان : فهمت ما قال أمير المؤمنين ، وواللّه لئن كنت تمنيت ذلك لما يخطر بالبال أني لأول لاحق به ومنعي الى أهله ، فعلام أتمنى زوال مدة لا يلبث متمنيها الا بقدر ما يحل السُّفْرُ بمنزل ثم يظعنون عنه ؟

وقد بلغ أمير المؤمنين ما لم يظهر من لفظي ، ولا يرى من لحظي ، ومتى سمع أمير

المؤمنين من أهل النميمة ، ومن ليست له روية ، أوشك أن يسرع في فساد النيات ، ويقطع بين ذوي الأرحام والقرابات .

وكتب في أسفل الكتاب :

ومن لا يغمض عينه عن صديقه — وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب

ومن يتتبع جاهدا كل عثرة — يجدها ولم يسلم له الدهر صاحب

فكتب اليه الوليد : ما أحسن ما اعتذرت به ، وحذوت عليه ، وأنت الصادق في المقال ، والكامل في الفعال ، وما شيء أشبه بك من اعتذارك ، ولا أبعد مما قيل فيك ، والسلام .

وكان الوليد متحننا على اخوته ، مراعيا لسائر ما أوصاه به عبد الملك ، وكان كثير الانشاد لأبيات قالها عبد الملك حين كتب اليه بوصيته منها :

انفوا الضغائن عنكم وعليكم — عند المغيب وفي حضور المشهد

فصلاح ذات البين طول بقائكم — ان مد في عمري وان لم يمدد

فلمثل ريب الدهر ألف بينكم — بتواصل وتراحم وتودد

حتى تلين جلودكم وقلوبكم — بمسود منكم وغير مسود

ان القداح اذا اجتمعن فرامها — بالكسر ذو حنق وبطش باليد

عزت فلم تكسر ، وان هي بددت — فالوهن والتكسير للمتبدد

وصية عبد الملك لأولاده

وكان عبد الملك مواظبا على حث أولاده على اصطناع المعروف ، وبعثهم على مكارم الأخلاق ، وقال لهم : يا بني عبد الملك ، أحسابكم أحسابكم ، صونوها ببذل أموالكم ، فما يبالي رجل منكم ما قيل فيه من الهجو بعد قول الأعشى :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم — وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

وما يبالي قوم ما قيل فيهم من المدح بعد قول زهير :

على مكثريهـــم حق من يعتريهم وعنـد المقلــين السماحــة والبذل

***

حدث عبد اللّه بن اسحاق بن سلام ، عن محمد بن حبيب قال : صعد الوليد المنبر فسمع صوت ناقوس ، فقال : ما هذا ؟

قيل : البيعة .

فأمر بهدمها ، وتولى بعض ذلك بيده ، فتتابع الناس يهدمون .

فكتب اليه الأخرم ملك الروم : ان هذه البيعة قد أقرها من كان قبلك ، فان يكونوا أصابوا فقد أخطأت ، وان تكن أصبت فقد أخطأوا .

فقال : من يجيبه ؟

فقال الفرزدق : أنا ، فكتب اليه : « وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما وعلما » .

موت الحجاج

ومات الحجاج في سنة خمس وتسعين ، وهو ابن أربع وخمسين سنة بواسط العراق ، وكان تأمره على الناس عشرين سنة ، وأحصى من قتله صبراً سوى من قتـل في عسـاكره وحروبه فوجد مائة وعشرين ألفا ، ومات وفي حبسه خمسون ألف رجل ، وثلاثـون ألف امرأة ، منهن ستة عشر ألفا مجردة ، وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد ، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد في الشتاء ، وكان له غير ذلك من العذاب ما أتينا على وصفه في الكتاب الأوسط .

وذكر أنه ركب يوما يريد الجمعة ، فسمع ضجة ، فقال : ما هذا ؟

فقيل له : المحبوسون يضجون ويشكون ما هم فيه من البلاء .

فالتفت الى ناحيتهم وقال : اخسأوا فيها ولا تكلمون .

فيقال : انه مات في تلك الجمعة ، ولم يركب بعد تلك الركبة .

***

قال المسعودي : ووجدت في كتاب « عيون البلاغات » مما اختير من كلام الحجاج قوله : ما سلبت نعمة الا بكفرها ، ولا نمت الا بشكرها .

وقد كان الحجاج تزوج الى عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب حين أملـق عبـد اللّـه وافتقر ، وقد ذكرنا في كتابنا « أخبار الزمان » الخبر في ذلك ، وتهنئة ابن القرية الحجـاج بذلك .

موت عبد اللّه بن جعفر

وقد كان عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب من الجود بالموضع المعروف ، ولما قل ماله سمع يوم الجمعة في المسجد الجامع وهو يقول : اللهم انك قد عودتني عادة فعودتها عبادك ، فان قطعتها عني فلا تبقني .

فمات في تلك الجمعة ، وذلك في أيام عبد الملك بن مروان ، وصلى عليه أبان بن عثمان بمكة ، وقيل : بالمدينة . وهي السنة التي كان بها السيل الجحاف الذي بلغ الركن ، وذهب بكثير من الحجاج .

وفي هذه السنة كان الطاعون العام بالعراق والشام ومصر والجزيرة والحجاز ، وهي سنة ثمانين .

وقبض عبد اللّه بن جعفر وهو ابن سبع وستين ، وولد بالحبشة حين هاجر جعفر الى هنالك ، وقيل : ان مولده كان في السنة التي قبض فيها النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وقيل غير ذلك .

وذكر المبرد والمدائني والعتبي وغيرهم من الأخباريين أن عبد اللّه عوتب على كثرة افضاله ، فقال : ان اللّه تعالى عودني أن يفضل علي ، وعودته أن أفضل على عباده ، فأكره أن أقطع العادة عنهم فيقطع العادة عني .

ووفد عبد اللّه على معاوية بدمشق ، فعلم به عمرو بن العاص قبل دخوله دمشق ـ أخبره بذلك مولى له كان قد سار مع ابن جعفر من الحجاز فتقدمه بمرحلتين ـ فدخل عمرو على معاوية وعنده جماعة من قريش من بني هاشم وغيرهم : منهم عبد اللّه بن الحارث بن عبد المطلب ، فقال عمرو : قد أتاكم رجل كثير الخلوات بالتمني ، والطرقات بالتغني ، آخذ للسلف ، منقاد بالسرف .

فغضب عبد اللّه بن الحارث ، وقال لعمرو : كذبت وأهل ذلك أنت ، ليس عبد اللّه كما ذكرت ، ولكنه للّه ذكور ، ولبلائه شكور ، وعن الخنا نفور ، ماجد مهذب كريم ، سيد حليم ، ان ابتدأ أصاب ، وان سئل أجاب ، غير حصر ولا هياب ، ولا فحاش ولا سباب ، كالهزبر الضرغام ، الجريء المقدام ، والسيف الصمصام ، والحسيب القمقام ، وليس كمن اختصم فيه من قريش شرارها ، فغلب عليه جزارها ، فأصبح ألأمها حسبا ، وأدناها منصبا ، يلوذ منها بذليل ، ويأوي الى قليل .

وليت شعري بأي حسب تتناول ؟ أو بأي قدم تتعرض ؟ غير أنك تعلو بغير أركانك ، وتتكلم بغير لسانك . ولقد كان أبر في الحكم ، وأبين في الفضل ، أن يكفك ابن

أبي سفيان عن ولوعك بأعراض قريش ، وأن يكعمك كعام الضبع في وجارها ، ولست لأعراضها بوفي ، ولا لأحسابها بكفي . وقد أتيح لك ضيغم شرس ، للأقران مختلس ، وللأرواح مفترس .

فهم عمرو أن يتكلم ، فمنعه معاوية من ذلك .

وقال عبد اللّه بن الحارث : لا يبق المرء الا على نفسه ، واللّه ان لساني لحديد ، وان جوابي لعتيد ، وان قولي لسديد ، وان انصاري لشهود .

فقام معاوية وتفرق القوم .

ولعبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب أخبار حسان في الجود والكرم وغير ذلك من المناقب ، وقد أتينا على مبسوط ذلك في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وانما كان تزوج الحجاج اليه يبتذل بذلك آل أبي طالب .

كتاب من عبد الملك الى الحجاج
لم يفهمه

وكتب الحجاج الى عبد الملك يغلظ له أمر الخوارج مع قطري ، فكتب اليه : أما بعد ، فانى أحمد اليك السيف ، وأوصيك بما أوصى به البكري زيدا .

فلم يفهم الحجاج ما عناه عبد الملك ، وقال : من جاء بتفسير ما أوصى به البكري زيدا فله عشرة آلاف درهم .

فورد رجل من الحجاز يتظلم من بعض عماله ، فقيل له : أتعلم ما أوصى به البكري زيدا ؟

قال : نعم .

قالوا : فأئت الحجاج به ولك عشرة آلاف درهم .

فأتاه فأحضره فقال : أوصاه بأن قال :

أقول لزيد لا تبربر فانهم ... يرون المنايا دون قتلك أو قتلي
فان وضعوا حربا فضعها ، وان أبوا ... فشب وقود الحرب بالحطب الجزل
وان عضت الحرب الضروس بنابها ... فعرضة حد السيف مثلك أو مثلي

فقال الحجاج : صدق أمير المؤمنين وصدق البكري .

كتاب من الحجاج الى المهلب

وكتب الى المهلب : ان أمير المؤمنين أوصاني بما أوصى به البكري زيدا ، وأنا أوصيك

به وبما أوصى به الحارث بن كعب بنيه .

فأتى المهلب بوصيته فاذا فيها : يابني ، كونوا جميعا ولا تكونوا شتى فتفرقوا ، وبروا قبل أن تبروا ، فموت في قوة وعز ، خير من حياة في ذل وعجز .

فقال المهلب : صدق البكري والحارث بن كعب .

وكتب عبد الملك الى الحجاج : جنبني دماء آل أبي طالب ، فاني رأيت الملك استوحش من آل حرب حين سفكوا دماءهم .

فكان الحجاج يتجنبها خوفا من زوال الملك عنهم ، لا خوفا من الخالق عز وجل .

ليلى الأخيلية والحجاج

ودخلت ليلى الأخيلية على الحجاج فقالت : أصلح اللّه الأمير ، أتيت لاختلاف النجوم ، وقلة الغيوم ، وكلب البرد ، وشدة الجهد .

قال : فاخبريني عن الأرض .

قالت : الأرض مقشعرة ، والفجاج مغبرة ، والمقتر مقل ، وذو العيال مختل ، والبائس معتل ، والناس مسنتون ، رحمة اللّه يرجون .

قال : أي النساء تختارين تنزلين عندها ؟

قالت : سمهن لي .

قال : عندي هند بنت المهلب ، وهند بنت أسماء بن خارجة .

فاختارتها فدخلت عليها ، فصبت حليها عليها حتى أثقلها ، لاختيارها اياها ودخولها عليها دون من سواها .

ابن عم للحجاج يطلب منه أن يوليه فيمتحنه فيوليه وينجح

حدثنا المنقري قال : حدثنا العتبي ، عن أبيه ، قال : قدم على الحجاج ابن عم له أعرابي من البادية فنظر اليه يولي الناس ، فقال له : أيها الأمير ، لم لا توليني بعض هذا الحضر ؟

فقال الحجاج : هؤلاء يكتبون ويحسبون ، وأنت لا تحسب ولا تكتب .

فغضبت الأعرابي وقال : بلى اني واللّه لأحسب منهم حسابا ، وأكتب منهم يدا .

فقال له الحجاج : فان كان كما تزعم فاقسم ثلاثة دراهم بين أربعة أنفس .

فما زال يقول : ثلاثة دراهم بين أربعة ، ثلاثة بين أربعة ، لكل واحد منهم درهم يبقع الرابع بلا شيء . . . كم هم أيها الأمير ؟

قال : هم أربعة .

قال : نعم أيها الأمير ، قد وقفت على الحساب ، لكل واحد منهم درهم ، وأنا أعطي الرابع منهم درهما من عندي .

وضرب بيده الى تكته فاستخرج منها درهما ، وقال : أيكم الرابع ، فلاها اللّه ما رأيت كاليوم زورا مثل حساب هؤلاء الحضريين .

فضحك الحجاج ومن معه ، وذهب بهم الضحك كل مذهب .

ثم قال الحجاج : ان أهل أصبهان كسروا خراجهم ثلاث سنين ، كلما أتاهم وال أعجزوه ، فلأرمينهم ببدوية هذا وعنجهيته ، فأخلق به أن ينجب .

فكتب له عهده على أصبهان ، فلما خرج استقبله أهل اصبهان واستبشروا به ، وأقبلوا عليه يقبلون يده ورجله ، وقد استغمروه ، وقالوا : أعرابي بدوي ماذا يكون منه .

فلما أكثروا عليه قال : أعينوا على أنفسكم وتقبيلكم أطرافي وأخروا عني هذه الهيئات ، أما يشغلكم ما أخرجني له الأمير ؟

فلما استقر في داره بأصبهان جمع أهلها فقال لهم : ما لكم تعصون ربكم وتغضبون أميركم وتنقصون خراجكم ؟

فقال قائلهم : جور من كان قبلك ، وظلم من ظلم .

قال : فما الأمر الذي فيه صلاحكم ؟

قالوا : تؤخرنا بالخراج ثمانية أشهر ونجمعه لك .

قال : لكم عشرة ، وتأتوني بعشرة ضمناء يضمنون .

فأتوه بهم ، فلما توثق منهم أمهلهم ، فلما قرب الوقت رآهم غير مكترثين لما يدنو من الأجل ، فقال لهم ، فلم ينتفع بقوله .

فلما طال به ذلك ، جمع الضمناء وقال لهم : المال .

فقالوا : أصابنا من الآفة ما نقض ذلك .

فلما رأى ذلك منهم آلى ألا يفطر ـ وكان في شهر رمضان ـ حتى يجمع ماله أو يضرب أعناقهم .

ثم قدم أحدهم فضرب عنقه ، وكتب عليه فلان بن فلان أدى ما عليه ، وجعل رأسه في بدرة وختم عليها ، ثم قدم الثاني ففعل به مثل ذلك .

فلما رأى القوم الرؤوس تبذر وتجعل في الأكياس بدلا من البدر قالوا : أيها الأمير ، توقف علينا حتى نحضر لك المال .

ففعل ، فأحضروه في أسرع وقت .

فبلغ ذلك الحجاج ، فقال : انا معاشر آل محمد ـ يعني جده ـ ولدنا نجيب ، فكيف رأيتم فراستي في الأعرابي ؟ ولم يزل عليها حتى مات الحجاج .

ابراهيم التميمي في سجن الحجاج

وحبس الحجاج ابراهيم التميمي بواسط ، فلما دخل السجن وقف على مكان مشرف ونادى بأعلى صوته : يا أهل بلاء الله في عافيته ، ويا أهل عافية الله في بلائه ، اصبروا .

فنادوه جميعا : لبيك ، لبيك .

ومات في حبس الحجاج ، وانما كان الحجاج طلب ابراهيم النخعي فنجا ، ووقع ابراهيم التميمي .

وحكي عن الأعمش قال : قلت لابراهيم النخعي : أين كنت حين طلبك الحجاج ؟

فقال : بحيث يقول الشاعر :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى وصوت انسان فكدت أطير

الحجاج يسأل ابن القرية عن النساء

حدثنا الدمشقي الأموي أحمد بن سعيد وغيره ، عن الزبير بن بكار ، عن محمد بن سلام الجمحي ، وحدثنا الفضل بن الحباب الجمحي ، عن محمد بن سلام ، قال : سأل الحجاج ابن القرية : أي النساء أحمد ؟

قال : التي في بطنها غلام ، وفي حجرها غلام ، ويسعى لها مع الغلمان غلام .

قال : فأي النساء شر ؟

قال : الشديدة الأذى ، الكثيرة الشكوى ، المخالفة لما تهوى .

قال : أي النساء أعجب اليك ؟

قال : الشفاء العطبول ، المنعاج الكسول ، التي لم يشنها قصر ولا طول .

قال : فأي النساء أبغض اليك ؟

قال : الرعينة القصيرة ، الباهق الشريرة .

قال : فأخبرني عن أفضل النساء مخبرا ، وأطيبهن أعطافا ؟

قال : أفضل النساء الغضة البضة ، التي أعلاها قضيب ، وأسفلها كثيب ، اللعساء الورهاء ، التي لم تذهب طولا في انحطاط ، ولم تلصق قصرا في افراط ، الجعدة

الغدائر ، السبطة الضفائر ، الضخمة المآكم ، الطفلة البراجم ، اذا رأيت أناملها شبهتها بالمداري ، واذا قامت خلتها سارية من السواري ، فتلك تهيج المشتـاق ، وتحيي العاشـق بالعناق .

***

قال المسعودي : وللوليد بن عبد الملك أخبـار حسـان لما كان في أيامـه من الكوائـن والحروب ، وكذلك الحجاج ، وقد أتينا على كثير من مبسوطها في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وانما نذكر في هذا الكتاب ما لـم نورده في ذينك الكتابين ، كما أن ما ذكرناه في الكتاب الأوسط هو ما لـم نورده في كتاب « أخبار الزمان » واللّه أعلـم .

ذكر أيّام سُليمان بن عَبد الملك بن مَروان

موجز

وبويع سليمان بن عبد الملك بدمشق في اليوم الذي كانت فيه وفاة الوليد ، وذلك يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين من الهجرة .

وتوفي سليمان بمرج دابق من أعمال جند قنسرين يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين ، فكانت ولايته سنتين وثمانية أشهر وخمس ليال ، وهلك وهو ابن تسع وثلاثين سنة ، وعهد الى عمر بن عبد العزيز .

وقيل : إن وفاة سليمان كانت يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين ، وإن ولايته سنتان وتسعة أشهر وثمانية عشر يوما ، على حسب ما وجدناه من تباين ما في كتب التواريخ والسير .

وسنذكر جمل أيامهم في باب نفرده فيما يرد من هذا الكتاب .

وقد تنوزع في مقدار سن سليمان : فذكر بعضهم أنه قبض وهو ابن خمس وأربعين سنة ، ومنهم من زعم أنه كان ابن ثلاث وخمسين ، وقد قدمنا قول من قال : إنه قبض وهو ابن تسع وثلاثين سنة ، ووجدت أكثر شيوخ بني مروان من ولده وولد غيره بدمشق وغيرها يذهبون الى أنه كان ابن تسع وثلاثين ، والله أعلم .

ذكر لمع من أخبارِه وسِيَرِه

خطبته أول ما ولي الخلافة

ولما أفضى الأمر الى سليمان صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ، ثم قال : الحمد لله الذي ما شاء صنع ، وما شاء أعطى ، وما شاء منع ، وما شاء رفع ، وما شاء وضع .

أيها الناس ، إن الدنيا دار غرور وباطل وزينة وتقلب بأهلها ، تضحك باكيها ، وتبكي ضاحكها ، وتخيف آمنها ، وتؤمن خائفها ، وتثري فقيرها ، وتفقر مثريها ، ميالة بأهلها .

عباد الله ، اتخذوا كتاب الله اماماً ، وارضوا به حكما ، واجعلوه لكم هاديا ودليلا ، فانه ناسخ ما قبله ، ولا ينسخه ما بعده . واعلموا عباد الله ، أنه ينفي عنكم كيد الشيطان ومطامعه ، كما يجلو ضوء الشمس الصبح اذا أسفر ، وإدبار الليل اذا عسعس .

ثم نزل ، وأذن للناس بالدخول عليه . وأقر عمال من كان قبله على أعمالهم ، وأقر

خالد بن عبد الله القسري على مكة .

خالد القسري في مكة

وقد كان خالد أحدث بمكة أحداثا : منها أنه أدار الصفوف حول الكعبة ، وقد كان قبل ذلك صفوف الناس في الصلاة بخلاف ذلك .

وبلغه قول الشاعر :

يا حبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مسجد
وحبذا اللاتي تزاحمننا عند استلام الحجر الأسود

فقال خالد : أما انهن لا يزاحمنك بعدها أبدا .

ثم أمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف .

كان سليمان اكولا

وكان سليمان صاحب أكل كثير يجوز المقدار ، وكان يلبس الثياب الرقاق وثياب الوشي ، وفي أيامه عمل الوشي الجيد باليمن والكوفة والاسكندرية ، ولبس الناس جميعا الوشي جبابا وأردية وسراويل وعمائم وقلانس ، وكان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته الا في الوشي ، وكذلك عماله وأصحابه ومن في داره ، وكان لباسه في ركوبه وجلوسه على المنبر ، وكان لا يدخل عليه أحد من خدامه الا في الوشي ، حتى الطباخ ، فانه كان يدخل اليه في صدره وشي وعلى رأسه طويلة وشي ، وأمر أن يكفن في الوشي المثقلة .

وكان شبعه في كل يوم من الطعام مائة رطل بالعراقي ، وكان ربما أتاه الطباخون بالسفافيد التي فيها الدجاج المشوية وعليه جبة الوشي المثقلة . . . فلنهمه وحرصه على الأكل يدخل يده في كمه حتى يقبض على الدجاجة وهي حارة فيفصلها .

وذكر الأصمعي قال : ذكرت للرشيد نهم سليمان وتناوله الفراريج بكمه من السفافيد ، فقال : قاتلك الله فما أعلمك بأخبارهم ، انه عرضت علي جباب بني أمية ، فنظرت الى جباب سليمان واذا كل جبة منها في كمها أثر كأنه أثر دهن ، فلم أدر ما ذلك حتى حدثتني بالحديث .

ثم قال : علي بجباب سليمان ، فأتي بها ، فنظرنا فاذا تلك الآثار فيها ظاهرة ، فكساني منها جبة .

فكان الأصمعي ربما يخرج أحيانا فيها فيقول : هذه جبة سليمان التي كسانيها الرشيد .

وذكر أن سليمان خرج من الحمام ذات يوم وقد اشتد جوعه ، فاستعجل الطعام ، ولم يكن فرغ منه ، فأمر ان يقدم عليه ما لحق من الشواء ، فقدم اليه عشرون خروفا ، فأكل أجوافها كلها مع أربعين رقاقة ، ثم قرب بعد ذلك الطعام فأكل مع ندمائه كأنه لم يأكل شيئا .

وحكي أنه كان يتخذ سلال الحلوى ، ويجعل ذلك حول مرقده ، فكان اذا قام من نومه يمد يده فلا تقع الا على سلة يأكل منها .

اعجاب سليمان بنفسه

حدث المنقري ، عن العتبي ، عن اسحاق بن ابراهيم بن الصباح بن مروان ـ وكان مولى لبني أمية من أرض البلقاء من أعمال دمشق ، وكان حافظا لأخبار بني أمية ـ قال : لبس سليمان يوم الجمعة في ولايته لباسا شهر به ، وتعطر ، ودعا بتخت فيه عمائم ، وبيده مرآة ، فلم يزل يعتم بواحدة بعد أخرى حتى رضي منها بواحدة ، فأرخى من سدولها ، وأخذ بيده مخصرة ، وعلا المنبر ناظرا في عطفيه ، وجمع جمعه ، وخطب خطبته التي أرادها ، فأعجبته نفسه ، فقال : أنا الملك الشاب السيد المهاب ، الكريم الوهاب .

فتمثلت له جارية من بعض جواريه ، وكان يتحظاها ، فقال لها : كيف ترين أمير المؤمنين ؟

قالت : أراه منى النفس ، وقرة العين ، لولا ما قال الشاعر .

قال : وما قال الشاعر ؟

قالت : قال :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى ... غير أن لا بقاء للانسان

أنت من لا يريبنا منك شيء ... علم الله غير أنك فان

ليس فيما بدا لنا منك عيب ... يا سليمان غير أنك فان

فدمعت عيناه وخرج على الناس باكيا ، فلما فرغ من خطبته وصلاته دعا بالجارية ، فقال لها : ما دعاك الى ما قلت لأمير المؤمنين ؟

قالت : والله ما رأيت أمير المؤمنين اليوم ولا دخلت عليه .

فأكبره ذلك ، ودعا بقيمة جواريه فصدقتها في قولها ، فراع ذلك سليمان ، ولم ينتفع بنفسه ، ولم يمكث بعد ذلك الا مديدة حتى توفي .

وكان سليمان يقول : قد أكلنا الطيب ، ولبسنا اللين ، وركبنا الفاره ، ولم يبق لي لذة الا صديق أطرح معه فيما بيني وبينه مؤنة التحفظ .

بين سليمان وكاتب الحجاج

وأدخل عليه يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج والمستولى عليه ، وهو مكبل بالحديد فلما رآه ازدراه ، فقال : ما رأيت كاليوم قط ، لعن الله رجلا أجرك رسنه ، وحكمك في أمره .

فقال له يزيد : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، فانك رأيتني والأمر عني مدبر ، وعليك مقبل ، ولو رأيتني والأمر مقبل علي لاستعظمت مني ما استصغرت ، ولاستجللت مني ما استحقرت .

قال : صدقت ، فاجلس لا أم لك .

فلما استقر به المجلس قال له سليمان : عزمت عليك لتخبرني عن الحجاج ما ظنك به ، أتراه يهوي بعد في جهنم أم قد استقر فيها ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، لا تقل هذا في الحجاج ، فقد بذل لكم نصحه ، وأحقن دونكم دمه ، وأمن وليكم ، وأخاف عدوكم ، وانه يوم القيامة لعن يمين أبيك عبد الملك ، ويسار أخيك الوليد ، فاجعله حيث شئت .

فصاح سليمان : اخرج عني الى لعنة الله ، ثم التفت الى جلسائه فقال : قبحه الله ما كان أحسن ترتيبه لنفسه ولصاحبه ، ولقد أحسن المكافأة ، أطلقوا سبيله .

بين سليمان وأبي حازم الأعرج

ودخل عليه أبو حازم الأعرج ، فقال : يا أبا حازم ، ما لنا نكره الموت ؟

قال : لأنكم عمرتم دنياكم وأخربتم آخرتكم ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران الى الخراب .

قال : فأخبرني كيف القدوم على الله ؟

قال : أما المحسن فكالغائب يأتي أهله مسرورا ، وأما المسيء فكالعبد الآبق يأتي مولاه محزونا .

قال : فأي الأعمال أفضل ؟

قال : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم .

قال : فأي القول أعدل ؟

قال : كلمة حق عند من تخاف وترجو .

قال : فأي الناس أعقل ؟
قال : من عمل بطاعة الله .
قال : فأي الناس أجهل ؟
قال : من باع آخرته بدنيا غيره .
قال : عظني وأوجز .
قال : يا أمير المؤمنين ، نزه ربك وعظمه بحيث أن يراك تجتنب ما نهاك عنه ، ولا يفقدك من حيث أمرك به .

فبكى سليمان بكاء شديدا ، فقال له بعض جلسائه : أسرفت ويحك على أمير المؤمنين .

فقال له أبو حازم : اسكت فان الله عز وجل أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه .

ثم خرج ، فلما صار الى منزله بعث اليه سليمان بمال ، فرده وقال للرسول : قل له والله يا أمير المؤمنين ما أرضاه لك ، فكيف أرضاه لنفسي ؟

بين سليمان وأعرابي

وذكر اسحاق بن ابراهيم الموصلي قال : حدثني الأصمعي ، عن شيخ من المهالبة ، قال : دخل أعرابي على سليمان فقال له : يا أمير المؤمنين اني أريد أن أكلمك بكلام فافهمه .

فقال له سليمان : إنا نجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصحه ، ولا نأمن غشه ، وأرجو أن تكون الناصح جيبا ، المأمون غيبا ، فهات .

قال : يا أمير المؤمنين ، أما اذ أمنت بادرة غضبك ، فسأطلق لساني بما خرست به الألسن من عظتك تأدية لحق الله وحق أمانتك .

يا أمير المؤمنين ، إنه قد تكنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياهم بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ؛ خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك ، حرب للآخرة وسلم للدنيا ، فلا تأمنهم على ما يأمنك الله عليه ، فانهم لم يأتوا الا ما فيه تضييع وللأمة خسف وعسف ، وأنت مسؤول عما اجترموا ، وليسوا مسؤولين عما اجترمت . فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فان أعظم الناس غبنا بائع آخرته بدنيا غيره .

فقال له سليمان : أما أنت يا أعرابي فقد سللت علينا لسانك ، وهو أقطع من سيفك .

فقال : أجل يا أمير المؤمنين ، لك لا عليك .

فقال سليمان : أما وأبيك يا أعرابي لا تزال العرب بسلطاننا لأكناف العز متبوئة ، ولا تزال أيام دولتنا بكل خير مقبلة ، ولئن ساسكم ولاة غيرنا ليحمدن منا ما أصبحتم تذمون .

فقال الأعرابي : أما اذا رجع الأمر الى ولد العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم وصنو أبيه ووارث ما جعله الله له أهلا فلا .

فتغافل سليمان كأن لم يسمع شيئا وخرج الأعرابي فكان آخر العهد به . . . .

هذا الخبر أخبرني به بعض شيوخ ولد العباس بمدينة السلام مدينة أبي جعفر المنصور ، وهو ابن ديهة المنصوري ، عن أبيه ، عن علي بن جعفر النوفلي ، عن أبيه ، وذلك في سنة ثلثمائة .

سليمان يصف معاوية

وذكر معاوية بن أبي سفيان في مجلس سليمان ، فصلى على روحه وأرواح من سلف من آبائه ، وقال : كان والله هزله جدا ، وجده علما ، والله ما رئي مثل معاوية ، كان والله غضبه حلما ، وحلمه حكما .

وقيل : إن هذا الكلام لعبد الملك .

خالد القسري في العراق

وكتب سليمان الى خالد بن عبد الله القسري وهو على العراق في رجل استجار به من قريش ، وكان هرب من خالد ، ألا يعرض له . فأتاه بالكتاب فلم يفضه حتى ضربه مائة سوط ، ثم قرأه فقال : هذه نقمة أراد الله أن ينتقم بها منك لتركي قراءة الكتاب ، ولو كنت قرأته لأنفذت ما فيه .

فخرج القرشي راجعا الى سليمان ، فسأله الفرزدق وأناس ممن كان بالباب عما صنع خالد فأخبرهم ، فقال الفرزدق في ذلك :

سلوا خالدا لا قدس الله خالدا ... متى وليت قسر قريشا تدينها
أقبل رسول الله أم بعد عهده ... فأضحت قريش قد أغث سمينها؟
رجونا هداه لا هدى الله سعيه ... وما أمه بالأم يهدى جنينها

فلما بلغ سليمان ذلك وجه الى خالد من ضربه مائة سوط ، فقال الفرزدق في ذلك من أبيات :

لعمري لقد صبت على ظهر خالد ... شآبيب ليست من سحاب ولا قطر

أتضرب في العصيان من ليس عاصيا | وتعصى أمير المؤمنين أخا قسر
فلولا يزيد بن المهلب حلقت | بكفك فتخاء الى الفرخ في الوكر
لعمري ، لقد سار ابن شيبة سيرة | أرتك نجوم الليل مظهرة تجري
فخذ بيديك الخزي حقا ، فانما | جزيت قصاصا بالمرجرجة السمر

بين سليمان وعمر بن عبد العزيز

وقال سليمان لعمر بن عبد العزيز يوما وقد أعجبه سلطانه : كيف ترى ما نحن فيه ؟

قال : سرور لولا أنه غرور ، وحياة لولا أنه موت ، وملك لولا أنه هلك ، وحسن لولا أنه حزن ، ونعيم لولا أنه عذاب أليم .

فبكى سليمان من كلامه .

سليمان على الضد من الوليد

وكان سليمان بخلاف الوليد ، وعلى الضد منه في الفصاحة والبلاغة ، وقد كان الوليد أفسد في أرض لعبد الله بن يزيد بن معاوية ، فشكا ذلك أخوه خالد بن يزيد الى عبد الملك ، فقال له عبد الملك : « إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون » .

فقال له خالد : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

فقال عبد الملك : أفي عبد الله تتكلم وبالأمس دخل عليَّ فغير في لسانه ، ولحن في كلامه ؟

فقال : أفعلى الوليد تقول ؟

قال : إن كان الوليد يلحن فسليمان أخوه .

قال خالد : وإن كان عبد الله لحانا فأخوه خالد .

فقال الوليد : أتتكلم ولست في العير ولا في النفير .

قال خالد : ألم تسمع ما يقول أمير المؤمنين ، أنا والله ابن العير والنفير ، ولو قلت حبيلات وغنيمات والطائف ، ورحم الله عثمان ، قلنا : صدقت !

أراد بذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفى الحكم بن أبي العاص الى الطائف فصار راعيا حتى رده عثمان .

غضب سليمان على خالد القسري

وغضب سليمان على خالد القسري ، فلما دخل عليه قال : يا أمير المؤمنين ، إن القدرة تذهب الحفيظة ، وانك تجل عن العقوبة ، فان تعف فأهل لذلك أنت ، وإن تعاقب فأهل ذلك أنا . فعفا عنه .

وذم رجل في مجلس سليمان الكلام ، فقال سليمان : إنه من تكلم فأحسن ، قدر على أن يصمت فيحسن ، وليس من صمت فأحسن قدر على أن يتكلم فيحسن .

ووقف سليمان على قبر ولده أيوب ، وبه كان يكنى ، فقال : اللهم اني أرجوك له ، وأخافك عليه ، فحقق رجائي ، وأمن خوفي .

***

بعض الكتاب ينعي سليمان

قال المسعودي : ولما دفن سليمان سمع بعض كتابه وهو يقول أبياتا منها :

وما سالم عما قليل بسالم ... وان كثرت أحراسه وكتائبه

ومن يك ذا بأس شديد ومنعة ... فعما قليل يهجر الباب حاجبه

ويصبح بعد الحجب للناس مقصيا ... رهينة بيت لم تستر جوانبه

فما كان الا الدفن حتى تفرقت ... الى غيره أحراسه ومواكبه

وأصبح مسرورا به كل كاشح ... وأسلمه احبابه واقاربه

فنفسك أكسبها السعادة جاهدا ... فكل امرىء رهن بما هو كاسبه

***

قال المسعودي : ولسليمان أخبار حسان لما كان في مدة ملكه من الكوائن ، وقد أتينا على مبسوط ذلك في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وإنما نذكر في هذا الكتاب لمعا طلبا للايجاز ، وميلا الى الاختصار ، وبالله التوفيق .

ذكر خلافة عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم

رضي الله تعالى عنه

موجز

واستخلف عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين ، وهو اليوم الذي مات فيه سليمان ، وتوفي بدير سمعان من أعمال حمص مما يلي بلاد قنسرين يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة احدى ومائة ، فكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام .

وقبض وهو ابن تسع وثلاثين سنة ، وقبره مشهور في هذا الموضع الى هذه الغاية ، معظّم يغشاه كثير من الناس من الحاضرة والبادية ، لم يتعرض لنبشه فيما سلف من الزمان كما تعرض لقبور غيره من بني أمية .

وأمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقيل إنه قبض وهو ابن أربعين سنة ، وقيل : احدى وأربعين سنة .

وقد تنوزع أيضا في مقدار مدته في الخلافة ، وقد أتينا على المحصل من ذلك في باب مقدار المدة من الزمان وما تملكت فيه بنو أمية من الأعوام ، فيما يرد من هذا الكتاب .

ذكر لمع من أخباره وسيره وزهده

رضي الله تعالى عنه

كيف آلت الخلافة لعمر

لم تكن خلافة عمر في عهد تقدم ، وكان السبب فيها أن سليمان لما حضرته الوفاة بمرج دابق دعا رجاء بن حيوة ومحمد بن شهاد الزهري ومكحولا وغيرهم من العلماء ممن كان في عسكره غازيا ونافرا ، فكتب وصيته وأشهدهم عليها ، وقال : إذا أنا مت فأذنوا بالصلاة جامعة ، ثم اقرأوا هذا الكتاب على الناس .

فلما فرغ من دفنه نودي : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس وحضر بنو مروان فأشرأبوا للخلافة ، وتشوفوا نحوها ، فقام الزهري فقال : أيها الناس ، أرضيتم من سماه أمير المؤمنين في وصيته ؟

فقال : نعم .

فقرأ الكتاب فاذا اسم عمر بن عبد العزيز ومن بعده يزيد بن عبد الملك .

فقام مكحول فقال : أين عمر بن عبد العزيز ؟

وكان عمر في أواخر الناس ، فاسترجع حتى دعي باسمه مرتين أو ثلاثا ، فأتاه قوم

فأخذوا بيده وعضديه ، فأقاموه ، وذهبوا به الى المنبر فصعد وجلس على المرقاة الثانية ، وللمنبر خمس مراقٍ ، فكان أول من بايعه من الناس يزيد بن عبد الملك ، وقام سعيد وهشام فانصرفا ولم يبايعا ، وبايع الناس جميعا ، ثم بايع سعيد وهشام بعد ذلك بيومين .

خلق عمر ودينه

وكان عمر في نهاية النسك والتواضع ، فصرف عمال من كان من قبله من بني أمية ، واستعمل أصلح من قدر عليه ، فسلك عماله طريقته . وترك لعن علي عليه السلام على المنابر ، وجعل مكانه « ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم » .

وقيل : بل جعل مكان ذلك : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون » .

وقيل: بل جعلهما جميعا .

فاستعمل الناس ذلك في الخطبة الى هذه الغاية .

بين السدي وعمر

ولما استخلف عمر دخل عليه سالم السدي ، وكان من خاصته ، فقال له عمر : أسرك ما وليت أم ساءك ؟

فقال : سرني للناس وساءني لك .

قال : إني أخاف أن أكون قد أوبقت نفسي .

قال : ما أحسن حالك ان كنت تخاف ، إني أخاف عليك ألا تخاف .

قال : عظني .

قال : أبونا آدم اخرج من الجنة بخطيئة واحدة .

من طاوس الى عمر

وكتب طاوس الى عمر : إن أردت أن يكون عملك خيرا كله ، فاستعمل أهل الخير .

فقال عمر : كفى بها موعظة .

أول خطبة لعمر

ولما أفضى اليه الأمر كان أول خطبة خطب الناس بها أن قال : أيها الناس ، إنما نحن من أصول قد مضت وبقيت فروعها ، فمابقاء فرع بعد أصله ؟ وإنما الناس في هذه الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نصب المصائب مع كل جرعة شرق ، وفي كل أكلة

غصص ، لا ينالون نعمة الا بفراق أخرى ، ولا يعمر معمر منكم يوما من عمره الا بهدم اخر من أجله .

بين عمر وعامله على المدينة

وكتب الى عامله بالمدينة أن اقسم في ولد علي بن أبي طالب عشرة آلاف دينار .

فكتب اليه : إن عليا قد ولد له في عدة قبائل من قريش ففي أي ولده ؟

فكتب اليه : لو كتبت اليك في شاة تذبحها ، لكتبت الي أسوداء أم بيضاء ؟ اذا أتاك كتابي هذا فاقسم في ولد علي من فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار ، فطالما تخطتهم حقوقهم ، والسلام .

خطبة أخرى

وخطب في بعض مقاماته فقال بعد حمد الله تعالى والثناء عليه : أيها الناس ، إنه لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ألا واني لست بقاض ، ولكني منفذ ، ألا واني لست بمبتدع ، ولكني متبع ، إن الرجل الهارب من الأمام الظالم ليس بعاص ولكن الامام الظالم هو العاصي ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

تقدير ملك الروم لعمر

وبعث عمر وفدا الى ملك الروم في أمر من مصالح المسلمين ، وحق يدعوه اليه ، فلما دخلوا اذا ترجمان يفسر عليه ، وهو جالس على سرير ملكه ، والتاج على رأسه ، والبطارقة عن يمينه وشماله ، والناس على مراتبهم بين يديه ، فأدى اليه ما قصدوا له ، فتلقاهم بجميل ، وأجابهم بأحسن الجواب ، وانصرفوا عنه في ذلك اليوم .

فلما كان في غداة غد أتاهم رسوله ، فدخلوا عليه ، فاذا هو قد نزل عن سريره ، ووضع التاج عن رأسه ، وقد تغيرت صفاته التي شاهدوه عليها كأنه في مصيبة ، فقال : هل تدرون لماذا دعوتكم ؟

قالوا : لا .

قال : إن صاحب مسلحتي التي تلي العرب جاءني كتابه في هذا الوقت أن ملك العرب الرجل الصالح قد مات .

فما ملكوا أنفسهم أن بكوا .

فقال : ألكم تبكون ، أو لدينكم ، أو له ؟

قالوا : نبكي لأنفسنا ولديننا وله .

قال : لا تبكوا له ، وابكوا لأنفسكم ما بدا لكم ، فانه قد خرج الى خير مما خلف ،

قد كان يخاف أن يدع طاعة الله ، فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا ومخافة الآخرة . لقد بلغني من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يحيي الموتى لظننت أنه يحيي الموتى ، ولقد كانت تأتيني أخباره باطنا وظاهرا فلا أجد أمره مع ربه الا واحدا . بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه . ولم أعجب لهذا الراهب الذي قد ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته ، ولكني عجبت من هذا الذي صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها ، حتى صار مثل الراهب . ان أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر الا قليلا .

وصية الأعرج

وكتب عمر الى أبي حازم المدني الأعرج أن أوصني وأوجز ، فكتب اليه : كأنك يا امير المؤمنين بالدنيا لم تكن ، وبالآخرة لم تزل ، والسلام .

توقيع لعمر الى عامله

ووقع الى عامل من عماله : قد كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فاما عدلت ، وأما اعتزلت ، والسلام .

زهده بعد الخلافة

وذكر المدائني قال : كان يشتري لعمر قبل خلافته الحلة بألف دينار ، فاذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها ، فلما أتته الخلافة كان يشتري له قميصاً بعشرة دراهم فاذا لبسه استلانه .

وخرج مع جماعة من أصحابه فمر بالمقبرة فقال لهم : قفوا حتى آتي قبور الأحبة فأسلم عليهم ، فلما توسطها وقف فسلم وتكلم وانصرف الى أصحابه فقال : ألا تسألوني ماذا قلت لهم وما قيل لي ؟

فقالوا : وماذا قلت يا أمير المؤمنين وما قيل لك ؟

قال : مررت بقبور الأحبة فسلمت عليهم فلم يردوا ، ودعوت فلم يجيبوا ، فبينا أنا كذلك اذ نوديت : يا عمر ، أما تعرفني ؟ أنا الذي غيرت محاسن وجوههم ، ومزقت الأكفان عن جلودهم ، وقطعت أيديهم ، وأبنت أكفهم عن سواعدهم .

ثم بكى حتى كادت نفسه أن تطفأ ، فوالله ما مضى بعد ذلك الا أيام حتى لحق بهم .

من مطرف الى عمر

وذكر المدائني قال : كتب مطرف الى عمر ، اما بعد ، فان الدنيا دار عقوبة ، لها يجمع من لا عقل له ، وبها يغتر من لا علم له ، فكن بها كالمداوي جرحه ، واصبر على شدة الدواء ، لما تخاف من عاقبة الداء .

بين عمر وعبد الله

وذكر بعض الأخباريين أن عمر في عنفوان حداثته جنى عليه عبد له أسود جناية ، فبطحه وهمّ ليضربه ، فقال له العبد : يا مولاي ، لم تضربني .

قال : لأنك جنيت كذا وكذا .

قال : فهل جنيت أنت جناية غضب بها عليك مولاك ؟

قال عمر : نعم .

قال : فهل عجل عليك العقوبة ؟

قال : اللهم لا .

قال العبد : فلم تعجل علي ولم يعجل عليك ؟

قال : قم فأنت حر لوجه الله .

وكان ذلك سبب توبته ، وكان عمر يكثر هذا الكلام في دعائه فيقول : يا حليما لا يعجل على من عصاه .

بين عمر وغلام ورد عليه
في وفد الحجاز

وذكر جماعة من الأخباريين أن عمر لما ولي الخلافة وفد عليه وفود العرب ووفد عليه وفد الحجاز ، فاختار الوفد غلاما منهم ، فقدموه عليهم ليبدأ بالكلام ، فلما ابتدأ الغلام بالكلام وهو أصغر القوم سنا قال عمر : مهلا يا غلام ، ليتكلم من هو أسن منك ، فهو أولى بالكلام .

فقال : مهلا يا أمير المؤمنين : إنما المرء بأصغريه : لسانه وقلبه ، فاذا منح الله العبد لسانا لافظا ، وقلبا حافظا ، فقد استجاد له الحلية يا امير المؤمنين ، ولو كان التقدم بالسن لكان في هذه الأمة من هو أسن منك .

قال : تكلم يا غلام .

قال : نعم يا أمير المؤمنين ، نحن وفود التهنئة لا وفود المرزئة ، قدمنا اليك من بلدنا ، نحمد الله الذي منّ بك علينا ، لم يخرجنا اليك رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد أتانا منُك الى بلدنا ، وأما الرهبة فقد أمننا الله بعدلك من جورك .

فقال : عظنا يا غلام وأوجز .

قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إن أناسا من الناس غرهم حلم الله عنهم ، وطول أملهم ، وحسن ثناء الناس عليهم ، فلا يغرنك حلم الله عنك ، وطول أملك ، وحسن

ثناء الناس عليك ، فتزل قدمك .

فنظر عمر في سن الغلام ، فاذا هو قد أتت عليه بضع عشرة سنة ، فأنشأ عمر رحمه الله يقول :

تعلـــم فليس المرء يولـــد عالما وليس أخو علـم كمـن هو جاهل
وان كبـــير القـــوم لا علـــم عنده صغـــير اذا التفـــت عليه المحافل

قصة جارية عند قاضي المدينة

وقد كان رجل من أهل العراق أتى المدينة في طلب جارية وصفت له قارئة قوالـة ، فسأل عنها فوجدها عند قاضي المدينة ، فأتاه وسأله أن يعرضها عليه ، فقال : يا عبد الله ، لقد أبعدت الشقة في طلب هذه الجارية ، فما رغبتك فيها ؟ . . لما رأى من شدة اعجابه بها .

قال : إنها تغني فتجيد .

فقال القاضي : ما علمت بهذا .

فألح عليه في عرضها ، فعرضت بحضرة مولاها القاضي ، فقال لها الفتى : هات .

فغنت :

الى خالـــد حتـــى أنخـــن بخالد فنعـــم الفتـــى يرجـى ونعـــم المؤمل

ففرح القاضي بجاريته وسر بغنائها ، وغشيه من الطرب أمر عظيم حتى أقعدها على فخذه ، وقال : هات شيئا بأبي أنتْ .

فغنت :

أروح الى القصـــاص كل عشية أرجـى ثواب اللـــه في عدد الخطا .

فزاد الطرب على القاضي ، ولم يدر ما يصنع ، فأخذ نعله فعلقها في أذنه ، وجثا على ركبتيه ، وجعل يأخذ بطرف أذنه والنعل معلقة فيها ، وهـو يقـول : أهدونـي الى البيت الحرام ، فاني بدنة .

حتى أدمى أذنه ، فلما أمسكت أقبل على الفتى فقال له : يا حبيبي ، انصرف ، قد كنا فيها راغبين قبل أن نعلم أنها تقول ، فنحن الآن فيها أرغب .

فانصرف الفتى ، وبلغ ذلك الى عمر بن عبد العزيز فقال : قاتله الله ، لقد استرقه الطرب ، وأمر بصرفه من عمله ، فلما صرف قال نساؤه طوالق لو سمعها عمر لقال اركبوني فاني مطية .

فبلغ ذلك عمر فأشخصه وأشخص الجارية ، فلما دخلا على عمر قال له : أعد ما قلت .

قال : نعم .

فأعاد ما قال ، فقال للجارية : قولي .

فغنت :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ، ولم يسمر بمكة سامر

بلى ، نحن كنا أهلها ، فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

فما فرغت من هذا الشعر حتى طرب عمر طربا بينا ، وأقبل يستعيدها ثلاثا ، وقد بلت دموعه لحيته ، ثم أقبل على القاضي فقال : قد قاربت في يمينك ، ارجع الى عملك راشدا .

بين فتى اموي وجارية لبعض قريش

حدثنا الطوسي والأموي الدمشقي وغيرهما عن الزبير بن بكار ، عن عبد الله بن أحمد المديني قال : كان بالمدينة فتى من بني امية من ولد عثمان ، وكان ظريفا يختلف الى قينة لبعض قريش ، وكانت الجارية تحبه ولا يعلم ، ويحبها ولا تعلم ، ولم تكن محبة القوم اذ ذاك لريبة ولا فاحشة .

فأراد يوما أن يبلو ذلك فقال لبعض من عنده : امض بنا اليها . فانطلقا ، ووافاهما وجوه أهل المدينة من قريش والأنصار وغيرهما ، وما كان فيهم فتى يجد بها وجده ، ولا تجد بواحد منهم وجدها بالأموي . فلما أن أخذ الناس مواضعهم قال لها الفتى : أتحسنين أن تقولي :

أحبكم حبا بكل جوارحي فهل عندكم علم بما لكم عندي

أتجزون بالود المضاعف مثله فان كريما من جزى الود بالود

قالت : نعم ، وأحسن منه ، وقالت :

للـــذي ودنـــا المودة بالضعـــف وفضـل البـــادي به لا يجازى
لو بدا ما بنـــا لكم ملأ الأرض وأقطـار شامهـــا والحجازا

قال : فعجب الفتى من حذقها مع حسن جوابها وجودة حفظها فازداد كلفا بها ، وقال :

أنــت عذر الفتــى اذا هتـك الستـــر وان كان يوسف المعصوما

فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز ، فاشتراها بعشر حدائق ووهبها له بما يصلحها فأقامت عنده حولا ثم ماتت ، فرثاها ، وقضى في حاله تلك نحبه فدفنا معا ، وكان من مرثيته لها قوله :

قد تمنيت جنـــة الخلــد للخالـــد فأدخلتهـــا بلا استئهال
ثم أخرجـــت اذ تطمعـــت بالنعـــمة منهـــا والموت أحمـــد حال

وقال أشعب الطامع المدني : هذا سيد شهداء أهل الهوى ، انحروا على قبره سبعين بدنة .

وقال أبو حازم الأعرج المدني : أما محب للّه يبلغ هذا .

عمر والخوارج

وقد كان خرج في أيام عمر شوذب الخارجي ، وقوي أمره فيمن خرج معه من المحكمة من ربيعة وغيرها ، فحدث عباد المهلبي ، عن محمد بن الزبير الحنظلي ، قال : أرسلني عمر اليهم ، وأرسل معي عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وكان خروجهم بالجـزيرة . وكتب عمر معنا اليهم كتابا .

فأتيناهم فأبلغناهم كتابه ورسالته ، فبعثوا معنا رجلين منهم أحدهما من بني شيبان والآخر فيه حبشية ، وهو أحدهما لسانا وعارضة ، فقدمنا بهما على عمر بن عبد العزيز وهو بخناصرة ، فصعدنا اليه الى غرفة هو فيها ومعه ابنه عبد الملك وكاتبه مزاحـم ، فذكرنـا

مكانهما ، فقال : فتشوهما لئلا يكون معهما حديد ، ففعلنا .

فلما دخلا قالا : السلام عليك ، ثم جلسا .

فقال عمر لهما : أخبراني ما الذي أخرجكم مخرجكم هذا ، وماذا نقمتم علينا ؟

فتكلم الذي فيه حبشية فقال : والله ما نقمنا عليك في سيرتك . وانك لتجزى بالعدل والاحسان ، ولكن بيننا وبينك أمر ان أنت أعطيتناه فنحن منك وأنت منا ، وإن منعتناه فلست منا ولسنا منك .

فقال عمر : وما هو ؟

قال : رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك ، وسميتها المظالم ، وسلكت غير سبيلهم ، فان زعمت أنك على هدى وهم على ضلال فالعنهم وتبرأ منهم ، فهذا الذي يجمع بيننا وبينك أو يفرق .

فتكلم عمر فقال : إني قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لدنيا ، ولكن أردتم الآخرة وأخطأتم طريقها ، وإني سائلكم عن أمور ، فبالله لتصدقنني عنها : أرأيتما أبا بكر وعمر ، أليسا من أسلافكم وممن تتولونهما وتشهدون لهما بالنجاة ؟

قالا : بلى .

قال : فهل علمتم أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتدت العرب قاتلهم فسفك الدماء وأخذ الأموال وسبى الذراري ؟

قالا : نعم .

قال : فهل علمتم أن عمر حين قام بعد أبي بكر رد تلك السبايا الى أصحابها ؟

قالا : نعم .

قال : فهل بريء عمر من أبي بكر ؟

قالا : لا .

قال : أفرأيتم أهل النهروان ، أليسوا من أسلافكم وممن تتولون وتشهدون لهم بالنجاة ؟

قالا : بلى .

قال : فهل علمتم أن أهل الكوفة حين خرجوا اليهم كفوا أيديهم فلم يسفكوا دما ولم يخيفوا آمنا ولم يأخذوا مالا ؟

قالا : نعم .

قال : فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا اليهم مع الشيباني وعبد الله بن وهب

الراسبي وأصحابه استعرضوا الناس يقتلونهم ، ولقوا عبد الله بن خباب بن الأرت ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلوه وقتلوا جاريته ، ثم صبحوا حيا من أحياء العرب فاستعرضوهم فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى جعلوا يلقون الصبيان في قدور الأقط وهي تفور ؟

قالا : قد كان ذلك .

قال : فهل تبرأ أهل البصرة من أهل الكوفة وأهل الكوفة من أهل البصرة ؟

قال : لا .

قال : فهل تبرأون أنتم من احدى الطائفتين ؟

قالا : لا .

قال : أرأيتم الدين واحدا أم اثنين ؟

قالا : بل واحدا .

قال : فهل يسعكم فيه شيء يعجز عني ؟

قالا : لا .

قال : فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر ، وتولى أحدهما صاحبه ، وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة ، وتولى بعضهم بعضا ، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء في الدماء والفروج والأموال ، ولا يسعني فيما زعمتم الا لعن أهل بيتي والتبرؤ منهم ؟ أرأيتم لعن أهل الذنوب فريضة مفروضة لا بد منها ، فان كانت كذلك فأخبرني أيها المتكلم متى عهدك بلعن فرعون ؟

قال : ما أذكر متى لعنته .

قال : ويحك ، لم لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق ويسعني فيما زعمت لعن أهل بيتي والتبرؤ منهم ؟ ويحكم ، انكم قوم جهال ، أردتم أمرا فأخطأتموه ، فأنتم تردون على الناس ما قبله منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأمن عندكم من خاف عنده ، ويخاف عندكم من أمن عنده .

قالا : ما نحن كذلك .

قال عمر : بل سوف تقرون بذلك الآن ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الى الناس وهم عبدة أوثان فدعاهم الى خلع الأوثان وشهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فمن فعل ذلك حقن دمه ، وأحرز ماله ، ووجبت حرمته ، وكانت له أسوة المسلمين ؟

قالا : نعم .

قال : فلستم أنتم تلقون من يخلع الأوثان ويشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فتستحلوا دمه وماله ، وتلقون من ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم وتحرمون دمه .

قال الحبشي : ما سمعت كاليوم قط حجة أبين وأقرب مأخذا من حجتك ، أما أنا فأشهد أنك على الحق وأنا بريء ممن بريء منك .

فقال عمر للشيباني : فأنت ما تقول ؟

قال : ما أحسن ما قلت ، وأبين ما وصفت ، ولكني لا أفتات على المسلمين بأمر حتى أعرض قولك عليهم فأنظر ما حجتهم .

قال : فأنت أعلم .

فانصرف ، وأقام الحبشي ، فأمر له عمر بعطائه ،، فمكث خمسة عشر يوما ثم مات . ولحق الشيباني بأصحابه فقتل معهم بعد موت عمر رحمه الله تعالى .

***

ولعمر مع الخوارج أخبار غير ما ذكرنا ، ومراسلات ، ومناظرات ، وكذلك لمن سلف من بني أمية وغيرهم من ولاة الأمصار ، وقد أتينا على ذكرها وذكر كل من سمته الخوارج بأمير المؤمنين وخاطبته بالامامة من الأزارقة والأباضية والحمرية والنجدات والخلقية والصفرية وغيرهم من أنواع الحرورية ، وذكرنا مواضعهم من الأرض في هذا الوقت مثل من سكن منهم من بلاد شهرزور وسجستان واصطخر من بلاد فارس وبلاد كرمان وأذربيجان وبلاد مكران وجبال عمان وهراة من بلاد خراسان والجزيرة وتاهرت السفلى وغيرها من بقاع الأرض ، في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وما ذكرنا من الرد عليهم في التحكيم ، وغير ذلك في كتابنا المترجم بكتاب « الانتصار » المفرد لفرق الخوارج ، وفي كتاب « الاستبصار » .

بعض شعراء الخوارج

وقد ذكرنا جماعة من شعرائهم ممن سلف من أئمتهم : من ذلك قول مصقلة بن عتبان الشيباني ، وكان من غلبة الخوارج :

وأبلغ أمير المؤمنين رسالة	وذو النصح ان لم يرع منك قريب
فانك ان لا ترض بكر بن وائل	يكن لك يوم بالعراق عصيب
فان يك منكم كان مروان وابنه	وعمرو ومنكم هاشم وحبيب

فمنـا سويد والبطـين وقعنب ومنـا أمـير المؤمنـين شبيب
غزالـة ذات النـذر منـا حميدة لهـا في سهـام المسلمـين نصيب
ولا صلـح ما دامـت منابـر أرضنا يقـوم عليهـا من ثقيف خطيب

وكذلك ذكرنا أخبار أم شبيب ، وما كانت عليه من الاجتهاد في ديانة المحكمة ، وفيها يقول الشاعر :

أم شبيب ولـدت شبيبا هل تلـد الذئبـة الا ذيبا

بعض علماء الخوارج

وأخبار علمائهـم كاليمان ، ولـه كتـب مصنفـة في مذاهبهـم ، وعبـد اللـه بن يزيد الأباضي ، وأبي مالك الحضرمي ، وقعنب ، وغير هؤلاء من علمائهم .

وقد كان اليمان بن رباب من علية علماء الخوارج ، وأخوه علي بن رباب من علية علماء الرافضة ، هذا مقدم في أصحابه ، وهذا مقدم في أصحابه ، يجتمعان في كل سنة ثلاثة أيام يتناظران فيها ثم يفترقان ولا يسلم احدهما على الآخر ولا يخاطبه .

وكذلك كان جعفر بن المبشر من علماء المعتزلة وحذاقها وزهادها ، وأخوه حنش بن المبشر من علماء أصحاب الحديث ورؤساء الحشوية بالضد من أخيه جعفر ، وطالت بينهما المناظرة والمباغضة والتباين ، وآلى كل واحد منهما ألا يخاطب الآخر الى أن لحق بخالقه .

وجعفر بن المبشر وجعفر بن حرب من علماء البغداديين من المعتزلة ، وكان عبد الله ابن يزيد الأباضي بالكوفة تختلف اليه أصحابه يأخذون منه .

وكان خرازا شريكا لهشام بن الحكم ، وكان هشام مقدما في القول بالجسم والقـول بالامامة على مذهب القطيعية يختلف اليه أصحابه من الرافضة يأخذون عنه ، وكلاهما في حانوت واحد، على ما ذكرنا من التضاد في المذهب من التشري والـرفض ولـم يجـر بينهما مسابة ، ولا خروج عما يوجبه العلم وقضية العقل وموجب الشرع وأحكام النظر والسير .

وذكر أن عبد الله بن يزيد الأباضي قال لهشام بن الحكم في بعض الأيام : تعلم ما بيننا من المودة ودوام الشركة ، وقد أحببت أن تنكحني ابنتك فاطمة .

فقال له هشام : انها مؤمنة . فأمسك عبد الله ، ولم يعاوده في شيء من ذلك ، الى أن فرق الموت بينهما .

وكان من أمر هشام مع الرشيد وابن برمك ما قد أتينا على ذكره فيما سلف من كتبنا .

رأي عمر بن عبيد فيه

وذكر عن عمرو بن عبيد أنه يقول : أخذ عمر بن عبد العزيز الخلافة بغير حقها ، ولا باستحقاق لها ، ثم استحقها بالعدل حين أخذها .

الفرزدق يرثي عمر

وفي وفاة عمر رضي الله تعالى عنه يقول الفرزدق من أبيات يرثيه بها :

أقول لما نعى الناعون لي عمرا   لقد نعيتم قوام الحق والدين
قد غيب الرامسون اليوم اذ رمسوا   بدير سمعان قسطاس الموازين
ولم يلهه عمره عين يفجرها   ولا النخيل ولا ركض البراذين

***

ولعمر رحمة الله عليه خطب وأخبار حسان غير ما ذكرنا في هذا الكتاب ، وفي الزهد وغيره ، وقد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا ، والحمد لله رب العالمين .

ذكر أيّام يَزيد بن عَبد المَلك بن مَروان

موجز

وملك يزيد بن عبد الملك في اليوم الذي توفي فيه عمر بن عبد العزيز ، وهو يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة احدى ومائة .

ويكنى أبا خالد ، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .

وتوفي يزيد بن عبد الملك باربد من أرض البلقاء من أعمال دمشق يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة وهو ابن سبع وثلاثين سنة ، فكانت ولايته أربع سنين وشهرا ويومين .

ذكر لُمَع مِن أخبَارِهِ وَسِيَرِهِ وَجُمَل مِمَّا كانَ في أيّامِهِ

حبه لسلامة القس

كان الغالب على يزيد بن عبد الملك حب جارية يقال لها سلامة القس ، وكانت لسهيل ابن عبد الرحمن بن عوف الزهري ، فاشتراها يزيد بثلاثة آلاف دينار ، فأعجب بها ، وغلبت على أمره ، وفيها يقول عبد الله بن قيس الرقيات :

لقد فتن الدنيا وسلامة القسا   فلم يتركا للقس عقلا ولا نفسا

فاحتالت أم سعيد العثمانية جدته بشراء جارية يقال لها حبابة قد كان في نفس يزيد بن عبد الملك قديما منها شيء ، فغلب عليه ، ووهب سلامة لأم سعيد .

فعذله مسلمة بن عبد الملك لما عم الناس من الظلم والجور ، باحتجابه واقباله على الشرب واللهو ، وقال له : إنما مات عمر أمس ، وقد كان من عدله ما قد علمت ، فينبغي أن تظهر للناس العدل ، وترفض هذا اللهو ، فقد اقتدى بك عمالك في سائر أفعالك وسيرتك .

فارتدع عما كان عليه ، فأظهر الاقلاع والندم ، وأقام على ذلك مدة مديدة ، فغلظ ذلك على حبابة ، فبعثت الى الأحوص الشاعر ومعبد المغني : انظرا ما أنتما صانعان .

فقال الأحوص في أبيات له :

ألا لا تلمه اليوم أن يتبلدا   فقد غلب المحزون أن يتجلدا

إذا كنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجراً من يابس الثلد جلمدا
فما العيش الا ما تلذ وتشتهي وان لام فيه ذو الشنان وفندا

وغناه معبد ، وأخذته حبابة ، فلما دخل عليها يزيد وقالت : يا أمير المؤمنين ، اسمع مني صوتا واحدا ثم افعل ما بدا لك ، فلما فرغت منه جعل يردد قولها :

فما العيش الا ما تلذ وتشتهي وان لام فيه ذو الشنان وفندا

وعاد بعد ذلك الى لهوه وقصفه ، ورفض ما كان عليه .

يزيد وحبابة وشعر للفند الزماني

وذكر اسحاق بن ابراهيم الموصلي قال :
حدثني ابن سلام قال : ذكر يزيد قول الشاعر :

صفحنا عن بني ذهل وقلنا القوم اخوان
عسى الأيام أن يرجعـ ـن قوما كالذي كانوا
فلما صرح الشر فأمسى وهو عريان
مشينا مشية الليث غدا والليث غضبان
بضرب فيه توهين وتخضيع واقران
وطعن كفم الزق وهي والزق ملآن
وفي الشر نجاة حيـ ـن لا ينجيك احسان

وهو شعر قديم يقال : إنه للفند الزماني في حرب البسوس .
فقال لحبابة : غنيني به بحياتي .
فقالت : يا أمير المؤمنين ، هذا شعر لا أعرف أحدا يغني به الا الأحول المكي .
فقال : نعم ، قد كنت سمعت ابن عائشة يعمل فيه ويترك .
قالت : إنما أخذه عن فلان بن أبي لهب .
وكان حسن الأداء ، فوجه يزيد الى صاحب مكة : إذا أتاك كتابي هذا فادفع الى فلان ابن أبي لهب ألف دينار لنفقة طريقه واحمله على ما شاء من دواب البريد .
ففعل ، فلما قدم عليه قال : غنني بشعر الفند .

فغناه فأجاد وأحسن ، وقال : أعده .

فأعاده فأجاد وأحسن وأطرب يزيد ، فقال له : عمن أخذت هذا الغناء ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، أخذته عن أبي ، وأخذه أبي عن أبيه .

قال : لو لم ترث الا هذا الصوت لكان أبو لهب قد ورثكم خيرا كثيرا .

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أبا لهب مات كافرا مؤذيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال : قد أعلم ما تقول ، ولكني دخلتني رقة اذ كان مجيدا للغناء .

ووصله وكساه ورده الى بلده مكرما .

وكتب في عهد عمر الى يزيد ، اذا أمكنتك القدرة بالعزة فاذكر قدرة الله عليك .

وقيل : إن هذا الكلام كتب به عمر الى بعض عماله ، وفيه زيادة ـ على ما ذكره الزبير ابن بكار ـ وهي : إذا أمكنتك القدرة من ظلم العباد فاذكر قدرة الله عليك بما تأتي اليهم ، واعلم أنك لا تأتي اليهم أمرا الا كان زائلا عنهم باقيا عليك ، وأن الله يأخذ للمظلوم من الظالم ، ومهما ظلمت من أحد فلا تظلمن من لا ينتصر عليك الا بالله تعالى .

موت حبابة وجزع الوليد عليها

واعتلّت حبابة فأقام يزيد أياما لا يظهر للناس ، ثم ماتت ، فأقام أياما لا يدفنها جزعا عليها حتى جيفت ، فقيل : إن الناس يتحدثون بجزعك ، وإن الخلافة تجل عن ذلك ، فدفنها وأقام على قبرها فقال :

فان تسل عنك النفس أوتدع الهوى ... فباليأس تسلو النفس لا بالتجلد

ثم أقام بعدها أياماً قلائل ومات .

حدث أبو عبد الله محمد بن ابراهيم ، عن أبيه ، عن اسحاق الموصلي عن أبي الحويرث الثقفي قال : لما ماتت حبابة حزن عليها يزيد بن عبد الملك حزنا شديدا ، وضم اليه جويرية لها كانت تحدثها فكانت تخدمه ، فتمثلت الجارية يوما :

كفى حزنا للهائم الصب أن يرى ... منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى حتى كاد أن يموت ، ولم تزل تلك الجويرية معه يتذكر بها حبابة حتى مات .

وكان يزيد ذات يوم في مجلسه وقد غنته حبابة وسلامة فطرب طربا شديدا ، ثم قال :

أريد أن أطير .

فقالت له حبابة : يا مولاي ، فعلى من تدع الأمة وتدعنا .

وكان أبو حمزة الخارجي اذا ذكر بني مروان وعابهم ذكر يزيد بن عبد الملك فقال : أقعد حبابة عن يمينه وسلامة عن يساره ، ثم قال : أريد أن أطير ، فطار الى لعنة الله وأليم عذابه .

يزيد بن المهلب يخرج على يزيد بن عبد الملك

قال المسعودي : وقد كان يزيد بن المهلب بـن أبي صفرة هرب من سجن عمر بن عبد العزيز ، حين أثقل ، وذلك في سنة احدى ومائة ، وصار الى البصرة وعليها عدي بن أرطاة الفزاري ، فأخذه يزيد بن المهلب ، فأوثقه ثم خرج يريد الكوفة مخالفا على يزيد بن عبد الملك ، وحشدت له الأزد وأحلافها ، وانحاز اليه أهله وخاصته ، وعظم أمره ، واشتدت شوكته .

فبعث اليه يزيد أخاه مسلمة بن عبد الملك ، وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبـد الملك ، في جيش عظيم ، فلما شارفاه رأى يزيد بن المهلب في عسكره اضطرابا فقال : ما هذا الاضطراب ؟

قيل : جاء مسلمة والعباس .

قال : فوالله ما مسلمة الا جرادة صفراء ، وما العباس الا نسطوس بن نسطوس ، وما أهل الشام الا طغام قد حشدوا ما بين فلاح وزراع ودباغ وسفلة ، فأعيروني أكفكم ساعة واحدة تصفعون بها خراطيمهم ، فما هي الا غدوة وروحة حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الظالمين ، علي بفرسي .

فأتي بفرس أبلق ، فركب غير متسلح ، فالتقى الجيشان فاقتتلوا قتالا شديدا ، وولى أصحاب يزيد عنه ، فقتل يزيد في المعركة ، وصبر اخوته أنفسهم ، فقتلوا جميعا ، ففـي ذلك يقول الشاعر :

كل القبائـل بايعـوك على الذي ... تدعـو اليه طائعـين وساروا
حتـى اذا حضر الوغـى وجعلتهم ... نصـب الأسنـة أسلمـوك وطاروا
ان يقتلـوك فان قتلك لـم يكن ... عارا عليك وبعض قتـل عار

فلما ورد الخبر على يزيد بن عبد الملك استبشر ، وأخذ الشعـراء جميعـا يهجـون آل

المهلب ، الا كثير فانه امتنع من ذلك .

فقال له يزيد : حركتك الرحم يا أبا صخر ، لأنهم يمانيون .

ففي ذلك يقول جرير يمدح يزيد ، ويهجو آل المهلب :

يا رب قوم وقوم حاسدين لكم ... ما فيهم بدل منكم ولا خلف
آل المهلب جز الله دابرهم ... أمسوا رمادا فلا أصل ولا طرف
ما نالت الأزد من دعوى مضلهم ... ألا المعاصم ، والأعناق تختطف
والأزد قد جعلوا المنتوف قائدهم ... فقتلتهم جنود الله ، وانتسفوا

وهي طويلة .

وفي ذلك يقول جرير أيضا ليزيد من كلمة :

لقد تركت فلا نعدمك اذ كفروا ... آل المهلب عظما غير مجبور
يا ابن المهلب ، إن الناس قدعلموا ... أن الخلافة للشم المغاوير

صنع يزيد في آل المهلب

وبعث يزيد هلال بن أحوز المازني في طلب آل المهلب ، وأمره ألا يلقى منهم من بلغ الحلم الا ضرب عنقه .

فأتبعهم حتى أتى قندابيل من أرض السند ، وأتى هلال بغلامين من آل المهلب ، فقال لأحدهما : أدركت ؟

قال : نعم ، ومد عنقه .

فكان الآخر أشفق عليه فعض شفته لئلا يظهر جزعا فضرب عنقه .

وأثخن القتل في آل المهلب حتى كاد أن يفنيهم ، فذكر أن آل المهلب مكثوا بعد ايقاع هلال بهم عشرين سنة يولد فيهم الذكور فلا يموت منهم أحد ، وفي مدح هلال بن أحوز وما فعل يقول جرير :

أقول لها من ليلة ليس طولها ... كطول الليالي : ليت صبحك نورا
أخاف على نفسي ابن أحوز ، إنه ... جلا كل هم في النفوس فأسفرا

جعلــت بقبــر بالحســان ومالك وقبــر عدي في المقابــر أقبرا
فلـــم يبــق منهـــم راية تعرفونها ولـم يبـق من آل المهلـب عسكرا

وهي أبيات .

بين ابن هبيرة والشعبي
وابن سيرين والحسن البصري

وقد كان يزيد بن عبد الملك ـ حين ولي عمر بن هبيرة الفزاري العراق ، وأضاف اليه خراسان واستقام أمره هنالك ـ بعث ابن هبيرة الى الحسن بن أبي الحسن البصري وعامر بن شرحبيل الشعبي ومحمد بن سيرين ، وذلك في سنة ثلاث ومائة ، فقال لهم : إن يزيد بـن عبد الملك خليفة الله استخلفه على عباده ، وأخذ ميثاقهم بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولاني ما ترون ، يكتب الي بالأمر من أمره فأنفذه ، وأقلده ما تقلده من ذلك فما ترون ؟

فقال ابن سيرين والشعبي قولا فيه تقية ، فقال عمر : ما تقول يا حسن ؟

فقال الحسن : يا ابن هبيرة ، خف الله في يزيد ، ولا تخف يزيد في الله ، ان الله يمنعك من يزيد ، وان يزيد لا يمنعك من الله ، وأوشك أن يبعث اليك ملكا فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك الى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك الا عملك ، يا ابن هبيرة ، إني أحذرك ان تعصي الله ، فانما جعل الله هذا السلطان ناصرا لدين الله وعبـاده ، فلا تتركن دين الله وعباده بسلطان الله ، فانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وحكي في هذا الخبر أن ابن هبيرة أجازهم ، وأضعف جائزة الحسن ، فقال الشعبي : سفسفنا فسفسفَ لنا .

بين يزيد وأخيه هشام

وذكر أن يزيد بن عبد الملك بلغه أن أخاه هشام بن عبـد الملك ينتقصـه ، ويتمنـى موته ، ويعيب عليه لهوه بالقينات ، فكتب اليه يزيد : أما بعد ، فقد بلغنـي استثقـالك حياتي ، واستبطاؤك موتي ، ولعمري انك بعدي لواهي الجنـاح ، أجـذم الـكف ، ومـا استوجبت منك ما بلغني عنك .

فأجابه هشام : أما بعد ، فان أمير المؤمنين متى فرغ سمعه لقول أهل الشنآن وأعداء النعم يوشك أن يقدح ذلك في فساد ذات البين ، وتقطع الأرحام ، وأمير المؤمنين بفضله ، وما جعله الله أهلا له أولى أن يتغمد ذنوب أهل الذنوب ، فأما أنا فمعاذ اللّه استثقل حياتك أو استبطىء وفاتك .

فكتب اليه يزيد نحن مغتفرون ما كان منك ، ومكذبون ما بلغنا عنك ، فاحفظ وصية عبد الملك ايانا ، وقوله لنا في ترك التباغي والتخاذل ، وما أمر به وحض عليه من صلاح ذات البين واجتماع الأهواء ، فهو خير لك ، وأملك بك ، واني لأكتب اليك وأنا اعلم انك كما قال الأول :

وانــي على أشياء منــك تريبني	قديما لذو صفـح على ذاك مجمل
ستقطـع في الـدنيا اذا ما قطعتني	يمينــك ، فانظـر أي كف تبدل
وان أنت لم تنصف أخاك وجدته	على طرف الهرجـان ان كان يعقل

فلما أتى الكتاب هشاما ارتحل اليه ، فلم يزل في جواره مخافة أهل البغي والسعاية حتى مات يزيد .

وفاة عطاء بن يسار

وممن مات في أيام يزيد بن عبد الملك عطاء بن يسار مولى ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، ويكنى أبا محمد ، وهو ابن أربع وثمانين سنة ، وذلك في سنة ثلاث ومائة .

موت جماعة من العلماء

وفيها مات مجاهد بن جبر ، مولى قيس بـن السائب المخزومي ، ويكنى أبا الحجاج ، وهو ابن أربع وثمانين سنة .

وجابر بن زيد ، مولى الأزد ، من أهل البصرة ، ويكنى أبا الشعثاء .

ويزيد بن الأصم ، من أهل الرقة ، وهو ابن أخت ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم .

ويحيى بن وثاب الأسعدي ، مولى بني كنانة ، كاهن كوفي .

وأبو بردة بن أبي موسى الأشعري ، واسمه عامر ، كوفي .

وفي سنة أربع ومائة مات وهب بن منبه ، ويقال : مات سنة عشر ومائة .

وفي سنة أربع ومائة هذه أيضا مات طاوس .

وفي سنة خمس ومائة مات عبد الله بن جبير ، مولى العباس بن عبد المطلب ، ويقال انه مولى مولى العباس .

وقيل : إن طاوس بن كيسان ـ ويكنى أبا عبد الرحمن ـ مولى بجير الحميري مات بمكة سنة ست ومائة ، وصلى عليه هشام بن عبد الملك .

وفي سنة سبع ومائة مات سليمان بن يسار ، مولى ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أخو عطاء بن يسار ، ويكنى أبا أيوب ، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة ، بالمدينة .

وقيل : إنه مات في سنة ثمان ومائة .

وفي سنة ثمان ومائة مات القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق .

ومات الحسن بن أبي الحسن البصري ، ويكنى أبا سعيد ، في سنة عشر ومائة ، واسم أبيه يسار مولى لامرأة من الأنصار . ومات وله تسع وثمانون سنة ، وقيل : تسعون سنة . وكان أكبر من محمد بن سيرين .

محمد بن سيرين وأخوته

ومات محمد بعده بمائة ليلة في هذه السنة ، وهو ابن احدى وثمانين سنة ، وقيل ابن ثمانين سنة . وكان أولاد سيرين خمسة اخوة : محمد ، وسعيد ، ويحيى ، وخالد ، وأنس ابن سيرين ، وسيرين مولى أنس بن مالك ، والخمسة قد رووا السنن ، ونقلت عنهم .

ووجدت أصحاب التواريخ متباينين ومختلفين غير متفقين في وفاة وهب بن منبه ، ويكنى أبا عبد الله ، فمنهم من ذكر وفاته على على حسب ما قدمنا في هذا الباب ، ومنهم من رأى أنه مات سنة عشر ومائة بصنعاء ، وكان من الأبناء وهو ابن تسعين سنة .

وفي سنة خمس عشرة ومائة مات الحكم بن عتبة الكندي ، وقيل : إنه مات فيها عطاء ابن أبي رباح .

وفي سنة ثلاث وعشرين ومائة مات أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري . وذكر الواقدي أنه مات سنة أربع وعشرين ومائة .

***

وليزيد بن عبد الملك أخبار حسان ، ولما كان في أيامه من الكوائن والأحداث ، وقد أتينا على مبسوط ذلك في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط .

وإنما ذكرنا وفاة من سمينا من أهل العلم ونقلة الآثار وحملة الأخبار ليكون ذلك زيادة في فائدة الكتاب ، فتكون فوائده عامة ، اذ كان الناس في أغراضهم متباينين ، وفيما يتيممونه من مأخذ العلم مختلفين : فمنهم طالب خبر ، ومقلد لأثر ، ومنهم ذو بحث ونظر ، ومنهم صاحب حديث ، ومنقر عن علل ، ومراع لوفاة مثل من ذكرنا ، فجعلنا فيه لكل ذي رأي نصيبا ، وبالله التوفيق .

ذكر أيّام هِشام بن عَبدالملك بن مَروان

موجز

وبويع هشام بن عبدالملك في اليوم الذي توفي فيه أخوه يزيد بن عبدالملك ، وهو يوم الجمعة لخمس بقين من شوال سنة خمس ومائة . وقبض يزيد وله يومئذ ثمان وثلاثون سنة ، وقيل : أربعون سنة .

وتوفي هشام بن عبدالملك بالرصافة من أرض قنسرين يوم الأربعاء لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة ، فكانت ولايته تسع عشرة سنة وسبعة أشهر واحدى عشرة ليلة .

ذكر لُمع مِن أخبَاره وَسِيَره وَأوصَافه وَخِلافَته

وكان هشام أحول خشنا فظا غليظا ، يجمع الأموال ، ويعمر الأرض ، ويستجيد الخيل ، وأقام الحلبة فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس ، ولم يعرف ذلك في جاهلية ولا اسلام لأحد من الناس .

وقد ذكرت الشعراء ما اجتمع له من الخيل ، واستجاد الكسى والفرش ، وعدد الحرب ولأمتها ، واصطنع الرجال ، وقوّى الثغور ، واتخذ القنى والبرك بطريق مكة ، وغير ذلك من الآثار التي أتى عليها داود بن علي في صدر الدولة العباسية .

وفي أيامه عُمل الخز والقطف الخز ، فسلك الناس جميعا في أيامه مذهبه ، ومنعوا ما في أيديهم ، فقل الافضال ، وانقطع الرفد ، ولم ير زمان أصعب من زمانه .

استشهاد زيد بن علي

وفي أيامه استشهد زيد بن علي بن الحسين بن علي كرم الله وجهه ، وذلك في سنة احدى وعشرين ومائة ، وقيل بل في سنة اثنتين وعشرين ومائة ، وقد كان زيد بن علي شاور أخاه أبا جعفر بن علي بن الحسين بن علي فأشار عليه بألا يركن الى أهل الكوفة ، اذ كانوا أهل غدر ومكر .

وقال له : بها قتل جدك علي ، وبها طعن عمك الحسن ، وبها قتل أبوك الحسين ، وفيها وفي أعمالها شتمنا أهل البيت .

وأخبره بما كان عنده من العلم في مدة ملك بني مروان ، وما يتعقبهم من الدولة العباسية ، فأبى الا ما عزم عليه من المطالبة بالحق ، فقال له : اني أخاف عليك يا أخي أن تكون غدا المصلوب بكناسة الكوفة ، وودعه أبو جعفر ، وأعلمه أنهما لا يلتقيان .

وقد كان زيد دخل على هشام بالرصافة ، فلما مثل بين يديه لم ير موضعا يجلس فيه ، فجلس حيث انتهى به مجلسه . وقال : يا أمير المؤمنين ، ليس أحد يكبر عن تقوى الله ، ولا يصغر دون تقوى الله .

فقال هشام : اسكت لا أم لك ، أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة ، وأنت ابن أمة .

قال : يا أمير المؤمنين ، ان لك جوابا ان أحببت أجبتك به ، وان أحببت أمسكت عنه .

فقال : بل أجب .

قال : ان الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات ، وقد كانت أم اسماعيل أمة لأم اسحاق صلى الله عليهما وسلم ، فلم يمنعه ذلك أن بعثه الله نبيا ، وجعله للعرب أبا ، فأخرج من صلبه خير البشر محمدا صلى الله عليه وسلم ، فتقول لي هذا وأنا ابن فاطمة وابن علي .

وقام وهو يقول :

شرده الخوف وأزرى به	كذاك من يكره حر الجلاد
منخرق الكفين يشكو الجوى	تنكشه أطراف مرو حداد
قد كان في الموت له راحة	والموت حتم في رقاب العباد
ان يحدث الله له دولة	يترك آثار العدا كالرماد

فمضى عليها الى الكوفة وخرج عنها ، ومعه القراء والأشراف ، فحاربه يوسف بن عمر الثقفي ، فلما قامت الحرب انهزم أصحاب زيد ، وبقي في جماعة يسيرة ، فقاتلهم أشد قتال ، وهو يقول متمثلا :

أذل الحياة وعز الممات	وكلا أراه طعاما وبيلا
فان كان لا بد من واحد	فسيري الى الموت سيرا جميلا

وحال المساء بين الفريقين ، فراح زيد مثخنا بالجراح ، وقد أصابه سهم في جبهته ، فطلبوا من ينزع النصل ، فأتي بحجام من بعض القرى ، فاستكتموه أمره ، فاستخرج النصل فمات من ساعته .

فدفنوه في ساقية ماء ، وجعلوا على قبره التراب والحشيش ، وأجرى الماء على ذلك ، وحضر الحجام مواراته فعرف الموضع .

فلما أصبح مضى الى يوسف متنصحا ، فدله على موضع قبره فاستخرجه يوسف ، وبعث برأسه الى هشام .

فكتب اليه هشام : أن اصلبه عريانا .

فصلبه يوسف كذلك ، ففي ذلك يقول بعض شعراء بني أمية يخاطب آل أبي طالب وشيعتهم من أبيات :

صلبنـا لكم زيدا على جذع نخلة ولم أر مهـديا على الجـذع يصلب

وبنى تحت خشبته عمودا ، ثم كتب هشام الى يوسف يأمره باحراقه وذروه في الرياح .

صنيع العباسين بقبور الأمويين

قال المسعودي : وحكى الهيثم بن عدي الطائي ، عن عمرو بن هانيء ، قال : خرجت مع عبدالله بن علي لنبش قبور بني أمية في أيام أبي العباس السفاح ، فانتهينا الى قبر هشام ، فاستخرجناه صحيحا ما فقدنا منه الا خورمة أنفه ، فضربه عبدالله بن علي ثمانين سوطا ، ثم أحرقه ، واستخرجنا سليمان من أرض دابق ، فلم نجد منه شيئا الا صلبة وأضلاعه ورأسه ، فاحرقناه ، وفعلنا ذلك بغيرهما من بني أمية ، وكانت قبورهم بقنسرين .

ثم انتهينا الى دمشق ، فاستخرجنا الوليد بن عبدالملك ، فما وجدنا في قبره قليلا ولا كثيرا ، واحتفرنا عن عبد الملك فما وجدنا الا شؤون رأسه ، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فما وجدنا فيه الا عظما واحدا ، ووجدنا مع لحده خطا أسود ، كأنما خط بالرماد في الطول في لحده ، ثم اتبعنا قبورهم في جميع البلدان فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم .

وانما ذكرنا هذا الخبر في هذا الموضع لقتل هشام زيد بن علي ، وما نال هشاما من المثلة بما فعل سلفه من الاحراق كفعله بزيد بن علي .

وقد ذكر أبو بكر بن عياش وجماعة من الأخباريين أن زيدا مكث مصلوبا خمسين شهرا عريانا ، فلم ير له أحد عورة ، سترا من الله له ، وذلك بالكناسة بالكوفة .

فلما كان في أيام الوليد بن يزيد بن عبدالملك وظهر ابنه يحيى بن زيد بخراسان كتب الوليد الى عامله بالكوفة : أن أحرق زيدا بخشبته ، ففعل ذلك به ، وأذرى رماده في الرياح

على شاطىء الفرات .

فرق الزيدية من الشيعة

وقد أتينا في كتابنا « المقالات في أصول الديانات » على السبب الذي من أجله سميت الزيدية بهذا الاسم ، وأن ذلك بخروجهم مع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم .

هذا ، وقد قيل غير ذلك مما قد أتينا عليه فيما سلف من كتبنا ، والخلاف بين الزيدية والامامية والفرق بين هذين المذهبين وكذلك غيرهم من فرق الشيعة وغيرهم .

وقد ذكر جماعة من مصنفي كتب المقالات والآراء والديانات من آراء الشيعة وغيرهم كأبي عيسى محمد بن هارون الوراق وغيره ، أن الزيدية كانت في عصرهم ثماني فرق :

أولها الفرقة المعروفة بالجارودية ، وهم أصحاب أبي الجارود زياد بن المنذر العبدي ، وذهبوا الى أن الامامة مقصورة في ولد الحسن والحسين دون غيرهما .

ثم الفرقة الثانية المعروفة بالمرئية .

ثم الفرقة الثالثة المعروفة بالأبرقية .

ثم الفرقة الرابعة المعروفة باليعقوبية ، وهم أصحاب يعقوب بن علي الكوفي .

ثم الفرقة الخامسة المعروفة بالعقبية .

ثم الفرقة السادسة المعروفة بالأبترية ، وهم أصحاب كثيرّ الأبتر والحسن بن صالح بن يحيى .

ثم الفرقة السابعة المعروفة بالجريرية ، وهم أصحاب سليمان بن جرير .

ثم الفرقة الثامنة المعروفة باليمانية ، وهم أصحاب محمد بن اليمان الكوفي ، وقد زاد هؤلاء في المذهب ، وفرعوا مذاهب على ما سلف من أصولهم ، وكذلك فرق أهل الامامة فكانوا على ما ذكر من سلف من أصحاب الكتب ثلاثا وثلاثين فرقة .

وقد ذكرنا تنازع القطيعية بعد مضي الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وما قالت الكيسانية ، وما تباينت فيه وغيرها من سائر طوائف الشيعة ، وهم ثلاث وسبعون فرقة ، دون ما تباينوا فيه من التفريع ، وتنازعوا فيه من التأويل .

والغلاة أيضا ثماني فرق : المحمدية منهم أربع ، والمعتزلة أربع ، وهم العلوية .

ولولا أن كتابنا هذا كتاب خبر لبسطنا من مذاهبهم ووصفنا من آرائهم ما تقدم قبلنا وحدث في وقتنا هذا ، وما قالوه من دلائل ظهور المنتظر الموعود بظهوره ، وما ذهب اليه كل

فريق منهم في ذلك من أصحاب الدور والسرو والتشريق ، وغيرهم من أهل الامامة .

بين هشام ورجل من أهل حمص

وعرض هشام يوما الجند بحمص ، فمر به رجل من أهل حمص وهو على فرس نفور ، فقال له هشام : ما حملك على أن تربط فرسا نفورا ؟

فقال الحمصي : لا والرحمن الرحيم يا أمير المؤمنين ، ما هو بنفور ، ولكنه أبصر حولتك فظن أنها عين غزوان البيطار .

فقال له هشام : تنح فعليك وعلى فرسك لعنة الله .

وكان غزوان البيطار نصرانيا ببلاد حمص ، كأنه هشام في حولته وكشفته .

هشام والأبرش الكلبي وجارية من جواري هشام

وبينا هشام ذات يوم جالسا خاليا وعنده الأبرش الكلبي اذ طلعت وصيفة لهشام عليها حلة ، فقال للأبرش : مازحها .

فقال لها الأبرش : هبي لي حلتك .

فقالت له : لأنت أطمع من أشعب .

فقال لها هشام : ومن أشعب ؟

فقالت : كان مضحكا بالمدينة ، وحدثته بعض أحاديثه ، فضحك هشام ، وقال : اكتبوا الى ابراهيم بن هشام ، وكان عامله على المدينة ، في حمله الينا .

فلما ختم الكتاب أطرق هشام طويلا ، ثم قال : يا أبرش ، هشام يكتب الى بلد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحمل اليه منه مضحك ؟ لاها الله .

ثم تمثل :

اذا أنت طاوعت الهوى قادك الهوى الى بعض ما فيه عليك مقال

وأوقف الكتاب .

أمثلة من بخل هشام

وذكر أن هشاما أهدي له رجل طائرين ، فأعجب بهما ، فقال له الرجل : جائزتي يا أمير المؤمنين ؟

قال : ويلك ، وما جائزة طائرين ؟

قال له : ما شئت .
قال : خذ أحدهما .
فقصد الرجل لأحسنهما فأخذه .
فقال هشام : وتختار أيضا ؟
قال : نعم ، والله أختار .
فقال : دعه ، وأمر له بدريهمات !

ودخل هشام بستانا له ومعه ندماؤه فطافوا به ، وبه من كل الثمار ، فجعلوا يأكلون ويقولون : بارك الله لأمير المؤمنين .

فقال : وكيف يبارك لي فيه وأنتم تأكلونه ؟ ثم قال : ادع قيمه ، فدعا به ، فقال له : اقلع شجره واغرس فيه زيتونا حتى لا يأكل منه أحد شيئا .

وكتب اليه ابنه سليمان : ان بغلتي قد عجزت ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لي بدابة .

فكتب اليه هشام : قد فهم أمير المؤمنين كتابك ، وما ذكرت من ضعف دابتك ، وقد ظن أن ذلك من قلة تعاهدك لعلفها ، وضياع العلف ، فقم عليها بنفسك ، ولعل أمير المؤمنين يرى رأيه في حملانك .

ونظر هشام الى رجل على برذون طخاري ، فقال : من أين لك هذا ؟
قال : حملني عليه الجنيد بن عبدالرحمن .
قال : وقد كثرت الطخارية حتى ركبها العامة ؟ لقد مات عبدالملك وفي مربطه برذون واحد طخاري ، فتنافس فيه ولده ، حتى ظن من فاته أن الخلافة فاتته .
قال الرجل : فحسدني اياه .

وقد كان أخوه مسلمة مازحه قبل أن يلي الأمر ، فقال له : يا هشام ، أتؤمل الخلافة وأنت جبان بخيل .
فقال : والله اني عليم حليم .

السواس من بني أمية

وذكر الهيثم بن عدي والمدائني وغيرهما ان السواس من بني أمية ثلاثة : معاوية ، وعبدالملك ، وهشام ، وختمت به أبواب السياسة وحسن السيرة ، وأن المنصور كان في أكثر أموره وتدبيره وسياسته متبعا لهشام بن عبدالملك في أفعاله ، لكثرة ما كشفه عن أخبار هشام وسيره .

وقد أتينا على غرر أخباره وسيره وسياسته ، وما حفظ من أشعاره وخطبه ، وما كان في

أيامه في كتابينا« أخبار الزمان » والأوسط ، وكذلك ذكرنا بدء الكلام الذي أثار تصنيف الكتاب المعروف بكتاب الواحدة في مناقب العرب ومثالبها مفردة لا يشاركها فيها غيرها ، وما أضيف الى كل حي من أحياء العرب من قحطان وغيرهم من نزار ، وما جرى في مجلس هشام في أوقات مختلفة بين الأبرش الكلبي والعباس بن الوليد بن عبدالملك ، وخالد بن مسلمة المخزومي والنضر بن مريم الحميري ، وما أورده الحميري من مناقب قومه من حمير وكهلان ، وما أورده المخزومي من مناقب قومه من نزار بن معد بن عدنان ، وما ذكره كل واحد منهم من المثالب فيما عدا قومه وبان عن عشيرته ورهطه ، وقد قيل : إن هذا الكتاب ألفه أبو عبيدة معمر بن المثنى مولى آل تيم بن مرة بن كعب بن لؤي ، على لسان من ذكرنا ، وعزاه الى من وصفنا ، أو غيره من الشعوبية .

ذكر أيّام الوَليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان

موجز

وبويع الوليد بن يزيد في اليوم الذي توفي فيه هشام ، وهو يوم الأربعاء لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ، ثم قتل بالبخراء يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة .

فكانت ولايته سنة وشهرين واثنين وعشرين يوما ، وقتل وهو ابن أربعين سنة ، والموضع الذي قتل فيه دفن فيه ، وهي قرية من قرى دمشق تعرف بالبخراء ، على ما ذكرنا ، وقد أتينا على خبر مقتله في كتابنا الأوسط .

ذكر لمع من أخباره وسيره

ظهور يحيى بن زيد ومقتله

ظهر في أيام الوليد بن يزيد . يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ، بالجوزجان من بلاد خراسان ، منكرا للظلم وما عم الناس من الجور .

فسير اليه نصر بن سيار سلم بن أحوز المازني ، فقتل يحيى في المعركة بقرية يقال لها أرعونة ، ودفن هنالك ، وقبره مشهور مزور الى هذه الغاية .

وليحيى وقائع كثيرة ، وقتل في المعركة بسهم أصابه في صدغه .

فولى اصحابه عنه يومئذ ، واحتز رأسه ، فحمل الى الوليد ، وصلب جسده بالجوزجان فلم يزل مصلوبا الى أن خرج أبو مسلم ، صاحب الدولة العباسية .

فقتل أبو مسلم سلم بن أحوز ، وأنزل جثة يحيى فصلى عليها في جماعة أصحابه ، ودفنت هناك ، وأظهر أهل خراسان النياحة على يحيى بن زيد سبعة أيام في سائر أعمالها في حال أمنهم على أنفسهم من سلطان بني أمية .

ولم يولد في تلك السنة بخراسان مولود الا وسمي بيحيى أو بزيد ، لما داخل أهل خراسان من الجزع والحزن عليه .

وكان ظهور يحيى في آخر سنة خمس وعشرين ، وقيل في أول سنة ست وعشرين ومائة .

وقد أتينا على أخباره وما كان من حروبه في الكتاب الأوسط ، وفي غيره مما سلف من كتبنا ، فأغنى ذلك عن اعادته .

وكان يحيى يوم قتل يكثر من التمثل بشعر الخنساء .

تهين النفوس ، وهون النفو   س يوم الكريهة أوفى لها

لهو الوليد وخلاعته

وكان الوليد بن يزيد صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء ، وهو أول من حمل المغنين من البلدان اليه ، وجالس الملهين ، وأظهر الشراب والملاهي والعزف ، وفي أيامه كان ابن سريج المغني ، ومعبد ، والغريض ، وابن عائشة ، وابن محرز ، وطويس ، ودحمان ، وغلبت عليه شهوة الغناء في أيامه ، وعلى الخاص والعام ، واتخذ القيان ، وكان متهتكا ماجنا خليعا ، وطرب الوليد لليلتين خلتا من ملكه وأرق فأنشأ يقول :

طال ليلي وبت أسقي السلافة وأتاني نعي من بالرصافة
وأتاني ببردة وقضيب وأتاني بخاتم للخلافة

ومن مجونه قوله عند وفاة هشام ، وقد أتاه البشير بذلك ، وسلم عليه بالخلافة :

أني سمعت ، خليلي نحو الرصافة رنه
أقبلت أسحب ذيلي أقول : ما حالهنه
اذا بنات هشام يندبن والدهنه
أنا المخنث حقا ان لم أنيكنهنه

وقيل للوليد : ما بقي من لذاتك ؟

قال : محادثة الاخوان في الليالي القمر ، على الكثبان العفر .

الوليد وشراعة بن زيد

وبلغ الوليد عن شراعة بن زيد ورود حسن عشرة وحلاوة مجالسة ، فبعث في احضاره ، فلما أدخل اليه قال : اني ما بعثت اليك لأسألك عن كتاب ولا سنة .

قال : ولست من أهلها .

قال : انما أسألك عن القهوة .

قال : سل عن أي ذلك ما شئت يا أمير المؤمنين .

قال : ما تقول في الشراب ؟

قال : عن أية تسأل ؟

قال : ما تقول في الماء ؟

قال : يشاركني فيه البغل والحمار .

قال : فنبيذ الزبيب ؟
قال : خمار وأذى .
قال : فنبيذ التمر ؟
قال : ضراط كله .
قال : فالخمر ؟
قال : شقيقة روحي ، وأليفة نفسي .
قال : فما تقول في السماع ؟
قال : يبعث مع التأني على ذكر الأشجان ، ويجدد اللهو على مواقع الأحزان ، ويؤنس الخلي الوحيد ، ويسر العاشق الفريد ، ويبرد غليل القلوب ، ويثير من خواطر الضمائر خطرة ليست من الملاهي لغيره ، يسرع ترقيها في أجزاء الجسد ، فتهيج النفس ، وتقوي الحس .
قال : فأي المجالس أحب اليك ؟
قال : ما رأيت فيه السماء من غير أن ينالني فيه أذى .
قال : فما تقول في الطعام ؟
قال : ليس لصاحب الطعام اختيار ، ما وجده أكله . . .
فاتخذه الوليد نديما .

من قوله في الشراب

ومن مليح قوله في الشراب من أبيات :

وصفراء في الكأس كالزعفران — سباها لنا التجر من عسقلان
تريك القذاة وعرض الانا — ء ستر لها دون مس البنان
لها حبب كلما صفقت — تراها كلمعة برق يماني

ومن مجونه أيضا على شرابه قوله لساقيه :

اسقني يا يزيد بالقرقارة — قد طربنا وحنت الزمارة
اسقني اسقني ، فان ذنوبي — قد أحاطت فما لها كفارة

سمير الوليد يتحدث عنه

وأخبرنا أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي القاضي ، عن محمد بن سلام الجمحي ، قال : حدثني رجل من شيوخ أهل الشام عن أبيه ، قال : كنت سميرا للوليد بن يزيد ، فرأيت ابن عائشة القرشي عنده وقد قال له : غنني .

فغناه :

انــي رأيت صبيحــة النحر حورا نفــين عزيمــة الصبر
مثــل الــكواكب في مطالعها عنــد العشــاء أطفــن بالبدر
وخرجــت ابغــي الأجــر محتسبا فرجعــت موفــورا من الوزر

فقال له الوليد : أحسنت والله يا أميري ، أعد بحق عبد شمس ، فأعاد .

فقال : أحسنت والله ، بحق أمية أعد ، فأعاد .

فجعل يتخطى من أب الى أب ويأمره بالاعادة ، حتى بلغ نفسه ، فقال : أعد بحياتي ، فأعاد .

فقام الى ابن عائشة فأكب عليه ولم يبق عضوا من أعضائه الا قبله .

وقال : واطرباه واطرباه ، ونزع ثيابه فألقاها على ابن عائشة ، وبقي مجردا الى أن أتوه بثياب غيرها ، ودعا له بألف دينار فدفعت اليه ، وحمله على بغلة له وقال : اركبها على بساطي وانصرف فقد تركتني على أحر من جمر الغضى .

ورث الوليد الخلاعة عن يزيد أبيه

قال المسعودي : وقد كان ابن عائشة غنى بهذا الشعر يزيد بن عبدالملك أباه فأطربه .

وقيل : انه ألحد وكفر في طربه ، وكان فيما قال لساقيه : اسقنا بالسماء الرابعة .

فكأن الوليد بن يزيد قد ورث الطرب في هذا الشعر عن أبيه ، والشعر لرجل من قريش ، والغناء لابن سريج ، وقيل : لمالك ، على حسب ما في كتب الأغاني من الخلاف في ذلك مما ذكره اسحاق بن ابراهيم الموصلي في كتابه في الأغاني وابراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة في كتابه في الأغاني أيضا ، وغيرهما ممن صنف في هذا المعنى ، والوليد يدعى خليع بني مروان .

فعله بالمصحف وقد استفتح به

وقرأ ذات يوم : « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد » ، فدعا بالمصحف فنصبه غرضا للنشاب ، وأقبل يرميه وهو يقول :

أتوعد كل جبار عنيد فهأنذاك جبار عنيد
اذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب خرقني الوليد

شعر له ألحد فيه

وذكر محمد بن يزيد المبرد النحوي أن الوليد ألحد في شعر له ذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن الوحي لم يأته عن ربه ، كذب أخزاه الله . . . من ذلك الشعر :

تلعّب بالخلافة هاشمي بلا وحي أتاه ولا كتاب
فقل لله يمنعني طعامي ، وقل لله يمنعني شرابي

فلم يمهل بعد قوله هذا الا أياما حتى قتل .

نسب أمه

وأم الوليد بن يزيد : أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفية ، ويكنى أبا العباس .

من خواص اليشب

وقد كان حمل اليه جفنة من البلور ـ وقيل من الحجر المعروف باليشب ـ وقد ذهب جماعة من الفلاسفة الى أن من شرب فيه الخمر لا يسكر .

وقد ذكرنا خاصية ذلك في كتاب « القضايا والتجارب » وأن من وضع تحت رأسه منه قطعة أو كان فص خاتمه منه لم ير الا رؤيا حسنة ، فأمر الوليد فملئت خمرا وطلع القمر وهو يشرب وندماؤه معه .

فقال : أين القمر الليلة ؟

فقال بعضهم : في البرج الفلاني .

فقال له آخر منهم : بل هو في الجفنة ، وقد كان القمر تبين في شعاع الجوهر وصورته في ذلك الشراب .

فقال له الوليد : والله ما تعديت ما في نفسي ، وطرب طربا شديدا .

وقال : لأصطبحن هفت هفته . . . وهذا كلام فارسي تفسيره : لأصطبحن سبعة أسابيع .

فدخل عليه بعض حجابه فقال : يا أمير المؤمنين ، ان بالباب جمعا من وفود العرب وغيرهم من قريش ، والخلافة تجل عن هذه المنزلة ، وتبعد عن هذه الحال .

فقال : اسقوه ، فأبى . فوضع في فمه قمعاً وجعلوا يسقونه حتى خر ما يعقل سكرا .
وقد كان أبوه أراد أن يعهد اليه ، فلاستصغاره لسنه عهد الى أخيه هشام ، ثم الى الوليد من بعده .

كان مغرى بالخيل

وكان الوليد مغرى بالخيل وحبها وجمعها ، واقامة الحلبة ، وكان السندي فرسه جواد زمانه ، وكان يسابق به في أيام هشام ، وكان يقصر عن فرس هشام المعروف بالزائد ، وربما ضامه ، وربما جاء مصليا .

مراتب خيل الحلبة

وهناك مراتب السوابق من الخيل اذا جرت ، فأولها السابق ، ثم المصلي ، وذلك أن رأسه عند صلا السابق ، ثم الثالث والرابع ، وكذلك الى التاسع ، والعاشر السُّكَّيْت ، مشدد ، وما جاء بعد ذلك لم يعتد به ، والفِسْكِل : الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل .

وأجرى الوليد الخيل بالرصافة ، وأقام الحلبة ، وهي يومئذ ألف قارح ، ووقف بها ينتظر الزائد ، ومعه سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص ، وكان له فيها جواد يقال له المصباح ، فلما طلعت الخيل قال الوليد :

خيلي ورب الكعبة المحرمة سبقن أفراس الرجال اللوَّمَة
كما سبقناهم وحزنا المكرمة
كذاك كنا في الدهور القُدَّمة أهل العلا والرتب المعظمة

فأقبل فارس بن الوليد ـ ويقال له الوضاح ـ أدم الخيل ، فلما دنا صرع فارسه وأقبل المصباح فرس سعيد يتلوه وعليه فارسه ، وهو فيما يرى سعيد يعد سابقا ، فقال سعيد والوليد يسمع :

نحن سبقنا اليوم خيل اللومه وصرف الله الينا المكرمه
كذاك كنا في الدهور القدمه أهل العلا والرتب المعظمة

فضحك الوليد لما سمعه ، وخشي أن تسبق فرس سعيد ، فركض فرسه حتى ساوى الوضاح ، فقذف بنفسه عليه ، ودخل سابقا ، فكان الوليد أول من فعل ذلك وسنه في الحلبة ، ثم تلاه في الفعل كذلك المهدي في أيام المنصور ، والهادي في أيام المهدي ، ثم

عرضت على الوليد الخيل في الحلبة الثانية ، فمر به فرس لسعيد ، فقال : لا نسابقك يا أبا عنبسة ، وأنت القائل :

نحن سبقنا اليوم خيل اللومة

فقال سعيد : ليس كذا قلت يا أمير المؤمنين ، وانما قلت :

نحن سبقا اليوم خيلا لومه

فضحك الوليد ، وضمه الى نفسه ، وقال : لا عدمت قريش أخا مثلك .

***

وللوليد بن يزيد أخبار حسان في جمعه الخيول في الحلبة ، فانه اجتمع له في الحلبة ألف قارح ، وجمع بين الفرس المعروف بالزائد والفرس المعروف بالسندي ، وكانا قد برزا في الجري على خيول زمانهما .

وقد ذكر ذلك جماعة من الأخباريين وأصحاب التواريخ ، مثل ابن عفير والأصمعي وأبي عبيدة وجعفر بن سليمان .

وقد أتينا على الغرر من أخباره في أخبار الخيل ، وأخبار الحلبات ، وخبر الفرس المعروف بالزائد والسندي وأشقر مروان ، وغير ذلك من أخبار من سلف من الأمويين ، ومن تأخر ، في كتابنا المترجم بالأوسط ، وانما الغرض من هذا الكتاب ايراد جوامع تاريخهم ، ولمع من أخبارهم وسيرهم .

وكذلك أتينا على ذكر ما يستحب من معرفة خلق الخيل وصفاتها من سائر أعضائها وعيوبها وخلقها ، والشاب منها والهرم ، ووصف ألوانها ودوائرها ، وما يستحسن من ذلك ، ومقادير أعمارها ، ومنتهى بقائها ، وتنازع الناس في أعداد هذه الدوائر ، والمحمودة منها والمذمومة ، ومن رأى أنها ثماني عشرة أو أقل من ذلك أو أكثر على حسب ما أدرك من طرق العادات بها والتجارب ، ووصف السوابق من الخيل ، وغير ذلك مما تكلم الناس به في شأنها وأعرافها ، فيما سلف من كتبنا .

وفاة أبي جعفر محمد بن علي
ابن الحسين

وفي أيام الوليد بن يزيد كانت وفاة أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم .

وقد تنوزع في ذلك : فمن الناس من رأى أن وفاته كانت في أيام هشام ، وذلك سنة سبع عشرة ومائة .

ومن الناس من رأى أنه مات في أيام يزيد بن عبدالملك ، وهو ابن سبع وخمسين سنة ، بالمدينة ، ودفن بالبقيع مع أبيه علي بن الحسين ، وغيره من سلفه عليهم السلام ، مما سنورد ذكرهم فيما يرد من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى ، والله ولي التوفيق .

ذكر أيام يزيد وابراهيم ابني الوليد ابن عبد الملك بن مروان

موجز

ولي يزيد بن الوليد بدمشق ليلة الجمعة لسبع بقين من جمادى الآخرة ، فبايعه الناس بعد قتل الوليد بن يزيد .

وتوفي يزيد بن الوليد بدمشق يوم الأحد هلال ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة ، فكانت ولايته من مقتل الوليد بن يزيد الى أن مات خمسة أشهر وليلتين .

وقد كان ابراهيم بن الوليد أخوه قام بالأمر من بعده ، فبايعه الناس بدمشق أربعة أشهر ، وقيل : شهرين ، ثم خلع .

وكانت أيامه عجيبه الشأن من كثرة الهرج والاختلاط ، واختلاف الكلمة ، وسقوط الهيبة ، وفيه يقول بعض أهل ذلك العصر :

نبايع ابراهيم في كل جمعة　　ألا ان أمرا أنت واليه ضائع

ودفن يزيد بن الوليد بدمشق بين باب الجابية وباب الصغير ، وهو ابن سبع وثلاثين سنة ، ويقال : ابن ست وأربعين سنة على الخلاف في ذلك .

ذكر لمع مما كان في أيامهما

وصف يزيد الناقص

كان يزيد بن الوليد أحول ، وكان يلقب بيزيد الناقص ، ولم يكن ناقصا في جسمه ولا عقله ، وانما نقص بعض الجند من أرزاقهم ، فقالوا : يزيد الناقص .

وكان يذهب الى قول المعتزلة وما يذهبون اليه في الأصول الخمسة : من التوحيد ، والعدل ، والوعيد ، والأسماء والأحكام ، وهو القول بالمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قول المعتزلة في التوحيد

وتفسير قولهم فيما ذهبوا اليه من الباب الأول ـ وهو باب التوحيد ـ وهو ما اجتمعت عليه المعتزلة من البصريين والبغداديين وغيرهم ، وان كانوا في غير ذلك من فروعهم متباينين ، من أن الله عز وجل لا كالأشياء ، وأنه ليس بجسم ولا عرض ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر ، بل هو الخالق للجسم والعرض والعنصر والجزء والجوهر .

وأن شيئا من الحواس لا يدركه في الدنيا ، ولا في الآخرة ، وأنه لا يحصره المكان ، ولا

تحويه الأقطار ، بل هو الذي لم يزل ، ولا له زمان ولا مكان ولا نهاية ولا حد ، وأنه الخالق للأشياء المبدع لها لا من شيء ، وأنه القديم ، وأن ما سواه محدث .

قولهم في العدل

وأما القول بالعدل ـ وهو الأصل الثاني ـ فهو أن الله لا يحب الفساد ، ولا يخلق أفعال العباد ، بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم ، وأنه لم يأمر الا بما أراد، ولم ينه الا عما كره، وأنه ولي كل حسنة أمر بها، بريء من كل سيئة نهى عنها ، لم يكلفهم ما لا يطيقونه ، ولا أراد منهم ما لا يقدرون عليه ، وأن أحدا لا يقدر على قبض ولا بسط الا بقدرة الله التي أعطاهم اياها ، وهو المالك لها دونهم ، يفنيها اذا شاء ، ويبقيها اذا شاء ، ولو شاء الله لجبر الخلق على طاعته ، ومنعهم اضطراريا عن معصيته ، ولكان على ذلك قادرا ، غير أنه لا يفعل ، اذ كان في ذلك رفع للمحنة ، وازالة البلوى .

قولهم في الوعيد

أما القول بالوعيد ـ وهو الأصل الثالث ـ فهو أن الله لا يغفر لمرتكب الكبائر الا بالتوبة ، وأنه لصادق في وعده ووعيده ، لا مبدل لكلماته .

قولهم في المنزلة بين المنزلتين

وأما القول بالمنزلة بين المنزلتين ـ وهو الأصل الرابع ـ فهو أن الفاسق المرتكب للكبائر ليس بمؤمن ولا كافر ، بل يسمى فاسقا ، على حسب ما ورد التوقيف بتسميته ، وأجمع أهل الصلاة على فسوقه .

***

قال المسعودي : وبهذا الباب سميت المعتزلة ، وهو الاعتزال ، وهو الموصوف بالأسماء والأحكام مع ما تقدم من الوعيد في الفاسق من الخلود في النار .

قولهم في الأمر بالمعروف

وأما القول بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ وهو الأصل الخامس ـ فهو أن ما ذكر على سائر المؤمنين واجب ، على حسب استطاعتهم في ذلك ، بالسيف فما دونه ، وان كان كالجهاد ، ولا فرق بين مجاهدة الكافر والفاسق .

***

فهذا ما اجتمعت عليه المعتزلة ، ومن اعتقد ما ذكرنا من هذه الأصول الخمسة كان معتزليا ، فان اعتقد الأكثر أو الأقل لم يستحق اسم الاعتزال ، فلا يستحقه الا باعتقاد هذه الأصول الخمسة ، وقد تنوزع فيما عدا ذلك من فروعهم .

وقد أتينا على سائر قولهم في أصولهم وفروعهم وأقاويلهم وأقاويل غيرهم من فرق الأمة

من الخوارج والمرجئة والرافضة والزيدية والحشوية وغيرهم في كتابنا « المقالات في أصول الديانات » .

الاختلاف في الامامة

وأفردنا بذلك كتابنا المترجم بكتاب « الابانة » اجتبيناه لأنفسنا . وذكرنا فيه الفرق بين المعتزلة وأهل الامامة وما بان به كل فريق منهم عن الآخر .

اذ كانت المعتزلة وغيرها من الطوائف تذهب الى أن الامامة اختيار من الأمة ، وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ، ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا اجتمع المسلمون عندهم على رجل بعينه ، وأن اختيار ذلك مفوض الى الأمة تختار رجلا منها ينفذ فيها أحكامه ، سواء كان قرشيا أو غيره من أهل ملة الاسلام وأهل العدالة والايمان ، ولم يراعوا في ذلك النسب ولا غيره ، وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك .

والذي ذهب الى أن الأمامة قد تجوز في قريش وغيرهم من الناس هو المعتزلة بأسرها ، وجماعة من الزيدية مثل الحسن بن صالح بن يحيى ، ومن قال بقوله ، على حسب ما قدمنا من ذكرهم فيما سلف من هذا الكتاب في أخبار هشام .

ويوافق على هذا القول جميع الخوارج من الأباضية وغيرهم ، الا النجدات من فرق الخوارج ، فزعموا أن الامامة غير واجب نصبها ، ووافقهم على هذا القول أناس من المعتزلة ممن تقدم وتأخر ، الا أنهم قالوا : ان عدلت الأمة ولم يكن فيها فاسق لم يحتج الى امام .

وذهب من قال بهذا القول الى دلائل ذكروها ، منها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو أن سالما حي ما دخلتني فيه الظنون ، وذلك حين فوض الأمر الى أهل الشورى .

قالوا : وسالم مولى امرأة من الأنصار ، فلو لم يعلم عمر أن الامامة جائزة في سائر المؤمنين لم يطلق هذا القول ، ولم يتأسف على موت سالم مولى أبي حذيفة .

قالوا : وقد صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم أخبار كثيرة ، منها قوله « اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع » وقد قال الله عز وجل : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وذهب أبو حنيفة ، وأكثر المرجئة ، وأكثر الزيدية من الجارودية وغيرها ، وسائر فرق الشيعة والرافضة والراوندية ، الى أن الإمامة لا تجوز الا في قريش فقط ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم « الإمامة في قريش » وقوله عليه السلام : « قدموا قريشا ولا تقدموها » ، ولما احتج المهاجرون به على الأنصار يوم سقيفة بني ساعدة من أن الامامة في قريش لأنهم اذا ولوا عدلوا ، ولرجوع كثير من الأنصار الى ذلك .

ولما انفرد به أهل الامامة من أن الامامة لا تكون الا نصا من الله ورسوله على عين الامام

واسمه واشتهاره كذلك ، وفي سائر الأعصار لا تخلو الناس من حجة لله فيهم ظاهرا أو باطنا ، على حسب استعماله التقية والخوف على نفسه .

واستدلوا بالنص على الامامة ، وبدلائل كثيرة من العقول وجوامع من النصوص في وجوبها ، وفي النص عليهم ، وفي عصمتهم ، من ذلك قوله عز وجل مخبرا عن ابراهيم : « اني جاعلك للناس اماما » ومسألة ابراهيم بقوله : « ومن ذريتي » واجابة الله له بأنه « لا ينال عهدي الظالمين » .

قالوا : ففيم تلونا دلائل على أن الامامة نص من الله ، ولوكان نصها الى الناس ما كان لمسألة ابراهيم ربه وجه ، ولما كان الله قد أعلمه أنه اختاره ، وقوله « لا ينال عهدي الظالمين » دلالة على أن عهده يناله من ليس بظالم .

ووصف هؤلاء الامام فقالوا : نعت الامام في نفسه أن يكون معصوما من الذنوب ، لأنه ان لم يكن معصوما لم يؤمن أن يدخل فيما يدخل فيه غيره من الذنوب ، فيحتاج أن يقام عليه الحد ، كما يقيمه هو على غيره ، فيحتاج الامام الى امام ، الى غير نهاية ، ولم يؤمن عليه أيضا أن يكون في الباطن فاسقا فاجرا كافرا .

وأن يكون أعلم الخليقة ، لأنه ان لم يكن عالما لم يؤمن عليه أن يقلب شرائع الله وأحكامه ، فيقطع من يجب عليه الحد ، ويحد من يجب عليه القطع ، ويضع الأحكام في غير المواضع التي وضعها الله ، وأن يكون أشجع الخلق ، لأنهم يرجعون اليه في الحرب ، فان جبن وهرب يكون قد باء بغضب من الله .

وأن يكون أسخى الخلق ، لأنه خازن المسلمين وأمينهم ، فان لم يكن سخيا تاقت نفسه الى أموالهم ، وشرهت الى ما في أيديهم ، وذلك الوعيد الشديد بالنار .

وذكروا خصالا كثيرة ينال بها أعلى درجات الفضل لا يشاركه فيها أحد ، وأن ذلك كله وجد في علي بن أبي طالب وولده رضي الله عنهم : من السبق الى الايمان ، والهجرة ، والقرابة ، والحكم بالعدل ، والجهاد في سبيل الله ، والورع ، والزهد .

وأن الله قد أخبر عن بواطنهم وموافقتها لظواهرهم بقوله عز وجل ، ووصفه لهم فيما صنعوه من الاطعام للمسكين واليتيم والأسير ، وأن ذلك لوجهه تعالى خالصا ، لا أنهم أبدوه بألسنتهم فقط ، وأخبر عن أمرهم في المنقلب ، وحسن الموئل في المحشر ، ثم اخباره عز وجل عما أذهب عنهم من الرجس ، وفعل بهم من التطهير ، وغير ذلك مما أوردوه دلائل لما قالوه .

وأن عليا نص على ابنه الحسن ، ثم الحسين ، والحسين على علي بن الحسين ، وكذلك من بعده الى صاحب الوقت الثاني عشر ، على حسب ما ذكرنا وسمينا في غير هذا الموضع من

هذا الكتاب .

ولأهل الامامة من فرق الشيعة في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) كلام كثير في الغيبة واستعمال التقية ، وما يذكرونه من أبواب الأئمة والأوصياء ، لا يسعنا ايراده في هذا الكتاب ، اذ كان كتاب خبر ، وانما تغلغل بنا الكلام الى ايراد لمع من هذه المذاهب والآراء .

وكذلك ما عليه غير أهل الامامة من أصحاب الدور والسيرورة ، وما يراعونه من الظهور .

وقد أتينا على جميع ذلك فيما سلف من كتبنا ، وما وصفنا فيها من الأقاويل في الظاهر والباطن والسائر والداثر والوافر ، وغير ذلك من أمورهم وأسرارهم .

***

قال المسعودي : وكان خروج يزيد بن الوليد بدمشق مع شائعة من المعتزلة وغيرهم من أهل داريا والمزة من غوطة دمشق على الوليد بن يزيد ، لما ظهر من فسقه ، وشمل الناس من جوره ، فكان من خبر مقتل الوليد ما قد ذكرناه فيما سلف من كتبنا مفصلا ، وذكرناه في هذا الكتاب مجملا .

أم يزيد أم ولد

وكان يزيد بن الوليد أول من ولي هذا الأمر وأمه أم ولد ، وكانت أمه سارية بنت فيروز بن كسرى ، وهو الذي يقول في ذلك :

أنا ابن كسرى وأبي مروان ... وقيصر جدي وجدي خاقان

وكان يكنى بأبي خالد ، وأم أخيه ابراهيم أم ولد تدعى بدبرة . والمعتزلة تفضل في الديانة يزيد بن الوليد على عمر بن عبدالعزيز ، لما ذكرناه من الديانة .

ظهور مروان بن محمد (الحمار)

وفي سنة سبع وعشرين ومائة أقبل مروان بن محمد بن مروان من الجزيرة فدخل دمشق ، وخرج ابراهيم بن الوليد هاربا من دمشق .

ثم ظفر به مروان فقتله وصلبه ، وقتل من مالأه ووالاه ، وقتل عبدالعزيز بن الحجاج ، ويزيد بن خالد القسري ، وبدأ أمر بني أمية يؤول الى ضعف .

وذكر اليحصبي عن الخليل بن ابراهيم السبيعي ، قال : سمعت ابن الجمحي يقول : قال لي العلاء بن بنت ذي الكلاع ، إنه كان مؤانسا لسليمان بن هشام بن عبدالملك لا

يكاد يفارقه ، وكان أمر المسودة بخراسان والمشرق قد بان ، ودنا من الجبل ، وقرب من العراق ، واشتد ارجاف الناس ، ونطق العدو بما أحب في بني أمية وأوليائهم .

قال العلاء : فاني لمع سليمان وهو يشرب حذاء رصافة أبيه ، وذلك في آخر أيام يزيد الناقص ، وعنده حكم الوادي ، وهو يغنيه بشعر العرجي :

ان الحبيب تروحت أجماله ... أصلا ، فدمعك دائم اسباله
اقن الحياء فقد بكيت بعولة ... لو كان ينفع باكيا اعواله
يا حبذا تلك الحمول ، وحبذا ... شخص هناك ، وحبذا أمثاله

فأجاد بما شاء ، فشرب سليمان بالرطل ، وشربنا معه ، حتى توسدنا أيدينا .

فلم أنتبه الا بتحريك سليمان اياي ، فقمت اليه مسرعا ، فقلت له : ما شأن الأمير ؟

فقال لي : على رسلك ، رأيت كأني في مسجد دمشق ، وكأن رجلا في يده خنجر وعليه تاج أرى بصيص ما فيه من جوهر ، وهو رافع صوته بهذه الأبيات :

أبني أمية قد دنا تشتيتكم ... وذهاب ملككم وألا يرجع
وينال صفوته عدو ظالم ... للمحسنين اليه ثمة يفجع
بعد المهات بكل ذكر صالح ... ياويله من قبح ما قد يصنع

فقلت : بل لا يكون ذلك ، وعجبت من حفظه ، ولم يكن من أصحاب ذلك ، فوجم ساعة ثم قال : يا حميري ، بعيد ما يأتي به الزمان قريب .

قال : فما اجتمعنا على شراب بعد ذلك .

ودخلت سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وكان من أمر المسودة ومروان بن محمد الجعدي ما كان .

سبب زوال ملك الأمويين

وذكر المنقري قال : سئل بعض شيوخ بني أمية ومحصليها عقيب زوال الملك عنهم الى بني العباس : ما كان سبب زوال ملككم ؟

فقال : انا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ، فظلمنا رعيتنا ، فيئسوا من انصافنا ، وتمنوا الراحة منا ، وتحومل على أهل خراجنا ، فتخلوا عنا ، وخربت ضياعنا ، فخلت بيوت أموالنا ، ووثقنا بوزرائنا ، فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أمورا دوننا

أخفوا علمها عنا ، وتأخر عطاء جندنا ، فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم أعادينا فتظافروا معهم على حربنا ، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا ، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا .

ذِكر السَبَب في العَصَبيَّة بَينَ النِزاريّة وَاليَمانيّة

الكميت يعرض شعره على الفرزدق

ذكر أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان النوفلي ، قال : حدثني أبي قال : لما قال الكميت بن زيد الأسدي ـ من أسد مضر بن نزار ـ الهاشميات قدم البصرة فأتى الفرزدق فقال : يا أبا فراس ، أنا ابن أخيك .

قال : من أنت ؟

فانتسب له ، فقال : صدقت ، فما حاجتك ؟

قال : نفث على لساني ، وأنت شيخ مضر وشاعرها ، وأحببت أن أعرض عليك ما قلت ، فان كان حسنا أمرتني باذاعته ، وإن كان غير ذلك أمرتني بستره وسترته علي .

فقال : يا ابن أخي ، أحسب شعرك على قدر عقلك ، فهات ما قلت راشدا .

فأنشده :

طربت وما شوقا الى البيض أطرب ولا لعبا مني ، وذو الشيب يلعب

قال : بلى فالعب .

فقال :

ولـم يلهني دار ولا رسـم منزل ولـم يتطربني بنـان مخضب

قال : فما يطربك اذن ؟

قال :

ومـا أنـا ممـن يزجـر الطـير همه أصـاح غراب أو تعـرض ثعلب

قال : فما أنت ويحك ، والى من تسمو ؟

فقـال :

ومـا السانحات البارحـات عشية أمـر سليم القـرن أم مر أعضب

قال : أما هذا فقد أحسنت فيه .

فقال :

ولكن الى أهل الفضائل والنهى وخير بني حواء والخير يطلب

فقال : ومن هم ويحك ؟

قال :

الى النفر البيض الذين بحبهم الى الله فيما نابني أتقرب

قال : أرحني ، ويحك من هؤلاء !

قال :

بني هاشم رهط النبي ، فانني بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب

قال : للّه درك يا بني ، أصبت فأحسنت ، اذ عدلت عن الزعانف والأوباش اذن لا يصرد سهمك ، ولا يكذب قولك ، ثم مر فيها ، فقال له : أظهر ثم أظهر وكد الأعداء ، فأنت والله أشعر من مضى وأشعر من بقى .

الكميت يعرض شعره
على أبي جعفر محمد بن علي

فحينئذ قدم المدينة ، فأتى أبا جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم ، فأذن له ليلا وأنشده ، فلما بلغ من الميمية قوله :

وقتيل بالطف غودر منهم بين غوغاء أمة وطغام

بكى أبو جعفر ، ثم قال : يا كميت ، لو كان عندنا مال لأعطيناك ، ولكن لك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت ، لا زلت مؤيدا بروح القدس ما ذببت عنا أهل البيت ، فخرج من عنده .

ثم يعرضه على عبد الله بن الحسن

فأتى عبد الله بن الحسن بن علي ، فأنشده ، فقال : يا أبا المستهل ، إن لي ضيعة قد أعطيت فيها أربعة آلاف دينار ، وهذا كتابها ، وقد أشهدت لك بذلك شهـودا ، وناولـه اياه .

فقال : بأبي أنت وأمي ، إني كنت أقول الشعر في غيركم أريد بذلك الدنيا والمال ، ولا والله ما قلت فيكم شيئا الا للّه ، وما كنت لآخذ على شيء جعلته للّه مالا ولا ثمنا ، فألح عبد الله عليه ، وأبى من إعفائه . فأخذ الكميت الكتاب ومضى .

فمكث أياما ، ثم جاء الى عبد الله فقال : بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله ، إن لي حاجة .

قال : وما هي ؟ وكل حاجة لك مقضية .

قال : كائنة ما كانت ؟

قال : نعم .

قال : هذا الكتاب تقبله وترتجع الضيعة .

ووضع الكتاب بين يديه ، فقبله عبد الله .

عبد الله بن جعفر يثيب الكميت

ونهض عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فأخذ ثوبا جلدا فدفعه الى أربعة من غلمانه، ثم جعل يدخل دور بني هاشم ، ويقول : يا بني هاشم ، هذا الكميت قال فيكم الشعر حين صمت الناس عن فضلكم ، وعرض دمه لبني أمية ، فأثيبوه بما قدرتم .

فيطرح الرجل في الثوب ما قدر عليه من دنانـير ودراهم ، وأعلـم النسـاء بذلك ، فكانت المرأة تبعث ما أمكنها ، حتى إنها لتخلع الحلى عن جسدها ، فاجتمع من الدنانـير والدراهم ما قيمته مائة ألف درهـم ، فجاء بها الى الكميت ، فقال : يا أبا المستهل ، أتيناك بجهد المقل ، ونحن في دولة عدونا،وقد جمعنا لك هذا المال وفيه حلى النسـاء كما ترى ، فاستعن به على دهرك .

فقال : بأبي أنت وأمي ، قد أكثرتم وأطيبتـم ، ومـا أردت بمدحـي اياكم الا اللـه ورسوله ، ولم أك لآخذ لذلك ثمنا من الدنيا ، فاردده الى أهله .

فجهد به عبد الله أن يقبله بكل حيلة ، فأبى .

فقال : إن أبيت أن تقبل فاني رأيت أن تقول شيئا تغضب به بين الناس ، لعل فتنة

تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما تحب .

اول اثارة العصبية

فابتدأ الكميت وقال قصيدته التي يذكر فيها مناقب قومه من مضر بن نزار بن معد وربيعة بن نزار وإياد وأنمار ابني نزار ، ويكثر فيها من تفضيلهم ، ويطنب في وصفهم ، وأنهم أفضل من قحطان ، فغضب بها بين اليمانية والنزارية فيما ذكرناه وهي قصيدته التي أولها :

ألا حييت عنا يا مدينا   وهل ناس تقول مسلمينا

الى أن انتهى الى قوله تصريحا وتعريضا باليمن فيما كان من أمر الحبشة وغيرهم فيها ، وهو قوله :

لنا قمر السماء وكل نجم   تشير اليه أيدي المهتدينا
وجدت الله اذ سمى نزارا   وأسكنهم بمكة قاطنينا
لنا جعل المكارم خالصات   وللناس القفا ولنا الجبينا
وما ضربت هجائن من نزار   فوالج من فحول الأعجمينا
وما حملوا الحمير على عتاق   مطهرة فيلفوا مبلغينا
وما وجدت نساء بني نزار   حلائل أسودين وأحمرينا

دعبل الخزاعي يرد على الكميت

وقد نقض دعبل بن علي الخزاعي هذه القصيدة على الكميت وغيرها ، وذكر مناقب اليمن وفضائلها من ملوكها وغيرها ، وصرح وعرض بغيرهم ، كما فعل الكميت ، وذلك في قصيدته التي أولها :

أفيقي من ملامك ياظعينا   كفاك اللوم مر الأربعينا
ألم تحزنك أحداث الليالي   يشيبن الذوائب والقرونا
أحيي الغر من سروات قومي   لقد حييت عنا يا مدينا
فان يك آل اسرائيل منكم   وكنتم بالأعاجم فاخرينا

فلا تنس الخنازير اللواتي مسخن مع القرود الخاسئينا
بأيلة والخليج لهم رسوم وآثار قدمن وما محينا
وما طلب الكميت طلاب وتر ولكنا لنصرتنا هجينا
لقد علمت نزار أن قومي الى نصر النبوة فاخرينا

وهي طويلة .

كانت العصبية من دواعي زوال ملك بني أمية

ونمى قول الكميت في النزارية واليمانية ، وافتخرت نزار على اليمن ، وافتخرت اليمن على نزار ، وأدلى كل فريق بما له من المناقب ، وتحزبت الناس ، وثارت العصبية في البدو والحضر .

فنتج بذلك أمر مروان بن محمد الجعدي ، وتعصبه لقومه من نزار على اليمن ، وانحراف اليمن عنه الى الدعوة العباسية ، وتغلغل الأمر الى انتقال الدولة عن بني أمية الى بني هاشم ثم ما تلا ذلك من قصة معن بن زائدة باليمن ، وقتله أهلها تعصبا لقومه من ربيعة وغيرها من نزار ، وقطعه الحلف الذي كان بين اليمن وربيعة في القدم .

وفعل عقبة بن سالم بعمان والبحرين ، وقتله عبد القيس وغيرهم من ربيعة وسائر نزار ممن بأرض البحرين وعمان كيادا لمعن ، وتعصبا من عقبة بن سالم لقومه من قحطان ، وغير ذلك مما تقدم وتأخر مما كان بين نزار وقحطان .

ذِكر أيّام مَروان بن محمّد بن مَروان بن الحكم وَهو الجعدِي

موجز

وبويع مروان بن محمد بن مروان بدمشق يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة سبع وعشرين ومائة .

وقيل : إنما دعا الى نفسه بمدينة حران من ديار مضر ، وبويع له بها .

وأمه أم ولد يقال لها ريا ، وقيل طرونة ، كانت لمصعب بن الزبير فصارت بعد مقتله لمحمد بن مروان أبيه .

وكان مروان يكنى أبا عبد الملك ، واجتمع أهل الشام على بيعته ، الا سليمان بن هشام ابن عبد الملك وغيره من بني أمية ، فكانت أيامه منذ بويع بمدينة دمشق من أرض الشام الى مقتله خمس سنين وعشرة أيام . وقيل : خمس سنين وثلاثة أشهر .

وكان مقتله في أول سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، ومنهم من رأى أن ذلك كان في المحرم ، ومنهم من رأى أنه كان في صفر ، وقيل غير ذلك مما تنازع فيه أهل التواريخ والسير على حسب تنازعهم في مقدار ملكه .

فمنهم من ذهب الى أن مدته خمس سنين وثلاثة أشهر ، ومنهم من قال : خمسا وشهرين وعشرة أيام ، ومنهم من قال خمسا وعشرة أيام .

وكان مقتله ببوصير (قرية من قرى الفيوم بصعيد مصر) .

وقد تنوزع في مقدار سنه كتنازعهم في مقدار ملكه ، فمنهم من زعم أنه قتل وهو ابن سبعين سنة ، ومنهم من قال : ابن تسع وستين،ومنهم من قال : اثنتين وستين ، ومنهم من قال : ثمان وخمسين ، وإنما نذكر هذا الخلاف من قولهم لئلا يظن ظان أننا قد أغفلنا ما ذكروه أو تركنا شيئا مما وصفوه ، مما قصدنا اليه في كتابنا هذا ، وإن كنا قد أتينا على مبسوط ما قيل في ذلك ، في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط .

وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب جملا من كيفية مقتله وأخباره ، وجوامع من سيره وحروبه ، وما كان من أمر الدولتين في ذلك من الماضية - وهي الأموية - والمستقبلة في ذلك الزمان - وهي العباسية - مع إفرادنا بابا نذكر فيه جوامع تاريخ ملك الأمويين ، وهو الباب المترجم بذكر مقدار المدة من الزمان ، وما ملكت فيه بنو أمية من الأعوام ، ثم نعقب ذلك

بلمع من أخبار الدولة العباسية وأخبار أبي مسلم ، وخلافة أبي العباس السفاح ومـن تلا عصره من خلفاء بني العباس ، الى سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة من خلافة أبي اسحاق المتقي لله ابراهيم بن المقتدر بالله ، أن شاء الله تعالى ، والله ولي التوفيق .

ذكر مقدار المدّة من الزمان
وما ملكت فيه بنو أميّة من الأعوام

المدة اجمالا

كان جميع ملك بني أمية الى أن بويع أبو العباس السفاح ألف شهر كاملة لا تزيد ولا تنقص ، لأنهم ملكوا تسعين سنة ، وأحد عشر شهرا ، وثلاثة عشر يوما .

تفصيل المدة

قال المسعودي : والناس متباينون في تواريخ أيامهم ، والمعول على ما نورده وهو الصحيح عند أهل البحث ومن عني بأخبار هذا العالم ، وهو أن معاوية بن أبي سفيان ملك عشرين سنة .

ويزيد بن معاوية ثلاث سنين وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما .

ومعاوية بن يزيد شهرا وأحد عشر يوما .

ومروان بن الحكم ثمانية أشهر وخمسة أيام .

وعبد الملك بن مروان احدى وعشرين سنة وشهرا وعشرين يوما .

والوليد بن عبد الملك تسع سنين وثمانية أشهر ويومين .

وسليمان بن عبد الملك سنتين وستة أشهر وخمسة عشر يوما .

وعمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام .

ويزيد بن عبد الملك أربع سنين وثلاثة عشر يوما .

وهشام بن عبد الملك تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام

والوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة وثلاثة أشهر .

ويزيد بن الوليد بن عبد الملك شهرين وعشرة أيام .

وأسقطنا أيام ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك كإسقاطنا أيام ابراهيم بن المهدي أن يعد في الخلفاء العباسيين .

ومروان بن محمد بن مروان خمس سنين وشهرين وعشرة أيام ، الى أن بويع السفاح . . .

فتكون الجملة تسعين سنة وأحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما ، يضاف الى ذلك الثمانية أشهر التي كان مروان يقاتل فيها بني العباس الى أن قتل ، فيصير ملكهم احدى وتسعين سنة وسبعة أشهر وثلاثة عشر يوما .

يوضع من ذلك أيام الحسن بن علي ـ وهي خمسة أشهر وعشرة أيام ـ وتوضع أيام عبد

الله بن الزبير الى الوقت الذي قتل فيه ـ وهي سبع سنين وعشرة أشهر وثلاثة أيام ـ فيصير الباقي بعد ذلك ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر ، يكون ذلك ألف شهر سواء .

وذكر قوم أن تأويل قوله عز وجل : « ليلة القدر خير من ألف شهر » ما ذكرناه من أيامهم .

****

مدة ملك بني العباس

وقد روي عن ابن عباس أنه قال : والله ليملكن بنو العباس ضعف ما ملكته بنو أمية : باليوم يومين ، وبالشهر شهرين ، وبالسنة سنتين ، وبالخليفة خليفتين .

قال المسعودي : فملك بنو العباس في سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وانقضى ملك بني أمية . فلبني العباس من وقت ملكهم الى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) مائتا سنة .

وذلك أن أبا العباس السفاح بويع له بالخلافة في ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وانتهينا من تصنيفنامن هذا الكتاب الى هذا الموضع في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة في خلافة أبي اسحاق المتقي للّه ، والله أعلم بما يكون من أمرهم فيما يأتي به الزمان المستقبل بعد هذا الوقت من الأيام .

وقد أتينا بحمد الله فيما سلف من كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط على الغرر من أخبارهم ، والنوادر من أسمائهم ، والطرائف مما كان في أيامهم وعهودهم ، ووصاياهم ، ومكاتباتهم ، وأخبار الحوادث والخوارج في أيامهم من الأزارقة والأباضية وغيرهم .

ومن ظهر من الطالبيين طالبا بحق أو آمرا بمعروف أو ناهيا عن منكر ، فقتل في أيامهم .

وكذلك من تلاهم من بني العباس الى خلافة المتقي للّه من سنتنا هذه (وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) .

وما ذكرنا في هذا الكتاب من جوامع التاريخ قد يخالف ما تقدم بسطه باليوم أو العشرة أو الشهر عند ذكرنا لدولة كل واحد منهم وأيامه ، وهذا هو المعول عليه من تاريخهم وسنيهم ، والمفصل من مدتهم ، والله أعلم ، ومنه التوفيق .

ذِكر الدّولَـة العبّاسيَّة
ولُمَع مِن أخبَار مَروَان ومَقتله
وجَوامع مِن حرُوبه وسِيَره

قول الراوندية في الخلافة

قد قدمنا في الكتاب الأوسط ما ذكرته الراوندية ـ وهم شيعة ولـد العبـاس بن عبـد المطلب من أهل خراسان وغيرهم ـ من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ، وأن أحق الناس بالإمامة بعده العباس بن عبد المطلب ـ لأنه عمه ـ ووارثه وعصبته .

لقول الله عز وجل : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » .

وأن الناس اغتصبوه حقه ، وظلموه أمره ، الى أن رده الله اليهم .

وتبرأوا من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأجازوا بيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه باجازته لها ، وذلك لقوله : "يا ابن أخي ، هلم الى أن أبايعك فلا يختلف عليك اثنان .

ولقول داود بن علي على منبر الكوفة يوم بويع لأبي العباس : يا أهل الكوفة ، لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا علي بن أبي طالب ، وهذا القائم فيكم (يعني أبا العباس السفاح) .

من حوار فاطمة الزهراء وأبي بكر الصديق

وقد صنف هؤلاء كتبـا في هذا المعنـى الـذي ادعـوه هي متداولـة في أيـدي أهلهـا ومنتحليها ، منها كتاب صنعه عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو المترجم بكتاب « امامة ولـد العباس » ، يحتج فيه لهذا المذهب ، ويذكر فعل أبي بكر في فدك وغيرها وقصته مع فاطمة رضي اللّـه عنها ، ومطالبتها بإرثها من أبيها صلى اللّه عليه وسلم ، واستشهادهـا ببعلهـا وابنيها وأم أيمن وما جرى بينها وبين أبي بكر من المخاطبة ، وما كثر بينهم من المنازعة ، وما قالت ، وما قيل لها عن أبيها عليه السلام ، من أنه قال : « نحن معاشر الأنبياء نرث ولا نورث » .

وما احتجت به من قوله عز وجل : « وورث سليمان داود » على أن النبوة لا تورث ، فلم يبق الا التوارث وغير ذلك من الخطاب .

ولم يصنف الجاحظ هذا الكتاب ، ولا استقصى فيه الحجاج للراوندية ، وهم شيعة ولد العباس ، لأنه لم يكن مذهبه ، ولا كان يعتقده ، ولكن فعل ذلك تماجنا وتطربا .

العثمانية للجاحظ

وقد صنف أيضا كتابا استقصى فيه الحجاج عند نفسه ، وأيده بالبراهين ، وعضده بالأدلة فيما تصوره من عقله ، وترجمه بكتاب العثمانية ، يحل فيه عند نفسه فضائل علي عليه السلام ومناقبه ، ويحتج فيه لغيره ، طلبا لاماتة الحق ، ومضادة لأهله ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

كتب اخرى للجاحظ

ثم لم يرض بهذا الكتاب المترجم بكتاب العثمانية حتى أعقبه بتصنيف كتاب آخر في امامة المروانية وأقوال شيعتهم ، ورأيته مترجما بكتاب امامة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ، في الانتصار له من علي بن أبي طالب رضي الله عنه وشيعته الرافضة ، يذكر فيه رجال المروانية ، ويؤيد فيه امامة بني امية وغيرهم .

ثم صنف كتابا آخر ترجمه بكتاب مسائل العثمانية ، يذكر فيه ما فاته ذكره ونقضه عند نفسه ، من فضائل أمير المؤمنين علي ومناقبه فيما ذكرنا .

نقض الشيعة لكتب الجاحظ

وقد نقضت عليه ما ذكرنا من كتبه ككتاب العثمانية وغيره ، وقد نقضها جماعة من متكلمي الشيعة : كأبي عيسى الوراق ، والحسن بن موسى النخعي ، وغيرهما من الشيعة ممن ذكر ذلك في كتبه في الامامة مجتمعا ومفترقا .

المعتزلة تنقض العثمانية

وقد نقض على الجاحظ كتاب العثمانية أيضا رجل من شيوخ المعتزلة البغداديين ورؤسائهم ، وأهل الزهد والديانة منهم ، ممن يذهب الى تفضيل علي والقول بامامة المفضول ـ وهو أبو جعفر محمد بن عبد الله الاسكافي ـ وكانت وفاته سنة أربعين ومائتين ، وفيها مات أحمد بن حنبل ، وسنذكر وفاة الجاحظ فيما يرد من هذا الكتاب ، ووفاة غيره من المعتزلة ، وان كنا قد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا .

رأي الجريانية في الامامة

والذي ذهب اليه من تأخر من الراوندية وانتقل وتحبر عن جملة الكيسانية القائلة بامامة محمد بن الحنفية ـ وهم الجريانية أصحاب أبي مسلم عبد الرحمن بن محمد صاحب الدولة العباسية ، وكان يلقب بجريان ـ أن محمد بن الحنفية هو الامام بعد علي بن أبي طالب ، وأن محمدا أوصى الى ابنه أبي هاشم ، وأن أبا هاشم أوصى الى علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وأن علي بن عبد الله أوصى الى ابنه محمد بن علي ، وأن محمدا أوصى الى ابنه

ابراهيم الامام المقتول بحران ، وأن ابراهيم أوصى الى أخيه أبي العباس بن عبد اللـه بن الحارثية المقتول .

أصل أبي مسلم الخراساني

وقد تنوزع في أمر أبي مسلم :

فمن الناس من رأى انه كان من العرب .

ومنهم من رأى أنه كان عبدا فأعتق ، وكان من أهل البرس والجامعين من قرية يقال لها خرطينة وإليها تضاف الثياب البرسية المعروفة بالخرطينية ، وتلك وتلك من أعمال الكـوفة وسوادها .

وكان قهرمانا لادريس بن ابراهيم العجلي ، ثم آل أمره ونمت به الأقدار الى أن اتصل بمحمد بن علي ، ثم بابراهيم بن محمد الامام ، فأنفذه ابراهيم الى خراسان ، وأمر أهـل الدعوة باطاعته والانقياد لأمره ورأيه .

فقوي أمره وظهر سلطانه ، وأظهر السواد ، وصار زينة في اللباس والأعلام والبنود ، وكان أول من سود من أهل خراسان بنيسابور وأظهر ذلك فيهم أسيد بن عبد الله .

ثم نما ذلك في الأكثر من المدن والكور بخراسان ، وقوي أمر أبي مسلم ، وضعف أمر نصر بن سيار صاحب مروان بن محمد الجعدي على بلاد خراسان ، وكانت له مع أبي مسلم حروب أكثر فيها أبو مسلم الحيل والمكايد من تفريقه بين اليمانية والنزارية بخراسان وغير ذلك مما احتال به على عدوه .

وقد كان لنصر بن سيار حروب كثيرة مع الكرماني الى أن قتل أتينا على ذكرها في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط .

وذكرنا بدء أخبار الكرماني جديع بن علي ، وما كان بينه وبين سلم بن أحوز صاحب نصر بن سيار ، وما كان من أمر خالد بن برمك ، وقحطبة بن شبيب ، وغيرهما من الدعاة والمقيمين بخراسان للدعوة العباسية : كسليمان بن كثير ، وأبي داود خالـد بن ابـراهيم ، ونظرائهم ، وما كان من شعارهم عند اظهار الدعوة ، وندائهم حين الحروب : محمـد يا منصور ، والسبب الذي له ومن أجله أظهروا استعمال السواد دون سائر الألوان .

بين نصر بن سيار ومروان

وطالت مكاتبة نصر بن سيار مروان ، واعلامه بما هو فيه ، واظهار أمر العباسية ، وتزايده في كل وقت .

فكان فيما كتب به اليه اعلامه بحال أبي مسلم وحال من معه ، وأنه كشف عن أمره ،

وبحث عن حاله ، فوجده يدعو الى ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، وضمن كتابه أبياتا من الشعر ، وهي :

أرى بين الرماد وميض جمر	ويوشك أن يكون له ضرام
فان النار بالعودين تذكى	وان الحرب أولها الكلام
فان لم تطفئوها تجن حربا	مشمرة يشيب لها الغلام
أقول من التعجب : ليت شعري	أأيقاظ أمية أم نيام ؟
فان يك قومنا اضحوا نياما	فقل : قوموا ، فقد حان القيام
ففري عن رحالك ، ثم قولي :	على الاسلام والعرب السلام

فلما ورد الكتاب على مروان وجده مشتغلا بحروب الخوارج بالجزيرة وغيرها ، وما كان من خبره في حروبه مع الضحاك بن قيس الحروري حتى قتله مروان بعد وقائع كثيرة بين كفر توثي ورأس العين ، وكان الضحاك خرج من بلاد شهرزور .

ونصبت الخوارج بعد قتل الضحاك عليها الخري الشيباني ، فلما قتل الحري ولت الخوارج عليها أبا الذلفاء شيبان الشيباني .

وما كان من حروب مروان مع نعيم بن ثابت الجذامي ، وكان خرج عليه ببلاد طبرية والأردن من بلاد الشام حتى قتله مروان ، وذلك في سنة ثمانية وعشرين ومائة .

فلم يدر مروان كيف يصنع في أمر نصر بن سيار وخراسان وانجازه لما هو فيه من الحروب والفتن .

فكتب اليه مروان مجيبا عن كتابه : إن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب فاحسم الثؤلول قبلك .

فلما ورد الكتاب على نصر قال لخواص أصحابه ، أما صاحبكم فقد أعلمكم أن لا نصر عنده .

بعض خلال وأعمال مروان

وأقام مروان أكثر أيامه لا يدنو من النساء الى أن قتل ، وبرزت له جارية من جواريه ، فقال لها : والله لا دنوت منك ، ولا حللت لك عقدة ، وخراسان ترجف وتتضرم بنصر بن سيار ، وأبو مجرم قد أخذ منه بالمخنق .

وكان مع ما هو فيه يديم قراءة سير الملوك ، وأخبارها في حروبها ، من الفرس وغيرها

من ملوك الأمم .

وعذله بعض أوليائه ممن كان يأنس اليه في ترك النساء والطيب وغير ذلك من اللذات ، فقال له مروان : يمنعني منهن ما منع أمير المؤمنين عبد الملك .

فقال له الرجل : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟

قال : حمل صاحب افريقية اليه جارية ذات بهاء وكمال ، تامة المحاسن ، شهية للمتأمل ، فلما وقفت بين يديه تأمل حسنها وبيده كتاب ورد من الحجاج وهو بدير الجماجم مواقعا لابن الأشعث فرمى الكتاب عن يده ، وقال لها : أنت والله منية النفس .

فقالت الجارية : ما يمنعك يا أمير المؤمنين اذ كنت بهذا الوصف ؟

قال : يمنعني والله منك بيت قاله الأخطل :

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار

أألتذ بالعيش وابن الأشعث مصاف لأبي محمد وقد هلكت فيه زعماء العرب ؟ لا هاالله اذن .

ثم أمر بصيانتها ، فلما قتل ابن الأشعث كانت أول جارية خلا بها .

نصر يكتب لابن هبيرة يستنجده

ولما يئس نصر بن سيار من انجاد مروان كتب الى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري عامل مروان على العراق يستمده ، ويسأله النصرة على عدوه ، وضمن كتابه أبياتا من الشعر ، وهي :

أبلغ يزيداً، وخير القول أصدقه وقدتبينت أن لا خير في الكذب
بأن أرض خراسان رأيت بها بيضا لو افرخ قد حدثت بالعجب
فراخ عامين الا انها كبرت لما يطرن وقد سربلن بالزغب
فان يطرن ولم يحتل لهن بها يلهبن نيران حرب أيما لهب

فلم يجبه يزيد بن عمر عن كتابه ، وتشاغل بدفع فتن العراق .

دعاة الى طالب الحق بالحجاز

ودخلت خوارج اليمن مكة والمدينة وعليهم أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي وبلخ بن عقبة الأزدي ، وهما فيمن معهما يدعون الى عبد الله بن يحيى الكندي .

وكان قد سمى نفسه بطالب الحق ، وخوطب بأمير المؤمنين ، وكان أباضي المذهب من رؤساء الخوارج ، وذلك في سنة تسع وعشرين ومائة .

مروان يجهز لحرب الخوارج

وفي سنة ثلاثين ومائة جهز مروان بن محمد جيشا مع عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي ، فلقي الخوارج بوادي القرى .

فقتل بلخ ، وفر أبو حمزة في بقيتهم الى مكة ، فلحقه عبد الملك ، فكانت بينهم وقعة قتل فيها أبو حمزة وأكثر من كان معه من الخوارج .

وسار عبد الملك في جيش مروان من أهل الشام يريد اليمن ، وخرج عبد الله بن يحيى الكندي الخارجي من صنعاء ، فالتقوا بناحية الطائف وأرض جرش ، فكانت بينهم حرب عظيمة قتل فيها عبد الله بن يحيى وأكثر من كان معه من الأباضية ، ولحق بقية الخوارج ببلاد حضرموت ، فأكثرها أباضية الى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) ولا فرق بينهم وبين من بعمان من الخوارج في هذا المذهب .

وسار عبد الملك في جيش مروان فنزل صنعاء ، وذلك في سنة ثلاثين ومائة .

وقد كان سليمان بن هشام بن عبد الملك اتصل بالخوارج بالجزيرة خوفا من مروان ، واحتوى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر على بلاد اصطخر وغيرها من أرض فارس ، الى أن رفع عنها ، وصار الى خراسان ، فقبض عليه أبو مسلم .

وقد ذكرنا من يقول بإمامته ، وينقاد الى دعوته في كتابنا « المقالات ، في أصول الديانات » في باب تفرق الشيعة ومذاهبهم .

موت نصر بن سيار

وقوي أمر أبي مسلم ، وغلب على أكثر خراسان ، وضعف أمر نصر بن سيار من عدم النجدة ، فخرج عن خراسان حتى أتى الري ، وخرج عنها ، فنزل ساوة من بلاد همذان والري ، فمات بها كمدا .

وقد كان نصر بن سيار ـ لما صار بين الري وخراسان ـ كتب كتابا الى مروان يذكر فيه خروجه عن خراسان ، وأن هذا الأمر الذي أزعجه سينمو حتى يملأ البلاد ، وضمن ذلك أبياتا من الشعر ، وهي :

إنا وما نكتم من أمرنا كالثور اذ قرب للناخع
أو كالتي يحسبها أهلها عذراء بكرا وهي في التاسع

كنـا نرفيهـا فقـد مزقت واتسـع الخـرق على الراقع
كالثـوب اذ أنهـج فيه البلى أعيا على ذي الحيلـة الصانع

فلم يستتم مروان قراءة هذا الكتاب حتى مثل أصحابه بين يديه ممن كان قد وكل بالطرق رسولا من خراسان من أبي مسلم الى ابراهيم بن محمد الامام يخبره فيه خبره ، وما آل اليه أمره .

فلما تأمل مروان كتاب أبي مسلم قال للرسول : لا ترع ، كم دفع لك صاحبك ؟

قال : كذا وكذا .

قال : فهذه عشرة آلاف درهم لك ، وإنما دفع اليك شيئا يسيرا ، وامض بهذا الكتاب الى ابراهيم ، ولا تعلمه بشيء مما جرى ، وخذ جوابه فائتني به .

خديعة مروان للقبض على ابراهيم الامام

ففعل الرسول ذلك ، فتأمل مروان جواب ابراهيم الى أبي مسلم بخطه يأمره فيه بالجد والاجتهاد والحيلة على عدوه وغير ذلك من أمره ونهيه .

فاحتبس مروان الرسول ، وكتب الى الوليد بن معاوية بن عبد الملك وهو على دمشق يأمره أن يكتب الى عامل البلقاء فيسير الى القرية المعروفة بالكرار والحميمة ليأخذ ابراهيم بن محمد فيشده وثاقا ، ويبعث به اليه في خيل كثيفة .

فوجه الوليد الى عامل البلقاء فأخذ ابراهيم وهو جالس في مسجد القرية فأخذ وهو ملفف ، وحمل الى الوليد ، فحمله الى مروان فحبسه في السجن شهرين .

وقد كان جرى بين ابراهيم ومروان خطب طويل حين مثل بين يديه ، وأغلظ له ابراهيم ، وأنكر كل ما ذكره له مروان من أمر أبي مسلم فقال له مروان : يا منافق ، أليس هذا كتابك الى أبي مسلم جوابا عن كتابه اليك ، وأخرج اليه الرسول ، وقال : أتعرف هذا ؟

فلما رأى ذلك ابراهيم أمسك ، وعلم أنه أتي من مأمنه .

مقتل ابراهيم وجماعته معه

واشتد أمر أبي مسلم ، وكان في الحبس مع ابراهيم جماعة من بني هاشم وبني أمية : فمن بني أمية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن مروان ، والعباس بن الوليد بن عبد الملك ابن مروان ، وكان مروان قد خافهما على نفسه وخشي أن يخرجا عليه .

ومن بني هاشم : عيسى بن علي ، وعبد الله بن علي ، وعيسى بن موسى .

فذكر أبو عبيدة الثعلبي ـ وكان معهم في الحبس ـ أنه هجم عليهم في الحبس ، وذلك بحران ، جماعة من موالي مروان من العجم ، وغيرهم ، فدخلوا البيت الذي كان فيه ابراهيم والعباس وعبد الله ، فأقاموا عندهم ساعة ، ثم خرجوا وأغلق باب البيت .

فلما أصبحنا دخلنا عليهم ، فوجدناهم قد أتى عليهم ، ومعهم غلامان صغيران من خدمهم كالموتى .

فلما رأونا أنسوا بنا ، فسألناهم الخبر ، فقالا : أما العباس وعبد الله فجعل على وجوههما مخاد وقعد فوقهما فاضطربا ثم بردا ، وأما ابراهيم فانهم جعلوا رأسه في جراب كان معهم فيه نورة مسحوقة ، فاضطرب ساعة ثم خمد .

وكان في الكتاب الذي قرأه مروان من ابراهيم الى أبي مسلم أبيات من الرجز بعد خطب طويل : منها :

دونك أمرا قد بدت أشراطه إن السبيل واضح صراطه

لم يبق الا السيف واختراطه

وقد ذكر في كيفية قتل ابراهيم الامام من الوجوه غير ما ذكرنا .

وقد أتينا على جميع ما قيل في ذلك في الكتاب الأوسط ، وكذلك ما كان من قحطبة وابن هبيرة على الفرات ، وغرق قحطبة فيه ، ودخول ابنه الحسن بن قحطبة الكوفة .

موقعة الزاب بين عبد الله ابن علي ومروان

وسار مروان حتى نزل على الزاب الصغير ، وعقد عليه الجسر ، وأتاه عبد الله بن علي في عساكر أهل خراسان وقوادهم ، وذلك لليلتين خلتا من جمادى الآخرة من سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

فالتقى مروان وعبد الله بن علي ، وقد كردس مروان خيله كراديس ألفا وألفين ، فكانت على مروان ، فانهزم ، وقتل وغرق من أصحابه خلق عظيم .

فكان فيمن غرق في الزاب من بني أمية ذلك اليوم ثلثمائة رجل ، دون من غرق من سائر الناس .

وكان فيمن غرق في الزاب في ذلك اليوم من بني أمية ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع ، وهو أخو يزيد الناقص ، وقد قيل في رواية أخرى : إن مروان كان قد قتل

ابراهيم بن الوليد قبل هذا الوقت وصلبه .

وكانت هزيمة مروان من الزاب في يوم السبت لأحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة في سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

أهل حران ومروان

ومضى مروان في هزيمته حتى أتى الموصل فمنعه أهلها من الدخول اليها ، وأظهروا السواد لما رأوه من تولية الأمر عنه .

وأتى حران - وكانت داره ، وكان مقامه بها - وقد كان أهل حران قاتلهم الله تعالى حين أزيل لعن أبي تراب (يعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه) عن المنابر يوم الجمعة امتنعوا من ازالته ، وقالوا : لا صلاة الا بلعن أبي تراب ، وأقاموا على ذلك سنة .

حتى كان من أمر المشرق وظهور المسودة ما كان ، وامتنع مروان من ذلك لانحراف الناس عنهم .

وخرج مروان في أهله وسائر بني أمية عن حران ، وعبر الفرات .

دخول عبد الله بن علي دمشق وقتله كثيرا من بني أمية وشيعتهم

ونزل عبد الله بن علي على باب حران ، فهدم قصر مروان ، وقد كان أنفق عليه عشرة آلاف ألف درهم ، واحتوى على خزائن مروان وأمواله .

وسار مروان فيمن معه من خواصه وعياله حتى انتهى الى نهر أبـي فطرس من بلاد فلسطين والأردن فنزل عليه .

وسار عبد الله بن علي حتى نزل دمشق فحاصرها وفيها يومئذ الوليد بن معاوية بن عبد الملك في خمسين ألف مقاتل .

فوقعت بينهم العصبية في فضل اليمن على نزار ونزار على اليمن .

فقتل الوليد بن معاوية ، وقد قيل : إن أصحاب عبد الله بن علي قتلوه وأتى عبد الله ابن علي يزيد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك بن مروان فحملهما الى أبي العباس السفاح ، فقتلهما وصلبهما بالحيرة .

وقتل عبد الله بن علي بدمشق خلقا كثيرا ، ولحق مروان بمصر .

ونزل عبد الله بن علي على نهر أبي فطرس ، فقتل من بني أمية هناك بضعا وثمانين رجلا وذلك في يوم الأربعاء للنصف من ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

وقتل بالبلقاء سليمان بن يزيد بن عبد الملك ، وحمل رأسه الى عبد الله بن علي .

مقتل مروان

ورحل صالح بن علي في طلب مروان ومعه أبو عون عبد الملك بن يزيد ، وعامر بن اسماعيل المذحجي ، فلحقوه بمصر وقد نزل بوصير ، فبايتوه ، وهجموا على عسكره وضربوا بالطبول ، وكبروا ونادوا : يا لثارات ابراهيم .

فظن من في عسكر مروان أن قد أحاط بهم سائر المسودة ، فقتل مروان ، وقد اختلف في كيفية قتله في المعركة في تلك الليلة ، وكانت ليلة الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

ولما قتل عامر بن اسماعيل مروان وأراد الكنيسة التي فيها بنات مروان ونساؤه ، اذا بخادم لمروان شاهر السيف يحاول الدخول عليهن ، فأخذوا الخادم ، فسئل عن أمره ، فقال : أمرني مروان اذا هو قتل أن أضرب رقاب بناته ونسائه فلا تقتلوني ، فانكم والله ان قتلتموني ليفقدن ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقالوا له : انظر ما تقول .

قال : إن كذبت فاقتلوني ، هلموا فاتبعوني .

ففعلوا ، فأخرجهم من القرية الى موضع رمل ، فقال : اكشفوا هنا .

فكشفوا ، فاذا البرد والقضيب ومخصر قد دفنها مروان لئلا تصير الى بني هاشم ، فوجه بها عامر بن اسماعيل الى عبد الله بن علي ، فوجه بها عبد الله الى أبي العباس السفاح .

فتداولت ذلك خلفاء بني العباس الى أيام المقتدر ، فيقال : إن البرد كان عليه في يوم مقتله ، ولست أدري أكل ذلك باق مع المتقي لله الى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) في نزوله الرقة أم قد ضيع ذلك .

بنات مروان بين يدي صالح بن علي

ثم وجه عامر بنات مروان وجواريه والأسارى الى صالح بن علي .

فلما دخلن عليه تكلمت ابنة مروان الكبرى فقالت : يا عم أمير المؤمنين ، حفظ الله لك من أمرك ما يحب لك حفظه ، وأسعدك في الأمور كلها بخواص نعمه ، وعمك بالعافية في الدنيا والآخرة ، نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك ، فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا .

قال : اذن لا نستبقي منكم أحدا رجلا ولا امرأة ، ألم يقتل أبوك بالأمس ابن أخي ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الامام في محبسه بحران ؟

ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن علي بن الحسين بن علي وصلبه في كناسة الكوفة ، وقتل امرأة زيد بالحيرة على يدي يوسف بن عمر الثقفي ؟

ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان ؟

ألم يقتل عبيد الله بن زياد الدعي مسلم بن عقيل بن أبي طالب بالكوفة ؟

ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي على يدي عمر بن سعد مع من قتل بين يديه من أهل بيته ؟

ألم يخرج بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا حتى ورد بهن على يزيد بن معاوية وقبل مقدمهن بعث اليه برأس الحسين بن علي قد ثقب دماغه على رأس رمح يطاف به كور الشام ومدائنها حتى قدموا به على يزيد بدمشق كأنما بعث اليه برأس رجل من أهل الشرك ؟

ثم أوقف حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم موقف السبي يتصفحهن جنود أهل الشام الجفاة الطغام ويطلبون منه أن يهب لهم حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم استخفافا بحقه صلى الله عليه وسلم وجراءة على الله عز وجل ، وكفرا لأنعمه ، فما الذي استبقيتم منا أهل البيت ؟ لو عدلتم فيه علينا .

قالت : يا عم أمير المؤمنين ، ليسعنا عفوكم اذن .

قال : أما العفو فنعم ، قد وسعكم . فان أحببت زوجتك من الفضل بن صالح بن علي ، وزوجت أختك من أخيه عبد الله بن صالح .

فقالت : يا عم أمير المؤمنين ، وأي أوان عرس هذا ؟ بل تلحقنا بحران

قال : فاذن أفعل ذلك بكنّ ان شاء الله .

فألحقهن بحران ، فعلت أصواتهن عند دخولهن بالبكاء على مروان ، وشققن جيوبهن ، وأعولن بالصياح والنحيب ، حتى ارتج العسكر بالبكاء منهن على مروان .

فكان ملك مروان الى أن بويع أبو العباس السفاح خمس سنين وشهرين وعشرة أيام على حسب ما قدمنا ذكره في هذا الكتاب من التنازع في مدة أيامه ، ومن وقت أن بويع أبو العباس السفاح الى أن قتل ببوصير ثمانية أشهر .

فكانت مدة أيامه الى أن قتل خمس سنين ، وعشرة أشهر وعشرة أيام ، وقد قدمنا ما تنازعوا فيه من مقدار سنه وغير ذلك من أخباره ، وقد أتينا على مبسوط أخباره فيما سلف من كتبنا .

عبد الحميد بن يحيى الكاتب

وكان كاتبه عبد الحميد بن يحيى بن سعد صاحب الرسائل والبلاغات ، وهو أول من أطال الرسائل ، واستعمل التحميدات في فصول الكتب ، واستعمل الناس ذلك بعده .

وذكر أن مروان قال لكاتبه عبد الحميد - حين أيقن بزوال ملكه - قد احتجت أن تصير مع عدوي وتظهر الغدر بي ، فان اعجابهم بأدبك وحاجتهم الى كتابتك تدعوهم الى حسن الظن بك ، فان استطعت أن تنفعني في حياتي ، والا لم تعجز عن حفظ حرمي بعد وفاتي .

فقال له عبد الحميد : إن الذي أشرت به علي أنفع الأمرين لك ، وأقبحهما بي ، وما عندي الا الصبر حتى يفتح الله أو أقتل معك ، وقال :

أسر وفـاء ثم أظهـر غدرة   فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره

وقد أتينا على خبر أبي الورد ومقتله ، وخبر بشر بن عبد الله الواحدي ومقتله في كتابنا الأوسط ، فأغنى ذلك عن ذكره .

مروان يعتزم الفرار الى
ارض الروم فيرده اسماعيل القشيري

وذكر اسماعيل بن عبد الله القشيري قال : دعاني مروان وقد وافى على الهزيمة الى حران ، فقال : يا أبا هاشم - وما كان يكنيني قبلها - ، قد ترى ما جاء من الأمر وأنت الموثوق به ، ولا مخبأ لعطر بعد عروس ، فما الرأي ؟

فقلت : يا أمير المؤمنين ، علام أجمعت ؟

قال : على أن أرتحل بمواليّ ومن تبعني من الناس حتى أقطع الدرب وأميل الى مدينة من مدن الروم فأنزلها ، وأكاتب صاحبها ، واستوثق منه ، فقد فعل ذلك جماعة من الأعاجم ، وليس هذا عارا بالملوك ، فلا يزال يأتيني من أصحابي الخائف والهارب والطامع فيكثر من معي ، ولا أزال على ذلك حتى يكشف الله أمري وينصرني على عدوي .

فلما رأيت ما أجمع عليه وكان الرأي ، ورأيت آثاره في قومي من قحطان وبلاءه عندهم ، فقلت : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الرأي ، تحكم أهل الشرك في بناتك وحرمك ، وهم الروم ، ولا وفاء لهم ، ولا تدري ما تأتي به الأيام ، وأنت ان حدث عليك حادث بأرض النصرانية - ولا يحدث عليك الا خير - ضاع من بعدك ، ولكن اقطع الفرات ، ثم استنفر أهل الشام جندا جندا فانك في كنف وعزة ، ولك في كل جند

صنائع ، يسيرون معك حتى تأتي مصر ، فانها أكثر أرض الله مالا وخيلا ورجالا ، ثم الشام أمامك وافريقية خلفك ، فان رأيت ما تحب انصرفت الى الشام ، وإن كانت الأخرى مضيت الى افريقية .

قال : صدقت ، وأستخير الله ، فقطع الفرات ، ووالله ما قطعه معه من قيس الا رجلان : ابن حمزة السلمي وكان أخاه من الرضاعة ، والكوثر بن الأسود الغنوي ، ولم ينفع مروان تعصبه مع النزارية شيئا ، بل غدروا به وخذلوه ، فلما اجتاز ببلاد قنسرين وخناصرة أوقعت تنوخ القاطنة بقنسرين بساقته ، ووثب به أهل حمص ، وسار الى دمشق ، فوثب به الحارث بن عبد الرحمن الجرشي ، ثم أتى الأردن فوثب به هاشم بن عمرو القيسي والمذحجيون جميعا ، ثم مر بفلسطين فوثب الحكم بن صنعان بن روح بن زنباع ، لما رأوا من ادبار الأمر منه .

وعلم مروان أن اسماعيل بن عبد الله القشيري قد غشه في الرأي ، ولم يمحضه النصيحة ، وأنه فرط في مشورته إياه ، اذ شاور رجلا من قحطان موتورا متعصبا مع قومه على أضدادهم من نزار .

وأن الرأي كان الذي هم بفعله من قطع الدرب ونزول بعض حصون الروم ومكاتبته ملكها الى أن يرتئي في أمره .

وذكر المدائني والعتبي وغيرهما أن مروان حين نزل على الزاب جرد من رجاله ، ومن اختاره من سائر جيشه من أهل الشام والجزيرة وغيرهم ، مائة ألف فارس على مائة ألف قارح .

فلما كان يوم الوقعة وأشرف عبد الله بن علي في المسودة ، وفي أوائلهم البنود السود يحملها الرجال على الجمال البخت ، وقد جعلت أقتابها من خشب الصفصاف والغرب ، قال مروان لمن قرب منه : أما ترون رماحهم كأنها النخل غلظا ؟ أما ترون الى أعلامهم فوق هذه الابل كأنها قطع من الغمام الأسود ؟

فبينا هو كذلك اذ طار من أفرجة هنالك قطعة من الغرابيب سود ، فاجتمعت على أول رايات عبد الله بن علي ، واتصل سوادها بسواد تلك الرايات والبنود ، ومروان ينظر .

فتطير من ذلك فقال : أما ترون السواد قد اتصل بالسواد ؟ وكأن الغرابيب كالسحب سوادا .

ثم نظر الى أصحابه المحاربين وقد استشعروا الجزع والفزع والفشل فقال : إنها لعدة ، وما تنفع العدة اذا انقضت المدة ؟

***

ولمروان على الزاب أخبار غير هذه قد أتينا على ذكرها في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، فأغنى ذلك عن اعادة ذكرها ، والله ولي التوفيق .

ذكر خلافة أبي العبّاس عبد الله بن محمّد السّفّاح

موجز

وبويع أبو العباس السفاح ـ وهو عبد اللّه بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس بن عبد المطلب ـ ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

وقيل : إنه بويع يوم الاربعاء لاحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

وقيل : في النصف من شهر جمادى الآخرة من هذه السنة ، وأمه ريطة بنت عبيد اللّه ابن عبد المدان الحارثية .

وركب الى المسجد الجامع في يوم الجمعة فخطب على المنبر قائما ، وكانت بنو أمية تخطب قعودا ، فضج الناس وقالوا : أحييت السنة يا ابن عم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

فكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر وعشرين يوما .

ومات بالأنبار في مدينته التي بناها ، وذلك في يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

وقيل : ابن تسع وعشرين سنة ، وكانت أمه تحت عبد الملك بن مروان ، فكان له منها الحجاج بن عبد الملك ، فلما توفي عبد الملك تزوجها محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس ، فولدت منه عبد اللّه بن محمد السفاح ، وعبيد اللّه ،وداود، وميمونة .

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع ممّا كان في أيّامه

وصية ابراهيم الامام له

ولما حبس ابراهيم الامام بحران ، وعلم ألا نجاة له من مروان ، أثبت وصيته وجعلها الى أخيه أبي العباس عبد اللّه بن محمد ، وأوصاه بالقيام بالدولة والجد والحركة وألا يكون له بعده بالحميمة لبث ولا عرجة حتى يتوجه الى الكوفة فإن هذا الأمر صائر اليه لا محالة ، وأنه بذلك أتتهم الرواية .

وأظهره على أمر الدعاة بخراسان والنقباء ، ورسم له بذلك رسما أوصاه فيه أن يعمل عليه ولا يتعداه .

ودفع الوصية بجميع ذلك الى سابق الخوارزمي مولاه ، وأمره ان حدث به حدث من مروان في ليل أو نهار أن يجد السير الى الحميمة حتى يدفع وصيته الى أخيه أبي العباس .

فلما قضى ابراهيم نحبه أسرع سابق في السير حتى أتى الحميمة فدفع الوصية الى أبي العباس ونعاه اليه ، فأمره أبو العباس بستر الوصية وأن ينعاه .

ثم اظهر أبو العباس أهل بيته على أمره ، ودعا الى مؤازرته ومكاشفته أخاه أبا جعفر عبد اللّه بن محمد ، وعيسى بن موسى بن محمد ابن أخيه ، وعبد اللّه بن علي عمه .

وتوجه أبو العباس الى الكوفة مسرعا ، وهؤلاء معه في غيرهم ممن خف من أهل بيته ، فلقيتهم أعرابية على بعض مياه العرب في طريقهم الى الكوفة ، وقد تقدم أبو العباس وأخوه أبو جعفر وعمه عبد اللّه بن علي فيمن كان معهم الى الماء .

فقالت الأعرابية : تاللّه ما رأيت وجوها مثل هذه ما بين خليفة وخليفة وخارجي .

فقال لها أبو جعفر المنصور : كيف قلت يا أمة اللّه ؟

قالت : واللّه ليلينها هذا (وأشارت الى السفاح) ولتخلفنه أنت ، وليخرجن عليك هذا (وأشارت الى عبد اللّه بن علي) .

فلما انتهوا الى دومة الجندل لقيهم داود بن علي وموسى بن داود ، وهما منصرفان من العراق الى الحميمة من أرض الشراة ، فسأله داود عن مسيره ، فأخبره بسببه ، وأعلمه بحركة أهل خراسان لهم مع أبي مسلم ، وأنه يريد الوثوب بالكوفة .

فقال له داود : يا أبا العباس ، تثبت بالكوفة ومروان شيخ بني أمية وزعيمهم في أهل الشام والجزيرة مطل على أهل العراق ، وابن هبيرة شيخ العرب في جلة العرب بالعراق ؟

فقال أبو العباس : يا عماه ، من أحب الحياة ذل . وتمثل بقول الأعشى :

فما ميتة ان متها غير عاجز بعار ، اذا ما غالت النفس غولها

فالتفت داود الى ابنه موسى ، فقال : أي بني ، صدق ابن عمك ، ارجع بنا معه نحيا أعزاء أو نموت كراما .

فعطفا ركابهما معه ، وسار أبو العباس حتى دخل الكوفة .

وقد كان أبو سلمة حفص بن سليمان ـ حين بلغه مقتل ابراهيم الإمام ـ أضمر الرجوع عما كان عليه من الدعوة العباسية الى آل أبي طالب .

مقدم السفاح الكوفة

وقدم أبو العباس الكوفة فيمن ذكرنا من أهل بيته سرا ، والمسودة مع أبي سلمة

بالكوفة ، فأنزلهم جميعا دار الوليد بن سعد في بني أود (حي من اليمن) .
وقد ذكرنا مناقب أود وفضائلها فيما سلف من هذا الكتاب في أخبار الحجاج ، وبراءتهم من علي والطاهرين من ذريته ، ولم أر الى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) . فيما درت من الأرض وتغربت من الممالك رجلا من أود الا وجدته - اذا استنبطت ما عنده - ناصبيا متوليا لآل مروان وحزبهم .
وأخفى أبو سلمة أمر أبي العباس ومن معه ، ووكل بهم وكيلا .
وكان قدوم أبي العباس الكوفة في صفر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وفيها جرى البريد بالكتب لولد العباس .
وقد كان أبو سلمة لما قتل ابراهيم الإمام خاف انتقاض الأمر وفساده عليه ، فبعث بمحمد بن عبد الرحمن بن أسلم ، وكان أسلم مولى لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وكتب معه كتابين على نسخة واحدة الى أبي عبد اللّه جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، والى أبي محمد عبد اللّه بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنهم أجمعين ، يدعو كل واحد منهما الى الشخوص اليه ليصرف الدعوة ا ليه ، ويجتهد في بيعة أهل خراسان له ، وقال للرسول : العجل العجل ، فلا تكونن كوافد عاد .
فقدم محمد بن عبد الرحمن المدينة على أبي عبد اللّه جعفر بن محمد فلقيه ليلا ، فلما وصل اليه أعلمه أنه رسول أبي سلمة ، ودفع اليه كتابه .
فقال له أبو عبد اللّه : وما أنا وأبو سلمة ؟ وأبو سلمة شيعة لغيري .
قال : اني رسول ، فتقرأ كتابه وتجيبه بما رأيت .
فدعا أبو عبد اللّه بسراج ثم أخذ كتاب أبي سلمة فوضعه على السراج حتى احترق ، وقال للرسول : عرف صاحبك بما رأيت . ثم أنشأ يقول متمثلا بقول الكميت بن زيد :

أيا موقدا نارا لغيرك ضوؤها ... ويا حاطباً في غير حبلك تحطب

فخرج الرسول من عنده وأتى عبد اللّه بن الحسن فدفع اليه الكتاب فقبله وقرأه وابتهج به .
فلما كان من غد ذلك اليوم الذي وصل اليه في الكتاب ركب عبد اللّه حمارا حتى أتى منزل أبي عبد اللّه جعفر الصادق ، فلما رآه أبو عبد اللّه أكبر مجيئه ، وكان أبو عبد اللّه أسن من عبد اللّه .
فقال له : يا أبا محمد ، أمر ما أتى بك ؟

قال : نعم وهو أجل من أن يوصف .

فقال : وما هو يا أبا محمد ؟

قال : هذا كتاب أبي سلمة يدعوني الى ما أقبله ، وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان .

فقال له أبو عبد اللّه : يا أبا محمد ، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك ؟ أنت بعثت أبا مسلم الى خراسان ؟ وأنت أمرته بلبس السواد ؟ وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم أو وجهت فيهم ؟ وهل تعرف منهم أحدا ؟

فنازعه عبد اللّه بن الحسن الكلام ، الى أن قال : إنما يريد القوم ابني محمدا لأنه مهدي هذه الأمة .

فقال أبو عبد اللّه جعفر : واللّهِ ما هو مهدي هذه الأمة ، ولئن شهر سيفه ليقتلن فنازعه عبد اللّه القول ، حتى قال له . واللّه لا يمنعك من ذلك الا الحسد .

فقال ابو عبد اللّه : واللّه ما هذا الا نصح مني لـك ، ولقد كتب الى ابي سلمة بمثل ما كتب به اليك ، فلم يجد رسوله عندي ما وجد عندك ، ولقد أحرقت كتابه من قبل أن أقرأه .

فانصرف عبد اللّه من عند جعفر مغضبا ، ولم ينصرف رسول أبي سلمة اليه الى أن بويع السفاح بالخلافة .

وذلك أن أبا حميد الطوسي دخل ذات يوم من العسكر الى الكوفة فلقي سابقا الخوارزمي في سوق الكناسة فقال له : سابق ؟

قال : سابق .

فسأله عن ابراهيم الامام ، فقال : قتله مروان في الحبس ، وكان مروان يومئذ بحران .

فقال أبو حميد : فإلى من الوصية ؟

قال : الى أخيه أبي العباس .

قال : وأين هو ؟

قال : معك بالكوفة هو وأخوه وجماعة من عمومته وأهل بيته .

قال : مذ متى هم هنا ؟

قال : من شهرين .

قال : فتمضي بنا اليهم .

قال : غداً بيني وبينك الموعد في هذا الموضع . وأراد سابق أن يستأذن أبا العباس في ذلك .

فانصرف الى أبي العباس فأخبره ، فلامه اذ لم يأت به معه اليهم .

ومضى أبو حميد فأخبر جماعة من قواعد خراسان في عساكر أبي سلمة بذلك ، منهم أبو الجهم وموسى بن كعب ، وكان زعيمهم .

وغدا سابق الى الموضع ، فلقي أبا حميد ، فمضيا حتى دخلا على أبي العباس ومن معه ، فقال : أيكم الامام ؟

فأشار داود بن علي الى أبي العباس ، وقال : هذا خليفتكم .

فأكب على أطرافه يقبلها ، وسلم عليه بالخلافة ، وأبو سلمة لا يعلم بذلك ، وأتاه وجوه القواد فبايعوه ، وعلم أبو سلمة بذلك فبايعه ، ودخلوا الى الكوفة في أحسن زي ، وضربوا له مصافا ، وقدمت الخيول ، فركب أبو العباس ومن معه حتى أتوا قصر الامارة ، وذلك في يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب تنازع الناس في أي شهر بويع له من هذه السنة .

ثم دخل المسجد الجامع من دار الامارة فحمد اللّه وأثنى عليه ، وذكر تعظيم الرب ومننه ، وفضل النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وقاد الولاية والوراثة حتى انتهت اليه ، ووعد الناس خيرا ، ثم سكت .

فتكلم عمه داود بن علي وهو على المنبر دون أبي العباس ، فقال : انه واللّه ما كان بينكم وبين رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خليفة الا علي عليه السلام وأمير المؤمنين هذا الذي خلفي ، ثم نزلا .

ثم خرج أبو العباس الى عسكر أبي سلمة فنزل في حجرته ، واستخلف على الكوفة وأرضها عمه داود بن علي ، وبعث بعمه عبد اللّه بن علي الى أبي عون عبد الملك بن يزيد ، فسارا معا الى مروان ، فكان من أمرهم ما قدمنا ذكره من التقائهم على الزاب ، وهزيمة مروان بن محمد .

عامر بن اسماعيل قاتل مروان

واتصل بأبي العباس السفاح ما كان من عامر بن اسماعيل وقتله لمروان ببوصير .

وقيل : ان ابن عم عامر يقال له نافع بن عبد الملك كان قتله في تلك الليلة في المعركة وهو لا يعرفه ، وان عامرا لما احتز رأس مروان واحتوى على عسكره دخل الى الكنيسة التي كان فيها مروان ، فقعد على فرشه وأكل من طعامه ، فخرجت اليه ابنة مروان الكبرى ، وتعرف بأم مروان ، وكانت أسنهن ، فقالت : يا عامر ، ان دهرا أنزل مروان عن فرشه حتى أقعدك عليها فأكلت من طعامه واحتويت على أمره ، وحكمت في مملكته ، لقادر أن

يغير ما بك من نعمة .

بين السفاح وعامر بن اسماعيل

وبلغ السفاح فعله وكلامها ، فاغتاظ من ذلك ، وكتب اليه : « ويلك ، أما كان لك في أدب الله عز وجل ما يزجرك عن أن تأكل من طعام مروان ، وتقعد على مهاده ، وتتمكن من وساده ؟ أما والله لولا أن أمير المؤمنين تأول ما فعلت على غير اعتقاد منك لذلك ولا شهوة لمسك من غضبه وأليم أدبه ما يكون لك زاجرا ، ولغيرك واعظا ، فاذا أتاك كتاب أمير المؤمنين فتقرب الى الله تعالى بصدقة تطفىء بها غضبه ، وصلاة تظهر بها الاستكانة ، وصم ثلاثة أيام ، ومر جميع أصحابك أن يصوموا مثل صيامك » .

رأس مروان بين يدي السفاح

ولما أتى أبو العباس برأس مروان ووضع بين يديه سجد فأطال السجود ثم رفع رأسه فقال : الحمد لله الذي لم يبق ثأري قبلك وقبل رهطك ، والحمد لله الذي أظفرني بك وأظهرني عليك .

ثم قال : ما أبالي متى طرقني الموت ، قد قتلت بالحسين وبني أبيه من بني أمية مائتين ، وأحرقت شلو هشام بابن عمي زيد بن علي ، وقتلت مروان بأخي ابراهيم ، وتمثل :

لو يشربون دمي لم يروشاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني

ثم حول وجهه الى القبلة فأطال السجود ، ثم جلس وقد أسفر وجهه ، وتمثل بقول العباس بن عبد المطلب من أبيات له :

أبى قومنا أن ينصفونا ، فأنصفت قواطع في أيماننا تقطر الدما
تورثن من أشياخ صدق تقربوا بهن الى يوم الوغى فتقدما
اذا خالطت هام الرجال تركنها كبيض نعام في الوغى متحطما

وقالت الشعراء في أمر مروان فأكثرت .

وذكر أبو الخطاب عن أبي جعدة بن هبيرة المخزومي - وكان أحد وزراء مروان وسماره ، وقد كان لما ظهر أمر أبي العباس انضاف الى جملته وصار في عداد أصحابه وخواصه

الذين اتخذهم ـ أنه كان في ذلك اليوم حاضرا لمجلس أبي العباس ورأس مروان بين يديه ، وهو يومئذ بالحميمة ، وأن أبا العباس التفت الى اصحابه فقال : أيكم يعرف هذا ؟

قال أبو جعدة : فقلت أنا اعرفه ، هذا رأس أبي عبد الملك مروان بن محمد خليفتنا بالأمس رضي اللّه عنه .

قال : فحدقت الى الشيعة فأخذتني بأبصارها .

فقال لي أبو العباس : في أي سنة كان مولده ؟

قلت : سنة ست وسبعين .

فقام وقد تغير لونه غيظا علي ، وتفرق الناس من المجلس ، وانصرفت وأنا نادم على ما كان مني .

وتكلم الناس في ذلك وتحدثوا به ، فقلت هذه زلة ، واللّه لا تستقال ولا ينساها القوم أبدا . فأتيت منزلي فلم أزل باقي يومي أعهد وأوصي .

فلما كان الليل اغتسلت وتهيأت للصلاة ، وكان أبو العباس اذا هم بأمر بعث فيه ليلا . فلم أزل ساهرا حتى أصبحت .

فلما أصبحت ركبت بغلتي واستعرضت بقلبي الى من أقصد في أمري ، فلم أجد أولى من سليمان بن خالد مولى ابن زهرة ، وكانت له من أبي العباس منزلة عظيمة ، وكان من شيعة القوم ، فأتيته ، فقلت : أذكرني أمير المؤمنين البارحة ؟

فقال : نعم ، جرى ذكرك فقال : هو ابن أختنا ، وفيّ لصاحبه ، ونحن ان أوليناه خيرا كان لنا أشكر .

فشكرت ذلك له ، وجزيته خيرا ، ودعوت له ، وانصرفت . فلم أزل آتي أبا العباس على ما كنت عليه لا أرى الا خيرا .

ونمى الكلام الذي كان في مجلس أبي العباس ـ حين أتى برأس مروان ، فبلغ أبا جعفر وعبد اللّه بن علي ، فكتب عبد اللّه بن علي الى أبي العباس يعلمه بما بلغه من كلامي ، وأنه ليس هذا يحتمل .

وكتب أبو جعفر يخبر بما بلغه من ذلك ، ويقول : هو ابن أختنا ، ونحن أولى باصطناعه واتخاذ المعروف عنده .

وبلغني ما كان منهما فأمسكت ، وضرب الدهر ضرباته ، فبينا أنا ذات يوم عند أبي العباس بعد حين وقد تزايدت حالي عنده وأحظاني ، فنهض الناس ونهضت ، فقال لي أبو العباس : على رسلك يا ابن هبيرة ، اجلس ، فجلست .

ونهض ليدخل فقمت لقيامه ، فقال : اجلس .

فرفع الستر ودخل ، وثبت في مجلسي ، فأقام مليا ثم رفع الستر فخرج من ثوبي وشي رداء وجبة ، فما رأيت أحسن منه ولا مما عليه قط .

فلما رفع الستر نهضت ، فقال : اجلس ، فجلست .

فقال : يـــا ابن هبيرة ، اني ذاكر لك أمرا فلا يخرجن من رأسك الى أحد من الناس .

ثم قال : قد علمت ما جعلنا من هذا الأمر وولاية العهد لمن قتل مروان ، وعبد اللّه ابن علي عمي هو الذي قتله ، لان ذلك كان بجيشه وأصحابه ، وأخي أبو جعفر ـ مع فضله وعلمه وسنه وايثاره لأمر اللّه ـ كيف يسوغ اخراجه عنه ؟

قال : فأطال في مديح أبي جعفر .

فقلت : أصلح اللّه أمير المؤمنين ، لا أشير عليك ، ولكني أحدثك حديثا تعتبره .

فقال : هاته .

فقلت : كنا مع مسلمة بن عبد الملك عام الخليج بالقسطنطينية اذ ورد عليه كتاب عمر ابن عبد العزيز بنعي سليمان ومصير الأمر اليه ، فبعث الي ، فدخلت عليه ، فرمى بالكتاب الي فقرأته ، ثم اندفع يبكي ، فقلت : أصلح اللّه الأمير !! لا تبك على أخيك ، ولكن ابك على خروج الأمر من ولد أبيك الى ولد عمك .

فبكى حتى اخضلت لحيته .

قال : فلما فرغت من حديثي قال لي أبو العباس : حسبك قد فهمت عنك .

ثم قال : اذا شئت فانهض . فما مضيت غير بعيد حتى قال لي : يا ابـن هبـيرة ، فالتفت راجعا .

فقال لي : امض ، أما انك قد كافأت هذا ، وأدركت بثأرك من هذا .

قال : فما أدري من أي الأمرين أعجب. أمن فطنته أم من ذكره لما كان ؟

وأبو جعدة بن هبيرة هذا هو من ولد جعدة بن هبيرة المخزومي من فاختة أم هانىء بنت أبي طالب ، وعلي وجعفر وعقيل أخواله ، وقد قدمنا خبره فيما سلف من هذا الكتاب .

***

بين عبد اللّه بن علي وأخيه داود
في ولاية عهد السفاح

قال المسعودي : ووجدت في أخبار المدائني ، عن محمد بن الأسود ، قال : بينما عبد اللّه بن علي يساير أخاه داود بن علي ومعهما عبد اللّه بن الحسن بن الحسن ، فقال داود لعبد

الله : لم لا تأمر ابنيك بالظهور ؟
فقال عبد الله : هيهات لم يئن لهما بعد .
فالتفت اليه عبد الله بن علي ، فقال : كأنك تحسب أن ابنيك هما قاتلا مروان .
فقال : إن ذلك كذلك .
فقال عبد الله : هيهات . وتمثل :

سيكفيك المقالــة مستميت خفيف اللحــم من أولاد حام

أنا والله قاتله .
وقيل لعبد الله بن علي : ان عبد الله بن عمر بـن عبد العزيز يذكر أنه قرأ في بعض الكتب أنه يقتل مروان عين ابن عين ، وقد أمل أن يكون هو .
فقال عبد الله بن علي : أنا والله ذلك ، ولي عليه فضل ثلاثة أعين ، أنا عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم ، وهو عمرو بن عبد مناف .
فلما صاف مروان عبد الله بن علي أقبل مروان على رجل الى جنبه فقال : من الرجل الذي كان يخاصم عندك عبد الله بن معاوية بـن عبد الله بن جعفر الأقنى الحديد لبصر الحسن الوجه ؟
فقلت : يرزق الله البيان من يشاء .
قال : انه لهو .
قلت : نعم .
قال : من ولد العباس بن عبد المطلب هو ؟
قلت : أجل .
فقال مروان : إنا لله وانا اليه راجعون ، ويحك ! إني ظننت أن الذي يحاربني من ولد أبي طالب وهذا الرجل من ولد العباس واسمه عبد الله ، اتدري لم صيرت الأمر بعدي لابني عبيد الله بعد عبد الله ومحمد أكبر من عبد الله ؟
قلت : لم ؟
قال : لأنا خبرنا أن الأمر صائر بعـدي الى عبد الله وعبيد الله ، فنظرت فاذا عبيد الله أقرب الى عبد الله من محمد ، فوليته دونه .
قال : وبعث مروان بعد أن حدث صاحبه بهذا الحـديث الى عبـد اللـه بن علي في خفية : ان الأمر يا ابن عم صائر اليك فاتق الله في الحرم .

قال : فبعث اليه عبد اللّه : ان الحق لنا في دمك ، والحق علينا في حرمك .

زواج السفاح بأم سلمة بنت يعقوب

وذكر مصعب الزبيري عن أبيه قال : كانت أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد اللّه بن الوليد بن المغيرة المخزومي عند عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك ، فهلك عنها ، ثم كانت عند هشام فهلك عنها .

فبينا هي ذات يوم جالسة اذ مر بها أبو العباس السفاح ، وكان جميلا وسيما ، فسألت عنه ، فنسب لها ، فأرسلت له مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها .

وقالت لها : قولي له هذه سبعمائة دينار أوجه بها اليك .

وكان معها مال عظيم وجوهر وحشم ، فأتته المولاة فعرضت عليه ذلك .

فقال : أنا مملق لا مال عندي ، فدفعت اليه المال ، فأنعم لها ، وأقبل الى أخيها فسأله التزويج ، فزوجه اياها ، فأصدقها خمسمائة دينار ، وأهدى مائتي دينار .

ودخل عليها من ليلته ، واذا هي على منصة فصعد عليها ، فاذا كل عضو منها مكلل بالجوهر فلم يصل اليها .

فدعت بعض جواريها فنزلت وغيرت لبسها ولبست ثيابا مصبغة وفرشت له فراشا على الأرض دون ذلك ، فلم يقدر أن يصل اليها .

فقالت : لا يضرك هذا ، كذلك الرجال كان يصيبهم مثل ما أصابك .

فلم تزل حتى وصل اليها من ليلته ، وحظيت عنده ، وحلف ألا يتزوج عليها ولا يتسرى ، فولدت منه محمدا وريطة ، وغلبت عليه غلبة شديدة ، حتى ما كان يقطع أمرا الا بمشورتها وبتأميرها ، حتى أفضت الخلافة اليه .

فلم يكن يدنو الى النساء غيرها لا الى حرة ولا الى أمة ، ووفى لها بما حلف ألا يغيرها .

خالد يصف النساء للسفاح ويغريه بالزواج

فلما كان ذات يوم في خلافته خلا به خالد بن صفوان فقال : يا أمير المؤمنين ، اني فكرت في أمرك ، وسعة ملكك ، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة واقتصرت عليها فان مرضت مرضت ، وان غابت غبت ، وحرمت نفسك التلذذباستظرافالجواري ، ومعرفة أخبار حالاتهن و التمتع بما تشتهي منهن .

فان منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء ، وان منهن البضة البيضاء ، والعتيقة الأدماء ، والدقيقة السمراء ، والبربرية العجزاء ، من مولدات المدينة ، تفتن بمحادثتها ،

وتلذ بخلوتها ، وأين أمير المؤمنين من بنات الأحرار والنظر الى ما عندهن وحسن الحديث منهن ؟

ولو رأيت يا أمير المؤمنين الطويلة البيضاء ، والسمراء اللعساء ، والصفراء العجزاء ، والمولدات من البصريات والكوفيات ، ذات الألسن العذبة ، والقدود المهفهفة ، والأوساط المخصرة والأصداغ المزرفنة ، والعيون المكحلة ، والثدى المحققة ، وحسن زيهن وزينتهن وشكلهن ، لرأيت شيئا حسنا .

وجعل خالد يجيد في الوصف ، ويكثر في الأطناب بحلاوة لفظه وجودة وصفه .

فلما فرغ من كلامه قال له أبو العباس : ويحك يا خالد ! ما صك مسامعي والله قط كلام أحسن مما سمعته منك ، فأعد علي كلامك فقد وقع مني موقعا ، فأعاد عليه كلامه خالد أحسن مما ابتدأه ، ثم انصرف .

وبقي أبو العباس مفكرا فيا سمع منه ، فدخلت عليه أم سلمة امرأته ، فلما رأته مفكرا مغموما قالت : اني لأنكرك يا أمير المؤمنين ، فهل حدث أمر تكرهه ، أو أتاك خبر فارتعت له ؟

قال : لم يكن من ذلك شيء .

قالت : فما قصتك ؟

فجعل ينزوي عنها ، فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد له .

فقالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟

قال لها : سبحان الله ينصحني وتشتمينه ؟

فخرجت من عنده مغضبة ، وأرسلت الى خالد جماعة من النجارية ومعهم الكامركوبات وأمرتهم ألا يتركوا منه عضوا صحيحا .

قال خالد : فانصرفت الى منزلي ، وأنا على السرور بما رأيت من أمير المؤمنين ، واعجابه بما ألقيته اليه ، ولم أشك أن صلته ستأتيني ، فلم ألبث حتى صار الى أولئك النجارية وأنا قاعد على باب داري ، فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوي أيقنت بالجائزة والصلة ، حتى وقفوا علي ، فسألوا عني ، فقلت : هأنذا خالد .

فسبق الى احدهم بهراوة كانت معه فلما أهوى بها الي وثبت فدخلت منزلي ، وأغلقت الباب علي ، واستترت .

ومكثت أياما على تلك الحال لا أخرج من منزلي ، ووقع في خلدي أني أوتيت من قبل أم سلمة .

وطلبني أبو العباس طلبا شديدا ، فلم أشعر ذات يوم الا بقوم قدهجمواعلي ،

وقالوا : أجب أمير المؤمنين ، فأيقنت بالموت .

فركبت وليس علي لحم ولا دم ، فلم أصل الى الدار حتى استقبلني عدة رسل ، فدخلت عليه فألفيته خاليا ، فسكنت بعض السكون ، فسلمت فأومأ الي بالجلوس ، ونظرت فاذا خلف ظهري باب عليه ستور قد أرخيت ، وحركة خلفها . فقال لي : يا خالد ، لم أرك منذ ثلاث .

قلت : كنت عليلا يا أمير المؤمنين .

قال : ويحك ، انك كنت وصفت لي في آخر دخلة من أمر النساء والجواري ما لم يخرق مسامعي قط كلام أحسن منه ، فأعده علي .

قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضرة من الضر ، وأن أحدهم ما تزوج من النساء أكثر من واحدة الا كان في جهد .

فقال : ويحك ! لم يكن هذا في الحديث .

قلت : بلى والله يا أمير المؤمنين وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافي القدر يغلي عليهن .

قال أبو العباس : برئت من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت سمعت هذا منك في حديثك .

قال : وأخبرتك أن الأربعة من النساء شر مجموع لصاحبهن يشيبنه ويهرمنه ويسقمنه .

قال : ويلك ، والله ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت .

قال خالد : بلى والله .

قال : ويلك ! وتكذبني ؟

قال : وتريد أن تقتلني يا أمير المؤمنين ؟

قال : مر في حديثك .

قال : وأخبرتك أن أبكار الجواري رجال ، ولكن لا خصى لهن .

قال خالد : فسمعت الضحك من وراء الستر ، قلت : نعم وأخبرتك أيضا أن بني مخزوم ريحانة قريش ، وأن عندك ريحانة من الرياحين ، وأنت تطمع بعينك الى حرائر النساء وغيرهن من الاماء .

قال خالد : فقيل من وراء الستر : صدقت والله يا عماه وبررت ، بهذا حدثت أمير المؤمنين ولكنه بدل وغير ونطق عن لسانك .

فقال لي أبو العباس : ما لك قاتلك الله وأخزاك ، وفعل بك وفعل ؟!

قال : فتركته وخرجت وقد أيقنت بالحياة .

قال خالد : فما شعرت الا برسل أم سلمة قد صاروا إلي ومعهم عشرة آلاف درهم وتخت وبرذون وغلام .

كان السفاح يحب مسامرة الرجال

ولم يكن أحد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثل أبي العباس السفاح ، وكان كثيرا ما يقول : انما العجب ممن يترك أن يزداد علما ، ويختار أن يزداد جهلا .

فقال له أبو بكر الهذلي : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟

قال : يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل الى امرأة أو جارية ، فلا يزال يسمع سخفا ، ويروي نقصا .

فقال له الهذلي : لذلك فضلكم اللّه على العالمين ، وجعل منكم خاتم النبيين .

السفاح وأبو نخيلة

ودخل عليه أبو نخيلة الشاعر ، فسلم عليه ، وانتسب له ، وقال : عبدك يا أمير المؤمنين وشاعرك ، أفتأذن لي في انشادك ؟

فقال له : لعنك اللّه ! ألست القائل في مسلمة بن عبد الملك بن مروان :

أمسلم ، اني يا ابن كل خليفة ... ويا فارس الهيجا ويا جبل الأرض
شكرتك ، ان الشكر حبل من التقى ... وما كل من أوليته نعمة يقضي
وأحييت لي ذكرى وما كان خاملا ... ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

قال : فأنا يا أمير المؤمنين الذي أقول :

لما رأينا استمسكت يداكا ... كنا أناسا نرهب الملاكا
ونركب الأعجاز والأوراكا ... من كل شيء ما خلا الاشراكا
فكل ما قد قلت في سواكا ... زور ، وقد كفر هذا ذاكا
انا انتظرنا قبلها أباكا ... ثم انتظرنا بعدها أخاكا
ثم انتظرناك لها اياكا ... فكنت أنت للرجاء ذاكا

قال : فرضي عنه ووصله وأجازه .

كان أبسط وجها اذا حضر طعامه

وكان أبو العباس اذا حضر أبسط ما يكون وجها ، فكان ابراهيم بن مخرمة الكندي اذا أراد أن يسأله حاجة اخرها حتى يحضر طعامه ثم يسأله .

فقال له يوما : يا ابراهيم ، ما دعاك الى أن تشغلني عن طعامي بحوائجك ؟

قال : يدعوني الى ذلك التماس النجح لما أسأل .

قال أبو العباس : انك لحقيق بالسؤدد لحسن هذه الفطنة .

بعض عادات وسياسات السفاح

وكان اذا تعادى رجلان من أصحابه وبطانته لم يسمع من أحدهما في الآخر شيئا ولم يقبله ، وان كان القائل عدلا في شهادته ، واذا اصطلح الرجلان لم يقبل شهادة واحد منهما لصاحبه ولا عليه .

ويقول : ان الضغينة القديمة تولد العداوة الممضة ، وتحمل على اظهار المسالمة ، وتحتها الأفعى التي اذا تمكنت لم تبق .

وكان في أول أيامه يظهر لندمائه ، ثم احتجب عنهم، وذلك لسنة خلت من ملكه ، لأمر قد ذكرناه فيما سلف من كتبنا ، وكان قعوده من وراء الستارة ، على حسب ما ذكرناه فيما سلف من هذا الكتاب في سيرة أردشير بن بابك وأيامه .

وكان يطرب من وراء الستر على حسب ما ذكرنا ، ويصيح بالمطرب له من المغنين : أحسنت والله ، أعد هذا الصوت .

وكان لا ينصرف عنه احد من ندمائه ولا من مطربيه الا بصلة من مال أو كسوة ، ويقول : لا يكون سرورنا معجلا ، ومكافأة من سرنا وأطربنا مؤجلا .

وقد سبقه الى هذا الفعل ملك من الملوك التي للفرس ، وهو بهرام جور .

وحضره أبو بكر الهذلي ذات يوم ، والسفاح مقبل عليه يحادثه بحديث (لأنو شروان) في بعض حروبه بالمشرق مع بعض ملوك الأمم ، فعصفت الريح فأذرت ترابا وقطعا من الآجر من أعلى السطح الى المجلس .

فجزع من حضر المجلس لوقوع ذلك ، وارتاع له ، والهذلي شاخص نحو أبي العباس لم يتغير كما تغير غيره .

فقال له أبو العباس : لله أنت يا أبا بكر ، لم أرَ كاليوم ، أما راعك ما راعنا ولا أحسست بما ورد علينا ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وانما جعل للرجل

قلبا واحداً، فلما غمره السرور بفائدة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال ، والله عز وجل اذا أفرد بكرامته أحدا وأحب أن يبقى له ذكرها جعل تلك الكرامة على لسان نبي أو خليفة ، وهذه كرامة خصصت بها فمال اليها ذهني ، وشغل بها فكري ، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما أحسست بها ، ولا وجمت لها ، الا بما يلزمني من نفسي لأمير المؤمنين أعزه اللّه تعالى .

فقال له السفاح : لئن بقيت لك لأرفعن منك وضيعا لا تطيف به السباع . ولا ينحط عليه العقاب .

من النصائح في مخالطة الملوك

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب وصية عبد الملك للشعبي في فضل الانصات للملوك .

وقد حكي عن عبد اللّه بن عياش المنتوف أنه قال : لم تتقرب العامة الى الملوك بمثل الطاعة ، ولا العبيد بمثل الخدمة ، ولا البطانة بمثل حسن الاستماع .

وقد حكي عن روح بن زنباع الجذامي أنه كان يقول : اذا أردت أن يمكنك الملك من أذنه فأمكن أذنك من الإصغاء الى حديثه ، ولا يتعتب الرجل عندي اذا كان يصغي الى حديثه ، ولا يقدح ما قيل فيه في قلبي لما تقدم له من حسن الاستماع عندي .

وقد حكي عن معاوية أنه كان يقول : يغلب الملك حتى يركب لشيئين : بالحلم عند سورته ، والاصغاء الى حديثه .

ووجدت في سير الملوك من الأعاجم أن شيرويه بن أبرويز بينا هو في بعض متنزهاته بأرض العراق ، وكان لا يسايره أحد من الناس مبتدئاً ، وأهل المراتب العالية خلف ظهره على مراتبهم ، فان التفت يمينا دنا منه صاحب الجيش ، وان التفت شمالا دنا منه الموبذان ، فأمر من دنا منهما باحضار من أراد بمسامرته . فالتفت في مسيره هذا يمينا ، فدنا منه صاحب الجيش ، فقال : أين شداد بن جرثمة ؟ فأحضر فسايره .

فقال له شيرويه : أفكرت في حديث جدنا أردشير بن بابك حين واقع ملك الخزر ، فحدثني به ان كنت تحفظه .

وكان شداد قد سمع هذا الحديث من (أنو شروان) ، وعرف المكيدة ، وكيف كان أردشير أوقعها بملك الخزر ، فاستعجم عليه شداد ، وأوهمه أنه لا يعرفه ، فحدثه شيرويه بالحديث .

فأصغى اليه الرجال بجوارحه كلها ، وكان مسيرهم على شاطىء نهر، فترك الرجل

لاقباله على شيرويه النظر الى موطىء حافر دابته ، فزلت احدى قوائم الدابة ، فمالت بالرجل الى اليمين ، فوقع في الماء ، ونفرت الدابة ، فابتدرها حاشية الملك وغلمانه فأمالوها عن الرجل ، وجذبوه فحملوه على أيديهم حتى أخرجوه .

فاغتم الملك لذلك ، ونزل عن دابته ، وبسطله هنالك حتى تغدى في موضعه ، ودعا بثياب من خاص كسوته فألقيت على شداد وأكل معه ، وقال له : غفلت عن النظر الى موضع حافر دابتك .

فقال : أيها الملك ، ان اللّه اذا أنعم على عبد نعمة قابلها بمحنة ، وعارضها ببلية ، وعلى قدر النعم تكون المحن ، وان اللّه أنعم علي بنعمتين عظيمتين هما اقبال الملك علي بوجهه من بين هذا السواد الأعظم وهذه الفائدة وهي تدبير الحرب حتى حدث بها عن أردشير حتى إني لو دخلت الى حيث تطلع الشمس أو تغرب لكنت رابحا . فلما اجتمعت نعمتان جليلتان في وقت واحد قابلتهما هذه المحنة ، ولولا أساورة الملك ويمن جده لكنت بعرض هلكة ، وعلى ذلك فلو غرقت حتى ذهبت عن جديد الأرض لكان قد أبقى لي الملك ذكرا مخلدا ما بقي الضياء والظلام والجنوب والصبا .

فسر الملك بذلك ، وقال : ما ظننتك بهذا المقدار الذي أنت فيه ، فحشا فاه جوهرا ودرا رائقا ثمينا ، واستبطنه حتى غلب على أكثر أمره .

وانما ذكرنا هذا الخبر من أخبار من سلف من ملوك الفرس ليعلم أن أبا بكر الهذلي لم يبتدىء بحال لم يسبقه اليها غيره ، ويتقدمه بها سواه .

أحسن المواقع من الملوك

وأحسن المواقع من الملوك الاستماع منها ، والأخذ عنها ، وقد كانت حكماء اليونانيين تقول : ان الواجب على من أقبل عليه ملك أو ذو رياسة بحديث أن يصرف قلبه كله الى ذلك ، وان كان يعرف الحديث الذي يسمعه من الملك ، كأنه لم يسمعه قط ، ويظهر السرور بالفائدة من الملك والاستبشار بحديثه ، وان في ذلك أمرين :

أحدهما ما يظهر من حسن أدبه ، فانه يعطي الملك حقه بحسن الاستماع لحديثه ، والاستغراب له منه كأنه لم يسمعه ، واظهار السرور والاستفادة منه ، فالنفس الى الفوائد من الملوك والحديث عنهم أشهى وأقرب منها الى فوائد السوقة وما أشبهها .

معاوية وابن شجرة الرهاوي

وقد ذكر جماعة من الأخباريين كابن دأب وغيره نحو هذا المعنى عن معاوية بن أبي سفيان ، ويزيد بن شجرة الرهاوي ، وهو أن ابن شجرة كان يساير ذات يوم معاوية وكان

آنسا به ، والى حديثه تائقا ، ومعاوية مقبل عليه يحدثه عن جزعـان يوم كان لبنـي مخـزوم وغيرهم من قريش ، كان فيه حرب عظيمة فني فيه خلق من الناس ، وذلك قبل الاسلام .

وقيل : ان ذلك كان قبـل الهجـرة ، وكانـت لأبـي سفيان فيه مكرمـة وسابقــة في الرياسة ، وهـو أنـه لما أشرف الفريقـان على الفنـاء صعـد على نشـز من الأرض ثم صاح بالفريقين ؛ وأشار بكمه ، فانصرف الفريقان جميعا انقيادا الى أمره .

وكان معاوية معجبا بهذا الحديث ، فبينا هو يحدثه به ويزيد بن شجرة مقبل عليه ، وقد استخفتهما لذة المحدث والمستمع اذ صك جبين يزيد بن جشرة حجر عائـر فأدمـاه ، فجعلت الدماء تسيل على وجهه ولحيته وثوبه ، وغير ذلك ، فلم يتغـير عما كان عليه من الاستماع ، فقال له معاوية : للّه أنت يا ابن شجرة ، أما ترى ما نزل بك ؟

قال : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟

قال : هذا دم يسيل على ثوبك .

قال : أعتق ما أملك ان لـم يكن حديث أمير المؤمنين ألهاني حتى غمر فكري وغطى على قلبي ، فما شعرت بشيء مما حدث ، حتى نبهني عليه أمير المؤمنين .

فقال معاوية : لقد ظلمك من جعلك في ألف من العطاء ، وأخرجك عن عطاء أبناء المهاجرين والجماهير ممن حضر معنا بصفـين ، ثم أمـر له وهـو في مسـيره بخمسمائـة ألف درهـم ، وزاده في عطائه ألفا من الدراهم ، وجعله بين جلده وثوبه .

***

تعليق

وقد قال بعض أهل المعرفة والأدب من مصنفي الكتب في هذا المعنى وغيره مما حكيناه عن معاوية وابن شجرة : لئن كان ابن شجرة خدع معاوية في هذا ومعاوية ممن لا يخادع فما مثله الا كما قال الأول :

*من ينك العير ينك نياكا *

وان كان قد بلغ من بلادة ابن شجرة ، وقلة حسه ، ما وصف به نفسه فما كان جديرا بخمسمائة ألف درهم صلة ، وزيادة ألف في عطائه ، وما أظن ذلك خفي عن معاوية .

***

حسن الاستماع

قال المسعودي : وقد قالت الحكماء في هذا وأكثرت ، وأمرت بحسن الاستماع والصمت وأطنبت ، فقالوا : لا تحسن المحادثة الا بحسن الفهم ، وقالوا : تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ، وحسن الاستماع هو امهال المحدث حتى ينقضي حديثه .

من أدب الحديث

ومن أدب الحديث وواجباته : ألا يقتضب اقتضابا ، ولا يهجم عليه ، وأن يتوصل الى اجرائه بما يشاكله ، وأن يستنسب له ما يحسن أن يجري في عرضه حتى يكون بعض المفاوضة متعلقا ببعض ، على حسب ما قالوا في المثل : ان الحديث ذو شجون ، يريدون بذلك تشعبه وتفرعه عن أصل واحد الى وجوه من المعاني كثيرة ، اذ كان العيش كله في الجليس الممتع .

وقال رجل : والله ما أمل الحديث .

فقال السامع : انما يمل العتيق لا الحديث .

وقد أكثرت الشعراء من الاغراق في هذا المعنى ، ومن ذلك قول علي بن العباس الرومي :

وسئمت كل مآربي فكأن أطيبها غثيث
الا الحديث فانه مثل اسمه أبدا حديث

وأحسن ما قيل في هذا المعنى قول ابراهيم بن العباس :

ان الزمان وما ترين بمفرقي صرف الغواية فانصرفت كريما
وضجرت الا من لقاء محدث حسن الحديث يزيدني تعليما

وقد ذكر بعض المحدثين من أهل الأدب أن من الأدب عدم اطالة الحديث من النديم ، وأن أحلى الحديث وأحسنه موقعا أن تجتنب منه الأحاديث الطوال ذات المعاني المغلغلة والألفاظ الحشوية التي ينقضي باقتصاصها زمان المجلس ، وتتعلق بها النفوس ، وتحتسى على أواخرها الكؤوس ، فان ذلك بمجالس القصاص ، أشبه منه بمجالس الخواص .

وقد ذكر هذا المعنى فأجاد فيه عبد اللّه بن المعتز باللّه ، ووصف ذلك من أصحاب الشراب على المعاقرة ، فقال :

بين أقداحهم حديث قصير هو سحر ، وما عداه كلام
وكأن السقاة بين الندامى ألفات بين السطور قيام

وهذه طريقة من ذهب في هذا المعنى الى استماع الملح .

أول وزير في الدولة العباسية

وكان أول من وقع عليه اسم الوزارة في دولة بني العباس أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال الهمذاني ، مولى لسبيع .

كان في نفس أبي العباس منه شيء ، لأنه كان حاول في رد الأمر عنهم الى غيرهم .

فكتب ابو مسلم الى السفاح يشير عليه بقتله ، ويقول له : قد أحل اللّه لك دمه ، لأنه قد نكث وغير وبدل .

فقال السفاح : ما كنت لأفتتح دولتي بقتل رجل من شيعتي ، لا سيما مثل أبي سلمة ، وهو صاحب هذه الدعوة ، وقد عرض نفسه ، وبذل مهجته ، وأنفق ماله ، وناصح أمامه ، وجاهد عدوه .

وكلمه أبو جعفر أخوه وداود بن علي عمه في ذلك ، وقد كان أبو مسلم كتب اليهما يسألهما أن يشيرا على السفاح بقتله .

فقال أبو العبّاس : ما كنت لأفسد كثير احسانه وعظيم بلائه وصالح أيامه بزلة كانت منه ، وهي خطرة من خطرات الشيطان ، وغفلة من غفلات الانسان .

فقالا له : فينبغي يا أمير المؤمنين أن تحترس منه ، فإنّا لا نأمنه عليك .

فقال : كلا إني لآمنه في ليلي ونهاري وسري وجهري ووحدتي وجماعتي .

فلما اتصل هذا القول من أبي العباس بأبي مسلم أكبره وأعظمه ، وخاف من ناحية أبي سلمة أن يقصده بمكروه ، فوجه جماعة من ثقات أصحابه في اعمال الحيلة في قتل أبي سلمة .

وقد كان أبو العباس يأنس بأبي سلمة ويسمر عنده ، وكان أبو سلمة فكها ممتعا أديبا

عالما بالسياسة والتدبير ، فيقال : ان أبا سلمة انصرف ليلة من عند السفاح من مدينته بالأنبار ، وليس معه أحد ، فوثب عليه أصحاب أبي مسلم فقتلوه ، فلما اتصل خبره بالسفاح أنشأ يقول :

الى النار فليذهب، ومن كان مثله على أي شيء فاتنا منه نأسف

وكان أبو مسلم يقال له : أمين آل محمد ، وأبو سلمة حفص بن سليمان يدعى وزير آل محمد ، فلما قتل غيلة على ما ذكرنا قال في ذلك الشاعر من أبيات :

ان المساءة قد تسر، وربما كان السرور بما كرهت جديرا
ان الوزير وزير آل محمد أودى ، فمن يشناك كان وزيرا

وقد أتينا على خبر مقتله وكيفية أمره في الكتاب الأوسط .

مسامرات السفاح

وكان السفاح يعجبه المحادثة ، ومفاخرات العرب من نزار واليمن ، والمذاكرة بذلك ، ولخالد بن صفوان ولغيره من قحطان أخبار حسان ، ومفاخرات ومذاكرات ومنادمات ومسامرات مع أبي العباس السفاح قد أتينا على مبسوطها وما اخترناه من غررها في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط فأغنى ذلك عن ذكرها .

ومما ذكر من أخباره واستفاض من أسماره ما ذكره البهلول بن العباس عن الهيثم بن عدي الطائي ، عن يزيد الرقاشي ، قال : كان السفاح يعجبه مسامرة الرجال ، واني سمرت عنده ذات ليلة ، فقال : يا يزيد ، أخبرني بأظرف ما سمعته من الأحاديث .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، وان كان في بني هاشم ؟

قال : ذلك أعجب الي .

قلت : يا أمير المؤمنين ، نزل رجل من تنوخ بحي من بني عامر بن صعصعة ، فجعل لا يحط شيئا من متاعه الا تمثل بهذا البيت :

لعمرك ما تبلى سرائر عامر من اللؤم ما دامت عليها جلودها

فخرجت اليه جارية من الحي ، فحادثته وآنسته ، وسألته حتى أنس بها ، ثم قالت :

ممن أنت متعت بك ؟

قال : رجل من بني تميم .

فقالت : أتعرف الذي يقول :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سبل المكارم ضلت
ولو أن برغوثا على ظهر قملة يكر على جمعي تميم لولت
ذبحنا فسمينا فتم ذبيحنا وما ذبحت يوما تميم فسمت
أرى الليل يجلوه النهار ولا أرى عظام المخازي عن تميم تجلت

فقال : لا واللّه ما أنا منهم .

قالت : فممن أنت ؟

قال : رجل من عجل .

قالت : أتعرف الذي يقول :

أرى الناس يعطون الجزيل وانما عطاء بني عجل ثلاث وأربع
اذا مات عجليٌّ بأرض فانما يشق له منها ذراع واصبع

قال : لا واللّه ما أنا من عجل .

قالت : فممن أنت ؟

قال : رجل من بني يشكر .

قالت : أتعرف الذي يقول :

اذا يشكري مس ثوبك ثوبه فلا تذكرن اللّه حتى تطهرا

قال : لا واللّه ما أنا من يشكر .

قالت : فممن أنت ؟

قال : رجل من بني عبد القيس .

قالت : أتعرف الذي يقول :

رأيت عبد القيس لاقت ذلا اذا أصابوا بصلا وخلا
وما لحا مصنعا قد طلا باتوا يسلون النساء سلا
سل النبيط القصب المبتلا .

قال : لا والله ما أنا من عبد القيس .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من باهلة .
قالت : أتعرف الذي يقول :

اذا ازدحم الكرام على المعالي تنحى الباهلي عن الزحام
فلو كان الخليفة باهليا لقصر عن مناوأة الكرام
وعرض الباهلي وان توقى عليه مثل منديل الطعام

قال : لا والله ما أنا من باهلة .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من بني فزارة .
قالت : أتعرف الذي يقول :

ولا تأمنن فزاريا خلوت به على قلوصك واكتبها بأسيار
قوم اذا نزل الأضياف ساحتهم قالوا لأمهم : بولي على النار

قال : لا والله ما أنا من فزارة .
قالت : فممن أنت ؟
قال : أنا رجل من ثقيف .
قالت : أتعرف الذي يقول :

أضل الناسبون أبا ثقيف فما لهم أب الا الضلال
فان نسبت أو انتسبت ثقيف الى أحد فذاك هو المحال

خنــازير الحشــوش فقتلوها فان دماءهــا لكم حلال

قال : لا واللّه ما أنا من ثقيف .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من بني عبس .
قالت : أتعرف الذي يقول :

اذا عبيســة ولــدت غــلاما فبشــرهــا بــلــؤم مستفــاد

قال : لا واللّه ما أنا من عبس .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من ثعلبة .
قالت : أتعرف الذي يقول :

وثعلبــة بــن قيــس شــر قــوم وألأمهــم وأغــدرهــم بجــار

قال : لا واللّه ما أنا من ثعلبة .
قالت : فممن انت ؟
قال : رجل من غني .
قالت : أتعرف الذي يقول :

اذا غنــوية ولــدت غــلامــا فبشرهــا بخيــاط مجيــد

قال : لا واللّه ما أنا من غني .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من بني مرة .
قالت : أتعرف الذي يقول :

اذا مــرية خضــبــت يداهــا فزوجهــا ولا تأمــن زناهــا

قال : لا والله ما أنا من بني مرة .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من بني ضبة .
قالت : أتعرف الذي يقول :

لقد زرقت عيناك يا ابن مكعبر كما كل ضبي من اللؤم أزرق

قال : لا والله ما أنا من بني ضبة .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من بجيلة .
قالت : أتعرف الذي يقول :

سألنا عن بجلية حين حلت لنخبر أين قر بها القرار ؟
فما تدري بجيلة حين تدعي أقحطان أبوها أم نزار ؟
فقد وقعت بجيلة بين بين وقد خلعت كما خلع العذار

قال : لا والله ما أنا من بجيلة .
قالت : فممن أنت ويحك ؟
قال : رجل من بني الأزد .
قالت : أتعرف الذي يقول :

اذا أزدية ولدت غلاما فبشرها بملاح مجيد

قال : لا والله ما أنا من الأزد .
قالت : فممن أنت ويلك ؟ أما تستحي ؟! قل الحق .
قال : أنا رجل من خزاعة .
قالت : أتعرف الذي يقول :

اذا افتخرت خزاعة في قديم وجدنا فخرها شرب الخمور

وباعـــت كعبـــة الرحمـــن جهرا بزق ، بئس مفتخـــر الفجور

قال : لا واللّه ما أنا من خزاعة .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من سليم .
قالت : أتعرف الذي يقول :

فما سليم شتـــت اللّـــه أمرها تنيك بأيديهـــا وتعيـــا أمورها

قال : لا واللّه ما أنا من سليم .
قالت : فممن انت ؟
قال : رجل من لقيط .
قالت : أتعرف الذي يقول ؟

لعمـــرك ما البحـــار ولا الفيافي بأوســـع من فقـــاح بنـــي لقيط
لقيط شر من ركب المطايا وأنـــذل من يدب على البسيط
ألا لعـــن الالـــه بنـــي لقيط بقـــايا سبية من قوم لوط

قال : لا واللّه ما أنا من لقيط .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من كندة .
قالت : أتعرف الذي يقول :

اذا ما افتخـــر الكندي ذو البهجـــة والطره
فبالنســـج وبالخف وبالســـدل وبالحفرة
فـــدع كنـــدة للنســـج فأعلـــى فخرهـــا عـــره

قال : لا واللّه ما أنا من كندة .
قالت : فممن أنت ؟

قال : رجل من خثعم .
قالت : أتعرف الذي يقول :

وخثعــم لو صفــرت بهــا صفيرا لطــارت في البــلاد مع الجراد

قال : لا واللّه ما أنا من خثعم .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من طيء .
قالت : أتعرف الذي يقول :

ومــا طيء الا نبيط تجمعت فقالــت طيانــا كلمــة فاستمرت
ولــو أن حرقوصــا يمــد جناحه على جبلي طي اذن لاستظلت

قال : لا واللّه ما أنا من طيء .

قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من مزينة .
قالت : أتعرف الذي يقول :

وهــل مزينــة الا من قبيلة لا يرتجــى كرم فيهــا ولا دين

قال : لا واللّه ما أنا من مزينة .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من النخع .
قالت : أتعرف الذي يقول :

اذا النخــع اللئــام غدوا جميعا تأذى النــاس من وفــر الزحام
ومــا تسمــو الى مجــد كريم ومــا هم في الصــميم من الكرام

قال : لا والله ما أنا من النخع .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من أود .
قالت : أتعرف الذي يقول :

اذا نزلت بأود في ديارهم فاعلم بأنك منهم لست بالناجي
لا تركنن الى كهل ولا حدث فليس في القوم الا كل عفاج

قال : لا والله ما أنا من أود .
قالت : فممن أنت ؟
قال : أنا رجل من لخم .
قالت : أتعرف الذي يقول :

اذا ما انتمى قوم لفخر قديمهم تباعد فخر القوم من لخم أجمعا

قال : لا والله ما أنا من لخم .
قالت : فممن أنت ؟
قال : أنا رجل من جذام .
قالت : أتعرف الذي يقول :

اذا كأس المدام أدير يوما لمكرمة تنحى عن جذام

قال : والله ما أنا من جذام .
قالت : فممن أنت ويلك ؟! أما تستحي ؟ أكثرت من الكذب !
قال : أنا رجل من تنوخ ، وهو الحق .
قالت : أتعرف الذي يقول :

اذا تنوخ قطعت منهلا في طلب الغارات والثار
آبت بخزي من اله العلى وشهرة في الأهل والجار

قال : لا واللّه ما أنا من تنوخ .
قالت : فممن أنت ثكلتك أمك ؟
قال : انا رجل من حمير .
قال : أتعرف الذي يقول :

نبئت حمير تهجوني، فقلت لهم: ما كنت أحسبهم كانوا ولا خلقوا
لان حمــير قوم لا نصــاب لهم كالعــود بالقــاع لا ماء ولا ورق
يكثــرون وان طالــت جياتهم ولـو يبـول عليهم ثعلــب غرقوا

قال : لا واللّه ما أنا من حمير .
قالت : فممن أنت ؟
قال : أنا رجل من يحابر .
قالت : أتعرف الذي يقول :

ولــو صر صرار بأرض يحابر لماتـوا وأضحــوا في التــراب رميا

قال : لا واللّه ما أنا من يحابر .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من قشير .
قالت : أتعرف الذي يقول :

بنــي قشــير قتلــت سيدكم فاليوم لا فدية ولا قود

قال : لا واللّه ما أنا من قشير .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من بني أمية .
قالت : أتعرف الذي يقول :

وهــي مــن أميــة بنيانهــا فهــان على اللّــه فقدانهــا

وكانت أمية فيما مضى جريء على اللّه سلطانها
فلا آل حرب أطاعوا الرسول ولم يتق اللّه مروانها

قال : لا واللّه ما أنا من بني أمية .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من بني هاشم .
قالت : أتعرف الذي يقول :

بني هاشم عودوا الى نخلاتكم فقد صار هذا التمر صاعا بدرهم
فان قلتم رهط النبي محمد فان النصارى رهط عيسى بن مريم

قال : لا واللّه ما أنا من بني هاشم .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من همدان .
قالت : أتعرف الذي يقول :

اذا همدان دارت يوم حرب رحاها فوق هامات الرجال
رأيتهم يحثون المطايا سراعا هاربين من القتال

قال : لا واللّه ما أنا من همدان .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من قضاعة .
قالت : أتعرف الذي يقول :

لا يفخرن قضاعي بأسرته فليس من يمن محضا ولا مضر
مذبذبين فلا قحطان والدهم ولا نزار ، فخلوهم الى سفر

قال : لا واللّه ما أنا من قضاعة .

قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من شيبان .
قالت : أتعرف الذي يقول :

شيبان قوم لهم عديد فكلهم مقرف لئيم
ما فيهم ماجد حسيب ولا نجيب ولا كريم

قال : لا والله ما أنا من شيبان .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من بني نمير .
قالت : أتعرف الذي يقول :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا
فلو وضعت فقاح بني نمير على خبث الحديد اذن لذابا

قال : لا والله ما أنا من نمير .
قالت : فممن أنت ؟
قال : أنا رجل من تغلب .
قالت : أتعرف الذي يقول :

لا تطلبن خؤولة في تغلب فالزنج أكرم منهم أخوالا
والتغلبي اذا تنحنح للقرى حك استه وتمثل الأمثالا

قال : لا والله ما أنا من تغلب .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من مجاشع .
قالت : أتعرف الذي يقول :

تبكي المغيبة من بنات مجاشع ولها اذا سمعت نهيق حمار

قال : لا واللّه ما أنا من مجاشع .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من كلب .
قالت : أتعرف الذي يقول :

فلا تقربا كلبا ولا باب دارها فما يطمع الساري يرى ضوء نارها

قال : لا واللّه ما أنا من كلب .
قالت : فممن أنت ؟
قالت : أنا رجل من تيم .
قالت : أتعرف الذي يقول :

تيمية مثل أنف الفيل مقبلها تهدى الرحا ببنان غير مخدوم

قال : لا واللّه ما أنا من تيم .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من جرم .
قالت : أتعرف الذي يقول :

تمنيني سويق الكرم جرم وما جرم وما ذاك السويق ؟
فما شربوه لما كان حلا ولا غالوا به في يوم سوق
فلما أنزل التحريم فيها اذا الجرمي منها لا يفيق

قال : لا واللّه ما أنا من جرم .
قالت : فممن أنت ؟
قال : رجل من سليم .
قالت : أتعرف الذي يقول :

اذا ما سليم جئتها لغدائها رجعت كما قد جئت غرثان جائعا

قال : لا والله ما أنا من سليم .
قالت : فممن انت ؟
قال : رجل من الموالي .
قالت : أتعرف الذي يقول :

ألا من أراد الفحش واللؤم والخنا فعنــد المــوالي الجيد والطرفان

قال : أخطأت نسبي ورب الكعبة ، أنا رجل من الخوز .
قالت : أتعرف الذي يقول :

لا بارك اللّــه ربــي فيكم أبدا يامعشرالخــوز، ان الخــوزفي النار

قال : لا والله ما أنا من الخوز .
قالت : فممن أنت ؟
قال : أنا رجل من أولاد حام .
قالت : أتعرف الذي يقول :

فلا تنكحــن أولاد حام ، فانهم مشاويه خلق اللّه حاشا ابن أكوع

قال : لا والله ما أنا من ولد حام ، لكني من ولد الشيطان الرجيم .
قالت : فلعنك الله ولعن أباك الشيطان معك ، أفتعرف الذي يقول :

ألا يا عبــاد اللّــه هذا عدوكم وهــذا عدو اللّــه ابليس فاقتلوا

فقال لها : هذا مقام العائذ بك .
قالت : قم فارحل خاسئاً مذموماً ، واذا نزلت بقوم فلا تنشد فيهم شعرا حتى تعرف من هم ، ولا تتعرض للمباحث عن مساوىء الناس ، فلكل قوم اساءة واحســان ، الا

رسول رب العالمين ، ومن اختاره اللّه على عباده ، وعصمه من عدوه ، وأنت كما قال جرير للفرزدق :

وكنت اذا حللت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا

فقال لها : واللّه لا أنشدت بيت شعر أبدا .

فقال السفاح : لئن كنت عملت هذا الخبر ونظمت فيمن ذكرت هذه الأشعار فلقد أحسنت ، وأنت سيد الكاذبين ، وان كان الخبر صدقا وكنت فيما ذكرته محقا فان هذه الجارية العامرية لمن أحضر الناس جوابا ، وأبصرهم بمثالب الناس .

***

قال المسعودي : وللسفاح أخبار غير هذه وأسمار حسان قد أتينا على مبسوطها في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط .

ذكر خلافة أبي جعفر المنصور

موجز

وبويع أبو جعفر المنصور عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب وهو بطريق مكة ، أخذ له البيعة عمه عيسى بن علي ، ثم لعيسى بن موسى من بعده ، يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة ، والمنصور يومئذ ابن احدى وأربعين سنة .

وكان مولده في ذي الحجة سنة خمس وتسعين ، وكانت أمه أم ولد يقال لها سلامة بربرية .

وكانت وفاته يوم السبت لست خلون من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ، فكانت ولايته اثنتين وعشرين سنة الا تسعة أيام ، وهو حاج عند وصوله الى مكة في الموضع المعروف ببستان بني عامر من جادة العراق .

ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة ، ودفن بمكة مكشوف الوجه لأنه كان محرما .

وقيل : انه مات بالبطحاء عند بئر ميمون ، ودفن بالحجون وهو ابن خمس وستين سنة ، والله أعلم .

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه

رؤيا أم المنصور

* ذكر عن سلامة أم المنصور أنها قالت : رأيت لما حملت بأبي جعفر المنصور كأن أسدا خرج من قبلي فأقعى وزأر وضرب بذنبه ، فأقبلت اليه الأسد من كل ناحية ، فكلما انتهى اليه أسد منها سجد له .

المنصور ورفيق سفر ضرير وشاعر

وحدث على بن محمد المدائني أن المنصور قال : صحبت رجلا ضريرا الى الشام ، وكان يريد مروان بن محمد بشعر قاله فيه .

قال : فسألته ينشدني فأنشدني :

ليت شعري أفاح رائحة المسـ ... ك وما ان اخال بالخيف انسي
حين غابت بنو أمية عنه ... والبهاليل من بني عبد شمس
خطباء على المنابر فرسا ... ن عليها ، وقالة غير خرس

لا يعابون قائلين ، وان قا لوا أصابوا ، ولم يقولوا بلبس
وحلوم اذا الحلوم استخفت ووجوه مثل الدنانير ملس

قال المنصور : فوالله ما فرغ من شعره حتى ظننت أن العمى قد أدركني ، وكان والله ممتع الحديث حسن الصحبة .

قال : وحججت سنة احدى وأربعين ومائة ، فنزلت على الحمارة في جبلي زرود في الرمل أمشي لنذر كان علي ، فاذا أنا بالضرير ، فأومأت الى من كان معي أن يتأخر ، فتأخروا ، ودنوت منه ، فأخذت بيده فسلمت عليه .

فقال : من أنت جعلني الله فداك فما أثبتك معرفة .

قلت : رفيقك الى الشام في أيام بني أمية وأنت متوجه الى مروان ، فسلم علي وتنفس وأنشأ يقول :

آمت نساء بني أمية منهم وبناتهم بمضيعة أيتام
نامت جدودهم وأسقط نجمهم والنجم يسقط والجدود نيام
خلت المنابر والأسرة منهم فعليهم حتى الممات سلام

فقلت : كم كان مروان أعطاك ؟

فقال : أغناني فلا أسأل أحدا بعده .

فقلت : كم ؟

فقال : أربعة آلاف دينار وخلع وحملان .

قلت : وأين ذاك ؟

قال : بالبصرة .

قلت : أتثبتني معرفة ؟

فقال : أما معرفة الصحبة فقد لعمري وأما معرفة النسب فلا .

فقلت : أنا أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين ، فوقع عليه الافكل .

وقال : يا أمير المؤمنين ، اعذر فان ابن عمك محمدا صلى الله عليه وسلم قال : « جبلت النفوس على حب من أحسن اليها ، وبغض من أساء اليها » .

قال أبو جعفر : فهممت والله به ، ثم تذكرت الحرمة والصحبة ، فقلت للمسيب :

أطلقه ، فأطلق . ثم بدا لي في مسامرته رأي ، فأمرت بطلبه فكأن البيداء أبادته .

المنصور واهله يتحدثون
عن سير بني أمية

وحدث الربيع قال : اجتمع عند المنصور عيسى بن علي ، وعيسى بن موسى ، ومحمد ابن علي ، وصالح بن علي ، وفنم بن العباس ، ومحمد بن جعفر ، ومحمد بن ابراهيم ، فذكروا خلفاء بني أمية وسيرهم وتدبيرهم ، والسبب الذي به سلبوا عزهم .

فقال المنصور : أما عبدالملك فكان جبارا لا يبالي ما صنع ، وأما سليمان فكانت همته بطنه وفرجه ، وأما عمر بن عبدالعزيز فكان أعور بين عميان ، وكان رجل القوم هشام ، ولم تزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويحفظونه ، ويصونون ما وهب الله لهم منه ، مع كسبهم معالي الأمور ورفضهم أدانيها ، حتى أفضى الأمر الى أبنائهم المترفين ، فكانت همتهم قصد الشهوات ، وركوب اللذات ، من معاصي الله عز وجل ، جهلا منهم باستدراجه وأمنا منهم لمكره ، مع أطراحهم صيانة الخلافة ، واستخفافهم بحق الله تعالى وحق الرياسة ، وضعفهم عن السياسة ، فسلبهم الله العز ، وألبسهم الذل ، ونفى عنهم النعمة .

فقال صالح بن علي : يا أمير المؤمنين ، ان عبدالله بن مروان لما دخل أرض النوبة هاربا فيمن اتبعه سأل ملك النوبة عن حالهم وهيئتهم وما نزل بهم ، وكيف كانت سيرتهم ، فأخبره بجميع ذلك . فركب الى عبدالله ليسأله عن شيء من أمورهم ، والسبب الذي به زالت النعمة عنهم ، وكلمه بكلام سقط عني حفظه ، ثم أشخصه عن بلده ، فان رأى أمير المؤمنين أن يدعو به ليحدثه عن أمره فعل .

فأمر المنصور باحضاره في مجلسه ، فلما مثل بين يديه قال له : يا عبدالله قص عليّ قصتك وقصة ملك النوبة .

قال : يا أمير المؤمنين ، قدمت الى النوبة ، فأقمت بها ثلاثا ، فأتاني ملكها ، فقعد على الأرض وقد أعددت له فراشا له قيمة فقلت له : ما منعك من القعود على فراشنا ؟

فقال : لأني ملك ، وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله عز وجل اذ رفعه الله

ثم قال : لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم ؟

فقلت : اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا .

قال : فلم تطئون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم في كتابكم ؟

فقلت : فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا لجهلهم .

قال : فلم تلبسون الديباج والحرير والذهب وهو محرم عليكم في كتابكم ودينكم ؟
فقلت : ذهب منا الملك فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا .

فأطرق الى الأرض يقلب يده مرة وينكت في الأرض أخرى ، ويقول : عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا علينا في ديننا .

ثم رفع رأسه فقال : ليس كما ذكرت ، بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله ، وركبتم ما عنه نهيتم ، وظلمتم فيما ملكتم ، فسلبكم الله العز ، وألبسكم الذل بذنوبكم . ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها فيكم ، وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدي فينالني معكم ، وانما حق الضيافة ثلاث ، فتزود ما احتجت اليه وارحل عن أرضي ، ففعلت .

فتعجب المنصور وأطرق مليا ، فرق له وهمّ باطلاقه ، فأعلمه عيسى بن علي أن في عنقه بيعة له ، فأعاده الى الحبس .

وفاة محمد بن جعفر الطالبي

قال المسعودي : ولعشر سنين خلت من خلافة المنصور توفي أبو عبدالله محمد بن جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، سنة ثمان وأربعين ومائة ، ودفن بالبقيع مع أبيه وجده ، وله خمس وستون سنة ، وقيل انه سم .

وعلى قبورهم في هذا الموضع من البقيع رخامة عليها مكتوب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله مبيد الأمم ومحيي الرمم ، هذا قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين ، وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب ، وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، ومحمد بن علي ، وجعفر بن محمد رضي الله عنهم .

وزراء المنصور

واستوزر أبو جعفر المنصور ابن عطية الباهلي ، ثم استوزر أبا أيوب المورياني الخوزي ، وكان له بأبي جعفر أسباب :

منها أنه كان يكتب لسليمان بن حبيب بن المهلب ، وقد كان سليمان ضرب المنصور بالسوط في أيام الأمويين ، وأراد هتكه ، فخلصه كاتبه أبو أيوب من يده ، فكان ذلك سبب الاتصال به .

فلما استوزره اتهم بأشياء منها احتجاج الأموال وسوء النية ، فكان على الايقاع به ، وتطاول ذلك .

فكان كلما دخل عليه ظن أنه سيوقع به ، ثم يخرج سالما ، فقيل : انه كان معه دهن

قد عمل فيه شيئا من السحر يطليه على حاجبيه اذا أراد الدخول على المنصور ، فسار في العامة دهن أبي أيوب لما ذكرنا ، ثم أوقع به ، واستكتب أبان بن صدقة الى أن مات .

المنصور يسأل عن تدبيرات هشام بن عبدالملك

وذكر لأبي جعفر تدبير هشام في حرب كانت له فبعث الى رجل كان ينزل برصافة هشام يسأله عن تلك الحرب ، فقدم عليه الرجل .

فقال له : أنت صاحب هشام ؟

فقال : نعم يا أمير المؤمنين .

قال : فأخبرني كيف فعل في حرب دبرها في سنة كذا وكذا .

قال : فعل رضي الله عنه فيها كذا وكذا ، وفعل رحمه الله كذا وكذا .

فأغاظ ذلك المنصور ، فقال له : قم عليك غضب الله ، تطأ بساطي وتترحم على عدوي ؟

فقام الشيخ وهو يقول : ان لعدوك قلادة في عنقي ، ومنة في رقبتي لا ينزعها الا غاسلي .

فأمر المنصور برده ، وقال : كيف قلت ؟

قال : انه كفاني الطلب ، وصان وجهي عن السؤال ، فلم أقف على باب عربي ولا عجمي منذ رأيته ، أفلا يجب لي أن أذكره الا بخير وأتبعه بثنائي ؟

فقال : بلى ، لله أم نهضت عنك ! أشهد أنك نهيض حرة وغراس كريم ، ثم استمع منه ، وأمر له بجائزة .

فقال له : يا أمير المؤمنين ، ما آخذها لحاجة ، وما هو الا أن أتبجح بحبائك وأتشرف بصلتك ، فأخذ الصلة .

فقال له المنصور : مت اذا شئت ، لله أنت ! لو لم يكن لقومك غيرك كنت قد أبقيت لهم مجدا .

وقال لجلسائه بعد خروجه عنه : في مثل هذا تحسن الصنيعة ، ويوضع المعروف ، ويجاد بالمصون ، وأنى في عسكرنا مثله ؟

المنصور ومعن بن زائدة

ودخل معن بن زائدة على المنصور ، فلما نظر اليه قال : هيه يا معن ، تعطي مروان ابن أبي حفصة مائة ألف درهم على قوله :

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفا على شرف بنو شيبان

فقال : كلا يا أمير المؤمنين ، انما أعطيته على قوله :

ما زلت يوم الهاشمية معلنا بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته ، وكنت وقاءه من وقع كل مهند وسنان

فقال : أحسنت يا معن .

وكان معن من أصحاب يزيد بن عمر بن هبيرة ، وكان مستترا حتى كان يوم الهاشمية ـ وقد كان سعت فيه عدة من أهل خراسان ـ فانه حضر وهو معتم متلثم ، فلما نظر الى القوم قد وثبوا على المنصور تقدم ، ثم جعل يضربهم بالسيف قدامه ، فلما أفرجوا وتفرقوا عنه قال : من أنت ؟

فحسر عن وجهه وقال : أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة .

فلما انصرف المنصور آمنه وحباه وأكرمه وكساه ورتبه .

ودخل معن بن زائدة يوما على المنصور ، فقال له : ما أسرع الناس الى حسد قومك !

فقال : يا أمير المؤمنين :

ان الغرانيق تلقاها محسدة ولن ترى للئام الناس حسادا

سهم عليه شعر وظلامة
يقع بين يدي المنصور

وذكر ابن عياش المنتوف أن المنصور كان جالسا في مجلسه المبني على طاق باب خراسان من مدينته التي بناها وأضافها الى اسمه ، وسماها مدينة المنصور ، مشرفا على دجلة .

وكان قد بنى على كل باب من أبواب المدينة في الأعلى من طاقه المعقود مجلسا يشرف منه على ما يليه من البلاد من ذلك الوجه .

وكانت أربعة أبواب شوارع محدقة وطاقات معقودة ، وهي باقية الى وقتنا هذا الذي هو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، فأول أبوابها باب خراسان ، وكان يسمى باب الدولة ، لاقبال الدولة العباسية من خراسان ، ثم باب الشام ، وهو تلقاء الشام ، ثم باب الكوفة ، وهو تلقاء الكوفة ، ثم باب البصرة ، وهو تلقاء البصرة .

وقد أتينا على كيفية خبر بناء تلك المدينة ، واختيار المنصور لهذه البقعة بين دجلة والفرات ودجيل والصراة ، وهذه أنهار تأخذ من الفرات ، وأخبار بغداد وعلة تسميتها بهذا الاسم ، وما قاله الناس في ذلك ، وخبر القبة الخضراء وسقوطها في هذا العصر . وقصة قبة الحجاج الخضراء التي كان الحجاج بناها بواسط العراق ، وبقاؤها الى ذلك الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) في كتابنا الأوسط الذي كتابنا هذا تال له .

فبينما المنصور جالس في هذا المجلس من أعالي باب خراسان اذ جاء سهم عائر حتى سقط بين يديه ، فذعر منه المنصور ذعرا شديدا ثم أخذه فجعل يقلبه فاذا هو مكتوب عليه بين الريشتين :

أتطمع في الحياة الى التناد ... وتحسب أن ما لك من معاد
ستسأل عن ذنوبك والخطايا ... وتسأل بعد ذاك عن العباد

ثم قرأ عند الريشة الأخرى :

أحسنت ظنك بالأيام اذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

ثم قرأ عند الريشة الأخرى :

هي المقادير تجري في أعنتها ... فاصبر فليس لها صبر على حال
يوما تريك خسيس القوم ترفعه ... الى السماء ، ويوما تخفض العالي

واذا على جانب السهم مكتوب : همذان منها رجل مظلوم في حبسك .

فبعث من فوره بعدة من خاصته ، ففتشوا الحبوس والمطابق ، فوجدوا شيخا في بنية من الحبس فيه سراج يسرج وعلى بابه بارية مسبلة ، واذا الشيخ موثق بالحديد متوجه نحو القبلة يردد هذه الآية « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » ، فسألوه عن بلده ، فقال : همذان .

فحمل ، ووضع بين يدي المنصور ، فسأله عن حاله فأخبره أنه رجل من أبناء مدينة همذان ، وأرباب نعمها ، وأن واليك علينا دخل بلدنا ، ولي ضيعة في بلدنا تساوي ألف

ألف درهم ، فأراد أخذها مني ، فامتنعت فكبلني في الحديد ، وحملني وكتب اليك أني عاص ، فطرحت في هذا المكان .

قال : منذ كم لك في الحبس ؟

قال : منذ أربعة أعوام ، فأمر بفك الحديد عنه ، والاحسان اليه ، والاطلاق له ، وأنزله أحسن منزل ، ورده اليه .

فقال له : يا شيخ قد رددنا عليك ضيعتك بخراجها ما عشت وعشنا ، وأما مدينتك همذان فقد وليناك عليها ، وأما الوالي فقد حكمناك فيه ، وجعلنا أمره اليك .

فجزاه خيرا ، ودعا له بالبقاء ، وقال : يا أمير المؤمنين ، أما الضيعة فقد قبلتها ، وأما الولاية فلا أصلح لها ، وأما واليك فقد عفوت عنه .

فأمر له المنصور بمال جزيل ، وبر واسع ، واستحله وحمله الى بلده مكرما ، بعد أن صرف الوالي وعاقبه على ما جنى من انحرافه عن سنة العدل وواضحة الحق .

وسأل الشيخ مكاتبته في مهماته وأخبار بلده ، واعلامه بما يكون من ولاته على الحرب والخراج ، ثم أنشأ المنصور يقول :

من يصحب الدهر لا يأمن تصرفه ... يوما ، وللدهر احلاء وامرار
لكل شيء وان دامت سلامته ... اذا انتهى فله لا بد اقصار

المنصور يستشير في أمر أبي مسلم

وقال المنصور يوما لسالم بن قتيبة ، ما ترى في أمر أبي مسلم ؟

قال : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » .

فقال : حسبك يا ابن قتيبة ، لقد أودعتها أذنا واعية .

وذكر ابن دأب وغيره عن عيسى بن علي ، قال : ما زال المنصور يشاورنا في جميع أموره حتى امتدحه ابراهيم بن هرمة فقال في قصيدة له :

اذا ما أراد الأمر ناجى ضميره ... فناجى ضميرا غير مختلف العقل
ولم يشرك الأدنين في سر أمره ... اذا انتقضت بالاصبعين قوى الحبل

ولما أراد المنصور قتل أبي مسلم سقط بين الاستبداد برأيه والمشورة فيه ، فأرقه ذلك ، فقال :

تقسمني أمران لم أمتحنهما بحزم ، ولم تعرك قواي الكراكر
وما ساور الأحشاء مثل دفينة من الهم ردتها عليك المصادر
وقد علمت أبناء عدنان أنني على مثلها مقدامة متجاسر

خروج عبدالله بن علي

وقد كان عبدالله بن علي خالف على المنصور ، ودعا الى نفسه من كان معه من أهل الشام وغيرهم ، فبايعوه .

وزعم أن السفاح جعل الخلافة من بعده لمن انتدب لقتل مروان .

فلما بلغ المنصور ذلك من فعل عبدالله كتب اليه :

سأجعل نفسي منك حيث جعلتها وللدهر أيام لهن عواقب

ثم بعث اليه بأبي مسلم ، فكانت له معه حروب كثيرة ، ببلاد نصيبين في الموضع المعروف بدير الأعور ، وصبر الفريقان جميعا شهورا على حربها ، واحتفروا الخنادق .

ثم انهزم عبدالله بن علي فيمن كان معه ، وسار في نفر من خواصه الى البصرة ، وعليها أخوه سليمان بن علي عم المنصور ، فظفر أبو مسلم بما كان في عسكر عبدالله .

فبعث اليه المنصور بيقطين بن موسى لقبض الخزائن ، فلما دخل يقطين على أبي مسلم قال : السلام عليك أيها الأمير .

قال : لا سلم الله عليك يا ابن اللخناء ! أؤتمن على الدماء ولا أؤتمن على الأموال ؟

فقال له : ما أبدى هذا منك أيها الأمير ؟

قال : أرسلك صاحبك لقبض ما في يدي من الخزائن .

فقال له : امرأته طالق ثلاثا ان كان أمير المؤمنين وجهني اليك لغير تهنئتك بالظفر .

فاعتنقه أبو مسلم ، وأجلسه الى جانبه ، فلما انصرف قال لأصحابه : والله اني لأعلم أنه طلق زوجته ثلاثا ، ولكنه وفيّ لصاحبه .

خلاف أبي مسلم للمنصور وقتله

وسار أبو مسلم من الجزيرة وقد أجمع على خلاف المنصور ، واجتاز على طريق خراسان متنكبا للعراق يريد خراسان .

وسار المنصور من الأنبار يريد المدائن ، فنزل برومية المدائن التي بناها كسرى ، وقد

قدمنا ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب ، وكتب الى أبي مسلم : اني قد أردت مذاكرتك بأشياء لم يحتملها الكتاب ، فأقبل فان مقامك عندنا قليل .

فقرأ الكتاب ومضى على حاله ، فسرح اليه المنصور جرير بن يزيد بن جرير بن عبدالله البجلي ، وكان واحد أهل زمانه ، وداهية عصره ، وكانت المعرفة بينه وبين أبي مسلم قديمة بخراسان ، فأتاه فقال : أيها الأمير ، ضربت الناس عن عرض لأهل هذا البيت ، ثم تنصرف على هذه الحالة ؟ ما آمن أن يعيبك من هنالك ومن ههنا ، وأن يقال : طلب بثأر قوم ثم نقض بيعتهم ، فيخالفك من تأمن مخالفته اياك ، وان الأمر لم يبلغ عند خليفتك ما تكره ، ولا أرى أن تنصرف على هذه الحال .

فأراد أن يجيب الى الرجوع ، فقال له مالك بن الهيثم : لا تفعل .

فقال لمالك : ويلك ! لقد بليت بابليس وما بليت بمثل هذا قط (يعني الجريري) .

فلم يزل به حتى أقبل به على المنصور ، وكان أبو مسلم يجد خبره في الكتب السالفة ونعته وأنه يقتل بالروم ، وكان يكثر من قول ذلك ، وأنه يقتل بالروم على حسب ما وجد في الملاحم وأنه يميت دولة ويحيي أخرى .

فلما دخل على المنصور وقد تلقاه الناس رحب به وعانقه وقال له : كدت أن تمضي قبل أن أقضي عليك بما أريد .

قال : قد أتيت يا أمير المؤمنين ، فأمر بأمرك ، فأمره بالانصراف الى منزله ، وانتظر فيه الفرص والغوائل .

فركب أبو مسلم الى المنصور مرارا وهو لا يظهر له شيئا . ثم ركب وقد أظهر له التجني .

فسار أبو مسلم الى عيسى بن موسى ، وكان له فيه رأي جميل ، فسأله الركوب معه الى المنصور ليعذله بحضرته ، فأمره أن يتقدمه الى المنصور ، فانه بالأثر .

فتقدم أبو مسلم الى مضرب المنصور ، وهو على دجلة برومية المدائن ، فدخل وجلس تحت الشراع ، وقيل الرواق ، فأخبر أن المنصور يتوضأ للصلاة .

وكان المنصور قد تقدم الى صاحب حرسه عثمان بن نهيك في عدة فيهم شبيب بن رواح المروروذي وأبو حنيفة حرب بن قيس ، وأمرهم أن يقوموا خلف السرير الذي كان وراء أبي مسلم ، وأمرهم أنه اذا عاتبه وظهر صوته لا يظهروا ، فاذا صفق بيد على يد فليظهروا ، وليضربوا عنقه وما أدركوا منه بسيوفهم .

وجلس المنصور ، فقام أبو مسلم من موضعه ودخل فسلم عليه ، فرد عليه ، وأذن له

بالجلوس ، وحادثه ساعة ، ثم أقبل يعاتبه ويقول : فعلت وفعلت .

فقال أبو مسلم : ليس يقال هذا لي بعد بلائي وما كان مني .

فقال له : يا ابن الخبيثة وانما فعلت ذلك بجدنا وحظوظنا ولو كان مكانك أمة سوداء لأجزت ، ألست الكاتب الي تبدأ بنفسك والكاتب الي تخطب آسية بنت علي وتزعم أنك ابن سليط بن عبدالله بن العباس ؟ لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعبا .

فأخذ أبو مسلم بيده يعركها ويقبلها ويعتذر اليه .

فقال له المنصور : وهو آخر ما كلمه به : قتلني الله ان لم أقتلك ، وذكر له قتله لسليمان بن كثير .

ثم صفق باحدى يديه على الأخرى ، فخرج اليه القوم ، فبدره عثمان بن نهيك فضربه ضربة خفيفة بالسيف قطعت نجاد سيف أبي مسلم، وضربه شبيب بن رواح فقطع رجله، واعتورته السيوف ، فخلطت أجزاؤه ، وأتوا عليه ، والمنصور يصيح : اضربوا قطع الله أيديكم .

وقد كان أبو مسلم عند أول ضربة قال : استبقني يا أمير المؤمنين لعدوك .

قال : لا أبقاني الله أبدا ان أبقيتك ! وأي عدو أعدى لي منك ؟

وكان قتله في شعبان من سنة ست وثلاثين ومائة ، وفيها كانت بيعة المنصور ، وهزيمة عبدالله بن علي ، وأدرج أبو مسلم في بساط .

ودخل عيسى بن موسى فقال : يا أمير المؤمنين ، أين أبو مسلم ؟

فقال : قد كان ههنا آنفا .

فقال : يا أمير المؤمنين ، قد عرفت طاعته ونصيحته ، ورأي ابراهيم الامام فيه .

فقال له المنصور : يا أنوك خلق الله ، ما أعلم في الأرض عدوا أعدى لك منه ، ها هو ذاك في البساط .

فقال عيسى : انا لله وانا اليه راجعون .

ودخل عليه جعفر بن حنظلة فقال له المنصور : ما تقول في أمر أبي مسلم ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، ان كنت أخذت من رأسه شعرة فاقتل ثم اقتل ثم اقتل .

فقال المنصور : وفقك الله ! ها هو في البساط .

فلما نظر اليه قتيلا قال : يا أمير المؤمنين ، عد هذا اليوم أول خلافتك ، وقد كان السفاح هم بقتله برأي المنصور ثم رجع عن قتله .

وأقبل المنصور على من حضره وأبو مسلم بين يديه طريحا فقال :

زعمت أن الدين لا ينقضي فاستوف بالكيل أبا مجرم
اشرب بكأس كنت تسقي بها أمر في الحلق من العلقم

ودعا المنصور بنصر بن مالك ، وكان على شرطة أبي مسلم ، فقال : استشارك أبو مسلم بالمسير الي فنهيته ؟

قال : نعم .

قال : ولم ؟

قال : سمعت أخاك ابراهيم الامام يحدث عن أبيه قال : لا يزال المرء يزداد في عقله اذا ما محض النصيحة لمن شاوره ، فكنت له كذلك ، وأنا الآن لك كذلك .

واضطرب أصحاب أبي مسلم ففرقت فيهم الأموال ، وعلموا بقتله ، فأمسكوا رغبة ورهبة .

خطبة المنصور بعد قتل أبي مسلم

وخطب المنصور الناس بعد قتله أبا مسلم فقال: أيها الناس، لا تخرجوا عن أنس الطاعة الى وجشة المعصية ، ولا تسروا غش الأئمة ، فان من أسر غش امامه أظهر الله سريرته في فلتات لسانه ، وسقطات أفعاله ، وأبداها الله لامامه الذي بادر باعزاز دينه به ، واعلاء حقه بفلجه ، انا لم نبخسكم حقوقكم ، ولم نبخس الدين حقه عليكم .

ان من نازعنا عروة هذا القميص أوطأناه ما في هذا الغمد ، وان أبا مسلم بايعنا وبايع لنا على أنه من نكث بيعتنا فقد أباح لنا دمه ، ثم نكث بيعته هو ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق له من اقامة الحق عليه .

الخرمية الفرقة التي تتولى أبا مسلم

ولما نمى قتل أبي مسلم الى خراسان وغيرها من الجبال اضطربت الخرمية، وهي الطائفة التي تدعى بالمسلمية القائلون بأبي مسلم وامامته ، وقد تنازعوا في ذلك بعد وفاته :

فمنهم من رأى أنه لم يمت ولن يموت حتى يظهر فيملأ الأرض عدلا .

وفرقة قطعت بموته وقالت بامامة ابنته فاطمة ، وهؤلاء يدعون الفاطمية .

وأكثر الخرمية في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) الكردكية واللودشاهية وهاتان الفرقتان أعظم الخرمية ، ومنهم كان بابك الخرمي الذي خرج على المأمون والمعتصم بالبدين من أرض الران وأذربيجان ، وسنأتي على خبره وخبر مقتله في أخبار المعتصم فيما يرد من هذا الكتاب ان شاء الله .

وأكثر الخرمية ببلاد خراسان والري واصبهان وأذربيجان وكرخ أبي دلف والبرج الموضع المعروف بالرذ والورسنجان ثم ببلاد الصيروان والصيمرة وأريوجان من بلاد ماسبذان وغيرها من تلك الأمصار ، وأكثر هؤلاء في القرى والضياع ، وسيكون لهم عند أنفسهم شأن وظهور يراعونه وينتظرونه في المستقبل من الزمان ، ويعرفون هؤلاء بخراسان وغيرها بالباطنية .

وقد أتينا على مذاهبهم وذكر فرقهم في كتابنا « المقالات ، في أصول الديانات » وان كان قد سبقنا الى ذلك مؤلفو الكتب في المقالات .

بين الخرمية وجيش المنصور

فاجتمعت الخرمية ـ حين علمت بقتل أبي مسلم ـ بخراسان ، فخرج فيهم رجل يقال له بسنفاد من نيسابور يطالب بدم أبي مسلم .

فسار في عسكر عظيم من بلاد خراسان الى الري ، فغلب عليها وعلى قومس وما يليها ، وقبض على ما كان بالري من خزائن أبي مسلم . فكثر جمع بسنفاد ممن حوله من أهل الجبال وطبرستان .

ولما اتصل خبر مسيرهم بالمنصور سرح اليه جهور بن مرار العجلي في عشرة آلاف رجل ، وتلاه بالعساكر ، فالتقوا بين همذان والري على طرف المفازة ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، وصبر الفريقان جميعا ، فقتل بسنفاد ، وولى أصحابه فقتل منهم ستون ألفا وسبى منهم سبايا وذراري كثيرة .

وكان بين خروجه الى مقتله سبعون ليلة ، وذلك في سنة ست وثلاثين ومائة بعد قتل أبي مسلم بأشهر .

ظهور محمد بن عبدالله بن الحسن
(النفس الزكية)

وفي سنة خمس وأربعين ومائة كان ظهور محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهم بالمدينة .

وكان قد بويع له في كثير من الأمصار ، وكان يدعى بالنفس الزكية لزهده ونسكه ، وكان مستخفيا من المنصور ، ولم يظهر حتى قبض المنصور على أبيه عبدالله بن الحسن وعمومته وكثير من أهله وعدتهم .

ولما ظهر محمد بن عبدالله بالمدينة دعا المنصور اسحاق بن مسلم العقيلي ، وكان شيخا ذا رأي وتجربة ، فقال له : أشر علي في خارجي خرج علي .

قال : صف لي الرجل .

قال : رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذو علم وزهد وورع .

قال : فمن تبعه ؟

قال : ولد علي وولد جعفر وعقيل وولد عمر بن الخطاب وولد الزبير بن العوام وسائر قريش وأولاد الأنصار .

قال له : صف لي البلد الذي قام به .

قال : بلد ليس به زرع ولا ضرع ولا تجارة واسعة .

ففكر ساعة ثم قال : اشحن يا أمير المؤمنين البصرة بالرجال .

فقال المنصور في نفسه قد خرف الرجل ، أسأله عن خارجي خرج بالمدينة يقول لي اشحن البصرة بالرجال ، فقال له : انصرف يا شيخ .

ثم لم يكن الا يسير حتى ورد الخبر أن ابراهيم قد ظهر بالبصرة ، فقال المنصور : علي بالعقيلي .

فلما دخل عليه أدناه ثم قال له : اني كنت قد شاورتك في أمر خارجي خرج بالمدينة فأشرت علي أن أشحن البصرة بالرجال أو كان عندك من البصرة علم ؟

قال : لا ، ولكن ذكرت لي خروج رجل اذا خرج مثله لم يتخلف عنه أحد ، ثم ذكرت لي البلد الذي هو فيه فاذا هو ضيق لا يحتمل الجيوش ، فقلت : انه رجل سيطلب غير موضعه ، ففكرت في مصر فوجدتها مضبوطة ، والشام والكوفة كذلك ، وفكرت في البصرة فخفت عليها منه لخلوها ، فأشرت بشحنها .

فقال له المنصور : أحسنت ، وقد خرج بها أخوه ، فما الرأي في صاحب المدينة ؟

قال : ترميه بمثله ، اذا قال : أنا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال هذا : وأنا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال المنصور لعيسى بن موسى : اما أن تخرج اليه وأقيم أنا أمدك بالجيوش ، واما أن تكفيني ما أخلف ورائي وأخرج أنا اليه .

فقال عيسى : بل أقيك بنفسي يا أمير المؤمنين ، وأكون الذي يخرج اليه .

فأخرجه اليه من الكوفة في أربعة آلاف فارس وألفي رجل ، وأتبعه محمد بن قحطبة في جيش كثيف ، فقاتلوا محمدا بالمدينة حتى قتل وهو ابن خمس وأربعين سنة ، ولما اتصل بابراهيم قتل أخيه محمد بن عبدالله وهو بالبصرة صعد المنبر فنعاه وتمثل :

أبـالمنـازل يا خـير الفـوارس من يفجع بمثلك في الـدنيا فقـد فجعا
الله يعلــم أنـــي لو خشيتهم وأوجس القلـب من خوف لهـم فزعا
لم يقتلـوه ولـم أسلـم أخـي لهم حتـى نمـوت جميعـا أو نعيش معا

تفرق اخوة محمد بن عبدالله في البلاد

وقد كان تفرق اخوة محمد وولده في البلدان يدعون الى امامته ، فكان فيمن توجه ابنه علي بن محمد الى مصر ، فقتل بها .

وسار ابنه عبدالله الى خراسان فهرب لما طلب الى السند ، فقتل هناك .

وسار ابنه الحسن الى اليمن ، فحبس فمات في الحبس .

وساز أخوه موسى الى الجزيرة .

ومضى أخوه يحيى الى الري ثم الى طبرستان فكان من خبره في أيام الرشيد ما سنورده فيما يرد من هذا الكتاب .

الادارسة

ومضى أخوه ادريس بن عبدالله الى المغرب فأجابه خلق من الناس ، وبعث المنصور من اغتاله بالسم فيما احتوى عليه من مدن المغرب .

وقام ولده ادريس بن ادريس بن عبدالله بـن الحسن بن الحسن مقامه ، فعرف البلد بهم ، فقيل : بلد ادريس بن ادريس .

وقد أتينا على خبرهم عند ذكرنا لخبر عبيد الله صاحب المغرب وبنائه المدينة المعروفة بالمهدية ، وخبر أبي القاسم ابنه بعـده ، وانتقالهـم من مدينـة سلمية من أرض حمص الى المغرب ، في الكتاب الأوسط .

ومضى ابراهيم أخوه الى البصرة وظهر بها ، فأجابه أهل فارس والأهواز وغيرهما من الأمصار ، وسار من البصرة في عساكر كثيرة من الزيدية وجماعة ممن يذهب الى قول البغداديين من المعتزلة وغيرهم ، ومعه عيسى بـن زيد بن علي بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم .

فسير اليه المنصور عيسى بن موسى وسعيد بـن سلم في العساكر ، فحارب حتى قتل في الموضع المعروف بباخمري ، وذلك على ستة عشر فرسخا من الكوفة من أرض الطف ، وهو الموضع الذي ذكرته الشعراء ممن رثى ابراهيم ، فممن ذكر ذلك دعبل بن علي الخزاعي ، فقال في قصيدة له أولها :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

ومنها قوله فيهم :

قبور بكوفان ، وأخرى بطيبة وأخرى بفخ ، يا لها صلوات
وأخرى بأرض الجوزجان محلها وقبر بباخمري لدى الغربات

وقتل معه من الزيدية من شيعته أربعمائة رجل ، وقيل : خمسمائة رجل .

وروى بعض الأخباريين عن حماد التركي قال : كان المنصور نازلا في دير على شاطىء دجلة في الموضع الذي يسمى اليوم الخلد ، ومدينة السلام ، اذ أتى الربيع في وقت الهاجرة والمنصور نائم في البيت الذي هو فيه ، وحماد قاعد على الباب والخريطة بيد الربيع ، بخروج محمد بن عبدالله فقال : يا حماد افتح الباب .

فقلت : الساعة هجع أمير المؤمنين .

فقال : افتح ثكلتك أمك .

قال : فسمع المنصور كلامه ، فنهض يفتح الباب بيده وتناول منه الخريطة ، فقرأ ما فيها من الكتب وتلا هذه الآية « وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، ويسعون في الأرض فسادا ، والله لا يحب المفسدين » .

ثم أمر باحضار الناس والقواد والموالي وأهل بيته وأصحابه ، وأمر حماد التركي باسراج الخيل ، وأمر سليمان بن مجالد بالتقدم ، والمسيب بن زهير فأخرج بالأقوات .

ثم خرج فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

مالي أكفكف عن سعد ويشتمني وان شتمت بني سعد لقد سكنوا؟
جهلا علينا وجبنا عن عدوهم لبئست الخصلتان الجهل والجبن

أما والله لقد عجزوا عن أمر قمنا له ، فما شكروا القائم ولا حمدوا الكافي ، ولقد مهدوا فاستوعروا ، وغبطوا فغمطوا ، فماذا تحاول مني ؟ أسقى رنقا على كدر ؟ كلا والله ، لأن أموت معزا أحب الي من أن أحيا مستذلا ، ولئن لم يرض العفو مني ليطلبن ما لا يوجد

عندي ، والسعيد من وعظ بغيره .

ثم نزل ، فقال : يا غلام ، قدم ، فركب من فوره الى معسكره .

وقال : اللهم لا تكلنا الى خلقك فنضيع ، ولا الى أنفسنا فنعجز ، فلا تكلنا الا اليك .

وذكر أن المنصور هيئت له عجة من مخ وسكر فاستطابها ، فقال : أراد ابراهيم أن يحرمني هذا وأشباهه .

وذكر أن المنصور قال يوما لجلسائه بعد قتل محمد وابراهيم : والله ما رأيت رجلا أنصح من الحجاج لبني مروان .

فقام المسيب بن زهير الضبي فقال : يا أمير المؤمنين ، ما سبقنا الحجاج بأمر تخلفنا عنه ، والله ما خلق الله على جديد الأرض خلقا أعز علينا من نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد أمرتنا بقتل أولاده فأطعناك وفعلنا ذلك ، فهل نصحناك أم لا ؟

فقال له المنصور : اجلس لا جلست .

وقد ذكرنا أنه كان قبض على عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنه ومحمد وابراهيم ابني عبدالله وعلى كثير من أهل بيته ، وذلك في سنة أربع وأربعين ومائة في منصرفه من الحج ، فحملوا من المدينة الى الربذة من جادة العراق .

وكان ممن حمله مع عبدالله بن الحسن ابراهيم بن الحسن بن الحسن ، وأبو بكر بن الحسن بن الحسن ، وعلي الخير ، وأخوه العباس ، وعبدالله بن الحسن بن الحسن ، والحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن ، ومعهم محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان أخو عبدالله بن الحسن بن الحسن لأمه فاطمة ابنة الحسين بن علي ، وجدتهما فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فجرد المنصور بالربذة محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان فضربه ألف سوط ، وسأله عن ابني أخيه محمد وابراهيم ، فأنكر أن يعرف مكانهما ، فسألت جدته العثماني في ذلك الوقت .

وارتحل المنصور عن الربذة وهو في قبة ، وأوهن القوم بالجهد ، فحملوا على المحامل المكشوفة ، فمر بهم المنصور في قبته على الجمازة فصاح به عبدالله بن الحسن : يا أبا جعفر ما هكذا فعلنا بكم يوم بدر .

فصيرهم الى الكوفة ، وحبسوا في سرداب تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار وسواد الليل ، وخلي منهم سليمان وعبدالله ابني داود بن الحسن بن الحسن وموسى بن عبدالله

ابن الحسن والحسن بن جعفر . وحبس الآخرين ممن ذكرناهم حتى ماتوا .

وذلك على شاطىء الفرات بالقرب من قنطرة الكوفة ، ومواضعهم بالكوفة تزار في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) وكان قد هدم عليهم الموضع .

وكانوا يتوضأون في مواضعهم ، فاشتدت عليهم الرائحة ، فاحتال بعض مواليهم حتى أدخل اليهم شيئا من الغالية فكانوا يدفعون بشمها تلك الروائح المنتنة ، وكان الورم يبدو في أقدامهم فلا يزال يرتفع حتى يبلغ الفؤاد فيموت صاحبه .

وذكر من وجه آخر أنهم لما حبسوا في هذا الموضع أشكل عليهم أوقات الصلاة فجزأوا القرآن خمسة أجزاء ، فكانوا يصلون الصلاة على فراغ كل واحد منهم من حزبه .

وكان عدد من بقي منهم خمسة ، فمات اسماعيل بن الحسن ، فترك عندهم حتى جيف ، فصعق داود بن الحسن فمات .

وأتى برأس ابراهيم بن عبدالله فوجه به المنصور مع الربيع اليهم ، فوضع الرأس بين أيديهم وعبدالله يصلي فقال له ادريس أخوه : أسرع في صلاتك يا أبا محمد .

فالتفت اليه وأخذ الرأس فوضعه في حجره وقال له : أهلا وسهلا يا أبا القاسم ، والله لقد كنت ـ ما علمتك ـ من الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم : « الذين يوفون بعهد اللّه ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل » . . . الخ الآية .

فقال له الربيع : كيف أبو القاسم في نفسه ؟

قال : كما قال الشاعر :

فتى كان يحميه من الذل سيفه ... ويكفيه أن يأتي الذنوب اجتنابها

ثم التفت الى الربيع فقال له : قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا أيام ، ومن نعيمك أيام ، والملتقى يوم القيامة .

قال الربيع : فما رأيت المنصور قط أشد انكسارا منه في الوقت الذي بلغته فيه هذه الرسالة ، فأخذ هذا المعنى العباس بن الأحنف فقال :

فان تلحظي حالي وحالك مرة ... بنظرة عين عن هوى النفس تحجب

تري كل يوم مر من بؤس عيشتي ... تمر بيوم من نعيمك يحسب

قال المسعودي : ولما أخذ المنصور عبدالله بن الحسن واخوته والنفر الذين كانوا معه من

أهل بيته صعد المنبر بالهاشمية ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمـد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا أهل خراسان ، أنتم شيعتنا وأنصارنا ، وأهل دعوتنا ، ولو بايعتـم غيرنا لـم تبايعوا خيرا منا ، ان ولد ابن أبي طالب تركناهم والذي لا اله الا هو والخلافة فلم نعرض لهم لا بقليل ولا بكثير .

فقام فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه فما أفلح ، وحكم الحكمين ، فاختلفت عليه الأمة ، وافترقت الكلمة ، ثم وثب عليه شيعته حتى مات على فراشه .

ثم قام بعده الحسن بن علي رضي الله عنه فوالله ما كان برجل ، عرضت عليه الأموال فقبلها ، ودس اليه معاوية اني أجعلك ولي عهدي ، فخلعه وانسلخ له مما كان فيه ، وسلمه اليه .، وأقبل على النساء يتزوج اليوم واحدة ويطلق غدا أخرى ، فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه .

ثم قام من بعده الحسين بن علي رضي الله عنه ، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق والاغراق في الفتن ، أهل هذه المدرة السوء (وأشار الى الكوفة) ، فوالله ما هي لي بحرب فأحاربها ، ولا هي لي بسلم فأسالمها ، فرق الله بيني وبينها ، فخذلوه وأبرأوا أنفسهم منه ، فأسلموه حتى قتل .

ثم قام من بعده زيد بن علي فخدعه أهل الكوفة وغـروه ، فلما أظهـروه وأخرجـوه أسلموه ، وقد كان أبو محمد بن علي ناشده الله في الخروج ، وقال له : لا تقبل أقاويل أهل الكوفة فانا نجد في علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلـب بالكناسـة ، وأخشى أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده الله بذلك عمي داود وحذره رحمه الله غدر أهل الكوفة ، فلم يقبل ، وتم على خروجه ، فقتل وصلب بالكناسة .

ثم وثب بنو أمية علينا فابتزونا شرفنا ، وأذهبوا عزنا ، والله ما كان لهـم عندنـا برة يطلبونها ، وما كان ذلك كله الا فيهم وبسبب خروجهم ، فنفونا عن البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ، ومرة بالشام ، ومرة بالسراة ، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا ، فأحيا الله شرفنا وعزنا بكم يا أهل خراسان ، ودفع بحقكم أهل الباطل وأظهر لنا حقنا ، وأصار الينا أمرنا وميراثنا من نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقر الحق في قراره ، وأظهر الله مناره ، وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمدلله رب العالمين .

فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله وحكمه العدل وثبوا علينا ، حسدا منهم لنا وبغيا علينا ، بما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا من خلافته ميراثنا من نبيه ، وجبنا من بني أمية ، وجراءة علينا .

اني والله يا أهل خراسان ما أتيت ما أتيت من هذا الأمر من جهالة ولا عن ظنة ، ولقد كنت يبلغني عنهم بعض السقم ، ولقد كنت سميت لهم رجالا فقلت : قم أنت يا فلان ، فخذ معك من المال كذا وكذا ، وقم أنت يا فلان فخذ معك من المال كذا وكذا ، وحذوت لهم مثالا يعملون عليه .

فخرجوا حتى أتوا المدينة فلقوهم فدسوا ذلك المال ، فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير الا بايعهم لي ، فاستحللت به دماءهم ، وحلت عند ذلك بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علي .

ثم قرأ في درج المنبر « وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، كما فعل بأشياعهم من قبل ، انهم كانوا في شك مريب » .

بين المنصور والربيع

قال المسعودي : وقال المنصور للربيع يوما : اذكر حاجتك .

قال : يا أمير المؤمنين ، أن تحب الفضل ابني .

فقال له : ويحك !! ان المحبة انما تقع بأسباب .

قال : يا أمير المؤمنين ، قد أمكنك الله من ايقاع السبب .

قال : وما ذاك ؟

قال : تفضل عليه ، فانك اذا فعلت ذلك أحبك ، واذا أحبك أحببته .

قال : والله قد أحببته قبل ايقاع السبب ، ولكن كيف اخترت له المحبة دون كل شيء ؟

قال : لأنك اذا أحببته كبر عندك صغير احسانه ، وصغر عندك كبير اساءته ، وكانت ذنوبه كذنوب الصبيان ، وحاجته اليك كحاجة الشفيع العريان .

وقال المنصور يوما للربيع : ويحك يا ربيع ! ما أطيب الدنيا لولا الموت .

قال له : ما طابت الا بالموت .

قال : وكيف ذلك ؟

قال : لولا الموت لم تقعد هذا المقعد .

قال : صدقت .

بين المنصور وعمرو بن عبيد

وذكر اسحاق بن الفضل قال : بينا أنا على باب المنصور اذ أتى عمرو بن عبيد فنزل عن حماره ، وجلس ، فخرج اليه الربيع ، فقال له : قم أبا عثمان ، بأبي أنت وأمي .

فلما دخل على أبي جعفر أمر أن تفرش له لبود بقربه ، وأجلسه اليه بعد ما سلم ، ثم قال : يا أبا عثمان ، عظني بموعظة ، فوعظه بمواعظ .

فلما أراد النهوض قال : أمرنا لك بعشرة آلاف .

قال : لا حاجة لي فيها .

قال أبو جعفر : والله لتأخذنها .

قال : لا والله لا آخذها .

وكان المهدي حاضرا ، فقال : يحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت ؟

فالتفت عمرو الى أبي جعفر فقال : من هذا الفتى ؟

قال : هذا محمد ابني ، وهو المهدي ، وهو ولي عهدي .

قال : أما والله لقد ألبسته لباسا ما هو من لباس الأبرار ، ولقد سميته باسم ما استحقه عملا ، ولقد مهدت له أمرا أمتع ما يكون به أشغل ما يكون عنه .

ثم أقبل عمرو على المهدي فقال : نعم يا ابن أخي ، اذا حلف أبوك أحنثه عمك ، لأن أباك أقوى على الكفارات من عمك .

فقال له المنصور : هل لك من حاجة يا أبا عثمان ؟

قال : نعم .

قال : ما هي ؟

قال : ألا تبعث الي حتى آتيك .

قال : اذن لا نلتقي .

قال : هي حاجتي ، فمضى وأتبعه المنصور بطرفه ، ثم قال :

كلكم يمشي رويد   كلكم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد

ودخل عمرو بن عبيد على المنصور بعدما بايع المهدي ، فقال له : يا أبا عثمان ، هذا ابن أمير المؤمنين ، وولي عهد المسلمين .

فقال له عمرو : يا أمير المؤمنين ، أراك قد وطدت له الأمور ، وهي تصير اليه ، وأنت عنه مسؤول .

فاستعبر المنصور وقال له : عظني يا عمرو .

قال : يا أمير المؤمنين ، ان الله قد أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ، وان هذا الذي أصبح في يديك لو بقي في يد غيرك لم يصل اليك ، فاحذر ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده ، وأنشد :

يا أيهـذا الـذي قد غره الأمل	ودون ما يأمـل التنغيص والأجل
ألا ترى انمـا الـدنيا وزينتها	كمنزل الركب حلوا ثمت ارتحلوا
حتوفهـا رصـد ، وعيشهـا نكد	وصفوهـا كدر ، وملكهـا دول
تظـل تقـرع بالروعـات ساكنها	فما يسـوغ له لـين ولا جدل
كأنـه للمنـايا والـردى غرض	تظـل فيه بنـات الدهـر تنتضل
والنفس هاربة ، والموت يرصدها	وكل عثـرة رجـل عندهـا زلل
والمرء يسعـى لما يبقـى لوارثه	والقبر وارث ما يسعـى له الرجل

موت عمرو بن عبيد

ومات عمرو بن عبيد في أيام المنصور سنة أربع وأربعين ومائـة وقيل : سنـة خمس وأربعين ومائة ، ويكنى أبا عثمان ، وهو عمرو بن عبيد بن باب ، مولى بني تميم .
وكان جده باب من سبى كابل من رجال السند ، وكان شيخ المعتزلة في وقته ومفتيها ، وله خطب ورسائل وكلام كثير في العدل والتوحيد وغير ذلك . وقد أتينا على أخباره والغرر من كلامه ومناظراته في كتابنا في « المقالات في أصول الديانات » .
وفي سنة احدى وأربعين ومائة شخص المنصور الى بيت المقدس فصلى فيه لنذر كان عليه وانصرف .

موت هشام بن عروة

وفي سنة ست وأربعين ومائة مات هشام بن عروة بن الزبير وهو ابن خمس وثمانين ، وكان اذا أسمعه رجل كلاما قال : أنا أرفع نفسي عنك ، ثم نازع علي بن الحسن ، فأسرع اليه هشام ، فقال له علي : اني أدعوك الى ما كنت تدعو اليه .

موت أبي حنيفة النعمان وجماعة

وفي سنة خمسين ومائة مات أبو حنيفة النعمان بن ثابت مولى تيم اللات من بكر بن وائل في أيام المنصور ببغداد ، توفي وهو ساجد في صلاته ، وهو ابن تسعين سنة .
وفيها مات عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج المكي ، مولى خالد بن أسيد ، ويكنى أبا الوليد ، وهو ابن سبعين سنة .

وفيها مات محمد بن اسحاق بن يسار مولى قيس بن مخرمة من بني المطلب ، ويكنى أبا عبدالله ، ويقال : مات سنة احدى ، ويقال : سنة اثنتين وخمسين ومائة .

وفي سنة سبع وخمسين مات الأوزاعي ، ويكنى أبا عمرو عبدالرحمن بن عمرو من أهل الشام ، وانما كان منزله فيهم - أعني الأوزاع - ولم يكن منهم ، وذلك بدمشق ، فأضيف اليهم ، وكان من سبي أهل اليمن في آخر أيام المنصور ، وله تسعون سنة .

وفي أيام المنصور مات ليث بن أبي سليم الكوفي ، مولى عنبسة بن أبي سفيان ، سنة ثمان وخمسين ومائة .

وفي سنة ست وخمسين ومائة مات سوار بن عبدالله القاضي .

وفي سنة أربع وخمسين ومائة مات أبو عمرو بن العلاء في أيام المنصور .

مقتل عبدالله بن علي عم المنصور

وطال حبس عبدالله بن علي بأمر المنصور ، وأقام في محبسه تسع سنين ، وقيل غير ذلك .

فلما أراد المنصور الحج في سنة تسع وأربعين ومائة حوله من عنده الى عيسى بن موسى ، وأمره بقتله ، وألا يعلم بذلك أحدا .

فبعث عيسى بن موسى الى ابن أبي ليلى وابن شبرمة ، فشاورهما في ذلك ، فقال ابن أبي ليلى : امض بما أمرك به أمير المؤمنين . وقال ابن شبرمة : لا تفعل .

فأبى أن يقتله ، وأظهر لأبي جعفر أنه قتله ، وشاع ذلك .

فكلم بنو علي المنصور في أخيهم عبد الله ، فقال لهم : هو عند عيسى بن موسى فسألوه عنه ، فقال : قد قتلته .

فرجعوا الى أبي جعفر ، فقالوا : زعم عيسى أنه قد قتله ، فأظهر أبو جعفر الغضب على عيسى ، وقال : يقتل عمي ؟ والله لأقتلنه .

وكان أبو جعفر أحب أن يكون عيسى قتله فيقتله به فيستريح منهما جميعا .

قال : فدعابه ، فقال : لم قتلت عمي ؟

قال : أنت أمرتني بقتله .

قال : لم آمرك بذلك .

فقال : هذا كتابك إلي فيه .

قال : لم أكتبه .

فلما رأى الجد من المنصور ، وتخوف على نفسه قال : هو عندي لم أقتله .

قال : ادفعه الى أبي الأزهر المهلب بن أبي عيسى ، فدفعه اليه ، فلم يزل عنده محبوسا .

ثم أمره بقتله ، فدخل عليه ومعه جارية له فبدأ بعبدالله فختقه حتى مات ، ثم مده على الفراش ، ثم أخذ الجارية ليخنقها ، فقالت : يا عبدالله قتلة غير هذه .

فكان أبو الأزهر يقول : ما رحمت أحدا قتلته غيرها ، فصرفت وجهي عنها ، وأمرت بها فخنقت ، ووضعتها معه على الفراش ، وأدخلت يدها تحت جنبه ويده تحت جنبها كالمعتنقين ، ثم أمرت بالبيت فهدم عليهما .

ثم أحضرنا القاضي ابن علاثة وغيره فنظروا الى عبدالله والجارية معتنقين على تلك الحال ، ثم أمر به فدفن في مقبرة أبي سويد بباب الشام من بغداد في الجانب الغربي .

***

قال المسعودي : وذكر عبدالله بن عياش المنتوف قال : قال المنصور يوما ونحن عنده : أتعرفون جبارا أول اسمه عين قتل جبارا أول اسمه عين ، وجبارا أول اسمه عين ، وجبارا أول اسمه عين ؟

قال : قلت نعم يا أمير المؤمنين ، عبدالملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد بن العاص ، وعبدالله بن الزبير ، وعبدالرحمن بن محمد بن الأشعث .

فقال المنصور : أفتعرفون خليفة أول اسمه عين قتل جبارا أول اسمه عين ، وجبارا أول اسمه عين ، وجبارا أول اسمه عين ؟

قلت : نعم ، أنت يا أمير المؤمنين ، قتلت عبدالرحمن بن مسلم ، وعبدالجبار بن عبدالرحمن ، وعمك عبدالله بن علي سقط عليه البيت .

قال : فما ذنبي ان كان سقط عليه البيت ؟

قلت : لا ذنب لك .

فتبسم ثم قال : هل تحفظ الأبيات التي قالتها زوجة الوليد بن عبدالملك أخت عمرو ابن سعيد حين قتل عبدالملك أخاها ؟

قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، خرجت في اليوم الذي قتل فيه أخوها عمرو وهي حاسرة تنشد :

أيا عين جودي بالدموع على عمرو عشية يبتز الخلافة بالقهر
غدرتم بعمرو يا بني خيط باطل وكلكم يبني البيوت على غدر

وما كان عمرو عاجزا ، غير أنه أتته المنايا بغتة وهو لا يدري
كأن بني مروان اذ يقتلونه خشاش من الطير اجتمعن على صقر
لحى الله دنيا تعقب النار أهلها وتهتك ما بين القرابة من ستر
ألا يا لقومي للوفاء وللغدر وللمغلقين الباب قسرا على عمرو
فرحنا وراح الشامتون عشية كأن على أعناقهم فلق الصخر

قال ابن عياش : فقال المنصور : فما الأبيات التي بعث بها عمرو بن سعيد الى عبدالملك بن مروان ؟

قال : قلت نعم يا أمير المؤمنين كتب اليه :

يريد ابن مروان أمورا أظنها ستحمله مني على مركب صعب
لينقض عهدا كان مروان شده وأدرك فيه بالقطيعة والكذب
فقدمته قبلي ، وقد كنت قبله ولولا انقيادي كان كرب من الكرب
وكان الذي أعطيت مروان هفوة غلبت بها رأيا ، وخطبا من الخطب
فان تنفذوا الأمر الذي كان بيننا فقلنا جميعا بالسهولة والرحب
وان يعطها عبدالعزيز ظلامة فأولى بها منا ومنه بنو حرب

مولد المنصور

وكان مولد المنصور في السنة التي مات فيها الحجاج بن يوسف ، وهي سنة خمس وتسعين ، وكان يقول : ولدت في ذي الحجة ، وأعذرت في ذي الحجة ، ووليت الخلافة في ذي الحجة ، وأحسب أن المنية تكون في ذي الحجة . . . فكان كما ذكر .

وفاة المنصور

وحدث الفضل بن الربيع قال : كنت مع المنصور في السفر الذي مات فيه فنزل منزلا من المنازل ، فبعث الي وهو في قبة ووجهه الى الحائط ، فقال لي : ألم أنهك أن تدع العامة يدخلون هذه المنازل فيكتبوا فيها ما لا خير فيه ؟

قلت : وما هو يا أمير المؤمنين ؟

قال : أما ترى على الحائط مكتوبا :

أبا جعفر حانت وفاتك ، وانقضت سنوك ، وأمر الله لا بد نازل

أبا جعفر ، هل كاهن أو منجم   يرد قضاء الله ، أم أنت جاهل ؟

قال : قلت والله ما أرى على الحائط شيئا ، وانه لنقي أبيض .

قال : الله !

قلت : الله !

قال : انها والله اذن نفسي نعيت الى الرحيل ، بادر بي الى حرم ربي وأمنه هاربا من ذنوبي واسرافي على نفسي .

فرحلنا وقد ثقل ، حتى اذا بلغنا بئر ميمون ، قلت له : هذه بئر ميمون ، وقد دخلت الحرم .

قال : الحمدلله . فتوفي بها .

صفات المنصور

وكان المنصور من الحزم وصواب الرأي وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف ، وكان يعطي الجزيل والخطير ما كان اعطاؤه حزما ، ويمنع الحقير اليسير ما كان اعطاؤه تضييعا .

وكان كما قال زياد : لو أن عندي ألف بعير وعندي بعير أجرب لقمت عليه قيام من لا يملك غيره .

وخلف أبو جعفر ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار ، وكان مع هذا يضن بماله ، وينظر فيما لا ينظر فيه العوام ، ووافق صاحب مطبخه على أن له الرؤوس والأكارع والجلود ، وعليه الحطب والتوابل .

ومن كرمه أنه وصل عمومته وهم عشرة في يوم واحد بعشرة آلاف درهم ، وأسماؤهم : عبدالله بن علي ، وعبدالصمد بن علي ، واسماعيل بن علي ، وعيسى بن علي ، وداود بن علي ، وصالح بن علي ، وسليمان بن علي ، واسحاق بن علي ، ومحمد بن علي ، ويحيى بن علي .

وكان يعمل في بناء مدينة بغداد التي بناها وعرفت به في كل يوم خمسون ألف رجل .

أولاده

وكان له من الولد : المهدي وجعفر ، وأمهما أم موسى الحميرية ـ وتوفي جعفر في حياة أبيه المنصور ـ وسليمان وعيسى ويعقوب وجعفر الأصغر ، من كردية ، وصالح الملقب بالمسكين ؛ وبنت تسمى عالية .

***

قال المسعودي : وللمنصور أخبار حسان مع الربيع وعبدالله بن عياش وجعفر بن محمد وعمرو بن عبيد وغيرهم ، وله خطب ومواعظ وسير وسياسات في الملك ، قد أتينا على أكثرها في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وانما نذكر في هذا الكتاب لمعا تدلك على ما سبق في كتبنا ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر خلافة المهدي
محمّد بن عبد الله بن محمّد بن علي
ابن عبد الله بن العبّاس

موجز

ويكنى أبا عبد الله ، وأمه أم موسى بنت منصور بن عبد الله بن ذي سهم بن أبي سرح ، من ولد ذي رعين من ملوك حمير .

أخذ له البيعة بمكة الربيع مولاه يوم السبت لست خلون من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ، وأتاه بنعي أبيه وبيعته منارة مولاه ، فأقام يومين بعد ذلك ، ثم خطب الناس فنعى أباه ودعا الى بيعته وبويع بيعة العامة .

وكان مولده سنة سبع وعشرين ومائة ، وخرج من مدينة السلام في سنة تسع وستين ومائة يريد بلاد قرماسين من بلاد الدينور ، وقد وصف له طيب ماسبذان من بلاد السيروان وجرجان ، فعدل الى الموضع المعروف بأرزن والران ، فمات بقرية يقال لها ردين ليلة الخميس لسبع بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة .

فكانت خلافته عشر سنين وشهرا وخمسة عشر يوما ، وقبض وله ثلاث وأربعون سنة ، وصلى عليه هارون الرشيد ، وكان موسى الهادي غائبا بجرجان .

وقيل : انه مات مسموما في قطائف أكلها ، ولبست حسنة جاريته وغيرها من حشمه المسوح والسواد جزعا عليه ، فقال في ذلك أبو العتاهية :

رحن في الوشي وأصبحـ ... ـن عليهن المسوح
كل نطاح وان عا ... ش ، له يوما نطوح
لست بالباقي ولو عُمْـ ... ـمِرت ما عمر نوح
فعلى نفسك نُح ان ... كنت لا بد تنوح

ذكر جمل من أخباره وسيره
ولمع مما كان في أيامه

المهدي وشريك القاضي

ذكر الفضل بن الربيع قال : دخل شريك القاضي على المهدي يوما ، فقال له : لا بد أن تجيبني الى خصلة من ثلاث خصال .

قال : وما هن يا أمير المؤمنين ؟

قال : أن تلي القضاء ، أو تحدث ولدي وتعلمهم ، أو تأكل عندي أكلة .

ففكر ثم قال : الأكلة أخففهن على نفسي ، فاحتبسه وقدم الى الطباخ أن يصلح له ألوانا من المخ المعقود بالسكر الطبرزذ والعسل .

فلما فرغ من غدائه قال له القيم على المطبخ : يا أمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكلة أبدا .

قال الفضل بن الربيع : فحدثهم والله شريك بعد ذلك ، وعلم أولادهم ، وولى القضاء لهم ، ولقد كتب بأرزاقه الى الجهبذ فضايقه في النقص ، فقال له الجهبذ : انك لم تبع بزا .

قال له شريك : بلى والله لقد بعت أكبر من البز ، لقد بعت ديني .

المهدي وعمرو بن الربيع
يجوعان في طريقهما للصيد

وقال الفضل بن الربيع : خرج المهدي متنزها ومعه عمرو بن ربيع مولاه ، وكان شاعرا ، فانقطع عن العسكر ، والناس في الصيد ، وأصاب المهدي جوع شديد ، فقال لعمرو : ويحك ارتد لي انسانا نجد عنده ما نأكل .

فما زال عمرو يطوف الى أن وجد صاحب مبقلة والى جانبها كوخ له ، فصعد اليه فقال له : هل عندك شيء يؤكل ؟

قال : نعم ، رقاق من خبز شعير ورثيثة ، وهذا البقل والكراث .

فقال له المهدي : ان كان عندك زيت فقد أكملت .

قال : نعم ، عندي فضلة منه .

فقدم اليهما ذلك ، فأكلا أكلا كثيرا ، وأمعن المهدي حتى لم يبق فيه فضل ، فقال لعمرو : قل شعرا تصف به ما نحن فيه .

فقال عمرو :

ان من يطعم الرثيثة بالزيـ ت وخبز الشعير بالكراث

لحقيـق بصفعـة أو بثنتيـ ن لسـوء الصـنيع أو بثلاث

فقال المهدي : بئس والله ما قلت ، ولكن أحسن من ذلك :

لحقيق ببـدرة أو بثنتيـ ن لحسـن الصـنيع أو بثلاث

ووافى العسكر ، ولحقته الخزائن والخدم والموكب ، فأمر لصاحب المبقلة بثلاث بدر دراهم .

المهدي يجوع مرة اخرى
في طريقه للصيد

قال : وعار به فرسه مرة أخرى ، وقد خرج للصيد ، فدفع الى خباء أعرابي وهو جائع ، فقال : يا أعرابي هل عندك قرى فاني ضيفك ؟

قال : أراك طريرا جسيا عميا ، فان احتملت الموجود قربنا لك ما يحضرنا .

قال : هات ما عندك .

فأخرج له خبز ملة ، فأكلها ، وقال : طيبة ، هات ما عندك .

فأخرج اليه لبنا في كرش فسقاه ، فشرب ، وقال : طيب ، هات ما عندك .

فأخرج له فضلة نبيذ في ركوة ، فشرب الأعرابي واحدا وسقاه ، فلما شرب قال المهدي : أتدري من أنا ؟

قال : لا والله .

قال : أنا من خدم الخاصة .

قال : بارك الله في موضعك ، وحباك من كنت .

ثم شرب الأعرابي قدحا وسقاه ، فلما شرب قال له : يا أعرابي أتدري من أنا ؟

قال : نعم ذكرت أنك من خدم الخاصة .

قال : لست كذلك .

قال : فمن أنت ؟

قال : أنا أحد قواد المهدي .

قال : رحبتِ دارك ، وطاب مزارك .

ثم شرب الأعرابي قدحا وسقاه ، فلما شرب الثالث قال : يا أعرابي ، أتدري من أنا ؟

قال : نعم ، زعمت أنك أحد قواد المهدي .

قال : فلست كذلك .

قال : فمن أنت ؟

قال : أمير المؤمنين بنفسه .

فأخذ الأعرابي ركوته فوكاها ، فقال له المهدي : اسقنا .

قال : لا والله لا تشرب منها جرعة فما فوقها .

قال : ولم ؟

قال : سقيتك قدحا فزعمت أنك من خدم الخاصة ، فاحتملناها لك ، ثم سقيناك آخر فزعمت أنك أحد قواد المهدي ، فاحتملناها لك ، ثم سقيناك الثالث فزعمت أنك أمير المؤمنين ، ولا والله ما آمن أن أسقيك الرابع فتقول انك رسول الله .

فضحك المهدي ، وأحاطت به الخيل ، فنزل اليه أبناء الملوك والأشراف ، فطار قلب الأعرابي ، فلم يكن همه الا النجاة بنفسه ، وجعل يشتد في عدوه فقال له المهدي : لا بأس عليك .

وأمر له بصلة جزيلة من مال ، وكسوة وبزة وآلة .

فقال : أشهد أنك صادق ، ولو ادعيت الرابعة والخامسة لخرجت منها .

فضحك المهدي منه حتى كاد أن يقع عن فرسه حين ذكر الرابعة والخامسة ، وجعل له رزقا ، وألحقه بخواصه .

وزراء المهدي

وكان وزيره أبو عبيد الله معاوية بن عبد الله الأشعري ، وهو جد محمد بن عبد الوهاب الكاتب ، وكان كاتبه قبل الخلافة ، فقتل المهدي ابنا لأبي عبيد الله على الزندقة .

فاستوحش كل واحد منهما من صاحبه فعزله وعاش أبو عبيد الله الى سنة سبعين

ومائة .

ثم اختص المهدي يعقوب بن داود السلمي ، وخرج كتابه على الدواوين : ان أمير المؤمنين قد آخاه ، وكان يصل اليه في كل وقت دون الناس كلهم .

ثم اتهمه بشيء من أمر الطالبيين ، فهم بقتله ، ثم حبسه فبقي في حبسه الى أيام الرشيد ، فأطلقه الرشيد ، وقد قيل في أمره : انه كان يرى الامامة في الأكبر من ولد العباس ، وان غير المهدي من عمومته كان أحق بها منه .

خصال المهدي وأعماله

وكان المهدي محببا الى الخاص والعام ، لأنه افتتح أمره بالنظر في المظالم ، والكف عن القتل ، وأمن الخائف ، وانصاف المظلوم ، وبسط يده في الاعطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور ، وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار ، سوى ما جباه في أيامه .

فلما فرغت بيوت الأموال أتى أبو حارثة النهري خازن بيوت أمواله ، فرمى بالمفاتيح بين يديه ، وقال : ما معنى مفاتيح لبيوت فرغ ؟

ففرق المهدي عشرين خادما في جباية الأموال ، فوردت الأموال بعد أيام قلائل فتشاغل أبو حارثة النهري بقبضها وتصحيحها ، عن الدخول على المهدي ثلاثة أيام .

فلما دخل عليه قال : ما أخرك ؟

قال : الشغل بتصحيح الأموال .

فقال : أنت أعرابي أحمق ، كنت تظن أن الأموال لا تأتينا اذا احتجنا اليها .

قال أبو حارثة : ان الحادثة اذا حدثت لم تنتظرك حتى توجه في استخراج الأموال وحملها .

وقيل : انه فرق في عشرة أيام من صلب ماله عشرة آلاف ألف درهم ، فعند ذلك قام شبة بن عقال على رأسه خطيبا فقال : وللمهدي أشباه ، فمنها القمر الزاهر ، والربيع الباكر ، والأسد الخادر ، والبحر الزاخر ، فأما القمر الزاهر فأشبه منه حسنه وبهاه ، وأما الربيع الباكر فأشبه منه طيبه وهواه ، وأما الأسد الخادر فأشبه منه غرته ومضاه ، وأما البحر الزاخر فأشبه منه جوده وسخاه .

الخيزران أم الهادي والرشيد
وامرأة مروان بن محمد

وكانت الخيزران أم الهادي والرشيد في دارها المعروفة اليوم بأشناس ، وعندها أمهات أولاد الخلفاء وغيرهن من بنات بني هاشم ، وهي على بساط أرمني وهن على نمارق أرمنية ، وزينب بنت سليمان بن علي أعلاهن مرتبة .

فبينا هن كذلك اذ دخل خادم لها فقال : بالباب امرأة ذات حسن وجمال في أطمار رثة تأبى أن تخبر باسمها وشأنها غيركن ، وتروم الدخول عليكن .

وقد كان المهدي تقدم الى الخيزران بأن تلزم زينب بنت سليمان بن علي ، وقال لها : اقتبسي من آدابها ، وخذي من أخلاقها ، فانها عجوز لنا قد أدركت أوائلنا .

فقالت الخيزران للخادم : ائذن لها ، فدخلت امرأة ذات بهاء وجمال في أطمار رثة ، فتكلمت فأوضحت عن بيان على لسان ، فقالوا لها : من أنت ؟

قالت : أنا مزنة امرأة مروان بن محمد ، وقد أصارني الدهر الى ما ترين ، ووالله ما الأطمار الرثة التي علي الا عارية ، وانكم لما غلبتمونا على هذا الأمر وصار لكم دوننا لم نأمن مخالطة العامة على ما نحن فيه من الضرر على بادرة الينا تزيل موضع الشرف ، فقصدناكم لنكون في حجابكم على أية حالة كانت ، حتى تأتي دعوة من له الدعوة .

فاغرورقت عينا الخيزران ونظرت اليها زينب بنت سليمان بن علي ، فقالت لها : لا خفف الله عنك يا مزنة ، أتذكرين وقد دخلت عليك بحران وأنت على هذا البساط بعينه ، ونساء قرابتكم على هذه النمارق فكلمتك في جثة ابراهيم الامام ، فانتهرتني وأمرت باخراجي ، وقلت : ما للنساء والدخول على الرجال في آرائهم ؟ فوالله لقد كان مروان أرعى للحق منك ، لقد دخلت اليه فحلف أنه ما قتله ، وهو كاذب ، وخيرني بين أن يدفنه أو يدفع الي جثته فاخترت جثته ، وعرض علي مالاً فلم أقبله .

فقالت مزنة : والله ما نظن هذه الحالة أدتني الى ما ترينه الا بالفعال التي كانت مني ، وكأنك استحسنته فحرضت الخيزران على فعل مثله ، انما كان يجب أن تحضيها على فعل الخير وترك المقابلة بالشر ، لتحرز بذلك نعيمها ، وتصون بها دينها .

ثم قالت لزينب : يا بنت عم ، كيف رأيت صنيع الله بنا في العقوق فأحببت التأسي بنا ، ثم ولت باكية .

وكرهت الخيزران أن تخالف زينب فيها ، فغمزت الخيزران بعض جواريها ، فعدلت بها الى بعض المقاصير وأمرت بتغيير حالها والاحسان اليها .

فلما دخل المهدي عليها ـ وقد انصرفت زينب وكان من شأنه الاجتماع مع خواص حرمه في كل عشية ـ قصت عليه الخيزران قصتها ، وما أمرت به من تغيير حالها ، فدعا بالجارية التي ردتها ، فقال لها :لـم رددتها الى المقصورة ما الذي سمعتها تقول ؟

قالت : لحقتها في الممر الفلاني وهي تبكي في خروجها مؤتسية وهي تقرأ : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

ثم قال للخيزران : والله والله لو لم تفعلي بها ما فعلت ما كلمتك أبدا ، وبكى بكاء كثيرا .

وقال : اللهم اني أعوذ بك من زوال النعمة ، وأنكر فعل زينب ، وقال : لولا أنها أكبر نسائنا لحلفت ألا أكلمها .

ثم بعث اليها بعض الجواري الى مقصورتها التي أخليت لها ، وقال للجارية : اقرئي عليها السلام مني وقولي لها يا بنت عم ان أخواتك قد اجتمعن عندي ، ولولا أني أغمك لجئناك .

فلما سمعت الرسالة علمت مراد المهدي ، وقد حضرت زينب بنت سليمان ، فجاءت مزنة تسحب أذيالها ، فأمرها بالجلوس ، ورحب بها واستدناها ورفع منزلتها فوق منزلة زينب بنت سليمان بن علي ، ثم تفاوضوا أخبار أسلافهم ، وأيام الناس ، والدول وتنقلها ، فما تركت لأحد في المجلس كلاما .

فقال لها المهدي : يا بنت عم ، والله لولا أني لا أحب أن أجعل لقوم أنت منهم من أمرنا شيئا لتزوجتك ، ولكن لا شيء أصون لك من حجابي ، وكونك مع أخواتك في قصري : لك ما لهن ، وعليك ما عليهن ، الى أن يأتيك أمر من له الأمر فيما حكم به على الخلق .

ثم أقطعها مثل ما لهن من الاقطاع وأخدمها وأجازها ، فأقامت في قصره الى أن قبض المهدي وأيام الهادي وصدرا من أيام الرشيد ، وماتت في خلافته ، لا يفرق بينها وبين نساء بني هاشم وخواص حرائرهم وجواريهم ، فلما قبضت جزع الرشيد والحرم جزعا شديدا .

عبد الله بن عمرو بن عتبة
يعزي المهدي ويهنئه

وحدثنا الرياشي عن الأصمعي : دخل عبد الله بن عمرو بن عتبة على المهدي يعزيه بالمنصور ، فقال : آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك الله له فيما خلفه فيه ، ولا مصيبة أعظم من فقد امام والد ، ولا عقبى أجل من خلافة الله على أولياء الله ، فاقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، واحتسب عند الله أفضل الرزية .

عتبة الجارية وأبو العتاهية

ولما كثر تشبيب أبي العتاهية بعتبة جارية الخيزران شكت الى مولاتها ما يلحقها من الشناعة ، ودخل المهدي وهي تبكي بين يدي الخيزران ، فسألها عن خبرها ، فأخبرته ، فأمر باحضار أبي العتاهية ، فأدخل اليه ، فلما وقف بين يديه قال : أنت القائل في عتبة :

الله بيني وبين مولاتي   أبدت لي الصد والملامات

ومتى وصلتك حتى تشكو صدها عنك ؟

قال : يا أمير المؤمنين ما قلت ذلك بل أنا الذي أقول :

يا ناق حثي بنا ولا تهني   نفسك فيما ترين راحات
حتى تجيئي بنا الى ملك   توجه الله بالمهابات
يقول للريح كلما عصفت :   هل لك يا ريح في مباراتي
عليه تاجان فوق مفرقه   تاج جمال وتاج اخبات

قال : فنكس المهدي رأسه ، ونكت بالقضيب الذي كان في يده ، ثم رفع رأسه فقال : أنت القائل :

ألا ما لسيدتي ما لها   أدلت فأحمل ادلالها ؟
ألا ما لسيدتي ما لها   أدلت فأحمل ادلالها ؟
وجارية من جواري الملو   ك قدأسكن الحسن سربالها

قال : وما علمك بما حواه سربالها ؟
فأجابه معارضا له فيه :

أتته الخلافة منقادة   اليه تجرر أذيالها

فلم تك تصلح الا له ولم يك يصلح الا لها

ثم سأله عن أشياء ، فأفحم أبو العتاهية في الجواب ، فأمر المهدي بجلده نحوا من حد ، وأخرج مجلودا ، فلقيته عتبة وهو على تلك الحال فقال :

بخ بخ يا عتب من أجلكم قد قتل المهدي فيكم قتيلا

فتغرغرت عيناها ، وفاض دمعها ، وصادفت المهدي عند الخيزران ، فقال : ما لعتبة تبكي ؟

قالوا له : رأت أبا العتاهية مجلودا ، وقال لها كيت وكيت .

فأمر له بخمسين ألف درهم ، ففرقها أبو العتاهية على من كان بالباب ، فكتب صاحب الخبر بذلك ، فوجه اليه : ما حملك على أن أكرمتك بكرامة فقسمتها ؟

قال : ما كنت لآكل ثمن من أحببت ، فوجه اليه بخمسين ألفا أخرى ، وحلف عليه ألا يفرقها ، فأخذها وانصرف .

من أبي العتاهية الى المهدي

قال المبرد : أهدى أبو العتاهية الى المهدي في يوم نوروز (أو مهرجان) برنية صينية فيها ثوب ممسك فيه سطران مكتوبان عليه بالغالية :

نفسي بشيء من الدنيا معلقة الله والقائم المهدي يكفيها
اني لأيأس منها ثم يطمعني فيها احتقارك للدنيا وما فيها

فهم أن يدفع اليه عتبة ، فقالت له : يا أمير المؤمنين ، مع حرمتي وحقي وخدمتي تدفعني الى بائع جرار يكتسب بالشعر ؟

فبعث اليه : أما عتبة فلا سبيل لك اليها ، وقد أمرنا لك بملء البرية مالا .

فخرجت عتبة وهو يناظر الكتاب ويقول : انما أمر لي بدنانير ، وهم يقولون : بدراهم ! فقالت : أما لو كنت عاشقا لعتبة لشغلت عن العين والورق .

من ظرف أبي العتاهية

وكان أبو العتاهية وهو اسماعيل بن القاسم بائع جرار ، وكان من أسهل الناس لفظا ، وأقدرهم على وزن الكلام ، وكان حلو الألفاظ ، حتى انه يتكلم بالشعر في جميع حالاته ، ويخاطب به جميع أصناف الناس قد جعله شعرا ونثارا .

واجتمع أبو نواس وجماعة ، فدعا أحدهم بماء فشرب ثم قال :

* عذب الماء وطابا *

ثم قال أجيزوا ، فترددوا فلم يحضر أحدا ما يجانسه في سهولته وقرب مأخذه حتى جاء أبو العتاهية فقال : فيم أنتم ؟ فأعلموه وأنشدوه القسم ، فقال :

* حبذا الماء شرابا *

ومن مختار شعره في عتبة :

بالله يا حلوة العينين زوريني	قبل الممات ، والا فاستزيريني
هذان أمران فاختاري أحبهما	اليك ، أولا فداعي الموت يدعوني
ان شئت موتا فأنت الدهر مالكة	روحي ، وان شئت أن أحيا فأحييني
يا عتب ما أنت الا بدعة خلقت	من غير طين ، وخلق الناس من طين
اني لأعجب من حب يقربني	ممن يباعدني عنه ويقصيني
لو كان ينصفني مما كلفت به	اذن رضيت وكان النصف يرضيني
يا أهل ودي اني قد لطفت بكم	في الحب جهدي ولكن لا تبالوني
الحمد لله قد كنا نظنكم	من أرحم الناس طرا بالمساكين
أما الكثير فلا أرجوه منك ، ولو	أطمعتني في قليل كان يكفيني

ومن مختار شعره فيها قوله :

ألا يا عتب يا قمر الرصافة	ويا ذات الملاحة والنظافة
رزقت مودتي ، ورزقت عطفي ،	ولم أرزق فديتك منك رافه
وصرت من الهوى دنفا سقيما	صريعا كالصريع من السلافه
أظل اذا رأيتك مستكينا	كأنك قد بعثت على آفه

ومما اخترناه من شعره واستحسنه ذوو الحجا قوله :

ما أغفل الناس عن بلائي ... وعن عنائي وعن شقائي
يلومني الناس في حبيب ... والناس لا يعرفون دائي
يا لهف نفسي على خليل ... أصبح في كفه شفائي
صيرني حبه غريبا ... في غير أرض ، ولا سماء
قد بلغ الجد بي مداه ... فما اصطباري ؟ وما عزائي ؟
أنت بلائي ، وأنت دائي ... وأنت تدرين ما دوائي
والله ما تذكرين الا ... فاضت دموعي على ردائي
تبارك الله ، ما دعاكم ... يا أهل ودي الى جفائي ؟
فأنتم الهم في صباحي ... وانتم الهم في مسائي
اني على ما لقيت منكم ... لمعجب منكم بدائي
شتان ما بينكم وبيني ... في نصح حبي ، وفي وفائي
منحتكم صبوتي وودي ... فكان ذا منكم جزائي

وحدث المبرد محمد بن يزيد أن ريطة ابنة أبي العباس السفاح وجهت الى عبد الله بن مالك الخزاعي في شراء رقيق للعتق ، وأمرت جاريتها عتبة ـ وكانت لها ثم صارت الى الخيزران بعدها ـ أن تحضر ذلك ، فانها لجالسة اذ جاء أبو العتاهية في زي متنسك فقال : جعلني الله فداك ! أنا شيخ ضعيف كبير لا يقوى على الخدمة ، فان رأيت أعزك الله أن تأمري بشرائي وعتقي فعلت مأجورة .

فأقبلت على عبد الله ، فقالت : اني لأرى هيئة جميلة ، وضعفا ظاهرا ، ولسانا فصيحا ورجلا بليغا ، فاشتره وأعتقه .

فقال : نعم .

فقال أبو العتاهية : أتأذنين لي أصلحك الله في تقبيل يدك شكرا لك على جميل فعلك وما أوليتني . فأذنت له ، فقبل يدها وانصرف .

فضحك عبد الله بن مالك ، وقال : أتدرين من هذا ؟

قالت : لا .

قال : هذا أبو العتاهية ، وانما احتال عليك حتى قبل يدك .

فسترت وجهها خجلا ، وقالت : سوءة لك يا أبا العباس ، أمثلك يعبث ؟ انما اغتررنا بكلامك ، وقامت فلم تعد اليه .

ولأبي العتاهية أشعار حسان سنذكرها في أخبار من يرد من الخلفاء .

وسنذكر لمعا من أخباره وما استحسنا من أشعاره وذكر وفاته ولو لم يكن لأبي العتاهية سوى هذه الأبيات التي أبان فيها عن صدق الاخاء ومحض الوفاء لكان مبرزًا على غيره ، ممن كان في عصره وهي :

ان أخاك الصدق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن اذا ريب الزمان صدعك شتت شمل نفسه كي يجمعك

وهذه الصفة في عصرنا معدومة ، ومستحيل وجودها ، ومتعذر كونها ومتعسر رؤيتها .

محمد المهدي والشرقي بن القطامي

وروى ابن عياش وابن دأب أن المنصور كان قد ضم الشرقي بن القطامي الى المهدي ، حين خلفه بالري ، وأمره أن يأخذه بحفظ أيام العرب ، ومكارم الأخلاق ، ودراسة الأخبار ، وقراءة الأشعار ، فقال له المهدي ذات ليلة : يا شرقي أرح قلبي بشيء يلهيه .

قال : نعم أصلح الله الأمير ، ذكروا أنه كان في ملوك الحيرة ملك له نديمان قد نزلا من قلبه منزلة مكينة ، وكانا لا يفارقانه في لهوه وأنسه ومنامه ويقظته ، ومقامه وظعنه ، وكان لا يقطع أمرا دونهما ، ولا يصدر الا عن رأيهما ، فغبر بذلك دهرا طويلا .

فبينا هو ذات ليلة في شربه ولهوه اذ غلب عليه الشراب فأزال عقله ، فدعا بسيفه وانتضاه ، وشد عليهما فقتلهما ، وغلبته عيناه فنام .

فلما أصبح سأل عنهما فأخبر بما كان منه ، فأكب على الأرض عاضا لها تأسفا عليهما وجزعا لفراقهما ، وامتنع من الطعام والشراب ، ثم حلف لا يشرب شرابا يزعج قلبه ما عاش ، وواراهما ، وبنى على قبريهما قبة ، وسماهما الغريين ، وسن ألا يمر بهما أحد من الملك فمن دونه الا سجد لهما .

وكان اذا سن الملك منهم سنة توارثوها ، وأحيوا ذكرها ولم يميتوها ، [illegible]ها عليهم حكما واجبا ، وفرضا لازما ، وأوصى بها الآباء أعقابهم ، فغبر الناس ب[illegible]ويلا ،

لا يمر بقبريهما أحد من صغير ولا كبير الا سجد لهما ، فصار ذلك سنة لازمة وأمرا كالشريعة والفريضة .

وحكم فيمن أبى أن يسجد لهما بالقتل بعد أن يحكم له بخصلتين يجاب اليهما كائنا ما كانتا .

قال : فمر يوما قصار معه كارة ثياب وفيها مدقته ، فقال الموكلون بالغريين للقصار : اسجد ، فأبى أن يفعل ، فقالوا له : انك مقتول ان لم تفعل ، فأبى ، فرفعوه الى الملك ، وأخبروه بقصته ، فقال : ما منعك أن تسجد ؟

قال : سجدت ولكن كذبوا علي .

قال : الباطل قلت ، فاحتكم في خصلتين فانك مجاب اليهما ، واني قاتلك بعد .

قال : لا بد من قتلي بقول هؤلاء علي ؟

قال : لا بد من ذلك .

قال : أحتكم أن أضرب رقبة الملك بمدقتي هذه .

قال له الملك : يا جاهل ، لو حكمت علي أن أجري على من تخلف وراءك ما يغنيهم كان أصلح لهم .

قال : ما أحكم الا بضربة لرقبة الملك .

فقال الملك لوزرائه : ما ترون فيما حكم به هذا الجاهل ؟

قالوا : نرى أن هذه سنة أنت سننتها وأنت أعلم بما في نقض السنن من العار والنار وعظم الاثم ، وأيضا انك متى نقضت سنة نقضت أخرى ، ثم يكون ذلك لمن بعدك كما كان لك ، فتبطل السنن .

قال : فارغبوا الى القصار أن يحكم بما شاء ، ويعفيني من هذه ، فاني أجيبه الى ما شاء الله ولو بلغ حكمه شطر ملكي ، فرغبوا اليه ، فقال : ما أحكم الا بضربة في عنق الملك..

قال : فلما رأى الملك ذلك وما عزم عليه القصار قعد له مقعدا عاما وأحضر القصار ، فأبدى مدقته وضرب بها عنق الملك فأوهنه وخر مغشيا عليه ، فأقاه وقيذا ستة أشهر ، وبلغت به العلة الى أن كان يسقي الماء بالقطر ، فلما أفاق وتكلم وأكل وشرب واستقل سأل عن

القصار ، فقيل : انه محبوس ، فأمر باحضاره ، فحضر ، فقال : لقد بقيت لك خصلة فاحكم بها ، فإني قاتلك لا محالة اقامة للسنة .

قال القصار : فاذا كان لا بد من قتلي فاني أحكم أن أضرب الجانب الآخر من رقبة الملك مرة أخرى .

فلما سمع ذلك خر على وجهه من الجزع ، وقال : ذهبت نفسي والله اذن .

ثم قال للقصار : ويلك ! دع عنك ما لا ينفعك فانه لم ينفعك منه ما مضى ، واحكم بغيره وأنفذه لك كائنا ما كان .

قال : ما أرى حقي إلا في ضربة أخرى .

فقال الملك لوزرائه : ما ترون ؟

قالوا : تموت على السنة أصلح لك .

قال : ويلكم ! ان ضرب الجانب الآخر ما شربت الماء البارد أبدا لأني أعلم ما قد نالني .

قالوا : فما عندنا حيلة ، فلما رأى ما قد أشرف عليه قال للقصار : أخبرني ، ألم أكن قد سمعتك تقول يوم أتى بك الموكلون بالغريين انك قد سجدت وانهم كذبوا عليك .

قال : قد كنت قلت ذلك فلم أصدق .

قال : فكنت سجدت ؟

قال : نعم .

فوثب الملك من مجلسه وقبل رأسه ، وقال : أشهد أنك صادق ، وأنهم كذبوا عليك ، وقد وليتك موضعهم ، وجعلت اليك بأسهم وأمرهم في تأديبهم .

فضحك المهدي حتى فحص برجليه ، وقال : أحسنت ، ووصله .

المهدي ومروان بن أبي حفصة

قال الهيثم بن عدي : كنت في مجلس المهدي ، فأتاه الحاجب فقال : ابن أبي حفصة بالباب .

فقال : لا تأذن له فانه منافق كذاب . فكلمه الحسن بن قحطبة فيه ، فأدخله .

فقال له المهدي : يا فاسق ، ألست القائل في معن :

جبـل تلـوذ به نزار كلها　　　صعب الذرى متمنع الأركان

قال : بل أنا الذي أقول فيك يا أمير المؤمنين :

يا ابـن الـذي ورث النبـي محمدا　　　دون الأقـارب من ذوي الأرحام

وأنشده الأبيات كلها ، فرضي عنه وأجازه .

بين المهدي وسفيان الثوري

وقال القعقاع بن حكيم : كنت عند المهدي ، وأتى سفيان الثوري فلما دخل عليه سلم تسليم العامة ، ولم يسلم تسليم الخلافة ، والربيع قائم على رأسه متكىء على سيفه يرقب أمره .

فأقبل المهدي بوجه طلق وقال له : يا سفيان ، تفر منا ههنا وههنا وتظن أنا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك ، فقد قدرنا عليك الآن ، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا ؟

قال سفيان : إن تحكم فيّ يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل .

فقال له الربيع : يا أمير المؤمنين ، ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا ؟ ائذن لي أن أضرب عنقه .

فقال له : اسكت ويلك ، ما يريد هذا وأمثاله الا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهـم ، اكتبوا بعهده على قضاء الكوفة ، على ألا يعترض عليه في حكم ، فكتب عهده ودفعه اليه ، فأخذه وخرج ورمى به في الدجلة وهرب ، فطلب في كل بلد ، فلم يوجد .

رؤيا المهدي قبيل وفاته

وقال علي بن يقطين : كنا مع المهدي بمـاسبذان ، فقال لي يوما : أصبحت جائعـا فأتني بأرغفة ولحم بارد ، ففعلت ، فأكل ثم دخل البهو ونام .

وكنا نحن في الرواق ، فانتبهنا لبكائه ، فبادرنا اليه مسرعين ، فقال : أما رأيتم ما رأيت ؟

قلنا : ما رأينا شيئا .

قال : وقف على رجل لو كان في ألف رجل ما خفى علي صوته ولا صورته فقال :

كأني بهذا القصر قد باد أهله وأوحش منه ربعه ومنازله
وصار عميد القوم من بعد بهجة وملك الى قبر عليه جنادله
فلم يبق الا ذكره وحديثه تنادي عليه معولات حلائله

قال علي : فما أتت على المهدي بعد رؤياه الا عشرة أيام حتى توفي .

وفاة زفر بن الهذيل
وجماعة من العلماء

قال المسعودي : وكانت وفاة زفر بن الهذيل الفقيه صاحب أبي حنيفة النعمان بن ثابت سنة ثمان وخمسين ومائة ، وفيها كانت بيعة المهدي كما قدمناه .

ومات سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري بالبصرة ، وكان من تميم ، وهو ابن ثلاث وستين سنة ، ويكنى أبا عبد الله ، في أيام المهدي ، وذلك في سنة احدى وستين ومائة .

ومات ابن أبي ذئب ، وهو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة ، ويكنى أبا الحارث ، بالكوفة سنة تسع وخمسين ومائة ، وذلك في أيام المهدي .

وفي سنة ستين ومائة مات شعبة بن الحجاج ، ويكنى أبا بسطام ، وهو مولى لبني شقرة من الأزد .

وفيها توفي عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي .

وفي سنة ستين ومائة مات حماد بن سلمة في أيام المهدي .

قال المسعودي : وللمهدي أخبار حسان ، ولما كان في أيامه من الكوائن والحروب وغيرها ، قد أتينا على مبسوطه في الكتاب الأوسط ، وكذلك من مات في سلطانه من الفقهاء وأصحاب الحديث وغيرهم ، وبالله التوفيق .

ذِكر خِلافَة مُوسَى الهَادِي ابن المهْدي

موجز

وبويع موسى بن محمد الهادي يوم الخميس لسبع بقين من المحرم ، وهو ابن أربع وعشرين سنة وثلاثة أشهر ، صبيحة الليلة التي كانت فيها وفاة والده المهدي ، وذلك في سنة تسع وستين ومائة .

وتوفي بعيساباذ نحو مدينة السلام سنة سبعين ومائة ، لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول من هذه السنة ، وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر ، وكان يكنى أبا جعفر .

وأمه الخيزران بنت عطاء ، أم ولد حرشية ، وهي أم الرشيد ، وأتته البيعة وهو ببلاد طبرستان وجرجان في حرب كانت هناك ، فركب البريد وقد أخذ له أخوه هارون البيعة ، وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

لما أتت خير بني هاشم خلافة اللّه بجرجان
شمر للحرب سرابيله برأي لا غمر ولا وان

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه

أوصاف الهادي

كان موسى قاسي القلب ، شرس الأخلاق ، صعب المرام ، كثير الأدب ، محبا له ، وكان شديدا ، شجاعا بطلا جوادا ، سخيا .

مثل من شجاعته

حدث يوسف بن ابراهيم الكاتب وكان صاحب ابراهيم بن المهدي ، عن ابراهيم ، أنه كان واقفا بين يديه وهو على حمار له ببستانه المعروف به ببغداد اذ قيل له : قد ظفر برجل من الخوارج ، فأمر بادخاله .

فلما قرب منه الخارجي أخذ سيفا من بعض الحرس ، فأقبل يريد موسى ، فتنحيت وكل من معي عنه ، وأنه لواقف على حماره ما يتحلحل .

فلما أن قرب منه الخارجي صاح موسى : اضربا عنقه ، وليس وراءه أحد ، فأوهمه .

فالتفت الخارجي لينظر ، وجمع موسى نفسه ثم ظهر عليه فصرعه ، فأخذ السيف من يده ، فضرب عنقه .

قال : فكان خوفنا منه أكثر من الخارجي ، فوالله ما أنكر علينا تنحينا ، ولا عذلنا على ذلك ، ولم يركب حمارا بعد ذلك اليوم ، ولا فارقه سيفه .

بين الهادي وعيسى بن دأب

وكان عيسى بن دأب يجالسه ، وكان من أهل الحجاز ، وكان أكثر أهل عصره أدبا وعلما ومعرفة بأخبار الناس وأيامهم ، وكان الهادي يدعو له متكأ ، ولم يكن غيره يطمع منه في ذلك .

وكان يقول له : يا عيسى ، ما استطلت بك يوما ولا ليلة ، ولا غبت عني الا ظننت أني لا أرى غيرك .

جريمة غلام سندي

وذكر عيسى بن دأب أنه رفع الى الهادي أن رجلا من بلاد المنصورة ـ من بلاد السند من أشرافهم وأهل الرياسة فيهم من آل المهلب بـن أبي صفرة ـ ربى غلاما سنديا أو هنديا ، وأن الغلام هوى مولاته ، فراودهـا عن نفسها ، فأجابته .

فدخل مولاه فوجدها معه ، فجب ذكر الغلام وخصاه ، ثم عالجه الى أن برىء فأقام مدة .

وكان لمولاه ابنان أحدهما طفل والآخر يافع ، فغاب الرجـل عن منزلـه وقـد أخـذ السندي الصبيين فصعد بهما الى أعالي سور الدار الى أن دخل مولاه فرفع رأسه فاذا هو بابنيه مع الغلام على السور ، فقال : يا فلان ، عرضت ابني للهلاك .

فقال : دع ذا عنك ، والله لو لم تجب نفسك بحضرتي لأرمين بهما .

فقال له : الله الله فيّ وفي ابني .

قال : دع عنك هذا ، فوالله ما هي الا نفسي ، وإني لأسمح بها من شربة ماء .

وأهوى ليرمي بهما ، فأسرع مولاه فأخذ مدية فجب نفسه .

فلما رأى الغلام أنه فعل رمى بالصبيين فتقطعا ، وقال : ذاك الذي فعلـت لفعلك بي ، وقتل هذين زيادة .

فأمر الهادي بالكتاب الى صاحب السند بقتـل الغـلام وتعذيبـه فأفظـع ما يمـكن من العذاب ، وأمر باخراج كل سندي في مملكته ، فرخص السند في أيامه حتى كانوا يتداولون بالثمن اليسير .

وزراء المهدي

وكان الهادي قد استوزر الربيع ، وضم اليه ما كان لعمر بن بزيع من الزمام ، ثم انه ولى عمر بن بزيع الوزارة وديوان الرسائل ، وأفرد الربيع بالزمام ، فمات الربيع في هذه السنة .

وقيل : إن الهادي سقاه شربة لأجل جارية كان قد وهبها له المهدي كانت قبل ذلك للربيع ، وقيل غير ذلك .

ظهور الحسين بن علي بن الحسن

وظهر في أيامه الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وهو المقتول بفخ ، وذلك على ستة أميال من مكة ، يوم التروية .

وكان على الجيش الذي حاربه جماعة من بني هاشم : منهم سليمان بن أبي جعفر ، ومحمد بن سليمان بن علي ، وموسى بن عيسى ، والعباس بن محمد بن علي ، في أربعة آلاف فارس ، فقتل الحسين وأكثر من كان معه ، وأقاموا ثلاثة أيام لم يواروا حتى أكلتهم السباع والطير .

وكان معه سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ، فأسر في هذا اليوم وضربت رقبته بمكة صبرا .

وقتل معه عبد الله بن اسحاق بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي ، وأسر الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وضرب عنقه صبرا .

وأخذ لعبد الله بن الحسن بن علي وللحسين بن علي الأمان ، فحبسا عند جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ، وقتلا بعد ذلك .

فسخط الهادي على موسى بن عيسى لقتل الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن وترك المصير به اليه ليحكم فيه بما يرى ، وقبض أموال موسى ، وأظهر الذين أتوا بالرأس الاستبشار ، فبكى الهادي وزجرهم ، وقال : أتيتموني مستبشرين كأنكم أتيتموني برأس رجل من الترك أو الديلم ، انه رجل من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا إن أقل جزائكم عندي ألا أثيبكم شيئا .

من مراثي الحسين بن علي صاحب فخ

وفي الحسين بن علي صاحب فخ ، يقول بعض شعراء ذلك العصر من أبيات :

فلأبكين على الحسيـ ـن بعولة وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة الذي أثووه ليس له كفن

تـركـوا بفـخ غـدوة في غـير منزلـة الوطن
كـانـوا كـرامـا قتلـوا لا طائشـين ولا جبن
غســلـوا المذلـة عنهم غسـل الثياب من الدرن
هـدى العبـاد بجدهـم فلهـم على النـاس المنن

طاعة الهادي لأمه الخيزران

وكان الهادي كثير الطاعة لأمه الخيزران ، مجيبا لها فيا تسأل من الحوائـج للنـاس ، فكانت المواكب لا تخلو من بابها ، ففي ذلك يقول أبو المعافى :

يا خيزران هنـاك ثم هناك إن العبـاد يسوسهـم ابناك

فكلمته ذات يوم في أمر ، فلم يجد الى اجابتهـا فيه سبيلا ، فاعتـل عليهـا بعلّـة ، فقالت : لا بد من اجابتي .

قال : لا أفعل .

قالت : فاني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بـن مالك .

فغضب الهادي ، وقال : ويل لابن الفاعلة ، قد علمت أنـه صاحبهـا ، واللـه لا قضيتها لك .

قالت : إذن والله لا أسألك حاجة أبدا .

قال : اذن واللـه لا أبالي . وحمـي ، وقامـت وهـي مغضبـة ، فقـال : مكانـك ، فاستوعبي كلامي ، والله ، والا نفيت من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي ، أو من خاصتي ، أو من خدمي ، لأضربن عنقه ، و لأقبضن ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك ، ما هذه المواكب التي تغدو الى بابك كل يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك ؟ اياك ثم اياك أن تفتحي فاك في حاجة لمسلم ولا ذمي .

فانصرفت وما تعقل ما تطأ ، فلم تنطق عنده بحلو ولا مر بعدها .

اخذ العباسيون ثأر بني هاشم من بني مروان

وذكر ابن دأب قال : دعاني الهادي في وقت من الليل ، لم تجر العادة أنه يدعوني في مثله ، فدخلت اليه ، فاذا هو جالس في بيت صغير شتوي ، وقدامه جزء صغير ينظر فيه ،

فقال لي : يا عيسى .

قلت : لبيك يا أمير المؤمنين .

قال : إني أرقت في هذه الليلة ، وتداعت الي الخواطر واشتملت علي الهموم ، وهاج لي ما جرت اليه بنو أمية من بني حرب وبني مروان في سفك دمائنا .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذا عبد الله بن علي قد قتل منهم على نهر أبي فطرس فلانا وفلانا حتى أتيت على تسمية أكثر من قتل منهم ، وهذا عبد الصمد بن علي قد قتل منهم بالحجاز في وقت واحد نحوما قتل عبد الله بن علي ، وهو القائل بعد سفكه دماءهم :

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها أخذي بثأري من بني مروان
ومن آل حرب ، ليت شيخي شاهد سفكي دماء بني أبي سفيان

قال ابن دأب : فسر والله الهادي ، وظهرت منه أريحية ، فقال : يا عيسى ، داود بن علي هو القائل ذلك والقاتل لمن ذكرت بالحجاز ، ولقد أذكرتنيهما ، حتى كأني ما سمعتهما .

قلت : يا أمير المؤمنين ، وقد قيل : انهما لعبد الله بن علي ، قالهما على نهر أبي فطرس .

قال : قد قيل ذلك .

بعض فضائل مصر وبعض اخبارها وبعض عيوبها

قال ابن دأب : ثم تغلغل بنا الكلام والحديث الى أخبار مصر وعيوبها ، وفضائلها وأخبار نيلها ، فقال لي الهادي : فضائلها أكثر .

قلت : يا أمير المؤمنين هذه دعوى المصريين لها بغير برهان أوردوه ، والبينة على الدعوى ، وأهل العراق يأبون هذه الدعوى ، ويذكرون أن عيوبها أكثر من فضائلها .

قال : مثل ماذا ؟

قلت : يا أمير المؤمنين من عيوبها أنها لا تمطر ، واذا أمطرت كرهوا ذلك ، وابتهلوا الى الله بالدعاء ، وقد قال الله عز وجل : « وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته » ، فهذه رحمة مجللة لهذا الخلق وهم لها كارهون ، وهي لهم ضارة غير موافقة لا يزكو عليها زرعهم ولا تخصب عليها أرضهم .

ومن عيوبها الريح الجنوبية التي يسمونها المريسية ، وذلك أن أهل مصر يسمون أعالي

الصعيد الى بلاد النوبة مريس ، فاذا هبت الريح المريسية ـ وهي الجنوبية ـ ثلاثة عشر يوما تباعا اشترى أهل مصر الأكفان والحنوط وأيقنوا بالوباء القاتل ، والبلاء الشامل .

ثم من عيوبها اختلاف هوائها ، لأنهم في يوم واحد يغيرون ملابسهم مرارا كثيرة ، فيلبسون القمص مرة ، والمبطنات أخرى ، والحشو مرة ، وذلك لاختلاف جواهر الساعات بها ، ولتباين مهاب الهواء فيها في سائر فصول السنة من الليل والنهار ، وهي تمير ولا تمتار ، فاذا أجدبوا هلكوا .

وأما نيلها فكفاك الذي هو عليه من الخلاف لجميع الأنهار ، من الصغار والكبار ، وليس بالفرات ولا الدجلة ولا نهر بلخ ولا سيحان ولا جيحان شيء من التماسيح ، وهي في نيل مصر ضارة بلا منفعة ومفسدة غير مصلحة ، وفي ذلك يقول الشاعر :

أظهـرت للنيل هجرانـا ومقلية ... اذ قيل لي انمـا التمسـاح في النيل

فمـن رأى النيل رأي العـين من كثب ... فما أرى النيل الا في النواقيل

قال : ويحك ! ما النواقيل التي ترى النيل فيها ؟

قلت : القلال والكيزان يسمونها بهذا الاسم .

قال : وما مراد الشاعر فيما وصف ؟

قال : لأنه لا يتمتع بالماء الا في الآنية ، لخوف مباشرة الماء في النيل من التمساح ، لأنه يختطف الناس وسائر الحيوان .

قال : إن هذا النهر قد منع هذا النوع من الحيوان مصالح الناس منه ، وقد كنت متشوقا الى النظر اليها فلقد زهدتني عنها بوصفك لها .

مدينة دنقلة

قال ابن دأب : ثم سألني الهادي عن مدينة دنقلة ، وهي دار مملكة النوبة ، كم المسافة بينها وبين أسوان ؟

قلت : قد قيل أربعون يوما على شاطىء النيل عمائر متصلة .

بين البصرة والكوفة

قال ابن دأب : ثم قال لي الهادي : أيها يا ابن دأب ، دع عنك ذكر المغرب وأخباره ، وهلم بنا الى ذكر فضائل البصرة والكوفة وما زادت به كل واحدة منهما على الأخرى .

قال : قلت : ذكر عن عبد الملك بن عمير أنه قال : قدم علينا الأحنف بن قيس الكوفة مع مصعب بن الزبير ، فما رأيت شيخا قبيحا الا ورأيت في وجه الأحنف منه شبها ،

كان صعل الرأس ، أجخى العين ، أعصف الأذن ، باخق العين ، ناتىء الوجه ، مائل الشدق ، متراكب الأسنان ، خفيف العارضين ، أحنف الرجل ، ولكنه كان اذ تكلم جلى عن نفسه ، فجعل يفاخرنا ذات يوم بالبصرة ونفاخره بالكوفة .

فقلنا : الكوفة أغذى وأمرأ وأفسح وأطيب .

فقال له رجل : والله ما أشبه الكوفة الا بشابة صبيحة الوجه كريمة الحسب ولا مال لها ، فاذا ذكرت ذكرت حاجتها ، فكف عنها طالبها ، وما أشبه البصرة الا بعجوز ذات عوارض موسرة ، فاذا ذكرت ذكر يسارها ، وذكرت عوارضها ، فكف عنها طالبها .

فقال الأحنف : أما البصرة فان أسفلها قصب ، وأوسطها خشب ، وأعلاها رطب ، نحن أكثر ساجا وعاجا وديباجا ، ونحن أكثر قندا ونقدا ، والله ما آتي البصرة الا طائعا ، ولا أخرج منها الا كارها .

قال : فقام اليه شاب من بكر بن وائل ، فقال : يا أبا بحر ، بم بلغت في الناس ما بلغت ؟ فوالله ما أنت بأجملهم ، ولا بأشرفهم ، ولا بأشجعهم .

قال : يا ابن أخي ، بخلاف ما أنت فيه .

قال : وما ذاك ؟

قال : بتركي ما لا يعنيني كما عناك من أمري ما لا ينبغي أن يعنيك .

***

قال المسعودي ؛ ولابن دأب مع الهادي أخبار حسان يطول ذكرها ، ويتسع علينا شرحها ، ولا يتأتى لنا ايراد ذلك في هذا الكتاب ، لاشتراطنا فيه على أنفسنا الاختصار والايجاز بحذف الأسانيد وترك اعادة الألفاظ .

ولأهل البصرة وأهل الكوفة ومن شرب من دجلة مناظرات كثيرة في مياههم ومنافعها ومضارها . منها ما عاب به أهل الكوفة أهل البصرة ، فقالوا : ماؤكم كدر زهك زفر .

فقال لهم أهل البصرة : من أين يأتي ماؤنا الكدر وماء البحر صاف وماء البطيحة صاف ، وهما يمتزجان وسط بلادنا ؟

قال الكوفيون : من طبائع الماء العذب الصافي اذا خالط ماء البحر صارا جميعا الى الكدورة ، وقد يروق الانسان ماء أربعين ليلة ، فان جعل منه شيئا في قارورة أزبد وتكدر .

وقد افتخر أهل الكوفة بمائهم ـ الذي هو الفرات ـ على ماء دجلة ـ وهو ماء البصرة ـ فقالوا : ماؤنا أعذب المياه وأغذاها ، وهو أصح للأجسام من ماء دجلة والفرات خير من النيل ، فأما دجلة فان ماءها يقطع شهوة الرجال ، ويذهب بصهيل الخيل ، ولا يذهب بصهيلها الا مع ذهاب نشاطها ، ونقصان قواها ، وإن لم يتدسم النازلون عليها أصابهم

قحول في عظامهم ويبس في جلودهم .

وسائر من نزل من العرب على دجلة لا يكادون يسقون خيلهم منها ويسقونها من الآبار والركاء ، لاختلاط مياهها واختلاف أنواعها اذ ليست بماء واحد لمصب الأنهار اليها كالزابين وغيرهما ، وسبيل المشروب غير المأكول ، لأن اختلاف المآكل غير ضار ، واختلاف الأشربة كالخمر والنبيذ وغيره من الأنبذة اذا شربه الانسان كان ضارا .

واذا كان فضيلة مائنا على دجلة فما ظنك بفضيلته على ماء البصرة ، وهو مختلط بماء البحر ، ومن الماء المستنقع في أصول القصب الهروي ، وقد قال الله تعالى : « هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج » .

والفرات أعذب المياه عذوبة ، وانما اشتق الفرات لكل ماء عذب من ماء الكوفة .

وقد طعن أيضا أهل الكوفة على أهل البصرة ، فقالوا : البصرة أسرع الأرض خرابا ، وأخبثها ترابا ، وأبعدها من السماء ، وأسرعها غرقا .

وقد أجاب أهل البصرة أهل الكوفة عما سألوا عنه وعابوهم به ، وكذلك من شرب من دجلة ، وعابوا أهل الكوفة ، وذكروا عيوبها وما يؤثر عن سكانها من الشح على المأكول والمشروب والغدر وقلة الوفاء .

وقد أتينا على وصف جميع ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » وكذلك أتينا على خواص الأرض والمياه ، وفصول السنة ، وانقسام الأقاليم ، وما لحق بهذه المعاني ، فيما سلف من كتبنا على الشرح والايضاح ، وذكرنا في هذا الكتاب من جميع ذلك لمعا .

فلنرجع الآن الى أخبار الهادي ونعدل عن هذا السانح .

رغبة الهادي في خلع الرشيد
من ولاية العهد

وقد كان الهادي أراد أن يخلع أخاه الرشيد من ولاية العهد ، ويجعلها لأبنه جعفر بن موسى ، وحبس يحيى بن خالد البرمكي ، وأراد قتله ، فقال له يحيى ، وكان القيم بأمر الرشيد يا أمير المؤمنين ، أرأيت ان كان ما أسأل الله أن يعيذنا منه ، وألا يبلغناه ، وينسأ في أجل أمير المؤمنين ، أيظن أن الناس يسلمون لجعفر بن أمير المؤمنين الأمر ولم يبلغ الحنث ، ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ؟

قال : ما أظن ذلك .

قال : فتأمن أن يسموا اليها جلة أهل بيتك فتخرج من ولد أبيك الى غيرهم ؟ فتكون قد حملت الناس على النكث ، وهونت عليهم أيمانهم ، ولو تركت بيعة أخيك على حالها ، وبويع لجعفر بعده كان آكد ، فاذا بلغ مبلغ الرجال سألت أخاك أن يقدمه على نفسه .

قال : نبهتني والله على أمر لم أكن قد انتبهت له .

ثم عزم بعد ذلك على خلعه رضي أم كره ، وأمر بالتضييق عليه في الأكثر من أموره ، فأشار عليه يحيى أن يستأذنه في الخروج الى الصيد ، وأن يطيل التشاغل بذلك ، فان مدة موسى قصيرة على ما أوجبته قضية المولد .

واستأذنه الرشيد ، فأذن له ، فسار الى شاطىء الفرات من بلاد الأنبار وهيت ، وتوسط البر مما يلي السماوة ، وكتب الهادي اليه يأمره بالقدوم فأكثر الرشيد التعلل ، وبسط الهادي لسانه في شتمه .

وسنح للهادي الخروج نحو بلاد الحديثة ، فمرض هناك ، وانصرف وقد ثقل في العلة ، فلم يجسر أحد من الناس على الدخول عليه الا صغار الخدم .

ثم أشار اليهم أن يحضروا الخيزران أمه ، فصارت عند رأسه ، فقال لها : أنا هالك في هذه الليلة ، وفيها يلي أخي هارون ، وأنت تعلمين ما قضى به أصل مولدي بالري ، وقد كنت أمرتك بأشياء ونهيتك عن أخرى ، مما أوجبته سياسة الملك ، لا موجبات الشرع من برك ، ولم أكن بك عاقا ، بل كنت لك صائنا وبرا واصلا ، ثم قضى قابضا على يدها ، واضعا لها على صدره .

وكان مولده بالزي ، وكذلك مولد هارون الرشيد ، فكانت تلك الليلة فيها وفاة الهادي ، وولاية الرشيد ، ومولد المأمون .

الهادي ورجل ذو ذنوب

ويقال : أن الهادي أوقف بين يديه رجلا من أولياء الدولة ذا أجرام كثيرة ، فجعل الهادي يذكره ذنوبه ، فقال له الرجل : يا أمير المؤمنين اعتذاري مما تقرعني به رد عليك ، واقراري بما ذكرت يوجب ذنبا علي ، ولكني أقول :

فان كنت ترجو في العقوبة راحة   فلا تزهدن عند المعافاة في الأجر

فأطلقه ووصله .

بين الهادي والرشيد

وحدث عدة من الأخباريين من ذوي المعرفة بأخبار الدولة ، أن موسى قال لهارون أخيه : كأني بك تحدث نفسك بتمام الرؤيا ، وتؤمل ما أنت عنه بعيد ، ومن دون ذلك خرط القتاد .

فقال له هارون : يا أمير المؤمنين ، من تكبر وضع ، ومن تواضع رفع ، ومن ظلم خذل ، وان وصل الأمر الي وصلت من قطعت، وبررت من حرمت ، وصيرت أولادك أعلى من أولادي ، وزوجتهم بناتي ، وقضيت بذلك حق الامام المهدي .

فانجلى عن موسى الغضب ، وبان السرور في وجهه ، وقال : ذلك الظن بك يا أبا جعفر ، ادن مني .

فقام هارون فقبل يده ، ثم ذهب ليعود الى مجلسه ، فقال موسى : والشيخ الجليل ، والملك النبيل ، لا جلست الا معي في صدر المجلس .

ثم قال : يا خزاني ! احمل الى أخي الساعة ألف ألف دينار ، فاذا فتح الخراج فاحمل اليه نصفه ، فلما أراد هارون الانصراف قدمت دابته الى البساط .

رؤيا المهدي لولديه الهادي والرشيد

قال عمرو الرومي : فسألت الرشيد عن الرؤيا .

فقال : قال المهدي : رأيت في منامي كأني دفعت الى موسى قضيبا ، والى هارون قضيبا ، فأما قضيب موسى فأورق أعلاه قليلا ، وأما قضيب هارون فأورق من أوله الى آخره ، فقص الرؤيا على الحكيم ابن اسحاق الصيمري ، وكان يعبرها ، فقال له : يملكان جميعا ، فأما موسى فتقل أيامه ، وأما هارون فيبلغ آخر ما عاش خليفة ، وتكون أيامه أحسن الأيام ، ودهره أحسن الدهور .

قال عمرو الرومي : فلما أفضت الخلافة الى هارون زوج حمدونة ابنته من جعفر بن موسى ، وفاطمة من اسماعيل بن موسى ، ووفى له ما وعده .

حاز الهادي سيف عمرو بن معد يكرب
(الصمصامة)

وحدث عبد الله بن الضحاك ، عن الهيثم بن عدي ، قال : وهب المهدي موسى الهادي سيف عمرو بن معديكرب « الصمصامة » ، فدعا به موسى بعد ما ولى الخلافة ، فوضعه بين يديه ، وملء مكتل دنانير ، وقال لحاجبه : ائذن للشعراء ، فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا في السيف ، فبدأهم ابن يامين البصري فقال :

حاز صمصامة الـزبيدي عمرو — من جميع الأنـام موسى الأمين
سيف عمـرو ، وكان فيما سمعنا — خـير ما أغمـدت عليه الجفون
أوقـدت فوقـه الصواعـق نارا — ثم شابـت فيه الذعـاف المنون
واذا ما شهرتـه تبهـر الشمـ — س ضياء فلـم تكد تستبين
وكأن الفرنـد والجوهـر الجا — ري في صفحتيه ماء معين
ما يبـالي اذا الضريبـة حانت — أشمال سطـت به أم يمين ؟

وهي أبيات كثيرة ، فقال له الهادي : لك السيف والمكتل ، فخذهما ، ففرق المكتل على الشعراء ، وقال : دخلتم معي وحـرمتم من أجلي ، وفي السيف عوض ، ثم بعث اليه الهادي فاشترى منه السيف بخمسين ألفا .

***

وللهادي أخبار حسان وان كانت أيامه قصرت ، وقد أتينا على ذكرها في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وبالله التأييد .

ذكر خلافة هارون الرشيد ابن المهدي

موجز

وبويع هارون الرشيد بن المهدي يوم الجمعة صبيحة الليلة التي مات فيها الهادي ، بمدينة السلام ، وذلك لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة .

ومات بطوس بقرية يقال لها سناباذ ، يوم السبت لأربع ليال خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة .

فكانت ولايته ثلاثا وعشرين سنة وستة أشهر ، وقيل : ثلاثا وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يوما .

وولي الخلافة وهو ابن احدى وعشرين سنة وشهرين ، ومات وهو ابن أربع وأربعين سنة وأربعة أشهر .

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه

الرشيد يستوزر يحيى بن خالد البرمكي

ولما أفضت الخلافة الى الرشيد دعا بيحيى بن خالد فقال له : يا أبت ، أنت اجلستني في هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك الأمر ، ودفع خاتمه اليه ، ففي ذلك يقول الموصلي :

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة ... فلما ولي هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذي الندى ... فهارون واليها ، ويحيى وزيرها

وماتت ريطة بنت أبي العباس السفاح لشهور خلت من أيام الرشيد ، وقيل في آخر أيام الهادي .

وماتت الخيزران أم الهادي والرشيد في سنة ثلاث وسبعين ومائة ، ومشى الرشيد أمام جنازتها ، وكانت غلة الخيزران مائة ألف ألف وستين ألف ألف درهم .

وفيها مات محمد بن سليمان ، وقبض الرشيد أمواله بالبصرة وغيرها ، فكان مبلغها نيفا وخمسين ألف ألف درهم سوى الضياع والدور والمستغلات ، وكان محمد بن سليمان يغل كل

يوم مائة ألف درهم .

محمد بن سليمان وسوار القاضي

وحكي أن محمد بن سليمان ركب يوما بالبصرة وسوار القاضي يسايره في جنازة ابنة عم له ، فاعترضه مجنون كان بالبصرة يعرف برأس النعجة ، فقال له : يا محمد ، أمن العدل أن تكون نحلتك في كل يوم مائة ألف درهم وأنا أطلب نصف درهم فلا أقدر عليه ؟

ثم التفت الى سوار فقال : إن كان هذا عدلا فأنا أكفر به .

فأسرع اليه غلمان محمد ، فكفهم عنه ، وأمر له بمائة درهم .

فلما انصرف محمد وسوار معه اعترضه رأس النعجة فقال له : لقد كرم الله منصبك ، وشرف أبوتك ، وحسن وجهك ، وعظم قدرك ، وأرجو أن يكون ذلك لخير يريده الله بك ، ولأن يجمع الله لك الدارين .

فدنا منه سوار فقال : يا خبيث ، ما كان هذا قولك في البداءة .

فقال له : سألتك بحق الله وبحق الأمير الا ما أخبرتني في أي سورة هذه الآية : « فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا اذا هم يسخطون » ؟

قال : في براءة .

قال : صدقت ، فبرىء الله ورسوله منك .

فضحك محمد بن سليمان حتى كاد يسقط عن دابته .

ولما بنى محمد بن سليمان قصره بالبصرة على بعض الأنهار دخل اليه عبد الصمد بن شبيب بن شبة ، فقال له محمد : كيف ترى بنائي ؟

قال : بنيت أجل بناء ، بأطيب فناء ، وأوسع فضاء ، وأرق هواء ، على أحسن ماء ، بين صراري وحسان وظباء .

فقال محمد : بناء كلامك أحسن من بنائنا .

وقيل : إن صاحب الكلام والباني للقصر هو عيسى بن جعفر ، على ما حدث به محمد ابن زكرياء الغلابي ، عن الفضل بن عبد الرحمن بن شبيب بن شبة ، وفي هذا القصر يقول ابن أبي عبينة :

زر وادي القصر، نعم القصر والوادي	لا بد من زورة من غير ميعاد
زره فليس له شبه يقاربه	من منزل حاضر ان شئت أو باد
ترقى قراقيره والعيس واقفة	والضب والنون والملاح والحادي

موت الليث بن سعد

وفي سنة خمس وسبعين ومائة مات الليث بن سعد المصري الفهمي ، ويكنى أبا الحارث ، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة ، وكان قد حج سنة ثلاث عشرة ومائة وسمع من نافع .

موت شريك النخعي القاضي

وفي سنة خمس وسبعين ومائة مات شريك بن عبد الله بن سنان النخعي القاضي ، وكان يكنى أبا عبد الله ، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة ، وكان مولده ببخارى ، وليس بشريك بن عبد الله بن أبي أنمر الليثي ، لأن ابن أبي أنمر مات في سنة أربعين ومائة ، وإنما ذكرنا ذلك لأنهما يتشابهان في الآباء والأمهات ، وبينهما تسع وثلاثون سنة .

وكان شريك بن عبد الله النخعي يتولى القضاء بالكوفة أيام المهدي ، ثم عزله موسى الهادي ، وكان شريك مع فهمه وعلمه ذكيا فطنا ، وكان قد جرى بينه وبين مصعب بن عبد الله كلام بحضرة المهدي فقال له مصعب : أنت تنتقص أبا بكر وعمر .

فقال : والله ما أنتقص جدك وهو دونهما .

وذكر معاوية عند شريك بالحلم ، فقال : ليس بحليم من سفه الحق وقاتل علي بن أبي طالب .

وشم من شريك رائحة النبيذ ، فقال له أصحاب الحديث : لو كانت هذه الرائحة منا لاستحينا .

فقال : لأنكم أهل الريبة .

موت مالك بن أنس الامام

ومات في أيام الرشيد أبو عبد الله مالك بن أنس بن أبي عامر ، الأصبحي ، وهو ابن تسعين سنة ، وحمل به ثلاث سنين ، وذلك في ربيع الأول ، وقيل : إنه صلى عليه ابن أبي ذئب ، على ما ذكر من التنازع في وفاة ابن أبي ذئب .

وذكر الواقدي أن مالكا كان يأتي المسجد ، ويشهد الصلوات والجمع والجنائز ، ويعود المرضى ، ويقضي الحقوق ، ثم ترك ذلك كله ، ثم قيل له فيه ، فقال : ليس كل انسان يقدر أن يتكلم بعذره .

وسعى به الى جعفر بن سليمان ، وقيل له : إنه لا يرى ايمان بيعتكم شيئا ، فضربه بالسياط ، ومد لذلك حتى انخلع كتفاه .

حماد بن زيد

وفي السنة التي مات فيها مالك كانت وفاة حماد بن زيد ، وهي سنة تسع وسبعين ومائة .

ابن المبارك

وفي سنة احدى وستين ومائة مات عبد الله بن المبارك المروزي الفقيه بهيت بعد منصرفه من طرسوس .

القاضي أبو يوسف

وفي سنة اثنتين وثمانين ومائة مات أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم القاضي وهو ابن تسع وستين سنة ، وهو رجل من الأنصار ، وولي القضاء سنة ست وستين ومائة في أيام خروج الهادي الى جرجان ، وأقام على القضاء الى أن مات خمس عشرة سنة .

قال المسعودي : وقد كانت أم جعفر كتبت مسألة الى أبي يوسف تستفتيه فيها ، فأفتاها بما وافق مرادها على حسب ما أوجبته الشريعة عنده وأداه اجتهاده اليه .

فبعثت اليه بحق فضة فيه حقان من فضة في كل حق لون من الطيب ، وجام ذهب فيه دراهم وجام فضة فيه دنانير ، وغلمان وتخوت من ثياب ، وحمار وبغل .

فقال له بعض من حضره : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها » .

فقال أبو يوسف : تأولت الخبر على ظاهره والاستحسان قد منع من امضائه ، ذاك اذ كان هدايا الناس التمر واللبن ، لا في هذا الوقت وهدايا الناس اليوم العين والورق وغيره ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

بين عبد الله بن مصعب الزبيري
وموسى بن عبد الله بن الحسن الطالبي
بحضرة الرشيد

وذكر الفضل بن الربيع قال : صار اليَّ عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ، فقال : إن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي قد أرادني على البيعة له .

فجمع الرشيد بينهما ، فقال الزبيري لموسى : سعيتم علينا وأردتم نقض دولتنا .

فالتفت اليه موسى فقال : ومن أنتم ؟ فغلب على الرشيد الضحك حتى رفع رأسه الى السقف حتى لا يظهر منه .

ثم قال موسى : يا أمير المؤمنين ، هذا الذي ترى المشنع عليّ خرج والله مع أخي محمد ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي على جدك المنصور ، وهو القائل من أبيات :

قومـــوا ببيعتـــكم ننهض بطاعتنا إن الخلافـة فيكم يا بنـــي حسن

في شعر طويل ، وليس سعايته يا أمير المؤمنين حبا لك ، ولا مراعاة لدولتك ، ولكن بغضا لنا جميعا أهل البيت ، ولو وجد من ينتصر به علينا جميعا لكان معه ، وقد قال باطلا ، وأنا مستحلفه ، فان حلف أني قلت ذلك فدمي لأمير المؤمنين حلال .

فقال له الرشيد : احلف له يا عبد الله ، فلما أراده موسى على اليمين تلكأ وامتنع .

فقال له الفضل : لم تمتنع وقد زعمت آنفا أنه قال لك ما ذكرته ؟

قال عبد الله : فأنا أحلف له .

قال موسى : قل تقلدت الحول والقوة دون حول الله وقوته الى حولي وقوتي ان لم يكن ما حكيته عني حقا ، فحلف له .

فقال موسى : الله أكبر ، حدثني أبي عن جدي عن أبيه عن جده علي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما حلف أحد بهذه اليمين وهو كاذب الا عجل الله له العقوبة قبل ثلاث » والله ما كذبت ولا كذبت ، وها أنا يا أمير المؤمنين بين يديك وفي قبضتك ، فتقدم بالتوكيل علي ، فان مضت ثلاثة أيام ولم يحدث على عبد الله بن مصعب حادث فدمي لأمير المؤمنين حلال .

فقال الرشيد للفضل : خذ بيد موسى فليكن عندك حتى أنظر في أمره .

قال الفضل : فوالله ما صليت العصر من ذلك اليوم حتى سمعت الصراخ من دار عبد الله بن مصعب ، فأمرت من يتعرف خبره ، فعرفت أنه قد أصابه الجذام ، وأنه قد تورم واسود ، فصرت اليه ، فوالله ما كدت أعرفه لأنه قد صار كالزق العظيم ، ثم أسود حتى صار كالفحم .

فصرت الى الرشيد فعرفته خبره ، فما انقضى كلامي حتى أتى خبر وفاته ، فبادرت بالخروج ، وأمرت بتعجيل أمره والفراغ منه ، وتوليت الصلاة عليه .

فلما دلوه في حفرته لم يستقر فيها حتى انخسفت به وخرجت منه رائحة مفرطة النتن ، فرأيت أحمال شوك تمر في الطريق فقلت : علي بذلك الشوك ، فأتيت به ، فطرح في تلك الوهدة ، فما استقر حتى انخسفت ثانية .

فقلت : علي بألواح ساج ، فطرحت على موضع قبره ، ثم طرح التراب عليها ، وانصرفت الى الرشيد فعرفته الخبر وما عاينت من الأمر فأكثر التعجب من ذلك ، وأمرني بتخلية موسى بن عبد الله رضي الله عنه ، وأن أعطيه الف دينار .

وأحضر الرشيد موسى فقال له : لم عدلت عن اليمين المتعارفة بين الناس ؟

قال : لأنا روينا عن جدنا رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من حلف بيمين مجد الله فيها استحيا الله من تعجيل عقوبته ، وما من أحد حلف بيمين كاذبة نازع الله فيها حوله وقوته الا عجل الله له العقوبة قبل ثلاث » .

وقيل : إن صاحب هذا الخبر هو يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي أخو موسى بن عبد الله ، رضوان الله عليهم .

وكان يحيى قد سار الى الديلم مستجيرا ، فباعه صاحب الديلم من عامل الرشيد بمائة ألف درهم فقتل ، رحمه الله !

وقد روي من وجه آخر - على حسب تباين النسخ وطرق الرواية في ذلك في كتب الأنساب والتواريخ - أن يحيى ألقي في بركة فيها سباع قد جوعت ، فأمسكت عن أكله ، ولاذت بناحية ، وهابت الدنو اليه ، فبني عليه ركن بالجص والحجر وهو حي .

ظهور محمد بن جعفر ثم هربه الى المغرب

وقد كان محمد بن جعفر بن يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي كرم الله وجهه سار الى مصر ، فطلب ، فدخل المغرب ، واتصل ببلاد تاهرت السفلى ، واجتمع اليه خلق من الناس ، فظهر فيهم بعدل وحسن استقامة فمات هنالك مسموما .

وقد أتينا على كيفية خبره وما كان من أمره في كتاب « حدائق الأذهان ، في أخبار أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وتفرقهم في البلدان » .

الرشيد يحج آخر حجة

وفي سنة ثمانية وثمانين ومائة حج الرشيد وهي آخر حجة حجها ، فذكر عن أبي بكر ابن عياش - وكان من علية أهل العلم - أنه قال وقد اجتاز الرشيد بالكوفة في حال منصرفه من هذه الحجة : لا يعود الى هذه الطريق ، ولا خليفة من بني العباس بعده أبدا .

فقيل له : أضرب من الغيب ؟

قال : نعم .

قيل : بوحي ؟

قال : نعم .

قيل : اليك ؟

قال : لا ، الى محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك أخبر عنه علي عليه السلام المقتول في هذا الموضع ، وأشار الى الموضع الذي قتل فيه علي بالكوفة ، رضي الله عنه .

موت الكسائي ومحمد بن الحسن الشيباني

وفي سنة تسع وثمانين ومائة ـ وذلك في أيام الرشيد ـ مات علي بن حمزة الكسائي صاحب القراءات ، ويكنى أبا الحسن ، وكان قد شخص مع الرشيد الى الري فمات بها .

وكذلك مات محمد بن الحسن الشيباني القاضي ،ويكنى أبا عبد الله ، ودفن بالري وهو مع الرشيد ، وتطير من وفاة محمد بن الحسن لرؤيا كان رآها في نومه .

يحيى بن خالد

وفي هذه السنة كانت وفاة يحيى بن خالد بن برمك .

سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح

وفي سنة ثمان وثمانين ومائة كان سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، فحدث يموت بن المزرع عن الرياشي ، قال : سمعت الأصمعي يقول : كنت عند الرشيد ، وأتى بعبد الملك بن صالح يرفل في قيوده ، فلما نظر اليه قال : هيه يا عبد الملك ، كأني والله أنظر اليك وشؤبوبها قد همع ، والى عارضها قد لمع ، وكأني بالوعيد قد أقلع عن براجم بلا معاصم ، ورؤوس بلا غلاصم ، مهلا مهلا بني هاشم ، والله سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدر ، وألقت اليكم الأمور أزمتها ، فخذوا حذركم مني قبل حلول داهية خبوط باليد والرجل .

فقال له عبد الملك : أفذا أتكلم أم توأما ؟

فقال : توأما .

قال : فاتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك ، وراقبه في رعاياك التي استرعاك ، قد سهلت لك والله الوعور ، وجمعت على خوفك ورجائك الصدور ، وكنت كما قال أخو جعفر ابن كلاب :

ومقام ضيق فرجته ... بلسان أو بيان أو جدل

لو يقوم الفيل أو فياله ... زل عن مثل مقامي أو زحل

قال : فأراد يحيى بن خالد البرمكي ان يضع من مقام عبد الملك عند الرشيد فقال

له : يا عبد الملك ، بلغني أنك حقود .

فقال : أصلح الله الوزير ! إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندي انهما لباقيان في قلبي .

فالتفت الرشيد الى الأصمعي ، فقال : يا أصمعي ، حررها فوالله ما احتج أحد للحقد بمثل ما احتج به عبد الملك ، ثم أمر به فرد الى محبسه .

ثم التفت الى الأصمعي فقال : والله والله يا أصمعي لقد نظرت الى موضع السيف من عنقه مرارا ، يمنعني من ذلك ابقائي على قومي في مثله .

اهديت للرشيد سمكة فمنعها عنه ابن بختيشوع الطبيب

حدث يوسف بن ابراهيم بن المهدي ، قال : حدثني سليمان الخادم الخراساني مولى الرشيد ، أنه كان واقفا على رأس الرشيد بالحيرة وهو يتغدى ، اذ دخل عليه عون العبادي ، وكان صاحب الحيرة ، وفي يده صفحة فيها سمكة منعوتة بالسمن فوضعها بين يديه ومعه محبس قد اتخذ لها .

فحاول الرشيد أكل شيء منها فمنعه جبريل بن بختيشوع ، وأشار جبريل الى صاحب المائدة أن يشيلها عن المائدة ويعزلها له .

ففطن له الرشيد فلما رفعت المائدة وغسل الرشيد يده وخرج جبريل أمرني الرشيد باتباعه وأن أكبسه في منزله وهو يأكل فأرجع اليه بخبره .

ففعلت ما أمرني به وأحسب أن أمري لم يخف على جبريل فيما تبينت من تحرزه ، فانه صار الى موضع من دار عون ، ودعا بالطعام فأحضر له ، وفيه السمكة ، فدعا بأقداح ثلاثة ، فجعل في واحد منها قطعة من السمك وصب عليها خمرا من خمر طيرناباذ (وهي قرية بين الكوفة والقادسية ذات كروم وأشجار ونخل ورياض تخرقها الأنهار من كل البقاع من الفرات ، شرابها موصوف بالجودة كوصف القطربلي) فصبه على السمكة وقال : هذا أكل جبريل .

وجعل في قدح آخر قطعة منها ، وصب عليها ماء بثلج شديد البرودة ، وقال : هذا أكل أمير المؤمنين أعزه الله ان لم يخلط السمك بغيره .

وجعل في القدح الثالث قطعة من السمكة ، وجعل قطعا من اللحم من ألوان مختلفة ، من شواء ومن حلوى ومن بوارد وبقول ، ومن سائر ما قدم اليه من الألوان ، من كل واحد منها جزءا يسيرا مثل اللقمة واللقمتين ، وصب عليها ماء بثلج ، وقال : هذا أكل

أمير المؤمنين ان خلط السمك بغيره من الطعام .

ودفع الثلاثة الأقداح الى صاحب المائدة وقال : احتفظ بها الى أن ينتبه أمير المؤمنين . أعزه الله .

ثم أقبل جبريل على السمكة فأكل منها حتى تضلع ، وكان كلما عطش دعا بقدح من الخمر الصرف فشربه ، ثم نام .

فلما انتبه الرشيد من نومه سألني عما عندي من خبر جبريل ، وهل أكل من السمكة شيئا أم لم يأكل ؟

فأخبرته بالخبر .

فأمر باحضار الأقداح الثلاثة فوجد ما في القدح الأول ـ وهو الذي ذكر جبريل أنه أكله وصب عليه الخمر الصرف ـ قد تفتت وانماع واختلط .

ووجد ما في القدح الثاني ـ الذي قال جبريل انه أكل أمير المؤمنين وصب عليه الماء بالثلج ـ قد ربا وصار على النصف مما كان .

ونظر الى القدح الثالث ـ الذي قال جبريل وهذا أكل أمير المؤمنين ان خلط السمك بغيره ـ قد تغيرت رائحته وحدثت له سهوكة شديدة كاد الرشيد أن يتقايأ حين قرب منه .

فأمرني بحمل خمسة آلاف دينار الى جبريل وقال : من يلومني على محبة هذا الرجل الذي يدبرني بهذا التدبير ؟ فأوصلت اليه المال .

رؤيا للرشيد يؤمر بالتخلية عن موسى بن جعفر

وذكر عبد الله بن مالك الخزاعي ـ وكان على دار الرشيد وشرطته ـ قال : أتاني رسول الرشيد في وقت ما جاءني فيه قط ، فانتزعني من موضعي ، ومنعني من تغيير ثيابي ، فراعني ذلك منه .

فلما صرت الى الدار سبقني الخادم ، فعرف الرشيد خبري ، فأذن لي في الدخول عليه ، فدخلت ، فوجدته قاعدا على فراشه ، فسلمت ، فسكت ساعة ، فطار عقلي وتضاعف الجزع علي ثم قال لي : يا عبد الله ، أتدري لم طلبتك في هذا الوقت ؟

قلت : لا والله يا أمير المؤمنين .

قال : إني رأيت الساعة في منامي كأن حبشيا قد أتاني ومعه حربة فقال لي : إن لم تخل عن موسى بن جعفر الساعة والا نحرتك بهذه الحربة ، فاذهب فخل عنه .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، أطلق موسى بن جعفر ؟ (ثلاثا) .

قال : نعم امض الساعة حتى تطلق موسى بن جعفر وأعطه ثلاثين ألف درهم ، وقل له : إن أحببت المقام قبلنا فلك عندي ما تحب وان أحببت المضي الى المدينة فالاذن في ذلك اليك .

قال : فمضيت الى الحبس لأخرجه ، فلما رآني موسى وثب الي قائما وظن أني قد أمرت فيه بمكروه ، فقلت : لا تخف ، وقد أمرني أمير المؤمنين باطلاقك ، وأن أدفع اليك ثلاثين ألف درهم وهو يقول لك : إن أحببت المقام قبلنا فلك ما تحب ، وإن أحببت الانصراف الى المدينة فالأمر في ذلك مطلق اليك .

وأعطيته الثلاثين ألف درهم ، وخليت سبيله .

وقلت : لقد رأيت من أمرك عجبا !

قال : فاني أخبرك : بينما أنا نائم اذ أتاني النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « يا موسى ، حبست مظلوما فقل هذه الكلمات ، فانك لا تبيت هذه الليلة في الحبس » . فقلت : بأبي وأمي ما أقول ؟ فقال : « قل يا سامع كل صوت ، ويا سابق الفوت ، ويا كاسي العظام لحما ومنشرها بعد الموت ، أسألك بأسمائك الحسنى وباسمك الأعظم الأكبر المخزون المكنون الذي لم يطلع عليه أحد من المخلوقين ، يا حليما ذا أناة لا يقوى على أناته ، يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبدا ، ولا يحصى عددا ، فرج عني » . . . فكان ما ترى .

ابراهيم بن المهدي يغني لأسود

وذكر حماد بن اسحاق بن ابراهيم الموصلي قال : قال ابراهيم بن المهدي : حججت مع الرشيد ، فبينا نحن في الطريق وقد انفردت أسير وحدي وأنا على دابتي ، اذ غلبتني عيناي ، فسلكت بي الدابة غير الطريق ، فانتبهت وأنا على غير الجادة ، فاشتد بي الحر ، فعطشت عطشا شديدا ، فارتفع لي خباء ، فقصدته ، فاذا بقبة وبجنبها بئر ماء بقرب مزرعة ، وذلك بين مكة والمدينة ، ولم أر بها انسيا .

فتطلعت في القبة فاذا أنا بأسود نائم ، فأحس بي ففتح عينيه كأنهما اجانتا دم ، فاستوى جالسا ، واذا هو عظيم الصورة ، فقلت : يا أسود ، اسقني من هذا الماء .

فقال : يا أسود ، اسقني من هذا الماء ، (محاكيا لي) ، وقال : إن كنت عطشانا فانزل واشرب .

وكان تحتي برذون خبيث نفور ، فخشيت أن أنزل عنه فينفر ، فضربت رأس البرذون ، وما نفعني الغناء قط الا في ذلك اليوم ، وذلك أني رفعت عقيرتي وأنا أغني :

كفنوني ان مت في درع أروى　　واستقوا لي من بئر عروة ماء

فلهـا مربـع بجنـب أجاج ومصيف بالقصر قصر قباء
سخنة في الشتاء ، باردة في الصـ ـيف ، بدر في الليلـة الظلماء

فرفع الأسود رأسه الي وقال : أيما أحب اليك : أن أسـقيك ماء وحـده ، أو ماء وسويقا .

قلت : الماء والسويق .

فأخرج قعبا له فصب السويق في القـدح فسقانـي ، وأقبـل يضرب بيده على رأسـه وصدره ، ويقـول : واحـر صدراه ، وانـارات اللهـب في فؤادي ، يا مولاي زدنـي وأنـا أزيدك ، وشربت السويق .

ثم قال لي : يا مولاي ، إن بينك وبين الطريق أميالا ، ولست أشك أنك تعطش ، لكن املأ قربتي هذه وأحملها قدامك .

فقلت : أفعل .

قال : فملأ قربته وسار قدامي وهو يحجل في مشيته غير خارج عن الايقـاع ، فاذا أمسكت لأستريح أقبل علي فقال : يا مولاي ، أمـا عطشـت ، فأغنيه النصـب ، الى أن أوقفني على الجادة ، ثم قال لي : سر رعاك الله ولا سلبك ما كسيك من هذه النعم ، بكلام عجمي معناه هذا الدعاء ، فلحقت بالقافلة ، والرشيد كان قد فقدني ، وقد بث البخت والخيل في البر يطلبونني ، فسر بي حين رآني ، فأتيته ، فقصصت عليه الأمر .

فقال : علي بالأسود ، فما كان الا هنيهة حتى مثل بين يديه .

فقال له : ويلك ! ما حر صدرك ؟

قال : يا مولاي ، ميمونة .

قال : ومن ميمونة ؟

قال : بنت حبشية .

قال : ومن حبشية ؟

قال : بنت بلال يا مولاي ، فأمر من يستفهمه ، فاذا الأسود عبد لبني جعفر الطيار ، واذا السوداء التي يهواها لقوم من ولد الحسن بن علي ، فأمر الرشيد بابتياعهـا له ، فأبـى مواليها أن يقبلوا لها ثمنا ، ووهبوها للرشيد ، فاشترى الأسود وأعتقه ، وزوجه منهـا ، ووهب له من ماله بالمدينة حديقتين وثلثمائة دينار .

***

ودخل ابن السماك على الرشيد يوما وبين يديه حمامة تلتقط حبا فقال له : صفها وأوجز .

فقال : كأنما تنظر من ياقوتتين ، وتلتقط بدرتين ، وتطأ على عقيقتين ، وأنشدونا لبعضهم :

هتفت هاتفة آ ... ذنها إلف ببين
ذات طوق مثل عطف النـ ... ـون أقنى الطرفين
وتراها ناظرة نحـ ... ـوك من ياقوتتين
ترجع الأنفاس من ثقـ ... ـبين كاللؤلؤتين
وترى مثل البسا ... تين لها قادمتين
ولها لحيان كالصد ... غين من عرعرتين
ولها ساقان حمرا ... وان مثل الوردتين
نسجت فوق جناحيـ ... ـها لها برنوستين
وهي طاووسية الـ ... ـلون بنان المنكبين
تحت ظل من ظلال الـ ... أيك صافي الكتفين
فقدت ألفا فناحت من ... من تباريح وبين
فهي تبكيه بلا دمـ ... ـع جمود المقلتين
وهي لا تصبغ عينا ... ها كما تصبغ عين

بين الرشيد ومعن بن زائدة

ودخل معن بن زائدة على الرشيد وقد كان وجد عليه ، فمشى فقارب الخطو ، فقال له هارون : كبرت والله يامعن .

قال : في طاعتك يا أمير المؤمنين .

قال ؛ وأن فيك على ذلك لبقية .

قال : هي لك يا أمير المؤمنين .

قال : وانك لجلد .

قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين ، فرضي عنه وولاه .

قال : وعرض كلامه هذا على عبد الرحمن بن زيد زاهد أهل البصرة فقال : ويح هذا ! ما ترك لربه شيئا .

وقال الرشيد يوما لمعن بن زائدة : إني قد أعددتك لأمر كبير .

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله قد أعد لك مني قلبا معقودا بنصيحتك ، ويدا مبسوطة بطاعتك ، وسيفا مشحوذا على عدوك ، فان شئت فقل .

وقيل : إن هذا الجواب من كلام يزيد بن مزيد .

بين الرشيد والكسائي

وقال الكسائي : دخلت على الرشيد ، فلما قضيت حق التسليم والدعاء وثبت للقيام ، فقال : اقعد . فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان في مجلسه ، ولم يبق الا خاصته ، فقال لي : يا علي ، ألا تحب أن ترى محمدا وعبد الله ؟

قلت : ما أشوقني اليهما يا أمير المؤمنين ، وأسرني بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما ، فأمر باحضارهما .

فلم ألبث أن أقبلا ككوكبي أفق يزينهما هدوء ووقار ، وقد غضا أبصارهما ، وقاربا خطوهما حتى وقفا على باب المجلس ، فسلما على أبيهما بالخلافة ، ودعوا له بأحسن الدعاء .

فأمرهما بالدنو منه ، فدنوا ، فصير محمدا عن يمينه وعبد الله عن يساره ، ثم أمرني أن أستقرئهما وأسألهما ، ففعلت ، فما سألتهما عن شيء الا أحسنا الجواب فيه والخروج منه .

فسر بذلك الرشيد حتى تبينته فيه ، ثم قال لي : يا علي ، كيف ترى مذهبهما وجوابهما ؟

فقلت : يا أمير المؤمنين ، هما كما قال الشاعر :

أرى قمري مجد وفرعي خلافة ... يزينهما عرق كريم ومحتد

يا أمير المؤمنين هما فرع زكا أصله ، وطاب مغرسه ، وتمكنت في الثرى عروقه ، وعذبت مشاربه ، أبوهما أغر ، نافذ الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم ، يحكمان بحكمه ، ويستضيئان بنوره ، وينطقان بلسانه ، ويتقلبان في سعادته ، فأمتع الله أمير المؤمنين بهما ، وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما .

ثم قلت لهما : هل ترويان من الشعر شيئا ؟

فقالا : نعم ، ثم أنشدني محمد :

واني لعف الفقر مشترك الغنى ... وتارك شكل لا يوافقه شكلي

وأجعل مالي دون عرضي جنة ... لنفسي ، ومفضال بما كان من فضل

ثم أنشد عبد الله :

بكرت تلومــك مطلــع الفجر ولقــد تلــوم بغــير ما تدري
ملك الأمــور عليّ مقتدر يعطــي اذا ما شاء من يسر
ولــرب مغتبــط بمرزئة ومفجــع بنوائــب الدهر
وتــرى قناتــي حــين يغمدها عض الثقــاف بطيشــة الكسر

فما رأيت أحدا من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة أذرب ألسنا ولا أحسن ألفاظا ولا أشد اقتدارا على تأدية ما حفظا منهما ، ودعوت لهما دعاء كثيرا ، وأمن الرشيد على دعائي ، ثم ضمهما اليه ، وجمع يديه عليهما ، فلم يبسطها حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره ، ثم أمرهما بالخروج .

فلما خرجا أقبل علي فقال : كأنك بهما وقد حم القضاء ، ونزلت مقـادير السماء ، وبلغ الكتاب أجله ، قد تشتتت كلمتهما ، واختلف أمرهما ، وظهر تعاديهما ، ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفك الدماء ، وتقتل القتلى ، وتهتك ستور النسـاء ، ويتمنى كثـير من الأحياء أنهم في عداد الموتى .

قلت : أيكون ذلك يا أمير المؤمنين لأمر رؤي في أصل مولدهما أو لأثر وقـع لأمـير المؤمنين في مولدهما .

فقال : لا والله الا بأثر واجب حملته العلماء عن الأوصياء عن الأنبياء .

وصية الرشيد لمؤدب الأمين
الأحمر النحوي

قال الأحمر النحوي : بعث الي الرشيد لتأديب ولده محمد الأمين ، فلما دخلت قال : يا أحمر ، إن أمير المؤمنين قد دفـع اليك مهجـة نفسـه ، وثمـرة قلبـه ، فصـير يدك عليه مبسوطة ، وطاعتك عليه واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين : أقرئه القـرآن ، وعرفه الآثار ، ورِوه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره مواقـع الـكلام وبـدأه ، وأمنعـه الضحك الا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا اليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده اياها ، من غير أن تخرق به فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مساحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة .

العماني عند الرشيد
يحرضه على تجديد العهد للأمين

ويقال : إن العماني الشاعر قام بحضرة الرشيد خطيبا فلم يزل يقرظ محمدا ويحرضه على تجديد العهد له ، فلما فرغ من كلامه قال له : أبشر يا عماني بولاية العهد له .

فقال : أي والله يا أمير المؤمنين ، سرور العشب بالغيث ، والمرأة النزور بالولد ، والمريض المدنف بالبرء ، لأنه نسيج وحده ، وحامي مجده ، وشبيه جده .

قال : فما تقول في عبد الله ؟

قال : مرعى ولا كالسعدان .

فتبسم الرشيد وقال : قاتله الله من أعرابي ما أعرفه بمواضع الرغبة ، أما والله اني لأتعرف في عبد الله حزم المنصور ، ونسك المهدي ، وعز نفس الهادي ، والله لو شاء الله أن أنسبه الى الرابعة لنسبته اليها .

حرص الرشيد على ولاية عهده

قال الأصمعي : بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة اذ رأيته قد قلق قلقا شديدا فكان يقعد مرة ويضطجع مرة ويبكي اخرى ، ثم أنشأ يقول :

قلد أمور عباد الله ذا ثقة ... موحد الرأي لا نكس ولا برم
واترك مقالة أقوال ذوي خطل ... لا يفهمون اذا ما معشر فهموا

فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريد أمرا عظيما ، ثم قال لمسرور الخادم : عليَّ بيحيى .

فما لبث أن أتاه ، فقال : يا أبا الفضل ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات في غير وصية والاسلام جذع ، والايمان جديد ، وكلمة العرب مجتمعة ، قد آمنها الله تعالى بعد الخوف ، وأعزها بعد الذل ، فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبي بكر ، وكان من خبره ما قد علمت ، وأن أبا بكر صير الأمر الى عمر ، فسلمت الأمة له ، ورضيت بخلافته ، ثم صيرها عمر شورى ، فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت الى غير أهلها ، وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره الى من أرضى سيرته ، وأحمد طريقته ، وأثق بحسن سياسته ، وآمن ضعفه ووهنه ، وهو عبد الله .

وبنو هاشم مائلون الى محمد بأهوائهم ، وفيه ما فيه من الانقياد لهواه ، والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركة النساء والإماء في رأيه .

وعبد الله المرضي الطريقة ، الأصيل الرأي ، الموثوق به في الأمر العظيم ، فان ملت الى عبد الله أسخطت بني هاشم ، وإن أفردت محمدا بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية ؛ فأشر علي في هذا الأمر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها ، فانك بحمد الله مبارك الرأي لطيف النظر .

فقال : يا أمير المؤمنين : إن كل زلة مستقالة وكل رأي يتلافى خلا هذا العهد ، فان الخطأ فيه غير مأمون ، والزلة فيه لا تستدرك ، وللنظر فيه مجلس غير هذا .

فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة فأمرني بالتنحي ، فقمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما ، فما زالا في مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل ، وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله بعد محمد .

ودخلت أم جعفر على الرشيد فقالت : ما أنصفت ابنك محمدا حيث وليته العراق وأعريته عن العدد والقواد ، وصيرت ذلك الى عبد الله دونه .

فقال لها : وما أنت وتميز الأعمال واختبار الرجال ؟ اني وليت ابنك السلم ، وعبد الله الحرب ، وصاحب الحرب أحوج الى الرجال من المسالم ، ومع هذا فانا نتخوف ابنك على عبد الله ، ولا نتخوف عبد الله على ابنك ان بويع .

وفي سنة ست وثمانين ومائة خرج الرشيد حاجا ومعه وليا عهده : الأمين والمأمون ، وكتب الشرطين بينهما وعلقهما في الكعبة .

الرشيد يعلق كتاب العهد في الكعبة

وحكي عن ابراهيم الحجبي أن الكتاب لما رفع ليعلق بالكعبة وقع ، فقلت في نفسي : وقع قبل أن يرتفع ، ان هذا الأمر سريع انتقاضه قبل تمامه .

وحكي عن سعيد بن عامر البصري قال : حججت في هذه السنة وقد استعظم الناس أمر الشرط والأيمان في الكعبة ، فرأيت رجلا من هذيل يقود بعيره وهو يقول :

وبيعــة قد نكثــت أيمانها وفتنــة قد سعــرت نيرانها

فقلت له : ويحك ! ما تقول ؟

قال : أقول ان السيوف ستسل ، والفتنة ستقع ، والتنازع في الملك سيظهر .

قلت : وكيف ترى ذلك ؟

قال : أما ترى البعير واقفا والرجلان يتنازعان والغرابان قد وقعا على الدم والتطخا به ، والله لا يكون آخر هذا الأمر الا محاربة وشرا .

ويروى أن الأمين لما حلف للرشيد بما حلف له به ، وأراد الخروج من الكعبة رد جعفر بن يحيى ، وقال له : فان غدرت بأخيك خذلك الله ، حتى فعل ذلك ثلاثا في كلها يحلف له .

وبهذا السبب اضطغنت أم جعفر على جعفر بن يحيى ، فكانت أحد من حرض الرشيد على أمره ، وبعثته على ما نزل به .

قال المسعودي : وفي سنة سبع وثمانين ومائة بايع الرشيد لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون ، فاذا أفضت الخلافة الى المأمون كان أمره اليه ، إن شاء أن يقره أقره ، وان شاء أن يخلعه خلعه .

وفاة الفضيل بن عياض

وفي هذه السنة (وهي سنة سبع وثمانين ومائة) توفي الفضيل بن عياض ويكنى أبا علي ، وكان مولده بخراسان ، وقدم الكوفة ، وسمع من المنصور بن المعتمر وغيره ، ثم تعبد وانتقل الى مكة فأقام بها الى أن مات .

حدث سفيان بن عيينة قال : دعانا الرشيد ، فدخلنا عليه ودخل الفضيل آخرنا مقنعا رأسه بردائه ، فقال لي : يا سفيان ، أيهم أمير المؤمنين ؟

فقلت : هذا ، وأومأت الى الرشيد .

فقال له : أنت يا حسن الوجه ، الذي أمر هذه الأمة في يدك وعنقك ؟ لقد تقلدت أمرا عظيما .

فبكى الرشيد ، ثم أتى كل رجل منا ببدرة ، فكل قبلها الا الفضيل ، فقال له الرشيد : يا أبا علي ، إن لم تستحلها فأعطها ذا دين ، وأشبع بها جائعا ، واكس بها عريانا ، فاستعفاه منها .

فلما خرجنا قلت له : يا أبا علي أخطأت ، ألا أخذتها وصرفتها في أبواب البر .

فأخذ بلحيتي ثم قال : يا أبا محمد ، أنت فقيه البلد والمنظور اليه وتغلط مثل هذا الغلط ؟ لو طابت لأولئك لطابت لي .

موت موسى بن جعفر الطالبي

وقبض موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ببغداد مسموما ، لخمس عشرة سنة خلت من ملك الرشيد ، سنة ست وثمانين ومائة ، وهو ابن

أربع وخمسين سنة ، وقد ذكرنا في رسالة بيان أسماء الأئمة القطيعة من الشيعة : أسماءهم ، وأسماء أمهاتهم ، ومواضع قبورهم ، ومقادير أعمارهم ، وكم عاش كل واحد منهم مع أبيه ، ومن أدرك من أجداده عليهم السلام .

من شعر العتابي في الرشيد

ولكلثوم العتابي في الرشيد من أبيات :

إمام له كف يضم بنانها ... عصا الدين ممنوع من البر عودها
وعين محيط بالبرية طرفها ... سواء عليها قربها وبعيدها
وأسمع يقظانا يبيت مناجيا ... له في الحشا مستودعات يكيدها
سميع اذا ناداه من قعر كربة ... مناد كفته دعوة لا يعيدها

العتابي ينال من أبي نواس

حدث يموت بن المزرع قال : حدثني خالد بن عمرو بن بحر الجاحظ قال : كان كلثوم العتابي يضع من قدر أبي نواس ، فقال له راوية أبي نواس يوما : كيف تضع من قدر أبي نواس وهو الذي يقول :

اذا نحن أثنينا عليك بصالح ... فأنت الذي نثني وفوق الذي نثني
وان جرت الألفاظ منا بمدحة ... لغيرك انسانا فأنت الذي نعني

قال العتابي : هذا سرقه .

قال : ممن ؟

قال : من أبي الهذيل الجمحي .

قال : حيث يقول ماذا ؟

قال : حيث يقول :

واذا يقال لبعضهم نعم الفتى ... فابن المغيرة ذلك النعم
عقم النساء فلا يجئن بمثله ... ان النساء بمثله عقم

قال : فقد أحسن في قوله :

فتمشــت في مفاصلهم كتمشي البــرء في السقم

قال : سرقه أيضا .
قال له : وممن ؟
قال : من شوشة الفقعسي .
قال : حيث يقول ماذا ؟
قال : حيث يقول :

اذا ما سقيم حل عنهـا وكاءها تصعــد فيه برؤهــا وتصوبا
وان خالطت منه الحشا خلت أنه على سالف الأيام لم يبــق موصبا

قال فقد أحسن في قوله :

ومــا خلقــت الا لبــذل أكفهم وأقدامهــم الا لأعــواد منبر

قال : قد سرقه أيضا .
قال : ممن ؟
قال : من مروان بن أبي حفصة .
قال : حيث يقول ماذا ؟
قال : حيث يقول :

ومــا خلقــت الا لبــذل أكفهم وألسنهــم الا لتحبــير منطق
فيومــا يبــارون الــرياح سماحة ويومـا لبــذل الخاطــب المتشدق

قال : فسكت الراوية ، ولو أتى بشعره كله لقال سرقه .

أبو العتاهية وعتبة

وحدث أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب قال : كان أبو العتاهية قد أكثر مسألة الرشيد في عتبة ، فوعده بتزويجها وأنه يسألها في ذلك ، فان أجابت جهزها وأعطاه مالا عظيما .

ثم أن الرشيد سنح له شغل استمر به ، فحجب أبو العتاهية عن الوصول اليه ، فدفع الى مسرور الخادم الكبير ثلاث مراوح فدخل بها على الرشيد وهو يتبسم ، وكانت مجتمعة ، فقرأ على واحدة منها مكتوبا :

وقـد تنسمـت الـرياح لحاجتي فاذا لهـا من راحتيه شميم

فقال : أحسن الخبيث ، واذا على الثانية :

أعلقـت نفسي من رجائـك ماله عنـق يخـث اليك بي ورسيم

فقال : قد اجاد ، واذا على الثالثة :

ولربمـا استيأسـت ثم أقـول لا ان الـذي ضمـن النجـاح كريم

فقال : قاتله الله : ما أحسن ما قال ؟ ثم دعا به ، وقال : ضمنت لك يا أبا العتاهية وفي غد نقضي حاجتك ان شاء الله .

وبعث الى عتبة ان لي اليك حاجة فانتظريني الليلة في منزلك ، فأكبرت ذلك وأعظمته ، وصارت اليه تستعفيه ، فحلف ألا يذكر لها حاجته الا في منزلها .

فلما كان في الليل سار اليها ومعه جماعة من خواص خدمه ، فقال لها : لست أذكر حاجتي او تضمنين قضاءها .

قالت : أنا أمتك وأمرك نافذ في ما خلا أمر أبي العتاهية فاني حلفت لأبيك رضي الله عنه بكل يمين يحلف بها بر وفاجر وبالمشي الى بيت الله الحرام حافية كلما انقضت عني حجة وجبت علي أخرى لا أقتصر منها على الكفارة وكلما أفدت شيئا تصدقت به الا ما أصلي فيه ، وبكت بين يديه .

فرق لها ورحمها وانصرف عنها ، وغدا عليه أبو العتاهية وهو لا يشك في الظفر بها فقال له الرشيد : والله ما قصرت في أمرك ، ومسرور وحسين ورشيد وغيرهم شهود لي بذلك ، وشرح له الخبر .

قال أبو العتاهية : فلما أخبرني بذلك مكثت مليا لا أدري أين أنا ، ثم قلت : الآن يئست منها اذ ردتك ، وعلمت أنها لا تجيب أحدا بعدك ، فلبس أبو العتاهية الصوف ،

وقال في ذلك من أبيات :

قطعــت منــك حبائــل الامال   وحططت عن ظهـر المطـي رحالي
ووجدت برد اليأس بين جوانحي   فغنيت عن حل وعــن ترحال

وذكر أنه لما اتصل بالرشيد قول أبي العتاهية في عتبة :

ألا ان ظبيا للخليفــة صادني   ومالي على ظبي الخليفة من عدوى

غضب الرشيد وقال : أسخر منا فعبث ، وأمر بحبسه ، فدفعه الى تنجاب صاحب عقوبته ، وكان فظا غليظا ، فقال أبو العتاهية :

تنجـاب لا تعجـل   علي فليس ذا من رائه
ما خلت هذا في مخا   يل ضوء برق سمائه

وكان من أشعاره في الحبس بعدما طال مكثه :

انمــا أنــت رحمــة وسلامة   زادك اللــه غبطــة وكرامة
قيل لي قد رضيت عني ، فمن لي   أن أرى لي على رضــاك علامة

فقال الرشيد : لله أبوه ! لو رأيته ما حبسته ، وإنما سمحت نفسي بحبسه لأنه كان غائبا عني ، وأمر باطلاقه .

وأبو العتاهية الذي يقول :

نراع لذكر الموت ساعــة ذكره   ونغتــر بالــدنيا فنلهــو ونلعب
ونحــن بنــو الـدنيا خلقنــا لغيرها   ومــا كنــت فيه فهــو شيء محبب

وهو الذي يقول أيضا :

حتوفهــا رصــد ، وعيشهــا رنق   وكدهــا نكد ، وملكهــا دول

وهي الذي يقول :

المرء في تأخير مدته ... كالثوب يبلى بعد جدته
عجبا لمنتبه يضيع ما ... يحتاج فيه ليوم رقدته

وقال :

لا تأمن الدنيا على غدرها ... كم غدرت قبل بأمثالكا
قد أجمع الناس على ذمها ... وما أرى منهم لها تاركا

وقال :

انما أنت مستعير لما سو ... ف تردن ، والمعار يرد
كيف يهوى امرؤ لذاذة أيا ... م عليه الأنفاس فيها تعد ؟!

وقال :

حياتك أنفاس تعد ، فكلما ... مضى نفس منها نقصت به جزءا
يميتك ما يحييك في كل ساعة ... ويحدوك حاد ما يريد بك الهزءا

وقال :

ألا يا موت لم أر منك بدا ... أتيت بما يخيف ولا تحابي
كأنك قد هجمت على مشيبي ... كما هجم المشيب على شبابي

وقال :

نسيت الموت فيما قد نسيت ... كأني لم أجد أحدا يموت
أليس الموت غاية كل حي ... فما لي لا أبادر ما يفوت

وقال :

وعظتك أجداث صمت وبكتك ساكنة خفت
وتكلمت عن أعظم تبلى وعن صور سبت
وأرتك قبرك في القبو ر وأنت حي لم تمت

وقال :

ومشيدا دارا ليسكن ظلها سكن القبور ، وداره لم يسكن

اسحاق الموصلي يغني للرشيد

حدث اسحاق بن ابراهيم الموصلي قال : بينا أنا ذات ليلة عند الرشيد أغنيه اذ طرب لغنائي ، وقال : لا تبرح ، ولم أزل أغنيه حتى نام ، فأمسكت ، ووضعت العود في حجري ، وجلست مكاني .

فاذا بشاب صبيح الوجه ، حسن القد ، عليه مقطعات خز ، وهيئة جميلة ، فدخل وسلم وجلس ، فجعلت أعجب من دخوله في ذلك الوقت الى ذلك الموضع بغير استئذان ، ثم قلت في نفسي : عسى بعض ولد الرشيد ممن لا نعرفه ولم نره ، فضرب بيده الى العود ، فأخذه ووضعه في حجره وجسه ، فرأيت أنه جس أحسن خلق الله ، ثم أصلحه اصلاحا ما أدري ما هو ، ثم ضرب ضربا ، فما سمعت أذني صوتا أجود منه ، ثم اندفع يغني :

ألا عللاني قبل أن نتفرقا وهات اسقني صرفا شرابا مروقا
فقدكادضوءالصبح أن يفضح الدجى وكاد قميص الليل أن يتمزقا

ثم وضع العود في حجره ، وقال : يا عاض بظر أمه ، اذا غنيت فغن هكذا . ثم خرج ، فقمت على أثره ، فقلت للحاجب : من الفتى الذي خرج الساعة ؟

فقال : ما دخل هنا أحد ولا خرج .

قلت : نعم الساعة مر بين يدي فتى صفته كيت وكيت .

قال : لا والله ما دخل أحد ولا خرج ، فبقيت متعجبا ، ورجعت الى مجلسي ، وانتبه الرشيد فقال : ما شأنك ؟

فحدثته القصة ، فبقي متعجبا ، وقال : لقد صادفت شيطانا ، ثم قال : أعد علي الصوت ، فأعدته عليه ، فطرب طربا شديدا ، وأمر لي بجائزة ، وانصرفت .

جماعة من المغنين عند الرشيد

وحدث ابراهيم الموصلي قال : جمع الرشيد ذات يوم المغنين ، فلم يبق أحد من الرؤساء الا حضر ، وكنت فيهم ، وحضر معنا مسكين المدني ، ويعرف بأبي صدقة ، وكان يوقع بالقضيب ، مطبوعا ، حاذقا ، طيب العشرة ، مليح البادرة ، فاقترح الرشيد ـ وقد عمل فيه النبيذ ـ صوتا .

فأمر صاحب الستارة ابن جامع أن يغنيه ، ففعل ، فلم يطرب عليه .

ثم فعل مثل ذلك بجماعة ممن حضر ، فلم يحرك منه أحد .

فقال صاحب الستارة لمسكين المدني : يأمرك أمير المؤمنين ان كنت تحسن هذا الصوت فغنه .

قال ابراهيم : فاندفع فغناه ، فأمسكنا جميعا متعجبين من جراءة مثله على الغناء بحضرتنا في صوت قد قصرنا فيه عن مراد الخليفة .

قال ابراهيم : فلما فرغ منه سمعت الرشيد يقول وقد رفع صوته : يا مسكين أعده . فأعاده بقوة ونشاط واجتماع قلب ، فأحسن فيه كل الاحسان .

فقال الرشيد : أحسنت والله يا مسكين وأجملت ، ورفعت الستارة بيننا وبينه .

قال مسكين : يا أمير المؤمنين ، إن لهذا الصوت خبرا عجيبا .

قال : وما هو ؟

قال : كنت عبدا خياطا لبعض آل الزبير ، وكان لمولاي علي ضريبة أدفع اليه كل يوم درهمين ، فاذا دفعت ضريبتي تصرفت في حوائجي ، وكنت مولعا بالغناء محبا له ، فخطت يوما قميصا لبعض الطالبيين ، فدفع الي درهمين وتغديت عنده وسقاني أقداحا ، فخرجت وأنا جذلان ، فلقيتني سوداء على رقبتها جرة وهي تغني هذا الصوت ، فأذهلني عن كل مهم ، وأنساني كل حاجة ، فقلت : بصاحب هذا القبر والمنبر الا ألقيت علي هذا الصوت .

فقالت : وحق صاحب هذا القبر والمنبر لا ألقيته عليك الا بدرهمين ، فأخرجت والله يا أمير المؤمنين الدرهمين فدفعتهما اليها ، فأنزلت الجرة عن عاتقها واندفعت ، فما زالت تردده حتى كأنه مكتوب في صدري ، ثم انصرفت الى مولاي ، فقال لي : هلم خراجك .

فقلت : كان وكان .

فقال : يا ابن اللخناء ، ألم أتقدم اليك أني لا أقبل لك عذرا في حبة تكسرها ؟ وبطحني وضربني خمسين جريدة بأشد ضرب يكون وحلق لحيتي ورأسي ، فبت يا أمير المؤمنين من أسوأ خلق الله حالا ، وأنسيت الصوت مما نالني .

فلما أصبحت غدوت نحو الموضع الذي لقيتها فيه ، وبقيت متحيرا لا أعرف اسمها ولا منزلها ، اذ نظرت بها مقبلة ، فأنسيت كل ما نالني وملت اليها ، فقالت : أنسيت الصوت ورب الكعبة .

فقلت : الأمر كما ذكرت ، وعرفتها ما مر بي من حلق الرأس واللحية .

فقالت : وحق القبر ومن فيه لا فعلت الا بدرهمين .

فأخرجت جلمي ورهنته على درهمين ، فدفعتهما اليها ، فأنزلت الجرة عن رأسها واندفعت ، فمرت فيه ثم قالت : كأني بك وقد أخذت مكان الأربعة دراهم أربعة آلاف دينار من الخليفة ، ثم اندفعت تغنيه ، وتوقع على جرتها ، فلم تزل تردده حتى رسخ في صدري .

ثم مضت ، وانصرفت الى مولاي وجلا ، فقال : هلم خراجك ، فلويت لساني .

فقال : يا ابن اللخناء ، ألم يكفك ما مر عليك بالأمس .

فقلت : إني أعرفك أنني اشتريت بخراجي أمس واليوم هذا الصوت ، واندفعت أغنيه .

فقال لي : ويحك ! معك مثل هذا الصوت منذ يومين ولم تعلمني . امرأته طالق لو كنت قلته أمس لأعتقتك ، فأما حلق الرأس واللحية فلا حيلة لي فيهما ، وأما خراجك فقد وهبه الله لك الى أن ينبت شعرك .

قال : فضحك الرشيد وقال : ويلك ! ما أدري أيما أحسن : حديثك ، أم غناؤك ؟ وقد أمرت لك بما ذكرته السوداء ، فقبضه ، وانصرف .

والشعر :

قف بالمنازل ساعة فتأمل هل بالديار لرائد من منزل ؟
ما بالديار من البلى فلقد أرى فلسوف أحمل للبلى في محمل

الرشيد يجري حلبة الخيل

وأجرى الرشيد حلبة الخيل يوما بالرقة ، فلما أرسلت صار الى مجلسه في صدر الميدان

حيث توافى اليه الخيل ، فوقف على فرسه وكان في أوائلها سوابق من خيله يقدمها فرسان في عنان واحد لا يتقدم أحدهما صاحبه ، فتأملها فقال : فرسي والله ، ثم تأمل الآخر فقال : فرس ابني المأمون .

قال : فجاءا يحنكان أمام الخيل وكان فرسه السابق وفرس المأمون الثانية ، فسر بذلك ، ثم جاءت الخيل بعد ذلك .

فلما انقضى المجلس وهم بالانصراف قال الأصمعي ـ وكان حاضرا وقد تبين سرور الرشيد ـ للفضل بن الربيع : يا أبا العباس ، هذا يوم من الأيام فأحب ان توصلني الى أمير المؤمنين .

وقام الفضل فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا الأصمعي يذكر شيئا من أمر الفرسين يزيد الله به أمير المؤمنين سرورا .

قال : هاته ، فلما دنا قال : ما عندك يا أصمعي ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، كنت وابنك اليوم في فرسيكما كما قالت الخنساء :

جارى أباه فأقبلا وهما يتنازعان ملاءة الحضر
وهما كأنهما وقد برزا صقران قد حطا على وكر
برزت صفيحة وجه والده ومضى على غلوائه يجري
أولى فأولى أن يقاربه لولا جلال السن والكبر

طبق سمك يتكلف ألف درهم

حدث ابراهيم بن المهدي قال : استزرت الرشيد بالرقة ، فزارني ، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد ، فلما وضعت البوارد رأى فيما قرب منها جام قريص مثل قريص السمك ، فاستصغر القطع ، وقال : لم صغر طباخك تقطيع السمك .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذه ألسنة السمك .

قال : فيشبه أن يكون في هذا الجام مائة لسان .

فقال مراقب خادمه : يا أمير المؤمنين ، فيها أكثر من مائة وخمسين ، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك ، فأخبره أنه قام بأكثر من ألف درهم .

فرفع الرشيد يده وحلف ألا يطعم شيئا دون أن يحضره ألف درهم . فلما حضر المال أمر أن يتصدق به ، وقال : أرجو أن يكون كفارة لسرفك في انفاقك على جام سمك ألف درهم ، ثم ناول الجام بعض خدمه وقال : اخرج من دار أخي ، ثم انظر أول سائل تراه

فادفعه اليه .

قال ابراهيم : وكان شراء الجام على الرشيد بمائتين وسبعين دينارا ، فغمزت بعض خدمي للخروج مع الخادم ليبتاع الجام ممن يصير اليه .

وفطن الرشيد فقال له : يا غلام اذا دفعته الى سائل فقل له يقول لك أمير المؤمنين احذر أن تبيعه بأقل من مائتي دينار فانه خير منها ، ففعل الخادم ذلك ، فوالله ما أمكن خادمي أن يخلصه من السائل الا بمائتي دينار .

احسن الأسماء وأسمجها

وقال ابراهيم بن المهدي : كنت أنا والرشيد على ظهر حراقة وهو يريد نحو الموصل والمدادون يمدون ، والشطرنج بين أيدينا ، فلما فرغنا قال لي الرشيد : يا إبراهيم ، ما أحسن الأسماء عندك ؟

قلت : اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : فما الثاني بعده ؟

قلت : اسم هارون اسم أمير المؤمنين .

قال : فما أسمجها ؟

قلت : ابراهيم .

فزأرني وقال : ويلك ! أليس هو اسم ابراهيم خليل الرحمن جل وعز .

قلت : بشؤم هذا الاسم لقي ما لقي من نمروذ .

قال : وابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : لا جرم لما سمي بهذا الاسم لم يعش .

قال : فابراهيم الامام .

قلت : بحرفة اسمه قتله مروان الجعدي في جراب النورة ، وأزيدك يا أمير المؤمنين ابراهيم بن الوليد خلع ، وابراهيم بن عبد الله بن الحسن قتل ، ولم أجد أحدا سمي بهذا الاسم الا رأيته مقتولا أو مضروبا أو مطرودا .

فما انقضى كلامي حتى سمعت ملاحا على بعض الحراقات يهتف بأعلى صوته : يا ابراهيم يا عاض كذا وكذا من أمه مد .

فالتفت الى الرشيد فقلت : يا أمير المؤمنين ، أصدقت قولي ان أشأم الأسماء ابراهيم ، فضحك حتى فحص برجله .

أدب مخاطبة الأمراء

قال : وكنت يوما عنده فاذا رسول عبد الله قد أتى ، ومعه أطباق خيزران عليها

مناديل ، ومعه كتاب ، فجعل الرشيد يقرأ الكتاب ويقول : بره الله ووصله .

فقلت : يا أمير المؤمنين من هذا الذي أطنبت في شكره حتى نشركك في جميل شكره ؟

قال : هذا عبد الله بن صالح ، ثم كشف المنديل ، فاذا أطباق بعضها فوق بعض : في أحدها فستق ، وفي الآخر بندق ، الى غير ذلك من الفاكهة .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، ما في هذا البر ما يستحق به هذا الدعاء ، الا أن يكون في الكتاب شيء قد خفي عليَّ ، فنبذه الي ، فاذا فيه : دخلت يا أمير المؤمنين بستانا لي في داري عمرته بنعمتك ، وقد أينعت فواكهه ، فأخذت من كل شيء ، وصيرته في أطباق قضبان ووجهته الى أمير المؤمنين ليصل الي من بركة دعائه مثل ما وصل الي من نوافل بره .

قلت : لا والله ما في هذه أيضا ما يستحق به هذا .

فقال : يا غبي أما ترى كيف كنى بالقضبان عن الخيزران اعظاما لأمنا رحمها الله تعالى .

رجل يتعرض للرشيد بقصة
فيثيبه بأربعة آلاف دينار

ويروى أنه وقف رجل من بني أمية للرشيد على الطريق وبيده كتاب كالقصة ، فاذا فيه أربعة أبيات ، وهي :

يا أمين الله ، اني قائل	قول ذي لب وصدق وحسب
لكم الفضل علينا ، ولنا	بكم الفضل على كل العرب
عبد شمس كان يتلو هاشما	وهما بعد لأم ولأب
فصل الأرحام منا ، إنما	عبد شمس عم عبد المطلب

فاستحسن ذلك الرشيد فأمر له لكل بيت بألف دينار ، وقال : لو زدتنا لزدناك .

السكر أطيب أو المشان

وقال الرشيد ذات يوم وأبو يوسف القاضي وعبد الوهاب الكوفي في مجلسه ، فتذاكروا الرطب ، فقال أبو يوسف : السكر أطيب من المشان

وقال عبد الوهاب : المشان أطيب .

فقال الرشيد : ليحضر الطعام ، ودعا بعدة من بني هاشم كانوا هناك ، فأقبلوا جميعا على السكر ، وتركوا المشان .

فقال الرشيد : قضوا عليك يا أبا عبد الرحمن وهم لا يعلمون .
فقال أبو عبد الرحمن : إني لم أر مشان قط أردأ من هذا .
فقال له أبو يوسف : هكذا هما اذا اجتمعا .

تعزية وتهنئة

ودخل عبد الملك بن صالح على الرشيد ، فقال له الحاجب : إن أمير المؤمنين قد أصيب في هذه الليلة بولد وولد له ولد ، فعزٍّ وهنٍّ .

فلما مثل قال : يا أمير المؤمنين ، سرك الله فيما ساءكِ وجعل هذه لهذه ثوابا للصابر وجزاء للشاكر .

علة الرشيد

ولما اشتدت علة الرشيد وسار الى طوس ، سنة ثلاث وتسعين ومائة ، هون عليه الأطباء علته ، فأرسل الى متطبب فارسي كان هناك ، فأراه ماءه مع قوارير شتى ، فلما انتهى الى قارورته قال : عرفوا صاحب هذا الماء أنه هالك فليوص ، فانه لا برء له من هذه العلة .

فبكى الرشيد وجعل يردد هذين البيتين :

ان الطبيب بطبه ودوائه لا يستطيع دفاع محذور القضا
ما للطبيب يموت بالداء الذي قد كان يبرىء مثله فيما مضى ؟

واشتد ضعفه ، وأرجف الناس بموته فدعا بحمار ليركبه ، فلما صار عليه سقطت فخذاه فلم يثبت على السرج ، فقال : انزلوني صدق المرجفون .

ثم دعا بأكفان فاختار منها ما أراد ، وأمر بحفر قبر ، فلما اطلع فيه قال : « ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه » .

ثم دعا بأخي رافع ، فقال ازعجتموني حتى تجشمت هذه الأسفار مع علتي وضعفي .

وكان أخو رافع بن الليث ممن خرج عليه ، قال : لأقتلنك قتلة ما قتل مثلها أحد قبلك .

ثم أمر ففصل عضوا عضوا .

واستأمن رافع بعد ذلك على المأمون ، وقد ذكرنا خبره في غير هذا الكتاب ، ثم دعا من كان بعسكره من بني هاشم ، فقال : إن كل مخلوق ميت ، وكل جديد بال ، وقد نزل

بي ما ترون وأنـا أوصيكم بثـلاث : الحفـظ لأمانتـكم ، والنصيحـة لأئمتـكم ، واجتماع كلمتكم ، وانظروا محمدا وعبد الله فمن بغى منهما على صاحبه فردوه عن بغيه وقبحوا له بغيه ونكثه ، وأقطع في ذلك اليوم أموالا كثيرة وضياعا ورباعا .

شعر لأبي العتاهية يبكي فيه الرشيد

قال الرياشي : قال الأصمعي : دخلت على الرشيد وهو ينظـر في كتـاب ودموعـه تنحدر على خديه ، فظللت قائما حتى سكن وحانت منه التفاتة فقال : اجلس يا أصمعي ، أرأيت ما كان ؟

قلت : نعم يا أمير المؤمنين .

قال : أما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا ، ورمى بقرطاس فاذا فيه شعر لأبي العتاهية بخط جليل ؛ وهو :

هـل انـت معتبـر بمـن خليت — منـه غداة مضـى دساكره
وبمـن أذل الموت مصرعـه — فتبـرأت منـه عشائره
وبمـن خلـت منـه أسرته — وبمـن خلـت منـه منابره
أيـن الملـوك وأيـن غيرهم ؟ — صـاروا مصيـرا أنـت صائره
يـا مؤثـر الـدنيا بلذته — والمسـتعد لمـن يفـاخره
نـل ما بدالك أن تنـال من الدنـ — ـيا فـان المـوت آخره

ثم قال الرشيد : كأني والله أخاطب بذلك دون الناس ، فلم يلبث بعـد ذلك الا يسيرا حتى مات .

***

قال المسعودي : قد ذكرنا جملا وجوامع من أخبار الرشيد فيما سلف من كتبنا ، وفي هذا الكتـاب ، ولـم نذكر فيما سلف من أخبـار الـرشيد في هذا الكتـاب شيئـا من أخبـار البرامكة ، فلنذكر الآن جملا من أخبارهـم في باب نفرده له ، نذكر فيه السعود من أيامهم والنحوس ، وإن كنا قد أتينا على سائر أخبارهـم والزهر من أيامهم فيما سلف من كتبنا والله ولي التوفيق .

ذكر البرامكة وأخبارهم
وما كان منهم في أيامهم

أسماهم خالد بن برمك

لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جودة رأيه وبأسه وجميع خلاله ، لا يحيى في رأيه ووفور عقله ، ولا الفضل في جوده وبراعته ، ولا جعفر بن يحيى في كتابته وفصاحته ، ولا محمد بن يحيى في سروره وبعد همته ، ولا موسى بن يحيى في شجاعته وبأسه ، وفيمن ذكرنا يقول أبو الغول الشاعر :

أولاد يحيى بن خالد وهم أربعة سيد ومتبوع
الخير فيهم اذا سألت بهم مفرق فيهم ومجموع

ولما أفضت الخلافة الى الرشيد استوزر البرامكة ، فاحتازوا الأموال دونه حتى كان يحتاج الى اليسير من المال فلا يقدر عليه .

سبب نكبتهم

وكان ايقاعه بهم في سنة سبع وثمانين ومائة ، واختلف في سبب ذلك ، فقيل احتياز الأموال ، وأنهم أطلقوا رجلا من آل أبي طالب كان في أيديهم ، وقيل غير ذلك ، واللّه أعلم .

الفضل بن يحيى يتشاغل بالصيد
فيزجره أبوه بأمر الرشيد

ويحكى أنه ورد على الرشيد يوما كتاب صاحب البريد بخراسان ، ويحيى بن خالد بين يديه ، يذكر فيه أن الفضل بن يحيى تشاغل بالصيد وادمان اللذات عن النظر في أمور الرعية .

فلما قرأه الرشيد رمى به ليحيى ، وقال له : يا أبت اقرأ هذا الكتاب ، واكتب اليه كتابا يردعه عن مثل هذا .

فمد يده الى دواة الرشيد وكتب الى الفضل على ظهر كتاب صاحب البريد : حفظك اللّه يا بني ، وأمتع بك ، قد انتهى الى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التشاغل بالصيد ومداومة اللذات عن النظر في أمور الرعية ما أنكره ، فعاود ما هو أزين بك ، فانه من عاد الى ما يزينه

ويشينه لم يعرفه أهل دهره الا به ، والسلام .
وكتب في أسفله هذه الأبيات :

انصب نهارا في طلاب العلا واصبر على فقد لقاء الحبيب
حتى اذا الليل بدا مقبلا واستترت فيه وجوه العيوب
فبادر الليل بما تشتهي فانما الليل نهار الأريب
كم من فتى تحسبه ناسكا يستقبل الليل بأمر عجيب
ألقى عليه الليل أستاره فبات في لهو وعيش خصيب
ولذة الأحمق مكشوفة يسعى بها كل عدو رقيب

والرشيد ينظر الى ما يكتب يحيى ، فلما فرغ قال له : أبلغت يا أبت .
فلما ورد الكتاب على الفضل لم يفارق المسجد نهارا الى أن انصرف عن عمله .
قال اسحاق بن ابراهيم الموصلي : كنت عند الرشيد يوما ، وأحضر البرامكة الشراب وأحضر يحيى بن خالد جارية فغنت :

أرقت حتى كأني أعشق الأرقا وذبت حتى كأن السقم لي خلقا
وفاض دمعي على قلبي فأغرقه يا من رأى غرقا في الماء محترقا

فقال الرشيد : لمن هذا ؟
فقيل : لخالد بن يزيد الكاتب .
قال : عليّ به .
قال خالد : فأحضرت ، فقال للجارية : أعيدي ، فأعادت .
فقال لي : لمن هذا ؟
فقلت : لي يا أمير المؤمنين .
فبينا نحن كذلك اذ أقبلت وصيفة معها تفاحة عليها مكتوب لغالية :

سرورك ألهاك عن موعدي فصيرت تفاحتي تذكره

فأخذ الرشيد تفاحة أخرى وكتب عليها

تقاضيت وعدي ولم أنسه فتفاحتي هذه معذره

ثم قال له : يا خالد ، قل في هذا شيئا ، فقال :

تفاحة خرجت بالدر من فيها أشهى الي من الدنيا وما فيها
بيضاء في حمرة غلت بغالية كأنما قطفت من خد مهديها

جعفر البرمكي عند الأصمعي

حدث الجاحظ عمن أخبره عن أنس بن أبي شيخ ، قال : ركب جعفر بن يحيى ذات يوم ، وأمر خادما له أن يحمل معه ألف دينار ، وقال له : سأجعل طريقي على الأصمعي ، فاذا حدثني فرأيتني ضحكت فاجعلها بين يديه .

ونزل جعفر عند الأصمعي ، فجعل الأصمعي يحدثه بكل أعجوبة ونادرة تطرب وتضحك ، فلم يضحك ، وخرج من عنده .

فقال له أنس بن أبي شيخ : رأيت منك عجبا ، أمرت بألف دينار للأصمعي وقد حركك بكل مضحكة وليس من عادتك أن ترد الى بيت مالك ما قد خرج عنه .

فقال له : ويحك ! انه قد وصل اليه من أموالنا مائة ألف درهم قبل هذه المرة ، فرأيت في داره خبا مكسورا وعليه دراعة خلق ، ومقعدا وسخا ، وكل شيء رأيته عنده رثا ، وأنا أرى أن لسان النعمة أنطق من لسانه ، وأن ظهور الصنيعة أمدح وأهجى من مدحه وهجائه ، فعلى أي وجه أعطيه اذا كانت الصنيعة لم تظهر عنده ولم تنطق النعمة بالشكر عنه ؟

وفي الرشيد وجعفر بن يحيى يقول الشاعر :

ليهن الرشيد خلافاته وأمر الذي قد وهى عقده
أضاف الى بيعة بيعة فقام بها جعفر وحده
بنو برمك أسسوا ملكه وشدوا لوارثه عهده

مجلس عند يحيى بن خالد

وقد كان يحيى بن خالد ذا علم ومعرفة وبحث ونظر ، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الاسلام وغيرهم من أهل الآراء والنحل ، فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده : قد

أكثرتم الكلام في الكمون والظهور ، والقدم والحدوث ، والاثبات والنفي ، والحركة والسكون ، والمماسة والمباينة ، والوجود والعدم ، والجر والطفرة ، والأجسام والأعراض ، والتعديل والتجريح ، ونفي الصفات واثباتها ، والاستطاعة والأفعال ، والكمية والكيفية ، والمضاف ، والامامة أنص هي أم اختيار . . . وسائر ما توردونه من الكلام في الأصول والفروع ، فقولوا الآن في العشق على غير منازعة ، وليورد كل واحد منكم ما سنح له فيه ، وخطر ايراده بباله .

حديث لهم عن العشق

فقال علي بن هيثم ، وكان امامي المذهب من المشهورين من متكلمي الشيعة : أيها الوزير ، العشق ثمرة المشاكلة ، وهو دليل تمازج الروحين ، وهو من بحر اللطافة ، ورقة الصنيعة وصفاء الجوهر وليس يحد لسعته ، والزيادة فيه نقصان من الجسد .

وقال أبو مالك الحضرمي ، وهو خارجي المذهب وهم الشراة : أيها الوزير ، العشق نفث السحر ، وهو أخفى وأحر من الجمر ، ولا يكون الا بازدواج الطبعين ، وامتزاج الشكلين ، وله نفوذ في القلب كنفوذ صيب المزن في خلل الرمل ، وهو ملك على الخصال ، تنقاد له العقول ، وتستكين له الآراء .

وقال الثالث ، وهو محمد بن الهذيل العلاف ، وكان معتزلي المذهب وشيخ البصريين : أيها الوزير ، العشق يختم على النواظر ، ويطبع على الأفئدة ، مرتقى في الأجساد ، ومسرعة في الأكباد ، وصاحبه متصرف الظنون ، متغير الأوهام ، لا يصفو له موجود ، ولا يسلم له موعود ، تسرع اليه النوائب ، وهو جرعة من نقيع الموت ، وبقية من حياض الثكل ، غير أنه من أريحية تكون في الطبع ، وحلاوة توجد في الشمائل ، وصاحبه جواد لا يصغي الى داعية المنع ، ولا يسنح به نازع العذل .

وقال الرابع ، وهو هشام بن الحكم الكوفي شيخ الامامية في وقته وكبير الصنعة في عصره : أيها الوزير ، العشق حبالة نصبها الدهر فلا يصيد بها الا أهل التخالص في النوائب ، فاذا علق المحب في شبكتها ونشب في أثنائها فأبعد به أن يقوم سليما أو يتخلص وشيكا ، ولا يكون الا من اعتدال الصورة ، وتكافؤ في الطريقة ، وملاءمة في الهمة ، له مقتل في صميم الكبد ومهجة القلب ، يعقد اللسان الفصيح ، ويترك المالك مملوكا والسيد خولا ، حتى يخضع لعبد عبده .

وقال النظام ابراهيم بن يسار المعتزلي ، وكان من نظار البصريين في عصره : أيها الوزير العشق أرق من السراب ؛ وأدب من الشراب ، وهو من طينة عطرة عجنت في اناء

الجلالة ، حلو المجتنى ما اقتصد ، فاذا أفرط عاد خبلاً قاتلاً ، وفساداً معضلاً لا يطمع في اصلاحه ، له سحابة غزيرة تهمي على القلوب ، فتعشب شغفا ، وتثمر كلفا ، وصريعه دائم اللوعة ، ضيق المتنفس ، مشارف الزمن ، طويل الفكر ، اذا أجنحه الليل أرق ، واذا أوضحه النهار قلق ، صومه البلوى ، وافطاره الشكوى .

ثم قال السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ومن يليهم ، حتى طال الكلام في العشق بألفاظ مختلفة ومعان تتقارب وتتناسب ، وفيما مر دليل عليه .

***

قال المسعودي : تنازع الناس ممن تقدم وتأخر في ابتداء وقوع الهوى وكيفيته ، وهل ذلك من نظر وسماع ، واختيار واضطرار ، وما علة وقوعه بعد أن لم يكن ، وزواله بعد كونه ؟ وهل ذلك فعل النفس الناطقة أو الجسم وطباعه ؟

فقال بقراط : هو امتزاج النفسين ، كما لو امتزج الماء بماء مثله عسر تخليصه بحيلة من الاحتيال ، والنفس الطف من الماء ، وأرق مسلكا ، فمن أجل ذلك لا تزيله الليالي ، ولا تخلقه الدهور ولا يدفعه دافع ، دق عن الأوهام سلكه ، وخفي عن الأبصار موضعه ، وحارت العقول عن كيفية تمكنه ، غير أن ابتداء حركته من القلب ، ثم تسير الى سائر الأعضاء ، فتظهر الرعدة في الأطراف ، والصفرة في الألوان ، واللجلجة في الكلام ، والضعف في الرأي ، والويل والعثار ، حتى ينسب صاحبه الى النقص .

وذهب بعض الأطباء الى أن العشق طمع يتولد في القلب وينمى وتجتمع اليه مواد من الحرص ، فاذا قوي زاد بصاحبه الاهتياج واللجاج والتمادي في التفكر والأماني والهيمان والأحزان وضيق الصدر وكثرة الفكر ، وقلة الطعم ، وفساد العقل ، ويبس الدماء .

وذلك أن التمادي في الطعم للدم محرق ، فاذا احترق استحال الى السوداء ، فاذا قويت جلبت الفكر فتستعلي الحرارة وتلتهب الصفراء ، ثم تستحيل الصفراء الى الفساد ، فتلحق حينئذ بالسوداء ، وتصير مادة لها فتقوى .

ومن طبائع السوداء الفكر ، فاذا فسد اختلطت الكيموسات بالفساد ، ومع الاختلاط تكون الندامة ونقصان العقل ورجاء ما لا يكون ولا يتم ، فحينئذ يشتد ما به ، فيموت أو يقتل نفسه ، وربما شهق فتخفى روحه أربعا وعشرين ساعة فيظن أنه مات فيدفنونه حيا ، وربما تنفس الصعداء فتخفى روحه في تامور قلبه ، وينضم القلب ولا ينفرج حتى يموت ، وربما ارتاح وتشوق بالنظر ويرى من يحب فجأة ، وأنت ترى العاشق اذا سمع ذكر من يحب كيف يهرب دمه ويحول لونه .

وقال بعضهم : ان اللّه خلق كل روح مدورة على هيئة الكرة ، وجزأها أنصافا ، وجعل في كل جسد نصفا ، فكل جسد لقي الجسد الذي فيه النصف الذي قطع من النصف الذي معه كان بينهما عشق ضرورة للمناسبة القديمة ، وتفاوت أحوال الناس في ذلك من القوة والضعف على قدر طبائعهم .

ولأهل هذه المقالة خطب طويل فيما ذكرنا ، وأن النفوس نورية جوهر بسيط نزل من علو الى هذه الأجساد فسكنها ، وأن النفوس تلي بعضا على حسب مجاورتها في عالم النفس في القرب والبعد .

وذهب الى هذا المذهب جماعة ممن يظهرون الاسلام ، واعتلّوا بدلائل من القرآن والسنن ودلائل القياس عند أنفسهم . من ذلك قوله عز وجل : « يأيتها النفس المطمئنة . ارجعي الى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي » .

قالوا : فالرجوع الى الحال لا يكون الا بعد كون متقدم ، ثم قول النبي صلى اللّه عليه وسلم فيما رواه سعيد بن أبي مريم قال : أخبرنا يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

وذهب الى هذا القول جماعة من الأعراب ، ففي ذلك يقول جميل بن عبد اللّه بن معمر العذري في بثينة :

تعلق روحي روحها قبل خلقنا ومن قبل ما كنا نطافا ، وفي المهد
فزاد كما زدنا ، فأصبح ناميا وليس وان متنا بمنتقض العهد
ولكنه باق على كل حالة وزائرنا في ظلمة القبر واللحد

وقال جالينوس : المحبة تقع بين العاقلين لتشاكلهما في العقل ، ولا تقع بين الأحمقين وان كانا متشاكلين في الحمق ، لأن العقل يجري على ترتيب ، فيجوز أن يتفق فيه اثنان على طريق واحدة ، والحمق لا يجري على ترتيب ، ولا يجوز أن يتفق فيه اثنان .

وقسم بعض العرب الهوى فقال :

ثلاثة أحباب ، فحب علاقة وحب تملاق ، وحب هو القتل

وقال الصوفية من البغداديين : ان اللّه عز وجل انما امتحن الناس بالهوى ليأخذوا

أنفسهم بطاعة من يهوونه ، ليشق عليهم سخطه ، ويسرهم رضاه ، فيستدلوا بذلك على قدر طاعة اللّه ، اذ كان لا مثل له ، ولا نظير ، وهو خالقهم غير محتاج اليهم ، ورازقهم مبتدئا بالمن عليهم ، فاذا أوجبوا على أنفسهم طاعة سواه كان تعالى أحرى أن يتبع رضاه .

وللباطنية المتصوفة في هذا كلام كثير وخطب طويل .

وقال أفلاطون : ما أدري ما الهوى ، غير أنه جنون الهي ، والهوى لا محمود ولا مذموم .

وكتب بعض ظرفاء الكتاب الى أخ له : اني صادفت منك جوهر نفسي ، فأنا غير محمود على الانقياد اليك بغير زمام ، لأن النفس يتبع بعضها بعضا .

وللناس ممن خلف وسلف من الفلاسفة والفلكيين والاسلاميين وغيرهم كلام كثير في العشق ، وقد أتينا على ذلك في كتابنا « أخبار الزمان ، ومن أباده الحدثان ، من الأمم الماضية والأجيال الخالية ، والممالك الداثرة » .

وانما خرجنا مما كنا فيه آنفا من أخبار البرامكة عند ذكرنا العشق ، فتغلغل بنا الكلام الى ايراد لمع مما قيل في ذلك .

فلنرجع الآن الى ما كنا فيه من أخبارهم ، واتساق أيامهم ، وانتظامها لهم بالسعود ، ثم انعكاسها الى النحوس .

الرشيد يزوج أخته العباسة لجعفر البرمكي

ذكر ذو معرفة بأخبار البرامكة أنه لما بلغ جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ويحيى بن خالد والفضل وغيرهم من آل برمك ما بلغوا من الملك ، وتناهوا اليه من الرياسة ، واستقامت لهم الأمور ، حتى قيل : ان أيامهم عرس وسرور دائم لا يزول ، قال الرشيد لجعفر بن يحيى : ويحك يا جعفر ! انه ليس في الأرض طلعة أنا بها آنس ، ولا اليها أميل ، وأنا بها أشد استمتاعا وأنسا مني برؤيتك ، وان للعباسة أختي مني موقعا ليس بدون ذلك ، وقد نظرت في أمري معكما ، فوجدتني لا أصبر عنك ولا عنها ، ورأيتني ناقص الحظ والسرور منك يوم أكون معها ، وكذلك حكمي منك في يوم كوني معك دونها ، وقد رأيت شيئا يجتمع لي به السرور ، وتتكاثف لي به اللذة والأنس .

فقال : وفقك اللّه يا أمير المؤمنين ، وعزلك على الرشد في أمورك كلها !

قال الرشيد : قد زوجتكها تزويجا تملك به مجالستها والنظر اليها والاجتماع بها في مجلس أنا معكما فيه لا سوى ذلك .

فزوجه الرشيد بعد امتناع كان من جعفر اليه في ذلك ، وأشهد له من حضره من خدمه وخاصة مواليه .

وأخذ الرشيد عليه عهد اللّه ومواثيقه وغليظ أيمانه أنه لا يخلو بها ، ولا يجلس معها ، ولا يظله واياها سقف بيت الا وأمير المؤمنين الرشيد ثالثهما . فحلف له جعفر على ذلك ، ورضي به ، وألزمه نفسه .

وكانوا يجتمعون على هذه الحالة التي وصفناها وجعفر في ذلك صارف بصره عنها ، مزور بوجهه هيبة لأمير المؤمنين ، ووفاء بعهده وأيمانه ومواثيقه على ما وافقه الرشيد عليه .

وعلقته العباسة ، وأضمرت الاحتيال عليه وكتبت اليه رقعة ، فرد رسولها وشتمه وتهدده ، وعادت فعاد بمثل ذلك .

فلما استحكم اليأس عليها قصدت لأمه ، ولم تكن بالحازمة ، فاستمالتها بالهدايا من نفيس الجواهر والألطاف ، وما أشبه ذلك من كثرة المال وألطاف الملوك ، حتى اذا ظنت أنها لها في الطاعة كالأمة ، وفي النصيحة والاشفاق كالوالدة ، ألقت اليها طرفا من الأمر الذي تريده ، وأعلمتها ما لها في ذلك من حميد العاقبة ، وما لابنها من الفخر والشرف بمصاهرة أمير المؤمنين ، وأوهمتها أن هذا الأمر اذا وقع كان به أمان لها ولولدها من زوال النعمة وسقوط مرتبته .

فاستجابت لها أم جعفر ، ووعدتها بإعمال الحيلة في ذلك ، وأنها تلطف لها حتى تجمع بينهما ، فأقبلت على جعفر يوما فقالت له : يا بني ، قد وصفت لي وصيفة في بعض القصور من تربية الملوك قدبلغت من الأدب والمعرفة والظرف والحلاوة مع الجمال الرائع والقد البارع والخصال المحمودة ما لم ير مثله ، وقد عزمت على اشترائها لك ، وقد قرب الأمر بيني وبين مالكها .

فاستقبل جعفر كلامها بالقبول ، وعلقت بذلك قلبه ، وتطلعت اليها نفسه ، وجعلت تمطله ، حتى اشتد شوقه ، وقويت شهوته ، وهو في ذلك يلح عليها بالتحريك والاقتضاء .

فلما علمت أنه قد عجز عن الصبر واشتد به القلق قالت له : أنا مهديتها اليك ليلة كذا وكذا ، وبعثت الى العباسة فأعلمتها بذلك ، فتأهبت بمثل ما تتأهب به مثلها وسارت اليها في تلك الليلة .

وانصرف جعفر في تلك الليلة من عند الرشيد ، وقد بقي في نفسه من الشراب فضلة لما قد عزم عليه .

فدخل منزله ، وسأل عن الجارية ، فخبر بمكانها ، فأدخلت على فتى سكران لم يكن بصورتها عالما ، ولا على خلقها واقفا ، فقام اليها فواقعها ، فلما قضى حاجته منها قالت له : كيف رأيت حيل بنات الملوك ؟

قال : وأي بنات الملوك تعنين ؟ وهو يرى أنها من بعض بنات الروم .

فقالت له : أنا مولاتك العباسة بنت المهدي .

فوثب فزعا ،وقد زال عنه سكره ، ورجع اليه عقله ، فأقبل على أمه وقال : لقد بعتني بالثمن الرخيص ، وحملتني المركب الوعر ، فأنظري ما يؤول اليه حالي .

وانصرفت العباسة مشتملة منه على حمل ، ثم ولدت غلاما ، فوكلت به خادما من خدمها يقال له رياش وحاضنه تسمى برة .

فلما خافت ظهور الخبر وانتشاره وجهت الصبي والخادم والحاضنة الى مكة ، وأمرتهما بتربيته .

وطالت مدة جعفر ، وغلب هو وأبوه واخوته على أمر المملكة ، وكانت زبيدة أم جعفر زوج الرشيد من الرشيد بالمنزلة التي لا يتقدمها أحد من نظرائها .

وكان يحيى بن خالد لا يزال يتفقد أمر حرم الرشيد ويمنعهن من خدمة الخدم ، فشكت زبيدة الى الرشيد ، فقال ليحيى بن خالد : يا أبت ، ما بال أم جعفر تشكوك ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، أمتهم أنا في حرمك وتدبير قصرك عندك ؟

فقال : لا واللّه .

قال : لا تقبل قولها .

قال الرشيد : فلست أعاودك . فازداد يحيى لها منعا ، وعليها في ذلك غلظة ، وكان يأمر بقفل أبواب الحرم بالليل ، ويمضي بالمفاتيح الى منزله .

فبلغ ذلك من أم جعفر كل مبلغ ، فدخلت ذات يوم على الرشيد فقالت : يا أمير المؤمنين ، ما يحمل يحيى على ما لا يزال يفعله من منعه اياي من خدمي ووضعه اياي في غير موضعي ؟

فقال لها الرشيد : يحيى عندي غير متهم في حرمي .

فقالت : ان كان كذلك لحفظ ابنه مما ارتكبه .

فقال : وما ذاك ؟

فخبرته بالخبر وقصت عليه قصة العباسة مع جعفر ، فسقط في يده ، وقال لها : هل لك على ذلك دليل أو شاهد .

قالت : وأي دليل أدل من الولد ؟

قال : وأين الولد ؟

قالت : قد كان ههنا ، فلما خافت ظهور أمره وجهته الى مكة .

فقال لها : أفيعلم هذا أحد غيرك ؟

قالت : ما في قصرك جارية الا وقد علمت به ، فأمسك عن ذلك ، وطوى عليه كشحا ، وأظهر أنه يريد الحج ، فخرج هو وجعفر بن يحيى ، وكتبت العباسة الى الخادم والحاضنة أن يخرجا بالصبي الى اليمن .

فلما صار الرشيد الى مكة وكل من يثق به بالفحص والبحث عن أمر الصبي والداية والخادم فوجد الأمر صحيحا .

فلما قضى حجه ورجع أضمر في البرامكة ازالة النعمة عنهم ، والايقاع بهم ، فأقام ببغداد مديدة ، ثم خرج الى الأنبار .

فلما كان في اليوم الذي عزم فيه على قتل جعفر دعا بالسندي بن شاهك ، فأمره بالمضي الى مدينة السلام والتوكيل بدور البرامكة ودور كتابهم وأبنائهم وقراباتهم وأن يجعل ذلك سرا من حيث لا يكلم به أحد حتى يصل الى بغداد ثم يفضي بذلك الى من يثق به من أهله وأعوانه .

فامتثل السندي لذلك وقعد الرشيد وجعفر عنده في موضع يعرف في الأنبار بالعمر ، فأقاما يومهما بأحسن هيئة وأطيب عيش ، فلما انصرف جعفر من عنده خرج الرشيد حتى ركب مشيعا له ثم رجع الرشيد فجلس على كرسي ، وأمر بما كان بين يديه فرفع فمضى جعفر الى منزله وفيه فضلة من الشراب ، ودعا بأبي زكار المغني الطنبوري وابن أبي شيخ كاتبه ، ومدت ستارة جلس جواريه خلفها يضربن ويغنين ، وأبو زكار يغنيه :

ما تريد الناس منا ما تنام الناس عنا
انما همتهم أن يظهروا ما قد دفنا

وامر الرشيد من ساعته ياسرا خادمه المعروف برخلة فقال له : اني أندبك لأمر ما أرى محمدا ولا القاسم له أهلا ولا موضعا ، ورأيتك به مستقلا ناهضا ، فحقق ظني ، واحذر أن تخالف أمري فيكون ذلك سببا لسقوط منزلتك عندي وفساد حالك لدي .

فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أمرتني أن أدخل السيف في بطني وأخرجه من ظهري بين يديك لفعلت ، فمرني بأمرك فاني والله مسرع .

فقال : ألست تعرف جعفر بن يحيى البرمكي ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، وهل أعرف سواه ؟ أو ينكر مثل جعفر ؟

قال : ألم تـر تشييعي اياه عند خروجه ؟

قال : بلى .

قال : فامض الساعة اليه فأتني برأسه على أي حالة تجده عليها . فأرتـج على ياسر الكلام وأخذته رعدة ووقف لا يحير جوابا .

قال : ياياسر ، ألم أتقدم اليك بترك الخلاف علي ؟

قال : بلى يا أمير المؤمنين ! ولكن الخطب أجلّ من ذلك ، الأمر الذي ندبني اليه أمير المؤمنين وددت لو أني كنت مت قبل أن يجري على يدي منه شيء .

فقال : دع عنك هذا وامض لما قد أمرتك ، فمضى ياسر حتى دخل على جعفر وهو على حال لهوه ، فقال له : ان أمير المؤمنين قد أمرني فيك بكيت وكيت .

فقال جعفر : إن أمير المؤمنين يمازحني بأصناف من المزاح فأحسب أن هذا جنس منه .

فقال : واللّه ما رأيته الا جادا .

قال : فان يكن الأمر كما قلت فهو اذن سكران .

قال : لا واللّه ما افتقدت من عقله شيئا ، ولا ظننته شرب نبيذا في يومه مع ما رأيت من عبادته .

قال له : فان لي عليك حقوقا لم تجد لها مكافأة في وقت من الأوقات الا هذا الوقت .

قال : تجدني الى ذلك سريعا الا فيما خالف أمير المؤمنين .

قال : فارجع اليه فأعلمه أنك قد نفذت ما آمرك به ، فان أصبح نادما كانت حياتي على يديك جارية ، وكانت لك عندي نعمة مجددة وان أصبح على مثل هذا الرأي نفذت ما أمرت به في غد .

قال : ليس الى ذلك سبيل .

قال : فأسير معك الى مضرب أمير المؤمنين حتى أقف بحيث أسمع كلامه ومراجعته اياك ، فاذا أبديت عذرا ولم يقنع الا بمسيرك اليه برأسي خرجت فأخذت رأسي من قرب .

قال له : أما هذا فنعم .

فمضيا جميعا الى مضرب الرشيد فدخل اليه ياسر فقال : قد أخـذت رأسـه يا أمـير المؤمنين ، وها هو ذا بالحضرة .

فقال له : ائتني به والا واللّه قتلتك قبله .

فخرج فقال له : أسمعت الكلام ؟

قال : فشأنك وما أمرت به ، فأخرج جعفر من كمه منديلا صغيرا فعصب به عينيه

ومد رقبته فضربها ياسر وأدخل رأسه الى الرشيد ، فلما رأى الرأس بين يديه أقبل عليه ، وجعل يذكره بذنوبه ، ثم قال : ياياسر ائتني بفلان وفلان ، فلما أتى بهم قال لهم : اضربوا عنق ياسر ، فاني لا أقدر أن أنظر الى قاتل جعفر .

وقال الأصمعي : وجه الي الرشيد في تلك الليلة ، فلما أدخلت اليه قال : يا أصمعي ، قد قلت شعرا فاسمعه .

قلت : نعم ، يا أمير المؤمنين .

فأنشد :

لو أن جعفر هاب أسباب الردى لنجا بمهجته طمر ملجم
ولكان من حذر المنون بحيث لا يسمو اليه به العقاب القشعم
لكنه لما تقارب وقته لم يدفع الحدثان عنه منجم

قال الأصمعي : ورجعت الى منزلي فلم أصر اليه حتى تحدث الناس بقتل جعفر ، وأصيب على باب قصر علي بن عيسى بن ماهان بخراسان في صبيحة الليلة التي قتل فيها جعفر وأوقع بالبرامكة مكتوب بقلم جليل :

ان المساكين بنو برمك صبت عليهم غير الدهر
ان لنا في أمرهم عبرة فليعتبر ساكن ذا القصر

مدة سلطان البرامكة
ورثاء الشعراء لهم

قال المسعودي :وكانت مدة دولة البرامكة وسلطانهم وأيامهم النضرة الحسنة من استخلاف هارون الرشيد الى أن قتل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما ، وقد رثتهم الشعراء بمراث كثيرة ، وذكرت أيامهم ، فمن ذلك قول علي بن أبي معاذ :

يا أيها المغتر بالدهر والدهر ذو صرف وذو غدر
لا تأمن الدهر وصولاته وكن من الدهر على حذر

ان كنت ذا جهل بتصريفه فانظر الى المصلوب بالجسر
فان فيه عبرة ، فاعتبر ياذا الحجا والعقل والفكر
وخذ من الدنيا صفا عيشها واجر مع الدهر كما يجري
كان وزير القائم المرتضى وذا الحجا والفضل والذكر
وكانت الدنيا بأقطارها اليه في البر وفي البحر
يشيد الملك بآرائه وكان فيه نافذ الأمر
فبينما جعفر في ملكه عشية الجمعة بالعمر
يطير في الدنيا بأجناحه يأمل طول الخلد والعمر
اذ عثر الدهر به عثرة ، ياويلنا من عثرة الدهر
وزلت النعل به زلة كانت له قاصمة الظهر
فغودر البائس في ليلة السْـ ـبْت قتيلا مطلع الفجر
وأصبح الفضل بن يحيى وقد أحيط بالشيخ وما يدري
وجيء بالشيخ وأولاده يحيى معا في الغل والأسر
والبرمكيين وأتباعهم من كان في الآفاق والمصر
كأنما كانوا على موعد كموعد الناس الى الحشر
وأصبحوا للناس أحدوثة سبحان ذي السلطان والأمر

وممن رثائهم فاستحسن قوله أشجع السلمي ، فقال من قصيدة :

الآن أرحنا واستراحت ركابنا وأمسك من يجدي ومن كان يجتدي
فقل للمطايا قد أمنت من السرى وطي الفيافي فدفدا بعد فدفد
وقل للعطايا بعد فضل : تعطلي وقل للرزايا : كل يوم تجددي
ودونك سيفا برمكيا مهندا أصيب بسيف هاشمي مهند

وقال فيهم سلم الخاسر :

خوت أنجم الجدوى وشلت يد الندى وغاضت بحار الجود بعد البرامك
هوت أنجم كانت لأبناء برمك بها يعرف الهادي قويم المسالك

وقال فيهم صالح الأعرابي :

لقد خان هذا الدهر أبناء برمك   وأي ملوك لم تخنها دهورها ؟
ألم يك يحيى والي الأرض كلها   فأضحى كمن وارته منها قبورها

وقال فيهم أبو حزرة الأعرابي ، وقيل أبو نواس :

ما رمى الدهر آل برمك لما   أن رمى ملكهم بأمر بديع
ان دهرا لم يرع حقا ليحيى   غير راع حقا لآل الربيع

وقال فيهم بعض الشعراء فأحسن :

يا بني برمك واها لكم   ولأيامكم المقبلة
كانت الدنيا عروسا بكم   وهي اليوم ثكول أرملة

وقال أشجع فيهم :

ولى عن الدنيا بنو برمك   فلو توالى على الناس ما زادا
كأنما أيامهم كلها   كانت لأهل الأرض أعيادا

ولآخر فيهم من أبيات :

كأن أيامهم من حسن بهجتها   مواسم الحج والأعياد والجمع

وقال منصور النمري :

اندب بني برمك لدنيا   تبكي عليهم بكل واد
كانت بهم برهة عروسا   فأضحت اليوم في حداد

وقال دعبل الخزاعي :

ألـــم ترصرف الدهـــر في آل برمك وفي ابـن نهيك والقـــرون التـــي تخلو
لقـــد غرس القـــوم النخيل تمكنا فما حصـدا الا كما حصـد البقل

وقال أشجع فيهم أيضا :

قد سار دهـــر ببنـــي برمك ولـــم يـدع فيهـــم لنـا بقيـا
كانـــوا أولى الخـــير وهـــم أهله فارتفـــع الخير عن الدنيـا

ولما قتل جعفر وقبض على يحيى والفضـل ، وضيق عليهما المحـابس ، واشتـد بهما الجهد ، وترادف عليهما البلاء قال الفضل بن يحيى يذكر ما هما فيه :

الى اللّـه فيما نابنا نرفـــع الشكوى ففـــي يده كشف المضرة والبلوى
عجبنـــا وقلنـــا : جاء هذا من الدنيا فلا نحن في الأموات فيها ولا الأحيا

وكان الرشيد كثيرا ما ينشد بعد نكبة البرامكة :

ان اســـتـهـانتهـــا اذا وقـعـــت لبـقـدر مـا تعـلـــو بهـا رتبـــه
واذا بـدت للنـمـــل أجنـحـــة حتـــى يـطـير فقـد دمـا عطبـــه

وقال محمد بن عبد الرحمن الهاشمي : دخلت على والدتي يوم نحر ، فوجدتها وعندها امرأة برزة متكلمة في أثواب رثة فقالت لي : أتعرف هذه ؟

قلت : لا

قالت : هذه عبادة أم جعفر بن يحيى .

فأقبلت عليها بوجهي أحدثها وأعظمها ثم قلت لها : يا أماه ما أعجب ما رأيت ؟ قالت : يابني ، لقد أتى علي عيد مثل هذا وأنا على رأسي أربعمائة وصيفة ، واني

لأعد ابني عاقا لي ، ولقد أتى علي هذا العيد وما أتمنى سوى جلد شاتين أفترش أحدهما والتحف الآخر .

قال : فدفعت اليها خمسمائة درهم ، فكادت تموت فرحا بها ، ولم تزل تختلف الينا حتى فرق الموت بيننا .

وحكي عن بعض عمومة الرشيد أنه صار الى يحيى بن خالد عند تغير الرشيد له قبل الايقاع بهم ، فقال له : ان أمير المؤمنين قد أحب جمع الأموال ، ولقد كثر ولده فهو يريد أن يعقد لهم الضياع ، وقد كثر عليك وعلى أصحابك عنده ، فلو نظرت الى ضياعهم وأموالهم فجعلتها لولد أمير المؤمنين ، وتقربت اليه بها رجوت أن يكون لك السلامة ، وأن يرجع لك أمير المؤمنين .

فقال له يحيى : والله لأن تزول النعمة علي أحب الي من أن أزيلها عن قوم كنت سببها اليهم .

وذكر الخليل بن الهيثم الشعبي ـ وكان قد وكله الرشيد بيحيى والفضل في الحبس ـ قال : أتاني مسرور الخادم ومعه جماعة من الخدم ، ومع خادم منهم منديل ملفوف ، فسبق الى نفسي أن الرشيد قد تعطف عليهم ، فوجه اليهم بلطف ، فقال لي مسرور : أخرج الفضل بن يحيى .

فلما مثل بين يديه قال له : ان أمير المؤمنين يقول لك : اني قد أمرتك أن تصدقني عن أموالكم فزعمت أنك قد فعلت ، وقد صح عندي أنك أبقيت لك أموالا ، وقد أمرت مسرورا ان لم تطلعه عليها أن يضربك مائتي سوط .

فقال له الفضل : قتلت والله يا أبا هاشم .

فقال له مسرور : يا أبا العباس أرى لك أنك لا تؤثر مالك على مهجتك ، فاني لا آمن ان أنفذ ما أمرت به فيك أن آتي على نفسك .

فرفع الفضل رأسه الى السماء وقال له : يا أبا هاشم ، ما كذبت أمير المؤمنين ، ولو كانت الدنيا لي وخيرت بين الخروج منها وبين أن أقرع مقرعة لاخترت الخروج منها ، وأمير المؤمنين يعلم وأنت تعلم أنا كنا نصون أعراضنا بأموالنا ، وكيف صرنا اليوم نصون أموالنا منكم بأنفسنا ؟ فان كنت أمرت بشيء فامض له .

فأمر بالمنديل فنفض ، فسقط منه أسواط بأثمارها ، فضرب مائتي سوط ، وتولى ضربه أولئك الخدم ، فضربوه أشد الضرب الذي يكون بغير معرفة ، فكادوا يأتون على نفسه ، فخفنا عليه الموت ، فقال الخليل بن الهيثم لوكيله المعروف بأبي يحيى : ان هنا رجلا قد كان في الحبس ، وهو بصير بالعلاج لمثل هذا أو شبهه ، فسر اليه واسأله أن يعالجه .

قال : فأنهيت اليه ذلك .

فقال : لعلك تريد أن تعالج الفضل بن يحيى ، فقد بلغني ما صنع به ؟

فقلت : اياه أريد .

قال : فامض بنا اليه حتى أعالجه .

فلما رآه قال : أحسبه ضربه خمسين سوطا .

قال : انه ضربه مائتي سوط .

قال : ما أظن الا أن هذا أثر خمسين سوطا ، ولكن يحتاج أن ينام على بارية وأدوس صدره ساعة .

فجزع الفضل من ذلك ، ثم أجاب اليه ، ففعل ذلك به ، ولم يزل يدوس صدره ، ثم أخذ بيده فجذبه حتى أقامه عن البارية ، فتعلق بها من لحم ظهره شيء كثير ، ثم جعل يختلف اليه ويعالجه الى أن نظر يوما اليه فخر ساجدا ، فقلت : مالك ؟

فقال : يا أبا يحيى ، قد برىء أبو العباس ، ادن مني حتى ترى .

قال : فدنوت منه فأراني في ظهره لحما نابتا ، ثم قال لي : أتحفظ قولي هذا أثر خمسين سوطا ؟

قلت : نعم .

قال : والله لو ضرب ألف سوط ما كان أثرها بأشد من ذلك الأثر ، وانما قلت ذلك لكي تقوى نفسه فيعينني على علاجه .

فلما خرج الرجل قال لي الفضل : يا أبا يحيى ، قد احتجت عشرة آلاف درهم ، فسر الى المعروف بالنسائي وأعلمه حاجتي اليها ، قال : فأتيته بالرسالة ، فأمر بحملها اليه ، فقال : يا أبا يحيى ، أحب أن تمضي الى هذا الرجل وتعتذر اليه ، وتسأله قبول ما وجهت به .

قال : فمضيت اليه فوجدته قاعدا على حصير وطنبور له معلق ودساتيج فيها نبيذ وأداة رثة ، فقال : ما حاجتك يا أبا يحيى ؟

فأقبلت أعتذر عن الفضل ، وأذكر ضيق الأمر عليه ، وأعلمته بما وجه به اليه ، فامتعض من ذلك ونخر حتى أفزعني ، وقال : عشرة آلاف درهم ... يرددها ! فجهدت كل الجهد أن يقبلها ، فأبى ، فصرت الى الفضل ، فأعلمته فقال لي : استقلها والله .

ثم قال لي الفضل : أحب أن تعود الى النسائي ثانية وتعلمه أني احتجت الى عشرة آلاف درهم أخرى ، فاذا دفعها اليك فسر بالكل الى الرجل .

قال : فقبضت من النسائي عشرة آلاف أخرى ورجعت الى الرجل ومعي المال ، وعرفته الخبر ، فأبى أن يقبل شيئا منه ، فقال : أنا أعالج فتى من الأبناء بكراء ؟ اذهب عني ، فوالله لو كانت عشرين ألف دينار ما قبلتها .

فرجعت الى الفضل وأخبرته الخبر ، فقال لي : يا أبا يحيى ، حدثني بأحسن ما رأيت أو بلغك من أفعالنا .

قال : فجعلت أحدثه مليا ، فقال : دع عنك هذا ، فوالله ان ما فعله هذا الرجل أحسن من كل ما فعلناه في أيامنا كلها .

وقتل جعفر بن يحيى وهو ابن خمس وأربعين سنة ، وقيل أقل من ذلك ، ومات يحيى ابن خالد بالرقة في سنة تسع وثمانين ومائة على ما قدمنا .

***

قال المسعودي : وللرشيد أخبار حسان وسير ، وقد قدمنا ذكرها فيما سلف من كتبنا في ذكر أخبار ملوك الروم بعد ظهور الاسلام ، وما كان بينه وبين نقفور فيما تقدم من هذا الكتاب .

وللبرامكة أخبار حسان ، وما كان منهم من الافضال بالمعروف واصطناع المكارم ، وغير ذلك من عجائب اخبارهم وسيرهم وما مدحتهم الشعراء به ، ومراثيهم ، وقد أتينا على جميع ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، وانما نورد في هذا الكتاب لمعا من الأخبار لم يتقدم لها ايراد في ما تقدم من كتبنا .

وكذلك ذكرنا بدء أخبارهم قبل ظهور الاسلام وكونهم على بيت النوبهار ، وهو بيت النار ببلخ المقدم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب ، وعلة تسميته برمك ، وخبر برمك الأكبر مع ملوك الترك ، وخبرهم بعد ظهور الاسلام ، وما كان منهم في أيام بني أمية كهشام بن عبد الملك وغيره ، وما كان منهم في أيام المنصور ، واكتفينا بما ذكرناه في هذا الكتاب من هذه التلويحات من أخبارهم واللمع من آثارهم .

ذكر خلافة محمّد الأمين
ابن هارون الرشيد

موجـز

وبويع محمد بن هارون في اليوم الذي مات فيه هارون الرشيد ، وهو يوم السبت لأربع ليال خلون من جمادى الأولى ، بطوس ، سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وتقدم ببيعته رجاء الخادم ، وكان القيم ببيعته الفضل بن الربيع ، وكان محمد يكنى بأبي موسى .وأمه زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر بالرصافة وكان مولده بالرصافة .

وقتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وستة أشهر وثلاثة عشر يوما . ودفنت جثته ببغداد ، وحمل رأسه الى خراسان .

وكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر ، وقيل : تسعة أشهر ، وقيل : ثمانية أشهر وستة أيام ، على حسب ما وجدنا من اختلاف التواريخ وتباينها .

وقيل : ان محمدا أفضت الخلافة اليه وهو ابن اثنتين وعشرين سنة وسبعة أشهر وأحد وعشرين يوما ، وكان أصغر من المأمون بستة أشهر ، وكانت أيامه في الحصار من خلعه الى مقتله سنة ونصفا وثلاثة عشر يوما ، حبس فيها يومين .

ذكر جمل من أخباره وسيره
ولمع مما كان في أيامه

كيف جاءه خبر الولاية

قبض الرشيد والمأمون بمرو ، وبعث صالح بن الرشيد رجاء الخادم مولى محمد الأمين ، الى محمد ، فأتاه بالخبر في اثني عشر يوما الى مدينة السلام يوم الخميس للنصف من جمادى الآخرة .

رؤيا زبيدة أيام حملت بالأمين
وعند مولده وبعده

وذكر جماعة من الأخباريين وممن عني بأخبار العباسيين كالمدائني والعتبي وغيرهما أن زبيدة رأت في المنام ليلة علقت بمحمد كأن ثلاث نسوة دخلن عليها وهي بمجلس ، فقعدت اثنتان عن يمينها وواحدة عن يسارها ، فدنت احداهن ، فجعلت يدها على بطن أم جعفر ، ثم قالت : ملك فخم عظيم البذل ثقيل الحمل ، نكد الأمر .

ثم فعلت الثانية كما فعلت الأولى ، وقالت : ملك ناقص الجد ، مفلول الحد ، ممذوق الود ، تجور أحكامه ، وتخونه أيامه .

ثم فعلت الثالثة كما فعلت الثانية ، وقالت : ملك قصاف ، عظيم الايلاف ، كثير الخلاف ، قليل الانصاف .

قالت : فاستيقظت وأنا فزعة ، فلما كان في الليلة التي وضعت فيها محمدا دخلن علي وأنا نائمة كما كن دخلن ، فقعدن عند رأسي ، ونظرن في وجهي ، ثم قالت احداهن : شجرة نضرة ، وريحانة حسنة ، وروضة زاهرة .

ثم قالت الثانية : عين غدقة ، قليل لبثها ، سريع فناؤها ، عجل ذهابها .

وقالت الثالثة : عدو لنفسه ، ضعيف في بطشه ، سريع الى غشه ، مزال عن عرشه .

فاستيقظت من نومي وأنا فزعة بذلك ، وأخبرت بذلك بعض قهارمتي فقالت : بعض ما يطرق النائم ، وعبث من عبث التوابع .

فلما تم فصاله أخذت مرقدي ليلة ومحمد أمامي في مهده ، اذ بهن قد وقفن على رأسي وأقبلن على ولدي محمد ، فقالت احداهن : ملك جبار ، متلاف مهذار ، بعيد الآثار ، سريع العثار .

ثم قالت الثانية : ناطق مخصوم ، ومحارب مهزوم ، وراغب محروم ، وشقي مهموم .

وقالت الثالثة : احفروا قبره ، ثم شقوا لحده ، وقدموا أكفانه ، وأعدوا جهازه ، فان موته خير من حياته .

قالت : فاستيقظت وأنا مضطربة وجلة ، وسألت مفسري الأحلام والمنجمين ، فكل يخبرني بسعادته وحياته وطول عمره ، وقلبي يأبى ذلك ، ثم زجرت نفسي وقلت : وهل يدفع الاشفاق والحذر والاحتراز واقع القدر ، أو يقدر أحد أن يدفع عن أحبابه الأجل .

موت ابن عياش

وفي سنة ثلاث وتسعين ومائة مات أبو بكر بن عياش الكوفي الأسدي وهو ابن ثمان وتسعين سنة ، بعد موت الرشيد بثماني عشرة ليلة .

عزم الأمين على خلع أخيه

ولما هم محمد بخلع المأمون شاور عبد اللّه بن حازم ، فقال له : أنشدك اللّه يا أمير المؤمنين ألا تكون أول الخلفاء نكث عهده ، ونقض ميثاقه ، واستخف بيمينه .

فقال : اسكت اسكت اللّه فاك ، فعبد الملك بن صالح كان أفضل منك رأيا حيث

يقول : لا يجتمع فحلان في هجمة .

وجمع القواد وشاورهم فاتبعوه في مراده الى أن بلغ الى هرثمة بن حازم فقال : يا أمير المؤمنين ، لن ينصحك من كذبك ، ولن يغشك من صدقك ، لا تجرىء القواد على الخلع فيخلعوك ، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك ، فان الغادر مخذول ، والناكث مغلول .

ودخل علي بن عيسى بن ماهان، فتبسم محمد وقال: لكن شيخ هذه الدعوة، وباب هذه الدولة ، لا يخالف امامه ، ولا يوهن طاعته ، ثم رفعه الى موضع ما رفعه اليه فيما كان علي بن عيسى أول من أجاب الى خلع المأمون ، فسيره في جيش عظيم نحو خراسان ، فلما قرب من الري قيل له : ان طاهر بن الحسين مقيم بها . وقد كان يظن أن طاهرا لا يثبت له ، فقال : واللّه ما طاهر الا شوكة من أغصاني ، وشرارة من ناري ، وما مثل طاهر يؤمر على جيش ، وما بينه وبين الموت الا أن تقع عينه على سوادكم ، فان السخال لا تقوى على نطاح الكباش ، والثعالب لا تقدر على لقاء الأسد .

فقال له ابنه : ابعث طلائع وارتد موضعا لعسكرك .

فقال : ليس مثل طاهر يستعد له بالمكايد ، ويستظهر له بالاحتراز والتحفظ ، ان حال طاهر يؤدي الى أمرين : اما أن يتحصن بالري فيثب به أهلها ويكفونا مؤنته ، أو يخليها ويدبر راجعا ، لو قد قربت خيولنا منه .

فقال له ابنه : ان الشرارة ربما صارت ضراما .

فقال : اسكت ، ان طاهرا ليس قرنا في هذا الموضع ، وانما تحترس الرجال من أقرانها .

وسار علي بن عيسى حتى دنت عساكره من الري ، وتبين ما عليه طاهر من الجد وأهبة الحرب وضم الأطراف ، فعدل الى رستاق ، من رساتيق الري متياسرا عن الطريق ، فنزل به ، وانبسطت عساكره .

وأقبل طاهر في نحو من أربعة آلاف فارس ، فأشرف على عساكر علي بن عيسى وتبين كثرتها وعدة ما فيها ، فعلم أن لا طاقة له بذلك الجيش ، فقال لخواص من معه : نجعلها خارجية ، وكردس خيله كراديس ، وصمد في نحو القلب في سبعمائة من الخوارزمية وغيرهم من فرسان خراسان .

وخرج اليه من القلب العباس بن الليث مولى المهدي ، وكان فارسا ، فقصده طاهر وضم يديه على سيفه فانثنى العباس .

وانضم المعروف بداود سياه الى علي بن عيسى وقد اختلط الناس ، فضربه ضربة فأتى

عليه ، وكان علي في ذلك الوقت على برذون كميت أرجل ، وتمالأ على رأسه الرجال ، وتنازعوا في خاتمه ورأسه ، فذبحه رجل يعرف بطاهر بن الراجي ، وقبض آخر على خصلة من شعر لحيته ، وآخر على خاتمه .

وكان سبب هزيمة الجيش ضربة طاهر بيديه جميعا لعباس بن الليث ، وبذلك سمى طاهر ذا اليمينين ، لجمعه يديه على السيف .

وذكر أحمد بن هشام ـ وكان من وجوه القواد ـ قال : جئت الى مضرب طاهر وقد توهم أني قتلت في المعركة ومعي رأس علي وقد شد .

فقلت : البشرى ، هذه خصلة من رأس علي مع غلامي في المخلاة ، فطرحه قدامه ، ثم أتى بجثته ، وقد شدت يداه ورجلاه ، كما يفعل بالدواب اذا ماتت ، فأمر به طاهر فألقي في بئر ، وكتب الى ذي الرياستين الفضل بن سهل بالخبر ، فكان في الكتاب : أطال اللّه بقاك ، وكبت أعداك ، كتابي اليك ، ورأس علي بن عيسى بين يدي ، وخاتمه في اصبعي ، والحمد للّه رب العالمين .

فسر المأمون بذلك ، وسلم عليه في ذلك الوقت بالخلافة .

وقد كانت أم جعفر لا تعلق من الرشيد ، فشاور بعض مجالسيه من الحكماء وشكا ذلك اليه ، فأشار عليه بأن يغيرها ، فان ابراهيم الخليل عليه السلام كانت عنده سارة فلم تكن تعلق منه ، فلما وهبت له هاجر علقت منه باسماعيل فغارت سارة عند ذلك ، فعلقت باسحاق ، فاشترى الرشيد أم المأمون ، فاستخلاها ، فعلقت بالمأمون ، فغارت أم جعفر عند ذلك فعلقت بمحمد .

***

قال المسعودي : وقد قدمنا التنازع في ذلك ـ أعني قصص ابراهيم واسماعيل واسحاق عليهم السلام ، وقول من ذهب الى أن اسحاق هو المأمور بذبحه ، ومن قال : بل اسماعيل ، وما ذكر كل فريق منهم في ذلك .

وقد تناظر في ذلك السلف والخلف فمن ذلك ما جرى بين عبد اللّه بن عباس وبين مولاه عكرمة ، وقد قال عكرمة : من المأمور بذبحه ؟

فقال : اسماعيل ، واحتج بقول اللّه عز وجل : « ومن وراء اسحاق يعقوب » ألا ترى أنه بشر ابراهيم بولادة اسحاق فكيف يأمره بذبحه .

فقال له عكرمة : أنا أوجدك أن الذبيح اسحاق من القرآن ، واحتج بقول اللّه عز وجل : « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحاق » » فنعمته على ابراهيم : أن نجاه

من النار ، ونعمته على اسحاق : أن فداه بالذبح .

وكانت وفاة عكرمة مولى ابن العباس سنة خمس ومائة ، ويكنى أبا عبد اللّه ، مات في اليوم الذي مات فيه كثير عزة ، فقال الناس : مات عظيم الفقهاء وأهل العلم ، وكبير الشعراء ، وفيها كانت وفاة الشعبي .

الأمين ينصب مجلس غناء
وهو محاصر

وحدث يوسف بن ابراهيم الكاتب قال : حدثني أبو اسحاق ابراهيم بن المهدي قال : بعث الي الأمين محمد ، وهو محاصر ، فصرت اليه ، فاذا هو جالس في طارمة خشبها من عود وصندل عشرة في عشرة ، واذا سليمان بن أبي جعفر المنصور معه في جوف الطارمة (وهي قبة كان اتخذ لها فراشا مبطنا بأبدع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الأحمر وغير ذلك من أنواع الأبريسم) .

فسلمت فاذا قدامه قدح بلور مخروز فيه شراب ينفذ مقداره خمسة أرطال ، وبين يدي سليمان قدح مثله .

فجلست بازاء سليمان ، فأتيت بقدح كالأول والثاني .

قال : فقال : انما بعثت اليكما لما بلغني قدوم طاهر بن الحسين الى النهروان ، وما قد صنع في أمرنا من المكروه ، وقابلنا به من الاساءة ، فدعوتكما لأفرج بكما وبحديثكما .

فأقبلنا نحدثه ونؤنسه حتى سلا عما كان يجده وفرح ، ودعا بجارية من خواص جواريه تسمى ضعفا .

قال : فتطيرت من اسمها ونحن على تلك الحال ، فقال لها : غنينا ، فوضعت العود في حجرها وغنت :

كليب لعمري كان أكثر ناصرا وأكثر حزما منك ضرج بالدم

فتطير من قولها ، ثم قال لها : اسكتي قبحك اللّه ، ثم عاد الى ماكان عليه من الغم والاقطاب فأقبلنا نحادثه ونبسطه ، الى أن سلا وضحك .

ثم أقبل عليها وقال لها : هات ما عندك .

فغنت :

هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما قد غدرت يوما بكسرى مرازبه

فأسكتها وزأرها وعاد الى الحالة الأولى ، فسليناه حتى عاد الى الضحك ، فأقبل عليها الثالثة فقال : غني .

فغنت :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

وقيل : بل انها غنت :

أما ورب السكون والحرك إن المنايا كثيرة الشرك

فقال لها : قومي عني فعل الله بك كذا وكذا وصنع بك ، فقامت فعثرت بالقدح الذي كان بين يديه فكسرته ، فانهرق الشراب ، وكانت ليلة قمراء ، ونحن على شاطىء دجلة في قصره المعروف بالخلد .

فسمعنا قائلا يقول : « قضي الأمر الذي فيه تستفتيان » .

قال ابن المهدي : فقمت وقد وثب ، فسمعت منشدا من ناحية القصر ينشد هذين البيتين :

لا تعجبن من العجب قد جاء ما يقضي العجب
قد جاء أمر فادح فيه لذي عجب عجب

قال : فما قعدنا معه بعدها الى أن قتل .

وكان الأمين معجبا بأم ولده نظم ، وهي أم موسى الذي كان سماه « الناطق بالحق » ، وأراد خلع المأمون والعقد له من بعده ، فهلكت أم موسى نظم ، فجزع عليها جزعا شديدا .

فلما اتصل الخبر بأم جعفر زبيدة قالت : احملوني الى أمير المؤمنين ، فحملت اليه ، فاستقبلها ، وقال : يا سيدتي ماتت نظم .

فقالت :

نفسي فداؤك لا يذهب بك اللهف ففـي بقائـك ممـا قد مضى خلف
عوضت موسى فهانـت كل مرزئة مابعـد موسى على مفقـودة أسف

لهو الأمين وقت الحصار

وذكر ابراهيم بن المهدي قال : استأذنت على الأمين يوما ، وقد اشتد الحصار عليه من كل وجه ، فأبوا أن يأذنوا لي بالدخول عليه ، الى أن كاثرت ودخلت ، فاذا هو قد تطلع الى دجلة بالشباك ، وكان في وسط قصره بركة عظيمة لها مخترق الى الماء في دجلة ، وفي المخترق شباك حديد ، فسلمت عليه وهو مقبل على الماء ، والخدم والغلمان قد انتشروا الى تفتيش الماء ، وهو كالواله ، فقال لي وقد ثنيت بالسلام وكررت : لا تدري يا عمي ، فمقرطتي قد ذهبت في البركة الى دجلة ، والمقرطة : سمكـة كانت قد صيدت له وهي صغيرة فقرطهـا حلقتين من ذهب فيهما حبتا در ، وقيل ياقوت .

قال : فخرجـت وأنـا آيس من فلاحـه ، وقلـت : لو ارتـدع من وقـت لكان هذا الوقت .

صفات الأمين

وكان محمد في نهاية الشدة والقوة والبطش والبهاء والجمال ، الا أنه كان عاجز الرأي ، ضعيف التدبير ، غير مفكر في أمره .

وحكي أنه اصطبح يوما ، وقد كان خرج أصحاب اللبابيد والحراب على البغال ـ وهم الذين كانوا يصطادون السباع ـ الى سبع كان بلغهم خبره بناحية كوثى والقصر ، فاحتالوا في السبع الى أن أتوا به في قفص من خشب على جمل بختي ، فحط بباب القصر وأدخل ، فمثل في صحن القصر والأمين مصطبح ، فقال : خلوا عنه وشيلوا باب القفص .

فقيل له : يا أمير المؤمنين ، انه سبع هائل أسود وحش .

فقال : خلوا عنه ، فشالوا باب القفص ، فخرج سبع أسـود له شعـر عظيم مثـل الثور ، فزأر وضرب بذنبه الى الأرض ، فتهارب الناس ، وغلقت الأبواب في وجهه .

وبقي الأمين وحده جالسا في موضعه غير مكترث بالأسد ، فقصده الأسد حتى دنـا منه ، فضرب الأمين بيده الى مرفقة أرمنية ، فامتنع منه بها ، ومد السبع يده اليه ، فجذبها الأمين وقبض على أصل أذنيه ، وغمزه ثم هزه أو دفع به الى خلف فوقع السبـع ميتـا على مؤخره .

وتبادر الناس الأمين فاذا أصابعه ومفاصل يديه قد زالت عن مواضعها ، وجلس كانه لم يعمل شيئا .

فشقوا بطن الأسد فاذا مرارته قد انشقت عن كبده .

نبوءة بخلع الأمين

وحكي أن المنصور جلس ذات يوم ودخل اليه بنو هاشم من أهله ، فقال لهم وهو مستبشر ، أما علمتم أن محمدا المهدي ولد البارحة له ولد ذكر وقد سميناه موسى ؟

فلما سمع القوم ذلك وجموا وكأنما حثا في وجوههم الرماد ، وسكنوا ولم يحيروا جوابا .

فنظر اليهم المنصور فقال لهم : هذا موضع دعاء وتهنئة ، وأراكم قد سكتم ، ثم استرجع ، فقال لهم : كأني بكم لما أخبرتكم بتسميتي اياه موسى اغتممتم به، لأن المولود المسمى بموسى بن محمد هو الذي على رأسه تختلف الكلمة وتسفك الدماء ، وتنتهب الخزائن ، ويضطرب الملك ، ويقتل أبوه ، وهو المخلوع من الخلافة ، ليس هو ذا ، لا ، ولا هذا زمانه ، واللّه ان جد هذا المولود ـ يعني هارون الرشيد ـ لم يولد بعد .

قال : فدعوا له وهنوه وهنوا المهدي ، وكان هذا موسى الهادي أخا الرشيد .

وكان العهد الذي كتبه الرشيد بين الأمين والمأمون وأودعه الكعبة أن الغادر منهما خارج من الأمر ، أيهما غدر بصاحبه ، والخلافة للمغدور به .

وذكر ياسر خادم أم جعفر ، وكان من خواصها ، أنه لما أحيط بمحمد دخلت عليه أم جعفر باكية ، فقال لها : مه ، انه ليس بجزع النساء وهلعهن عقدت التيجان ، وللخلافة سياسة لا تسعها صدور المراضع ، وراءك وراءك .

ويقال : ان محمدا قصف عند طاهر ، فبينا طاهر في بستانه اذ ورد كتاب من محمد بخطه ، فاذا فيه « بسم اللّه الرحمن الرحيم ، اعلم أنه ما قام لنا مذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه منا الا السيف ، فانظر لنفسك أو دع » .

قال : فلم يزل واللّه يتبين موقع الكتاب من طاهر ، فلما رجع الى خراسان أخرجه الى خاصته ، وقال لهم : واللّه ما هذا كتاب مضعوف ، ولكنه كتاب مخذول .

ولم يكن فيمن سلف من الخلفاء الى وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) من أبوه وأمه من بني هاشم ، الا علي بن أبي طالب كرم اللّه وجهه ومحمد بن زبيدة .

وفي محمد بن زبيدة يقول أبو الغول :

ملك أبوه وأمه من نبعة   منها سراج الأمة الوهاج
شربت بمكة من ذرى بطحائها   ماء النبوة ليس فيه مزاج

وفي سنة أربع وتسعين ومائة كان ابتداؤه بالغدر بالمأمون .

عبد الملك بن صالح بن علي

وفي سنة سبع وتسعين ومائة مات بالرقة عبد الملك بن صالح بن علي في أيام الأمين ، وكان عبد الملك أفصح ولد العباس في عصره ، يقال ان الرشيد لما اجتاز ببلاد منبج من أرض الشام نظر الى قصر مشيد ، وبستان معتم بالأشجار ، كثير الثمار . فقال لعبد الملك : لمن هذا القصر ؟

قال : هو لك ولي بك يا أمير المؤمنين .

قال : فكيف بناء القصر ؟

قال : دون منازلك وفوق منازل الناس .

قال : فكيف مدينتك ؟

قال : عذبة الماء ، باردة الهواء ، صلبة الموطأ ، قليلة الأدواء .

قال : كيف ليلها ؟

قال : سحر كله .

وقال له : يا أبا عبد الرحمن ، ما أحسن بلادكم !

قال : فكيف لا تكون كذلك وهي تربة حمراء ، وسنبلة صفراء ، وشجرة خضراء ، فياف فيح ، وجبال وضيح ، بين قيصوم وشيح .

فالتفت الرشيد الى الفضل بن الربيع فقال : ضرب السياط أهون علي من هذا الكلام .

ولما سمى محمد ابنه « موسى الناطق بالحق » وأخذ له العهد على الناس الفضل بن الربيع وزيره ، وموسى يومئذ لا ينطق بأمر ، ولا يعرف حسنا ولا يعقل قبيحا ، ولا يخلو من الحاجة الى من يخدمه في ليله ونهاره ويقظته ومنامه وقيامه وقعوده ، وأحضنه على ابن عيسى بن ماهان ، قال في ذلك رجل أعمى من أهل بغداد يعرف بعلي بن أبي طالب :

أضاع الخلافة غش الوزير ... وفسق الامام ورأى المشير

وما ذاك الا طريق الغرور ... وشر المسالك طرق الغرور

فعال الخليفة أعجوبة ... وأعجب منه فعال الوزير

وأعجب من ذا وذا أننا ... نبايع للطفل فينا الصغير

ومـن ليس يحسـن مسـح انفه ... ولـم يخـل من متنـه حجـر ظير
ومـا ذاك الا بـاغ وغـاو ... يريـدان نقـض الـكتاب المنـير
وهـذان لـولا انقـلاب الزمـان ... أفي العـير هـذان أم في النفـير
ولـكنهـا فتـن كالحبـا ... ل نرتـع فيهـا بصـنـع الحقـير

ولما قتل طاهر بن الحسين علي بن عيسى بن ماهان سار فنزل حلوان ، وذلك على خمسة أيام من مدينة السلام ، فتعجب الناس من زيادة أمره ، وادبار أصحاب الأمين وهزيمتهم على كل حال ، وأيقنت القلوب بغلبة طاهر وظهور المأمون .

وأسقط في يدي الفضل بن الربيع وأصحابه ، فقال الشاعر الأعمى في ذلك ، وكان مأمونيا متعصبا على محمد بن زبيدة مع المأمون ، وكان من أهل بغداد ومقامه بها ، من أبيات :

عجبت لمعشر يرجـون نجحـا ... لأمـر مـا تتـم لـه الأمـور
وكيـف يتـم مـا عقـدوا ورامـوا ... وأس بنـائهـم منـه الفجـور
أهـاب الى الضـلال بهـم غـوى ... وشيـطـان مـواعـده غـرور
يصيـب بهـم ويلعـب كل لعـب ... كمـا لعبـت بشـاربهـا الخمـور
وكادوا الحـق والمأمـون غـدرا ... وليس بمفلـح أبـدا غـدور
هو العـدل النجيـب البر فينـا ... تضـمـن حبـه منـا الصـدور
وعـاقبـة الأمـور لـه يقينـا ... بـه شهـد الشريعـة والـزبـور
فيملك أربعـين لهـا وتـاء ... تتـم بـه الأهـلـة والشهـور
فـكيـدوا أجمعـين بـكل كيـد ... وكيـدكم لـه فيـه السـرور

وبلغ محمدا فجمع قواده وبطانته عندما ظهر من أمر طاهر ، وشاورهم وقال : أحضروا الي غناءكم كما أحضرت خراسان لعبد اللّه غناءها ، وكانت كما قال أعشى ربيعة :

ثم ما هابـوا ولـكن قدمـوا ... كبش غارات اذا لاقـى نطـح

أما واللّه لقد حدثت بأحاديث الأمم السالفة ، وقرأت كتب حروبها وقصص من أقام دولها ، فما رأيت في حديثهم حديثا لرجل منهم ـ وأبي ـ كهذا الرجل في اقدامه وسياسته ،

وقد قصدني واجترأ علي ، وتملى الهامة العظيمة من الجند ومجمع القواد وساسة الحروب ، فهاتوا اليوم ما عندكم .

فقالوا : يبقي اللّه أمير المؤمنين يكفيه كما كفى الخلفاء قبله بغي من بغى عليهم .

ولما انهزم جيش محمد بين يدي طاهر ولم يقم له قائمة منهم قال سليمان بن أبي جعفر : لعن اللّه الغدار ، ماذا جلب على الأمة بغدره وسوء رأيه ، وأبعد اللّه نسبه من أهل الفضل ، ما أسرع ما انتصر اللّه للمأمون بكبش المشرق (يعني طاهرا) .

وفي ذلك يقول الشاعر :

تبا لذي الآثام والمتزندق ... ماذا دعاه الى العظيم الموبق
والغدر بالبر الزكي أخي التقي ... والسائس المأمون غير الأخرق
زين الخلافة والامامة والنهى ... أهل السماحة والندى المتدفق
ان تغدروا جهلا بوارث أحمد ... ووصي كل مسدد وموفق
فاللّه للمأمون خير موازر ... والماجد القمقام كبش المشرق

من الأمين الى طاهر بن الحسين

ولما أحيط بمحمد من الجانب الشرقي والغربي ، وكان هرثمة بن أعين نازلا مما يلي النهروان بالقرب من باب خراسان ، وثلاثة أبواب ، وطاهر من الجانب الغربي مما يلي الياسرية وباب المحول والكناسة ، جمع قواده فقال : الحمد للّه الذي يضع من يشاء بقدرته ويرفع ، والحمد للّه الذي يعطي بقدرته من يشاء ويمنع ، والحمد للّه الذي يقبض ويبسط وإليه المصير. أحمده على نوائب الزمان ، وخذلان الأعوان ، وتشتت الحال ، وكسوف البال ، وصلى اللّه على محمد رسوله وآله وسلم .

وقال : اني لأفارقكم بقلب موجع ، ونفس حزينة ، وحسرة عظيمة ، واني محتال لنفسي ، فأسأل اللّه أن يلطف بي بمعونته .

ثم كتب الى طاهر : أما بعد ، فانك عبد مأمور ، تنصحت فنصحت ، وحاربت فنصرت ، وقد يغلب الغالب ، ويخذل المفلح ، وقد رأيت الصلاح في معاونة أخي ، والخروج اليه من هذا السلطان ، اذ كان أولى به وأحق ، فأعطني الأمان على نفسي وولدي ، وأمي وجدتي ، وخدمي وحاشيتي ، وأنصاري وأعواني حتى أخرج اليك وأتبرأ من هذا الأمر الى أخي ، فان رأى الوفاء لي بأمانك والا كان أولى وأحق .

قال : فلما قرأ طاهر الكتاب قال : الآن لما ضيق خناقه ، وهيض جناحه ، وانهزم

فساقه ؟ لا والذي نفسي بيده حتى يضع يده في يدي وينزل على حكمي .

فعند ذلك كتب الى هرثمة يسأله النزول على حكم أمانه .

وقد كان المخلوع جهز جماعة من رجال من الأبناء وغيرهم ممن استأمن اليه لدفع المأمونية عنه ، فمالوا نحو هرثمة ، وكان طاهر بن الحسين يمد هرثمة بالرجال ، ولم يلق هرثمة مع ذلك كثير كيد .

فلما مال من ذكرنا الى حرب هرثمة وعلى الجيش بشر وبشير الأزديان بعث اليهما طاهر يتوعدهما ، فلم يأمنا صولته ، لاشرافه على الفتح ، فخليا عن الجيش وانفض الجمع .

وكان طاهر قد نزل في البستان المعروف بباب الكباش الطاهري ، ففي ذلك يقول بعض العيارين من أهل بغداد ومن أهل السجون :

لنا من طاهر يوم عظيم الشأن والخطب
علينا فيه بالانجاد عن هرثمة الكلب
ومنا لأبي الطيب يوم صادق الكرب
أتاه كل طرار ولص كان ذا نقب
وعريان على جنبيه آثار من الضرب
اذا ما حل من شرق أتيناه من الغرب

وضاق الأمر بمحمد الأمين ففرق في قواده المحدثين دون غيرهم خمسمائة ألف درهم وقارورة غالية ، ولم يعط قدماء أصحابه شيئا ، فأتت طاهرا عيونه وجواسيسه بذلك، فراسلهم وكاتبهم ، ووعدهم ومناهم ، وأغرى الأصاغر بالقادة ، حتى غضبوا لذلك ، وشغبوا على الأمين ، وذلك يوم الأربعاء لست ليال خلون من ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائة ، فقال رجل من المشغبة على الأمين :

قل لأمين الناس في نفسه ما شتت الجند سوى الغاليه
وطاهر - نفسي فدى طاهر - برسله والعدة الكافيه
أضحى زمام الملك في كفه مقابلا للفئة الباغيه
يا ناكثا أسلمه نكثه عيوبه من حينه فاشيه
قد جاءك الليث بشداته مستكلبا في أسد ضاريه
فاهرب فلا مهرب من مثله الا الى النار أو الهاويه

ونقل طاهر من الياسرية ، فنزل بباب الأنبار ، وحاصر أهل بغداد ، وغادى القتال وراوحه ، حتى تواكل الفريقان ، وخربت الديار ، وعفت الآثار ، وغلت الأسعار ، وذلك في سنة ست وتسعين ومائة ، وقاتل الأخ أخاه ، والابن أباه ، هؤلاء محمدية وهؤلاء مأمونية، وهدمت المنازل ، وأحرقت الديار ، وانتهبت الأموال ، فقال الأعمى في ذلك المعروف بعلي بن أبي طالب :

تقطعت الأرحام بين العشائر ... وأسلمهم أهل التقى والبصائر
فذاك انتقام اللّه من خلقه بهم ... لما اجترموه من ركوب الكبائر
فلا نحن أظهرنا من الذنب توبة ... ولا نحن أصلحنا فساد السرائر
ولم نستمع من واعظ ومذكر ... فينجع فينا وعظ ناه وآمر
فنبكي على الاسلام لما تقطعت ... رجاه ، ورجى خيرها كل كافر
فأصبح بعض الناس يقتل بعضهم ... فمن بين مقهور ذليل وقاهر
وصار رئيس القوم يحمل نفسه ... وصار رئيسا فيهم كل شاطر
فلا فاجر للبر يحفظ حرمة ... ولا يستطيع البر دفعا لفاجر
فمن قائم يدعو الى الجهد عامدا ... ومن أول قد سن عنا لآخر
تراهم كأمثال الذئاب رأت دما ... فأمته لا تلوي على زجر زاجر
اذا هدم الأعداء أول منزل ... بسعيهم قاموا بهدم الأواخر
فأصبحت الأغنام بين بيوتهم ... تحثهم بالمرهفات البواتر
وأصبح فساق القبائل بينهم ... تشد على أقرانها بالخناجر
فنبكي لقتلى من صديق ، ومن أخ ... كريم ، ومن جار شفيق مجاور
ووالدة تبكي بحزن على ابنها ... فيبكي لها من رحمة كل طائر
وذات حليل أصبحت وهي أيّم ... وتبكي عليه بالدموع البوادر
تقول له : قد كنت عزا وناصرا ... فغيب عني اليوم عزي وناصري
وأبت لاحراق وهدم منازل ... وقتل وانهاب اللهى والذخائر
وابراز ربات الخدود حواسرا ... خرجن بلا خمر ولا بمآزر
تراها حيارى ليس تعرف مذهبا ... نوافر أمثال الظباء النوافر
كأن لم تكن بغداد أحسن منظرا ... وملهى رأته عين لاه وناظر
بلى ، هكذا كانت فأذهب حسنها ... وبدد منها الشمل حكم المقادر

وحل بهم ما حل بالناس قبلهم ... فأضحوا أحاديثا لباد وحاضر
أبغداد ، يا دار الملوك ، ومجتنى ... صنوف المنى ، يا مستقر المنابر
ويا جنةالدنيا ،ويا مطلب الغنى ... ومستنبط الأموال عند المتاجر
أبيني لنا : أين الذين عهدتهم ... يحلون في روض من العيش زاهر؟
وأين الملوك في المواكب تغتدي ... تشبه حسنا بالنجوم الزواهر ؟
وأين القضاة الحاكمون برأيهم ... لورد أمور مشكلات الأوامر ؟
أو القائلون الناطقون بحكمة ... ورصف كلام من خطيب وشاعر
وأين مراح للملوك عهدتها ... مزخرفة فيها صنوف الجواهر
ترش بماء المسك والورد أرضها ... يفوح بها من بعد ريح المجامر
وراح الندامى فيه كل عشية ... الى كل فياض كريم العناصر
ولهو قيان تستجيب لنغمها ... اذ هو لباها حنين المزاهر
فما للملوك الغر من آل هاشم ... وأشياعهم فيها اكتفوا بالمفاخر
يروحون في سلطانهم وكأنهم ... يروحون في سلطان بعض العشائر
تخاذل عما نالهم كبراؤهم ... فنالهم بالكره أيدي الأصاغر
فأقسم لو أن الملوك تناصروا ... لذلت لها خوفا رقاب الجبابر

وبعث هرثمة بن أعين بزهير بن المسيب الضبي من الجانب الشرقي ، فنزل الماطر مما يلي كلواذا ، وعشر ما في السفن من أموال التجار الواردة من البصرة وواسط .

ونصب على بغداد المنجنيقات ، ونزل في رقة كلواذا والجزيرة ، فتأذى الناس به ، وصمد نحوه خلق من العيارين وأهل السجون ، وكانوا يقاتلون عراة في أوساطهن التباين والميازر .

القاب قادة الجيش

وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص وسموها الخوذ ، ودرقا من الخوص والبواري قد قيرت وحشيت بالحصى والرمل ، على كل عشرة منهم عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ، ولكل ذي مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده .

فالعريف له أناس مركبهم غير ما ذكرنا من المقاتلة ، وكذلك النقيب والقائد والأمير ، وناس عراة قد جعل في أعناقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأصفر ، ومقاود قد اتخذت

لهم ، وبلجم وأذناب من مكانس ومذاب .

فيأتي العريف وقد أركب واحدا وقدامه عشرة من المقاتلة على رؤوسهم خوذ الخوص ودرق البواري ، ويأتي النقيب والقائد والأمير كذلك ، فتقف النظارة ينظرون الى حربهم مع أصحاب الخيول الفره الجواشن والدروع والتجافيف والسواعد والرماح والدرق التبتية ، فهؤلاء عراة وهؤلاء على ما ذكرنا من العدة ، فكانت للعراة على زهير ، وأتاه المدد من هرثمة ، فانهزمت العراة ، ورمت بهم خيولهم ، وتحاصروا جميعا ، وأخذهم السيف ، فقتل منهم خلق ، وقتل من النظارة خلق .

فقال في ذلك الأعمى ، وذكر رمي زهير بالمنجنيق :

لا تقرب المنجنيق والحجرا	وقد رأيت القتل اذ قبرا
باكر كيلا يفوته خبر	راح قتيلا وخلف الخبرا
أراد ألا يقال كان لهم	أمر فلم يدر ما به أمرا
يا صاحب المنجنيق ما فعلت	كفاك ؟ لم تبقيا ولم تذرا
كان هواه سوى الذي أمرا	هيهات أن يغلب الهوى القدرا

فلما ضاق الأمر بالأمين في أرزاق الجند ضرب آنية الذهب والفضة سرا ، وأعطى رجاله ، وتحيز الى طاهر الحزبية وغيرها من الأرباض مما يلي باب الأنبار ، وباب حرب ، وباب قطربل ، فصارت الحرب في وسط الجانب الغربي ، وعملت المنجنيقات بين الفريقين وكثر الحريق والهدم ببغداد والكرخ وغيره من الجانبين ، حتى درست محاسنها ، واشتد الأمر ، وتنقل الناس من موضع الى موضع ، وعم الخوف ، فقال الشاعر :

من ذا أصابك يا بغداد بالعين	ألم تكوني زمانا قرة العين ؟
ألم يكن فيك قوم كان قربهم	وكان مسكنهم زينا من الزين ؟
صاح الزمان بهم بالبين فانقرضوا	ماذا لقيت بهم من لوعة البين ؟
أستودع اللّه قوما ما ذكرتهم	الا تحدر ماء الدمع من عيني
كانوا ففرقهم دهر وصدعهم	والدهر يصدع ما بين الفريقين

ولم تزل الحرب قائمة بين الفريقين أربعة عشر شهرا ، وضاقت بغداد بأهلها ،

وتعطلت المساجد ، وتركت الصلاة ، ونزل بها ما لم ينزل بها قط مثله ، مذ بناها أبو جعفر المنصور .

وقد كان لأهل بغداد في أيام حرب المستعين والمعتز حرب نحو هذا من خروج العيارين الى الحرب وقد اتخذوا خيلا منهم وأمراء كالملقب بنينويه خالويه وغيرهم ، يركب الواحد منهم على واحد من العيارين ويسير الى الحرب في خمسين ألف عراة .

ولم ينزل بأهل بغداد شر من هذه الحرب : حرب المأمون والمخلوع ، وقد استعظم أهل بغداد ما نزل بهم في هذا الوقت (في سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) من خروج أبي اسحاق المتقي لله عنهم ، وما كان قبل هذا الوقت من البريديين وابن رائق وتوزون التركي ، وما دفعوا اليه من الوحشة بخروج أبي محمد الحسن بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان الملقب بناصر الدولة ، وأخيه علي بن عبد الله الملقب بسيف الدولة عليهم ، لبعد العهد مما حل بالمنازل بها ، وطول السنين ، وغيبة ذلك عنهم وبعدهم منه ، وتقدم مثل أولئك العيارين الذين كانوا في ذلك العصر .

واشتد الأمر بين المأمونية والعراة وغيرهم من أصحاب المخلوع ، وحوصر محمد في قصره من الجانب الغربي ، فكان بينهم في بعض الأيام وقعة تفانى فيها خلق كثير من الفريقين فقال في ذلك حسين الخليع :

لنا النصر بعون اللـ ... ـه والكرة لا الفره
وللمراق أعدائـ ... ـك يوم السوء والبره
وكأس يلفظ بالموت ... كريه طعمها مره
سقونا وسقيناهم ... ولكن لهم أخره
أمين الله ثق باللـ ... ـه تعط الصبر والنصره
كل الأمر الى الله ... كلاك الله ذو القدره
كذاك الحرب أحيانا ... علينا ولنا مره

وقعة دار الرقيق

وكانت وقعة أخرى عظيمة بشارع دار الرقيق هلك فيها خلق كثير ، وكثر القتل في الطرق والشوارع ، ينادي هذا بالمأمون والآخر بالمخلوع ، ويقتل بعضهم بعضا ، وانتهبت الدور ، فكان الفوز لمن نجا بنفسه من رجل وامرأة بما يسلم معه الى عسكر طاهر فيأمن على

نفسه وماله ، وفي ذلك يقول الشاعر :

بكت عيني على بغداد لما	فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدلنا هموما من سرور	ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتنا من الحساد عين	فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقوم أحرقوا بالنار قصرا	ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادي : ياصحابي	وقائلة تنادي : ياشقيقي
وحوراء المدامع ذات دل	مضمخة المجاسد بالخلوق
تنادي بالشفيق، فلا شفيق	وقد فقد الشفيق مع الرفيق
وقوم أخرجوا من ظل دنيا	متاعهم يباع بكل سوق
ومغترب بعيد الدار ملقى	بلا رأس بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعا	فما يدرون من أي الفريق
فلا ولد يقيم على أبيه	وقد هرب الصديق من الصديق
ومهما أنس من شيء تولى	فاني ذاكر دار الرقيق

صرامة العراة

وسأل قائد من قواد خراسان طاهرا أن يجعل له الحرب في يومها له فيه ، ففعل طاهر له ذلك ، فخرج القائد وقد حقرهم ، وقال : ما يبلغ كيد هؤلاء ، ولا سلاح معهم ، مع ذوي البأس والنجدة والسلاح والعدة ؟

فبصر به بعض العراة وقد راماه مدة طويلة حتى فنيت سهام القائد ، وظن أن العريان فنيت حجارته ، فرماه بحجر بقيت في المخلاة ، وقد حمل عليه القائد ، فما أخطأ عينه ، وثناه بحجر آخر فكاد يصرع القائد عن فرسه ، ووقعت البيضة عن رأسه .

فكر راجعا وهو يقول : ليس هؤلاء بناس ، هؤلاء شياطين ، ففي ذلك يقول أبو يعقوب الخريمي :

الكرخ أسواقه معطلة	يستن عيارها وعابرها
خرجت الحرب من أراذلهم	أسود غيل عبلت قساورها

وقال علي الأعمى :

خرجت هذه الحروب رجالا لا لقحطان ، لا ، ولا لنزار
معشر في جواشن الصوف يغدو ن الى الحرب كالليوث الضواري
ليس يدرون ما الفرار اذا ما الـ أبطال عاذوا من الفنا بالفرار
واحد منهم يشد على ألـ ـفين عريان ما له من ازار
ويقول الفتى اذا طعن الطعـ ـنة : خذها من الفتى العيار

الوقائع الحاسمة

واشتد القتال في كل يوم ، وصبر الفريقان جميعا ، وصار حامية المخلوع وجنده العراة أصحاب خوذ الخوص ودرق البواري ، وضايق طاهر القوم ، وأقبل يقتطع من بغداد الشارع بعد الشارع ، ويصير في حيزه أهل تلك الناحية معاونين له في حربه .

وأقبل الهدم يكثر فيما ليس من حيزه ، ثم جعل يحفر الخنادق بينه وبين أصحاب المخلوع في مواضع الدور والمنازل والقصور ، وأصحاب طاهر في قوة واقبال ، وأصحاب المخلوع في نقص وادبار ، وأصحاب طاهر يهدمون ، وأصحاب المخلوع يأخذون بعض الدور من خشب وأثواب وغير ذلك ، وينهبون المتاع ، فقال رجل من المحمدية :

لنا كل يوم ثلمة لا نسدها يزيدون فيما يطلبون وننقص
اذا هدموا دارا أخذنا سقوفها ونحن لأخرى مثلها نتربص
يثيرون بالطبل القنيص ، وان بدا لهم وجه صيد من قريب تقنصوا
وقد أفسدوا شرق البلاد وغربها علينا فما ندري الى أين نشخص
اذا حضروا قالوا بما يبصرونه وان لم يروا شيئا قبيحا تخرصوا
وقد رخصت قراؤنا في قتالهم وما قتل المقتول الا المرخص

ولما نظر طاهر الى صبر أصحاب المخلوع على هذه الحال الصعبة قطع عنهم مواد الأقوات وغيرها من البصرة وواسط وغيرهما من الطرق ، فكان الخبز في حد المأمونية عشرين رطلا بدرهم ، وفي حد المحمدية رطل بدرهم .

وضاقت النفوس وأيسوا من الفرج ، واشتد الجوع ، وسر من سار الى حيز طاهر ، وأسف من بقي مع المخلوع .

وتقدم طاهر في سائر أصحابه من مواضع كثيرة ، وقصد باب الكباش فاشتد القتال ،

وتبادرت الرؤوس ، وعمل السيف والنار ، وصبر الفريقان ، وكان القتل أعم في أصحاب طاهر ، وفني خلق من العراة أصحاب مخالي الحجارة والآجر وخوذ الخوص ودرق الحصر والبواري ورماح القصب وأعلام الخرق وبوقات القصب وقرون البقر ، وكان ذلك في يوم الأحد ، ففي ذلك يقول الأعمى :

وقعة يوم الأحد كانت حديث الأبد
كم جسد أبصرته ملقى وكم من جسد
وناظر كانت له منية بالرصد
أتاه سهم عائر فشق جوف الكبد
وآخر ملتهب مثل التهاب الأسد
وقائل : قد قتلوا ألفا ولما يزد
فقائل : أكثر ، بل ما لهم من عدد
قلت لمطعون وفيه طعنة لم تئد :
من أنت ؟ ياويلك يا مسكين من محمد
فقال : لا من نسب دان ، ولا من بلد
ولا أنا للغي قاتلت ولا للرشد
ولا لشيء عاجل يصير منه في يدي

ولما ضاق بمحمد الحال واشتد به الحصار أمر قائدا من قواده يقال له ذريح أن يتبع أصحاب الأموال والودائع والذخائر من أهل الملة وغيرهم ، وقرن معه آخر يعرف بالهرش ، فكانا يهجمان على الناس ، ويأخذان بالظنة ، فاجتبيا بذلك السبب أموالا كثيرة .
فهرب الناس بعلة الحج ، وفر الأغنياء من ذريح والهرش . ففي ذلك يقول الأعمى :

أظهروا الحج وما يبغونه بل من الهرش يريدون الهرب
كم أناس أصبحوا في غبطة ركض الليل عليهم بالعطب
كلُّ منْ زار ذريح بيته لقى الذل ووافاه الحرب

في شعر له طويل .

ولما عم البلاد أهل الستر اجتمع التجار بالكرخ على مكاتبة طاهر أنهم ممنوعون منه ومن الخروج اليه ، ومغلوب عليهم وعلى أموالهم ، وأن العراة والباعة هم الآفة ، فقال بعضهم : انكم ان كاتبتم طاهرا لم تأمنوا صولة المخلوع بذلك ، فدعوهم فان اللّه مهلكهم ، وقال قائلهم :

دعوا أهل الطريق فعن قريب — تنالهم مخاليب الهصور
فتهتك حجب أكباد شداد — وشيكا ما تصير الى القبور
فان اللّه مهلكهم جميعا — لأسباب التمرد والفجور

وثارت العراة ذات يوم في نحو مائة ألف بالرماح والقصب والطرادات من القراطيس على رؤوسها ، ونفخوا في بوقات القصب وقرون البقر ، ونهضوا مع غيرهم من المحمدية ، وزحفوا من مواضع كثيرة ، نحو المأمونية . فبعث اليهم طاهر بعدة قواد وامراء من وجوه كثيرة ، فاشتد الجلاد ، وكثر القتل ، وكانت للعراة على المأمونية الى الظهر ، وكان يوم الاثنين .

ثم ثارت المأمونية على العراة من أصحاب محمد ، فغرق منهم وقتل وأحرق نحو عشرة آلاف ، وفي ذلك يقول الشاعر الأعمى :

بالأمير الطاهر بن الحسين — صبحونا صبيحة الاثنين
جمعوا جمعهم فثار اليهم — كل صلب القناة والساعدين
يا قتيل العراة ملقى على الشطـ — ـط ، تطاه الخيول في الجانبين
ما الذي كان في يديك اذا ما اصـ — ـطلح الناس أية الخلتين
أوزير أم قائد ، بل بعيد — أنت من ذين موضع الفرقدين
كم بصير غدا بعينين كي ينـ — ـظر ما حالهم فراح بعين
ليس يخطون ما يريدون ما ان — يقصدوا منهم سوى الناظرين

واشتد الأمر بمحمد المخلوع ، فباع ما في خزائنه سرا ، وفرق ذلك أرزاقا فيمن معه ، ولم يبق معه ما يعطيهم ، وكثرت مطالبتهم اياه ، وضيق عليه طاهر ، وكان نازلا بباب الأنبار في بستان هنالك ، فقال محمد : وددت أن اللّه قتل الفريقين جميعا ، فما منهم الا عدو : من معي ، ومن علي ، أما هؤلاء فيريدون مالي ، وأما أولئك فيريدون نفسي ،

وقال :

تفرقوا ودعوني يا معشر الأعوان
فكلكم ذو وجوه كثيرة الألوان
وما أرى غير افك وترهات الأماني
ولست أملك شيئا فسائلوا اخواني
فالويل فيها دهاني من نازل البستان

يعني طاهر بن الحسين .

ولما اشتد الأمر عليه وجد به ونزل هرثمة بن أعين بالجانب الشرقي ، وطاهر بالجانب الغربي ، وبقي محمد في مدينة أبي جعفر ، شاور من حضره من خواصه في النجاة بنفسه ، فكل أدلى برأي ، وأشار بوجه ، فقال قائل منهم : تكاتب ابن الحسين وتحلف له بما يثق به أنك مفوض أمرك اليه ، لعله أن يجيبك الى ما تريد منه .

فقال : ثكلتك أمك ! لقد أخطأت الرأي في طلبي المشورة منك ، أما رأيت ثار رجل لا يؤول الى عذر ؟ وهل كان المأمون لو اجتهد لنفسه وتولى الأمر برأيه بالغا عشر ما بلغه له طاهر ؟ ولقد دسست وفحصت عن رأيه ، فما رأيته يطلب الا تأثيل المكارم وبعد الصيت والوفاء ، فكيف أطمع في استذلاله بالأموال وفي غدره والاعتماد في عقله ؟ ولو قد أجاب الى طاعتي وانصرف الي ، ثم ناصبني جميع الترك والديلم ما اهتممت بمناصبتهم ، ولكنت كما قال أبو الأسود الدؤلي في الأزد عند اجارتها زياد بن أبيه :

فلما رآهم يطلبون وزيره وساروا اليه بعد طول تماد
أتى الأزد اذ خاف التي لابقي لها عليه ، وكان الرأي رأي زياد
فقالوا له : أهلا وسهلا ومرحبا أصبت فكاشف من أراد وعاد
فأصبح لا يخشى من الناس كلهم عدوا ، ولو مالوا بقوة عاد

واللّه لوددت انه أجابني الى ذلك فأبحته خزائني ، وفوضت اليه ملكي ، ورضيت بالمعاش تحت يديه ، ولا أظنني مفلته ، ولو كانت لي ألف نفس .

فقال السندي : صدقت واللّه يا أمير المؤمنين ، ولو أنك أبوه الحسين بن مصعب ما استبقاك .

فقال محمد : وكيف لنا بالخلاص الى هرثمة ولات حين مناص ؟

وراسل هرثمة ، ومال الى جنبته ، فوعده هرثمة بكل ما أحب ، وأنه يمنعه ممن يريد قتله ، وبلغ ذلك طاهرا ، فاشتد عليه وزاد غيظه وحنقه ، ووعده هرثمة أن يأتيه في حراقة الى مشرعة باب خراسان فيصير به الى عسكره هو ومن أحب .

فلما هم محمد بالخروج في تلك الليلة - وهي ليلة الخميس ، لخمس ليال بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة - دخل اليه الصعاليك من أصحابه ، وهم فتيان الأبناء والجند ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين ، ليس معك من ينصحك ، ونحن سبعة آلاف رجل مقاتلة ، وفي اصطبلك سبعة آلاف فرس ، يحمل كل منا على فرس ، ونفتح بعض أبواب المدينة ، ونخرج في هذه الليلة ، فما يقدم علينا أحد الى أن نصير الى بلد الجزيرة وديار ربيعه ، فنجبي الأموال ، ونجمع الرجال ، ونتوسط الشام وندخل مصر ، ويكثر الجيوش والمال ، وتعود الدولة مقبلة جديدة .

فقال : هذا واللّه الرأي ، فعزم على ذلك وهم به وجنح اليه .

وكان لطاهر في جوف دار الأمين غلمان وخدم من خاصة الأمين يبعثون اليه بالأخبار ساعة فساعة ، فخرج الخبر الى طاهر من وقته .

فخاف طاهر وعلم أنه الرأي ان فعله ، فبعث الى سليمان بن أبي جعفر والى ابن نهيك والسندي بن شاهك - وكانوا مع الأمين - ان لم تزيلوه عن هذا الرأي لأخربن دياركم وضياعكم ولأزيلن نعمكم ولأتلفن نفوسكم .

فدخلوا على الأمين في ليلتهم ، فأزالوه عن ذلك الرأي ، وأتاه هرثمة في الحراقة الى باب خراسان ، ودعا الأمين بفرس يقال له الزهيري أغر محجل أدهم محذوف ، ودعا الأمين بابنيه موسى وعبد اللّه فعانقهما وشمهما وبكى : وقال : اللّه خليفتي عليكما ، فلست أدري أألتقي معكما بعدها أو لا ، وعليه ثياب بيض وطيلسان أسود وقدامه شمعة ، حتى أتى باب خراسان الى المشرعة والحراقة قائمة فنزل ودخل الحراقة ، فقبل هرثمة بين عينيه .

وقد كان طاهر نمى اليه خروجه فبعث بالرجال من الهروية وغيرهم والملاحين في الزوارق على الشط ، فدفعت الحراقة ، ولم يكن مع هرثمة عدة من رجاله ، فأتى أصحاب طاهر عراة فغاصوا تحت الحراقة فانقلبت بمن فيها .

فلم يكن لهرثمة شغل الا أن نجا بحشاشة نفسه ، فتعلق بزورق وصعد اليه في الماء ومضى الى عسكره من الجانب الشرقي .

وشق محمد ثيابه عن نفسه وسبح فوقع نحو السراة الى عسكر قرين الديراني غلام طاهر

فأخذه بعض السواس حين شم منه رائحة المسك والطيب ، فأتى به قرينا ، فأستأذن فيه طاهرا ، فأتاه الاذن في الطريق وقد حمل الى طاهر فقتل في الطريق ، وهو يصيح : ان للّه وانا اليه راجعون ، أنا ابن عم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأخو المأمون ، والسيوف تأخذه حتى برد ، وأخذوا رأسه ، وكانت ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة .

وذكر أحمد بن سلام ـ وقد كان مع الأمين في الحراقة حين انقلبت ـ فسبح فقبض عليه بعض أصحاب طاهر وأراد قتله ، فأرغبه في عشرة آلاف درهم ، وأنه يحملها اليه في صبيحة تلك الليلة .

قال : فأدخلت بيتا مظلما فبينا أنا كذلك اذ دخل علي رجل عريان عليه سراويل وعمامة قد تلثم بها ، وعلى كتفه خرقة فجعلوه معي وتقدموا الى من في الدار في حفظنا ، فلما استقر في الدار حسر العمامة عن وجهه فاذا هو محمد ، فاستعبرت واسترجعت فيما بيني وبين نفسي ، وجعل ينظر الي ، ثم قال : أيهم أنت ؟

قلت : أنا مولاك ياسيدي .

قال : وأي الموالي أنت ؟

قلت : أحمد بن سلام .

قال : أعرفك بغير هذا ، كنت تأتيني بالرقة ؟

قلت : نعم .

ثم قال : يا أحمد .

قلت : لبيك يا سيدي .

قال : ادن مني وضمني اليك ، فاني أجد وحشة شديدة .

قال : فضممته الي ، فاذا قلبه يخفق خفقانا شديدا .

ثم قال : أخبرني عن أخي المأمون أحي هو ؟

قلت له : فهذا القتال عمن اذن ؟

قال : قبحهم اللّه ! ذكروا أنه مات .

قلت : قبح اللّه وزراءك ! فهم أوردوك هذا المورد .

فقال لي : يا أحمد ، ليس هذا موضع عتاب ، فلا تقل في وزرائي الا خيرا فما لهم ذنب ، ولست بأول من طلب أمرا فلم يقدر عليه .

قلت : البس ازاري هذا وارم بهذه الخرقة التي عليك .

فقال : يا أحمد ، من كان حاله مثل حالي فهذه له كثير .

ثم قال لي : يا أحمد ، ما أشك أنهم سيحملونني الى أخي ، أفترى أخي قاتلي ؟

قلت : كلا ، ان الرحمُ ستعطفه عليك .

فقال لي : هيهات ! الملك عقيم لا رحم له .

فقلت له : ان أمان هرثمة أمان أخيك .

قال : فلقنته الاستغفار وذكر اللّه . فبينا نحن كذلك اذ فتح باب البيت فدخل علينا رجل عليه سلاح فاطلع في وجه محمد مستثبتا له ، فلما أثبته معرفة خرج وأغلق الباب ، واذا هو محمد الطاهري .

قال : فعلمت أن الرجل مقتول ، وقد كان بقي علي من صلاتي الوتر ، فخفت أن أقتل ولم أوتر ، فقمت لأوتر .

فقال لي : يا أحمد ، لا تبعد مني وصل بقربي ، فاني أجد وحشة شديدة .

فدنوت منه ، فقل ما لبثنا حتى سمعنا حركة الخيل ودق باب الدار ، ففتح الباب فاذا قوم من العجم بأيديهم السيوف مصلتة .

فلما أحس بهم محمد قام قائما وقال : إنا للّه وانا اليه راجعون ، ذهبت واللّه نفسي في سبيل اللّه ، أما من حيلة ؟ أما من مغيث ؟

وجاءوا حتى قاموا على باب البيت الذي نحن فيه ، وجعل بعضهم يقول لبعض : تقدم ، ويدفع بعضهم بعضا .

فأخذ محمد بيده وسادة وجعل يقول : أنا ابن عم رسول اللّه ، أنا ابن هارون الرشيد ، أنا أخو المأمون ، اللّه اللّه في دمي . فدخل عليه رجل منهم مولى لطاهر فضربه بالسيف ضربة وقعت في مقدم رأسه .

وضرب محمد وجهه بالوسادة التي كانت في يده واتكأ عليه ليأخذ السيف من يده ، فصاح بالفارسية : قتلني الرجل ، فدخل منهم جماعة فنحسه أحدهم بسيفه في خاصرته ، وكبوه فذبحوه من قفاه ، وأخذوا رأسه ، ومضوا به الى طاهر .

وقد قيل في كيفية قتله غير هذا ، وقد أتينا على التنازع في ذلك في الكتاب الأوسط .

وأتى بخادمه كوثر ، وكان حظيه ، معه الخاتم والبرد والسيف والقضيب ، فلما أصبح طاهر أمر برأسه فنصب على باب من أبواب بغداد يعرف بباب الحديد نحو قطربل في الجانب الغربي ، الى الظهر ، ودفنت جثته في بعض تلك البساتين .

ولما وضع رأس الأمين بين يدي طاهر قال : اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على

كل شيء قدير .

وحمل الرأس الى خراسان الى المأمون في منديل والقطن عليه والأطلية ، فاسترجع المأمون وبكى واشتد تأسفه عليه ، فقال له الفضل بن سهل : الحمد للّه يا أمير المؤمنين على النعمة الجليلة ؛ فان محمدا كان يتمنى أن يراك بحيث رأيته .

فأمر المأمون بنصب الرأس في صحن الدار على خشبة ، وأعطى الجند ، وأمر كل من قبض رزقه أن يلعنه ، فكان الرجل يقبض ويلعن الرأس ، فقبض بعض العجم عطاءه فقيل له : العن هذا الرأس .

فقال : لعن اللّه هذا ولعن والديه وما ولدا وأدخلهم في كذا وكذا من أمهاتهم .

فقيل له : لعنت يا أمير المؤمنين ، وذلك بحيث يسمعه المأمون منه فتبسم وتغافل ، وأمر بحط الرأس ، وترك ذلك المخلوع ، وطيب الرأس وجعله في سفط ، ورده الى العراق فدفن مع جثته ، ورحم اللّه أهل بغداد وخلصهم مما كانوا فيه من الحصار والجزع والقتل ، ورثاه الشعراء ، وقالت زبيدة أم جعفر والدته :

أودى بالفك من لم يترك الناسا	فامنح فؤادك عن مقتولك الياسا
لما رأيت المنايا قد قصدت له	أصبن منه سواد القلب والراسا
فبت متكئا أرعى النجوم له	اخال سنته في الليل قرطاسا
والموت ، دان له ، والهم قارنه	حتى سقاه التي أودى بها الكاسا
رزئته حين باهيت الرجال به	وقد بنيت به للدهر آساسا
فليس من مات مردودا لنا أبدا	حتى يرد علينا قبله ناسا

ورثته زوجته لبابة ابنة علي بن المهدي ، ولم يكن دخل بها ، فقالت :

أبكيك لا للنعيم والأنس	بل للمعالي والسيف والترس
أبكي على سيد فجعت به	أرملني قبل ليلة العرس
يا مالكا بالعراء مطرحا	خانته أشراطه مع الحرس

ولما قتل محمد دخل الى زبيدة بعض خدمها فقال لها : ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين محمد ؟

فقالت : ويلك ! وما أصنع ؟

قال : تخرجين فتطلبين بثأره كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان .

فقالت : اخسأ لا أم لك ، ما للنساء وطلب الثأر ومنازلة الأبطال ؟

ثم أمرت بثيابها فسودت ، ولبست مسحا من شعر ، ودعت بدواة وقرطاس وكتبت الى المأمون :

لخير امام قام من خير عنصر	وأفضل راق فوق أعواد منبر
ووارث علم الأولين وفخرهم	وللملك المأمون من أم جعفر
كتبت وعيني تستهل دموعها	اليك ابن عمي من جفوني ومحجري
أصبت بأدنى الناس منك قرابة	ومن زال عن كبدي فقل تصبري
أتى طاهر ، لا طهر الله طاهرا ،	وما طاهر في فعله بمطهر
فأبرزني مكشوفة الوجه حاسرا	وأنهب أموالي وأخرب أدؤري
يعز على هارون ما قد لقيته	وما نالني من ناقص الخلق أعور
فان كان ما أسدي لأمر أمرته	صبرت لأمر من قدير مقدر

فلما قرأ المأمون شعرها بكى ثم قال : اللهم اني أقول كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لما بلغه قتل عثمان « والله ما قتلت ، ولا أمرت ، ولا رضيت » ، اللهم جلل قلب طاهر حزنا .

قال المسعودي : وللمخلوع أخبار وسير غير ما ذكرنا قد أتينا عليها في كتابينا في « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط ، فأغنى ذلك عن ذكرها في هذا الكتاب ، والله سبحانه ولي التوفيق .

ذِكر خِلافَة المَأمُون
عَبْدالله بن هَارُون الرّشِيد

موجز

وبويع المأمون عبد الله بن هارون ، وكنيته أبو جعفر ، وأمه باذغيسية ، واسمها مراجل ، وقيل : ان كنيته أبو العباس ، وهو ابن ثمان وعشرين سنة وشهرين .

وتوفي بالبديدون على عين القشيرة ، وهي عين يخرج منها النهر المعروف بالبديدون ، وقيل : إن اسمها بالرومية أيضا رقة ، وحمل الى طرسوس ، فدفن بها على يسار المسجد ، سنة ثماني عشر ومائتين ، وهو ابن تسع وأربعين سنة .

فكانت خلافته احدى وعشرين سنة ، منها أربعة عشر شهرا كان يحارب أخاه محمد ابن زبيدة على ما ذكرنا ، وقيل : سنتان وخمسة أشهر ، وكان أهل خراسان في تلك الحروب يسلمون عليه بالخلافة ، ويدعى له على المنابر في الأمصار والحرمين والكور والسهل والجبل مما حواه طاهر وغلب عليه ، ويسلم على محمد بالخلافة من كان ببغداد خاصة لا غيرها .

ذكر جمل من أخباره وسيره
ولمع مما كان في أيامه

المأمون والفضل بن سهل

وغلب على المأمون الفضل بن سهل ، حتى ضايقه في جارية أراد شراءها ، فقتله ، وادعى قوم أن المأمون دس عليه من قتله ، ثم سلم عليه الوزراء بعد ذلك ، منهم أحمد بن خالد الأحول ، وعمرو بن مسعدة ، وأبو عبادة ، وكل هؤلاء سلم عليهم برسم الوزارة .

عمرو بن مسعدة

ومات عمرو بن مسعدة سنة سبع عشرة ومائتين ، فعرض لماله ، ولم يعرض لمال وزير غيره ، وغلب على المأمون آخرا الفضل بن مروان ، ومحمد بن يزداذ .

علي بن موسى الرضا

وفي خلافته قبض علي بن موسى الرضا مسموما بطوس ، ودفن هنالك ، وهو يومئذ ابن تسع وأربعين سنة وستة أشهر ، وقيل غير ذلك .

المأمون وعمه ابراهيم

وهجا المأمون ابراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة عمه ، وكان المأمون يظهر التشيع ، وابن شكلة التسنن ، فقال المأمون :

اذا المرجـي سرك أن تراه   يمـوت لحينـه من قبـل موته
فجـدد عنـده ذكرى علي   وصـلّ على النبـي وآل بيته

فأجابه ابراهيم رادا عليه :

اذا الشيعـي جمجـم في مقال   فسرك أن يبـوح بذات نفسه
فصـلّ على النبـي وصاحبيه   وزيريه وجـاريه برمسه

ولابراهيم بن المهدي مع المأمون أخبار حسان ، هي موجودة في كتاب الأخبار لابراهيم ابن المهدي .

المأمون وأبو دلف

ودخل أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي على المأمون ، فقـال له : يا قاسـم ، ما أحسن أبياتك في صفة الحرب ، ولذاذتك بها ، وزهدك في المغنيات ؟
قال : يا أمير المؤمنين ، أي أبيات هي ؟
قال : قولك :

لسـل السيوف وشـق الصفوف   ونفض التـراب وضرب القلل

قال : ثم ماذا يا قاسم ؟.
قال :

ولبس العجاجـة والخافقات   تريك المنـايا بروس الأسل
وقـد كشفـت عن شبـا نابها   عروس المنية بـين الشعل
وجـاءت تهـادى وأبناؤها   كأن عليهـم شروق الطفل
خروس نطـوق اذا استنطقت   جهـول تطيش على من جهل
اذا خطبـت أخـذت مهرها   رؤوسـا تساقـط بـين القلل
ألـذ وأشهـى من المسمعات   وشرب المدامـة في يوم طل
أنـا ابـن الحسـام، وترب الصفاح،   وريب المنـون، وقـرب الأجل

ثم قال : يا أمير المؤمنين ، هذه لذتي مع أعدائك ، وقوتي مع أوليائك ، ويدي معك ، ولئن استلذ مستلذ شيئا من المعاقرة ملت الى المصادمة والمحاربة .

قال : يا قاسم ، اذا كان هذا النمط من الأشعار شأنك واللذة لذتك فماذا تركت للوسنان مما خلفت ، وأظهرت له من قليل ما سترت ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، وأي أشعاري ؟

قال : حيث تقول :

أيها الراقد المؤرق عيني نم ، هنيئا لك الرقاد اللذيذ
علم الله أن قلبي مما قد جنت مقلتاك فيه وقيذ

قال : يا أمير المؤمنين ، سهوة بعد سهرة غلبت ، وذلك قسم متقدم ، وهذا ظن متأخر .

قال : يا قاسم ، ما أحسن ما قال صاحب هذين البيتين :

أذم لك الأيام في ذات بيننا وما لليالي في الذي بيننا عذر
اذا لم يكن بين المحبين زورة سوى ذكر شيء قد مضى درس الفكر

فقال أبو دلف : ما أحسن ما قال يا أمير المؤمنين ! هذا السيد الهاشمي والملك العباسي .

قال : وكيف أدتك الفطنة ، ولم تداخلك الظنة ، حتى تحققت أني صاحبهما ، ولم يداخلك الشك فيهما ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، إنما الشعر بساط صوف ، فمن خلط الشعر بنقي الصوف ظهر رونقه عند التصنيف ، ونار ضوؤه عند التأليف .

من كلام المأمون

وكان المأمون يقول : يغتفر كل شيء الا القدح في الملك ، وافشاء السر ، والتعرض للحرم .

وقال المأمون : أخر الحرب ما استطعت ، فان لم تجد منها بدا فاجعلها في آخر النهار .

وذكر انه من كلام أنو شروان .

وكان المأمون يقول : أعيت الحيلة في الأمر اذا أقبل أن يدبر ، واذا أدبر أن يقبل .

ولما تأتّى الملك للمأمون وخلص قال : هذا جسيم لولا انه عديم ، وهذا ملك لولا انه بعده هلك ، وهذا سرور لولا أنه غرور ، وهذا يوم لو كان يوثق بما بعده .

وكان المأمون يقول : البشر منظر مونق ، وخلق مشرق ، وزارع للقلوب ، ومحل مألوف ، وفضل منتشر ، وثناء بسيط ، وتحف للأحرار ، وذرع رحيب ، وأول الحسنات ، وذريعة الى الجاه ، وأحمد للشيم ، وباب لرضا العامة ، ومفتاح لمحبة القلوب .

وكان المأمون يقول : سادة الناس في الدنيا الأسخياء ، وفي الآخرة الأنبياء ، وإن الرزق الواسع لمن لا يستمتع به بمنزلة طعام على ميزاب البخل : لو كان طريقا ما سلكته ، ولو كان قميصا ما لبسته .

وحضر المأمون املاكا لبعض أهل بيته ، فسأله بعض من حضر أن يخطب ، فقال : الحمدلله ، المحمود الله ، والصلاة على المصطفى رسول الله ، وخير ما عمل به كتاب الله ، قال الله تعالى : « وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم واماثكم ، أن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، والله واسع عليهم » .

ولو لم يكن في المناكحة آية محكمة ولا سنة متبعة الا ما جعل الله في ذلك من تأليف البعيد والقريب لسارع اليه الموفق المصيب ، وبادر اليه العاقل النجيب ، وفلان من قد عرفتموه في نسب لم تجهلوه ، خطب اليكم فتاتكم فلانة ، وبذل لها من الصداق كذا وكذا ، فشفعوا شافعنا ، وأنكحوا خاطبنا ، وقولوا خيرا تحمدوا عليه وتؤجروا ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

بين ثمامة ويحيى بن أكثم
عند المأمون

وذكر ثمامة بن أشرس قال : كنا يوما عند المأمون ، فدخل يحيى بن أكثم وكان قد ثقل عليه موضعي منه ، فتذاكرنا شيئا من الفقه ، فقال يحيى في مسألة دارت : هذا قول عمر ابن الخطاب وعبد الله بن مسعود وابن عمرو وجابر .

قلت : أخطأوا كلهم ، وأغفلوا وجه الدلالة .

فاستعظم مني ذلك يحيى وأكبره ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إن هذا يخطىء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم .

فقال المأمون : سبحان الله ! أكذا يا ثمامة ؟

قلت : يا أمير المؤمنين ، إن هذا لا يبالي ما قال ولا ما شنع به .

ثم أقبلت عليه فقلت : ألست تزعم أن الحق في واحد عند الله عز وجل ؟

قال : نعم .

قلت : فزعمت أن تسعة أخطأوا وأصاب العاشر ، وقلت أنا : أخطأ العاشر ، فما أنكرت ؟

قال : فنظر المأمون الي وتبسم ، وقال : لم يعلم أبو محمد أنك تجيب هذا الجواب .

قال يحيى : وكيف ذلك ؟

قلت : ألست تقول : إن الحق في واحد ؟

قال : بلى .

قلت : فهل يخلي الله عز وجل هذا الحق من قائل يقول به من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال : لا .

قلت : أفليس من يخالفه ولم يقل به فقد أخطأ عندك الحق ؟

قال : نعم .

قلت : فقد دخلت فيما عبت ، وقلت بما أنكرت وبه شنعت ، وأنا أوضح دلالة منك ، لأني خطأتهم في الظاهر ، وكل مصيب عند الله الحق ، وانما خطأتهم عند الخلاف وأدتني الدلالة الى قول بعضهم ، فخطأت من خالفني ، وأنت خطأت من خالفك في الظاهر وعند الله عز وجل .

وفد الكوفة والمأمون

وقدم وفد الكوفة الى بغداد ، فوقفوا للمأمون فأعرض عنهم ، فقال شيخ منهم : يا أمير المؤمنين ، يدك أحق يد بالتقبيل، لعلوها في المكارم ، وبعدها من المآثم ، وأنت يوسفي العفو في قلة التثريب ، من أرادك بسوء جعله الله حصيد سيفك ، وطريد خوفك ، وذليل دولتك .

فقال : يا عمرو ، نعم الخطيب خطيبهم ، اقض حوائجهم ، فقضيت .

المأمون والزنادقة ومعهم طفيلي

وذكر ثمامة بن أشرس قال: بلغ المأمون خبر عشرة من الزنادقة ممن يذهب الى قول ماني ، ويقول بالنور والظلمة ، من أهل البصرة ، فأمر بحملهم اليه بعد أن سموا واحدا واحدا .

فلما جمعوا نظر اليهم طفيلي فقال : ما اجتمع هؤلاء الا لصنيع ، فدخل في وسطهم ، ومضى معهم ، وهو لا يعلم بشأنهم ، حتى صار بهم الموكلون الى السفينة ، فقال الطفيلي : نزهة لا شك فيها ، فدخل معهم السفينة ، فما كان أسرع من أن جيء بالقيود ، فقيد القوم والطفيلي معهم ، فقال الطفيلي : بلغ أمر تطفيلي الى القيود .

ثم أقبل على الشيوخ فقال : فديتكم أيش أنتم ؟

قالوا : بل أيش انت ؟ ومن أنت من اخواننا ؟

قال : والله ما أدري غير أني والله رجل طفيلي خرجت في هذا اليوم من منزلي فلقيتكم فرأيت منظرا جميلا وعوارض حسنة وبزة ونعمة ، فقلت : شيوخ وكهول وشباب جمعوا لوليمة ، فدخلت في وسطكم ، وحاذيت بعضكم كأني في جملة أحدكم ، فصرتم الى هذا الزورق ، فرأيته قد فرش بهذا الفرش ومهد ورأيت سفرا مملوءة وجربا وسلالا ، فقلت : نزهة يمضون اليها الى بعض القصور والبساتين ، إن هذا اليوم مبارك ، فابتهجت سرورا ، اذ جاء هذا الموكل بكم فقيدكم وقيدني معكم ، فورد علي ما قد أزال عقلي ، فأخبروني ما الخبر .

فضحكوا منه وتبسموا وفرحوا به وسروا ، ثم قالوا : الآن قد حصلت في الاحصاء ، وأوثقت في الحديد ، وأما نحن فمانية غمز بنا الى المأمون ، وسندخل اليه ، ويسائلنا عن أحوالنا ، ويستكشفنا عن مذهبنا ، ويدعونا الى التوبة والرجوع عنه بامتحاننا بضروب من المحن : منها اظهار صورة ماني لنا ، ويأمرنا أن نتفل عليها ، ونتبرأ منها ، ويأمرنا بذبح طائر ماء ، وهو الدراج ، فمن أجابه الى ذلك نجا ، ومن تخلف عنه قتل .

فاذا دعيت وامتحنت فأخبر عن نفسك واعتقادك على حسب ما تؤديك الدلالة الى القول به ، وأنت زعمت أنك طفيلي ، والطفيلي يكون معه مداخلات وأخبار ، فاقطع سفرنا هذا الى مدينة بغداد بشيء من الحديث وأيام الناس .

فلما وصلوا الى بغداد وأدخلوا على المأمون جعل يدعو بأسمائهم رجلا رجلا فيسأله عن مذهبه ، فيخبره بالاسلام ، فيمتحنه ويدعوه الى البراءة من ماني ويظهر له صورته ويأمره أن يتفل عليها والبراءة منها ، وغير ذلك ، فيأبون ، فيمرهم على السيف ، حتى بلغ الى الطفيلي بعد فراغه من العشرة ، وقد استوعبوا عدة القوم ، فقال المأمون للموكلين : من هذا ؟

قالوا : والله ما ندري ، غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به .

فقال له المأمون : ما خبرك ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، امرأتي طالق ان كنت أعرف من أقوالهم شيئا ، وانما أنا رجل

طفيلي وقص عليه خبره من أوله الى آخره .

فضحك المأمون ، ثم أظهر له الصورة ، فلعنها وتبرأ منها ، وقال أعطونيها حتى أسلح عليهم ، والله ما أدري ما ماني : أيهوديا كان أم مسلما .

فقال المأمون : يؤدب على فرط تطفله ومخاطرته بنفسه .

ابراهيم بن المهدي يتطفل

وكان ابراهيم بن المهدي قائما بين يدي المأمون ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هب لي ذنبه وأحدثك بحديث عجب في التطفيل عن نفسي .

قال : قل يا ابراهيم .

قال : يا أمير المؤمنين ، خرجت يوما فمررت في سكك بغداد متطرفا ، حتى انتهيت الى موضع ، فشممت رائحة أبازير من جناح في دار عالية ، وقدور قد فاح قتارها ، فتاقت نفسي اليها ، فوقفت على خياط فقلت : لمن هذه الدار ؟

فقال : لرجل من التجار من البزازين .

قلت : ما اسمه ؟

قال : فلان بن فلان .

فرفعت طرفي الى الجناح ، فاذا فيه شباك ، فنظرت الى كف قد خرجت من الشباك ومعصم ما رأيت أحسن منهما قط ، فشغلني يا أمير المؤمنين حسن الكف والمعصم عن رائحة القدور ، فبقيت باهتا وقد ذهل عقلي ، ثم قلت للخياط : هو ممن يشرب النبيذ ؟

قال : نعم ، وأحسب أن عنده اليوم دعوة ، ولا ينادم الا تجارا مثله مستورين .

فأنا كذلك اذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدرب ، فقال لي الخياط : هذان منادماه .

قلت : ما اسماهما وما كناهما ؟

فقال : فلان وفلان ، فحركت دابتي حتى دخلت بينهما ، وقلت : جعلت فداكما ، قد استبطأكما أبو فلان أعزه الله ، وسايرتهما حتى انتهينا الى الباب ، فقدماني ، فدخلت ودخلا .

فلما رآني صاحب المنزل لم يشك الا أني منهما بسبيل ، فرحب وأجلسني في أجل موضع ، فجيء يا أمير المؤمنين بالمائدة وعليها خبز نظيف ، وأتينا بتلك الألوان ، فكان طعمها أطيب من رائحتها ، فقلت في نفسي : هذه الألوان قد أكلتها ، وبقي الكف والمعصم ، ثم رفع الطعام فغسلنا أيدينا ، ثم صرنا الى مجلس المنادمة، فاذا هو أنبل مجلس وأجل فرش .

وجعل صاحب المجلس يلطف بي ويقبل عليَّ بالحديث ، والرجلان لا يشكان أنه مني بسبيل ، وإنما كان ذلك الفعل منه بي لما ظن أني منهما بسبيل ، حتى اذا شربنا أقداحا خرجت علينا جارية تتثنى كأنها غصن بان ، فسلمت غير خجلة ، وهيئت لها وسادة ، وأتى بعود فوضع في حجرها فجسته ، فتبينت الحذق في جسها ، ثم اندفعت تغني :

توهمها طرفي فآلم خدها فصار مكان الوهم من نظري أثر
وصافحها كفي فآلم كفها فمن لمس كفي في أناملها عقر
ومرت بقلبي خاطرا فجرحتها ولم أر شيئا قط يجرحه الفكر

فهيجت والله يا أمير المؤمنين على بلابلي ، وطربت لحسن غنائها وحذقها ، ثم اندفعت تغني :

أشرت اليها : هل علمت مودتي فردت بطرف العين : اني على العهد
فحدت عن الأظهار عمدا بسرها وحادت عن الأظهار أيضا على عمد

فصحت : السلامة ، وجاءني من الطرب ما لا أملك معه النفس ولا الصبر ، واندفعت تغني :

أليس عجيبا أن بيتا يضمني واياك لا نخلو ولا نتكلم
سوى أعين تشكو الهوى بجفونها وترجيع أحشاء على النار تضرم
اشارة أفواه ، وغمز حواجب وتكسير أجفان ، وكف يسلم

فحسدتها والله يا أمير المؤمنين على حذقها ، ومعرفتها بالغناء ، واصابتها معنى الشعر ، وأنها لم تخرج من الفن الذي ابتدأته ، فقلت : بقي عليك يا جارية شيء .
فغضبت وضربت بعودها الأرض ، ثم قالت : متى كنتم تحضرون مجالسكم البغضاء ؟
فندمت على ما كان مني ، ورأيت القوم قد تغيروا الي ، فقلت : أليس ثم عود ؟
قالوا : بلى يا سيدنا ، فأتيت بعود ، فأصلحت من شأنه ما أردت ، واندفعت أغني :

ما للمنــازل لا يجبــن حزينا ؟ أصممــن أم بعــد المدى فبلينا ؟
راحــوا العشية روحــة مذكورة ان متــن متــن ، وان حيــين حيينا

فلما استتممته جيدا حتى خرجت الجارية فأكبت على رجلي تقبلها ، وهـي تقـول : المعذرة والله لك يا سيدي ، فلما سمعت من يغني هذا الصوت مثلك .
وقام مولاها وكل من كان عنده فصنعوا كصنيعها ، وطرب القوم ، واستحثوا الشرب فشربوا بالطاسة ثم اندفعت أغني :

أباللــه هل تمســين لا تذكرينني وقد سجمت عينــاي من ذكرك الدما
الى اللــه أشـكو بخلهـا وسماحتي لهــا عســل منــي وتبــذل علقما
فردي مصــاب القلــب أنـت قتلته ولا تتــركيه ذاهــل العقــل مغرما
الى اللــه أشــكو أنهــا أجنبية وأنــي لهـا بالـود ما عشـت مكرما

فجاء من طرب القوم يا أمير المؤمنين ما خشيت أن يخرجوا من عقولهم ، فأمسكت ساعة ، حتى اذا هدأ القوم اندفعت أغني الثالثة :

هذا محبــك مطــوى على كمده صب ، مدامعه تجري على جسده
له يد تســأل الرحمــن راحته ممــا به ، ويد أخــرى على كبده
يا من رأى كلفــا مستهتــرا أسفا كانــت منيتــه في عينــه ويده

فجعلت الجارية يا أمير المؤمنين تصيح : السلامة ، هذا والله الغناء يا مولاي .
وسكر القوم وخرجوا من عقولهم ، وكان صاحب المنزل جيد الشراب ونديماه دونه ، فأمر غلمانه مع غلمانهم بحفظهم وصرفهم الى منازلهم ، وخلوت معه فشربنا أقداحا ، ثم قال : يا سيدي ، ذهب والله ما خلا من أيامي باطلا ، إذ كنت لا أعرفك ، فمن أنت يا مولاي ؟
فلم يزل يلح علي حتى أخبرته فقام فقبل رأسي ، وقال : يا سيدي ، وإني أعجب أن يكون هذا الأدب الا لمثلك ، واذا أنا منذ اليوم مع الخلافة ولا أعلم .
وسألني عن قصتي وكيف حملت نفسي على ما فعلته ، فأخبرته خبر الطعام والكف

والمعصم ، فقال : يا فلانة (لجارية له) قولي لفلانة تنزل .

فجعل ينزل الى جواريه واحدة واحدة ، فأنظر الى كفها وأقول : ليست هي ، حتى قال : والله ما بقي غير أمي وأختي ، ولأنزلنهما اليك .

فعجبت من كرمه وسعة صدره ، فقلت له : جعلت فداك ، أبدأ بالأخت قبل الأم ، فعسى أن تكون صاحبتي .

فقال : صدقت ، ففعل .

فلما رأيت كفها ومعصمها قلت : هي هي ، جعلت فداك ، فأمر غلمانه من فوره فصاروا الى عشرة مشايخ من جلة جيرانهم فأحضروا ، وجيء ببدرتين فيهما عشرون ألف درهم ، ثم قال : هذه أختي فلانة ، وأنا أشهدكم أني قد زوجتها من سيدي ابراهيم بن المهدي ، وأمهرتها عنه عشرين ألف درهم .

فرضيت وقبلت النكاح ، ودفعت اليها البدرة الواحدة ، وفرقت الأخرى على المشايخ ، وقلت لهم : اعذروا فهذا الذي حضرني في هذا الوقت ، فقبضوها وانصرفوا .

ثم قال : يا سيدي ، أمهد لك بعض البيوت تنام مع أهلك ، فأحشمني والله يا أمير المؤمنين ما رأيت من كرمه وسعة صدره ، فقلت : بل أحضر عمارية وأحملها الى منزلي .

فقال : افعل ما شئت ، فأحضرت عمارية وحملتها الى منزلي ، فوحقك يا أمير المؤمنين لقد حمل الي من الجهاز ما ضاق عنه بعض دوري .

فعجب المأمون من كرم ذلك الرجل ، وأطلق الطفيلي ، وأجازه بجائزة حسنة وأمر ابراهيم باحضار ذلك الرجل ، فصار بعد من خواص المأمون وأهل مودته ، ولم يزل معه على أفضل الأحوال السارة في المنادمة وغيرها .

اسحاق الموصلي وكلثوم القباني
عند المأمون

وذكر المبرد وثعلب قالا : كان كلثوم العتابي واقفا بباب المأمون ، فجاء يحيى بن أكثم ، فقال له العتابي : إن رأيت أن تعلم أمير المؤمنين بمكاني .

قال : لست بحاجب .

قال : قد علمت ، ولكنك ذو فضل ، وذو الفضل معوان .

قال : سلكت في غير طريقي .

قال : إن الله قد ألحقك بجاه ونعمة منه ، فهما مقيمان عليك بالزيادة ان شكرت ، وبالتقتير ان كفرت ، وأنا لك اليوم خير منك لنفسك ، أدعوك لما فيه زيادة نعمتك وأنت تأبى

ذلك ، ولكل شيء زكاة ، وزكاة الجاه بذله للمستعين .

فدخل يحيى فأخبر المأمون الخبر ، فأدخل اليه العتابي ، وفي المجلس اسحاق بن ابراهيم الموصلي ، فأمره بالجلوس ، وأقبل يسأله عن أحواله وشأنه ، فيجيبه بلسان ناطق ، فاستظرفه المأمون ، وأخذ في مداعبته ، فظن الشيخ أنه قد استخف به ، فقال : يا أمير المؤمنين ، الايناس قبل الابساس .

فاشتبه عليه قوله فنظر الى اسحاق فغمزه بعينه ثم قال : ألف دينار ، فأتى بها فوضعت بين يدي العتابي ، ثم دعا الى المفاوضة ، وأغرى المأمون اسحاق بالعبث به ، فأقبل اسحاق يعارضه في كل باب يذكره ويزيد عليه ، فعجب منه ، وهو لا يعلم أنه اسحاق .

ثم قال : أيأذن أمير المؤمنين في مسألة هذا الرجل عن اسمه ونسبه ؟

فقال : افعل .

فقال له العتابي : من أنت ؟ وما اسمك ؟

قال : أنا من الناس واسمي كل بصل .

فقال له العتابي : أما النسبة فقد عرفت ، وأما الاسم فمنكر ، وما كل بصل من الأسماء ؟

فقال له اسحاق : ما أقل انصافك ، وما كلثوم ؟ والبصل أطيب من الثوم .

قال العتابي : قاتلك الله ! ما أملحك ! ما رأيت كالرجل حلاوة ، أفيأذن أمير المؤمنين في صلته بما وصلني به فقد والله غلبني ؟

فقال له المأمون : بل ذلك موفر عليك ونأمر له بمثله .

فانصرف اسحاق الى منزله ، ونادمه بقية يومه .

العتابي

وكان العتابي من أرض جند قنسرين والعواصم ، وسكن الرقة من ديار مضر ، وكان من العلم والقراءة والأدب والمعرفة والترسل وحسن النظم للكلام وكثرة الحفظ وحسن الاشارة وفصاحة اللسان وبراعة البيان وملوكية المجالسة وبراعة المكاتبة وحلاوة المخاطبة وجودة الحفظ وصحة القريحة على ما لم يكن كثير من الناس في عصره .

وذكر أنه قال : كاتب الرجل لسانه ، وحاجبه وجهه ، وجليسه كله ، ونظم في ذلك شعرا ، فقال :

لسان الفتى كاتبه وَوجه الفتى حاجبه
وندمانه كله وكل له واجبه

وذكر عنه أنه قال : اذا وليت عملا فانظر من كاتبك ، فانما يعرف مقدارك من بعد عنك بكاتبك ، واستعقل حاجبك ، فانما يقضي عليك الوفود قبل الوصول اليك بحاجبك ، واستكرم واستطرب جليسك ونديمك ، فانما يوزن الرجل بمن معه .

بين كاتب ونديم

وقد فاخر كاتب نديما فقال الكاتب : أنا معونة وأنت مؤونة ، وأنا للجد وأنت للهزل ، وأنا للشدة وأنت للذة ، وأنا للحرب وأنت للسلم .

فقال النديم : أنا للنعمة وأنت للنقمة ، وأنا للحظوة وأنت للمهنة ؛ وتقوم وأجلس ، وتحتشم وأنا مؤنس ، تدأب لحاجتي ، وتشقى بما فيه سعادتي ، وأنا شريك وأنت معين ، وأنا قرين وأنت تابع ، وانما سميت نديما للندم على مفارقتي .

***

وللعتابي أخبار حسان ، وتصنيفات ملاح ، في ذكرها خروج عما اليه قصدنا ، ونحوه يممنا ، وانما ذكرنا عنه هذه الفصول لتغلغل الكلام بنا اليها وتشعبه نحوها .

رجل يرفع قصة للمأمون

وحكى الجوهري عن العتبي ، عن عباس الديري ، قال : رفع رجل قصة الى المأمون ، وسأله أن يأذن له في الدخول عليه ، والاستماع منه ، فأذن له ، فدخل فسلم .

فقال له المأمون : تكلم بحاجتك .

قال : أخبر أمير المؤمنين أن مصائب الدهر وأعاجيب الأيام ومحن الزمان قصدتني فأخذت مني ما كانت الدنيا أعطتني ، فلم تبق لي ضيعة ألا خربت ، ولا نهر الا اندقر ، ولا منزل الا تهدم ، ولا مال الا ذهب ، وقد أصبحت لا أملك سبدا ولا لبدا ، وعلي دين كثير ، ولي عيال وأطفال وصبية صغار ، وأنا شيخ كبير ، قد قعدت بي المطالب ، وكبرت عني المكاسب ، وبي حاجة الى نظر أمير المؤمنين وعطفه .

قال : فبينا هو في الكلام اذ ضرط ، فقال : وهذا يا أمير المؤمنين من عجائب الدهر ومحنته ، ولا والله ما ظهر مني قط الا في موضعه .

فقال المأمون لجلسائه : ما رأيت قط أقوى قلبا ولا أربط جأشا ولا أشد نفسا من هذا الرجل ، ثم أمر له بخمسين ألف درهم معجلة .

المأمون وأبو العتاهية

قال أبو العتاهية : وجه الي المأمون يوما ، فصرت اليه فألفيته مطرقا متفكرا مغموما ، فأحجمت عن الدنو اليه وهو على تلك الحال ، فرفع رأسه وأشار بيده أن أدنو فدنوت ،

فأطرق مليا ، ثم رفع رأسه فقال : يا اسماعيل : شأن النفس الملل ، وحب الاستطراف ، والأنس بالوحدة ، كما نأنس بالألفة .

قلت : أجل يا أمير المؤمنين ، ولي في هذا بيت شعر .

قال : وما هو ؟

قلت :

لا يصلح النفس اذ كانت مصرفة — الا التنقل من حال الى حال

قال : أحسنت زدني .

فقلت : لا أقدر على ذلك ، وآنسته بقية يومه ، وأمر لي بمال ، فانصرفت .

المأمون ورجل عامي

ويحكى أن المأمون أمر بعض خواصه من خدمه أن يخرج فلا يرى أحدا في الطرق إلا أتى به كائنا من كان من رفيع أو خسيس ، فأتاه برجل من العامة ، فدخل وعنده المعتصم أخوه ويحيى بن أكثم ومحمد بن عمرو الرومي ، وقدطبخ كل واحد منهم قدرا ، فقال محمد ابن ابراهيم الطاهري للرجل العامي : هؤلاء من خواص أمير المؤمنين فأجبهم عما يسألون .

فقال المأمون : الى أين خرجت في هذا الوقت وقد بقي عليك من الليل ثلاث ساعات ؟

فقال : غرني القمر ، وسمعت تكبيرا فلم أشك أنه أذان .

فقال له المأمون : اجلس ، فجلس .

فقال له المأمون : قد طبخ كل واحد منا قدرا هو ذا يقدم اليك من كل واحد منها قدرا فذق ذلك فأخبر عن فضائلها وما ترى من طيبها .

فقال : هاتوا ، فقدمت في طبق كبير كلها موضوعة عليه لا تمييز بينها ، ولكل واحدة ممن طبخها علامة .

فبدأ فذاق قدرا طبخها المأمون فقال : زه ، وأكل منها ثلاث لقمات .

وقال : أما هذه فكأنها مسكة وطباخها حكيم نظيف ، طريف مليح .

ثم ذاق قدر المعتصم ، فقال : هذه والله فكأنها والأولى من يد واحدة خرجتا ، وبحكمة متساوية طبختا .

ثم ذاق قدر محمد بن عمرو الرومي فقال : وهذه قدر طباخ ابن طباخ أجاد ما أحكمه .

ثم ذاق قدر يحيى بن أكثم القاضي فأعرض بوجهه ، وقال : شه ، هذه والله جعل طباخها مكان بصلها خرا .

فضحك القوم وذهب بهم الضحك كل مذهب ، وقعد يحادثهم ويطايبهم ويتلهى معهم ، وطابوا معه .

فلما برق الفجر قال له المأمون : لا يخرجن منك ما كنا فيه ، وعلم أنه علم بهم ، فوصله بأربعة آلاف دينار ، وقسط له على أصحاب القدور ، كل واحد منهم على قدر مرتبته ، وقال : اياك أن تعود الى الخروج في مثل هذا الوقت مرة اخرى .

فقال : لا أعدمكم الله الطبيخ ولا أعدمني الخروج !

فسألوه عن تجارته ، وعرفوا منزله ، وجعل بعد في خدمة المأمون وخدمة الجميع ، وصار في جملتهم .

ثلاثة أعيى المأمون جوابهم

وحدث أبو عباد الكاتب ـ وكان خاصا بالمأمون ـ قال :قال لي المأمون : ما أعياني الا جواب ثلاثة أنفس : صرت الى أم ذي الرياستين أعزيها عنه ، فقلت : لا تأسي عليه ولا تحزني لفقده ، فان الله قد أخلف عليك مني ولدا يقوم لك مقامه ، فمهما كنت تنبسطين اليه فيه فلا تنقبضين عني منه .

فبكت ، ثم قالت : يا أمير المؤمنين ، وكيف لا أحزن على ولد أكسبني ولدا مثلك ؟

وأتيت برجل قد تنبأ فقلت له : من أنت ؟

قال : موسى بن عمران عليه السلام .

فقلت : ويحك ! ان موسى بن عمران عليه السلام كانت له آيات ودلالات بان بها أمره ، منها أنه ألقى عصاه فابتعلت كيد السحرة ، ومنها اخراجه يده من جيبه وهي بيضاء ، وجعلت أعدد عليه ما أتى به موسى بن عمران عليه السلام من دلائل النبوة ، وقلت له : لو أتيتني بشيء واحد من علاماته أو آية من آياته كنت أول من آمن بك ، والا قتلتك .

فقال : صدقت ، الا أني أتيت بهذه العلامات لما قال فرعون أنا ربكم الأعلى ، فان قلت أنت كذلك أتيتك من العلامات بمثل ما أتيته به !

والثالثة أن أهل الكوفة اجتمعوا يشكون عاملا كنت أحمد مذهبه ، وأرتضي سيرته ، فوجهت اليهم اني أعلم سيرة الرجل ، وأنا عازم على القعود لكم في غداة غد ، فاختاروا رجلا يتولى المناظرة عنكم ، فأنا أعلم بكثرة كلامكم .

فقالوا : ما فينا من نرتضيه لمناظرة أمير المؤمنين ، الا رجل أطروش ، فان صبر أمير

المؤمنين عليه تفضل بذلك ، فوعدتهم الصبر عليه .

وحضروا من الغد ، فأمرت بالرجال فدخلوا والأطروش ، فلما مثل بين يدي أمرتهم بالجلوس ، ثم قلت له : ما تشكو من عاملكم ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، هو شر عامل في الأرض ، أما في أول سنة ولينا فانا بعنا أثاثاتنا وعقارنا ، وفي السنة الثانية بعنا ضياعنا وذخائرنا ، وفي السنة الثالثة خرجنا عن بلدنا فاستغثنا بأمير المؤمنين ليرحم شكوانا ويتطول علينا بالأمر بصرفه عنا .

فقلت له : كذبت لا أمان لك ، بل هو رجل أحمدت سيرته ومذهبه ، وارتضيت دينه وطريقته ، واخترته لكم لمعرفتي بكثرة سخطكم على عمالكم .

قال : يا أمير المؤمنين ، صدقت وكذبت أنا ! ولكن هذا العامل الذي ارتضيت دينه وأمانته وعدله وانصافه ، كيف خصصتنا به هذه السنين دون البلاد التي قد ألزمك الله عز وجل من العناية بأمورها مثل ما ألزمك من العناية بأمرنا ؟ فاستعمله على هذه البلاد حتى يشملهم من انصافه وعدله مثل الذي شملنا ، فقلت له : قم في غير حفظ الله ، فقد عزلته عنكم .

مناظرة المأمون للفقهاء

وكان يحيى بن أكثم يقول : كان المأمون يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء ، فاذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة ، وقيل لهم : انزعوا أخفافكم ، ثم أحضرت الموائد ، وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء ، ومن خفه ضيق فلينزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها .

فاذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وطيبوا ، ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه ، ويناظرهم أحسن مناظرة ، وأنصفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك الى أن تزول الشمس .

ثم تنصب الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون ، قال : فانه يوما لجالس اذ دخل عليه علي بن صالح الحاجب فقال : يا أمير المؤمنين ، رجل واقف بالباب عليه ثياب بيض غلاظ مشمرة ، ويطلب الدخول للمناظرة .

فقلت : انه بعض الصوفية ، فأردت بأن أشير ألا يؤذن له ، فبدأ المأمون فقال : ائذن له .

فدخل رجل عليه ثياب قد شمرها ونعله في يده ، فوقف على طرف البساط فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فقال المأمون : وعليك السلام .

فقال : أتأذن لي في الدنو منك ؟

قال : ادن ، فدنا ، ثم قال : اجلس ، فجلس : ثم قال : أتأذن في كلامك ؟

فقال : تكلم بما تعلم أن لله فيه رضا .

قال : أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت قد جلسته أباجتماع من المسلمين عليك ، ورضا منك ، أم بالمغالبة لهم والقوة عليهم بسلطانك ؟

قال : لم أجلسه باجتماع منهم ولا بمغالبة لهم ، انما كان يتولى أمر المسلمين سلطان قبلي أحمده المسلمون أما على رضا واما على كره ، فعقد لي ولآخر معي ولاية هذا الأمر بعده في أعناق من حضره من المسلمين ، فأخذ على من حضر بيت الله الحرام من الحاج البيعة لي ولآخر معي فأعطوه ذلك اما طائعين واما كارهين ، فمضى الذي عقد له على هذه السبيل التي مضى عليها ، فلما صار الأمر الي علمت أني أحتاج الى اجتماع كلمة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها على الرضا .

ثم نظرت فرأيت أني متى تخليت عن المسلمين حبل الاسلام ومرج عهدهم ، وانتقضت أطرافه ، وغلب الهرج والفتنة ، ووقع التنازع ، فتعطلت أحكام الله سبحانه وتعالى ، ولم يحج أحد بيته ، ولم يجاهد في سبيله ، ولم يكن لهم سلطان يجمعهم ويسوسهم ، وانقطعت السبل ، ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم .

فقمت بهذا الأمر حياطة للمسلمين ، ومجاهدا لعدوهم ، وضابطا لسبلهم ، وآخذا على أيديهم ، الى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم على الرضا به فأسلم الأمر اليه ، وأكون كرجل من المسلمين ، وأنت أيها الرجل رسولي الى جماعة المسلمين ، فمتى اجتمعوا على رجل ورضوا به خرجت اليه من هذا الأمر .

فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وقام .

فأمر المأمون علي بن صالح الحاجب بأن ينفذ في طلبه من يعرف مقصده ، ففعل ذلك ثم رجع وقال : وجهت يا أمير المؤمنين من اتبع الرجل فمضى الى مسجد فيه خمسة عشر رجلا في هيئته وزيه فقالوا له : لقيت الرجل ؟

فقال : نعم !

قالوا : فما قال لك ؟

قال : ما قال لي الا خيرا ، ذكر أنه ضبط أمور المسلمين الى أن تأمن سبلهم ، ويقوم بالحج والجهاد في سبيل الله ، ويأخذ للمظلوم من الظالم ، ولا يعطل الأحكام ، فاذا رضي المسلمون برجل سلم الأمر اليه وخرج اليه منه .

فقالوا : ما نرى بهذا بأسا ، وافترقوا .

فأقبل المأمون على يحيى ، فقال : كفينا مؤنة هؤلاء بأيسر الخطب .

فقلت : الحمد لله الذي ألهمك يا أمير المؤمنين الصواب والسداد في القول والفعل .

يحيى بن أكثم قاضي البصرة

قال المسعودي : وكان يحيى بن أكثم قد ولي قضاء البصرة قبل تأكد الحال بينه وبين المأمون ، فرفع الى المأمون أنه أفسد أولادهم بكثرة لواطه ، فقال المأمون : لو طعنوا عليه في أحكامه قبل ذلك منهم .

وقالوا : يا أمير المؤمنين ، قد ظهرت منه الفواحش وارتكاب الكبائر ، واستفاض ذلك عنه ، وهو القائل يا أمير المؤمنين في صفة الغلمان وطبقاتهم ومراتبهم في أوصافهم قوله المشهور .

فقال المأمون : وما الذي قال ؟

فدفعت اليه القصة فيها جمل مما رمى به وحكى عنه في هذا المعنى ، وهو قوله :

أربعة تفتن ألحاظهم فعين من يعشقهم ساهره
فواحد دنياه في وجهه منافق ليست له آخره
وآخر دنياه مفتوحة من خلفه آخره وافره
وثالث قد حاز كلتيهما قد جمع الدنيا والآخرة
ورابع قد ضاع ما بينهم ليست له دنيا ولا آخره

فأنكر المأمون ذلك في الوقت واستعظمه ، وقال : أيكم سمع هذا منه ؟

فقالوا : هذا مستفاض من قوله فينا يا أمير المؤمنين ، فأمر باخراجهم عنه ، وعزل يحيى عنهم .

وفي يحيى وما كان عليه بالبصرة يقول ابن أبي نعيم :

يا ليت يحيى لم يلده أكثمه ولم يطأ أرض العراق قدمه
ألوط قاض في العراق نعلمه أي دواة لم يلقها قلمه
وأي شعب لم يلجّه أرقمه

وضرب الدهر ضرباته فاتصل يحيى بالمأمون ونادمه ، ورخص له في أمور كثيرة .

فقال له يوما : يا أبا محمد ، من الذي يقول :

قاض يرى الحد في الزناء ، ولا يرى على من يلوط من باس

قال : ذلك ابن أبي نعيم يا أمير المؤمنين ، وهو القائل :

أميرنا يرتشي ، وحاكمنا يلوط ، والرأس شر ما راس
قاض يرى الحد في الزناء ، ولا يرى على من يلوط من باس
ما أحسب الجور ينقضي وعلى الـ أمة وال من آل عباس

فأطرق المأمون خجلا ساعة ، ثم رفع رأسه وقال : ينفي ابن أبي نعيم الى السند .
وكان يحيى اذا ركب مع المأمون في سفر ركب معه بمنطقة وقباء وسيف بمعاليق وساسية واذا كان الشتاء ركب في أقبية الخز وقلانس السمور والسروج المكشوفة ، وبلغ من اذاعته ومجاهرته باللواط أن المأمون أمره أن يفرض لنفسه فرضا يركبون بركوبه ويتصرفون في أموره ، ففرض أربعمائة غلام مردا اختارهم حسان الوجوه ، فافتضح بهم ، وقال في ذلك راشد بن اسحاق يذكر ما كان من أمر يحيى في الفرض :

خليليَّ انظرا متعجبين لأظرف منظر مقلته عيني
لفرض ليس يقبل فيه الا أسيل الخد حلو المقلتين
والا كل أشقر أكثمي قليل نبات شعر العارضين
يقدم دون موقف صاحبيه بقدر جماله وبقبح ذين
يقودهم الى الهيجاء قاض شديد الطعن بالرمح الرديني
اذا شهد الوغى منهم شجاع تجدل للجبين ولليدين
يقودهم على علم وحلم ليوم سلامة لا يوم حين
وصار الشيخ منحنيا عليه بمدجه يجوز الركبتين
يغادرهم الى الأذقان صرعى وكلهم جريح الخصيتين

وفيه يقول راشد أيضا :

وكنا نرجي أن نرى العدل ظاهرا   فأعقبنا بعد الرجاء قنوط
متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها   وقاضي قضاة المسلمين يلوط ؟

وكان يحيى بن أكثم بن عمرو بن أبي رباح من أهل خراسان من مدينة مرو ، وكان رجلا من بني تميم ، وسخط عليه المأمون في سنة خمس عشرة ومائتين وذلك بمصر ، وبعث به الى العراق مغضوبا عليه ، وكان قد كتب الحديث وتفقه للبصريين كعثمان البتي وغيره وله مصنفات في الفقه وفي فروعه وأصوله ، وكتاب أفرده سماه بكتاب « التنبيه » يرد فيه على العراقيين وبينه وبين أبي سليمان أحمد بن أبي داود بن علي مناظرات كثيرة .

وفاة الامام الشافعي

وفي خلافة المأمون كانت وفاة أبي عبد الله محمد بن أدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبد الله بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف الشافعي ، في رجب ليلة الجمعة ، وذلك سنة أربع ومائتين ، ودفن صبيحة الليلة ، وهو ابن أربع وخمسين سنة ، وصلى عليه السري بن الحكم أمير مصر يومئذ . . . كذلك ذكر عكرمة بن محمد بن بشر عن الربيع بن سليمان المؤذن ، وذكر أيضا محمد بن سفيان بن سعيد المؤذن ، وغيرهما عن الربيع بن سليمان مثل ذلك .

ودفن الشافعي بمصر بحومة قبور الشهداء في مقبرة بني عبد الحكم ، وبين قبورهم وعند رأسه عمود من الحجر كبير ، وكذلك عند رجليه ، وعلى العالي الذي عند رأسه حفر قد كتب فيه في ذلك الحجر « هذا قبر محمد بن ادريس الشافعي أمين الله » وما ذكرنا فمشهور بمصر ، والشافعي يتفق نسبه مع بني هاشم وبني أمية في عبد مناف ، لأنه من ولد المطلب بن عبد مناف ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « نحن وبنو المطلب كهاتين » ، وأشار باصبعيه مضمومتين ، وقد كانت قريش حاصرت بني المطلب مع بني هاشم في الشعب .

وحدثني فقير بن مسكين عن المزني بهذا ، وكان فقير يحدث عن المزني ، وكان سماعنا من فقير بن مسكين بمدينة أسوان بصعيد مصر ، قال : قال المزني : دخلت على الشافعي غداة وفاته ، فقلت له : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟

قال : أصبحت من الدنيا راحلا ، ولأخواني مفارقا ، وبكأس المنية شاربا ، ولا أدري الى الجنة تصير روحي فأهنيها ، أم الى النار فأعزيها ، وأنشأ يقول :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي   جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي ، فلما قرنته   بعفوك ربي كان عفوك أعظما

أبو داود الطيالسي وابن الكلبي

وفي هذه السنة التي مات فيها الشافعي ـ وهي سنة أربع ومائتين ـ مات أبو داود سليمان ابن داود الطيالسي ، وهو ابن احدى وتسعين سنة ، وفيها مات هشام بن محمد بن السائب الكلبي .

المأمون ورجل يدعي النبوة

وادعى رجل النبوة بالبصرة أيام المأمون ، فحمل اليه موثقا بالحديد ، فمثل بين يديه ، فقال له : أنت نبي مرسل ؟

قال : أما الساعة فأنا موثق .

قال : ويلك ، من غرك ؟

قال : أبهذا تخاطب الأنبياء ، أما والله لولا أني موثق لأمرت جبريل أن يدمدمها عليكم ؟

قال له المأمون : والموثق لا تجاب له دعوة ؟

قال : الأنبياء خاصة اذا قيدت لا يرتفع دعاؤها .

فضحك المأمون ، وقال : من قيدك ؟

قال : هذا الذي بين يديك .

قال : فنحن نطلقك وتأمر جبريل أن يدمدمها ، فان أطاعك آمنا بك وصدقناك .

فقال : صدق الله اذ يقول : « فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » إن شئت فافعل ، فأمر باطلاقه .

فلما وجد راحة العافية قال : يا جبريل ـ ومد بها صوته ـ ابعثوا من شئتم فليس بيني وبينكم الآن عمل غيري يملك الأموال وأنا لا شيء معي ، ما يذهب لكم في حاجة الا كشخان !

فأمر باطلاقه والاحسان اليه .

المأمون ورجل يدعي أنه ابراهيم الخليل

وحدث ثمامة بن أشرس قال : شهدت مجلسا للمأمون وقد أتي برجل ادعى أنه ابراهيم الخليل ، فقال له المأمون : ما سمعت بأجرأ على الله من هذا .

قلت : إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في كلامه .

قال : شأنك واياه .

قلت : يا هذا ان ابراهيم عليه السلام كانت له براهين .

قال : وما براهينه ؟

قلت : أضرمت له النار وألقي فيها فكانت عليه بردا وسلاما ، فنحن نضرم لك نارا ونطرحك فيها فان كانت عليك بردا وسلاما كما كانت عليه آمنا بك وصدقناك .

قال : هات ما هو ألين علي من هذا .

قلت : فبراهين موسى عليه السلام .

قال : وما هي ؟

قلت : ألقى العصا فاذا هي حية تسعى تلقف ما يأفكون ، وضرب بها البحر فانفلق ، وبياض يده من غير سوء .

قال : هذا أصعب ، ولكن هات ما هو ألين علي من هذا .

قلت : فبراهين عيسى عليه السلام .

قال : وما براهينه ؟

قلت : احياء الموتى .

فقطع الكلام في براهين عيسى وقال : جئت بالطامة الكبرى ، دعني من براهين هذا .

قلت : فلا بد من براهين .

قال : ما معي من هذا شيء ، وقد قلت لجبريل انكم توجهونني الى شياطين فأعطوني حجة أذهب بها والا لم أذهب ، فغضب جبريل عليه السلام علي وقال : جئت بالشر من ساعة ، اذهب أولا فانظر ما يقول لك القوم .

فضحك المأمون وقال : هذا من الأنبياء التي تصلح للمنادمة .

***

وفي سنة ثمان وتسعين ومائة خلع المأمون أخاه القاسم بن الرشيد من ولاية العهد .

***

خروج أبي السرايا وابن طباطبا وقوم من العلويين

وفي سنة تسع وتسعين ومائة خرج أبو السرايا السري بن منصور الشيباني بالعراق ، واشتد أمره ، ومعه محمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وهو ابن طباطبا .

ووثب بالمدينة محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي رحمهم الله .

ووثب بالبصرة علي بن محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي عليهم

السلام ، وزيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ، فغلبوا على البصرة .

وفي هذه السنة مات ابن طباطبا الذي كان يدعو اليه أبو السرايا ، وأقام أبو السرايا مكانه محمد بن محمد بن يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي .

وظهر في هذه السنة باليمن (وهي سنة تسع وتسعين ومائة) ابراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي .

وظهر في أيام المأمون بمكة ونواحي الحجاز محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين رحمهم الله ، وذلك في سنة مائتين ، ودعا لنفسه ، واليه دعت السبطية من فرق الشيعة وقالت بامامته .

وقد افترقوا فرقا : فمنهم من غلا ، ومنهم من قصر ، وسلك طريق الامامية ، وقد ذكرنا في كتاب « المقالات في أصول الديانات » وفي كتاب « أخبار الزمان » من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة ، في الفن الثلاثين من أخبار خلفاء بني العباس ومن ظهر في أيامهم من الطالبيين .

وقيل : إن محمد بن جعفر هذا دعا في بدء أمره وعنفوان شبابه الى محمد بن ابراهيم بن طباطبا صاحب ابي السرايا ، فلما مات ابن طباطبا ـ وهو محمد بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن ـ دعا لنفسه ، وتسمى بأمير المؤمنين ، وليس في آل محمد ممن ظهر لاقامة الحق ممن سلف وخلف قبله وبعده من تسمى بأمير المؤمنين غير محمد بن جعفر هذا ، وكان يسمى بالديباجة ، لحسنه وبهائه ، وما كان عليه من البهاء والكمال ، وكان له بمكة ونواحيها قصص حمل فيها الى المأمون بخراسان ، والمأمون يومئذ بمرو ، فأمنه المأمون ، وحمله معه الى جرجان ، فلما صار المأمون مات محمد بن جعفر ، فدفن بها .

وقد أتينا على كيفية وفاته وما كان من أمره وغيره من آل أبي طالب ومقاتلهم ببقاع الأرض في كتابنا « حدائق الأذهان » في أخبار آل أبي طالب ومقاتلهم في بقاع الأرض .

ظهور ابن الأفطس

وظهر في أيام المأمون بالمدينة الحسين بن الحسن بن علي بن علي بن الحسين بن علي ، وهو المعروف بابن الأفطس ، وقيل : انه دعا في بدء أمره الى ابن طباطبا ، فلما مات ابن طباطبا دعا الى نفسه والقول بامامته وسار الى مكة فأتى الناس وهم بمنى ، وعلى الحاج داود بن عيسى بن موسى الهاشمي ، فهرب داود ، ومضى الناس الى عرفة ، ودفعوا الى مزدلفة بغير انسان عليهم من ولد العباس .

وقد كان ابن الأفطس وافى الموقف بالليل ، ثم صار الى المزدلفة والناس بغير امام فصلى بالناس ، ثم مضى الى منى ، فنحر ودخل مكة وجرد البيت مما عليه من الكسوة الا القباطي البيض فقط .

الظفر بأبي السرايا

وفي سنة مائتين ظفر حماد المعروف بالكندغوش بأبي السرايا ، فأتى به الحسن بن سهل ، فقتله وصلبه على الجسر ببغداد ، وقد أتينا في كتابنا « أخبار الزمان » على خبر أبي السرايا وخروجه وما كان منه في خروجه وقتله عبدوس بن محمد بن أبي خالد ومن كان معه من قواد الأبناء واستباحته عسكره .

***

قال المسعودي : وفي سنة مائتين بعث المأمون برجاء بن أبي الضحاك وياسر الخادم الى علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي الرضا لأشخاصه ، فحمل اليه مكرما ، وفيها أمر المأمون باحصاء ولد العباس من رجالهم ونسائهم وصغيرهم وكبيرهم ، فكان عددهم ثلاثة وثلاثين ألفا .

المأمون وعلي بن موسى الرضا

ووصل الى المأمون أبو الحسن علي بن موسى الرضا ، وهو بمدينة مرو ، فأنزله المأمون احسن انزال ، وأمر المأمون بجميع خواص الأولياء ، وأخبرهم أنه نظر في ولد العباس وولد علي رضي الله عنهم ، فلم يجد في وقته أحدا أفضل ولا أحق بالأمر من علي بن موسى الرضا ، فبايع له بولاية العهد ، وضرب اسمه على الدنانير والدراهم ، وزوج محمد بن علي ابن موسى الرضا بابنته أم الفضل .

وأمر بازالة السواد من اللباس والأعلام وأظهر بدلا من ذلك الخضرة في اللباس والأعلام وغير ذلك ، ونمى ذلك الى من بالعراق من ولد العباس ، فأعظموه اذ علموا أن في ذلك خروج الأمر عنهم .

وحج بالناس ابراهيم بن موسى بن جعفر أخو الرضا بأمر المأمون ، واجتمع من بمدينة السلام من ولد العباس ومواليهم وشيعتهم على خلع المأمون ومبايعة ابراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة ، فبويع له يوم الخميس لخمس ليال خلون من المحرم سنة اثنتين ومائتين ، وقيل : إن ذلك في سنة ثلاث ومائتين .

مقتل الفضل بن سهل

وفي سنة اثنتين ومائتين قتل الفضل بن سهل ذو الرياستين في حمام غيلة ، وذلك بمدينة

سرخس من بلاد خراسان ، وذلك في دار المأمون ، في مسيره الى العراق ، فاستعظم المأمون ذلك وقتل قتلته ، وسار المأمون الى العراق .

موت علي بن موسى الرضا

وقبض علي بن موسى الرضا بطوس لعنب اكله وأكثر منه ، وقيل : انه كان مسموما ، وذلك في صفر سنة ثلاث ومائتين ، وصلى عليه المأمون ، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة ، وقيل : سبع وأربعين سنة وستة أشهر .

وكان مولده بالمدينة سنة ثلاث وخمسين ومائة للهجرة ، وكان المأمون زوج ابنته أم حبيبة لعلي بن موسى الرّضا ، فكانت احدى الأختين تحت محمد بن علي بن موسى ، والأخرى تحت أبيه علي بن موسى .

ابراهيم بن المهدي يخرج على المأمون

واضطربت بغداد في أيام ابراهيم بن المهدي ، وثارت الرويبضة ، وسموا أنفسهم المطوعة ، وهم رؤساء العامة والتوابع . ولما قرب المأمون من مدينة السلام صلى ابراهيم بن المهدي بالناس في يوم النحر ، واختفى في اليوم الثاني من النحر ، وذلك في سنة ثلاث ومائتين ، فخلعه أهل بغداد .

وكان دخول المأمون بغداد سنة أربع ومائتين ، ولباسه الخضرة ، ثم غير ذلك ، وعاد الى لباس السواد ، وذلك حين قدم طاهر بن الحسين من الرقة اليه .

خروج بابك الخرمي

وفي سنة أربع ومائتين كان القحط العظيم ببلاد المشرق والوباء بخراسان وغيرها ، وفيها كان خروج بابك الخرمي ببلاد البدين في أصحاب جاويذان بن شهرك .

وقد قدمنا ذكرنا بلاد بابك ، وهي البدين من أرض اذربيجان والران والبيلقان فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا لجبل الفتح والباب والأبواب ونهر الراس وجريانه نحو بلاد البدين .

الظفر بابراهيم

وبث المأمون عيونه في طلب ابراهيم بن المهدي ، وقد علم باختفائه فيها ، فظفر به ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة سبع ومائتين في زي امرأة ، ومعه امرأتان ، اخذه حارس بن أسود في الدرب المعروف بالطويل ببغداد ، فأدخل الى المأمون فقال : هيه يا ابراهيم .

فقال : يا أمير المؤمنين ، ولي الثار محكم في القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، ومن تناوله الزمان واستولى عليه الاغترار بما مد له من أسباب الشقاء امكن عادية الدهر من

نفسه ، وقد جعلك الله فوق كل ذي عفو ، كما جعل كل ذي ذنب دوني ، فان تعاقب فبحقك ، وان تعف فبفضلك .

قال : بل العفو يا ابراهيم ، فكبر ثم خر ساجدا ، فأمر المأمون فصيرت المقنعة التي كانت عليه على صدره ليرى الناس الحال التي اخذ عليها .

ثم أمر به فصير في دار الحرس أياما ينظر الناس اليه ، ثم حول الى أحمد بن أبي خالد ، ثم رضي عنه من بعد أن كان وكل به ، فقال ابراهيم في ذلك من كلمة له :

إن الـذي قسـم المكارم حازها ... من صلـب آدم للامـام السابع
جمع القلـوب عليك جامع أهلها ... وحـوى ودادك كل خـير جامع
فبذلـت اعظـم ما يقـوم بحمله ... وسع النفـوس من الفعـال البارع
وعفـوت عمـن لم يكن عن مثله ... عفـو ، ولـم يشفـع اليك بشافع

زواج المأمون ببوران
بنت الحسن بن سهل

وانحدر المأمون الى فم الصلح في شعْبان سنة تسع ومائتـين ، وأملك بخديجـة ابنـة الحسن بن سهل التي تسمى بوران ، ونثر الحسن في ذلك الاملاك من الأموال ما لم ينثره ولم يفعله ملك قط في جاهلية ولا في اسلام .

وذلك أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك ، فكانت البندقة اذا وقعت في يد الرجل فتحها فقرأ ما فيها فيجد على قدر اقباله وسعوده فيها ، فيمضي الى الوكيل الذي نصب لذلك ، فيقول له : ضيعة يقال لها فلانة الفلانية من طسوج كذا من رستاق كذا ، وجارية يقال لها فلانة الفلانية ، ودابة صفتها كذا .

ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبـر ، وأنفق على المأمون وقواده وعلى جميع أصحابه ومن كان معه من جنوده أيام مقامه عنده حتى المكاريين والحمالين والملاحين وكل من ضمه العسكر من تابع ومتبوع مرتزق وغيره .

فلم يكن أحد من الناس يشتري شيئـا في عسكر المأمون ممـا يطعـم ولا ممـا تعتلفـه البهائم ، فلما أراد المأمون أن يصعد في دجلة منصرفـا الى مدينـة السـلام قال للحسـن : حوائجك يا أبا محمد .

قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أسألك ان تحفظ على مكاني من قلبك ، فانه لا يتهيأ لي

حفظه الا بك .

فأمر المأمون بحمل خراج فارس وكور الأهواز اليه سنة ، فقالت في ذلك الشعراء فأكثرت ، وأطنبت الخطباء في ذلك وتكلمت ، فمما استظرف مما قيل في ذلك من الشعر قول محمد بن حازم الباهلي :

بارك الله للحسن ولبوران في الختن
يا ابن هارون قد ظفر ت ولكن ببنت من

فلما نمى هذا الشعر الى المأمون ، قال : والله ما ندري خيرا أراد أم شرا .

أهل المأمون يحملونه على قتل ابراهيم بن المهدي

ودخل ابراهيم بن المهدي يوما على المأمون بعد مدة من الظفر به ، فقال : إن هذين يحملانني على قتلك (يعني المعتصم أخاه والعباس بن المأمون .).

فقال : ما أشارا عليك الا بما يشار به على مثلك ، ولكن تدع ما تخاف لما ترجو ، وأنشد :

رددت مالي ولم تبخل علي به وقبل ردك مالي قد حقنت دمي
فبؤت منها وما كافيتها بيد هما الحياتان من موت ومن عدم
البر وطأ منك العذر عندك لي فيما أتيت ، ولم تعذل ، ولم تلم
وقام عذرك بي فاحتج عندك لي مقام شاهد عدل غير متهم

***

ولابراهيم أخبار حسان ، وأشعار ملاح ، وما كان من أمره في حال اختفائه في سويقة غالب ببغداد ، وتنقله من موضع الى موضع بها ، وخبره في الليلة التي قبض عليه فيها ، قد أتينا على جميعها فيما سمينا من كتبنا التي كتابنا هذا تال لها ومنبه عليها .

وقد صنف يوسف بن ابراهيم الكاتب صاحب ابراهيم بن المهدي كتبا منها كتابه في أخبار المتطببين مع الملوك في المآكل والمشارب والملابس ، وغيرذلك ، وكتابه المعروف بكتاب ابراهيم بن المهدي في أنواع الأخبار ، وغيرذلك من كتبه .

من اخبار ابراهيم بن المهدي

ومن أحسن ما اختير من أخبار ابراهيم في حال تنقله واختفائه ببغداد خبره مع المزين ، وهو أن المأمون لما دخل بغداد على ما ذكرنا فيما سلف من هذا الباب من بثه العيون طالبا لابراهيم بن المهدي ، وجعل لمن دل عليه جعلا خطيرا من المال .

قال ابراهيم : فخرجت في يوم صائف في وقت الظهر لا أدري أين أتوجه ، فصرت الى زقاق ولا منفذ له ، فرأيت أسود على باب دار ، فصرت اليه وقلت له : أعندك موضع أقيم فيه ساعة من نهار ؟

قال : نعم . وفتح بابه ، فدخلت الى بيت فيه حصير نظيف ووسادة جلد نظيفة ، ثم تركني وأغلق الباب في وجهي ومضى .

فتوهمته قد سمع الجعالة في ، وأنه خرج ليدل علي ، فبينا أنا كذلك اذ أقبل ومعه طبق عليه كل ما يحتاج اليه من خبز ولحم ، وقدر جديد وآلتها ، وجرة نظيفة وكيزان نظاف ، كل ذلك جديد ، وقال لي : جعلني الله فداك ، اني حجام ، واني أعلم أنك تتقذر ما أتولاه ، فشأنك بما لم تقع عليه يدي .

وكانت بي حاجة شديدة الى الطعام ، فقمت فطبخت لنفسي قدرا ما أذكر أني أكلت أطيب منها ، ثم قال لي بعد ذلك : هل لك في النبيذ ؟

فقلت : ما أكره ذلك . ففعل مثل فعله في الطعام ، وأتاني بكل شيء نظيف لم يمس شيئا منه بيده ، ثم قال لي بعد ذلك : أتأذن لي جعلني الله فداك أن أقعد ناحية منك فآتي بنبيذ فأشرب منه سرورا بك ؟

قال : فقلت : افعل ذلك .

فلما شرب ثلاثا دخل خزانة له وأخرج منها عودا وقال : يا سيدي ، ليس من قدري أن أسألك أن تغني ، ولكن قد وجبت عليك حرمتي ، فان رأيت ان تشرف عبدك بأن تغنيه .

قال : فقلت : وكيف توهمت على أني أحسن الغناء ؟

فقال متعجبا : يا سبحان الله ! أنت أشهر من ألا أعرفك ، أنت ابراهيم بن المهدي الذي جعل المأمون لمن دل عليك مائة ألف درهم .

قال : فلما قال لي ذلك تناولت العود ، فلما هممت بالغناء قال : يا سيدي أتجعل ما تغنيه ما أقترحه عليك ؟

قلت : هات .

فاقترح ثلاثة أصوات أتقدم فيها عن كل من غنى .

قلت : هبك عرفتني ، هذه الأصوات من أين لك بمعرفتها ؟

قال : أنا اخدم اسحاق بن ابراهيم الموصلي ، وكثيرا ما كنت أسمعه يذكر المحسنين وما يجيدونه ، ولم أتوهم أني أسمع ذلك منك في منزلي .

فغنيته ، وأنست به . واستظرفته .

فلما كان الليل خرجت من عنده ، وقد كنت حملت معي خريطة فيها دنانير ، فقلت له : خذها فاصرفها في بعض مؤنتك ، ولك عندنا مزيد ان شاء الله تعالى .

فقال: ما أعجب هذا! والله عزمت على أن أعرض عليك جملة ما عندي، وأسألك أن تتفضل بقبولها ، ثم أجللتك عن ذلك ، وامتنع عن قبول شيء ، ومضى حتى دلني على الموضع الذي احتجبت اليه ، وانصرف ، وكان آخر العهد به .

يزيد بن هارون

وفي سنة ست ومائتين ـ وذلك في خلافة المأمون ـ مات يزيد بن هارون بن زادان الواسطي ، وله تسع وثمانون سنة ، وكان مولده سنة سبع عشرة ومائة وهو مولى لبني سليم ، وكان أبوه يخدم في مطبخ زياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد ومصعب بن الزبير والحجاج ابن يوسف ، ويزيد هذا عند أهل الحديث من عليتهم وعظيم من عظمائهم ، وكانت وفاته بواسط العراق .

موت جماعة من أهل العلم

وفيها مات جرير بن خزيمة بن حازم ، وشيبة بن سوار المدني ، والحجاج بن محمد الأعور الفقيه ، وعبد الله بن نافع الصائغ المدني مولى لبني مخزوم ، ووهب بن جرير ، ومؤمل بن اسماعيل ، وروح بن عبادة ، وفيها مات الهيثم بن عدي وكان يغمز عليه نسبه ، وفيه يقول القائل :

اذا نسبت عديا في بني ثعل   فقدم الدال قبل العين في النسب

قصة وفاء وايثار

وفي سنة تسع ومائتين مات الواقدي ، وهو محمد بن عمرو بن واقد مولى لبني هاشم ،وهو صاحب السير والمغازي ، وقد ضعف في الحديث ، وذكر ابن أبي الأزهر قال : حدثني أبوسهل الرازي ، عمن حدثه ، عن الواقدي قال : كان لي صديقان أحدهما

هاشمي ، وكنا كنفس واحدة ، فنالتني ضيقة شديدة ، وحضر العيد ، فقالت امرأتي : أما نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة ، وأما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبي رحمة لهم ، لأنهم يرون صبيـان الجيران قد تزينوا في عيدهم وأصلحوا ثيابهم ، وهم على هذه الحال من الثياب الرثة ، فلو احتلت بشيء تصرفه في كسوتهم .

قال : فكتبت الى صديقي الهاشمي اسأله التوسعة علي لما حضر ، فوجه الي كيسا مختوما ذكر أن فيه ألف درهم ، فما استقر قراري حتى كتب الي الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت الى صاحبي ، فوجهت اليه الكيس بحاله .

وخرجت الى المسجد فأقمت فيه ليلي مستحييا من امرأتي ، فلما دخلت عليها استحسنت ما كان مني ولم تعنفني عليه .

فبينا أنا كذلك اذ وافى صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيئته ، فقال لي : اصدقني عما فعلته فيما وجهت اليك ، فعرفته الخبر على جهته .

فقال : انك وجهت الي وما أملك على الأرض الا ما بعثت به اليك ، وكتبت الى صديقنا أسأله المواساة ، فوجه بكيسي بخاتمي .

قال : فتواسينا الألف ثلاثا بعد أن اخرجنا الى المرأة قبل ذلك مائة درهم ، ونمي الخبر الى المأمون ، فدعاني ، فشرحت له الخبر ، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار : لكل واحد ألفا دينار ، وللمرأة ألف دينار ، وقبض الواقدي وهو ابن سبع وسبعين سنة .

وفيها كانت وفاة يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي ببغداد ، وصلى عليه المأمون ، وقد أتينا على خبره فيما سلف من كتبنا .

بين أزهر وأبي جعفر المنصور

وفيها مات أزهر السمان ، وكان صديقا لأبي جعفر المنصور في أيام بني أمية وكانا قد سافرا جميعا وسمعا الحديث ، وكان المنصور يألفه ، ويأنس اليه ، ويكبر عنده .

فلما أفضت الخلافة اليه أشخص اليه من البصرة ، فسأله المنصور عن زوجته وبناته ، وكان يعرفهن بأسمائهن ، وأظهر بره وكرمه ، ووصله بأربعة آلاف درهم ، وأمره ألا يقدم اليه مستميحا .

فلما كان بعد حول صار اليه ، فقال له : ألم آمرك ألا تسير الي مستميحا .

فقال له : ما صرت اليك الا مسلما ومجددا بك عهدا .

قال : ما أرى الأمر كما ذكرت ، فأمر له بأربعة آلاف درهم ، وأمره ألا يصير اليه مسلما ولا مستميحا ، فلما كان بعد سنة صار اليه فقال : إني لم أقدم عليك للأمرين اللذين

نهيتني عنهما ، وإنما بلغني أن علة عرضت لأمير المؤمنين فأتيته عائدا .

فقال : ما أظنك أتيت الا مستوصلا ، فأمر له بأربعة آلاف درهم .

فلما كان بعد الحول ألح عليه بناته وزوجته ، وقلن له : أمير المؤمنين صديقك ، فارجع اليه .

فقال : ويحكن ! ماذا أقول له وقد قلت له أتيتك مستميحا ومسلما وعائدا ؟ ماذا أقول في هذه المرة ؟ وبم احتج ؟ فأبوا على الشيخ الا الالحاح .

فخرج فأتى المنصور وقال : لم آتك مسترفدا ، ولا زائرا ، ولا عائدا ، وإنما جئت لسماع حديث كنا سمعناه جميعا في بلد كذا من فلان عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه اسم من أسماء الله تعالى من سأل الله به لم يرده ولم يخيب دعوته .

فقال له المنصور : لا ترده فاني قد جربته فليس هو بمستجاب ، وذلك أني مذ جئتني أسأل الله به ألا يردك الي ، وها أنت ترجع لا تنفك من قولك مسلما أو عائدا أو زائرا ، ووصله بأربعة آلاف درهم ، وقال له : قد أعيتني فيك الحيلة فصر الي متى شئت .

مقتل ابن عائشة

وفي سنة تسع ومائتين ركب المأمون الى المطبق بالليل حتى قتل ابن عائشة ، وهو رجل من ولد العباس بن عبد المطلب ، واسمه ابراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن ابراهيم الامام أخي أبي العباس والمنصور ، وقتل معه محمد بن ابراهيم الافريقي وغيره ، وابن عائشة هذا أول عباسي صلب في الاسلام ، وتمثل المأمون حين قتله بقول الشاعر :

اذا النـار في أحجارهـا مستكنة   متـى ما يهجهـا قادح تتضرم

وكان رجل من ولد العباس بن علي بن أبي طالب ذو مال وثروة وعز ومنعة وفهم وبلاغة ، وهو العباس بن العباس العلوي ، بمدينة السلام ، وكان المعتصم يشنؤه لحال كانت بينهما ، فمكن في نفس المأمون أنه شانىء له ولدولته ، ماقت لأيامه .

فلما كان في تلك الليلة لحق العباس بالمأمون على الجسر فقال له المأمون : ما زلت تنتظرها حتى وقعت .

فقال : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين ، ولكني ذكرت قول الله عز وجل « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ان يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » ، فحسن موقع ذلك منه ، ولم يزل يسايره حتى بلغ المطبق .

فلما قتل ابن عائشة قال : أيأذن أمير المؤمنين لي في الكلام ؟
قال : تكلم .
قال : الله الله في الدماء ، فان الملك اذا ضري بها لم يصبر عنها ، ولم يبق على أحد .
قال : لو سمعت هذا الكلام منك قبل أن أركب ما ركبت ولا سفكت دما ، وأمر له بثلثمائة ألف درهم .
وقد أتينا على خبر ابن عائشة هذا وما أراد من الايقاع بالمأمون ، وما كان من أمره في كتابنا في « أخبار الزمان » .

موت أبي عبيدة معمر بن المثنى

وفي سنة احدى عشرة ومائتين مات أبو عبيدة معمر بن المثنى بالبصرة ، وكان يرى رأي الخوارج ، وبلغ نحوا من مائة سنة ، ولم يحضر جنازته أحد من الناس ، حتى اكترى لها من يحملها ، ولم يكن يسلم عليه شريف ولا وضيع الا تكلم فيه ، وله مصنفات حسان في أيام العرب وغيرها : منها كتاب المثالب ، ويذكر فيه أنساب العرب وفسادها ، ويرميهم بما يسيء الناس ذكره ، ولا يحسن وصفه .
وكان أبو نواس الحسن بن هانيء كثير العبث به ، وكان أبو عبيدة يقعد في مسجد البصرة الى سارية من سواريه ، فكتب أبو نواس عليها في غيبته عنها هذين البيتين يعرض به :

صلى الاله على لوط وشيعته — أبا عبيدة قل بالله آمينا
وأنت عندي بلا شك بقيتهم — مذ احتملت ، وقد جاوزت تسعينا

فلما جاء أبو عبيدة ليجلس في مجلسه ويستند على تلك السارية رأى ذلك ، فقال : هذا فعل الماجن اللواط أبي نواس ، حكوه وان كان فيه صلاة على نبي .

موت ابي العتاهية وشيء من أخباره

وفي هذه السنة (وهي سنة احدى عشرة ومائتين) مات أبو العتاهية اسماعيل بن القاسم ، الشاعر ، متنسكا لابسا للصوف ، وكان له مع الرشيد أخبار حسان ، من ذلك ما قدمنا ذكره فيما سلف من هذا الكتاب .
ومنها أن الرشيد أمر ذات يوم بحمله اليه ، وأمر ألا يكلم في طريقه ولا يعلم ما يراد

منه ، فلما صار في بعض الطريق كتب له بعض من معه في الطريق : إنما يراد قتلك ، فقال أبو العتاهية من فوره :

ولعـــل ما تخشـــاه ليس بكائن ولعـــل ما ترجـــوه سوف يكون
ولعـــل ما هونـــت ليس بهين ولعـــل ما شددت سوف يهون

وحج في بعض الحجج مع الرشيد ، فنزل الرشيد يوما عن راحلته ، ومشى ساعة ، ثم أعيا ، فقال : هل لك يا أبا العتاهية أن تستند الى هذا الميل ؟
فلما قعد الرشيد أقبل على أبي العتاهية وقال له : يا أبا العتاهية ، حركنا ، فقال :

هـــب الـــدنيا تواتيكا أليس المـــوت يأتيكا
ألا يـــا طالـــب الدنيا دع الـــدنيا لشانيكا
ومـــا تصنـــع بالدنيا وظـــل الميـــل يكفيكا

ولأبي العتاهية أخبار وأشعار كثيرة حسان ، قد قدمنا فيما سلف من كتبنا جملا مما اختير من شعره وما انتخب من قوافيه ، وكذلك قدمنا من ذلك لمعا فيما سلف من هذا الكتاب في أخبار خلفاء بني العباس ، ومما استحسن من ذلك قوله :

أحمـــد قال لي ولـــم يدر ما بي : أتحـــب الغـــداة عتبـــة حقا ؟
فتنفســـت ثم قلـــت : نعـــم حبْـ ـباً جرى في العـــروق عرقـــا فعرقا
ليتنـــي مت فاسترحـــت ، فاني أبـــدا ما حييت منهـــا ملقى
لا أراني أبقى ، ومن يلـــق ما لا قيت من لوعـــة الجـــوى ليس يبقى
فاحتسب صحبتي ،وقـــل :رحمـــةاللـ ـه على صاحـــب لنـــا مات عشقا
أنـــا عبـــد لهـــا وان كنـــت لا أر زق منهـــا والحمـــد للـــه عتقا

ومما استحسن أيضا من شعره قوله :

يا عتـــب ما لي ولك يا ليتنـــي لم أرك

ملكتني فانتهكي	ما شئت أن تنتهكي
أبيت ليلي ساهرا	أرعى نجوم الفلك
مفترشا جمر الغضى	ملتحفا بالحسك

ومن قوافيه الغريبة وأشعاره المستحسنة قوله :

أخلاي بي شجو وليس بكم شجو	وكل امرىء من شجو صاحبه خلو
رأيت الهوى جمر الغضى ، غير انه	على حره في صدر صاحبه حلو
أذاب الهوى جسمي وعظمي وقوتي	فلم يبق الا الروح والبدن النضو
وما من حبيب نال ممن يحبه	هوى صادقا الأ يداخله زهو
واني لنائي الطرف من غير خلتي	وما لي سواها من حديث ولا لهو
لها دون اخواني وأهل مودتي	من الود مني فضلة ، ولها العفو

ومما انتخب من شعره واستحسنه الناس من قوله قوله :

يا لهف نفسي على الذي اجتنبت	بأي جرم ترونها عتبت
تبارك الله بئس ما صنعت	بي في هواها ، وبئس ما ارتكبت
أتيتها زائرا فما انتجزت	وعدي اذ جئتها وما احتسبت
كم من ديون والله يعلمها	لنا عليها لم تقض اذ وجبت
ما وهبت لي من فضلها عدة	الا استردت جميع ما وهبت
فأي خير وأي منفعة	لذات دل تريق ما حلبت ؟
الله بيني وبين ظالمتي	طلبت منها وصالها فأبت
ماذا عليها لو أنها بعثت	منها رسولا الي أو كتبت
رغبت في وصلها وقد زهدت	عتبة في وصلنا وما رغبت

وكان أبو العتاهية قبيح الوجه ، مليح الحركات ، حلو الانشاد ، شديد الطرب ، ومن مليح شعره أيضا قوله :

من لم يذق لصبابة طعما فلقد أحطت بطعمها علما
إني منحت مودتي سكنا فرأيته قد عدها جرما
يا عتب ما أبقيت من جسدي لحما ، ولا أبقيت لي عظما
يا عتب ما أنا من صنيعك بي أعمى ، ولكن الهوى أعمى
ان الذي لم يدر ما كلفي ليرى على وجهي به وسما

وله أشعار خرج فيها عن العروض مثل قوله :

هم القاضي بيت يطرب قال القاضي لما عوتب
ما في الدنيا الا مذنب هذا عذر القاضي واقلب

وزنه فعلن فعلن أربع مرات ، وقد قال قوم : إن العرب لم تقل على وزن هذا شعرا ، ولا ذكره الخليل ولا غيره من العروضيين .

الزيادة في العروض على الخليل

قال المسعودي : وقد زاد جماعة من الشعراء على الخليل بن أحمد في العروض : من ذلك المديد ، وهو ثلاثة أعاريض وستة ضروب عند الخليل ، وفيه عروض رابع وضربان محدثان ، فالضرب الأول من العروض الرابعة المحدثة قول الشاعر :

من لعين لا تنام دمعها سح سجام

والضرب الثاني من العروض الرابعة المحدثة قول الشاعر :

يا لبكر لا تنوا ليس ذا حين ونا

وغير ذلك مما قد تكلموا فيه ، وذكروه في هذا المعنى من الزيادات مما قد أتينا على وصفه وقدمنا من ذكره في كتابنا في « أخبار الزمان » .

أبو العباس الناشىء

وقد صنف أبو العباس عبد الله بن محمد الناشىء الكاتب الأنباري على الخليل بن أحمد

في ذلك كتابا ذكر فيه أنواعا من هذا المعنى مما خرج فيه الخليل بن أحمد عن تقليد العرب الى باب التعسف والنظر ونصب العلل عن أوضاع الجدل ، كان ذلك له لازما ، ولما أورده كاسرا .

وللناشىء أشعار كثيرة حسان ، منها قصيدة واحدة نحو من أربعة آلاف بيت قافية واحدة نونية منصوبة يذكر فيها أهل الآراء والنحل ، والمذاهب والملل ، وأشعار كثيرة ومصنفات واسعة في أنواع من العلوم ، فمما جود فيه قوله حين سار من العراق الى مصر ، وبها كانت وفاته ، وذلك في سنة ثلاث وتسعين ومائتين على حسب ما قدمنا ذكره :

يا ديار الأحباب هل من مجيب	عنك يشفي غليل نائي المزار ؟
ما أجابت ، ولكن الصمت منها	فيه للسائلين طول اعتبار
إن تكن أوحشت فبعد أنيس	أو خلت منهم فبعد قرار
قد لهونا بها زمانا وحينا	ووصلنا الأسحار بالأسحار
واغتبقنا على صبوح ولهو	وحنين النايات والأوتار
بين ورد ونرجس وخزامى	وبنفس وسوسن وبهار
وأقاح وكل صنف من النو	ر الشهي الجنى والجلنار
فرمتنا الأيام احسن ما كنـ	نا على حين غفلة واغترار
فافترقنا من بعد طول اجتماع	ونأينا بعد اقتراب الديار

نداء المأمون في أمر معاوية وسببه

وفي سنة اثنتي عشرة ومائتين نادى منادي المأمون : برئت الذمة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير أو قدمه على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتكلم في أشياء من التلاوة أنها مخلوقة ، وغير ذلك ، وتنازع الناس في السبب الذي من أجله أمر بالنداء في أمر معاوية ، فقيل في ذلك أقاويل ؛ منها أن بعض سماره حدث بحديث عن مطرف بن المغيرة بن شعبة الثقفي .

وقد ذكر هذا الخبر الزبير بن بكار في كتابه في الأخبار المعروفة بالموفقيات التي صنفها للموفق ، وهو ابن الزبير ، قال : سمعت المدائني يقول : قال مطرف بن المغيرة بن شعبة : وفدت مع أبي المغيرة الى معاوية ، فكان أبي يأتيه يتحدث عنده ثم ينصرف الي فيذكر معاوية ويذكر عقله ويعجب مما يرى منه ، اذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء ، فرأيته مغتما ، فانتظرته ساعة ، وظننت أنه لشيء حدث فينا أو في عملنا ، فقلت له : ما لي أراك

مغتما منذ الليلة ؟

قال : يا بنيّ ، اني جئت من عند أخبث الناس .

قلت له : وما ذاك ؟

قال : قلت له وقد خلوت به : انك قد بلغت منا يا أمير المؤمنين ، فلو أظهرت عدلا وبسطت خيرا ، فانك قد كبرت ، ولو نظرت الى اخوانك من بني هاشم فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه .

فقال لي : هيهات هيهات ! ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل ، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره ، الا أن يقول قائل : أبو بكر ، ثم ملك أخو عدي ، فاجتهد وشمر عشر سنين ، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره ، الا أن يقول قائل : عمر ، ثم ملك أخونا عثمان فملك رجل لم يكن أحد في مثل نسبه ، فعمل ما عمل وعمل به فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره ، وذكر ما فعل به ، وان أخا هاشم يصرخ به في كل يوم خمس مرات : أشهد أن محمدا رسول الله ، فأي عمل يبقى مع هذا ؟ لا أم لك ، والله ألا دفنا دفنا .

وان المأمون لما سمع هذا الخبر بعثه ذلك على أن أمر بالنداء على حسب ما وصفنا ، وأنشئت الكتب الى الآفاق بلعنه على المنابر ، فأعظم الناس ذلك وأكبروه ، واضطربت العامة منه فأشير عليه بترك ذلك ، فأعرض عما كان هم به .

وفاة أبي عاصم النبيل
وجماعة من أهل العلم

وفي خلافة المأمون كانت وفاة أبي عاصم النبيل ، وهو الضحاك بن مخلد بن سنان الشيباني ، وذلك في سنة اثنتي عشرة ومائتين ، وفيها مات محمد بن يوسف الفارابي .

وفي سنة خمس عشرة ومائتين ـ وذلك في خلافة المأمون ـ مات هوذة بن خليفة بن عبد الله بن أبي بكر ، ويكنى بأبي الأشهب ، ببغداد ، وهو ابن سبعين سنة ، ودفن بباب البردان ، في الجانب الشرقي .

وفيها مات محمد بن عبد الله بن المثنى بن عبد الله بن أنس بن مالك الأنصاري .

وفيها مات اسحاق بن الطباع ، بأذنة من الثغر الشامي ، ومعاوية بن عمرو ، ويكنى بأبي عمرو ، وقبيصة بن عقبة ، ويكنى بأبي عامر ، من بني عامر بن صعصعة .

وفي سنة سبع عشرة ومائتين دخل المأمون مصر ، وقتل بها عبدوس ، وكان قد تغلب عليها .

غزو الروم

وفي سنة ثماني عشرة ومائتين غزا المأمون أرض الروم ، وقد كان شرع في بناء

الطوانة ، مدينة من مدنهم على فم الدرب ، مما يلي طرسوس ، وعمد الى سائر حصون الروم ، ودعاهم الى الاسلام ، وخيرهم بين الاسلام والجزية والسيف ، وذلل النصرانية ، فأجابه خلق من الروم الى الجزية .

***

قال المسعودي : وأخبرنا القاضي أبو محمد عبد الله بن أحمد بن زيد الدمشقي بدمشق ، قال : لما توجه المأمون غازيا ، ونزل البديدون جاءه رسول ملك الروم فقال له : ان الملك يخيرك بين أن يرد عليك نفقتك التي أنفقتها في طريقك من بلدك الى هذا الموضع ، وبين أن يخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم فداء ولا درهم ولا دينار ، وبين أن يعمر لك كل بلد للمسلمين مما خربت النصرانية ويرده كما كان ، وترجع عن غزاتك .

فقام المأمون ودخل خيمة ، فصلى ركعتين ، واستخار الله عز وجل وخرج ، فقال للرسول : قل له : أما قولك ترد على نفقتي ، فاني سمعت الله تعالى يقول في كتابنا ، حاكيا عن بلقيس : « وإني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال ، فما آتاني الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون » .

وأما قولك : انك تخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم ، فما في يدك الا أحد رجلين : إما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة ، فقد صار الى ما أراد ، وأما رجل يطلب الدنيا ، فلا فك الله أسره .

وأما قولك : انك تعمر كل بلد للمسلمين قد خربته الروم ، فلو أني قلعت أقصى حجر في بلاد الروم ما اعتضت بامرأة عثرت عثرة في حال أسرها ، فقالت : وامحمداه وامحمداه ، عد الى صاحبك ، فليس بيني وبينه الا السيف ، يا غلام اضرب الطبل .

فرحل ، فلم ينثن عن غزاته ، حتى فتح خمسة عشر حصنا ، وانصرف من غزاته ، فنزل على عين البديدون ، المعروفة بالقشيرة على حسب ما قدمنا في هذا الكتاب ، فأقام هنالك حتى ترجع رسله من الحصون ، فوقف على العين ومنبع الماء ، فأعجبه برد مائها وصفاؤه وبياضه وطيب حسن الموضع وكثرة الخضرة ، فأمر بقطع خشب طوال وأمر به فبسط على العين كالجسر ، وجعل فوقه كالأزج من الخشب وورق الشجر .

وجلس تحت الكنيسة التي قد عقدت له والماء تحته ، وطرح في الماء درهم صحيح فقرأ كتابته وهو في قرار الماء لصفاء الماء ، ولم يقدر أحد يدخل يده في الماء من شدة برده .

فبينا هو كذلك اذ لاحت سمكة نحو الذراع كأنها سبيكة فضة ، فجعل لمن يخرجها سبقا ، فبدر بعض الفراشين فأخذها وصعد ، فلما صارت على حرف العين أو على الخشب الذي عليه المأمون اضطربت وأفلتت من يد الفراش فوقعت في الماء كالحجر ، فنضح من الماء

على صدر المأمون ونحره وترقوته فبلت ثوبه ، ثم انحدر الفراش ثانية فأخذها ووضعها بين يدي المأمون في منديل تضطرب ، فقال المأمون : تقلى الساعة .

ثم أخذته رعدة من ساعته ، فلم يقدر أن يتحرك من مكانه ، فغطي باللحف والدواويج ، وهو يرتعد كالسعفة ، ويصيح : البرد البرد ، ثم حول الى المضرب ودثر وأوقدت النيران حوله ، وهو يصيح : البرد البرد .

ثم اتى بالسمكة وقد فرغ من قليها فلم يقدر على الذوق منها ، وشغله ما هو فيه عن تناول شيء منها .

ولما اشتد به الأمر سأل المعتصم بختيشوع وابن ماسويه في ذلك الوقت عن المأمون وهو في سكرات الموت ، وما الذي يدل عليه علم الطب من أمره ؟ وهل يمكن برؤه وشفاؤه ؟

فتقدم ابن ماسويه ، فأخذ احدى يديه وبختيشوع الأخرى ، وأخذ المجسة من كلتا يديه ، فوجدا نبضه خارجا عن الاعتدال ، منذرا بالفناء والانحلال ، والتزقت أيديهما ببشرته لعرق كان يظهر معه من سائر جسده ، كالزيت ، أو كلعاب بعض الأفاعي ، فأخبر المعتصم بذلك ، فسألهما عن ذلك ، فأنكرا معرفته ، وأنهما لم يجداه في شيء من الكتب ، وأنه دال على انحلال الجسد .

وأفاق المأمون من غشيته ، وفتح عينيه من رقدته ، فأمر باحضار أناس من الروم ، فسألهم عن اسم الموضع والعين ، فأحضر له عدة من الأسارى والأدلة ، قيل لهم : فسروا هذا الاسم : القشيرة .

فقيل له : تفسيره مد رجليك .

فلما سمعها اضطرب من هذا الفأل وتطير به ، وقال : سلوهم ما اسم الموضع بالعربية .

فقالوا : الرقة .

وكان المأمون كثيرا ما يحيد عن المقام بمدينة الرقة فرقا من الموت .

فلما سمع هذا من الروم علم أنه الموضع الذي وعد فيه فيما تقدم من مولده ، وأن فيه وفاته .

وقيل : ان اسم البديدون تفسيره مد رجليك ، والله أعلم بكيفية ذلك ، فأحضر المأمون الأطباء حوله يؤمل خلاصه مما هو فيه .

فلما ثقل عليه قال : أخرجوني أشرف على عسكري ، وأنظر الى رجالي ، وأتبين ملكي ، وذلك في الليل ، فأخرج فأشرف على الخيل ، والجيش وانتشاره وكثرته وما قد أوقد

من النيران ، فقال : يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه .

ثم رد الى مرقده وأجلس المعتصم رجلا يشهده لما ثقل ، فرفع الرجل صوته ليقولها ، فقال له ابن ماسويه : لا تصح فوالله ما يفرق بين ربه وبين ماني في هذا الوقت .

ففتح المأمون عينيه من ساعته ، وبهما من العظم والكبر والاحمرار ما لم ير مثله قط ، وأقبل يحاول البطش بيديه بابن ماسويه ، ورام مخاطبته ، فعجز عن ذلك ، فرمى بطرفه نحو السماء ، وقد امتلأت عيناه دموعا ، فانطلق لسانه من ساعته ، وقال : يا من لا يموت ارحم من يموت ، وقضى من ساعته .

وذلك في يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثماني عشرة ومائتين ، وحمل الى طرسوس فدفن بها ، على حسب ما قدمنا في أول أخباره من هذا الكتاب .

***

قال المسعودي : وللمأمون أخبار حسان ومعان وسير ومجالسات وأشعار وأخلاق جميلة ، قد أتينا على مبسوطها فيما سلف من كتبنا ، فأغنى ذلك عن ذكرها :

وفي المأمون يقول أبو سعيد المخزومي :

هل رأيت النجوم أغنت عن المأ ... مون شيئا وملكه المأنوس
خلفوه بعرصتي طرسوس ... مثل ما خلفوا أباه بطوس

وكان المأمون كثيرا ما ينشد هذه الأبيات :

ومن لا يزل غرضا للمنو ... ن يتركنه ذات يوم عميدا
فان هن أخطأنه مرة ... فيوشك مخطئها أن يعودا
فبينا يحيد وتخطينه ... قصدن فأعجلنه أن يحيدا

ذِكرُ خِلافَةِ المُعتَصِمِ
محمّد بن هارُون الرشيد

موجز

وبويع المعتصم في اليوم الذي كانت فيه وفاة المأمون على عين البديدون ، وهو يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثماني عشرة ومائتين ، واسمه محمد بن هارون ويكنى أبا اسحاق .

وكان بينه وبين العباس بن المأمون في ذلك الوقت تنازع في المجلس ، ثم انقاد العباس الى بيعته ، والمعتصم يومئذ ابن ثمان وثلاثين سنة وشهرين ، وأمه يقال لها ماردة بنت شبيب ، وقيل : انه بويع سنة تسع عشرة ومائتين .

وتوفي بسر من رأى سنة سبع وعشرين ، وهو ابن ست وأربعين سنة وعشرة أشهر .

فكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر ، وقبره بالجوسق بسر من رأى على ما ذكرنا .

ذكر لمع من أخباره وسيره
وجمل مما كان في أيامه

ابن الزيات وزير المعتصم
وأحمد بن أبي دؤاد

واستوزر المعتصم محمد بن عبد الملك الى آخر أيامه ، وغلب عليه أحمد بن أبي دؤاد ، ولم يزل محمد بن عبد الملك في أيام المعتصم والواثق إلى أن ولي المتوكل ، وكان في نفسه عليه شيء فقتله ، وسنذكر لمعا من خبر مقتله فيما يرد من هذا الكتاب في أخبار المتوكل ، وان كنا قد أتينا على ذلك ملخصا في الكتاب الأوسط .

حب المعتصم للعمارة

وكان المعتصم يحب العمارة ، ويقول : ان فيها أمورا محمودة ، فأولها عمران الأرض التي يحيا بها العالم ، وعليها يزكو الخراج ، وتكثر الأموال ، وتعيش البهائم ، وترخص الأسعار ، ويكثر الكسب ، ويتسع المعاش .

وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك : اذا وجدت موضعا متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهما فلا تؤامرني فيه .

بأس المعتصم وقوته

وكان المعتصم ذا بأس وشدة في جسمه ، وشجاعة في قلبه ، فذكر أحمد بن أبي دؤاد ـ وكان به آنسا ـ قال : لما أنكر المعتصم نفسه وقوته دخلت عليه يوما وعنده ابن ماسويه ، فقام المعتصم فقال لي : لا تبرح حتى أخرج اليه .

فقلت ليحيى بن ماسويه : ويحك ، اني أرى أمير المؤمنين قد حال لونه ، ونقصت قوته ، وذهبت سورته ، فكيف تراه أنت ؟

قال : هو واللّه زبرة من زبر الحديد ، الا أن في يديه فأسا يضرب بها تلك الزبرة

فقلت : وكيف ذاك ؟

قال : كان قبل ذلك اذا أكل السمك اتخذ له صباغا من الخل والكراويا والكمون والسذاب والكرفس والخردل والجوز فأكله بذلك الصباغ ، يدفع أذى السمك وأضراره بالعصب ، واذا أكل الرؤوس اتخذت له أصباغ تدفع أذاها وتلطفها ، وكان في أكثر أموره يلطف غذاءه ويكثر مشورتي ، فصار اليوم اذا أنكرت عليه شيئا خالفني ، وقال : آكل هذا على رغم أنف ابن ماسويه فما أقدر أن أصنع .

قال : وهو خلف الستر يسمع ما نحن فيه .

فقلت : ويلك يا أبا يحيى ، أدخل أصبعك في عينيه .

قال : جعلت فداك ، ما أقدر رده ، ولا أجترىء عليه في خلاف .

فلما فرغ من كلامه خرج علينا المعتصم ، فقال لي : ما الذي كنت فيه مع ابن ماسويه ؟

قلت : ناظرته يا أمير المؤمنين في لونك الذي أراه حائلا ، وفي قلة طعمك الذي قد هد جوارحي وأنحل جسمي .

قال : فما قال لك ؟

قلت : شكا أنك كنت تقبل منه ما يشير به عليك وكنت ترى في ذلك على ما يجب ، وأنك الآن تخالفه .

قال : فما قلت له أنت ؟

قال : فجعلت أصرف الكلام .

قال : فضحك وقال : هذا بعد ما دخل في عيني أو قبل ذلك ؟

قال : فارفضضت عرقا وعلمت أنه قد سمع ما كنا فيه ، ورأى ما قد داخلني ، فقال : يغفر اللّه لك يا أحمد ، لقد فرحت بما ظننت أنه أحزنك اذ سمعته وعلمت أنه نوع من أنواع الانبساط والأنس .

المعتصم وعلي بن الجنيد

وكان المعتصم يأنس بعلي بن الجنيد الاسكافي ، وكان عجيب الصورة عجيب الحديث ، فيه سلامة أهل السواد ، فقال المعتصم يوما لمحمد بن حماد : اذهب بالغداة الى علي بن الجنيد ، فقل لـه يتهيأ حتى يزاملني .

فأتاه فقال : ان أمير المؤمنين يأمرك أن تزامله ، فتهيأ لشروط مزاملة الخلفاء ومعادلتهم .

فقال علي بن الجنيد : وكيف أتهيأ ؟ أأهيىء لي رأسا غير رأسي ؟ أأشتري لحية غير لحيتي ! أأزيد في قامتي ؟! أنا متهيىء وفضلة .

قال : لست تدري بعد ما شروط مزاملة الخلفاء ومعادلتهم ؟!

فقال علي بن الجنيد : وما هي ؟ هات يا من تدري .

قال له ابن حماد ، وكان أديبا ظريفا ، وكان برسم الحجاب : شرط المعادلة الامتاع بالحديث والمذاكرة والمناولة ، وألا يبزق ، ولا يسعل ، ولا يتنحنح ، ولا يمخط ، وألا يتقدم الرئيس في الركوب اشفاقا عليه من الميل ، وأن يتقدمه في النزول ، فمتى لم يفعل المعادل هذا كان هو والمثقلة الرصاص التي تعدل بها القبة سواء ، وليس له أن ينام وان نام الرئيس ، بل يأخذ نفسه بالتيقظ ، ومراعاة حال من هو معه وما هو راكبه ، لأنهما اذا ناما جميعا فمال جانب لا يشعر بميله كان في ذلك ما لا خفاء به .

وعلي بن الجنيد ينظر اليه ، فلما أكثر عليه في هذا الوصف والشروط قطع عليه كلامه وقال كما يقول أهل السواد : آه حرها ، اذهب له فقل له : ما يزاملك الا من أمه زانية وهو كشخان .

فرجع ابن حماد ، فقال للمعتصم ما قال .

فضحك المعتصم وقال : جئني به .

فجاءه ، فقال : يا علي ، أبعث اليك تزاملني فلا تفعل ؟

فقال : ان رسولك هذا الجاهل الأزعر جاءني بشروط حسان الشاشي وخالويه المحاكي فقال : لا تبزق ، ولا تفعل كذا ، وافعل كذا ، وجعل يمطط في كلامه ، ويفرقع في صاداته ، ويشير بيديه ، ولا تسعل ، ولا تعطس ، وهذا لا يقوم لي ، ولا أقدر عليه ، فان رضيت أن أزاملك فان جاءني الفساء فسوت عليك وضرطت ، واذا جاءك أنت فأده فافس واضرط ، والا فليس بيني وبينك عمل .

فضحك المعتصم حتى فحص برجليه وذهب به الضحك كل مذهب ، وقال : نعم زاملني على هذه الشريطة .

قال : نعم وكرامة ، فزامله في قبة على بغل ، فسارا ساعة ، وتوسطا البر ، فقال علي : يا أمير المؤمنين حضر ذلك المتاع فما ترى ؟

قال : ذلك اليك اذا شئت .

قال : تحضر ابن حماد .

فأمر المعتصم باحضاره ، فقال له علي : تعال حتى أسارك .

فلما دنا منه فسا ، وناوله كمه ، وقال : أجد دبيب شيء في كمي فانظر ما هو .

فأدخل رأسه ، فشم رائحة الكنيف ، فقال : ما أرى شيئا ، ولكني لم أعلم أن في جوف ثيابك كنيفا !

والمعتصم قد غطى فمه بكمه ، وقد ذهب به الضحك كل مذهب ، ثم جعل يفسو فساء متصلا ، ثم قال لابن حماد : قلت لي لا تسعل ولا تبزق ولا تمخط ، فلم أفعل ولكني أخرى عليك .

قال : فاتصل فساؤه والمعتصم يخرج رأسه من العمارية ، ثم قال للمعتصم : قد نضجت القدر ، وأريد أخرى .

فقال المعتصم ورفع صوته حين كثر ذلك عليه : ويلك ! يا غلام ، الارض . . . الساعة أموت .

وذخل علي بن الجنيد الاسكافي يوما على المعتصم فقال له بعد أن ضاحكه وهازله : يا علي ، مالي لا أراك ويلك ؟! أنسيت الصحبة وما حفظت المودة ؟

فقال له حينئذ : بالغ الكلام الذي أريد أن أقوله قلته لك ، ما أنت الا ابليس .

فضحك ، ثم قال : لم لا تجيئني ؟

قال : آه ، كم أجيء فلا أصل اليك ، أنت اليوم نبيل ، فكأنك من بني مارية (وبنو مارية) أناس من أهل السواد يضرب بهم أهل السواد الأمثال لكبرهم في نفوسهم) .

فقال له المعتصم : هذا سندان التركي (وأشار الى غلام على رأسه بيده مذبة) ، وقال له : يا سندان ، اذا حضر علي فأعلمني ، وان أعطاك رقعة فأوصلها الي ، وان حملك رسالة فأخبرني بها .

قال : نعم يا سيدي .

وانصرف علي فأقام أياما ثم جاء يطلب سندان فقالوا : هو نائم .

فانصرف ثم عاد ، فقالوا : هو داخل ، ولا تصل اليه .

فانصرف وعاد ، فقالوا : هو عند أمير المؤمنين ، فاحتال حتى دخل عند المعتصم من

جهة اخرى ، فضاحكه ساعة وعاتبه ، وقال له : يا علي ، ألك حاجة ؟

قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ان رأيت سندان التركي فأقره مني السلام .

فضحك وقال : ما حاله ؟

قال : حاله أنك جعلت بيني وبينك انسانا رأيتك قبل أن أراه ، وقد اشتقت اليه فأسألك أن تبلغه مني السلام .

فغلب المعتصم الضحك ، وجمع بينه وبين سندان ثانية وأكد عليه في مراعاة أمره ، فكان لا يمنع منه .

***

المعتصم وشيخ زلق حماره في الطين

وعبر المعتصم من سر من رأى من الجانب الغربي ـ وذلك في يوم مطير ، وقد تبع ذلك ليلة مطيرة ـ وانفرد من أصحابه ، واذا حمار قد زلق ورمى بما عليه من الشوك ، وهو الشوك الذي توقد به التنانير بالعراق ، وصاحبه شيخ ضعيف واقف ينتظر انسانا يمر فيعينه على حمله ، فوقف عليه ، وقال : مالك يا شيخ ؟

قال : فديتك ، حماري وقع عنه هذا الحمل ، وقد بقيت أنتظر انسانا يعينني على حمله .

فذهب المعتصم ليخرج الحمار من الطين ، فقال الشيخ : جعلت فداك تفسد ثيابك هذه وطيبك الذي أشمه من أجل حماري هذا ؟

قال : لا عليك ، فنزل واحتمل الحمار بيد واحدة وأخرجه من الطين ، فبهت الشيخ وجعل ينظر اليه ويتعجب منه ، ويترك الشغل بحماره ثم شد عنان فرسه في وسطه وأهوى الى الشوك وهو حزمتان فحملهما فوضعهما على الحمار .

ثم دنا من غدير فغسل يديه واستوى على فرسه ، فقال الشيخ السوادي : رضي اللّه عنك ، وقال بالنبطية : أشقل غرمي تاحوتكا ، وتفسير ذلك : فديتك يا شاب .

وأقبلت الخيول فقال لبعض خاصته : أعط هذا الشيخ أربعة آلاف درهم ، وكن معه حتى تجاوز به أصحاب المسالح ، وتبلغ به قريته .

وفاة جماعة من العلماء

وفي سنة تسع عشرة ومائتين كانت وفاة أبي نعيم الفضل بن دكين مولى آل طلحة بن عبيد اللّه بالكوفة ، وبشر بن غياث المريسي ، وعبد اللّه بن رجاء الغداني .

وفيها ضرب المعتصم أحمد بن حنبل ثمانية وثلاثين سوطا ليقول بخلق القرآن .

محمد بن علي بن موسى بن جعفر

وفي هذه السنة (وهي سنة تسع عشرة ومائتين) قبض محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب ، وذلك لخمس خلون من ذي الحجة ، ودفن ببغداد في الجانب الغربي بمقابر قريش مع جده موسى بن جعفر ، وصلى عليه الواثق ، وقبض وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وقبض أبوه علي بن موسى الرضا ومحمد ابن سبع سنين وثمانية أشهر ، وقيل غير ذلك ، وقيل : ان أم الفضل بنت المأمون لما قدمت معه من المدينة الى المعتصم سمته .

وانما ذكرنا من أمره ما وصفنا لأن أهل الامامة اختلفوا في مقدار سنه عند وفاة أبيه ، وقد أتينا على ما قيل في ذلك في رسالة « البيان في أسماء الأئمة » وما قالت في ذلك الشيعة من القطعية .

محمد بن القاسم العلوي

وفي هذه السنة (وهي سنة تسع عشرة ومائتين) أخاف المعتصم محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رحمهم الله وكان بالكوفة من العبادة والزهد والورع في نهاية الوصف .

فلما خاف على نفسه هرب فصار الى خراسان ، فتنقل من مواضع كثيرة من كورها كمرو وسرخس والطالقان ونسا ، فكانت له هناك حروب وكوائن ، وانقاد اليه والى امامته خلق كثير من الناس .

ثم حمله عبد الله بن طاهر الى المعتصم ، فحبسه في أزج اتخذه في بستان بسرّ من رأى .

وقد تنوزع في محمد بن القاسم ، فمن قائل يقول : انه قتل بالسم ، ومنهم من يقول : ان ناسا من شيعته من الطالقان أتوا ذلك البستان فتأتوا للخدمة فيه من غرس وزراعة ، واتخذوا سلالم من الحبال واللبود والطالقانية ونقبوا الأزج وأخرجوه فذهبوا به ، فلم يعرف له خبر الى هذه الغاية .

وقد انقاد الى امامته خلق كثير من الزيدية الى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) ومنهم خلق كثير يزعمون أن محمدا لم يمت ، وأنه حي يرزق ، وأنه يخرج فيملؤها عدلا كما ملئت جورا ، وأنه مهدي هذه الأمة . وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم وكثير من كور خراسان .

وقول هؤلاء في محمد بن القاسم نحو قول رافضة الكيسانية في محمد ابن الحنفية ،

ونحو من قول الواقفية في موسى بن موسى بن جعفر ، وهم الممطورة ، بهذا تعرف هذه الطائفة من بين فرق الشيعة .

وقد أتينا على وصف قولهم في كتابنا في « المقالات في أصول الديانات » ووصف قول غلاتهم من المعنوية وغيرهم من المحمدية وسائر فرق أهل الباطل ممن قال بتنقل الأرواح في أنواع الأشخاص من بهائم الحيوان وغيره من كتابنا المترجم بكتاب سر الحياة .

جمع المعتصم للأتراك

وكان المعتصم يحب جمع الأتراك وشراءهم من أيدي مواليهم ، فاجتمع له منهم أربعة آلاف ، فألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة ، وأبانهم بالزي عن سائر جنوده .

وقد كان اصطنع قوما من حوف مصر ومن حوف اليمن وحوف قيس ، فسماهم المغاربة ، واستعد رجال خراسان من الفراغنة وغيرهم من الأشروسية ، فكثر جيشه .

وكانت الأتراك تؤذي العوام بمدينة السلام بجريها الخيول في الأسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك ، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة أو شيخ كبير أو صبي أو ضرير .

فعزم المعتصم على النقلة منهم ، وأن ينزل في فضاء من الأرض ، فنزل البراذان على أربعة فراسخ من بغداد ، فلم يستطب هواءها ، ولا اتسع له هواؤها ، فلم يزل يتنقل ويتقرى المواضع والأماكن الى دجلة وغيرها حتى انتهى الى الموضع المعروف بالقاطول ، فاستطاب الموضع .

وكان هناك قرية يسكنها خلق من الجرامقة وناس من النبط على النهر المعروف بالقاطول آخذا من دجلة ، فبنى هناك قصرا ، وبنى الناس وانتقلوا من مدينة السلام ، وخلت عن السكان الا اليسير ؛ وكان فيما قاله بعض العيارين في ذلك معيرا للمعتصم بانتقاله عنهم :

أيا ساكن القاطول بين الجرامقة ... تركت ببغداد الكباش البطارقة

ونالت من مع المعتصم شدة عظيمة لبرد الموضع وصلابة أرضه ، وتأذوا بالبناء ، ففي ذلك يقول بعض من كان في الجيش :

قالوا لنا إن بالقاطول مشتانا ... فنحن نأمل صنع اللّه مولانا
الناس يأتمرون الرأي بينهم ... واللّه في كل يوم محدث شانا

تخطيط سامرا

ولما تأذى المعتصم بالموضع وتعذر البناء فيه خرج يتقرى المواضع ، فانتهى الى موضع سامرا ، وكان هناك للنصارى دير عادي ، فسأل بعض أهل الدير عن اسم الموضع ، فقال : يعرف بسامرا .

قال له المعتصم : وما معنى سامرا ؟

قال : نجدها في الكتب السالفة والأمم الماضية أنها مدينة سام بن نوح .

قال له المعتصم : ومن أي بلاد هي ؟ وإلام تضاف ؟

قال : من بلاد طبرهان ، واليها تضاف .

فنظر المعتصم الى فضاء واسع تسافر فيه الأبصار ، وهواء طيب ، وأرض صحيحة ، فاستمرأها واستطاب هواءها ، وأقام هنالك ثلاثا يتصيد في كل يوم ، فوجد نفسه تتوقف الى الغذاء ، وتطلب الزيادة على العادة الجارية ، فعلم أن ذلك لتأثير الهواء والتربة والماء .

فلما استطاب الموضع دعا بأهل الدير فاشترى منهم أرضهم بأربعة آلاف دينار ، وارتاد لبناء قصره موضعا فيها ، فأسس بنيانه وهو الموضع المعروف بالوزيرية بسر من رأى ، واليها يضاف التين الوزيري ، وهو أعذب الأتيان وأرقها قشرا ، وأصغرها حبا ، لا يبلغه تين الشام ، ولا يلحقه تين أرجان وحلوان .

فارتفع البنيان ، وأحضر له الفعلة والصناع وأهل المهن من سائر الأمصار ، ونقل اليها من سائر البقاع أنواع الغروس والأشجار ، فجعل للأتراك قطائع متحيزة ، وجاورهم بالفراعنة والأشروسية وغيرهم من مدن خراسان على قدر قربهم منهم في بلادهم ، وأقطع أشناس التركي وأصحابه من الأتراك الموضع المعروف بكرخ سامرا ، ومن الفراغنة من أنزلهم الموضع المعروف بالعمري والجسر ، واختطت الخطط ، واقتطعت القطائع والشوارع والدروب .

وأفرد أهل كل صنعة بسوق ، وكذلك التجار ، فبنى الناس ، وارتفع البناء ، وشيدت الدور والقصور ، وكثرت العمارة ،واستنبطت المياه ، وجرت من دجلة وغيرها .

وتسامع الناس أن دار ملك قد اتخذت ، فقصدوها وأجهزوا اليها من أنواع الأمتعة وسائر ما ينتفع به الناس وغيرهم من الحيوان ، وكثر العيش ، واتسع الرزق ، وشملهم الاحسان ، وعمهم العدل ، فاتسع الخصب ، وأقبلت الأرض ، وكان بدء ما وصفنا فيما فعله المعتصم سنة احدى وعشرين ومائتين .

خروج بابك الخرمي

واشتد أمر بابك الخرمي ببلاد الران والبيلقان ، وكثرت عثرته في تلك البلاد وسار

عساكره نحو تلك الأمصار ، ففرق الجيوش ، وهزم العساكر ، وقتل الولاة ، وأفنى الناس .

فسير اليه المعتصم الجيوش وعليها الأفشين وكثرت حروبه واتصلت وضاق بابك في بلاده حتى انفض جمعه ، وقتل رجاله ، وامتنع بالجبل المعروف بالبدين ، من أرض الران ، وهي بلاد بابك ، وبه يعرف هذا الموضع الى هذا الوقت .

فلما استشعر بابك ما نزل به وأشرف عليه هرب من موضعه ، وزال عن مكانه ، فتنكر هو وأخوه وولده وأهله ومن تبعه من خواصه ، وقد تزيا بزي السُّفَّر وأهل التجارة والقوافل ، فنزل موضعا من بلاد أرمينية من أعمال سهل بن سنباط من بطارقة أرمينية على بعض المياه ، وبالقرب منهم راعي غنم ، فابتاعوا منه شاة ، وساموا شراء شيء من الزاد لهم .

فمضى من فوره الى سهل بن سنباط الأرميني، فأخبره الخبر ، وقال : هو بابك لا شك فيه .

وقد كان الأفشين لما هرب بابك من موضعه وزال عن جبله خشي ان يعتصم ببعض الجبال المنيعة أو يتحصن ببعض القلاع ، أو ينضاف الى بعض الأمم القاطنة ببعض تلك الديار فيكثر جمعه وينضاف اليه فلال عسكره ، فيرجع الى ما كان من أمره ، فأخذ الطرق ، وكاتب البطارقة في الحصون والمواضع من بلاد ارمينية وأذربيجان والران والبيلقان ، وضمن في ذلك الرغائب .

فلما سمع سهل بن سنباط من الراعي ما أخبره به سار من فوره فيمن حضر من عدده وأصحابه حتى أتى الموضع الذي فيه بابك ، فترجل له ، ودنا منه ، وسلم عليه بالملك ، وقال له : أيها الملك ، قم الى قصرك الذي فيه اليك وموضع يمنعك اللّه فيه من عدوك .

فسار معه الى أن أتى قلعته ، وأجلسه على سريره ، ورفع منزلته ، ووطأ له منزله ومن معه ، وقدمت المائدة ، وقعد سهل يأكل معه ، فقال له بابك ـ بجهله وقلة معرفته بما هو فيه وما دفع اليه ـ : أمثلك يأكل معي ؟

فقام سهل عن المائدة ، وقال : أخطأت أيها الملك ، أنت أحق من احتمل عبده ، اذ كانت منزلتي ليست بمنزلة من يأكل مع الملوك .

وجاءه بحداد ، وقال له : مد رجلك أيها الملك ، وأوثقه بالحديد ، فقال له بابك : أغدرا يا سهل ؟

قال : يا ابن الخبيثة انما أنت راعي غنم وبقر ، ما أنت والتدبير للملك ، ونظم السياسات وتدبير الجيوش ؟!

وقيد من كان معه ، وأرسل الأفشين يخبره الخبر ، وأن الرجل عنده ، فسرح اليه الأفشين أربعة آلاف فارس عليهم الحديد ، وعليم خليفة يقال له بوماده ، فتسلموا بابك ومن معه ، وأتى به الى الأفشين ومعه سهل بن سنباط .

فرفع الأفشين منزلة سهل ، وخلع عليه ، وحمله ، وتوجه ، وقاد بين يديه ، وأسقط عنه الخراج ، فأطلقه ، وأطلقت الطيور الى المعتصم ، وكتب اليه بالفتح .

فلما وصل اليه ذلك ضج الناس بالتكبير ، وعمهم الفرح ، وأظهروا السرور ، وكتبت الكتب الى الأمصار بالفتح ، وقد كان أفنى عساكر السلطان .

فسار الأفشين ببابك ، وتنقل بالعساكر ، حتى أتى سر من رأى ، وذلك سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، وتلقى الأفشين هارون بن المعتصم وأهل بيت الخلافة ورجال الدولة ، ونزل بالموضع المعروف بالقاطول على خمسة فراسخ من سامراء ، وبعث اليه بالفيل الأشهب ، وكان قد حمله بعض ملوك الهند الى المأمون ، وكان فيلا عظيما قد جلل بالديباج الأحمر والأخضر ، وأنواع الحرير الملون ، ومعه ناقة عظيمة بختية قد جللت بما وصفنا ، وحمل الى الأفشين دراعة من الديباج الأحمر منسوجة بالذهب قد رصع صدرها بأنواع الياقوت والجوهر ، ودراعة دونها ، وقلنسوة عظيمة كالبرنس ذات سفاسك بألوان مختلفة ، وقد نظم على القلنسوة كثير من اللؤلؤ والجوهر .

وألبس بابك الدراعة الجليلة ، وألبس أخوه الأخرى ، وجعلت القلنسوة على رأس بابك ، وعلى رأسه أخيه نحوها . وقدم اليه الفيل ، والى أخيه الناقة ، فلما رأى صورة الفيل استعظمه وقال : ما هذه الدابة العظيمة ؟ واستحسن الدراعة ، وقال : هذه كرامة ملك عظيم جليل ، الى أسير فقد العز ذليل ، أخطأته الأقدار ، وزالت عنه الجدود ، وتورطته المحن ، انها لفرحة تقتضي ترحة .

وضرب له المصاف صفين في الخيل والرجال والسلاح والحديد والرايات والبنود ، من القاطول الى سامرا ، مدد واحد متصل غير منفصل ، وبابك على الفيل واخوه وراءه على الناقة ، والفيل يخطر بين الصفين به ، وبابك ينظر الى ذات اليمين وذات الشمال ، ويميز الرجال والعدد ، ويظهر الأسف والحنين على ما فاته من سفك دمائهم غير مستعظم لما يرى من كثرتهم ، وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين .

ولم ير الناس مثل ذلك اليوم ، ولا مثل تلك الزينة . ودخل الأفشين على المعتصم فرفع منزلته ، وأعلى مكانه ، وأتى ببابك فطوف به بين يديه ، فقال له المعتصم : أنت بابك ؟ فلم يجب ، وكررها عليه مرارا ، وبابك ساكت .

فمال اليه الأفشين وقال : الويل لك ! أمير المؤمنين يخاطبك وأنت ساكت ؟

فقال : نعم أنا بابك .

فسجد المعتصم عند ذلك ، وأمر بقطع يديه ورجليه .

قال المسعودي : ورأيت في كتاب « أخبار بغداد » أنه لما وقف بابك بين يديه لم يكلمه مليا ، ثم قال له : أنت بابك ؟

قال : نعم ، أنا عبدك وغلامك ، وكان اسم بابك الحسن ، واسم أخيه عبد اللّه .

قال : جردوه ، فسلبه الخدام ما عليه من الزينة ، وقطعت يمينه ، وضرب بها وجهه ، وفعل مثل ذلك بيساره ، وثلث برجليه . وهو يتمرغ في النطع في دمه ، وقد كان تكلم بكلام كثير يرغب في أموال عظيمة قبله ، فلم يلتفت الى قوله ، وأقبل يضرب ما بقي من زنديه وجهه .

وأمر المعتصم السياف أن يدخل السيف بين ضلعين من أضلاعه أسفل من القلب ليكون أطول لعذابه ، ففعل ، ثم أمر بجز لسانه وصلب أطرافه مع جسده فصلب .

ثم حمل الراس الى مدينة السلام ، ونصب على الجسر ، وحمل الى خراسان بعد ذلك ، يطاف به كل مدينة من مدنها وكورها ، لما كان في نفوس الناس من استفحال أمره ، وعظم شأنه ، وكثرة جنوده ، واشرافه على ازالة ملك وقلب ملة وتبديلها .

وحمل أخوه عبد اللّه مع الرأس الى مدينة السلام ، ففعل به اسحاق بن ابراهيم أميرها ما فعل بأخيه بابك بسامراء ، وصلبت جثة بابك على خشبة طويلة في أقاصي سامرا ، وموضعه مشهور الى هذه الغاية يعرف بخشبة بابك ، وان كانت سامرا في هذا الوقت قد خلا منها ساكنها ، وبان عنها قاطنها ، الا يسيرا من الناس في بعض المواضع بها .

ولما قتل بابك وأخوه وكان من أمره ما تقدم ذكره قام في مجلس المعتصم الخطباء فتكلموا ، وقالت الشعراء : فممن قام في ذلك اليوم ابراهيم بن المهدي فقال شعرا بدلا من الخطبة وهو :

يا أمين اللّه ، ان الـ	ـحمد للّه كثيرا
هكذا النصر ، فلا زا	ل لك اللّه نصيرا
وعلى الأعداء أعطيـ	ـت من اللّه ظهيرا
وهنيئا هيأ اللـ	ـه لك الفتح الخطيرا
فهو فتح لم ير النـ	ـاس له فتحا نظيرا
وجرى الأفشين عبد الـ	ـلـه خيرا وحبورا
فلقد لاقى به با	بك يوما قمطريرا

ذاك مولاك الـذي ألـ ـفيتـه جلـدا صبورا
لك حتـى ضرج السيـ ـف له خدا نضيرا
ضربـة ألقـت على الدهـ ـر له في الوجـه نورا

وتوج الأفشين بتاج من الذهب مرصع بالجوهـر ، واكليل ليس فيه من الجوهـر الا الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر قد شبك بالذهب ، وألبس وشاحين .

وزوج المعتصم الحسن بن الأفشين بأترجة بنت أشناس ، وزفت اليه ، وأقيم لها عرس يجاوز المقدار في البهاء والجمال ، وكانت توصف بالجمال والكمال . ولما كان من ليلة الزفاف ما عم سروره خواص الناس وكثيرا من عوامهم ، قال المعتصم أبياتا يصف حسنهما وجمالهما واجتماعهما ، وهي :

زفـت عروس الى عروس بنـت رئيس الى رئيس
أيهما كان ليت شعري أجـل في الصـدر والنفوس
أصاحـب المرهف المحلى أم ذو الوشاحـين والشموس

غزو الروم زبطرة

وفي هذه السنة (وهـي سنـة ثلاث وعشرين ومائتـين) خرج توفيل ملك الـروم في عساكره ومعه ملوك برجان والبرغر والصقالبة وغيرهم ممن جاوزهم من ملوك الأمم حتى نزل على مدينة زبطرة من الثغر الخزري ، فافتتحها بالسيف ، وقتل الصغير والكبير وسبى وأغار على بلاد ملطية ، فضج الناس في الأمصار ، واستغاثوا في المساجد والديار ، فدخل ابراهيم ابن المهدي على المعتصم ، فأنشده قائما قصيدة طويلة يذكر فيها ما نزل بمن وصفنا ويحضه على الانتصار ويحثه على الجهاد ، فمنها :

يا غارة اللّـه قد عاينـت فانتهكي هتـك النسـاء ومـا منهـن يرتكب
هب الرجـال على أجرامهـا قتلت ما بال أطفالهـا بالذبـح تنتهب

وابراهيم بن المهدي أول من قال في شعره « يا غارة اللّه » .
فخرج المعتصم من فوره نافرا عليه دراعة من الصوف بيضاء ، وقد تعمـم بعمامـة

الغزاة ، فعكسر في غربي دجلة ، وذلك يوم الاثنين ، لليلتين خلتا من جمادى الأولى ، من سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، ونصبت الأعلام على الجسر ، ونودي في الأمصار بالنفير والسير مع أمير المؤمنين .

فسارت اليه العساكر والمطوعة من سائر الاسلام ، وجعل على مقدمته أشناس التركي ، ويتلوه محمد بن ابراهيم ، وعلى ميمنته ايتاخ التركي ، وعلى ميسرته جعفر بن دينار الخياط وعلى ساقته بغا الكبير ، ويتلوه دينار بن عبد اللّه ، وعلى القلب عجيف .

وسار المعتصم من الثغور الشامية ، ودخل من درب السلامة ، ودخل الأفشين من درب الحدث ، ودخل الناس من سائر الدروب ، فلم يكن يحصي الناس العدد ، ولا يضبطون كثرة ، فمن مكثر ومقلل ، فالمكثر يقول : خمسمائة ألف ، والمقلل يقول : مائتي ألف .

ولقي ملك الروم الأفشين ، فحاربه فهزمه الأفشين ، وقتل أكثر بطارقته وأصحابه ، وحماه رجل من المتنصرة يقال له نصير في خلق من أصحابه .

وقد كان الأفشين قصر عن أخذ الملك في ذلك اليوم حين ولي ، وقال : هو ملك ، والملوك تبقى بعضها على بعض ، وفتح المعتصم حصونا كثيرة ، ونزل على مدينة عمورية ، ففتحها اللّه على يديه ، وخرج اليه لاوي البطريق منها ، وسلمها اليه ، وأسر البطريق الكبير منها ، وهو باطس ، وقتل منها ثلاثين ألفا .

وأقام المعتصم عليها أربعة أيام يهدم ويحرق ، وأراد المسير الى القسطنطينية ، والنزول على خليجها ، والحيلة في فتحها برا وبحرا ، فأتاه ما أزعجه وأزاله عما كان عزم عليه من أمر العباس بن المأمون ، وأن ناسا قد بايعوه ، وأنه كاتب طاغية الروم ، فأعجل المعتصم في مسيره وحبس العباس وشيعته .

وفي هذه السنة مات العباس بن المأمون .

خروج المازيار صاحب طبرستان
وموته

وفي سنة خمس وعشرين ومائتين أدخل المازيار بن قارن بن بندار هرمس ، صاحب جبال طبرستان الى سامرا ، وقد كان اصطنعه المأمون ، فعصى في أيام المعتصم ، وكثرت عساكره ، واتسعت جيوشه ، وكتب المعتصم اليه يأمره بالحضور ، فأبى .

فكتب المعتصم الى عبد اللّه بن طاهر يأمره بحربه ، فسير اليه من نيسابور عمه الحسن ابن الحسين بن مصعب ، فنزل مدينة السارية من بلاد طبرستان ، بعد حروب كثيرة كانت

له مع المازيار ، وأتت الحسن بن الحسين عيونه بركوب محمد بن قارن ـ وهو المازيار ـ الى الصيد في نفر يسير ، فبادره الحسن وناوشه الحرب ، فأسر وحمل الى سامرا ، فأقر على الأفشين : أنه بعثه على الخروج والعصيان ، لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ، ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس .

وقبض على الأفشين قبل قدوم المازيار بسامرا بيوم ، وأقر عليه كاتب يقال له سابور ، فضرب المازيار بسوط حتى مات ، بعد أن شهر وصلب الى جانب بابك ، وقد كان المازيار رغب المعتصم في أموال كثيرة يحملها اليه ان هو منّ عليه بالبقاء ، فأبى قبول ذلك ، وتمثل :

ان الأسـود أسـود الغيل همتها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

ومالت خشبة مازيار الى خشبة بابك ، فتدانت أجسامهما ، وقد كان صلب في ذلك الموضع باطس بطريق عمورية ، وقد انحنت نحوهما خشبته ، ففي ذلك يقول أبو تمام حبيب ابن أوس من كلمة له :

ولقد شفى الأحشاء من برحائها اذ صار بابك جار مازيار
ثانيه في كبد السماء ، ولم يكن لاثنين ثان اذ هما في الغار
فكأنما انحنيا لكيما يطويا عن باطس خبرا من الأخبار

ومات الأفشين في الحبس بعد أن جمع بينه وبين مازيار ، فأقر عليه ، وأخرج الأفشين ميتا ، فصلب بباب العامة ، وأحضرت أصنام زعموا أنها كانت حملت اليه ، فألقيت عليه ، وأضرمت النار ، فأتت على الجميع .

موت أبي دلف العجلي

وفي سنة ست وعشرين ومائتين مات أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي ، وكان سيد أهله ، ورئيس عشيرته ، من عجل وغيرها من ربيعة ، وكان شاعرا مجيدا وشجاعا بطلا ، مغنيا مصيبا ، وهو القائل :

يوما تراني على طمر ترهبني الأجبل الرواسي
ويوم لهو أحث كاسا وخلف أذني قضيب آس

وذكر أن أبا دلف طعن فارسا ، فنفذت الطعنة الى أن وصل السنان الى فارس آخر كان من خلفه فقتلهما ، ففي ذلك يقول بكر بن النطاح من كلمة له :

قالــوا: وينظـم فارسـين بطعنة يوم الهياج ولا نراه كليلا
علا تعجبـوا فلـو ان طول قناته ميل اذن نظـم الفـوارس ميلا

وذكر عيسى بن أبي دلف أن أخاه دلف ـ وبه كان يكنى أبوه أبا دلف ـ كان ينتقص علي ابن أبي طالب ، ويضع منه ومن شيعته ، وينسبهم الى الجهل ، وأنه قال يوماوهو في مجلس أبيه ، ولم يكن أبوه حاضرا : أنهم يزعمون ألا ينتقص عليا أحد الا كان لغير رشده ، وأنتم تعلمون غيرة الأمير ، يعني أباه ، وأنه لا يتهيأ الطعن على أحد من حرمه ، وأنا أبغض عليا .

قال : فما كان بأوشك من أن خرج أبو دلف ، فلما رأيناه قمنا له ، فقال : قد سمعت ما قاله دلف ، والحديث لا يكذب ، والخبر الوارد في هذا المعنى لا يختلف ، هو والله لزنية وحيضة ، وذلك أني كنت عليلا فبعثت الى أختي جارية لها ، كنت بها معجبا ، فلم أتمالك أن وقعت عليها وكانت حائضا فعلقت به ، فلما ظهر حملها وهبتها لي .

عداوة أبو دلف وابنه

فبلغ من عداوة دلف هذا لأبيه ونصبه ومخالفته له ، لأن الغالب على أبيه التشيع والميل الى علي ، أن شنع عليه بعد وفاته ، وهو ما حدث به محمد بن علي القوهستاني قال : حدثنا دلف بن أبي دلف ، قال : رأيت في المنام آتيا أتاني بعد موت أبـي ، فقال لي : أجب الأمير ، فقمت معه ، فأدخلني دارا وحشة وعرة ، وأصعدني على درج منها ، ثم أدخلني غرفة في حيطانها أثر النار ، وفي أرضها أثر الرماد ، واذا به عريان واضع رأسه بين ركبتيه ، فقال كالمستفهم : دلف ؟

قلت : دلف .

فأنشأ يقول :

فلـو أنـّا اذا متنـا تركنا لكان الموت راحـة كـل حي
ولـكنـا اذا متنـا بعثنا ونسـأل بعـده عن كـل شي

ثم قال : أفهمت ؟

قلت : نعم ، وانتبهت .

موت جماعة من العلماء

وفي خلافة المعتصم (وذلك في سنة أربع وعشرين ومائتين) مات جماعة من نقلة الأخبار وعلية أصحاب الحديث : منهم عمرو بن مرزوق الباهلي البصري ، وأبو النعمان حازم بن محمد بن الفضل السدوسي ، وأبو أيوب سليمان بن حرب الواشجي البصري من الأزد ، وسعيد بن الحكم بن أبي مريم البصري ، وأحمد بن عبد اللّه الغداني ، وسليمان الشاذكوني ، وعلي المدني .

وفي سنة سبع وعشرين ومائتين مات بشر الحافي ببغداد ، وكان من بلاد مرو أبو الوليد هشام بن عبد الملك الطيالسي بالبصرة ، وهو ابن ثلاث وتسعين سنة ، وعبد اللّه بن عبد الوهاب الجمحي ، وابراهيم بن بشار الرمادي ، وقيل : ان فيها كانت وفاة محمد بن كثير العبدي ، والصحيح أن وفاته كانت في سنة سنة ثلاث وعشرين ومائتين .

***

قال المسعودي : وفي سنة سبع وعشرين ومائتين كانت وفاة المعتصم ، على دجلة في قصره المعروف بالخاقاني ، يوم الخميس ، لثماني عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول ، وقيل : لساعتين من ليلة الخميس ، وهو ابن ثمان وأربعين سنة ، وقيل : ست وأربعين سنة ، على ما قدمنا في صدر هذا الباب .

وكان مولده بالخلد ببغداد سنة ثمانين ومائة في الشهر الثامن من السنة ، وهو ثامن الخلفاء ، والثامن من ولد العباس . ومات عن ثمانية بنين ، وثماني بنات .

وللمعتصم أخبار حسان ، وما كان من أمره في فتح عمورية ، وما كان من حروبه قبل الخلافة في السفارة نحو الشام ومصر ، وغير ذلك ، وما كان منه بعد الخلافة ، وما حكي عنه من حسن السيرة واستقامة الطريقة أحمد بن أبي دؤاد القاضي ، ويعقوب بن اسحاق الكندي ، في لمع أوردها في رسالته المترجمة بسبيل الفضائل ، وقد أتينا على جميع ذلك في كتابنا في « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، وقد ذكرها في هذا لمعا منبهة على ما سلف ، وباعثة على درس ما تقدم .

ذكر خلافة الواثق بالله
هارون بن محمد بن هارون الرشيد

موجز

وبويع هارون بن محمد بن هارون الواثق بالله ، ويكنى بأبي جعفر ، وأمه أم ولد رومية ، وتسمى قراطيس . وذلك في اليوم الذي كانت فيه وفاة المعتصم ، وهو يوم الخميس لثماني عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين .

وبويع وهو ابن احدى وثلاثين سنة وتسعة أشهر .

وتوفي بسامرا وهو ابن سبع وثلاثين سنة وستة أشهر ، وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوما .

وقيل : انه توفي في يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، وهو ابن أربع وثلاثين سنة .

ووزيره محمد بن عبد الملك ، على حسب ما قدمنا في أيام المعتصم من هذا الكتاب ، والتواريخ متباينة في مقادير أعمارهم وأيامهم في الزيادة والنقصان .

ذكر جمل من أخباره وسيره
ولمع مما كان في أيامه

صفات الواثق

كان الواثق كثير الأكل والشرب ، واسع المعروف ، متعطفا على أهل بيته ، متفقدا لرعيته ، وسلك في المذهب مذهب أبيه وعمه من القول بالعدل .

غلب عليه اثنان

وغلب عليه أحمد بن أبي دؤاد ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، فكان لا يصدر الا عن رأيهما ، ولا يعتب عليهما فيما رأياه ، وقلدهما الأمر وفوض اليهما ملكه .

أعرابي يصف الواثق وأعوانه

وذكر أبو تمام حبيب بن أوس الطائي الجاسمي ـ نسبة الى جاسم ، وهي قرية من أعمال دمشق بين بلاد الأردن ودمشق بموضع يعرف بالجولان ويعرف بجاسم على أميال من الجابية وبلاد نوى وهي من مراعي أيوب عليه السلام ـ قال : خرجت في أول أيام الواثق الى سر من رأى ، فلما قربت منها لقيني أعرابي ، فأردت أن أعلم خبر العسكر منه ، فقلت : يا

أعرابي ، ممن انت ؟

قال : من بني عامر .

قلت : وكيف علمك بعسكر أمير المؤمنين ؟

قال : قتل أرضا عالمها .

قلت : ما تقول في أمير المؤمنين ؟

قال : وثق باللّه فكفاه ، أشجى العاصية ، وقصم العادية ، وعدل في الرعية ، ورغب عن كل ذي جناية .

قلت : فما تقول في أحمد بن أبي دؤاد ؟

قال : هضبة لا ترام ، وجبل لا يضام ، تشحذ له المدى ، وتنصب له الحبائل ، حتى اذا قيل قد هلك وثب وثبة الذئب وختل ختلة الضب .

قلت : فما تقول في محمد بن عبد الملك الزيات ؟

قال : وسع الداني شره ، ووصل الى البعيد ضره ، له في كل يوم صريع لا يرى فيه أثر ناب ولا مخلب .

قلت : فما تقول في عمرو بن فرج ؟

قال : ضخم نهم ، استعذب الدم ، ينصبه القوم ترسا للوغى .

قلت : فما تقول في الفضل بن مروان ؟

قال : رجل نبش بعد ما قبر ، ليس تعد له حياة في الأحياء ، وعليه خفتة الموتى .

قلت : فما تقول في أبي الوزير ؟

قال : نخالة كبش الزنادقة ، أما تراه اذا أخمله الخليفة سمن ورتع ، واذا هزه أمطر فأمرع .

قلت : فما تقول في أحمد بن الخصيب ؟

قال : ذاك أكل أكلة نهم ، فزرق زرقة بشم .

قلت : فما تقول في ابراهيم أخيه ؟

قال : أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون .

قلت : فما تقول في أحمد بن ابراهيم ؟

قال : لله دره ! أي فاعل هو ؟ وأي صابر هو ؟ اتخذ الصبر دثارا ، والجود شعارا ، وأهون عليه بهم .

قلت : فما تقول في المعلى بن أيوب ؟

قال : ذاك رجل خير ، نصيح السلطان ، عفيف اللسان ، سلم من القوم وسلموا منه .

قلت : فما تقول في ابراهيم بن رباح ؟

قال : ذاك رجل أوثقه كرمه ، وأسلمه فضله ، وله دعاء لا يسلمه ، ورب لا يخذله ، وفوقه خليفة لا يظلمه .

قلت : فما تقول في الحسن ابنه ؟

قال : ذاك عود نضار ، غرس في منابت الكرم ، حتى اذا اهتز حصدوه .

قلت : فما تقول في نجاح بن سلمة ؟

قال : للّه دره ! أي طالب وتر ، ومدرك ثأر ؟ يلتهب كأنه شعلة نار ، له من الخليفة في الأحيان جلسة تزيل نعما ، وتحل نقما .

قلت : يا أعرابي أين منزلك حتى آتيك ؟

قال : اللهم غفرا ، ما لي منزل ، أنا أشتمل النهار ، وألتحف الليل ، فحيثما أدركني الرقاد رقدت .

قلت : فكيف رضاك عن أهل العسكر ؟

قال : لا أخلق وجهي بمسألتهم ، ان أعطوني لم أحمدهم ، وان منعوني لم أذمهم ، واني كما قال هذا الغلام الطائي :

وما أبالي وخير القول اصدقه حقنت لي ماء وجهي أو حقنت

قلت : فأنا قائل هذا الشعر .

قال : أئنك أنت الطائي ؟

قلت : نعم .

قال : للّه أبوك ، وأنت القائل :

ماجود كفك ان جادت وان بخلت من ماء وجهي وقد أخلفته عوض

قلت : نعم .

قال : أنت أشعر أهل زمانك .

وفي رواية أخرى ليست في الكتاب قلت : أنشدني شيئا من شعرك ، فأنشدني :

أقول وجنح الدجا ملبد   والليل في كل فج يد
ونحن ضجيعان في مجسد   فلله ما ضمن المجسد
فيا غد ان كنت بي محسنا   فلا تدن من ليلتي ياغد
ويا ليلة الوصل لا تنفدي   كما ليلة الهجر لا تنفد

فقلت : للّه أبوك !! ورددته معي حتى لقيت ابن أبي دؤاد وحدثته بخبره ، فأوصله الى الواثق ، فأمر له بألف دينار ، وأخذ له من سائر الكتاب وأهل الدولة ما أغناه به ، وأغنى عقبه بعده .

وهذا الخبر فمخرجه عن أبي تمام ، فان كان صادقا فيما قال ، ولا أراه ، فقد أحسن الأعرابي في الوصف ، وان كان أبو تمام هو الذي صنعه وعزاه الى هذا الاعرابي فقد قصر في نظمه ، اذ كانت منزلته أكبر من هذا .

أبو تمام الطائي

وكانت وفاة أبي تمام بالموصل سنة ثمان وعشرين ومائتين ، وكان خليعا ماجنا في بعض أحواله ، وربما أداه ذلك الى ترك موجبات فرضه ، تماجنا لا اعتقادا .

وحدث محمد بن يزيد المبرد ، عن الحسن ابن رجاء ، قال : صار الي أبو تمام وأنا بفارس ، فأقام عندي مقاما طويلا ، ونمي الي من غير وجه أنه لا يصلي ، فوكلت به من يراعيه ويتفقده في أوقات الصلاة ، فوجدت الأمر على ما اتصل بي عنه ، فعاتبته على فعله ذلك ، فكان من جوابه أن قال : أتراني أنشط للشخوص اليك من مدينة السلام وأتجشم هذه الطرقات الشاقة وأكسل عن ركعات لا مؤوتة علي فيها ، لو كنت أعلم أن لمن صلاها ثوابا أو على من تركها عقابا .

قال : فهممت واللّه بقتله ، ثم تخوفت أن يصرف الأمر الى غير جهته ، وهو القائل :

وأحق الأنام أن يقضي الديـ   ـن امرؤ كان للاله غريما

وهذا قول مباين لهذا الفعل ، والناس في أبي تمام في طرفي نقيض : متعصب له يعطيه أكثر من حقه ، ويتجاوز به في الوصف قدره ، ويرى أن شعره فوق كل شعر ، أو منحرف

له معاند ، فهو ينفي عنه حسنه ، ويعيب مختاره ، ويستقبح المعاني الظريفة التي سبق اليها وتفرد بها .

وذكر عبد اللّه بن الحسن بن سعد ، أن المبرد قال : كنت في مجلس القاضي أبي اسحاق اسماعيل بن اسحاق ، وحضر جماعة سماهم منهم الحارثي الذي قال فيه علي بن الجهم الشامي :

لم يطلعا الا لآبده الحارث وكوكب الذنب

فجرى ذلك الشعر وان كان الكلام تسلسل الى ذكر أبي تمام وشعره ، وأن الحارثي أنشد لأبي تمام معاتبة أحسن فيها ، وأن المبرد استحيا أن يستعيد الحارثي الشعر أو يكتبه منه لأجل القاضي .

قال ابن سعد : فأعلمت المبرد أني أحفظ الشعر ، فأنشدته اياه ، فاستحسنه واستعاده مني مرارا حتى حفظه مني ، وهو :

جعلت فداك! عبد اللّه عندي بعقب النأي عنه والبعاد
له لُمة من الفتيان بيض قضوا حق الصداقة والوداد
دعوتهم عليك وكنت ممن أناديه على النوب الشداد

قال : وسألته عن أبي تمام والبحتري أيهما أشعر ؟

قال : لأبي تمام استخراجات لطيفة ، ومعان ظريفة ، وجيده أجود من شعر البحتري ، ومن شعر من تقدمه من المحدثين ، وشعر البحتري أحسن استواء من شعر أبي تمام ، لأن البحتري يقول القصيدة كلها ، فتكون سليمة من طعن طاعن أو عيب عائب ، وأبو تمام يقول البيت النادر ويتبعه البيت السخيف ، وما أشبهه الا بغائص يخرج الدرة والمخشلبة فيجعلهما في نظام واحد .

وانما يؤتى هو وكثير من الشعراء من البخل بأشعارهم ، والا فلو أسقط من شعره على كثرة عدده ما أنكر منه لكان أشعر نظرائه .

فدعاني هذا القول منه الى أن قرأت عليه شعر أبي تمام ، وأسقطت خواطئه وكل ما ذم من شعره ، وأفردت جيده ، فوجدت ما يتمثل به ويجري على ألسنة العامة وكثير من الخاصة

مائة وخمسين بيتا ، ولا أعرف شاعرا جاهليا ولا اسلاميا يتمثل له بهذا المقدار من الشعر .

ثم قال المبرد : وبالبحتري يختم الشعر ، وأنشدني له بيتين زعم المبرد أنهما لو أضيفا الى شعر زهير لجازا فيه ، وهما :

وما سفه السفيه وان تعدى ... بأنجع فيك من حلم الحليم

متى أحفظت ذا كرم تخطى ... اليك ببعض أفعال اللئيم

قال : وكان مما ذكرناه من شعر البحتري في هذا المجلس وقدمه محمد بن يزيد على نظرائه قوله في ابني صاعد بن مخلد :

واذا رأيت مخايل ابني صاعد ... أدت اليك مخايل ابني مخلد

كالفرقدين اذا تأمل ناظر ... لم يعل موضع فرقد من فرقد

وقوله :

من شاكر عني الخليفة للذي ... أولاه من بر ومن احسان ؟

حتى لقد أفضلت من افضاله ... وأريت نهج الجود حيث أراني

أغنت يداه يدي، وشرد جوده ... بخلي، فأفقرني كما أغناني

ووثقت بالخلق الجميل معجلا ... منه، وأعطيت الذي أعطاني

وقوله :

وددت بياض السيف يوم لقينني ... مكان بياض الشيب كان بمفرقي

وقوله :

دنوت تواضعا وعلوت قدرا ... فشأناك انحدار وارتفاع

كذاك الشمس تبعد أن تسامى ... ويدنو الضوء منها والشعاع

وقوله في الفتح بن خاقان ، وقد نزل الى أسد فقتله :

حملت عليه السيف ، لا عزمك انثنى ولا يدك ارتدت ، ولا حده نبا
فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا وصمم لما لم يجد منك مهربا
وكنت متى تجمع يمينك والعلا لدى ضيغم لم تبق للسيف مضربا

وقوله :

مازال صرف الدهر يؤيس صفقتي حتى رهنت على المشيب شبابي

وقوله في المنتصر :

وان عليا لأولى بكم وأزكى يدا عندكم من عمر
وكل له فضله، والحجو ل يوم البرادين دون الغرر

وقوله :

تعيب الغانيات علي شيبي ومن لي أن امتع بالمشيب

ثم ذكر انتقاض الصلح بين عشيرته فقال :

اذا ما الجرح زم على فساد تبين فيه تفريط الطبيب

وقوله :

وللسهم الشريد أخف عبئا على الرامي من السهم المصيب

وقوله :

وما منع الفتح بن خاقان نيله ولكنها الأيام تعطي وتحرم

سحاب خطاني جوده وهـو مسبل	وبحـر عداني فيضـه وهـو مفعم
وبدر أضـاء الأرض شرقـا ومغربا	وموضـع رجلي منـه أسـود مظلم
أأشكو نداه بعد أن وسـع الورى	ومـن ذا يذم الغيث الا مذمم ؟

وذكر محمد بن أبي الأزهر قال : كان ابراهيم بن المدبر ـ مع محله في العلم والأدب والمعرفة ـ يسيء الرأي في أبي تمام ، ويحلف أنه لا يحسن شيئا قط ، فقلت له يوما : ما تقول في قول من يقول :

غدا الشيب مختطا بفـودي خطة	سبيل الردى منها الى النفس مهيع
هو الزور يجفو، والمعاشر يجتوي،	وذو الالف يقلي، والجـديد يرقع
له منظـر في العـين أبيض ناصع	ولكنـه في القلـب أسـود أسفع
ونحـن نرجيه على الـكره والرضا	وأنف الفتى من وجهه وهو أجدع

وفيمن يقول :

فان ترم عن عمـرو تداعى به المدى	فخانـك حتـى لم تجـد فيه مترعا
فما كنت الا السيف لاقى ضريبة	فقطعهـا ثم انثنـى فتقطعا

وفيمن يقول :

شرف على أولى الزمـان وانمـا الشـ	ـرف المناسـب ما يكون كريما

وفيمن يقول :

اذا أحسـن الأقـوام أن يتطاولوا	بلا نعمـة أحسنـت أن تتطولا

وفيمن يقول :

ممطـر لي الحياة والمال لا ألـ	ـقـاك الا مستوهبـا أو وهوبا

واذا ما أردت كنت رشاء   واذا ما أردت كنت قليبا

وفي القائل :

خشعوا لصولتك التي عودتهم   كالموت يأتي ليس فيه عثار
فالمشي همس، والنداء اشارة،   خوف انتقامك والحديث سرار
أيامنا معقودة أطرافها   بك، والليالي كلها أسحار
تندى عفاتك للعفاة، ويغتدي   رفقا الى زوارك الزوار

وفيمن يقول :

اذا أوهدت أرضا كان فيها   رضاك فلا نحنُّ الى رباها

قال ابن أبي الأزهر : فواللّه لكأني أغريت ابن المدبر بأبي تمام ، حتى سبه ولعنه .
فقلت : اذا فعلت ذلك لقد حدثني المعروف بأبي عمرو بن الحسن الطوسي الراوية أن أباه وجه به الى ابن الأعرابي يقرأ عليه أشعار هذيل .
قال : فمرت بنا أراجيز ، فأنشدته ارجوزة لأبي تمام ، لم أنسبها اليه ، وهي :

وعاذل عذلته في عذله   فظن أني جاهل من جهله
ما غبن المغبون مثل عقله   من لك يوما بأخيك كله
لبست ريعاني فدعني أبله   وملك في كبره ونبله
وسوقة في قوله وفعله   بذلت مدحي فيه باغي بذله
فجز حبل أملي من وصله   من بعد ما استبعدني بمطله
ثم اغتدى معتذرا بجله   ذا عنق في الجهل لم يخله
يلحظني في جده وهزله   يعجب من تعجبي من بخله
لحظ الأسير حلقات كبله   حتى كأني جئته بعذله
يا واحدا منفردا بعدله   أكسبتك المال فلا تمله
ما يصنع الغمد بغير نصله   والمدح ان لم يك عند أهله

فقال لابنه : اكتبها ، فكتبها على ظهر كتاب من كتبه .

فقال له : جعلت فداك ! انها لأبي تمام .

فقال : خرق خرق .

وهذا من ابن المدبر قبيح مع علمه ، لأن الواجب الا يدفع احسان محسن عدوا كان أو صديقا ، وان تؤخذ الفائدة من الوضيع والرفيع ، فقد روي عن أمير المؤمنين على أنه قال : الحكمة ضالة المؤمن ، فخذ ضالتك ولو من أهل الشرك .

وقد ذكر عن بزرجمهر بن البختاكان ـ وكان من حكماء الفرس ، وقد قدمنا ذكره فيما سلف من هذا الكتاب في أخبار ملوك ساسان وهم الفرس الثانية ـ أنه قال : أخذت من كل شيء أحسن ما فيه ، حتى من الكلب والهرة والخنزير والغراب .

قيل له : ما أخذت من الكلب ؟

قال : الفه لأهله ، وذبه عن صاحبه .

قيل : فما أخذت من الغراب ؟

قال : شدة حذره .

قيل : فمن الخنزير ؟

قال : بكوره في حوائجه .

قيل : فمن الهرة ؟

قال : حسن نغمتها وتملقها لأهلها عند المسألة .

ومن عاب مثل هذه الأشعار التي ترتاح لها القلوب ، وتحرك بها النفوس ، وتصغي اليها الأسماع ، وتشحذ بها الأذهان ، ويعلم كل من له قريحة وفضل ومعرفة أن قائلها قد بلغ في الاجادة أبعد غاية وأقصى نهاية ، فانما غض من نفسه وطعن على معرفته واختياره .

وقد روي عن ابن عباس أنه قال : الهوى اله معبود ، واحتج بقوله تعالى : « أفرأيت من اتخذ الهه هواه » .

ولأبي تمام أشعار حسان ، ومعان لطاف ، واستخراجات بديعة .

وحكي عن بعض العلماء بالشعر أنه سئل عن أبي تمام ، فقال : كأنه جمع شعر العالم ، فانتخب جوهره ، وقد كان أبو تمام ألف كتابا وسماه : « الحماسة » وفي الناس من يسميه « كتاب الخبية » انتخب فيه شعر الناس ، ظهر بعد وفاته .

وقد صنف أبو بكر الصولي كتابا جمع فيه أخبار أبي تمام وشعره وتصرفه في أنواع علومه ومذاهبه ، واستدل الصولي على ما وصف عن أبي تمام بما يوجد من شعره ، من ذلك قوله في

صفة الخمر .

جهمية الأصنـــاف ، الا أنهـــم قد لقبـوهـا جوهـر الأشياء

وقد رثته الشعراء بعد وفاته ، والأدباء من اخوانه : منهم الحسن بن وهب الكاتب ، وكان شاعرا ظريفا له حظ في المنثور والمنظوم ، فقال :

سقى بالموصـل الجـدث الغريبا سحائـب ينتحبـن له نحيبا
اذا أطللنـه فيه شعيب المـزن يتبعهـا شعيبا
ولطمـت البـروق ، له خدودا وشققـت الرعـود له جيوبا
فان تراب ذاك القبـر يحوي حبيبـا كان يدعـى لي حبيبا
لبيبـا شاعـرا فطنـا أديبا أصيل الـرأي في الجلي أريبا
اذا شاهدتـه روّاك فيما يسرك رقـة منـه وطيبا
أبـا تمـام الطائـي ، انا لقينـا بعـدك العجـب العجيبا
فقدنـا منـك علقـا لا ترانا نصيب له مدى الـدنيا ضريبا
وكنـت أخـا لنـا أبـدى الينا ضمـير الـود والنسـب القريبا
فلما بنـت كدرت الليالي قريب الـدار والأقصى الغريبا
وأبـدى الدهـر أقبـح صفحتيه ووجهـا كالحـا جهما قطوبا
فأحـر بأن يطيب الموت فيه وأحـر بعيشنـا ألا يطيبا

وللحسن أشعار حسان ومعان جياد ، منها قوله :

أبـت مقلتـاك لفـرط الحـزن عليك الرقـاد وبـرد الوسـن
وحـق لعينيك ألا تنامـا وقلبـك مختلـس مرتهـن
وبـين الجـوانـح داء دفين لعمـرك مستتـر قد كمن
نجـى الهمـوم ، وقـرن الكلوم ووهى الحلـوم ، وبعـد الوطن
شديد النفـار ، كثـير العثار، خليع العـذار ، يجـر الرسن
أفي كـل يوم تطيـل الوقوف تناجي الديـار وتبكي الدمـن ؟
وتستخبـر الـدار عن أهلهـا وتـذري الدموع على من ظعـن

كأنـك لم تــر فيمــا مضـــى   من الدهــر ذا صبــوة مفتتن
عذرتــك أيام شرخ الشباب   وفرعــك فرع نضــير الغصن
فأمــا وقــد زال ظل الشبـــا   ب عنــك وولى كأن لم يكـــن
وألبســك الشيب بعــد الشباب   قنــاع بياض كلــون القطن
وصرت قذى في عيون الحسا   ن يخنَّـك عهــدا وان لم تخن
ويصــدفــن عنـك اذا رمتهــن   .وكنــت لهــن زمــانــا سكن
فمــا لك عذر وأنــت امرؤ   بمــا فيه رشــدك طَبٌّ فطن

علي بن الجعد

وفي خلافة الواثق مات علي بن الجعد مولى بني مخـزوم ، وكان من علية أصحـاب الحديث وأهل النقل ، وذلك في سنة ثلاثين ومائتين .

قتيل في المحنة

وفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين قتل الواثـق أحمـد بن نصر الخزاعـي في المحنـة على القرآن .

نديم

قال المسعودي : وكان يحضر مجلس الواثق فتى برسم الندماء ، وكان يقوم قائما لصغر سنه ، ولم يكن لذلك يلحق في الجلوس بمراتب ذوي الأسنـان ، وكان ذكيا مأذونـا له في الافاضة مع الجلساء في كل ما يعرض لهم الكلام فيه ، والتكلم بما يسنح ويختلج في صدره : من مثل سائر ، وبيت نادر ، وحديث ممتع ، وجواب مسرع .

قال : وكان الواثق من شدة الشهوة للطعام والنهمة فيه على الحالة المشهورة المتعالمة ، فقال لهم الواثق يوما : ما تختارون من النقل ؟

فبعض قال : نبات السكر ، وبعض قال : رمان ، وبعض قال : تفاح ، وبعض قال : قصب السكر ينضح بماء الورد ، وبعض أخرجته الفلسفة الى النقيض ، فقال: ملح يغلي ، وبعض قال : صبر يمحى بمذاب النبيذ ، ويجلى على صورة الشراب ومرارة النقل .

قال : ما صنعتم شيئا ، ولكن ما تقول أنت يا غلام ؟

قال : خشكنانج مسير .

فوافق ذلك مراد الواثق وقرع به ما في نفسه ، وقال : أصبت وأحسنت بارك اللّـه لك ، وكان ذلك أول جلوسه .

محمد بن علي بن موسى

وقيل : إن أبا جعفر محمد بن علي بن موسى الرضا عليهم الرضوان توفي في خلافة الواثق وقد بلغ من السن ما قدمناه في خلافة المعتصم من هذا الكتاب .

وقيل : انه كتب الى الواثق : يا أمير المؤمنين ، ليس من أحد وان ساعدته المقادير يستخلص غضارة عيش الا من خلال مكروه ، ومن ترك معاجلة الدرك انتظار مؤاجلة الأشياء سلبته الأيام فرصته ، فان شرط الزمان الآفات ، وحكم الدهر السلب .

عبد اللّه بن طاهر

وفي سنة ثلاثين ومائتين ـ وذلك في خلافة الواثق ـ توفي أبو العباس عبد اللّه بن طاهر ابن الحسين في ربيع الأول من هذه السنة ، وفيه يقول الشاعر وقت كون عبد اللّه بن طاهر بمصر :

يقول أناس: ان مصر بعيدة　　وما بعدت مصر وفيها ابن طاهر

وأبعد من مصر رجال تراهم　　بحضرتنا معروفهم غير حاضر

عن الخير موتى ، ما تبالي أزرتهم　　على طمع أم زرت أهل المقابر

مجلس للواثق في الفلسفة والطب

وكان الواثق باللّه محبا للنظر ، مكرما لأهله ، مبغضا للتقليد وأهله ، محبا للاشراف على علوم الناس وآرائهم ، ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة وغيرهم من الشرعيين ، فحضرهم ذات يوم جماعة من الفلاسفة والمتطببين فجرى بحضرته أنواع من علومهم في الطبيعيات وما بعد ذلك من الالهيات ، فقال لهم الواثق : قد أحببت أن أعلم كيفية ادراك معرفة الطب ومأخذ أصوله أذلك من الحس أم من القياس والسنة ؟ أم يدرك بأوائل العقل ، أم علم ذلك طريقه يعلم عندكم من جهة السمع كما يذهب اليه جماعة من أهل الشريعة ؟

وقد كان ابن بختيشوع وابن ماسويه وميخائيل فيمن حضر ، وقيل : ان حنين بن اسحاق وسلمويه فيمن حضر في هذا المجلس أيضا .

فقال منهم قائل : زعم طوائف من الأطباء وكثير من متقدمهيم أن الطريق الذي يدرك به الطب هو التجربة فقط ، وحدوه بأنه علم يتكرر الحس على محسوس واحد في أحوال متغايرة ، فيوجد بالحس في آخر الأحوال كما يوجد في أولها ، والحافظ لذلك هو المجرب .

وزعموا أن التجربة ترجع الى مبادىء أربعة هن لها أوائل ومقدمات ، وبها علمت وصحت ، واليها تنقسم التجربة ، فصارت بذلك أجزاء لها .

فزعموا أن قسما من تلك الأقسام طبيعي ، وهو ما تفعله الطبيعة في الصحيح

والمريض : من الرعاف ، والعرق ، والاسهال ، والقيء التي تعقب في المشاهدة منفعة أو ضررا

وقسما عرضيا ، وهو ما يعرض للحيوان من الحوادث والنوازل ، وكذلك كما يعرض للانسان أن يجرح أو يسقط فيخرج منه دم قليل أو كثير أو يشرب في مرضه أو صحته ماء باردا أو شرابا فيعقب في المشاهدة منفعة أو ضررا .

وقسما اراديا ، وهو ما يقع من قبل النفس الناطقة ، وذلك كمثل منام يراه الانسان وهو أن يرى كأنه عالج مريضا به علة مشاهدة معقولة بشيء من الأشياء معروف فيبرأ ذلك المريض من مرضه ، أو يخطر مثل ذلك بباله في حال فكره ، فيتردد ويعطب ظنه بعطبه فيجربه بأن يفعله كما يرى في منامه ، فيجده كما يرى أو يخالف ذلك ، ويفعله مرارا ، فيجده كذلك .

وقسما هو نقل ، وهو على ثلاثة أقسام :

اما أن ينقل الدواء الواحد من مرض الى مرض يشبهه ، وذلك كالنقلة من ورم الحمرة الى الورم المعروف بالنملة .

واما من عضو الى عضو يشبهه ، وذلك كالنقلة من العضد الى الفخذ .

واما من دواء الى دواء يشبهه ، كالنقلة من السفرجل الى الزعرور في علاج انطلاق البطن . . . وكل ذلك لا يعمل به عندهم الا بالتجربة .

وذهبت طائفة أخرى منهم الى أن الحيلة في تقريب أمر صناعة الطب وتسهيلها أن ترد أشخاص من العلل ومولداتها الى الأصول الحاصرة الجامعة لها ، اذ كان لا غاية لتولدها ، وأن يستدل على الدواء من نفس الطبيعة والمرض الحاضر الموجود في الحال والوقت ، دون الأسباب المؤثرة الفاعلة التي عدمت ، ودون الأزمان والأوقات والأسباب والعادات ومعرفة طبائع الأعضاء وحدودها ، والرصد والتحفظ لكل ما يكون في كل علة وجدت أو لم توجد .

وبرهنوا بأن زعموا أن من المعلومات الظاهرة التي لا ريب فيها أن الضدين لا يجوز اجتماعهما في حال ، وأن وجود أحدهما ينفي وجود الآخر في الحال لا محالة .

قالوا : وليس هذا كشيء ظاهر يستدل به على كل شيء خفي ، والشيء الظاهر يحتمل الوجود ، فيختلف في الاستدلال ، فيكون القطع على ما يوجبه غير بيّن .

وهذا قول جماعة من حذاق المتطببين وأهل التقدم في اليونانيين مثل تامونيس وساساليس وغيرهما ، وهم قوم يعرفون بأصحب الطب الجبلي .

قال الواثق لهم جميعا : فأخبروني عن جمهورهم الأعظم إلامَ يذهبون في ذلك ؟
فقالوا : الى القياس .
قال : وكيف ذلك ؟

قالوا جميعا : زعمت هذه الطائفة أن الطريق والقانون الى معرفة الطب مأخوذ من مقدمات أولية ، فمنها معرفة طبائع الأبدان والأعضاء وأفعالها ، ومنها معرفة الأبدان في الصحة والمرض ومعرفة الأهوية واختلافها ، والأعمال والصنائع والعادات والأطعمة والأشربة والأسفار ، ومعرفة قوى الأمراض .

وقالوا : ثبت في الشاهد أن الحيوان يختلف في صورته وطباعه ، وكذلك أعضاؤه مختلفة في طباعها وصورها ، وأن الأجساد الحيوانية تتغير بالأهوية المحيطة بها وبالحركة والسكون والأغذية من المأكول والمشروب والنوم واليقظة واستفراغ ما يخرج من الجسد واحتباسه والأعراض النفسانية من الغم والحزن والغضب والهم .

قالوا : والغرض بالطب في تدبير الأجسام حفظ الصحة الموجودة في البدن الصحيح ، واجتلابها للعليل ، فالواجب أن يكون حفظ الصحة انما هو بمعرفة الأسباب المصححة ، فالواجب على الطبيب لا محالة من هذه المقدمات التي قد صحت اذا أراد علاج المريض النظر في طبائع الأمراض والأبدان والأغذية والعادات والأزمان والأوقات الحاضرة والأسباب ليستدل بجميع ذلك ، وهذا يا أمير المؤمنين قول أبقراط وجالينوس فيمن تقدم وتأخر عنهم .

قالوا : وقد اختلفت هذه الطائفة في كثير من الأغذية والأدوية ، مع اتفاقهم على ما وصفنا ، وذلك لاختلافهم في كيفية الاستدلال . فمنهم من زعم أنه يستدل على طبيعة الشيء من الأغذية والأدوية بطعمه أو ريحه أو لونه أو قوامه أو فعله أو تأثيره في الجسد .

وزعموا أن الوثيقة في الاستدلال بالأجزاء اذا كانت الألوان والأرايح وسائر ما ذكرنا من أفعال الطبائع الأربع ، كما أن الاسخان والتبريد والتليين فعل لها .

وزعمت طائفة أخرى منهم أن أصح الشهادات وأثبت القضايا في الحكم على طبيعة الدواء والغذاء بما أخذ من فعله في الجسد دون الطعم والرائحة ، وما سوى ذلك ، فان الاستدلال بما سوى الفعل والتأثر لا يقطع به ، ولا يعول في الحكم على طبيعة الدواء المفرد والمركب .

قال الواثق لحنين من بين الجماعة : ما أول آلات الغذاء من الانسان ؟

قال : أول آلات الغذاء من الانسان الفم ، وفيه الأسنان ، والأسنان اثنتان وثلاثون سنا ، منها في اللحى الأعلى ستة عشر سنا ، وفي اللحى الأسفل كذلك ، ومن ذلك أربع في

كل واحد من اللحيين عراض محددة الأطراف تسميها الأطباء من اليونانيين القواطع ، وذلك أن بها يقطع ما يحتاج الى قطعة من الأطعمة اللينة ، كما يقطع هذا النوع من المأكول بالسكين ، وهي الثنايا والرباعيات ، وعن جنبي هذه الأربع في كل واحد من اللحيين سنان رؤوسهما حادة وأصولهما عريضة ، وهي الأنياب ، وبها يكسر كل ما يحتاج الى تكسيره من الأشياء الصلبة مما يؤكل ، وعن جنبي النابين في كل واحد من اللحيين خمس أسنان أخر عوارض خشن ، وهي الأضراس ويسميها اليونانيون الطواحن ، لأنها تطحن ما يحتاج الى طحنه مما يؤكل .

وكل واحد من الثنايا والرباعيات والأنياب له أصل واحد .

وأما الأضراس فما كان منها في اللحى الأعلى فله ثلاثة أصول ، خلا الضرسين الأقصيين ، فإنه ربما كان لكل واحد منهما أصول أربعة .

وما كان من الأضراس في اللحى الأسفل فلكل واحد منها أصلان ، خلا الضرسين الأقصيين ، فانه ربما كان لكل واحد منهما أصول ثلاثة ، وانما احتيج الى كثرة أصول الأضراس دون سائر الأسنان لشدة قوة العمل بها ، وخصت العليا منها بالزيادة في الأصول لتعلقها بأعلى الفم .

قال الواثق : أحسنت فيما ذكرت من هذه الآلات ، فصنف لي كتابا تذكر فيه جميع ما يحتاج الى معرفته من ذلك .

فصنف له كتابا جعله ثلاث مقالات ، يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء والمسهل وآلات الجسد .

الواثق وحنين بن اسحاق ايضا

وقد ذكر أن الواثق سأل حنينا في هذا المجلس وفي غيره عن مسائل كثيرة ، وأن حنينا أجاب عن ذلك ، وصنف في كل ذلك كتابا ترجمه بكتاب « المسائل الطبيعية » يذكر فيه أنواعا من العلوم ، فكان مما سأل الواثق حنينا من المسائل .

وقيل : بل أحضر له الواثق نديما من ندمائه فكان يسأله بحضرته والواثق يسمع ويتعجب مما يورده السائل والمجيب ، الى أن قال : فما الأشياء المغيرة للهواء ؟

قال حنين : خمس : وهي أوقات السنة ، وطلوع الكواكب وغروبها ، والرياح ، والبلدان ، والبحار .

أوقات السنة

قال السائل : فكم هي أوقات السنة ؟

قال حنين : اربع : الربيع ، والصيف ، والخريف ، والشتاء . فمزاج الربيع

معتدل الحرارة والرطوبة ، ومزاج الصيف حار يابس ، ومزاج الخريف بارد يابس ، ومزاج الشتاء بارد رطب .

الكواكب

قال السائل : أخبرني عن كيفية تغيير الكواكب للهواء .

قال حنين : ان الشمس متى قربت منها أو قربت هي من الشمس كان الهواء أزيد سخونة ، وخاصة كلما كانت أعظم ، ومتى بعدت الشمس أو بعدت هي من الشمس كان الهواء أزيد بردا .

الرياح

قال السائل : أخبرني عن كيفية أعداد الرياح ؟

قال حنين : أربع : الشمال ، والجنوب ، والصبا ، والدبور . فأما قوة الشمال فباردة يابسة ، وأما الجنوب بحارة رطبة ، وأما الصبا والدبور فمعتدلتان ، غير أن الصبا أميل الى الحرارة واليبس ، والدبور أميل الى البرودة والرطوبة من الصبا .

البلدان

قال : فأخبرني عن أحوال البلدان في ذلك .

قال : هي اربع : الأول الارتفاع ، والثاني الانخفاض، والثالث مجاورة الجبال والبحار ، والرابع طبيعة تربة الأرض . والنواحي أربع ، وهي الجنوب ، والشمال ، والمشرق ، والمغرب . فناحية الجنوب أسخن ، وناحية الشمال أبرد ، وأما ناحيتا المشرق والمغرب فمعتدلتان .

واختلاف البلدان بارتفاعهاوانخفاضها ، لأن ارتفاعها يجعلها أبرد ، وانخفاضها يجعلها أسخن .

والبلدان تختلف بحسب مجاورة الجبال لها ، لأن الجبل متى كان من البلد في ناحية الجنوب جعل ذلك البلد أزيد فردا لانه يستره من الرياح الجنوبية ، وانما تهب فيه الريح الشمالية فقط ، ومتى كان الجبل من البلد في ناحية الشمال جعل ذلك البلد أسخن .

تأثير البحار في البلدان

قال : فأخبرني عن اختلاف البلدان عند مجاورتها البحار كيف اختلفت ؟

قال حنين : ان كان البحر من البلد في ناحية الجنوب ، فان ذلك البلد يسخن ويرطب ، وان كان في ناحية الشمال كان ذلك البلد أبرد .

قال السائل : فأخبرني عن البلدان كيف اختلفت بحسب طبيعة تربتها ؟

قال : ان كانت أرضها حجرية جعلت ذلك البلد ابرد وأخف ، وان كانت تربة البلد

حصبانية جعلت ذلك البلد أخف وأسخن وان كانت طينا جعلته أبرد وأرطب .
قال : فلم اختلف الهواء من قبل البحار ؟
قال : اذا جاوزت نقائع ماء أوجيفا أو بقولا عفنة أو غير ذلك مما يتعفن تغير هواؤها .
فلما كثر هذا الكلام من السائل والمجيب أضجر ذلك الواثق ، فقطع ذلك ، وأجاز كل واحد ممن حضر ، ثم أمرهم أن يخبر كل واحد منهم ما سنح له من الأخبار عن زهد الفلاسفة من اليونانيين والحكماء المتقدمين كسقراط وديوجانس .

نطق الحكماء على جدث الاسكندر

قال الواثق : قد أكثرتم فيما وصفتم ، وقد أحسنتم الحكاية فيما ذكرتم ، فليخبرني كل واحد عن أحسن ما سمع من نطق الحكماء الذين حضروا وفاة الاسكندر وقد جعل في التابوت الأحمر .

فقال بعضهم : يا أمير المؤمنين ، كل ما ذكروه حسن ، وأحسن ما نطق به من حضر ذلك المشهد من الحكماء ديوجانس ، وقد قيل : انه لبعض حكماء الهند ، فقال : ان الاسكندر أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه امس .
وقد اخذ هذا المعنى من قول الحكيم ابو العتاهية حيث قال :

كفى حزنا بدفنك ثم اني	نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت في حياتك لي عظات	وأنت اليوم أوعظ منك حيا

فاشتد بكاء الواثق ، وعلا نحيبه ، وبكى معه كل من حضر من الناس .
ثم قام من فوره ذلك وهو يقول :

وصروف الدهر في تقديره	خلقت فيها انخفاضا وانحدار
بينما المرء على اعلائها	اذ هوى في هوة منها فحار
انما متعة قوم ساعة	وحياة المرء ثوب مستعار

***

قال المسعودي : وللواثق أخبار حسان مما كان في أيامه من الأحداث وما كان يجري من المباحثة في مجلسه الذي عقده للنظر بين الفقهاء والمتكلمين في أنواع العلوم من العقليات

والسمعيات في جميع الفروع والأصول .

وقد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا ، وسنورد فيما يرد من هذا الكتـاب في باب خلافة القاهر بالله بن المعتضد بالله جملا من الأخبار في أخلاق الخلفاء من بني العباس لمعنى أوجب ايرادها في باب خلافة القاهر .

واعتل الواثق فصلى بالناس يوم النحر احمد بن أبي دؤاد ، وكان قاضي القضاة ، فدعا في خطبته للواثق ، فقال : اللهم اشفه مما ابتليته .

وقد قدمنا ذكر وقت وفاته فيما سلف من أخبـاره في هذا البـاب ، فأغنـى ذلك عن اعادته .

ذكر خلافة المتوكل على الله
جعفر بن محمد بن هارون الرشيد

موجز

وبويع جعفر بن محمد بن هارون ، ولقب المنتصر بالله ، فلما كان في اليوم الثاني لقبه أحمد بن أبي دؤاد المتوكل على الله ، وذلك في اليوم الذي مات فيه الواثق أخوه ، وهو يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، ويكنى بأبي الفضل .

وبويع له وهو ابن سبع وعشرين سنة وأشهر .

وقتل وهو ابن احدى وأربعين سنة .

فكانت خلافته أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسع ليال ، وأمه أم ولد خوارزمية يقال لها شجاع .

وقتل ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين .

ذكر جمل من أخباره وسيره
ولمع مما كان في أيامه .

امره بترك الجدل واظهار السنة

ولما أفضت الخلافة الى المتوكل أمر بترك النظر والمباحثة في الجدال ، والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق والمأمون ، وأمر الناس بالتسليم والتقليد ، وأمر شيوخ المحدثين بالتحديث واظهار السنة والجماعة .

واظهر لباس ثياب الملحمة ، وفضل ذلك على سائر الثياب ، واتبعه من في داره على لبس ذلك ، وشمل الناس لبسه ، وبالغوا في ثمنه اهتماما بعمله ، واصطنع الجيد منها ، لمبالغة الناس فيها ، وميل الراعي والرعية اليها ، فالباقي في أيدي الناس الى هذه الغاية من تلك الثياب يعرف بالمتوكلية ، وهي نوع من ثياب الملحم نهاية في الحسن والصبغ وجودة الصنع .

احدث اللعب والمضاحك

وكانت أيام المتوكل أحسن أيام وأنضرها ، من استقامة الملك ، وشمول الناس بالأمن والعدل ، ولم يكن المتوكل ممن يوصف في عطائه وبذله بالجود ، ولا بتركه وامساكه بالبخل ، ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس ظهر في مجلسه اللعب والضحك والهزل مما قد استفاض في الناس تركه الا المتوكل ، فانه السابق الى ذلك ، والمحدث له .

وأحدث أشياء من نوع ما ذكرنا فاتبعه فيها الأغلب من خواصه وأكثر رعيته ، فلم

يكن في وزرائه والمتقدمين من كتابه وقواده من يوصف بجود ولا افضال ، أو يتعالى عن مجون وطرب .

غلب عليه الفتح بن خاقان

وكان الفتح بن خاقان التركي مولاه أغلب الناس عليه ، وأقربهم منه ، وأكثرهم تقدما عنده ، ولم يكن الفتح مع هذه المنزلة من الخلافة ممن يرجى فضله ويخاف شره ، وكان له نصيب من العلم ، ومنزلة من الأدب ، وألف كتابا في أنواع من الأدب ترجمه بكتاب « البستان » .

احدث البناء الحيرى

وأحدث المتوكل في أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه ، وهو المعروف بالحيرى والكمين والأروقة ، وذلك أن بعض سماره حدثه في بعض الليالي ان بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بني نصر احدث بنيانا في دار قراره ، وهي الحيرة ، على صورة الحرب وهيئتها للهجة بها وميله نحوها لئلا يغيب عنه ذكرها في سائر أحواله .

فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو الصدر والكمان ميمنة وميسرة ، ويكون في البيتين اللذين هما الكمان من يقرب منه من خواصه ، وفي اليمين منهما خزانة الكسوة ، وفي الشمال ما احتيج اليه من الشراب ، والرواق قد عم فضاؤه الصدر ، والكمين والأبواب الثلاثة على الرواق .

فسمي هذا البنيان الى هذا الوقت بالحيرى والكمين ، اضافة الى الحيرة ، واتبع الناس المتوكل في ذلك ائتماما بفعله ، واشتهر الى هذه الغاية .

اخذه البيعة لأولاده الثلاثة

وبايع المتوكل لبنيه الثلاثة : محمد المنتصر بالله ، وأبي عبد الله المعتز بالله ، والمستعين بالله ، وفي ذلك يقول ابن المدبر في ذكره لهذه البيعة :

يا بيعة مثل بيعة الشجرة فيها لكل الخلائق الخيره
أكدها جعفر وصيرها الى بنيه الثلاثة البرره

وفي ذلك يقول علي بن الجهم :

قل للخليفة جعفر ياذا الندى وابن الخلائف والأئمة والهدى
لما أردت صلاح دين محمد وليت عهد المسلمين محمدا

وثنيت بالمعتز بعد محمد وجعلت ثالثهم أعز مؤيدا

وكان استخلاف المتوكل على الله بعد ان استخلف أبو العباس السفاح بمائة سنة ، وبعد موت العباس بن عبد المطلب بمائتي سنة ، وقد قيل غير ذلك ، والله أعلم ، على تفاوت التواريخ في كمية اوقاتهم وعدد سنيهم والزيادة في الأيام والشهور ونقصانها من مدة ملكهم .

سخطه على ابن الزيات

وقد كان سخط المتوكل على محمد بن عبد الملك الزيات بعد خلافته بأشهر ، فقبض أمواله وجميع ما كان له ، وقلد مكانه أبا الوزير .

وقد كان ابن الزيات اتخذ للمصادرين والمغضوب عليهم تنورا من الحديد رؤوس مساميره الى داخل قائمة مثل رؤوس المسال في أيام وزارته للمعتصم والواثق ، فكان يعذب الناس فيه .

فأمر المتوكل بادخاله في ذلك التنور ، فقال محمد بن عبد الملك الزيات للموكل به أن يأذن له في دواة وبطاقة ليكتب فيها ما يريد ، فاستأذن المتوكل في ذلك ، فأذن له ، فكتب :

هي السبيل فمن يوم الى يوم كأنه ما تريك العين في النوم
لا تجزعن رويدا انها دول دنيا تنقل من قوم الى قوم

قال : وتشاغل المتوكل في ذلك اليوم فلم تصل الرقعة اليه ، فلما كان الغد قرأها فأمر باخراجه فوجده ميتا .

وكان حبسه في ذلك التنور الى أن مات أربعين يوما ، وكان كاتبا بليغا ، وشاعرا مجيدا ، وهو القائل في تحريض المأمون على ابراهيم بن المهدي عمه حين خرج عليه :

ألم تر أن الشيء للشيء علة تكون له كالنار تقدح بالزند
كذلك جربنا الأمور ، وانما يدلك ما قد كان قبل على البعد
وظني بابراهيم أن فكاكه سيبعث يوما مثل أيامه النكد
تذكر أمير المؤمنين قيامه وأيامه في الهزل منه وفي الجد
اذا هز أعواد المنابر باسمه تغنى بليلى أو بمية أو هند

في شعر طويل جدا .
ومن شعره قوله في مرثية للمعتصم بالله :

وظل له سيف النبي كأنما مدامعه من شدة الحزن تذرف
حمائله والبرد تشهد أنه هو الطيب الأولى الذي كان يعرف
أقول ومن حق الذي قلت أنني أقول وأثني بعد ذاك وأحلف
لما هاب أهل الظلم مثلك سائسا ولا أنصف المظلوم مثلك منصف

وقد أتينا على أخباره وما استحسن من أشعاره في الكتاب الأوسط .

وزراؤه

فكانت أيام أبي الوزير في الوزارة يسيرة ، وقد كان اتخذ للوزارة محمد بن الفضل الجرجرائي ، ثم صرفه فاستكتب عبيد الله بن يحيى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين الى أن قتل ، وقد أتينا في الكتاب الأوسط على أخباره واتصاله بالمتوكل وأخبار الفتح بن خاقان .

المبرد ومجنون بدير هرقل

وذكر محمد بن يزيد المبرد قال : ذكرت للمتوكل لمنازعة جرت بينه وبين الفتح بن خاقان في تأويل آية وتنازع الناس في قراءتها ، فبعث الى محمد بن القاسم بن محمد بن سليمان الهاشمي ، وكانت اليه البصرة ، فحملني اليه مكرما .

فلما اجتزت بناحية النعمان بين واسط وبغداد ذكر لي أن بدير هرقل جماعة من المجانين يعالجون .

فلما حاذيته دعتني نفسي الى دخوله ، فدخلته ومعي شاب ممن يرجع الى دين وأدب ، فاذا أنا بمجنون من المجانين قد دنا الي ، فقلت : ما يقعدك بينهم وأنت بائن عنهم ؟ فكسر جفنه ورفع عقيرته ، وأنشأ يقول :

إن وصفوني فناحل الجسد أو فتشوني فأبيض الكبد
أضعف وجدي وزاد في سقمي أن لست أشكو الهوى الى أحد
وضعت كفي على فؤادي من حر الأسى وانطويت فوق يدي
آه من الحب آه من كبدي ان لم أمت في غد فبعد غد
كأن قلبي اذا ذكرتهم فريسة بين ساعدي أسد

فقلت : أحسنت لله درك : زدني .
فأنشأ يقول :

ما أقتل البين للنفوس ! وما أوجع فقد الحبيب للكبد !
عرضت نفسي من البلاء لما أسرف في مهجتي وفي جلدي
يا حسرتي أن أموت معتقلا بين اعتلاج الهموم والكمد
في كل يوم تفيض معولة عيني لعضو يموت في جسدي

فقلت : أحسنت لله درك ! ولا فض فوك ! زدني .
فأنشأ يقول :

الله يعلم أنني كمد لا استطيع أبث ما أجد
نفسان لي نفس تضمنها بلد ، واخرى حازها بلد
وأرى المقيمة ليس ينفعها صبر ، وليس يعينها جلد
وأظن غائبتي كشاهدتي بمكانها تجد الذي أجد

فقلت : والله أحسنت ، فاستزدته ، فقال : أراك كلما أنشدتك استزدتني ، وما ذاك الا لفرط أدب أو فراق شجن ، فأنشدني أنت أيضا .
فقلت للذي معي : أنشده .
فأنشأ يقول :

عذل وبين وتوديع ومرتحل أي العيون على ذا ليس تنهمل ؟
تالله ما جلدي من بعدهم جلد ولا اختزان دموعي عنهم بخل
بلى ، وحرمة ما ألقين من خبل قلبي اليهن مشتاق وقد رحلوا
وددت أن البحار السبع لي مدد وأن جسمي دموع كلها همل
وأن لي بدلا من كل جانحة في كل جارحة يوم النوى مقل
لا در در النوى لو صادفت جبلا لا نهد منها وشيكا ذلك الجبل
الهجر والبين والواشون والابل طلائع يتراءى أنها الأجل

فقال المجنون : أحسنت ، وقد حضرني في معنى ما انشدت الي شعر ، أفأنشده ؟

قلت : هات .

فأنشأ يقول :

ترحلوا ثم نيطت دونهم سجف ... لو كنت أملكهم يوما لما رحلوا

يا حادي العيس مهلا كي نودعها ... رفقا قليلا فّفي توديعها الأجل

ما راعني اليوم شيء غير فقدهم ... لما استقلت وسارت بالدمى الابل

اني على العهد لم أنقض مودتهم ... فليت شعري وطال الدهر ما فعلوا

قال المبرد : فقاّل الفتى الذي معي : ماتوا .

فقال المجنون : آهِ آه ، ان ماتوا فسوف أموت ، وسقط ميتا ، فما برحت حتى غسل ، وكفن ، وصليت عليه ودفنته .

البحتري ينشد المتوكل

ووردت سر من رأى ، فأدخلت على المتوكل وقد عمل فيه الشراب ، فسئلت عن بعض ما وردت له ، فأجبت ، وبين يدي المتوكل البحتري الشاعر ، فابتدأ ينشد قصيدة يمدح بها المتوكل ، وفي المجلس أبو العنبس الصيمري ، فأنشد البحتري قصيدته التي أولها :

عن أي ثغر تبتسم ؟ ... وبأي طرف تحتكم ؟

حسن يضيء بحسنه ... والحسن أشبه بالكرم

قل للخليفة جعفر الـ ... متوكل ابن المعتصم

المرتضى ابن المجتبى ... والمنعم ابن المنتقم

أما الرعية فهي من ... أمنات عدلك في حرم

يا بانى المجد الذي ... قد كان قوض فانهدم

أسلم لدين محمد ... فاذا سلمت فقد سلم

نلنا الهدى بعد العمى ... بك ، والغنى بعد العدم

فلما انتهى الى ذلك مشى القهقرى للانصراف فوثب أبو العنبس فقال : يا أمير

المؤمنين ، تأمر برده فقد واللّه عارضته في قصيدته هذه .

فأمر برده ، فأخذ أبو العنبس ينشد شيئا ، لولا أن في تركه بترا للخبر ما ذكرناه ، وهو :

من أي سلح تلتقم وبأي كف تلتطم
أدخلت رأس البحتري أبي عبادة في الرحم

ووصل ذلك بما أشبهه من الشتم ، فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه ، وفحص برجله اليسرى ، وقال : يدفع الى أبي العنبس عشرة آلاف درهم .

فقال الفتح : يا سيدي البحتري الذي هجى وأسمع المكروه ينصرف خائبا .

قال : ويدفع للبحتري عشرة آلاف درهم .

قال : يا سيدي ، وهذا البصري الذي أشخصناه من بلده ، لا يشركهم فيما حصلوه ؟

قال : ويدفع اليه عشرة آلاف درهم .

فانصرفنا كلنا في شفاعة الهزل ، ولم ينفع البحتري جده واجتهاده وحزمه .

حمار أبي العنبس

ثم قال المتوكل لأبي العنبس : أخبرني عن حمارك ووفاته وما كان من شعره في الرؤيا التي أريتها .

قال : نعم يا أمير المؤمنين ، كان أعقل من القضاة ، ولم يكن له جريرة ولا زلة ، فاعتل علة على غفلة ، فمات مَنها ، فرأيته فيما يرى النائم فقلت له : يا حماري ، ألم أبرد لك الماء ، وأنقِّ لك الشعير ، وأحسن اليك جهدي ؟ فلم مت على غفلة ، وما خبرك ؟

قال : نعم ، لما كان في اليوم الذي وقفت على فلان الصيدلاني تكلمه في كذا وكذا مرت بي أتان حسناء ، فرأيتها فأخذت بمجامع قلبي ، فعشقتها واشتد وجدي بها ، فمت كمدا متأسفا .

فقلت له : يا حماري ، فهل قلت في ذلك شعرا ؟

قال : نعم ، وأنشدني :

هام قلبي بأتان عند باب الصيدلاني
تيمتني يوم رحنا بثناياها الحسان

وبخـــدين أسيلــ ــن كلــون الشنقراني
فبهـــا مت ولــو عشــ ـت اذن طال هواني

قال : قلت : يا حماري ، فما الشنقراني ؟

فقال : هذا من غريب الحمير .

فطرب المتوكل وأمر الملهين والمغنين ان يغنوا ذلك اليوم بشعر الحمار ، وفرح في ذلك اليوم فرحا شديدا ، وسر سرورا لم ير مثله ، وزاد في تكرمة أبي العنبس وجائزته .

المتوكل وعلي بن محمد العلوي

وحدث أبو عبد الله محمد بن عرفة النحوي قال : حدثنا محمد بن يزيد المبرد قال : قال المتوكل لأبي الحسن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، ما يقول ولد أبيك في العباس بن عبد المطلب ؟

قال : وما يقول ولد أبي يا أمير المؤمنين في رجل افترض الله طاعة بنيه على خلقه وافترض طاعته على بنيه ؟

فأمر له بمائة ألف درهم ، وإنما أراد أبو الحسن طاعة الله على بنيه ، فعرض .

وقد كان سعى بأبي الحسن علي بن محمد الى المتوكل ، وقيل له : إن في منزله سلاحا وكتبا وغيرها من شيعته ، فوجه اليه ليلا من الأتراك وغيرهم من هجم عليه في منزله على غفلة ممن في داره ، فوجده في بيت وحده مغلق عليه ، وعليه مدرعة من شعر ، ولا بساط في البيت الا الرمل والحصى ، وعلى رأسه ملحفة من الصوف ، متوجها الى ربه يترنم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد فأخذ على ما وجد عليه ، وحمل الى المتوكل في جوف الليل .

فمثل بين يديه والمتوكل يشرب وفي يده كأس ، فلما رآه أعظمه وأجلسه الى جنبه ، ولم يكن في منزله شيء مما قيل فيه ، ولا حالة يتعلل عليه بها ، فناوله المتوكل الكأس الذي في يده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما خامر لحمي ودمي قط ، فأعفني منه ، فعافاه .

وقال : أنشدني شعرا استحسنه .

فقال : إني لقليل الرواية للأشعار .

فقال : لا بد أن تنشدني .

فأنشده :

باتــوا على قلل الأجبــال تحرسهم غلــب الرجـال فما أغنتهــم القلل
واستنزلـوا بعـــد عز عن معاقلهم فأودعـوا حفـرا ، يابئس ما نزلوا

ناداهـم صارخ من بعـد ما قبروا	أين الأسرة والتيجـان والحلل ؟
أين الوجـوه التـي كانـت منعمة	من دونها تضرب الأستار والكلل؟
فأفصح القبر عنهـم حـين ساءلهم	تلك الوجـوه عليهـا الـدود يقتتل
قد طالما أكلـوا دهـرا ومـا شربوا	فأصبحـوا بعـد طول الأكل قد أكلوا
وطـالما عمـروا دورا لتحصنهم	ففارقوا الـدور والأهلـين وانتقلوا
وطـالما كنـزوا الأمـوال وادخروا	فخلفوهـا على الأعـداء وارتحلوا
أضحـت منازلهـم قفـرا معطلة	وساكنوها الى الأجداث قد رحلوا

قال : فأشفق كل من حضر على علي ، وظن أن بادرة تبدر منه اليه .

قال : والله لقد بكى المتوكل بكاء طويلا حتى بلت دموعه لحيته ، وبكى من حضره ، ثم أمر برفع الشراب ، ثم قال له : يا أبا الحسن ، أعليك دين ؟

قال : نعم أربعة آلاف دينار .

فأمر بدفعها اليه ، ورده الى منزله من ساعته مكرما .

وفاة ابن سماعة القاضي الحنفي

قال : وكانت وفاة محمد بن سماعة القاضي صاحب محمد بن الحسن وصاحب ابي حنيفة في خلافة المتوكل ، وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ، وهو ابن مائة سنة صحيح الجسم والعقل والحواس ، يفتض الأبكار ، ويركب الخيل التي تقطف وتعنق ، لم ينكر من نفسه شيئا .

وحكى ابنه سماعة بن محمد قال : قالي لي أبي محمد بن سماعة : وجدت في حياة سوار ابن عبد الله قاضي المنصور كتابا له بخطه أراه من شعره أو أبيات استحسنها وهي :

سلبت عظامـي لحمهـا فتركتها	عواري في أجلادهـا تتكسر
وأخليت منهـا مخهـا فكأنها	قوارير في أجوافهـا الـريح تصفر
اذا سمعـت ذكر الفـراق ترعدت	فرائصهـا من خوف ما تتحذر
خذي بيدي ، ثم ارفعي الثوب وانظري	ضنـى جسـدي لكنني أتستر

ولمحمد بن سماعة تصنيفات حسان في الفقه ، وروايات عن محمد بن الحسن وغيره ، منها كتاب نوادر المسائل عن محمد بن الحسن في ألوف أوراق .

موت يحيى بن معين وجماعة من الأنباه

وفي هذه السنة (وهي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين) مات يحيى بن معين ، وفي سنة خمس وثلاثين ومائتين مات أبو بكر بن أبي شيبة والقواريري ، وكانا من علية أصحاب الحديث وحفاظهم .

وفيها مات اسحاق بن ابراهيم بن مصعب وكان على بغداد ، وولى ابنه مكانه ، وله أخبار حسان قد أتينا على غيرها في كتابنا « أخبار الزمان » .

قصة سجين

ومن ظريف أخباره والمستحسن مما كان في أيامه وسيره ببغداد ، ما حدث به عنه موسى ابن صالح بن شيخ بن عميرة الأسدي أنه رأى في منامه كأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول له : أطلق القاتل . فارتاع لذلك روعا عظيما .

ونظر في الكتب الواردة لأصحاب الحبوس فلم يجد فيها ذكر قاتل ، فأمر باحضار السندي وعباس ، فسألهما : هل رفع اليهما أحد ادعى عليه بالقتل ؟

فقال له العباس : نعم ، وقد كتبنا بخبره .

فأعاد النظر ، في الكتاب في أضعاف القراطيس ، واذا الرجل قد شهد عليه بالقتل وأقر به .

فأمر اسحاق باحضاره ، فلما دخل عليه ورأى ما به من الارتياع قال له : ان صدقتني أطلقتك .

فابتدأ يخبره بخبره ، وذكر أنه كان هو وعدة من أصحابه يرتكبون كل عظيمة ، ويستحلون كل محرم ، وأنه كان اجتماعهم في منزل بمدينة أبي جعفر المنصور يعكفون فيه على كل بلية .

فلما كان في هذا اليوم جاءتهم عجوز كانت تختلف اليهم للفساد . . ومعها جارية بارعة الجمال ، فلما توسطت الجارية الدار صرخت صرخة ، فبادرت اليها من بين اصحابي فأدخلتها بيتا وسكنت روعها ، وسألتها عن قصتها ، فقالت : الله الله فيَّ ، فان هذه العجوز خدعتني وأعلمتني أن في خزانتها حقا لم ير مثله ، فشوقتني الى النظر الى ما فيه ، فخرجت معها واثقة بقولها ، فهجمت بي عليكم ، وجدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمي فاطمة وأبي الحسن بن علي ، فاحفظوهم في .

قال الرجل : فضمنت خلاصها ، وخرجت الى أصحابي فعرفتهم بذلك فكأني اغريتهم بها ، وقالوا : لما قضيت حاجتك منها أردت صرفنا عنها ، وبادروا اليها ، وقمت

دونها أمنع عنها ، فتفاقم الأمر بيننا الى أن نالتني جراح ، فعمدت الى أشدهم كان في أمرها وأكلبهم على هتكها فقتلته ، ولم أزل أمنع عنها الى أن خلصتها سالمة .

وتخلصت الجارية آمنة مما خافته على نفسها ، فأخرجتها من الدار ، فسمعتها تقول : سترك الله كما سترتني ، وكان لك كما كنت لي .

وسمع الجيران الضجة ، فتبادروا الينا ، والسكين في يدي والرجل يتشحط في دمه ، فرفعت على هذه الحالة .

فقال له اسحاق : قد عرفت لك ما كان من حفظك للمرأة ، ووهبتك لله ورسوله .

قال : فوحق من وهبتني له لا عاودت معصية ولا دخلت في ريبة حتى ألقى الله .

فأخبره اسحاق بالرؤيا التي رآها ، وأن اللـه لم يضيع له ذلك ، وعـرض عليه برا واسعا ، فأبى قبول شيء من ذلك .

رضاه عن يحيى بن أكثم

وفي سنة تسع وثلاثين ومائتين رضي المتوكل عن أبي محمد يحيى بن أكثم الصيفي ، فأشخص الى سر من رأى وولى قضاء القضاة ، وسخط على أحمد بن أبي دؤاد وولده أبـي الوليد محمد بن أحمد ، وكان على القضاء .

وأخذ من أبي الوليد مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار وجوهرا بأربعين ألف دينار ، وأحضر الى بغداد ، وقد كان أبو عبد اللّه احمد بن أبي دؤاد فلج بعد موت عدوه ابن الزيات بسبعة وأربعين يوما ، وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين .

وفاة ابن أبي دؤاد

وفي سنة أربعين ومائتين كانت وفاة ابن أبي دؤاد بعد وفاة ولده أبي الوليد محمد بن أحمد بعشرين يوما ، وكان ممن أجرى الله الخير على يديه على ما اشتهر من أمره ، وسهل اللـه سبيله اليه ، وحبب اليه المعروف وفعله .

منزلة ابن أبي دؤاد عند المعتصم

وذكر أن المعتصم كان بالجوسق يوما مع ندمائه ، وقد عزم على الاصطباح ، وأمر كل واحد منهم أن يطبخ قدرا ، اذ بصر بسلامة غلام ابن أبي دؤاد ، فقال : هذا غلام ابن أبي دؤاد يتعرف خبرنا ، والساعة يأتي فيقول فلان الهاشمي وفلان القرشي وفـلان الأنصـاري وفلان العربي ، فيعطلنا بحوائجه عما عزمنا عليه ، وأنا أشهـدكم أنـي لا أقضي اليوم له حاجة .

فلم يكن بين قوله وبين استئذان الأتباع لأبي عبد الله الا هنيهة ، فقال لجلسائه : كيف ترون قولي ؟

قالوا : فلا تأذن له .

قال : سوءا لكم ، حُمَّى سنة أهون علي من ذلك .

ودخل ، فما هو الا أن سلم وجلس وتكلم حتى أسفر وجه المعتصم وضحكت اليه جوارحه ، ثم قال له : يا أبا عبد الله ، قد طبخ كل واحد من هؤلاء قدرا ، وقد جعلناك حكما في طبخها .

قال : فلتحضر ثم آكل ثم أحكم بحكم بعلم .

فحملت اليه القدور ووضعت بين يديه ، فجعل يأكل من أول قدر أكلا تاما .

فقال له المعتصم : هذا ظلم .

قال : وكيف ذلك ؟

قال : لأني أراك قد أمعنت في هذا اللون ، وستحكم لصاحبه .

قال : يا أمير المؤمنين ، علي أن آكل من هذه القدور كلها كما أكلت من هذا القدر .

فتبسم له المعتصم وقال : شأنك اذن .

فأكل كما قال ، ثم قال : أما هذه فقد أحسن طابخها اذ أكثر فلفلها وأقل كمونها ، وأما هذه فقد أجاد طابخها اذا أكثر خلها وأقل زيتها ، وأما هذه فقد طيبها طابخها باعتدال توابلها ، وأما هذه فقد حذق من عملها بقلة مائها وكثرة مريها . . . .

حتى وصف القدور كلها بصفات سر أهلها بها ، ثم أكل مع القوم كما أكلوا أنظف اكل وأحسنه ، مرة يحدثهم بأخبار الأكلة في صدر الاسلام : معاوية بن أبي سفيان ، وعبيد الله بن زياد ، والحجاج بن يوسف ، وسليمان بن عبد الملك ، ومرة يحدثهم عن أكلة دهره مثل ميسرة التمار ، ودورق القصاب ، وحاتم الكيال ، واسحاق الحمامي .

فلما رفعت الموائد قال له المعتصم : ألك حاجة يا أبا عبد الله ؟

قال : نعم يا أمير المؤمنين .

قال : أذكرها فان أصحابنا يريدون أن يتشاغلوا .

قال : نعم يا أمير المؤمنين ، رجل من أهلك وطئه الدهر فغير حاله وخشن معيشته .

قال : ومن هو ؟

قال : سليمان بن عبد الله النوفلي .

قال : قدر له ما يصلحه .

قال : خمسين ألف درهم .

قال : أنفذت ذلك له .

قال : وحاجة أخرى .

قال : وما هي ؟
قال : ضياع ابراهيم بن المعتمر تردها له .
قال : قد فعلت .
قال : وحاجة أخرى .
قال : قد فعلت .
قال : فوالله ما خرج حتى سأل ثلاث عشرة حاجة لا يرده عن شيء منها ، حتى قام خطيبا فقال في خطبته : يا أمير المؤمنين ، عمرك الله طويلا ، فبعمرك تخصب جنات رعيتك ، ويلين عيشهم ، وتثمر أموالهم ، ولا زلت ممتعا بالسلامة ، محبوا بالكرامة ، مرفوعا عنك حوادث الأيام وغيرها ، ثم انصرف .

فقال المعتصم : هذا والله الذي يتزين بمثله ، ويبتهج بقربه ، ويعدل ألوفا من جنسه ، أما رأيتم كيف دخل ، وكيف سلم ؟ وكيف تكلم ؟ وكيف أكل وكيف وصف القدور ثم انبسط في الحديث ؟ وكيف طاب به أكلنا ؟ ما يرد هذا عن حاجة ، الا لئيم الأصل ، خبيث الفرع ، والله لو سألني في مجلسي هذا ما قيمته عشرة آلاف ألف درهم ما رددته عنها ، وأنا أعلم أنه يكسبني بها في الدنيا حمدا وفي الآخرة ثوابا .

وفي أحمد بن أبي دؤاد يقول الطائي :

لقد أنست مساوي كل دهر ... محاسن أحمد بن أبي دؤاد
فما سافرت في الآفاق الا ... ومن جدواه راحلتي وزادي
مقيم الظن عندك والأماني ... وان قلقت ركابي في البلاد

المتوكل يشتهي قدرا طبخها ملاحون

وحكى عن الفتح بن خاقان قال : كنت عند المتوكل وقد عزم على الصبوح بالجعفري ، وقد وجه خلف الندماء والمغنين ، قال : فجعلنا نطوف وهو متكىء علي وأنا أحادثه ، حتى وصلنا الى موضع يشرف منه على الخليج ، فدعا بكرسي فقعد عليه ، وأقبل يحادثني ، اذ بصر بسفينة مشدودة بالقرب من شاطىء الخليج ، وملاح بين يديه قدر كبيرة يطبخ فيها سكباج من لحم بقر ، وقد فاحت روائحها ، فقال : يا فتح ، رائحة قدر سكباج والله ، ويحك ، أما ترى ما أطيب رائحتها . . . عليَّ بها على حالها .

فبادر الفراشون فانتزعوها من بين يدي الملاحين ، فلما عاين الملاحون أصحاب السفينة ما فعلوا بهم ذهبت نفوسهم فرقا وخوفا ، وجاءوا المتوكل بالقدر تفور كهيئتها ،

فوضعت بين أيدينا ، فاستطاب ريحها واستحسن لونها ، ودعا برغيف فكسر منه كسرة ودفعها الي ، وأخذ هو منه مثلها ، وأكل كل واحد منا ثلاث لقم ، وأقبل الندماء والمغنون ، فجعل يلقم كل واحد منهم لقمة من القدر .

وأقبل الطعام ووضعت الموائد ، فلما فرغ من أكله أمر بتلك القدر ففرغت وغسلت بين يديه ، وأمر أن تملأ دراهم ، فجيء ببدرة ففرغت فيها ، ففضل من الدراهم مقدار ألفي درهم ، فقال لخادم كان بين يديه : خذ هذه القدر فامض بها حتى تدفعها لأصحاب السفينة ، وقل لهم : هذا ثمن ما أكلنا من قدركم ، وادفع الى من طبخها ما فضل من هذه البدرة من الدراهم هبة له على تجويده طبخها .

قال الفتح : فكان المتوكل كثيرا ما يقول اذا ذكر قدر الملاح : ما أكلت أحسن من سكباج أصحاب السفينة في ذلك اليوم .

***

الجاحظ يصحب محمد بن ابراهيم في حراقته

وأخبرنا أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي الفقيه بجهينة ، وكان من حديثة الموصل ، قال : حدثنا أبو الحسن الصالحي ، قال : قال الجاحظ : ذكرت لأمير المؤمنين المتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني ، وخرجت من عنده ، فلقيت محمد بن ابراهيم وهو يريد الانصراف الى مدينة السلام ، فعرض علي الخروج معه والانحدار في حراقته ، فركبنا فيها ، فلما أتينا فم نهر القاطول وخرجنا من سامرا نصب ستارته وأمر بالغناء فاندفعت عوادة فغنت :

كل يوم قطيعة وعتاب ... ينقضي دهرنا ونحن غضاب

ليت شعري أنا خصصت بهذا ... دون ذا الخلق أم كذا الأحباب ؟

وسكتت ، فأمر الطنبورية فغنت :

وا رحمتا للعاشقينا ... ما ان أرى لهم معينا

كم يهجرون ويصرمو ... ن ويقطعون فيصبرونا ؟

قال : فقالت لها العوادة : فيصنعون ماذا ؟

قالت : هكذا يصنعون ، وضربت بيدها الى الستارة فهتكتها وبرزت كأنها فلقة قمر

فـزجت بنفسها الى الماء ، وعلى رأس محمد غلام يضاهيها في الجمال وبيده مذبة ، فلما رأى ما صنعت ألقى بالمذبة من يده وأتى الموضع ونظر اليها وهي تمر بين الماء فأنشأ يقول :

وأنـا الـذي غرقتني بعـد القضـا لو تعلمينا

فزج بنفسه في أثرها ، فأدار الملاح الحراقة فاذا هما معتنقان ، ثم غاصا فلم يريا .

فهال ذلك محمدا واستعظمه ، وقال : يا عمرو لتحدثني حديثا يسليني عن فقد هذين والا ألحقتك بهما .

قال : فحضرني حديث يزيد بن عبد الملك ، وقد قعد للمظالم وعرضت عليه القصص ، فمرت به قصة فيها : أن رأى أمير المؤمنين ـ أعزه الّله ـ أن يخرج جاريته فلانة حتى تغنيني ثلاثة أصوات ، فعل .

فاغتاظ يزيد ، وأمر من يخرج اليه ويأتيه برأسه ، ثم أمر بأن يتبع الرسول برسول آخر يأمره أن يدخل اليه الرجل ، فلما وقف بين يديه قال له : ما الذي حملك على ما صنعت ؟

قال : الثقة بحلمك والاتكال على عفوك ، فأمره بالجلوس حتى لم يبق أحد من بني أمية الا خرج ، ثم أمر فأخرجت الجارية ومعها عودها ، فقال لها الفتى : غني :

أفاطم مهـلا ، بعض هذا التدلُّل وان كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

فغنته ، فقال له يزيد : قل .

قال : غني :

تألـق البـرق نجـديا فقلـت له : يا أيها البـرق انـي عنـك مشغول
يكفيك عنـي عدو ثائـر حنق في كفـه صارم كالملـح مسلول

فغنته ، فقال : قل .

قال : تأمر لي برطل خمر ، فما استتم شرابه حتى وثب وصعد على أعلى قبة ليزيد فرمى بنفسه على دماغه ، فمات .

فقال يزيد : انا لله وانا اليه راجعون ، أتراه الأحمق الجاهـل ظن أنـي أخـرج اليه جاريتي وأردها الى مالي ، يا غلمان ، خذوا بيدها واحملوها الى أهله ان كان له أهل ، والا

فبيعوها وتصدقوا بثمنها عنه .

فانطلقوا بها الى أهله ، فلما توسطت الدار نظرت الى حفرة في دار يزيد قد أعدت للمطر ، فجذبت نفسها من أيديهم وأنشأت تقول :

من مات عشقا فليمت هكذا لا خير في عشق بلا موت

فزجت بنفسها على دماغها فماتت .

فسرى عن محمد وأحسن صلتي .

وقيل : إن هذا الخبر انما كان مع سليمان بن عبد الملك ، وليس هذا عن يزيد بن عبد الملك .

قال : فذكرت هذا الحديث لأبي عبد الله محمد بن جعفر الأنباري بالبصرة ، فقال : أنا أخبرك بنحو من هذا الحديث الذي حدثتني به . حدثني فائق الخادم ، وكان مولى لمحمد ابن حميد الطوسى ، أن محمد بن حميد كان جالسا مع ندمائه يوما ، فغنت جارية من وراء الستارة :

يا قمر القصر متى تطلع أشقى وغيرى بك يستمتع ؟
ان كان ربي قد قضى ما رأى منك على رأسي فما أصنع

وعلى رأس محمد غلام بيده قدح يسقيه ، فرمى بالقدح عن يده وقال : تصنعين هكذا ، ورمى بنفسه من الدار الى دجلة . فهتكت الجارية الستارة ، ثم رمت بنفسها على اثره ، فنزلت الغلمة خلفهما فلم يجدوا أحدا منهما .

فقطع محمد الشراب ، وقام عن مجلسه .

***

سخط المتوكل على الرخجي

قال المسعودي : وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين سخط المتوكل على عمر بن الفرج الرخجي ، وكان من علية الكتاب ، وأخذ منه مالا وجوهرا نحو مائة ألف وعشرين ألف دينار ، وأخذ من أخيه نحوا من مائة ألف وخمسين ألف دينار ، ثم صولح محمد على أحد وعشرين ألف ألف درهم على أن يرد اليه ضياعه .

ثم غضب عليه غضبة ثانية ، وأمر أن يصفع في كل يوم ، فأحصى ما صفع فكان ستة آلاف صفعة ، وألبسه جبة صوف ، ثم رضي عنه . وسخط عليه ثالثة ،وأحضر الى بغداد ، وأقام بها حتى مات .

وأهدى الموبذان الى المتوكل قارورة دهن ، وكتب اليه : ان الهدية اذا كانت من الصغير الى الكبير فلطفت ودقت كان أبهى لها وأحسن ، وان كانت من الكبير الى الصغير فعظمت كان أرفع لها وأنفع .

***

وفاة الامام احمد بن حنبل

قال المسعودي : وكانت وفاة احمد بن حنبل في خلافة المتوكل بمدينة السلام وذلك في شهر ربيع الآخر سنة احدى وأربعين ومائتين ، ودفن بباب حرب ، في الجانب الغربي ، وصلى عليه محمد بن طاهر ، وحضر جنازته خلق من الناس لم ير مثل ذلك اليوم والاجتماع في جنازة من سلف قبله .

وكان للعامة فيه كلام كثير جرى بينهم بالعكس والضد في الأمور : منها أن رجلا منهم كان ينادي العنوا الواقف عند الشبهات ، وهذا بالضد عما جاء عن صاحب الشريعة عليه السلام في ذلك ، وكان عظيما من عظمائهم ومقدمافيهم يقف موقفا بعد موقف أمام الجنازة وينادي بأعلى صوته :

وأظلمت الدنيا لفقد محمد   وأظلمت الدنيا لفقد ابن حنبل

يريد بذلك أن الدنيا أظلمت عند وفاة محمد عليه السلام ، وأنها أظلمت عند موت ابن حنبل ، كظلمتها عند موت الرسول صلى الله عليه وسلم .

انقضاض الكواكب

وفي هذه السنة انقضت الكواكب الانقضاض الذي لم ير مثله قط ، وذلك في ليلة الخميس لست خلون من جمادى الآخرة ، وقد كان في سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة انقضاض لكوكب عظيم هائل ، وهي الليلة التي وقعت فيها القرامطة بحاج العراق من طريق الكوفة ، وذلك في ذي القعدة من سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة .

وفاة جماعة من أهل العلم

وفي السنة التي مات فيها ابن حنبل كانت وفاة محمد بن عبد الله بن محمد الاسكافي ،

وكان من أهل النظر والبحث ومن علية أهل العدل .

وكانت وفاة جعفر بن المبشر سنة أربع وثلاثين ومائتين ، وكان من كبار أهل العدلية وأهل الديانة من البغداديين .

ومات جعفر بن حرب سنة ست وثلاثين ومائتين ، وهو رجل من همدان ووجوه قحطان ، والى أبيه يضاف شارع باب حرب في الجانب الغربي من مدينة السلام ، وهو شيخ البغداديين من المتكلمين .

ومات عيسى بن طعج سنة خمس وأربعين ومائتين ، وكان من حذاقهم وأهل الديانات منهم .

وذكر أبو الحسن الخياط أن أبا الهذيل محمد بن الهذيل كانت وفاته سنة سبع وعشرين ومائتين ، ثم تنازع أصحابه في مولده ، فقال قوم : سنة احدى وثلاثين ومائة وقال قوم : سنة أربع وثلاثين ومائة .

بين هشام وأبي الهذيل

وقد كان أبو الهذيل هذا اجتمع مع هشام بن الحكم الكوفي الحرار ، وكان هشام شيخ المجسمة والرافضة في وقته ممن وافقه على مذهبه ، وكان أبو الهذيل يذهب الى نفي التجسيم ورفع التشبيه ، والى ضد قول هشام في التوحيد والامامة .

فقال هشام لأبي الهذيل : اذا زعمت أن الحركة ترى فلم لا زعمت أنها تلمس ؟

قال : لأنها ليست بجسم فيلمس ، لأن اللمس انما يقع على الأجسام .

فقال له هشام : فقل أيضا أنها لا ترى لأن الرؤية انما تقع على الأجسام .

فرجع أبو الهذيل سائلا فقال له : من أين قلت : أن الصفة ليست الموصوف ولا غيره ؟

قال هشام : من قبل أنه يستحيل أن يكون فعلي أنا ويستحيل أن يكون غيري ، لأن التغاير انما أوقعه على الأجسام والأعيان القائمة بأنفسها ، فلما لم يكن فعلي قائما بنفسه ولم يجز أن يكون فعلي أنا وجب أنه لا أنا ولا غيري . وعلة اخرى أنت قائل بها : زعمت يا أبا الهذيل أن الحركة ليست مماسة ولا مباينة ، لأنها عندك مما لا يجوز عليه المماسة ولا المباينة ، فلذلك قلت أنا : إن الصفة ليست أنا ولا غيري ، وعلتي في أنها ليست أنا ولا غيري ، علتك في أنها لا تماس ولا تباين .

فانقطع أبو الهذيل ولم يرد جوابا .

وفاة جماعة من المعتزلة

وكانت وفاة أبي موسى الفراء سنة ست وعشرين ومائتين ، وكان من شيوخ العدلية

وكبار المتكلمين من البغداديين .

ومات واصل بن عطاء ، ويكنى بأبي حذيفة ، في سنة احدى وثلاثين ومائة ، وهو شيخ المعتزلة وقديمها ، وأول من أظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين ، وهو أن الفاسق من أهل الملة ليس بمؤمن ولا كافر ، وبه سميت المعتزلة ، وهو الاعتزال .

وقد قدمنا ، فيما سلف من هذا الكتاب في أخبار بني أمية ،قول المعتزلة في الأصول الخمسة ، فأغنى ذلك عن اعادته ، وكذلك فيما سلف من كتبنا على الشرح والايضاح .

وقد بينا فيما سلف من هذا الكتاب خبر عمرو بن عبيد ووفاته ، وكان شيخ المعتزلة والمقدم فيها ، وأن وفاته كانت سنة أربع وأربعين ومائة .

بين هشام وعمرو بن عبيد

وقد كان عمرو بن عبيد اجتمع مع هشام بن الحكم .

وهشام يذهب الى القول بأن الامامة نص من الله ورسوله على علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وعلى من يلي عصره من ولده الطاهرين ، كالحسن والحسين ، ومن يلي أيامهم .

وعمرو يذهب الى أن الامامة اختيار من الأمة في سائر الأعصار ، فقال هشام لعمرو ابن عبيد : لم خلق الله لك عينين ؟

قال : لأنظر بهما الى ما خلق الله من السموات والأرض ، وغير ذلك ، فيكون ذلك دليلا لي عليه .

فقال هشام : فلم خلق الله لك سمعا ؟

قال : لأسمع به التحليل والتحريم والأمر والنهي .

فقال له هشام : لم خلق الله لك لسانا ؟

فقال عمرو : لأعبر به عما في قلبي وأخاطب به من افترض علي أمره ونهيه .

قال هشام : فلم خلق الله لك قلبا ؟

قال عمرو : لتكون هذه الحواس مؤدية اليه فيكون مميزا بين منافعها ومضارها .

قال هشام : فكان يجوز أن يخلق الله سائر حواسك ولا يخلق لك قلبا تؤدي هذه الحواس اليه ؟

قال عمرو : لا .

فقال هشام : ولم ؟

قال : لأن القلب باعث لهذه الحواس على ما يصلح له ، فلو لم يخلق الله فيها

انبعاثا من نفسها استحال ألا يخلق بها باعثا يبعثها على ما خلقت له الا بخلق القلب ، فيكون هو الباعث لها على ما تفعله ، والمميز لها بين مضارها ومنافعها ، ويكون الامام من الخلق بمنزلة القلب من سائر الحواس ، اذا كانت الحواس راجعة الى القلب لا الى غيره ، ويكون سائر الخلق راجعين الى الامام لا الى غيره . فلم يأت عمرو بفرق يعرف .

وهذا الذي حكيناه ذكره أبو عيسى محمد بن هارون الوراق ببغداد في كتابه المعروف بكتاب المجالس . وكانت وفاة أبي عيسى ببغداد في الجانب الغربي في الموضع المعروف بالرملة سنة سبع وأربعين ومائتين ، وله تصنيفات حسان كثيرة منها كتابه في المقالات في الامامة وغيرها من النظر .

ابن الراوندي

وكانت وفاة أبي الحسين أحمد بن يحيى بن اسحاق الراوندي برحبة مالك بن طوق ، وقيل : ببغداد ، سنة خمس ومائتين ، وله نحو من أربعين سنة ، وله كتب مصنفة : مائة كتاب وأربعة عشر كتابا .

وقد ذكرنا في كتابنا في « أخبار الزمان » وفاة أرباب المقالات وأهل المذاهب والجدل والآراء والنحل ، وأخبارهم ، ومناظراتهم وتباينهم في مذاهبهم ، وكذلك في الكتاب الأوسط ، الى سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، وانما يسنح لنا ذكر بعضهم في هذا الكتاب فنذكر لهم لمعا ، وكذلك غيرهم من الفقهاء وأصحاب الحديث .

وفاة الصولي الكاتب

وفيها مات ابراهيم بن العباس الصولي ، الكاتب ، وكان كاتبا بليغا ، وشاعرا مجيدا ، لا يعلم فيمن تقدم وتأخر من الكتاب اشعر منه ، وكان يكتسب في حداثته بشعره ، ورحل الى الملوك والأمراء ومدحهم طلبا لجدواهم .

وذكر رجل من الكتاب ان اسحاق بن ابراهيم ، أخا زيد بن ابراهيم ، حدثه أنه كان يتقلد الصيمرة والسيروان ، وأن ابراهيم بن العباس اجتاز به يريد خراسان ، والمأمون بها ، وقد بايع بالعهد لعلي بن موسى الرضا ، وقد امتدحه بشعر يذكر فيه فضل آل علي ، وأنهم أحق بالخلافة من غيرهم .

قال : فاستحسنت القصيدة وسألته أن ينسخها لي ، ففعل ، ووهبت له ألف درهم ، وحملته على دابة .

وضرب الدهر من ضربه الى أن ولي ديوان الضياع مكان موسى بن عبد الملك ، وكنت أحد عمال موسى ، وكان يحب ان يكشف أسباب موسى ، فعزلني .

وأمر أن تعمل مؤامرة ، فعملت ، وكثر علي فيها ، وحضرت للمناظرة عنها ، فجعلت أحتج بما لا يدفع ، فلا يقبله ، ويحكم لي الكتاب فلا يلتفت الى حكمهم ، ويسمعني في خلال ذلك قذعا من الكلام ، الى أن أوجب على الكتاب اليمين على باب من الأبواب فحلفت عليه ، فقال : ليست يمين السلطان عندك يمينا ، لأنك رافضي .

فقلت له : تأذن لي في الدنو منك ، فأذن لي .

فقلت له : ليس مع تعريضك بمهجتي للقتل صبر ، وها هو المتوكل ان كتبت اليه بما أسمع منك لم آمنه على نفسي ، وقد احتملت كل شيء الا الرفض ، والرافضي : من زعم أن علي بن أبي طالب أفضل من العباس ، وأن ولده أحق من ولد العباس بالخلافة .

قال : ومن قال ذلك ؟

قلت : أنت وخطك عندي به ، وأخبر بالشعر . فوالله ما هو الا أن قلت ذلك له حتى سقط في يده ، ثم قال : أحضر الدفتر الذي بخطي .

فقلت له : هيهات ! لا والله أو توثق لي بما أسكن اليه : أنك لا تطالبني بشيء مما جرى على يدي ، وتخرق هذه المؤامرة ، ولا تنظر لي في حساب ، فحلف على ذلك بما سكنت اليه ، وخرق العمل المعمول ، وأحضرته الدفتر ، فوضعه في خفه ، وانصرفت وقد زالت عني المطالبة .

ولابراهيم بن العباس مكاتبات قد دونت ، وفصول حسان من كلامه قد جمعت ، وقد أتينا على كثير منها في الكتاب الأوسط ، فمما استحسن من فصوله وان كانت كلها في نهاية الجودة وانتخبناه من كلامه : « وقديما غذت المعصية أبناءها فحلبت عليهم من درها مرضعة ، وبسطت لهم من أمانيها مطمعة ، وركبت فيهم مخاطرها موضعة ، حتى اذا رتعوا فأمنوا ، وركبوا فأطمأنوا ، وانقضى رضاع وآن فطام ، سقتهم سما ، ففجرت مجاري ألبانها منها دما ، وأعقبتهم من غذائها مرا ، وحطت بهم من معقل الى عقاب ، ومن عز الى حسرة ، قتلا وأسرا ، واباحة وقسرا ، وقل من أوضع في الفتنة مرهجا في لهبها ومقتحما عند ضلالها الا استقحمته آخذة بمخنقه ، وموهنة بالحق كيده ، حتى تجعله لعاجله جرزا ، ولآجله حطبا ، وللحق موعظة ، وللباطل حجة . . ذلك لهم جزاء في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر ، وما ربك بظلام للعبيد » .

وله أشعار حسان : فمما استحسن من شعره الذي لم يسبقه عند جماعة أهل الأدب أحد من زمانه قوله :

لنا أبل كوم يضيق بها الفضا ويفتر عنها أرضها وسماؤها

فمـــن دونهـــا أن تستبـــاح دماؤنا ومـــن دوننـــا أن يستـــدم دماؤها
حمـى وقــرى فالموت دون مرامها وأهون خطـب في الحقـوق فناؤها

وقوله :

ولــكن الجــواد أبــا هشام وفي العهــد مأمــون المغيب
غنــي عنــك ما استغنيت عنه وطــلاع عليك مع الخطوب

وقوله :

هــذا الزمــان رماني الشــأن في الخلان
ليس رمانــي لما رأى الزمــان رماني
ومــن ذخــرت زماني شنــأت في الخلان
ومــن ذخــرت لنفسي فعــاد ذخــر الزمان
لو قيل لي خذ آمانا من أعظــم الحدثان
لما أخــذت أمانا الا من الاخوان

وقوله :

واذا جزى اللــه امــرأ بفعاله فجـزى أخــا لك ماجــدا سمحا
نبهـــه من كذبــه فكأنما نبهــت ، اذ نبهتــه ، صبحا

ومما يجب على الرؤساء ان يحفظوه قوله :

تزيده الأيـــام ان اقبلت حزمــا وعلمـــا بتصاريفها
كأنهــا في وقــت اسعافها تسمعــه صـــوت تخاريفها

ومما أحسن فيه وبرز عن نظرائه قوله :

سقيا ورعيا لأيام لنــا سلفت بكيت منهــا فصرت اليوم أبكيها

كذاك أيامنا لا شك نندبها اذا تقضت ونحن اليوم نشكوها

وقوله :

أولى البرية طرا أن تواسيه عند السرور لمن واساك في الحزن
ان الكرام اذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

وقوله :

لا تلمني فان همك أن تثـ ـرى وهمي مكارم الأخلاق
كيف يستطيع حفظ ما جمعت كفـ ـاه من ذاق لذة الانفاق

وقوله :

أسد ضار اذا ما هجته وأب بر اذا ما قدرا
يعلم الأقصى اذا أثرى ، ولا يعلم الأدنى اذا ما افتقرا

وكان ابراهيم بن العباس يقول : مثل أصحاب السلطان مثل قوم علوا جبلا ثم وقعوا منه ، فكان أقربهم الى التلف أبعدهم من الارتقاء ، وكان ابراهيم يدعي خئولة العباس بن الأحنف الشاعر .

العباس بن الأحنف

وحكى أبو العباس أحمد بن جعفر بن حمدان القاضي ، عن سليمان بن الحسن بن مخلد ، عن أبيه الحسن ، قال : أنشد ابراهيم بن العباس قول العباس بن الأحنف :

ان قال لم يفعل ، وان سيل لم يبذل ، وأن عوتب لم يعتب
صب بهجراني ، ولو قال لي : « لا تشرب البارد » لم أشرب

فقال : هذا والله الشعر الحسن المعنى ، السهل اللفظ ، العذب المستمع ، القليل النظير ، ما سمعت كلاما أجزل منه في رقة ، ولا أسهل في صعوبة ، ولا ابلغ في انصاف ،

من هذا .
فقال له الحسن : كلامك والله أحسن من شعره .
ومما استحسن من شعر العباس بن الأحنف قوله :

تحمـل عظيم الذنـب ممـن تحبه — وان كنت مظلومـا فقـل أنـا ظالم
فطوبى لمن أغفى من الليل ساعة — وذاق اغتماضـا ، ان ذاك لناعم

وقوله :

اصرف فؤادك يا عبـاس معتمدا — عنها ، والا تمـت في حبهـا كمدا
لو أنهـا من وراء الـروم في بلد — ما كنـت أسـكن الا ذلك البلدا
يا من شكا شوقـه من هول غيبته — اصبـر لعلك تلقـى ما تحـب غدا

وقوله :

أغـب الـزيارة لما بدا — له الهجـر أو بعض أسبابه
ومـا صد عنـا ولكنه — طريـد ملالـة احبابه

وفاة العباس بن الأحنف

حدثنا أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي قال : حدثنـا الـرياشي ، قال : ذكر جماعة من أهل البصرة قالوا : خرجنا نريد الحج ، فلما كنا ببعض الطريق اذا غلام واقف على المحجة وهو ينادي : يا أيها الناس ، هل فيكم أحد من أهل البصرة ؟
قال : فملنا اليه وقلنا له : ما تريد ؟
قال : ان مولاي لما به يريد أن يوصيكم .
فملنا معه ، فاذا بشخص ملقى على بعد من الطريق تحت شجرة لا يحير جوابا ، فجلسنا حوله ، فأحس بنا ، فرفع طرفه ، وهو لا يكاد يرفعه ضعفا ، وأنشأ يقول :

يا غريب الـدار عن وطنه — مفـردا يبـكي على شجنه
كلما جد البـكاء به — دبـت الأسقـام في بدنه

ثم أغمي عليه طويلا ، وانا لجلوس حوله اذ أقبل طائر فوقع على أعلى الشجرة ، وجعل يغرد ، ففتح الفتى عينيه وجعل يسمع تغريد الطائر ، ثم قال :

ولقد زاد الفؤاد شجى طائر يبكي على فننه
شفه ما شفني فبكى كلنا يبكي على سكنه

قال : ثم تنفس تنفسا فاضت نفسه منه ، فلم نبرح من عنده حتى غسلناه وكفناه وتولينا الصلاة عليه : فلما فرغنا من دفنه سألنا الغلام عنه ، فقال : هذا العباس بن الأحنف .

وقد أخبرنا بهذا الخبر أبو اسحاق الزجاجي النحوي ، عن أبي العباس المبرد ، عن المازني ، قال : حدثنا جماعة من أهل البصرة بما ذكرناه .

وكانت وفاة أبي ثور ابراهيم بن خالد الكلبي سنة أربعين ومائتين .

نفي المتوكل علي بن الجهم

وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين نفى المتوكل علي بن الجهم الشاعر الى خراسان ، وقيل : في سنة تسع وثلاثين ومائتين .

وقد أتينا على خبره وما كان من أمره ورجوعه بعد ذلك الى العراق ، وخروجه يريد السفر ، وذلك في سنة تسع وأربعين ومائتين ، فلما صار بالقرب من حلب من بلاد قنسرين والعواصم ، بالموضع المعروف بخشبات ، لقيته خيل الكلبيين فقتلته ، فقال في ذلك وهو في الشرق :

أزيد في الليل ليل أم سال بالصبح سيل ؟
ذكرت أهل دجيل وأين مني دجيل ؟

وكان علي بن الجهم السامي هذا ـ مع انحرافه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه واظهاره التسنن ـ مطبوعا مقتدرا على الشعر ، عذب الألفاظ ، غزير الكلام .

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب طعن من طعن على نسبه ، وما قال الناس في عقب سامة بن لؤي بنُ غالب ، وقول علي بن محمد بن جعفر العلوي الشاعر :

وسامة منا فأما بنوه فأمرهم عندنا مظلم

أنـــاس أتونـــا بأنسابهم خرافـــة مضطجـــع يحلم
وقلــت لهـــم مثـــل قول النبي وكل أقاويلـــه محكم :
اذا ما سئلــت ولـــم تدر ما تقـــول فقـــل ربنـــا أعلم

وقول العلوي فيه أيضا :

لو اكتنفـــت النضر أو معدا أو اتخـــذت البيت كهفـــا مهدا
وزمزمـــا شريعـــة وورداً والأخشبـــين محضرا ومبدا
ما ازددت الا من قريش بعدا أو كنـــت الا مصـــقليا وغدا

وانما أعدنا ذكر هذا الشعر في هذا الموضع ـ وان كنـا قد قدمنـاه فيما سلف من هذا الكتاب ـ لما سنح لنا من ذكر علي بن الجهم في أيام المتوكل ، ولما احتجنا اليه عند ذكرنا لشعر علي بن الجهم واجابته العلوي على هذا الشعر ، فكان ما أجاب به علي بن الجهم لعلي بن محمد بن جعفر العلوي :

لـم تذقنـــي حلاوة الانصاف وتعسفتنـــي أشـــد اعتساف
وتـــركت الوفـــاء علما بمـــا فيـ ـــه وأسرفـــت غاية الاسراف
غـــير أنـــي اذا رجعـــت الى حـ ـــق بني هاشـــم بن عبـــد مناف
لم أجـــد لي الى التشفـــي سبيلا بقـــواف ولا بغـــير قواف
لي نفس تأبـــى الـــدنية والأشـ ـراف لا تعتـــدي على الأشراف

وله في الحبس شعر معروف لم يسبقه الى معناه أحد ، وهو قوله :

قالوا حبست ، فقلت : ليس بضائري حبسي ، وأي مهنـــد لا يغمد ؟

أومـــا رأيت الليث يألف غيله كبـــرا ، وأوبـــاش السبـــاع تردد
والشـــمس لولا انهـــا محجوبة عن ناظـــريك لما أضـــاء الفرقد
والنـــار في احجارهـــا مخبوءة لا تصطلي ، ان لم تثرها ، الأزند
والحبس ، ما لم تغشـــه لدنية شنعـــاء ، نعـــم المنـــزل المستورد

بيت يجـدد للـكريم كرامة ويزار فيه ولا يزور ويحفد
لو لم يكن في الحبس الا أنه لا يستـذلك بالحجـاب الأعبد

ومما أحسن فيه قوله :

خليلي ما أحلى الهـوى وأمره وأعلمنـي بالحلـو منـه وبالمر
بمـا بيننـا من حرمـة هل رأيتما أرق من الشـكوى وأقسى من الهجر
وأفصـح من عـين المحـب لسره ولا سيما ان أطلقت عبـرة تجري

ومما اختير من قوله :

حسرت عنـي القنـاع ظلوم وتولـت ودمعهـا مسجوم
شر ما أنـكرت تصرم عهد لم يدم لي ، وأي عهـد يدوم
أنـكرت ما رأت برأسي وقالت : أمشيب أم لؤلـؤ منظوم
قلـت :أولاهما علمـت ،فقالت : آيـة يستشـيرهـا المهمـوم
ليس همـي من الهموم التـي يحـ سن فيهـا العـزاء والتسليم
ان أمـرا أخنـى علي بشيب الـ رأس في ليلـة لأمـر عظيم
ليس عنـدي وان تعـزيت الا طاعـة حرة وقلـب سليم

ومن جيد شعره :

هي النفس ما حملتهـا تتحمل وللدهـر أيام تجـور وتعدل
وعاقبـة الصبـر الجميل جميلة وأكمل اخـلاق الرجـال التفضل
ولا عار ان زالـت عن المرء نعمة ولـكن عارا أن يزول التجمل
ومـا المال الا حسرة ان تركته وغنـم اذا قدمتـه متعجل

ومما اعتذر فيه فأحسن قوله في المتوكل :

ان ذل السـؤال والاعتذار خطـة صعبـه على الأحرار

ليس من باطـل يوردهـا المر ء ولـكن سوابـق الأقدار
فارض للسائـل الخضـوع و للقا رف ذنبـا بذلـة الاعتذار
أن تجـافيت منعما كنـت أولى من تجـافي عن الذنـوب الكبار
أو تعاقـب فأنـت أعـرف باللـ ـه وليس العقـاب منـك بعار

ومما جود فيه قوله لما قيد :

فقلـت لهـا والدمـع شتى طريقه ونار الهـوى بالقلـب يذكو وقودها
فلا تجزعـي امـا رأيت قيوده فان خلاخيل الرجـال قيودها

وكان في لسانه فضل قل من سلم معه منه ، وكان محمد بن عبد الله منحرفا عنه ، فاستشفع عليه بوصيف التركي حتى أصلح له ناحيته ، ثم فسد عليه وصيف ، فاستشفع عليه بمحمد بن عبد الله ، وكتب اليه :

الحمـد للـه شكـرا قلوبنـا في يديه
صـار الأمـير شفيعا الى شفيعـي اليه

وله أشعار نادرة ، وأمثال سائرة ، اخترنا منها ما قدمنـا ذكره واقتصرنـا بذلك عن غيره ، وقد رثاه جماعة من الشعراء بعد قتله ، منهم أبو صاعد ، فقال :

أريقـي الدمـع واجتنبـي الهجوعا وصوني شمـل وجـدك أن يضيعا
وقـولي : إن كهف بنـي لؤي غدا بالشـام منجـدلا صريعا
عزاء يا بنـي جهـم بن بدر فقـد لاقيتـم خطبـا فظيعا
أمـا واللـه لو تدري المنايا بمـا لاقيتـم لبـكت نجيعا
ثوى كهف الأرامـل واليتامى ومـن كان الزمـان به ربيعا
فتـى كان السهـام على الأعادي وليثـا دون حادثـة منيعا

قال : وفي سنة ثلاث وأربعين ومائتين كان خروج المتوكل من دمشـق الى سر من

رآى ، فكان بين خروجه منها ورجوعه اليها ثلاثة أشهر وسبعة أيام . وفي خروجه يقول يزيد المهلبي شعرا طويلا اخترنا منه قوله :

أظن الشام يشمت بالعراق اذا عزم الامام على انطلاق
فان تدع العراق وساكنيها فقد تبلى المليحة بالطلاق

المتوكل في دمشق

ولما نزل دمشق أبى أن ينزل المدينة لتكاثف هواء الغوطة عليها وما يرتفع من بخار مياهها ، فنزل قصر المأمون ، وذلك بين داريا ودمشق ، على ساعة من المدينة ، في أعلى الأرض ، وهذا الموضع بدمشق يشرف على المدينة وأكثر الغوطة ويعرف بقصر المأمون الى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) .

وذكر سعيد بن نكيس قال : كنت واقفا بين يدي المتوكل في مضربه بدمشق اذ شغب الجند واجتمعوا وضجوا يطلبون الأعطية ، ثم خرجوا الى تجريد السلاح والرمي بالنشاب ، وأقبلت أرى السهام ترتفع في الرواق ، فقال لي : يا أبا سعيد ، ادع لي رجاء الحضاري ، فدعوته .

فقال له : يا رجاء ، أما ترى ما خرج اليه هؤلاء ؟ فما الرأي عندك ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، قد كنت مشفقا في هذا السفر من مثل هذا ، فأشرت بما أشرت من تأخيره .

فمال أمير المؤمنين اليه ، وقال : دع ما مضى وقل الآن مما حضر برأيك .

فقال : يا أمير المؤمنين ، توضع الأعطية .

فقال له : فهذا ما أرادوا ، وفيه مع ما خرجوا اليه ما يعلم .

قال : يا أمير المؤمنين ، مر بهذا فان الرأي بعده .

فأمر عبيد الله بن يحيى بوضع الأعطية فيهم .

فلما خرج المال وبدىء بانفاقه ، دخل رجاء فقال : مر الآن يا أمير المؤمنين بضرب الطبل بالرحيل الى العراق ، فانهم لا يأخذون مما أخرج اليهم شيئا .

ففعل ذلك . فترك الناس الأعطية ، فرجعوا حتى ان المعطى ليتعلق بالرجل ليعطيه رزقه فلا يأخذه .

الأتراك يدبرون وقيعة

قال سعيد : وقد كان الأتراك قد رأوا أنهم يقتلون المتوكل بدمشق ، فلم يمكنهم فيه حيلة بسبب بغا الكبير ، فانهم دبروا في ابعاده عنه ، فطرحوا في مضرب المتوكل الرقاع يقولون فيها ، ان بغا دبر أن يقتل امير المؤمنين والعلامة في ذلك ان يركب في يوم كذا في خيله ورجله ، فيأخذ عليه أطراف عسكره ، ثم يأخذ جماعة من الغلمان العجم يدخلون عليه فيفتكون به .

فقرأ المتوكل الرقاع فبهت مما تضمنته ، ودخل في قلبه من بغا كل مدخل ، وشكا الى الفتح ذلك ، وقال له في أمر بغا والأقدام عليه ، وشاوره في ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ان الذي كتب الرقاع قد جعل للأمر دلائل في وقت بعينه سماه له من ركوب الرجل بالأطراف من العسكر وتوكيله بنواحيه ، وبعد ذلك يتبين الأمر ، وأنا أرى أن تمسك ، فان صح هذا الدليل نظرنا كيف نفعل ، وان بطل ما كتب به فالحمد لله .

وأقبلت الرقاع تطرح في كل وقت على جهة التنصح ، وأن في أعناق من كتبها بيعة لم يجد معها بدا من النصح والصدق .

فلما علموا بما علم به الخليفة وتمكن به ما عندهم من الأمر كتبوا رقاعا فطرحوها في مضرب بغا يقولون فيها : ان جماعة من الغلمان والأتراك قد عزموا على الفتك بالخليفة في عسكره ، ودبروا ذلك ، واتفقوا عليه ، وتعاقدوا على أن يأتوه من نواحي كذا ، ونواحي كذا ، فالله الله الا ما احترست لأمير المؤمنين ، وحرسته في هذه الليلة من هذه المواضع ، وحصنتها بنفسك ومن تثق به ، فانا قد نصحنا وصدقنا .

وأكثروا طرح الرقاع بهذا المعنى والتوكيد في حراسة الخليفة .

فلما وقف بغا عليها وتتابعت عليه ، لم يأمن أن يكون ما كتب اليه فيها حقا ، مع ما كان وقع عليه من الأمر قبل ذلك .

فلما كانت الليلة التي ذكروها جمع جيوشه وأمرهم بالركوب بالسلاح وركب بهم الى المواضع التي ذكرت ، فأخذها على المتوكل وحرسها ، واتصل الخبر بالمتوكل فلم يشك أن ما كتب له حق ، فأقبل يتوقع من يوافيه فيفتك به ، وسهر ليلته ، وامتنع من الأكل والشرب ، فلم يزل على تلك الحال الى الغداة وبغا يحرسه ، والأمر عند المتوكل على خلاف ذلك ، وقد اتهم بغا ، واستوحش من فعله .

فلما عزم المتوكل على الانصراف قال له : يا بغا ، قد أبت نفسي مكانك مني ، ورأيت أن أقلدك هذا الصقع وأقر عليك ما كان لك من رزق وحباء ونزل ومعونة وكل سبب .

فقال : أنا عبدك يا أمير المؤمنين فافعل ما شئت ، وأمرني بما أحببت ، فخلفه بالشام وانصرف ، فأحدث الموالي عليه ما أحدثوا ، فلم يعلم المتوكل وجه الحيلة ، ولم يعلم كل واحد منهما الحيلة في ذلك الى أن تمت الحيلة .

تدبير المؤامرة ضد المتوكل

قال : ولما عزم بغا الصغير على قتل المتوكل دعا بباغر التركي ، وكان قد اصطنعه واتخذه وملأ عينه من الصلات ، وكان مقداما أهوج ، فقال له : يا باغر أنت تعلم محبتي لك ، وتقديمي أياك ، وايثاري لك ، واحساني اليك ، واني قد صرت عندك في حد من لا يعصى له أمر ، ولا يخرج عن محبته ، وأريد أن آمرك بشيء فعرفني كيف قلبك فيه .

فقال : أنت تعلم كيف أفعل ، فقل لي ما شئت حتى أفعله .

قال : إن ابني فارس قد أفسد علي عملي وعزم على قتلي وسفك دمي ، وقد صح عندي ذلك منه .

قال : فتريد مني ماذا ؟

قال : أريد أن يدخل علي غدا ، فالعلامة بيننا أن أضع قلنسوتي في الأرض فاذا أنا وضعتها في الأرض فاقتله .

قال : نعم ، ولكن أخاف أن يبدو لك أو تجد في نفسك علي .

قال : قد آمنك اللّه من ذلك .

فلما دخل فارس حضر باغر ووقف موقف الضارب ،فلم يزل يراعي بغا أن يضع قلنسوته فلم يفعل ، وظن أنه نسي ، فغمزه بعينه أن افعل ؟

قال : لا .

فلما لم ير العلامة وانصرف فارس قال له بغا : اعلم أني فكرت في أنه حدث ، وأنه ولدي ، وقد رمت أن استخلصه هذه المرة .

فقال له باغر : أنا قد سمعت وأطعت وأنت أعلم وما دبرت وقدرت عليه فيه صلاحه .

ثم قال له : وههنا أمر أكبر من ذلك وأهم فعرفني كيف تريد أن تكون فيه ؟

قال له : قل ما شئت حتى أفعله .

قال : أخي وصيف قد صح عندي أنه يدبر علي وعلى رفقائي ، وأن مكاننا قد ثقل عليه وأنه عول على أن يقتلنا ويفنينا وينفرد بالأمور .

قال : فماذا تريد أن يصنع به ؟

قال : افعل هذا فانه يصير الى غدا فالعلامة ان انزل عن المصلى الذي يكون معي قاعدا عليه ، فاذا رأيتني نزلت عنه فضع سيفك عليه واقتله .

قال : نعم .

فلما صار وصيف الى بغا حضر باغر وقام مقام المستعد ، فلم ير العلامة حتى قام وصيف وانصرف .

قال : فقال له بغا : يا باغر ، اني فكرت في أنه أخي ، وأني قد عاقدته وحلفت له ، فلم استجز أن أفعل ما دبرته ، ووصله وأعطاه .

ثم أنه امسك عنه مدة مديدة ودعا به ، فقال : يا باغر ، قد حضرت حاجة أكبر من الحاجة التي قدمتها فكيف قلبك ؟

قال : قلبي على ما تحب فقل ما شئت حتى أفعله .

فقال : هذا المنتصر قد صح عندي أنه على ايقاع التدبير علي وعلى غيري حتى يقتلنا ، وأريد أن أقتله فكيف ترى نفسك في ذلك ؟ ففكر باغر في ذلك ونكس رأسه طويلا وقال : هذا لا يجيء منه شيء .

قال : وكيف ؟

قال : يقتل الابن والأب باق ؟ اذن لا يستوي لكم شيء ويقتلكم أبوه كلكم به .

قال : فما ترى عندك ؟

قال : نبدأ بالأب أولا فنقتله ، ثم يكون أمر الصبي أيسر من ذلك .

فقال له : ويحك ويفعل هذا ويتهيأ ؟

قال : نعم أفعله وادخل عليه حتى اقتله .

فجعل يردد عليه ، فيقول : لا تفعل غير هذا .

ثم قال له : فادخل أنت في أثري فان قتلته والا فاقتلني وضع سيفك علي ، وقل : أراد أن يقتل مولاه ، فعلم بغا حينئذ أنه قاتله ، وتوجه له في التدبير في قتل المتوكل .

وفاة شجاع أم المتوكل

وفي سنة سبع وأربعين ومائتين توفيت شجاع أم المتوكل ، وصلى عليها المنتصر ، وذلك في شهر ربيع الآخر .

مقتل المتوكل

ثم قتل المتوكل بعد وفاتها بستة أشهر ، ليلة الأربعاء لثلاث ساعات خلت من الليل ، وذلك لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين ، وقيل : لأربع خلون من شوال

سنة سبع وأربعين . وكان مولده بفم الصلح .

حدث البحتري قال : اجتمعنا ذات ليلة مع الندماء في مجلس المتوكل . فتذاكرنا أمر السيوف ، فقال بعض من حضر : بلغني يا أمير المؤمنين أنه وقع عند رجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له نظير ، ولم ير مثله .

فأمر المتوكل بكتاب الى عامل البصرة يطالبه بشرائه بما بلغ ، فنفذت الكتب على البريد ، وورد جواب عامل البصرة بأن السيف اشتراه رجل من أهل اليمن ، فأمر المتوكل بالبعث الى اليمن يطلب السيف وابتياعه ، فنفذت الكتب بذلك .

وقال البحتري : فبينا نحن عند المتوكل اذ دخل عليه عبيد الله بن يحيى والسيف معه ، وعرفه أنه ابتيع من صاحبه باليمن بعشرة آلاف درهم ، فسر بوجوده ، وحمد الله على ما سهل من أمره ، وانتضاه فاستحسنه ، وتكلم كل واحد منا بما يحب ، وجعله تحت ثنى فراشه .

فلما كان من الغداة قال للفتح : اطلب لي غلاما تثق بنجدته وشجاعته أدفع له هذا السيف ليكون واقفا به على رأسي لا يفارقني في كل يوم ما دمت جالسا .

قال : فلم يستتم الكلام حتى أقبل باغر التركي فقال الفتح : يا أمير المؤمنين ، هذا باغر التركي قد وصف الي بالشجاعة والبسالة ، وهو يصلح لما أراد أمير المؤمنين .

فداعا به المتوكل ، فدفع اليه السيف ؛ وأمره بما أراد ، وتقدم أن يزاد في مرتبته ، وأن يضعف له الرزق .

قال البحتري : فوالله ما انتضى ذلك السيف ولا خرج من غمده من الوقت الذي دفع اليه الا في الليلة التي ضربه فيها باغر بذلك السيف .

قال البحتري ؛ لقد رأيت من المتوكل في الليلة التي قتل فيها عجبا ، وذلك أننا تذاكرنا أمر الكبر ، وما كانت تستعمله الملوك من الجبرية ، فجعلنا نخوض في ذلك وهو يتبرأ منه ، ثم حول وجهه الى القبلة فسجد وعفر وجهه بالتراب خضوعا لله عز وجل ، ثم اخذ من ذلك التراب فنثره في لحيته ورأسه ، وقال : أنما أنا عبد الله ، وان من صار الى التراب لحقيق أن يتواضع ولا يتكبر .

قال البحتري : فتطيرت له من ذلك ، وأنكرت ما فعله من نثره التراب على رأسه ولحيته .

ثم قعد للشراب ، فلما عمل فيه غنى من حضره من المغنين صوتا استحسنه ، ثم التفت الى الفتح فقال : يا فتح ؟ ما بقي أحد سمع هذا الصوت من مخارق غيري وغيرك ، ثم أقبل على البكاء .

قال البحتري : فتطيرت من بكائه ، وقلت : هذه ثانية .

فانا في ذلك اذ أقبل خادم من خدم قبيحة ومعه منديل وفيه خلعة وجهت بها اليه قبيحة ، فقال له الرسول : يا أمير المؤمنين ، تقول لك قبيحة : اني استعملت هذه الخلعة لأمير المؤمنين ، واستحسنتها ووجهت بها لتلبسها .

قال : فاذا فيه دراعة حمراء لم أر مثلها قط ، ومطرف خز أحمر كأنه دبيقي من رقته ، قال : فلبس الخلعة والتحف بالمطرف .

قال البحتري : فتصيدت لأبدره بنادرة تكون سببا لأخذ المطرف ، فاني على ذلك اذ تحرك المتوكل فيه وقد كان التف عليه المطرف فجذبه جذبة فخرقه من طرفه الى طرفه ، قال : فأخذه ولفه ودفعه الى خادم قبيحة الذي جاءه بالخلعة ، وقال : قل لها احتفظي بهذا المطرف عندك ليكون كفنا لي عند وفاتي .

فقلت في نفسي : انا لله وانا اليه راجعون ، انقضت والله المدة .

وسكر المتوكل سكرا شديدا .

قال : وكان من عادته أنه اذا تمايل عند سكره أن يقيمه الخدم الذين عند رأسه .

قال : فبينا نحن كذلك ومضى نحو ثلاث ساعات من الليل اذ أقبل باغر ومعه عشرة نفر من الأتراك وهم متلثمون والسيوف في أيديهم تبرق في ضوء تلك الشمع ، فهجموا علينا ، وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر وآخر معه من الأتراك على السرير ، فصاح بهم الفتح : ويلكم ! مولاكم .

فلما رآهم الغلمان ومن كان حاضرا من الجلساء والندماء تطايروا على وجوههم ، فلم يبق أحد في المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمانعهم .

قال البحتري : فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف الذي كان المتوكل دفعه اليه على جانبه الأيمن ، فقده الى خاصرته ، ثم ثناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك .

وأقبل الفتح يمانعهم عنه فبعجه واحد منهم بالسيف الذي كان معه في بطنه فأخرجه من متنه ، وهو صابر لا يتنحى ولا يزول .

قال البحتري : فما رأيت أحدا كان أقوى نفسا ولا أكرم منه ، ثم طرح بنفسه على المتوكل ، فماتا جميعا ، فلفا في البساط الذي قتلا فيه ، وطرحا ناحية .

فلم يزالا على حالتهما في ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت الخلافة للمنتصر ، فأمر بهما فدفنا جميعا ، وقيل : ان قبيحة كفنته بذلك المطرف المخرق بعينه .

وقد كان بغا الصغير توحش من المتوكل فكان المنتصر يجتذب قلوب الأتراك ، وكان

أوتامش غلام الواثق مع المنتصر ، فكان المتوكل يبغضه لذلك .

وكان أوتامش يجتذب قلوب الأتراك الى المنتصر ، وعبيد الله بن خاقان الوزير والفتح ابن خاقان منحرفين عن المنتصر مائلين الى المعتز ، وكانا قد أوغرا قلب المتوكل على المنتصر ، فكان المنتصر لا يبعد المتوكل أحدا من الأتراك الا اجتذبه ، فاستمال قلوب الأتراك وكثير من الفراعنة والأشروسية ، الى أن كان من الأمر ما ذكرناه .

وقد ذكر في كيفية قتل المتوكل غير ما ذكرنا ، وهذا ما اخترناه في هذا الموضع ، اذ كان احسن ألفاظا وأقرب مأخذا ، وقد أتينا على جميع ما قيل في ذلك في الكتاب الأوسط ، فأغنى ذلك عن تكراره في هذا الكتاب .

ولم يكن المتوكل يوما أشد سرورا منه في اليوم الذي قتل فيه ، فلقد أصبح في هذا اليوم نشيطا فرحا مسرورا ، وقال : كأني أجد حركة الدم ، فاحتجم في ذلك اليوم ، وأحضر الندماء والملهين ، فاشتد سروره ، وكثر فرحه ، فانقلب ذلك الفرح ترحا والسرور حزنا .

فمن ذا الذي يغتر بالدنيا ، ويسكن اليها ، ويأمن الغدر والنكبات فيها الا جاهل مغرور ؟ فهي دار لا يدوم نعيمها ، ولا يتم فيها سرور ، ولا يؤمن فيها محذور ، قد قرنت منها السراء بالضراء ، والشدة بالرخاء ، والنعيم بالبلوى ثم يتبعها الزوال ، فمع نعيمها البؤس ، ومع سرورها الحزن ، ومع محبوبها المكروه ، ومع صحتها السقم ، ومع حياتها الموت ، ومع فرحاتها الترحات ، ومع لذاتها الآفات ، عزيزها ذليل ، وقويها مهين ، وغنيها محروب ، وعظيمها مسلوب ، ولا يبقى الا الحي الذي لا يموت ولا يزول ملكه وهو العزيز الحكيم ، وفي ذلك يقول البحتري في غدر المنتصر بأبيه ، وفتكه به ، من قصيدة له :

أكان ولي العهد أضمر غدرة ... فمن عجب أن ولي العهد غادره
فلا ملي الباقي تراث الذي مضى ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره

وصف أيام المتوكل

وكانت أيام المتوكل في حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها ، أيام سراء لا ضراء . كما قال بعضهم : كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ، ورخص السعر ، وأماني الحب ، وأيام الشباب . وقد أخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال :

قربك اشهى موقعا عندنا من لين السعر وأمن السبيل
ومن ليالي الحب موصولة بطيب أيام الشباب الجميل

***

قال المسعودي : وقد قيل : انه لم تكن النفقات في عصر من الأعصار ولا وقت من الأوقات مثلها في أيام المتوكل .

ويقال : انه أنفق على الهاروني والجوسق الجعفري أكثر من مائة ألف ألف درهم ، هذا مع كثرة الموالي والجند والشاكرية ودرور العطاء لهم وجليل ما كانوا يقبضونه في كل شهر من الجوائز والهبات .

ويقال : انه كان له أربعة آلاف سرية وطئهن كلهن ، ومات وفي بيوت الأموال أربعة آلاف ألف دينار ، وسبعة آلاف ألف درهم ، ولا يعلم أحد في صناعته في جد ولا هزل الا وقد حظي في دولته ، وسعد بأيامه ، ووصل اليه نصيب وافر من ماله .

الحسين الخليع بين يدي المتوكل

وذكر محمد بن أبي عون قال : حضرت مجلس المتوكل علي الله في يوم نيروز ، وعنده محمد بن عبد الله بن طاهر ، وبين يديه الحسين بن الضحاك الخليع الشاعر ، فغمز المتوكل خادما على رأسه حسن الصورة ان يسقي الحسين كأسا ويحييه بتفاحة عنبر ، ففعل ذلك ، ثم التفت المتوكل الى الحسين فقال : قل فيه أبياتا ، فأنشأ يقول :

وكالدرة البيضاء حيا بعنبر من الورد يسعى في قراطق كالورد
له عبثات عند كل تحية بعينيه تستدعي الخلي الى الوجد
تمنيت ان أسقى بكفيه شربة تذكرني ما قد نسيت من العهد
سقى الله دهرا لم أبت فيه ساعة من الليل الا من حبيب على وعد

قال المتوكل : أحسنت والله ، يعطى لكل بيت مائة دينار .

فقال محمد بن عبد الله : ولقد أجاب فأسرع ، وذكر فأوجع ، ولولا أن يد أمير المؤمنين لا تطاولها يد لأجزلت له العطاء ولو بالطارف والتالد .

فقال المتوكل عند ذلك : يعطى لكل بيت ألف دينار .

قال : ويروى أنه لما أتي بمحمد بن المغيث الى المتوكل وقد دعا له بالنطع والسيف ، قال له : يا محمد ما دعاك الى المشاقة ؟

قال : الشقوة يا أمير المؤمنين ، وأنت ظل اللّهالممدودبينه وبين خلقه ، وان لي فيك لظنين أسبقهما الى قلبي أولاهما بك ، وهو العفوعن عبدك ، وأنشأ يقول :

أبى الناس الا انك اليوم قاتلي — أمام الهدى ، والعفو بالحر أجمل
وهل أنا الا جبلة من خطيئة — وعفوك من نور النبوة يجمل
تضاءل ذنبي عند عفوك قلة — فمن لي بفضل منك والمن أفضل
لأنك خير السابقين الى العلا — وانك خير الفعلتين ستفعل

فقال المتوكل : أفعل خيرهما ، وأمن عليك ، ارجع الى منزلك .
قال ابن المغيث : يا أمير المؤمنين ، الله أعلم حيث يجعل رسالته .

من رثاء المتوكل

ولما قتل المتوكل رثته الشعراءفممنرثاه علي بن الجهم ، فقال من قصيدة له :

عبيد أمير المؤمنين قتلنه — وأعظم آفات الملوك عبيدها
بني هاشم ، صبراً فكل مصيبة — سيبلى على وجه الزمان جديدها

وفيه يقول يزيد بن محمد المهلبي من قصيدة طويلة :

جاءت منيته والعين هاجعة — هلا أتته المنايا والقنا قصد
علتك أسياف من لا دونه أحد — وليس فوقك الا الواحد الصمد
خليفة لم ينل ما ناله أحد — ولم يصغ مثله روح ولا جسد

وفيه يقول بعض الشعراء :

سرت ليلا منيته اليه — وقد خلى مناعمه وناما
فقالت : قم ، فقام ، وكم أقامت — أخا ملك الى هلك فقاما

وفيه يقول الحسين بن الضحاك الخليع :

إن الليالي لم تحسن الى احد — الا أساءت اليه بعد احسان

أما رأيت خطوب الدهر ما فعلت   بالهاشمي وبالفتح بن خاقان

محبوبة جارية المتوكل

وذكر علي بن الجهم قال : لما أفضت الخلافة الى أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله ، أهدى اليه الناس على أقدارهم . وأهدى اليه ابن طاهر هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف ، وفي الهدية جارية يقال لها محبوبة كانت لرجل من أهل الطائف قد أدبها وثقفها وعلمها من صنوف العلم ، وكانت تقول الشعر وتلحنه وتغني به على العود ، وكانت تحسن كل ما يحسنه علماء الناس ، فحسن موقعها من المتوكل ، وحلت من قلبه محلا جليلا لم يكن أحد يعدلها عنده .

قال علي : فدخلت عليه يوما للمنادمة ، فلما استقر بي المجلس قام فدخل بعض المقاصير ، ثم خرج وهو يضحك ، فقال لي : ويلك يا علي ، دخلت فرأيت قينة قد كتبت في خدها بالمسك جعفرا فما رأيت أحسن منه ، فقل فيه شيئا .

فقلت : يا سيدي ، وحدي أو أنا ومحبوبة ؟

قال . لا، بل أنت ومحبوبة .

قال : فدعت بدواة وقرطاس ، فسبقتني الى القول ، ثم أخذت العود فترنمت ثم خفقت عليه حتى صاغت له لحنا وتضاحكت منه مليا ، ثم قالت : يا أمير المؤمنين ، أتأذن لي ؟

فأذن لها ، فغنت :

وكاتبة في الخد بالمسك جعفرا	بنفسي محط المسك من حيث أثرا
لئن أودعت خطا من المسك خدها	لقد أودعت قلبي من الوجد أسطرا
فيا من لمملوك يظل مليكه	مطيعا له فيما أسر وأجهرا
ويا من لعيني من رأى مثل جعفر	سقى الله صوب المستهلات جعفرا

قال علي : وتبلدت خواطري حتى كأني ما أحسن حرفا من الشعر .

قال : فقال لي المتوكل : ويلك يا علي ! ما أمرتك به .

فقلت : يا سيدي أقلني فوالله لقد عزب عن ذهني ، فلم يزل يضرب به على رأسي ويعيرني به الى أن مات .

قال علي : ودخلت عليه أيضا لأنادمه ، فقال لي : ويلك يا علي ، علمت أني غاضبت محبوبة ، وأمرتها بلزوم مقصورتها ، ونهيت الحشم عن الدخول اليها ، وأنفت من كلامها ؟

فقلت : يا سيدي ، إن كنت غاضبتها اليوم فصالحها غدا ويديم الله سرور أمير المؤمنين ، ويمد في عمره .

قال : فأطرق مليا ، ثم قال للندماء : انصرفوا ، وأمر برفع الشراب ، فرفع .

فلما كان من غد دخلت اليه فقال : ويلك يا علي ، اني رأيت البارحة في النوم أني قد صالحتها .

فقالت جارية يقال لها شاطر كانت تقف أمامه : والّله لقد سمعت الساعة في مقصورتها هينمة لا أدري ما هي .

فقال لي : قم ويلك حتى ننظرّ ما هي .

فقام حافيا وقمت أتبعه حتى قربنا من مقصورتها ، فاذا هي تخفق عودا وتترنم بشيء كأنها تصوغ لحنا ، ثم رفعت عقيرتها وتغنت :

أدور في القصر لا أرى أحدا	أشكو اليه ولا يكلمني
حتى كأني أتيت معصية	ليس لها توبة تخلصني
فمن شفيع لنا الى ملك	قد زارني في الكرى وصالحني
حتى اذا ما الصباح عاد لنا	عاد الى هجره وصارمني

قال : فصفق المتوكل طربا فصفقت معه ، فدخل اليها فلم تزل تقبل رجل المتوكل وتمرغ خديها على التراب حتى أخذ بيدها ، ورجعنا وهي ثالثتنا .

قال علي : فلما قتل المتوكل ضمت هي وكثير من الوصائف الى بغا الكبير ، فدخلت عليه يوما للمنادمة ، فأمر بهتك الستارة ، وأمر بالقينات فأقبلن يرفلن في الحلى والحلل ، وأقبلت محبوبة حاسرة من الحلى والحلل عليها بياض ، فجلست مطرقة منكسة ، فقال لها وصيف : غني .

قال : فاعتلت عليه .

فقال : أقسمت عليك ، وأمر بالعود فوضع في حجرها ، فلما لم تجد بدا من القول تركت العود في حجرها ، ثم غنت عليه غناء مرتجلا :

أي عيش يلذ لي لا أرى فيه جعفرا

ملك قـــدرأيتـــه في نجيع معفرا
كل من كان ذا خبا ل وسقـم فقـد برا
غـير محبوبـة التـي لـو ترى الموت يشترى
لاشترتــه بمـا حوتــه يداهـا لتقبرا

قال : فغضب عليها وصيف وأمر بسجنها ، فسجنت ، وكان آخر العهد بها .

وفاة جماعة من أهل العلم

قال المسعودي : ومات في خلافة المتوكل جماعة من أهل العلم ونقلة الآثار وحفاظ الحديث : منهم علي بن جعفر المديني بسامرا يوم الاثنين لثلاث بقين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين ومائتين ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة وأشهر .

وتنوزع في السنة التي مات فيها ابن المديني وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب السنة التي قيل فيها ان وفاته كانت فيها .

وفي هذه السنة مات أبو الربيع بن الزهراني ، وقد تنوزع في السنة التي مات فيها يحيى بن معين ، فمنهم من رأى ما قدمنا في هذا الكتاب ، ومنهم من رأى ـ وهو الأكثر ـ أنه مات في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ، ويكنى بأبي زكريا مولى بني مرة ، وقد بلغ من السن خمسا وسبعين سنة وأشهرا ، بالمدينة .

وقيل : إن في هذه السنة كانت وفاة أبي الحسن علي بن محمد المدائني الأخباري ، وقيل : مات في أيام الواثق في سنة ثمان وعشرين ومائتين ، وفيها كانت وفاة مسدد بن مسرهد ، واسمه عبد الملك بن عبد العزيز .

وفيها مات الحماني الفقيه ، وابن عائشة واسمه عبد الله بن محمد بن حفص ، ويكنى بأبي عبد الرحمن ، وهو من تيم قريش .

وفي خلافة المتوكل مات هدبة بن خالد ، وشيبان بن فروخ الأبلى ، وابراهيم بن محمد الشافعي ، وذلك في سنة ست وثلاثين ومائتين .

وفي سنة سبع وثلاثين ومائتين مات العباس بن الوليد النرسي بالبصرة ، وعبد الّله بن احمد النرسي ، وعبيد الّله بن معاذ العنبري .

وفي سنة ثمان وثلاثين ومائتين مات اسحاق بن ابراهيم المعروف بابن راهويه وبشر ابن الوليد القاضي الكندي صاحب أبي يوسف ، وقد قيل : إن في هذه السنة مات العباس ابن الوليد النرسي .

وفي سنة تسع وثلاثين ومائتين مات عثمان بن أبي شيبة الكوفي بالكوفة ، والصلت بن

مسعود الجحدري .

وفي ستة أربعين ومائتين مات شباب بن خليفة العصفري ، وعبد الواحد بن عتاب .

وفي سنة ثلاث وأربعين ومائتين مات هشام بن عمار الدمشقي ، وحميد بن مسعود الناجي ، وعبد الله بن معاوية الجمحي . وفيها مات يحيى بن أكثم القاضي في الربذة ، ومحمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب .

وفي سنة ست وأربعين ومائتين مات محمد بن المصطفى الحمصي ، وعنبسة بن اسحاق ابن شمر ، وموسى بن عبد الملك .

***

قال المسعودي : وللمتوكل اخبار وسير حسان غير ما ذكرنا ، وقد أتينا عليها على الشرح والايضاح في كتابنا « أخبار الزمان » ، والله الموفق للصواب .

ذِكرُ خِلافَة المنتَصِر بالله
محمَّد بن جَعفَر بن محمَّد بن هَارون الرَّشيْد

موجز

وبويع محمد بن جعفر المنتصر في صبيحة الليلة التي قتل فيها المتوكل ، وهي ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين .

ويكنى بأبي جعفر ، وأمه أم ولد يقال لها حبشية ، رومية .

واستخلف وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وكانت بيعته بالقصر المعروف بالجعفري الذي أحدث بناءه المتوكل .

ومات سنة ثمان وأربعين ومائتين ، وكانت خلافته ستة أشهر .

ذكر جمل من أخباره وسيره
ولمع مما كان في أيامه

الموضع الذي قتل فيه المتوكل

كان الموضع الذي قتل فيه المتوكل هو الموضع الذي قتل فيه شيرويه أباه كسرى أبرويز ، وكان الموضع يعرف بالماخورة ، وكان مقام المنتصر بعد أبيه في الماخورة سبعة أيام ، ثم انتقل عنه وأمر بتخريب ذلك الموضع .

وحكى عن أبي العباس محمد بن سهل قال : كنت أكتب لعتاب بن عتاب على ديوان جيش الشاكرية في خلافة المنتصر ، فدخلت الى بعض الأروقة ، فاذا هو مفروش ببساط سوسنجرد ومسند ومصلى ووسائد بالحمرة والزرقة ، وحول البساط دارات فيها أشخاص ناس وكتابة بالفارسية ، وكنت أحسن القراءة بالفارسية .

واذا عن يمين المصلى صورة ملك ، وعلى رأسه تاج كأنه ينطق ، فقرأت الكتابة فاذا هي « صورة شيرويه القاتل لأبيه أبرويز الملك ملك ستة أشهر » ، ثم رأيت صور ملوك شتى .

ثم انتهى بي النظر الى صورة عن يسار المصلى عليها مكتوب « صورة يزيد بن الوليد ابن عبد الملك قاتل ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ملك ستة أشهر » .

فتعجبت من ذلك واتفاقه عن يمين مقعد المنتصر وعن شماله ، فقلت : لا أرى يدوم ملكه أكثر من ستة أشهر ، فكان والله كذلك .

فخرجت من الرواق الى مجلس وصيف وبغا ، وهما في الدار الثانية ، فقلت

لوصيف : أعجز هذا الفراش أن يفرش تحت أمير المؤمنين الا هذا البساط الذي عليه صورة يزيد بن الوليد قاتل ابن عمه وصورة شيرويه قاتل أبيه أبرويز ، وعاشا ستة أشهر بعد ما قتلا .

فجزع وصيف من ذلك وقال : علي بأيوب بن سليمان النصراني خازن الفرش ، فمثل بين يديه ، فقال له وصيف : لم تجد ما يفرش في هذا اليوم تحت أمير المؤمنين الا هذا البساط الذي كان تحت المتوكل ليلة الحادثة وعليه صورة ملك الفرس وغيره ، وقد كان نالته آثار من الدماء ؟

قال : سألني أمير المؤمنين المنتصر عنه ، وقال : ما فعل البساط ؟

فقلت : عليه آثار دماء فاحشة ، وقد عزمت ألا أفرشه من ليلة الحادثة .

فقال : لم لا تغسله وتطويه ؟

فقلت : خشيت أن يشيع الخبر عند من يرى ذلك البساط من أثر الحادثة .

فقال : ان الأمر أشهر من ذلك ، يريد قتل الأتراك لأبيه المتوكل ، فطويناه وبسطناه تحته .

فقال وصيف وبغا : اذا قام أمير المؤمنين من مجلسه فخذه وأحرقه بالنار ، فلما قام أحرق بحضرة وصيف وبغا .

فلما كان بعد أيام قال لي المنتصر : افرش ذلك البساط الفلاني .

قلت : وأين ذلك البساط ؟

فقال : وما الذي كان من أمره ؟

فقلت : ان وصيفا وبغا أمراني باحراقه .

قال : فسكت ولم يعد في أمره شيئا الى أن مات .

وقد كان المنتصر طرب في هذه الأيام ، فدعا ببنان بن الحارث العواد ، وكان مطربا مجيدا ، وقد كان غضب عليه ، فأحضره فغناه :

لقد طال عهدي بالامام محمد … وما كنت أخشى أن يطول به عهدي
فأصبحت ذا بعد وداري قريبة … فياعجبا من قرب داري ومن بعدي
رأيتك في برد النبي محمد … كبدر الدجا بين العمامة والبرد
فيا ليت أن العيد عاد ليومه … فاني رأيت العيد وجهك لي يبدي

وكان ذلك ثاني يوم عيد الأضحى ، وقد كان المنتصر صلى بالناس في هذا العيد ، ومما

غنى به من الشعر للمنتصر في ذلك اليوم :

رأيتــك في المنــام أقــل بخلا وأطــوع منــك في غيــر المنام
فليت الصبــح باد ولا نراه وليت الليل آخــر ألف عام
ولــو أن النعــاس يبــاع بيعا لأغليت النعــاس على الأنام

ومن شعر المنتصر أيضا مما غنى بحضرته :

انــي رأيتــك في المنــام كأنما أعطيتنــي من ريق فيك البارد
وكأن كفــك في يدي ، وكأنما بتنــا جميعــا في لحــاف واحد
ثم انتبهــت ومعصماك كلاهما بيدي اليمــين ،وفى يمينك ساعدى
فظللــت يومــي كلــه متراقدا لأراك في نومــي ولســت براقد

وزير المنتصر ابن الخصيب

وقد كان استوزر أحمد بن الخصيب وندم على ذلك ، وكان نفى عبيدالله بن يحيى بن خاقان . وذلك أن أحمد بن الخصيب ركب ذات يوم فتظلم اليه متظلم بقصة ، فأخرج رجله من الركاب فزج بها في صدر المتظلم فقتله ، فتحدث الناس بذلك ، فقال بعض شعراء ذلك الزمان :

قال للخليفــة يا ابــن عم محمد اشــكل وزيرك ، انــه ركال
اشكله عن ركل الرجال فان ترد مــالا فعنــد وزيـرك الأمـوال

وزير المقتدر

قال المسعودي : ولو لحق هذا الشاعر الوزير حامد بن العباس في وزارته للمقتدر بالله لرأى منه قريبا مما ظهر من ابن الخصيب ، وذلك أنه خاطبه مخاطب ذات يوم ، فقلب ثيابه على كتفه ولكم حلقه .

ولقد دخلت عليه ذات يوم أم موسى القهرمانـة الهاشـمية أو غيرهـا من القهارمـة ،

فخاطبته في شيء من الأموال عن رسالة المقتدر ، فكان مما خاطبها به أن قال :

اضـــرطـــي والتقطـــي   واحســبـــي لا تغلــطي

فأخجلها ذلك ، فقطعها عما له قصدت ، فمضت من فورهـا الى المقتـدر والسيدة فأخبرتهما بذلك ، فأمر القيان أن يغنين ذلك اليوم بذلك الكلام ، وكان يوم طرب وسرور .

وقد أتينا على خبره وأخبار غيره من وزراء بني العباس وكتاب بني أمية الى هذا الوقت (هو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) في الكتاب الأوسط .

مرض المنتصر وموته

وأخبرت عن أبي العباس أحمد بن محمد بن موسى بن الفـرات قال : كان أحمـد بن الخصيب سيء الرأي في والدي ، وكان عاملا له ، فجاءني مخبر من خدم الخاصة فقال : ان الوزير قد ندب لأعمالكم فلانا ، وقد أمره في والدك بكل مكروه ، وأن يصادره على جملة من المال غليظة ، ذكرها .

فقعدت وعندي بعض أصدقائنـا من الكتـاب أبـادر بالكتـاب الى والـدي بذلك ، فاشتغلت عن جليسي الكاتب فاتكأ على الوسادة وغفا ، فانتبه مرعوبا ، وقـال : انـي قد رأيت رؤيا عجيبة : رأيت أحمد بن الخصيب واقفا في هذا الموضع وهو يقول لي : يمـوت الخليفة المنتصر الى ثلاثة أيام .

قال : قلت له : الخليفة في الميدان يلعب بالصولجان ، وهذه الرؤيا ضرب من البلغم والمرار وقد قدمنا الطعام .

فما استتممنا الكلام حتى دخل علينا داخل فقال : رأيت الوزير بدار الخاصة غـير مسفر الوجه ، واني سألت عن سبب ذلك فقيل لي : ان الخليفة المنتصر انصرف من الميدان وهو عرق ، فدخل الحمام ونام في الباذهنج فضربه الهواء ، وركبته حمى هائلة .

فدخل عليه أحمد بن الخصيب فقال له : يا سيدي ، أنت متفلسف وحكيم الزمـان تنزل من الركوب تبعا فتدخل الحمام ثم تخرج عرقا فتنام في الباذهنج .

فقال له المنتصر : أتخاف أن أموت ؟ رأيت في المنام البارحة آتيا أتاني فقال لي : تعيش خمسا وعشرين سنة ، فعلمت أن ذلك بشارة في المستقبل من عمري ، وأني أبقى في الخلافة هذه المدة .

قال : فمات في اليوم الثالث ، فنظروا فاذا هو قد استوفى خمسا وعشرين سنة .

وقد ذكر جماعة من أصحاب التواريخ أن المنتصر ضربته الريح يوم الخميس لخمس بقين

من شهر ربيع الأول .

ومات مع صلاة العصر لخمس ليال خلون من ربيع الآخر ، وصلى عليه أحمد بن محمد المستعين ، وكان أول خليفة من بني العباس أظهر قبره ، وذلك أن أمه حبشية سألت ذلك ، فأذن لها ، وأظهرته بسامرا .

الخلاف في سبب موت المتوكل

وقد قيل : إن الطيفوري الطبيب سمه في مشراط حجمه به ، وقد كان عزم على تفريق جمع الأتراك ، فأخرج وصيفا في جمع كثير الى غزاة الصائفة بطرسوس ، ونظر يوما الى بغا الصغير ـ وقد أقبل في القصر ، وحوله جماعة من الأتراك ـ فأقبل على الفضل بن المأمون ، فقال : قتلني الله ان لم أقتلهم وأفرق جمعهم ، بقتلهم المتوكل على الله .

فلما نظرت الأتراك الى ما يفعل بهم ، وما قد عزم عليه ، وجدوا منه الفرصة .

وقد شكا ذات يوم حرارة فأراد الحجامة ، فخرج له من الدم ثلثمائة درهم ، وشرب شربة بعد ذلك فحلت قواه ، ويقال : ان السم كان في مبضع الطبيب حين فصده .

وقد ذكر ابن أبي الدنيا عن عبدالملك بن سليمان بن أبي جعفر ، قال : رأيت في نومي المتوكل والفتح بن خاقان ، وقد أحاطت بهما نار ، وقد جاء محمد المنتصر فاستأذن عليهما ، فمنع الوصول ، ثم أقبل المتوكل علي ، فقال ، يا عبدالملك : قل لمحمد : بالكأس الذي سقيتنا تشرب .

قال : فلما أصبحت غدوت على المنتصر فوجدته محموما ، فواظبت على عيادته ، فسمعته في آخر علته يقول : عجلنا فعوجلنا. فمات من ذلك المرض .

من صفات المنتصر

وكان المنتصر واسع الاحتمال ، راسخ العقل ، كثير المعروف ، راغبا في الخير ، سخيا ، أديبا ، عفيفا ، وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق ، وكثرة الإنصاف ، وحسن المعاشرة ، بما لم يسبقه خليفة الى مثله .

وكان وزيره أحمد بن الخصيب قليل الخير ، كثير الشر ، شديد الجهل .

صنيع المنتصر بآل أبي طالب

وكان آل أبي طالب قبل خلافته في محنة عظيمة ، وخوفاً على دمائهم ، قد منعوا زيارة قبر الحسين والغرى من أرض الكوفة ، وكذلك منع غيرهم من شيعتهم حضور هذه المشاهد .

وكان الأمر بذلك من المتوكل سنة ست وثلاثين ومائتين ، وفيها أمر المعروف بالذيريج

بالسير الى قبر الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما وهدمه ومحو أرضه وازالة أثره ، وأن يعاقب من وجد به ، فبذل الرغائب لمن تقدم على هذا القبر ، فكل خشي العقوبة ، وأحجم .

فتناول الذيريج مسحاة وهدم أعالي قبر الحسين ، فحينئذ أقدم الفعلة فيه ، وأنهم انتهوا الى الحفرة وموضع اللحد فلم يروا فيه أثر رمة ولا غيرها .

ولم تزل الأمور على ما ذكرنا الى أن استخلف المنتصر ، فأمن الناس ، وتقدم بالكف عن آل أبي طالب ، وترك البحث عن أخبارهم ، وألا يمنع أحد زيارة الحيرة لقبر الحسين رضي الله تعالى عنه ، ولا قبر غيره من آل أبي طالب ، وأمر برد فدك الى ولد الحسن والحسين ، وأطلق أوقاف آل أبي طالب ، وترك التعرض لشيعتهم ودفع الأذى عنهم .

وفي ذلك يقول البحتري من أبيات له :

وان عليا لأولى بكم وأزكى يدا عندكم من عمر
وكل له فضله ، والحجو ل يوم التراهن دون الغرر

وفي ذلك يقول يزيد بن محمد المهلبي ـ وكان من شيعة آل أبي طالب ـ وما كان امتحن به الشيعة في ذلك الوقت وأغريت بهم العامة :

ولقد بررت الطالبية بعدما ذموا زمانا بعدها وزمانا
ورددت ألفة هاشم ، فرأيتهم بعد العداوة بينهم اخوانا
آنست ليلهم وجدت عليهم حتى نسوا الأحقاد والأضغانا
لو يعلم الأسلاف كيف بررتهم لرأوك أثقل من بها ميزانا

خلع اخويه من ولاية العهد

وفي سنة ثمان وأربعين ومائتين خلع المنتصر بالله أخويه المعتز وابراهيم من ولاية العهد بعده ، وقد كان المتوكل على الله أخذ لهم العهد في كتب كتبها وشروط اشترطها ، وأفرد لكل واحد منهم جزءا من الأعمال رسمه له وجعل ولي عهده والتالي لملكه محمدا المنتصر ، وتالي المنتصر وولي عهده المعتز ، وتالي المعتز وولي عهده ابراهيم المؤيد ، وأخذت البيعة على الناس بما ذكرنا ، وفرق فيها أموالا وعم الناس بالجوائز والصلات ، وتكلمت في ذلك الخطباء ، ونطقت به الشعراء .

فمما المختير من قولهم في ذلك قول مروان بن أبي الجنوب من قصيدة :

ثلاثــة أمــلاك ، فأمــا محمد　　فنور هدى يهدي به الله من يهدي
وأمــا أبــو عبــد الالــه فانه　　شبيهك في التقوى ويجدي كما تجدي
وذو الفضل ابراهيم للناس عصمة　　تقــيّ وفيّ بالــوعيد وبالوعد
فأولهــم نور ، وثانيهــم هدى ،　　وثالثهــم رشــد ، وكلهــم مهدي

وقوله للمتوكل مما أجاد فيه وأحسن :

يا عاشر الخلفــاء دمــت ممتعا　　بالملك تعقــد بعدهــم للعاشر
حتــى تكون امامهــم وكأنهم　　زهــر النجــوم دنــت لبــدر زاهر

وفي بيعة المتوكل لمن ذكرنا من ولده الثلاثة بولاية العهد يقول الشاعر المعروف بالسلمي من أبيات له :

لقد شد ركن الدين بالبيعة الرضا　　وطائــر سعــد جعفــر بن محمد
بمنتصر بالله أثبــت ركنه　　وأكد بالمعتــز قبــل المؤيد

وممن قال في ذلك فأحسن القول ، وأجاد النظـم ، ادريس بن أبـي حفصـة حيث يقول :

ان الخلافــة ما لهــا عن جعفر　　نورالهــدى وبنيه من تحويل
فاذا قضى منهــا الخليفــة جعفر　　وطــرا ومــلّ وليس بالمملول
فمحمــد بعــد الخليفــة جعفر　　للنــاس ـ لافقــدوه ـ خــير بديل
فبقــاء ملــكك وانتظــار محمد　　خــير لنــا ولــه من التعجيل

خروج الشاري باليمن

وقد كان خرج أيام المنتصر بناحية اليمن والبوازيج والموصل أبو العمود الشــاري ، فحكم واشتد أمره فيمن انضاف اليه من المحكمة من ربيعة وغيرهم من الأكراد ، فسرح اليه المنتصر جيشا عليهم سيا التركي ، فكانت له مع الشاري حروب ، فأسر الشاري ، وأتى به

المنتصر ، فجاد عليه بالعفو ، وأخذ عليه العهد وخلى سبيله .

وحكى عنه وزيره أحمد بن الخصيب بن الضحاك الجرجاني أنه قال حين رضي عن الشاري : ان لذة العفو أعذب من لذة التشفي ، وأقبح أفعال المقتدر الانتقام .

وأخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ، قال : رأى بعض الكتاب في المنام في الليلة التي استخلف في صبيحتها المنتصر كأن قائلا يقول :

هذا الامام المنتصر والملك الحادي عشر
وأمره اذا أمر كالسيف ما لاقى بتر
وطرفه اذا نظر كالدهر في خير وشر

وقد كان أظهر الانصاف في الرعية فمالت اليه قلوب الخاصة والعامة ، مع شدة الهيبة منها له .

خلق المنتصر

وحدثني أبو الحسن أحمد بن علي بن يحيى المعروف بابن النديم ، قال : حدثنا علي بن يحيى المنجم ، قال : ما رأيت أحدا مثل المنتصر ولا أكرم أفعالا بغير تبجح منه ، ولا تكلف ، لقد رآني يوما وأنا مغموم شديد الفكر بسبب ضيعة مجاورة لضيعتي ، وكنت أحب شراءها ، فلم أزل أعمل الحيلة عند مالكها حتى أجابني الى بيعها ، ولم يكن عندي في ذلك الوقت قيمة ثمنها .

فصرت الى المنتصر وأنا على تلك الحال ، فتبين الانكسار في وجهي ، وشغل القلب ، فقال لي : أراك مفكرا ، فما قضيتك ؟

فجعلت أزوي عنه خبري ، وأستر قصتي ، فاستحلفني ، فصدقته عن خبر الضيعة .

فقال لي المنتصر : فكم مبلغ ثمنها ؟

فقلت : ثلاثون ألف درهم .

قال : فكم عندك منها ؟

قلت : عشرة آلاف ، فأمسك عني ولم يجبني ، وتشاغل عني ساعة ، ثم دعا بدواة وبطاقة ، ثم وقع فيها بشيء لا أدري ما هو ، وأشار الى خادم كان على رأسه بما لم أفهم .

فمضى الغلام مسرعا ، وأقبل يشغلني بالحديث ويطاعمني الكلام ، الى أن أقبل الغلام فوقف بين يديه ، فنهض المنتصر وقال لي : يا علي ، اذا شئت فانصرف الى منزلك .

وقد كنت قدرت عند مسألته أنه سيأمر لي بالثمن أو نصفه ، فأتيت وأنا لا أعقل غما ، فلما وصلت الى داري استقبلني وكيلي فقال : ان خادم أمير المؤمنين صار الينا ومعه بغل عليه بدرتان ، فسلمهما الي وأخذ خطي بقبضهما .

قال : فداخلني من الفرح والسرور ما لم أملك به نفسي ، ودخلت وأنا لا أصدق قول الوكيل ، حتى أخرج الى البدرتين ، فحمدت الله تعالى على ما حباه لي ، ووجهت في وقتي الى صاحب الضيعة فوفيته الثمن ، وتشاغلت سائر يومي بتسليمها والاشهاد بها على البائع ، ثم بكرت الى المنتصر من الغد ، فما أعاد علي حرفا ، ولا سألني عن شيء من خبر الضيعة حتى فرق الموت بيننا .

حديث عن العشق

قال المسعودي : وذكر الفضل بن أبي طاهر في كتابه في أخبار المؤلفين قال : حدثني أبو عثمان سعيد بن محمد الصغير مولى أمير المؤمنين قال : كان المنتصر في أيام امارته ينادمه جماعة من أصحابه ، وفيهم صالح بن محمد المعروف بالحريري ، فجرى في مجلسه ذات يوم ذكر الحب والعشق ، فقال المنتصر لبعض من في المجلس : أخبرني عن أي شيء أعظم عند النفس فقدا ، وهي به أشد تفجعا ؟

قال : فقد خل مشاكل ، وموت شكل موافق .

وقال آخر ممن حضر : ما أشد جولة الرأي عند أهل الهوى ، وفطام النفس عند الصبا ، وقد تصدعت أكباد العاشقين من لوم العاذلين ، فلوم العاذلين قرط في آذانهم ، ولوعات الحب نيران في أبدانهم ، مع دموع المعاني ، كغروب السواني ، وانما يعرف ما أقول ، من أبكته المغاني والطلول .

وقال آخر : مسكين العاشق ، كل شيء عدوه : هبوب الرياح يقلقه ، ولمعان البرق يؤرقه ، والعذل يؤلمه ، والبعد ينحله ، والذكر يسقمه ، والقرب يهيجه ، والليل يضاعف بلاءه ، والرقاد يهرب منه ، ورسوم الدار تحرقه ، والوقوف على الطلول يبكيه . ولقد تداوت منه العشاق بالقرب والبعد ، فما نجع فيه دواء ، ولا هداه عزاء ، ولقد أحسن الذي يقول :

وقد زعموا أن المحب اذا دنا ... يمل ، وأن النأي يشفي من الوجد
لكل تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد

فكل قال ، وأكثر الخطب في ذلك ، فقال المنتصر لصالح بن محمد الحريري : يا

صالح ، هل عشقت قط ؟

قال : اي والله أيها الأمير ، وان بقايا ذلك لفي صدري .

قال : ويلك لمن ؟

قال : أيها الأمير ، كنت آلف الرصافة في أيام المعتصم ، وكانت لقينة أم ولد الرشيد جارية تخرج في حوائجها ، وتقوم في أمرها ، وتلقى الناس عنها ، وكانت قينة تتولى أمر القصر اذ ذاك ، وكانت الجارية تمر بي فأحتشمها وأعاينها ، ثم راسلتها فطردت رسولي وهددتني ، وكنت أقعد على طريقها لأكلمها ، فاذا رأتني ضحكت وغمزت الجواري بالعبث بي والهزء ، ثم فارقتها وفي قلبي منها نار لا تخمد ، وغليل لا يبرد ، ووجد يتجدد .

فقال له المنتصر : فهل لك أن أحضرها وأزوجكها ان كانت حرة أو أشتريها ان كانت أمة ؟

فقال : والله أيها الأمير ان بي الى ذلك أعظم الفاقة وأشد الحاجة .

قال : فدعا المنتصر بأحمد بن الخصيب ، وسأله أن يوجه له في ذلك غلاما من غلمانه منفردا ، ويكتب معه كتابا مؤكدا الى ابراهيم بن اسحاق وصالح الخادم المتولي لأمر الحرم بمدينة السلام .

فمضى الرسول ، وقد كانت قينة أعتقتها وخرجت من حد الجواري الى حد النساء البوالغ ، فحملها الى المنتصر .

فلما حضرت نظرت اليها ، فاذا عجوز قد حدبت وعنست وبها بقية من الجمال ، فقال لها : أتحبين أن أزوجك ؟

قالت : انما أنا أمتك أيها الأمير ومولاتك ، فافعل ما بدا لك .

فأحضر صالحا وأملكه بها وأمهرها ، ثم مزح به ، فأحضر جوزا مرصصا وفركا مخلقا ، فنثره عليه ، وأقامت مع صالح مدة طويلة ، ثم ملها ففارقها ، وقال يعقوب التمار في ذلك :

منح الله أبا الفضـ ... ـل حياة لا تنغص
وتولاه ، فقد با ... لغ في الحب وأخلص
عاشقا كان على التزو ... يج للعقد تحرص
من هوى من شعرها يخـ ... ـضب بالحنا المعفص
فتراه عندما ينصـ ... ـل كالبرد المحرص
فهي من أملح خلق الـ ... ـله في التاج المفصص

رزق الصبر عليها فتأتى وتربص
شيخة هام بها من وجده شيخ مقرفص
قرنصت في عهد نوح صاحب الفلك وقرنص
أي حظ نال لولا الـ فرك والجوز المرصص
ليته قد جعل الأمـ ر اليها وتخلص
فأبو الجوزان منها حين يدنو يتقلص

صنيعه مع عاشق

وذكر أبو عثمان سعيد بن محمد الصغير ، قال : كان المنتصر في أيام امارته وجهني الى مصر في بعض أموره للسلطان ، فعشقت جارية كانت لبعض النخاسين عرضت للبيع محسنة في الصنعة ، مقبولة في الخلقة ، قائمة على الوزن من المحاسن والكمال ، فساومت مولاها ، فأبى أن يبيعها الا بألف دينار ، ولم يكن ثمنها متهيئا معي ، فأزعجني السفر وقد علقها قلبي ، فأخذني المقيم المقعد من حبها ، وندمت على ما فاتني من شرائها .

فلما قدمت وفرغت مما وجهني اليه وأديت اليه ما عملت ، حمد أثري فيه ، وسألني عن حاجتي وخبري ، فأخبرته بمكان الجارية وكلفي بها ، فأعرض عني ، وجعل لا يزداد الا حدة ، وقلبي لا يزداد الا كلفا ، وصبري لا يزداد الا ضعفا ، وسليت نفسي عنها بغيرها ، فكأني أغريتها ، ولم تتسل عنها .

وجعل المنتصر كلما دخلت اليه وخرجت من عنده يذكرها ويهيج شوقي اليها ، وتحيلت اليه بندمائه وأهل الأنس به وخاص من يحظى من جواريه وأمهات أولاده وجدته أم الخليفة أن يشتريها لي ، وهو لا يجيبني الى ذلك ، ويعيرني بقلة الصبر .

وكان قد أمر أحمد بن الخصيب أن يكتب الى عامل مصر في ابتياعها وحملها اليه من حيث لا أعلم ، فحملت اليه وصارت عنده ، فنظر اليها وسمع منها ، فعذرني فيها ، ودفعها الى قيّمة جواريه ، فأصلحت من شأنها .

فلما كان يوما من الأيام استجلسني وأمرها أن تخرج الى الستارة .

فلما سمعت غناءها عرفتها ، وكرهت أني أعلمه أني قد عرفتها ، حتى ظهر في ما كتمت ، وغلب على صبري ، فقال : مالك يا سعيد ؟

قلت : خيرا أيها الأمير .

قال : فاقترح عليها صوتا كنت قد أعلمته أني سمعته منها ، وأني استحسنته من غنائها ، فغنته فقال : أتعرف هذا الصوت ؟

قلت : اي والله أيها الأمير ، وكنت أطمع في صاحبته ، فأما الآن فقد أيست منها ، وكنت كالقاتل نفسه بيده ، وكالجالب الحتف الى حياته .

فقال : والله يا سعيد ما اشتريتها الا لك ، ويعلم الله أني ما رأيت لها وجها الا ساعة دخلت عليها ، وقد استراحت من ألم السفر ، وخرجت من شحوبة التبذل ، فهي لك .

فدعوت له بما أمكنني من الدعاء ، وشكره عني من حضره من الجلساء ، وأمر بها فهيئت وحملت الي ، فردت الي حياتي بعد أن أشرفت على الهلكة ، ولا أحد عندي أحظى منها ولا ولد أحب الي من ولدها .

شهادة الحمير

ومن ملاحات أحاديث الملهين المجان ما ذكره أبو الفضل بن أبي طاهر قال : حدثني أحمد بن الحارث الجرار ، عن أبي الحسن المدائني وأبي علي الحرمازي ، قالا : كان بمكة سفيه يجمع بين الرجال والنساء على أفحش الريب ، وكان من أشراف قريش ، ولم يذكر اسمه .

فشكا أهل مكة ذلك الى الوالي ، فغربه الى عرفات ، فاتخذها منزلا ، ودخل الى مكة مستترا ، فلقي بها حرفاءه من الرجال والنساء فقال : وما يمنعكم مني ؟

فقالوا : وأين بك وأنت بعرفات ؟

فقال : حمار بدرهمين ، وصرتم الى الأمن والنزهة والخلوة واللذة .

قالوا : نشهد انك لصادق .

فكانوا يأتونه ، فكثر ذلك حتى أفسد على أهل مكة أحداثهم وحواشيهم ، فعادوا بالشكية الى أميرهم ، فأرسل اليه ، فأتى به ، فقال : أي عدو الله ، طردتك من حرم الله فصرت الى المشعر الأعظم ، تفسد فيه وتجمع بين الخبائث !

فقال : أصلح الله الأمير ! انهم يكذبون علي ويحسدونني .

فقالوا للوالي : بيننا وبينه واحدة ، تجمع حُمر المكارين وترسلها الى عرفات ، فان لم تقصد الى بيته لما تعودت من اتيان السفهاء والفجار اياه ، فالقول ما قال .

فقال الوالي : ان في هذا لدليلا ، وأمر بجمع الحُمُر ، فجمعت ثم أرسلت فقصدت منزله ، وأتاه أمناؤه فقال : ما بعد هذا شيء ، جردوه .

فلما نظر الى السياط قال : ولا بد من ضربي ؟

قال : لا بد يا عدو الله .

قال : اضرب فوالله ما في هذا شيء بأشد من أن يسخر بنا أهل العراق ، ويقولون :

آهل مكة يجيزون شهادة الحمير ، مع تقريعهم لنا بقبول شهادة الواحد مع يمين الطالب .

قال : فضحك الوالي ، وقال : لا أضربك اليوم ، وأمر بتخلية سبيله ، وترك التعرض له .

***

قال المسعودي : وللمنتصر بالله أخبار حسان وأشعار وملح ومنادمات ومكاتبات ومراسلات قبل الخلافة ، وقد أتينا على مبسوطها وما استحسناه منها مما لم نورده في هذا الكتاب في كتابنا « أخبار الزمان » من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة ، وكذلك في الكتاب الأوسط ، اذ كنا ما ضمناه كل كتاب منها لم نتعرض لذكره في الآخر ، ولو كان كذلك لم يكن بينها فرق ، وكان الجميع واحدا .

وسنورد بعد فراغنا من هذا الكتاب كتابا نضمنه فنونا من الأخبار على غير نظم من التأليف ، ولا ترتيب من التصنيف على حسب ما يسنح من فوائد الأخبار ونخلله بالآداب وفنون الآثار ، تاليا لما سلف من كتبنا ، ومعقبا لما تقدم من تصنيفنا ، ان شاء الله تعالى .

ذِكرُ خِلافَة المُستَعين بالله
أحمَد بن محمّد بن محمّد بن هَارون الرَشيْد

موجز

وبويع أحمد بن محمد بن المعتصم في اليوم الذي توفي فيه المنتصر ، وهو يوم الأحد لخمس خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين ، ويكنى بأبي العباس .

وكانت أمه أم ولد صقلبية يقال لها مخارق ، وخلع نفسه ، وسلم الخلافة الى المعتز .

فكانت خلافته ثلاث سنين وثمانية أشهر ، وقيل : ثلاث سنين وتسعة أشهر .

وكانت وفاته يوم الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، وقتل وهو ابن خمس وثلاثين سنة .

ذكر جمل من أخباره وسيره
ولمع مما كان في أيامه
وزراؤه وكتابه

واستوزر المستعين بالله أبا موسى أوتامش ، وكان المتولي لأمر الوزارة والقيم بها كاتبا لأوتامش يقال له شجاع بن القاسم .

وبعد أن قتل أوتامش وكاتبه شجاع صار على وزارته أحمد بن صالح بن شيرزاد .

ولما قتل وصيف وبغا ، باغر التركي ، تعصبت الموالي ، وانحدر وصيف وبغا الى مدينة السلام ، والمستعين معهما ، فأنزلاه دار محمد بن عبد الله بن طاهر ، وذلك في المحرم سنة احدى وخمسين ومائتين ، والمستعين لا أمر له ، والأمر لبغا ووصيف .

وكان من حصار بغداد ما ذكرناه في الكتاب الأوسط ، وفي المستعين بالله يقول بعض الشعراء في هذا العصر :

خليفــة في قفص بــين وصيف وبغا
يقــول ما قالا له كما يقــول الببغا

وقد كان المستعين نفى احمد بن الخصيب الى اقريطش سنة ثمان وأربعين ومائتين ، ونفى عبيد الله بن يحيى بن خاقان الى برقة ، واستوزر عيسى بن فرخانشاه ، وقلد سعيد بن حميد ديوان الرسائل .

سعيد بن حميد

وكان سعيد حافظا لما يستحسن من الأخبار ، ويستجاد من الأشعار ، متصرفا في فنون العلم ، ممتعا اذا حدث ، مفيدا اذا جولس ، وله أشعار كثيرة حسان ، فمما يستحسن ويختار من شعره قوله :

وكنت أخوفه بالدعاء   وأخشى عليه من المآثم
فلما أقام على ظلمه   تركت الدعاء على الظالم

وقوله :

أسيدتي ما لي أراك بخيلة   مقيم على الحرمان من يستزيدها
فأصبحت كالدنيا نذم صروفها   ونتبعها ذما ونحن عبيدها

وقوله :

اللّه يعلم والدنيا مولية   والعيش منتقل، والدهر ذو دول
فللفراق وان هاجت فجيعته   عليك أخوف في قلبي من الأجل
وكنت أفرح بالدنيا ولذتها   واليأس يحكم للأعداء في الأمل

وقوله :

وما كان حُبِّيها لأول نظرة   ولا غمرة من بعدها فتجلت
ولكنها الدنيا تولت، وما الذي   يسلي عن الدنيا اذا ما تولت

وقوله :

كأن انحدار الدمع حين تجيله   على خدها الريان در على در

الا أن سعيدا على ما وصفنا عنه من الأدب كان يتنصب ، ويظهر التسنن والتخيل ،

وظهر عنه الانحراف عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن الطاهرين من ولده ، وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

ما رأينا لسعيد بـ ن حميد من شبيه
ما له يؤذي رسول الله في شتم أخيه
انه الزنديق مستو ل على دين ابيه

وكان سعيد بن حميد من أبناء المجوس ، وفيه يقول بعض الشعراء ، وهو أبو علي البصير :

رأس من يدعي البلاغة مني ومن الناس كلهم في حر أمه
وأخونا ولست أعني سعيد بـ ن حميد تؤرخ الكتب باسمه

وكان لسعيد بن حميد وأبي علي البصير وأبي العيناء معاتبات ومكاتبات ومداعبات ، وقد أتينا على ذكرها في الكتاب الأوسط .

أبو علي البصير

وكان أبو علي البصير من أطبع الناس في زمانه ، لا يزال يأتي بالبيت النادر ، والمثل السائر ، الذي لا يأتي به غيره ، وكان ابن ميادة بسوء اختياره يرى أنه أشعر من جرير ، ويحسبه مقدما على أهل عصره ، وهو فوق نظرائه في وقته ، ودون البحتري، فمن مشهور شعره قوله في المعلى بن أيوب :

لعمر أبيك ما نسب المعلى الى كرم ، وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد اذا اقشعرت وصوح نبتها رعى الهشيم

ومما استحسن له من شعره قوله :

اذا ما اغتدت طلابة العلم ما لها من العلم الا ما يخلد في الكتب
غدوت بتشمير وجد عليهم فمحبرتي سمعي ، ودفترها قلبي

ومما استحسن من قوله ، وهو يريد الحج :

خرجنا نبتغي مكـ ـه حجاجا وعمارا
فلما شارف الحير ة راعي ابلي حارا
فقلت : احطط بها رحلي ولا تعبأ بمن جارا
فصادفنا بها لهوا وبستانا وخمارا
وظبيا عاقدا بين النـ ـقا والخصر زنارا
فما ظنك بالحلفا ء ان أشعلتها نارا

ظهور يحيى بن عمر الطالبي

وظهر في هذه السنة (وهي سنة ثمان وأربعين ومائتين) بالكوفة أبو الحسن يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن عبد اللّه بن اسماعيل بن عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب الطيار ، وأمه فاطمة بنت الحسين بن عبد اللّه بن اسماعيل بن عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب الطيار .

وقيل : إن ظهوره كان بالكوفة سنة خمسين ومائتين ، فقتل وحمل رأسه الى بغداد ، وصلب ، فضج الناس من ذلك ، لما كان في نفوسهم من المحبة له ، لأنه استفتح أموره بالكف عن الدماء ، والتورع عن أخذ شيء من أموال الناس ، وأظهر العدل والانصاف ، وكان ظهوره لذل نزل به ، وجفوة لحقته ، ومحنة نالته من المتوكل وغيره من الأتراك .

ودخل الناس الى محمد بن عبد اللّه بن طاهر يهنئونه بالفتح ، ودخل فيهم أبو هاشم الجعفري - وهو داود بن القاسم بن اسحاق بن عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب بينه وبين جعفر الطيار ثلاثة آباء - ولم يكن يعرف في ذلك الوقت أقعد نسبا في آل أبي طالب وسائر بني هاشم وقريش منه ، وكان ذا زهد وورع ونسك وعلم ، صحيح العقل ، سليم الحواس ، منتصب القامة ، وقبره مشهور ، وقد أتينا على خبره وما روي عنه من الرواية عن أبيه ومن شاهد من سلفه ، في كتاب « حدائق الأذهان » في أخبار آل النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فقال لابن طاهر : أيها الأمير ، انك لتهنأ بقتل رجل لو كان رسول اللّه عليه وسلم حيا لعزى به .

فلم يجبه محمد ، وخرج من داره وهو يقول : يا بني طاهر . . . البيتين .

وقد كان المستعين أمر بنصب الرأس ، فأمر ابن طاهر بانزاله لما رأى من الناس وما هم عليه .

وفي ذلك يقول أبو هاشم الجعفري :

يا بني طاهر كلوه وبيا ان لحم النبي غير مري
إن وترا يكون طالبه اللـ ـه لوتر بالفوت غير حري

وقد رثى أبو الحسين يحيى بن عمر بأشعار كثيرة ، وقد أتينا على خبر مقتله وما رثي به من الشعر في الكتاب الأوسط . ومما رثي به ما قاله فيه أحمد بن طاهر الشاعر من قصيدة طويلة :

سلام على الاسلام فهو مودع اذا ما مضى آل النبي فودعوا
فقدنا العلا والمجد عند افتقادهم وأضحت عروش المكرمات تضعضع
أتجمع عين بين نوم ومضجع ولابن رسول اللّه في الترب مضجع
فقد أقفرت دار النبي محمد من الدين والاسلام فالدار بلقع
وقُتِّل آل المصطفى في خلالها وبدد شمل منهم ليس يجمع
ألم تر آل المصطفى كيف تصطفى نفوسهم أم المنون فتتبع
بني طاهر، واللؤم منكم سجية، وللغدر منكم حاسر ومقنع
قواطعكم في الترك غير قواطع ولكنها في آل أحمد تقطع
لكم كل يوم مشرب من دمائهم وغلتها من شربها ليس تنقع
وما حكم للطالبيين شرع وفيكم رماح الترك بالقتل شرع
لكم مرتع في دار آل محمد وداركم للترك والجيش مرتع
أخلتم بأن اللّه يرعى حقوقكم وحق رسول اللّه فيكم مضيع ؟
وأضحوا يرجون الشفاعة عنده وليس لمن يرميه بالوتر يشفع
فيغلب مغلوب ، ويقتل قاتل ويخفض مرفوع ، ويدنى المرفع

قال : وكان يحيى دينا ، كثير التعطف والمعروف على عوام الناس ، بارا بخواصهم ، واصلا لأهل بيته ، مؤثرا لهم على نفسه ، مثقل الظهر بالطالبيات ، يجهد نفسه ببرهنّ والتحنن عليهن ، لم تظهر له زلة ، ولا عرفت له خزية .

ولما قتل يحيى جزعت عليه نفوس الناس جزعا كثيرا ، ورثاه القريب والبعيد ، وحزن عليه الصغير والكبير، وجزع لقتله المليء والدنيء! وفي ذلك يقول بعض شعراء عصره ومن

جزع على فقده :

بكت الخيل شجوهـا بعـد يحيى | وبـكـاه المهنـد المصقـول
وبكتـه العـراق شرقـا وغربـا | وبـكاه الكتـاب والتنزيـل
والمصلى والبيت والـركن والحجـ | ـر جميعـا لهـم عليـه عويـل
كيف لم تسقـط السـمـاء علينا | يوم قالـوا : أبـو الحسـين قتيل
وبنـات النبـي ينـدبـن شجـوا | موجعـات دمـوعهـن تسيل
ويؤبـن للـرزيـة بـدرا | فقـده مفظـع عزيز جليل
قطعـت وجهـه سيوف الأعادي | بأبـى وجهـه الـوسيم الجميل
وليحيى الفتـى بقلبـي غليل | كيف يؤذي بالجسـم ذاك الغليل
قتلـه مذكر لقتـل علي | وحسـين ويوم أودي الرسول
فصـلاة الالـه وقفـا عليهم | ما بكى موجـع وحـن ثكول.

وكان ممن رثاه علي بن محمد بن جعفر العلوي الحماني الشاعر ، وكان ينزل بالكوفة في حمان ، فأضيف اليهم ، فقال :

يا بقـايا السـلف الصا | لح والتجـر الربيح
نحـن للأيام من بيـ | ـن قتيل وجريح
خاب وجه الأرض كم غيـ | ـب من وجـه صبيح
آه من يومـك ما أو | داه للقلـب القريح

وفيه يقول :

تضـوع مسـكا جانـب القبـر اذ ثوى | ومـا كان لولا شلـوه يتضوع
مصـارع فتيان كرام أعزة | أتيح ليحيى الخير منهـن مصرع

وقوله :

انـي لقومـي من أسحـاب قومكم | بمسجد الخيف في بحبوحة الخيف

ما علق السيف منا بابن عاشرة　　الا وهمته أمضى من السيف

وقد كان علي بن محمد بن جعفر العلوي هذا ـ وهو أخو اسماعيل العلوي لأمه ـ لما دخل الحسن بن اسماعيل الكوفة ـ وهو صاحب الجيش الذي لقي يحيى بن عمر ـ قعد عن سلامه ، ولم يمض اليه ، ولم يتخلف عن سلامه أحد من آل علي بن أبي طالب الهاشميين ، وكان علي بن محمد الحماني نقيبهم بالكوفة وشاعرهم ومدرسهم ولسانهم ، ولم يكن أحد بالكوفة من آل علي بن أبي طالب يتقدمه في ذلك الوقت .

فتفقده الحسن بن اسماعيل ، وسأل عنه ، وبعث بجماعة فأحضروه ، فأنكر الحسن تخلفه عن سلامه ، فأجابه علي بن محمد بجواب مستقل آيس من الحياة ، فقال : أردت أن آتيك مهنيا بالفتح ، وداعيا بالظفر .

وأنشد شعرا لا يقوم على مثله من يرغب في الحياة ، وهو :

قتلت أعز من ركب المطايا　　وجئتك أستلينك في الكلام
وعز علي أن ألقاك الا　　وفيما بيننا حد الحسام
ولكن الجناح اذا أهيضت　　قوادمه يرف على الأكام

فقال له الحسن بن اسماعيل : أنت موتور ، فلست أنكر ما كان منك ، وخلع عليه ، وحمله الى منزله .

بين الموفق وعلي بن محمد العلوي

قال : وكان ابو أحمد الموفق بالله حبس علي بن محمد العلوي لأمر شنع به عليه من أنه يريد الظهور ، فكتب اليه من الحبس :

قد كان جدك عبد الله خير أب　　لابني علي حسين الخير والحسن
فالكف يوهن منها كل أنملة　　ماكان من أختها الأخرى من الوهن

فلما وصل هذا الشعر اليه كفل وخلى الي الكوفة .

وله أشعار ومراث في أخيه اسماعيل وغيره من أهله ، وفي ذم الشيب ، وقد أتينا على كثير من ذكرها في كتابنا « أخبار الزمان » عند ذكر أخبار الطالبيين ، وفي كتاب « مزاهر

الأخبار ، وطرائف الآثار ، في أخبار آل النبي صلى اللّه عليه وسلم » .

ومما رثى به علي بن محمد أيضا ابا الحسين يحيى بن عمر فأجاد فيه وافتخر على غيرهم من قريش قوله :

لعمري لئن سرت قريش بهلكه	لما كان وقافا غداة التوقف
فان مات تلقاء الرماح فانه	لمن معشر يشنون موت الترف
فلا تشتموا فالقوم من يبق منهم	على سنن منهم مقام المخلف
لهم معكم اما جدعتم ألوفكم	مقامات ما بين الصفا والمعرف
تراث لهم من آدم ومحمد	الى الثقلين من وصايا ومصحف

وفيه يقول أيضا في الشيب :

قد كان حين بدا الشباب به	يقق السوالف حالك الشعر
وكأنه قمر تمنطق في	أفق السماء بدارة البدر
يا ابن الذي جعلت فضائله	فلك العلا وقلائد السور
من أسرة جعلت مخايلهم	للعالمين مخايل النظر
تتهيب الأقدار قدرهم	فكأنهم قدر على قدر
والموت لا تشوى رميته	فلك العلا ومواضع الغرر

ومن مراثيه المستحسنة في أخيه :

هذا ابن أمي عديل الروح في جسدي	شق الزمان به قلبي الى كبدي
فاليوم لم يبق شيء أستريح به	الا تفتت أعضائي من الكمد
أو مقلة بخفي الهم باكية	أو بيت مرثية تبقى على الأبد
ترى أناجيك فيها بالدموع وقد	نام الخلي ولم أهجع ولم أكد
من لي بمثلك يا نور الحياة ويا	يمنى يدي التي شلت من العضد
من لي بمثلك أدعوه لحادثة	يشكى اليه ولا يشكو الى أحد
قد ذقت أنواع ثكل كنت أبلغها	على القلوب وأجناها على كبدي

قل للـردى لا تغـادر بعـده أحدا وللمنية من أحببـت فاعتمدي
ان الزمـان تقضى بعـد فرقته والعيش آذن بالتفـريق والنكد

وكانت وفاة علي بن محمد العلوي في خلافة المعتمد في سنة ستين ومائتين .

ظهور الحسين بن زيد العلوي

وفي خلافة المستعين ـ وذلك في سنة خمسين ومائتين ـ ظهر ببلاد طبرستان الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم ، فغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب كثيرة وقتال شديد ، وما زالت في يده الى أن مات سنة سبعين ومائتين .

وخلفه أخوه محمد بن زيد فيها الى أن حاربه رافع بن هرثمة ، ودخل محمد بن زيد الى الديلم في سنة سبع وسبعين ومائتين ، فصارت في يده ، وبايعه بعد ذلك رافع بن هرثمة وصار في جملته ، وانقاد لدعوته ، والقول بطاعته .

وكان الحسن بن زيد ومحمد بن زيد يدعوان الى الرضا من آل محمد ، وكذلك من طرأ بعدهما ببلاد طبرستان وهو الحسن بن علي الحسني المعروف بالأطروش وولده ، ثم الداعي الحسن بن القاسم الذي قتله أسفار بطبرستان ، وكان الحسن بن القاسم من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب .

وقد أتينا على خبر سائر آل أبي طالب بطبرستان ومن ظهر منهم بالمشرق والمغرب وغير ذلك من بقاع الأرض الى هذا الوقت ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ في كتابنا « أخبار الزمان » . وانما نذكر في هذا الكتاب لمعا من سائر ما يجب ذكره ، لئلا يخلو هذا الكتاب من ذكرهم .

ظهور محمد بن جعفر

وظهر في هذه السنة ـ وهي سنة خمسين ومائتين ـ بالري محمد بن جعفر بن الحسن ، ودعا للحسن بن زيد صاحب طبرستان ، وكانت له حروب بالري مع أهل خراسـان من المسـودة ، فأسر وحمـل الى نيسابـور الى محمـد بـن عبـدالله بن طاهـر ، فمات في محبسـه بنيسابور .

ظهور أحمد بن عيسى العلوي

وظهر بعده بالري أحمد بن عيسى بن علي بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، ودعا الى الرضا من آل محمد ، وحارب محمد بن طاهر ، وكان بالري ، فانهزم عنه

وسار الى مدينة السلام ، فدخلها العلوي .

ظهور الكركي بقزوين

وفي هذه السنة ، وهي سنة خمسين ومائتين ، ظهر بقزوين الكركي وهو الحسن بن اسماعيل بن محمد بن عبدالله بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وهو من ولد الأرقط ، وقيل : ان اسم الكركي الحسن بن أحمد بن محمد بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، فحاربه موسى بن بغا ، وصار الكركي الى الديلم ، ثم وقع الى الحسن بن زيد الحسيني فهلك قبله .

ظهور الحسين بن محمد العلوي

وظهر بالكوفة الحسين بن محمد بن حمزة بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، فسرح اليه محمد بن عبدالله بن طاهر من بغداد جيشا عليه ابن خاقان ، فانكشف الطالبي واختفى لترك أصحابه له ، وتخلفهم عنه ، وكان ذلك في سنة احدى وخمسين ومائتين .

عزم المستعين على أخذ البيعة لابنه

وفي سنة تسع وأربعين ومائتين عقد المستعين لابنه العباس على مكة والمدينة والبصرة والكوفة ، وعزم على البيعة له ، فأخرها لصغر سنه ، وكان عيسى بن فرخانشاه ، قال لأبي علي البصير الشاعر أن يقول في ذلك شعرا يشير فيه بالبيعة له ، فقال في ذلك قصيدة طويلة يقول فيها :

بك الله حاط الدين وانتاش أهله ... من الموقف الدحض الذي مثله يردي
فولّ ابنك العباس عهدك ، انه ... له موضع ، واكتب الى الناس بالعهد
فإن خلفته السن فالعقل بالغ ... به رتبة الشيخ الموفق للرشد
وقد كان يحيى أوتي العلم قبله ... صبيا ، وعيسى كلم الناس في المهد

بين محمد بن طاهر
وأبي العباس المكي

وقال أبو العباس المكي : كنت أنادم محمد بن طاهر بالري قبل مواقعته الطالبين ، فما رأيته في وقت من الأوقات أشد سرورا منه ولا أكثر نشاطا قبل ظهور العلوي بالري ، وذلك في سنة خمسين ومائتين ، وقد كنت عنده ليلة أتحدث ، والخير وافد والستر مسبل ، اذ قال : كأني أشتهي الطعام فما آكل ؟

قلت : صدر دراج أو قطعة من جدي باردة .

قال : يا غلام ، هات رغيفا وخلا وملحا ، فأكل من ذلك .
فلما كان في الليلة الثانية قال : يا أبا العباس ، كأني جائع فما ترى أن آكل ؟
قلت : ما أكلت البارحة .
فقال : أنت لا تعرف فرق ما بين الكلامين : قلت البارحة : كأني أشتهي الطعام ، وقلت الليلة : كأني جائع ، وبينهما فرق . فدعا بالطعام .
ثم قال لي : صف لي الطعام والشراب والطيب والنساء والخيل .
قلت : أيكون ذلك منثورا أو منظوما ؟
قال : لا ، بل منثورا .
قلت : أطيب الطعام ما لقي الجوع بطعم وافق شهوة .
قال : فما أطيب الشراب ؟
قلت : كأس مدام تبرد بها غليلك ، وتعاطي بها خليلك .
قال : فأي السماع أفضل ؟
قلت : أوتار أربعة ، وجارية متربعة ، غناؤها عجيب ، وصوتها مصيب .
قال : أي الطيب أطيب ؟
قلت : ريح حبيب تحبه ، وقرب ولد تربه .
قال : فأي النساء أشهى ؟
قلت : من تخرج من عندها كارها ، وترجع اليها والها .
قال : فأي الخيل أفره ؟
قلت : الأشدق الأعين الذي اذا طلب سبق ، واذا طلب لحق .
قال : أحسنت ، يا بشر أعطه مائة دينار .
قلت : وأين تقع مني مائتا دينار ؟
قال : أوقد زدت نفسك مائة دينار ؟ يا غلام أعطه المائة كما ذكرها ، والمائة الأخرى لحسن ظنه بنا ، فانصرفت بمائتي دينار ، فما كان بين هذا الحديث وبين تنحيه من الري الا جمعة .

معرفة المستعين بالأخبار

وكان المستعين حسن المعرفة بأيام الناس وأخبارهم ، لهجا بأخبار الماضين .
وحدث محمد بن الحسن بن دريد قال : أخبرني أبو البيضاء مولى جعفر الطيار ، وكان طيب الحديث ، قال : وفدنا في أيام المستعين من المدينة الى سامرا وفينا جماعة من آل أبي

طالب وغيرهم من الأنصار ، فأقمنا ببابه نحوا من شهر ، ثم وصلنا اليه ، فكل تكلم وعبر عن نفسه فقرب وآنس ، وابتدأ بذكر المدينة ومكة وأخبارهما ، وكنت أعرف الجماعة بما شرع فيه ، فقلت : ايأذن أمير المؤمنين في الكلام ؟

قال : ذلك اليك .

فشرعت معه فيما قصد اليه ، وتسلسل الكلام الى فنون من العلم في أخبار الناس ، ثم انصرفنا ، وأقيم لنا الانزال والافضال .

فلما كان في أول الليل أتانا خادم ومعه عدة من الأتراك وفرسان ، فحملت على جنبية كانت معهم ، وأتى بي الى المستعين ، فاذا هو جالس في الجوسق ، فقربني وأدناني ، ثم أخذ بعد أن آنسني في أخبار العرب وأيامها ، وأهل التتيم ، فانتهى بنا الكلام الى أخبار العذريين والمتيمين ، فقال لي : ما عندك من أخبار عروة بن حزام ، وما كان منه مع عفراء ؟

عروة بن حزام

فقلت : يا أمير المؤمنين ، ان عروة بن حزام لما انصرف من عند عفراء بنت عقال توفي وجدا بها وصبابة اليها ، فمر به ركب فعرفوه ، فلما انتهوا الى منزل عفراء صاح صائح منهم :

ألا أيها القصر المغفل أهله ... نعينا اليكم عروة بن حزام

ففهمت صوته ، وأشرفت عليه ، وقالت :

ألا أيها الركب المجدون ويحكم ... بحق نعيتم عروة بن حزام

فأجابها رجل من القوم فقال :

نعم قد تركناه بأرض بعيدة ... مقيما بها في سبسب وأكام

فقالت لهم :

فان كان حقا ما تقولون فاعلموا ... بأن قد نعيتم بدر كل ظلام

فلا لقي الفتيان بعدك لذة ... ولا رجعوا من غيبة بسلام
ولا وضعت أنثى شريفا كمثله ... ولا فرحت من بعده بغلام
ولا لا بلغتم حيث وجهتم له ... ونغصتم لذات كل طعام

ثم سألتهم : أين دفنوه ؟ فأخبروها ، فصارت الى قبره .

فلما قاربته قالت : أنزلوني فاني أريد قضاء حاجة ، فأنزلوها ، فانسلت الى قبره فأكبت عليه ، فما راعهم الا صوتها .

فلما سمعوه بادروا اليها ، فاذا هي ممددة على القبر قد خرجت نفسها ، فدفنوها الى جانب قبره .

قال : فقال لي : فهل عندك من خبره غير ما ذكرت ؟

قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، هذا ما أخبرنا به مالك بن الصباح العدوي عن الهيثم بن عدي بن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال : بعثني عثمان بن عفان مصدقا في بني عذرة في بلاد حي منهم يقال لهم بنو منبذة ، فاذا ببيت جديد منحاش عن الحي ، فملت اليه ، فاذا بشاب قائم في ظل البيت ، واذا عجوز جالسة في كسر البيت ، فلما رآني ترنم بصوت ضعيف يقول :

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف نجد ان هما شفياني
فقالا : نعم ، نشفي من الداء كله ... وقاما مع العواد يبتدران
فما تركا لي رقية يعرفانها ... ولا شربة الا بها سقياني
وقالا : شفاك الله ، والله ما لنا ... بما حملت منك الضلوع يدان
فلهفي على عفراء لهفا كأنه ... على النحر والأحشاء حد سنان
فعفراء أحظى الناس عندي مودة ... وعفراء عني المعرض المتداني
واني لأهوى الحشر اذ قيل : انني ... وعفراء يوم الحشر ملتقيان
ألا لعن الله الوشاة وقولهم : ... فلانة أضحت خلة لفلان

ثم شهق شهقة خفيفة ، فنظرت في وجهه فاذا هو قد مات ، فقلت : أيها العجوز ، ما أظن هذا النائم بفناء بيتك الا قد مات .

قالت : وأنا والله أظن ذلك .

فنظرت في وجهه ، وقالت : فاض ورب الكعبة .

فقلت : من هذا ؟

فقالت : عروة بن حزام العذري وأنا أمه ، والله ما سمعت له أنة من سنة ، الا في صدر يومي هذا ، فاني سمعته يقول :

من كان من أمهاتـي باكيا أبدا فاليوم انـي أرانـي فيه مقبوضا
تسـمعيه فانـي غـير سامعه اذا علوت رقاب القوم معروضا

قال : فأقمت حتى شهدت غسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه .

قال : فقال عثمان : وما دعاك الى ذلك ؟

قلت : اكتساب الأجر فيه والله .

قال : فوصل الجماعة ، وفضلني عليهم في الجائزة .

***

حديث عن مجنون بني عامر

قال المسعودي : ولمن سلف من المتيمين أخبار عجيبة ، وأشعار حسان . فمن ذلك ما حدثنا به أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي القاضي ، قال : حدثنا محمد بن سلام الجمحي قال : أخبرني أبو الهياج بن سابق النجدي ، ثم الثقفي ، قال : خرجت الى أرض بني عامر ، لا لشيء الا للقاءِ المجنون ، فاذا أبوه شيخ كبير ، واذا اخوته رجال ، واذا نعم ظاهرة وخير كثير ، فسألتهم عن المجنون فاستعبروا ، وقال الشيخ : كان والله أبـر هؤلاء عندي ، فهوى امرأة من قومه ، والله ما كانت تطمع في مثله ، فلما عرف أمره وأمرها كره أبوها أن يزوجها منه ، فزوجها من رجل آخر .

فقيدناه ، فكان يعض شفتيه ولسانه حتى خشينا أن يقطعهما ، فلما رأينا ذلك خلينا سبيله ، فمر في هذه الفيافي يذهب اليه في كل يوم بطعامه فيوضع له بحيث يراه ، فاذا عاينه جاء فأكل ، واذا خلقت ثيابه جاءوه بثياب ، فوضعت بحيث يراها .

فسألتهم أن يدلوني عليه ، فدلوني على فتى من الحي ، وقالوا : انه لم يزل صديقا له ، وليس يأنس بأحد سواه ، فسألته أن يدلني عليه ، فقال : ان كنت تريد شعره فكل شعره عندي الى أمس وأنا ذاهب اليه غدا ، فان كان قد ذكر شيئا أتيتك به .

قلت : أريد أن تدلني عليه .

قال : ان رآك يفر منك ، وأخاف أن يذهب مني فيما بعد ، فيذهب شعره ، فأبيت الا أن يدلني .

فقال : اطلبه في هذه الصحراء ، فاذا رأيته فادن منه مستأنسا ، فانه يتهددك ويتوعدك أن يرميك بشيء في يده ، فاجلس كأنك لا تنظر اليه والحظه ، فاذا رأيته قد سكن فاجهد أن تروي لقيس بن ذريح شيئا فانه معجب به .

قال : فخرجت اليه يومي ، فوجدته بعد العصر جالسا على تل ، يخط بأصبعه خطوطا ، فدنوت منه غير منقبض ، ففر والله كما يفر الوحش من الانسان ، والى جانبه أحجار ، فتناول منها واحدا ، فأقبلت حتى جلست قريبا منه ، فمكثت ساعة ، وهو كأنه نافر .

فلما طال جلوسي سكن ، وأقبل يعبث بأصبعه ، فنظرت اليه ، وقلت : أحسن والله قيس بن ذريح ، حيث يقول :

وانـي لمفـن دمـع عينـي بالبكا حذارا لما قد كان أو هو كائن
وقالوا : غدا ، أو بعد ذاك بليلة فراق حبيب لم يبـن وهـو بائن
ومـا كنـت أخشى أن تكون منيتي بكفـي الا أن ما حان حائن

قال : فبكى والله حتى سالت دموعه ، ثم قال : أنا والله أشعر منه ، حيث أقول :

أبـى القلـب الا حبهـا عامرية لها كنية عمـرو، وليس لهـا عمرو
تكاد يدي تنـدى اذا ما لمستها وينبت في أطرافها الـورق الخضر
عجبت لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننـا سكن الدهر
فيا حبهـا زدنـي جوى كل ليلة ويا سلـوة الأيام موعـدك الحشر

قال : ثم نهض ، فانصرفت ، ثم عدت من الغد ، فأصبته ، ففعلت فعلي بالأمس ، وفعل مثل فعله ، فلما أنس قلت : أحسن والله قيس بن ذريح ، حيث يقول :

قال : ماذا ؟

قلت :

هبوني امرأ ان تحسنوا فهـو شاكر لذاك ، وان لم تحسنوا فهو صافح

فان بك قوم قد أشــاروا بهجرنا　　فان الـذي بينــي وبينــك صالح

قال : فبكي ، وقال : أنا والله أشعر منه حيث أقول :

وأدنيتنـي حتـى اذا ما سبيتني　　بقول بحل العصم سهل الأباطح
تجـافيت عني حيث ما لي حيلة　　وخلفـت ما خلفـت بـين الجوانح

ثم ظهرت لنا ظبية ، فوثب في اثرها ، فانصرفت ، ثم عدت في اليوم الثالث فلـم أصادفه ، فرجعت ، فأخبرتهم ، فوجهوا الذي كان يذهب بطعامه ، فرجع . فأخبرهم أن الطعام على حاله ، ثم غدوت مع اخوته ، فطلبناه يومنا وليلتنا ، فلما أصبحنا أصبناه في واد كثير الحجارة ، واذا هو ميت ، فاحتمله اخوته ، ورجعت الى بلدي .

***

وفاة بغا الكبير

قال المسعودي : وفي سنة ثمان وأربعين ومائتين كانت وفاة بغا الكبير التركي . وقد نيف على التسعين سنة .، وقد كان باشر من الحروب ما لم يباشره أحد ، فما أصابته جراحة قط .

وتقلد ابنه موسى بن بغا ما كان يتقلده ، وضم اليه أصحابه ، وجعلت له قيادته .

وكان بغا دينا من بين الأتراك ، وكان من غلمان المعتصم ، يشهد الحروب العظام ، ويباشرها بنفسه ، فيخرج منها سالما ، ويقول : الأجل جوشن .

بغا يرى رسول الله

ولم يكن يلبس على بدنه شيئا من الحديد ، فعذل في ذلك ، فقال : رأيت في نومي النبي صلى الله عليه وسلم ومعه جماعة من أصحابه فقال لي : يا بغا ، أحسنت الى رجل من أمتي فدعا لك بدعوات استجيبت له فيك .

قال : فقلت : يا رسول الله ، ومن ذلك الرجل ؟

قال : الذي خلصته من السباع .

فقلت : يا رسول الله ، سل ربك أن يطيل عمري .

فرفع يديه نحو السماء وقال : اللهم أطل عمره ، وأتم أجله .

فقلت : يا رسول الله خمس وتسعون سنة .

فقال رجل كان بين يديه : ويوقى من الآفات .

فقلت للرجل : من أنت ؟

قال : أنا علي بن أبي طالب ، فاستيقظت من نومي ، وأنا أقول : علي بن أبي طالب .

قصة له مع طالبي

وكان بغا كثير التعطف والبر للطالبيين ، فقيل له : من كان ذلك الرجل الذي خلصته من السباع ؟

قال : كان أتى المعتصم برجل قد رمي ببدعة ، فجرت بينهم في الليل مخاطبة في خلوة ، فقال لي المعتصم : خذه فألقه الى السباع ، فأتيت بالرجل الى السباع لألقيه اليها ، وأنا مغتاظ عليه ، فسمعته يقول : اللهم انك تعلم ما تكلمت الا فيك ، ولم أرد بذلك غيرك ، وتقربا اليك بطاعتك ، واقامة الحق على من خالفك ، أفتسلمني ؟

قال : فارتعدت وداخلتني له رقة ، وملىء قلبي له رعبا ، فجذبته عن طرف بركة السباع ، وقد كدت أن أزج به فيها ، وأتيت به حجرتي فأخفيته فيها ، وأتيت المعتصم فقال : هيه .

قلت : ألقيته .

قال : فما سمعته يقول ؟

قلت : أنا عجمي وهو يتكلم بكلام عربي ما أدري ما يقول ، وقد كان الرجل أغلظ .

فلما كان في السحر قلت للرجل : قد فتحت الأبواب وأنا مخرجك مع رجال الحرس ، وقد آثرتك على نفسي ، ووقيتك بروحي ، فاجهد ألا تظهر في أيام المعتصم .

قال : نعم .

قلت : فما خبرك ؟

قال : هجم رجل من عماله في بلدنا على ارتكاب المكاره والفجور واماتة الحق ونصر الباطل ، فسرى ذلك الى فساد الشريعة ، وهدم التوحيد ، فلم أجد عليه ناصرا ، فوثبت عليه في ليلة فقتلته ، لأن جرمه كان يستحق به في الشريعة أن يفعل به ذلك .

بين المستعين والأتراك

قال المسعودي : ولما انحدر المستعين ووصيف وبغا الى مدينة السلام ، اضطربت الأتراك والفراغنة وغيرهم من الموالي بسامرا ، وأجمعوا على بعث جماعة اليه يسألونه الرجوع الى دار ملكه ، فصار اليه عدة من وجوه الموالي ، ومعهم البرد والقضيب وبعض الخزائن

ومائتا ألف دينار ، ويسألونه الرجوع الى دار ملكه ، واعترفوا بذنوبهم ، وأقروا بخطئهم ، وضمنوا ألا يعودوا ولا غيرهم من نظرائهم الى شيء من ذلك مما أنكره عليهم ، وتذللوا وخضعوا ، فأجيبوا بما يكرهون ، وانصرفوا الى سر من رأى ، فأعلموا أصحابهم وأخبروهم بما نالهم ، وإياسهم من رجوع الخليفة .

الموالي يجمعون على بيعة المعتز

وقد كان المستعين اعتقل المعتز والمؤيد حين انحدر الى بغداد ، ولم يأخذهما معه ، وقد كان حذر من محمد بن الواثق حين انحداره فأخذه معه ، ثم انه هرب منه بعد في حال الحرب .

فأجمع الموالي على اخراج المعتز والمبايعة له والانقياد الى خلافته ، ومحاربة المستعين وناصريه ببغداد ، فأنزلوه من الموضع المعروف بلؤلؤة الجوسق ، وكان معتقلا فيه مع أخيه المؤيد ، فبايعوه ، وذلك يوم الأربعاء لاحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة احدى وخمسين ومائتين ، وركب من غد ذلك اليوم الى دار العامة ، فأخذ البيعة على الناس ، وخلع على أخيه المؤيد ، وعقد له عقدين أسود وأبيض ، فكان الأسود لولاية العهد بعده ، والأبيض لولاية الحرمين وتقلدهما .

وانبثت الكتب في سامرا بخلافة المعتز بالله الى سائر الأمصار ، وأرخت باسم جعفر ابن محمد الكاتب ، وأحدر أخاه أبا أحمد مع عدة من الموالي لحرب المستعين الى بغداد ، فنزل عليها، فكانت أول حرب جرت بينهم ببغداد بين أصحاب المعتز والمستعين .

وهرب محمد بن الواثق الى المعتز بالله ، ولم تزل الحرب بينهم وبين أهل بغداد للنصف من صفر من هذه السنة . فلما نشبت الحرب بينهم كانت أمور المعتز تقوى ، وحالة المستعين تضعف ، والفتنة عامة .

فلما رأى محمد بن عبدالله بن طاهر ذلك كاتب المعتز وجنح اليه ، ومال الى الصلح على خلع المستعين ، وقد كانت العامة ببغداد حين علمت ما قدم عزم عليه من خلع المستعين ثارت منكرة لذلك ، متحيزة الى المستعين ، ناصرة له .

فأظهر محمد بن عبدالله المستعين على أعلى قصره ، فخاطبته العامة وعليه البردة والقضيب فأنكر ما بلغهم من خلعه ، وشكر محمد بن عبدالله بن طاهر .

ثم التقى محمد بن عبدالله بن طاهر وأبو أحمد الموفق بالشماسية ، فاتفقا على خلع المستعين على أن له الأمان ولأهله وولده وما حوته أيديهم من أملاكهم ، وعلى أنه ينزل مكة هو ومن شاء من أهله ، وأن يقيم بواسط العراق الى وقت مسيره الى مكة .

فكتب له المعتز على نفسه شروطا أنه متى نقض شيئا من ذلك فالله ورسوله منه براء ، والناس في حل من بيعته ، وعهودا يطول ذكرها ، وقد خذل المعتز بعد ذلك لمخالفتها حين عالج في نقضها .

فخلع المستعين نفسه من الخلافة وذلك يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، فكان له مذ وافى مدينة السلام الى أن خلع سنة كاملة ، وكانت خلافته ـ منذ تقلد الأمر على ما بيناه آنفا الى أن زال عنه ملكه ـ ثلاث سنين وثمانية أشهر وثمانية عشر يوما على ما ذكرناه من الخلاف .

وأحدر الى دار الحسن بن وهب ببغداد ، وجمع بينه وبين أهله وولده ، ثم أحدر الى واسط ، وقد وكل به أحمد بن طولون التركي ، وذلك قبل ولايته مصر .

وعلم عجز محمد بن عبدالله بن طاهر عن قيامه بأمر المستعين حين استجار به وخذلانه اياه وميله الى المعتز بالله ، وفي ذلك يقول بعض شعراء العصر من أهل بغداد :

أطافت بنا الأتراك حولا مجرما ... وما برحت في جحرها أم عامر
أقامت على ذل بها ومهانة ... فلما بدت أبدت لنا لؤم غادر
ولم ترع حق المستعين ،فأصبحت ... تعين عليه حادثات المقادر
لقد جمعت لؤما وخبثا وذلة ... وأبقت لها عارا على آل طاهر

ولما كان من الأمر ما قدمناه من خلع المستعين انصرف أبو أحمد الموفق من بغداد الى سامرا ، فخلع عليه المعتز ، وتوج ، ووشح بوشاحين ، وخلع على من كان معه من قواده ، وقدم على المعتز عبيدالله بن عبدالله بن طاهر أخو محمد بن عبدالله بالبرد والقضيب والسيف وبجوهر الخلافة ، ومعه شاهك الخادم .

وكتب محمد بن عبدالله الى المعتز في شاهك : ان من أتاك بارث رسول الله صلى الله عليه وسلم لجدير ألا تخفر ذمته .

وخلع المستعين وعلى وزارته أحمد بن صالح بن شيرذاد .

موت المستعين

ولما كان في شهر رمضان من هذه السنة (وهي سنة اثنتين وخمسين ومائتين) بعث المعتز بالله سعيد بن صالح الحاجب ليلقى المستعين ، وقد كان في جملة من حمله من واسط ، فلقيه سعيد وقد قرب من سامرا فقتله واحتز رأسه وحمله الى المعتز بالله ، وترك جثته ملقاة على

الطريق حتى تولى دفنها جماعة من العامة .

وكانت وفاة المستعين بالله يوم الأربعاء لست خلون من شوال سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، وهو ابن خمس وثلاثين سنة ، على ما قدمنا في صدر هذا الباب .

وذكر شاهك الخادم قال : كنت عديلا للمستعين عند اشخاص المعتز له الى سامرا ونحن في عمارية ، فلما وصل الى القاطول تلقاه جيش كثير ، فقال : يا شاهك انظر من رئيس القوم ؟ فان كان سعيد الحاجب فقد هلكت .

فلما عاينته قلت : هو والله سعيد .

فقال : انا لله وانا اليه راجعون ، ذهبت والله نفسي ، وجعل يبكي .

فلما قرب سعيد منه جعل يقنعه بالسوط ، ثم اضجعه وقعد على صدره واحتز رأسه ، وحمله على ما ذكرنا ، واستقامت الأمور للمعتز ، واجتمعت الكلمة عليه .

وللمستعين أخبار غير ما ذكرناه في هذا الكتاب ، وأوردناه في هذا الباب ، وقد أتينا على ذكرها في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وانما ذكرنا ما أوردنا في هذا الكتاب لئلا يتوهم أنا أغفلنا ذكرها أو عزب عنا فهمها ، فانا بحمدالله لم نترك شيئا من أخبار الناس وسيرهم وما جرى في أيامهم الا وقد ذكرناه ، وأوردنا في كتبنا أحسنه ، وفوق كل ذي علم عليم ، والله الموفق للصواب .

ذِكرُ خِلافَة المعْـتزّ بِاللّه
الزّبَـيْر بن جَعفَـر المتوَكّل

موجز

بويع المعتز بالله ، وهو الزبير بن جعفر المتوكل ، وأمه أم ولد يقال لها قبيحة ، ويكنى أبا عبد الله ، وله يومئذ ثماني عشرة سنة ، بعد خلع المستعين لنفسه ، وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من المحرم ، وقيل : لثلاث خلون منه ، سنة اثنتين وخمسين ومائتين على ما قدمنا ، وبايعه القواد والموالي والشاكرية وأهل بغداد ، وخطب له في المسجد الجامع بغداد في الجانبين .

ثم خلع المعتز نفسه يوم الاثنين لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين ومات بعد أن خلع نفسه بستة أيام .

فكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر ، ودفن بسامرا ، فجملة أيامه منذ بويع بسامرا قبل خلع المستعين الى اليوم الذي خلع فيه أربع سنين وستة أشهر وأياما ، ومنذ بويع له بمدينة السلام ثلاث سنين وسبعة أشهر .

وتوفي وله أربع وعشرون سنة .

ذكر جمل من أخباره وسيره
ولمع مما كان في أيامه

قول الناس في خلعه نفسه

ولما خلع المستعين بالله وأحدر الى واسط ـ بعد أن أشهد على نفسه أنه قد برىء من الخلافة وأنه لا يصلح لها ، لما رأى من الخلاف الواقع ، وأنه قد جعل الناس في حل من بيعته ـ قالت في ذلك الشعراء فأكثرت ، ووصفته في شعرها فأغرقت ، فقال في ذلك البحتري من قصيدة طويلة :

الى واسط خلف الدجاج ، ولم يكن … لينبت في لحم الدجاج مخالب

وفي ذلك يقول الشاعر المعروف بالكناني من قصيدة :

اني أراك من الفراق جزوعا … أمسى الامام مسيرا مخلوعا
وغدا الخليفة أحمد بن محمد … بعد الخلافة والبهاء خليعا

كانـت به الأيام تضحـك زهرة وهـو الـربيع لمن أراد ربيعا
فأزالـه المقـدور من رتـب العلا فثـوى بواسـط لا يحس رجوعا

وكان بين خلع المستعين وقتله تسعة أشهر ويوم .

وفاة جماعة من أهل العلم

ومات في خلافة المستعين جماعة من أهل العلم والمحدثين : منهم أبو هاشم محمد بن زيد الرفاعي ، وأيوب بن محمد الوراق وأبو كريب محمد بن العلاء الهمداني بالكوفة ، وأحمد ابن صالح المصري ، وأبو الوليد السري الدمشقي ، وعيسى بن حماد زغبة المصري بمصر ، ويكنى أبا موسى ، وأبو جعفر بن سوار الكوفي ، وذلك في سنة ثمان وأربعين ومائتين .

وفي خلافة المستعين ـ وذلك في سنة تسع وأربعين ومائتين ـ كانت وفـاة الحسـن بن صالح البزار ، وكان من علية أصحاب الحديث ، وهشام بن خالد الدمشقي ، ومحمد بن سليمان الجهني بالمصيصة ، والحسن بن محمد بن طالوت ، وأبو حفص الصيرفي بسامرا ، ومحمد بن زنبور المكي بمكة ، وسليمان بن أبي طيبة ، وموسى بن عبد الرحمن البرقي .

وفي خلافـة المستعـين ـ وذلك في سنـة خمسـين ومائتـين ـ مات ابـراهيم بن محمـد التميمي ، قاضي البصرة ، ومحمود بن خداش ، وأبو مسلم أحمد بن أبي شعيب الحراني ، والحارث بن مسكين المصري ، وغير هؤلاء ممن أعرضنا عن ذكره ، من شيوخ المحدثين ونقلة الآثار ، ممن قد أتينا على ذكرهم من أول زمن الصحابة ، الى وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) في سنة ست ، من كتابنا المترجم بالأوسط ، وانما نذكر من وفاة من ذكرنا لئلا نخلي هذا الكتاب من نبذ مما يحتاج الى ذكره على قدر الطالب له .

فص من الياقوت الاحمر

وقد كان المستعين في سنة ثمان وأربعين ومائتين أخرج من خزانة الخلافة فص ياقوت أحمر ، يعرف بالجبلي ، وكانت الملوك تصونه ، وكان الرشيد اشتراه بأربعين ألف دينار ، ونقش عليه اسمه أحمد ، ووضع ذلك الفص في أصبعه ، فتحدث الناس بذلك .

وقد ذكر أن ذلك الفص قد تداولته الملوك من الأكاسرة وقد نقش في قديم الزمان ، وذكر أنه لم ينقشه ملك الا مات قتيلا ، وكان الملك اذا مات وجلس تاليه في الملك حك النقش ، فتداولته في اللبس الملوك ، وهو غير منقوش ، فيقع للنادر من الملوك فينقشـه ، وكان ياقوتا أحمر ، يضيء بالليل كضياء المصباح ، اذا وضع في بيت لا مصباح فيه أشرق ،

ويرى فيه بالليل تماثيل تلوح ، وله خبر طويل ظريف ، قد ذكرناه في كتابنا « أخبار الزمان » في ذكر خواتم ملوك الفرس ، وقد كان هذا الفص ظهر في أيام المقتدر ، ثم خفي أثره بعد ذلك .

بعض ما قيل في المعتز

وقد كان جماعة من الشعراء قالوا في المعتز ـ حين استتم له الأمر ، واستقامت له الخلافة ، وخلعها المستعين ـ أقوالا كثيرة ، فمن ذلك قول مروان بن أبي الجنوب من قصيدة طويلة :

ان الأمور الى المعتز قد رجعت — والمستعين الى حالاته رجعا
قد كان يعلم أن الملك ليس له — وأنه لك لكن نفسه خدعا

وفي ذلك يقول رجل من أهل سامرا ، وقد قيل انه البحتري :

لله در عصابة تركية — ردوا نوائب دهرهم بالسيف
قتلوا الخليفة أحمد بن محمد — وكسوا جميع الناس ثوب الخوف
وطغوا فأصبح ملكنا متقسما — وامامنا فيه شبيه الضيف

وفي المعتز ورجوع الأمر اليه واتفاق الكلمة عليه يقول أبو علي البصير :

آب أمر الاسلام خير مآبه — وغدا الملك ثابتا في نصابه
مستقرا قراره مطمئنا — آهلا بعد نأيه واغترابه .
فاحمد الله وحده والتمس بالـ — ـعفو عمن هما جزيل ثوابه

وزراء المعتز

وكان على وزارة المعتز جعفر بن محمد ، ثم استوزر جماعة ، فكانت الكتب تخرج باسم صالح بن وصيف كأنه مرسوم بالوزارة .

وكانت وفاة أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد في خلافة المعتز بالله ، وذلك في يوم الاثنين ، لأربع بقين من جمادى الآخرة ، سنة أربع وخمسين ومائتين ، وهو ابن أربعين سنة ، وقيل : ابن اثنتين وأربعين سنة ، وقيل أكثر من ذلك ، وسمع في جنازته جارية تقول : ماذا لقينا في يوم الاثنين قديما وحديثا ؟

وصلى عليه أحمد بن المتوكل على الله ، في شارع أبي أحمد ، وفي داره بسامرا ، ودفن هناك .

علي بن محمد الطالبي

حدثنا ابن الأزهر ، قال : حدثني القاسم بن عباد ، قال : حدثني يحيى بن هرثمة ، قال : وجهني المتوكل الى المدينة لاشخاص علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر لشيء بلغه عنه ، فلما صرت اليها ضج أهلها وعجوا ضجيجا وعجيجا ما سمعت مثله ، فجعلت أسكنهم وأحلف لهم أني لم أومر فيه بمكروه ، وفتشت بيته ، فلم أجد فيه الا مصحفا ودعاء ، وما أشبه ذلك ، فأشخصته وتوليت خدمته وأحسنت عشرته .

فبينا أنا نائم يوما من الأيام ، والسماء صاحية ، والشمس طالعة ، اذ ركب وعليه ممطر ، وقد عقد ذنب دابته فعجبت من فعله ، فلم يكن بعد ذلك الا هنيهة حتى جاءت سحابة فأرخت عزاليها ، ونالنا من المطر أمز عظيم جدا ، فالتفت إلي ، وقال : أنا أعلم أنك أنكرت ما رأيت ، وتوهمت أني علمت من الأمر ما لا تعلمه ، وليس ذلك كما ظننت ، ولكن نشأت بالبادية ، فأنا أعرف الرياح التي يكون في عقبها المطر ، فلما أصبحت هبت ريح لا تخلف وشممت منها رائحة المطر ، فتأهبت لذلك .

فلما قدمت مدينة السلام بدأت باسحاق بن ابراهيم الطاهري ـ وكان على بغداد ـ فقال لي : يا يحيى ، ان هذا الرجل قد ولده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمتوكل من تعلم ، وان حرضته على قتله كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خصمك .

فقلت : والله ما وقفت له الا على كل أمر جميل .

فصرت الى سامرا ، فبدأت بوصيف التركي ، وكنت من أصحابه ، فقال : والله لئن سقطت من رأس هذا الرجل شعرة لا يكون المطالب بها غيري .

فعجبت من قولهما ، وعرفت المتوكل ما وقفت عليه ، وما سمعته من الثناء عليه ، فأحسن جائزته ، وأظهر بره وتكرمته .

وحدثني محمد بن الفرج بمدينة جرجان في المحلة المعروفة ببئر أبي عنان ، قال : حدثني أبو دعامة ، قال : أتيت علي بن محمد بن علي بن موسى عائدا في علته التي كانت وفاته منها في هذه السنة ، فلما هممت بالانصراف قال لي : يا أبا دعامة ، قد وجب حقك ، أفلا أحدثك بحديث تسر به ؟

قال : فقلت له : ما أحوجني الى ذلك يا ابن رسول الله .

قال : حدثني أبي محمد بن علي ، قال : حدثني أبي علي بن موسى ، قال : حدثني أبي موسى بن جعفر ، قال : حدثني أبي جعفر بن محمد ، قال : حدثني أبي محمد بن علي ، قال : حدثني أبي علي بن الحسين ، قال حدثني أبي الحسين بن علي ، قال : حدثني أبي علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اكتب يا علي » .

قال : قال : قلت : وما أكتب ؟

قال لي : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، الايمان ما وقرته القلوب ، وصدقته الأعمال ، والاسلام ما جرى به اللسان ، وحلت به المناكحة » .

قال أبو دعامة : فقلت : يا ابن رسول الله ، ما أدري والله أيهما أحسن : الحديث أم الاسناد ؟

فقال : انها لصحيفة بخط علي بن أبي طالب باملاء رسول الله صلى الله عليه وسلم نتوارثها صاغرا عن كابر .

قال المسعودي : وقد ذكرنا خبر علي بن محمد بن موسى رضي الله عنه مع زينب الكذابة بحضرة المتوكل ، ونزوله رضي الله عنه الى بركة السباع ، وتذللها له ، ورجوع زينب عما ادعته من أنها ابنة الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام وأن الله تعالى أطال عمرها الى ذلك الوقت ، في كتابنا : « أخبار الزمان » وقيل : انه مات مسموما ، عليه السلام .

موت محمد بن عبد الله بن طاهر

قال المسعودي : وفي سنة ثلاث وخمسين ومائتين ـ وذلك في خلافة المعتز ـ مات محمد ابن عبد الله بن طاهر ، للنصف من ذي القعدة ، بعد قتل وصيف بثلاثة عشر يوما ، والقمر مكسوف ، وكان من الجود والكرم ، وغزارة الأدب ، وكثرة الحفظ ، وحسن الأشارة ، وفصاحة اللسان ، وملوكية المجالسة ، على ما لم يكن عليه أحد من نظرائه في عصره ، وفيه يقول الحسين بن علي بن طاهر من قصيدة له :

كسف البدر والأمير جميعا ... فانجلى البدر والأمير غميد
عاود البدر نوره لتجليـ ... ـه ونور الأمير ليس يعود

يـا كسوفـين ليلـة الأحـد النحـ س أحلتـكمـا هنـاك السعــود
واحـد كان حده مثـل حد السـ يف والنــار شب فيهـا الوقود

وذكر أبو العباس المبرد قال : ارتاح محمد بن عبد الله بن طاهر يوما للمنادمة وقد حضره ابن طالوت ، وكان وزيره وأخص الناس به وأحضرهـم لخلواتـه ، فأقبـل عليه ، وقال : لا بد لنا اليوم من ثالث تطيب لنا به المعاشرة ، وتلذ بمنادمته المؤانسة ، فمن ترى أن يكون ؟ وأعفنا أن يكون شرير الأخلاق ، أو دنس الأعراق ، أو ظاهر الاملاق .

ماني الموسوس

قال : فأعملت الفكر ، وقلت : أيها الأمير ، خطر ببالي رجل ليس علينا من مجالسته من مؤونة ، وقد برىء من ابرام المجالس ، وخـلا من ثقـل المؤانس ، خفيف الوطـأة اذا أجببت . سريع الوثبة اذا أردت .

قال : ومن ذلك ؟

قلت : ماني الموسوس .

قال : أحسنت والله ، فليتقدم الى أصحاب الثمانية والعشرين الربع في طلبه يرفعوه رفعة .

فما كان بأسرع من أن اقتنصه صاحب الكرخ ، فصار به الى باب الأمـير ، فأخـذ وحذف ونظف وأدخل الحمام وألبس ثيابا نظافا وأدخل عليه ، فقال: السلام عليك ايها الأمير .

فقال محمد : وعليك السلام يا ماني ، وأما آن لك أن تزورنا على حين توقان منا اليك ومنازعة قلوب منا نحوك ؟

فقال ماني : الشوق شديد ، والحـب عتيد ، والمزار بعيد ، والحجـاب صعـب ، والبواب فظ ، ولو سهل لنا في الاذن لسهلت علينا الزيارة .

فقال : ألطفت في الاستئذان فليلطف لك في الاذن ، لا يمنع ماني أي وقت ورد من ليل أو نهار .

ثم أذن له في الجلوس ، فجلس ، ودعا بالطعام فأكل ، ثم غسل يديه وأخذ مجلسه وكان محمد قد تشوق الى السماع من مؤنسة جارية بنت المهدي ، فأحضرت ، فكان أول ما غنت به :

ولست بناس اذ غدوا فتحملوا دموعي على الأحباب من شدة الوجد
وقولي وقد زالت بليل حمولهم : بواكر نجد لا يكن اخر العهد

فقال ماني : أحسنت ، وبحق الأمير الا ما زدت فيه :

وقمت أناجي الفكر والدمع حائر بمقلة موقوف على الضر والجهد
ولم يعدني هذا الأمير بغيرة على ظالم قد لج في الهجر والصد.

فاندفعت تغنيه ، فقال له محمد : أعاشق أنت يا ماني ؟ فاستحيا .

وغمزه ابن طالوت ألا يبوح له بشيء فيسقط من عينيه ، فقال : مبلغ طرب وشوق كان كامنا فظهر ، وهل بعد الشيب صبوة ؟

ثم اقترح محمد على مؤنسة هذا الصوت :

حجبوها عن الرياح لأني قلت : يا ريح بلغيها السلاما
لو رضوا بالحجاب هان ، ولكن منعوها عند الرياح الكلاما

فغنته ، فطرب محمد ودعا برطل فشرب ، فقال ماني : ما على قائل هذا الشعر لو زاد فيه :

فتنفست ثم قلت لطيفي آه ان زرت طيفها الماما
خصه بالسلام مني ، فأخشى يمنعوها لشقوتي أن تناما

لكان أثقب لزند الصبابة بين الأحشاء ، وأشد تغلغلا الى الكبد الصديا من زلال الماء ، مع حسن تأليف نظامه ، والانتهاء بالمعنى الى نهاية تمامه .

فقال محمد : أحسنت يا ماني ، ثم أمر مؤنسة بالحاقهما بالبيتين الأولين والغناء بهما ، ففعلت ، ثم غنت بهذين البيتين :

يا خليلي ساعة لا تريما وعلى ذي صبابة فأقيما
ما مررنا بدار زينب الا هتك الدمع سرنا المكتوما

فاستحسنه محمد ، فقال ماني : لولا رهبة التعدي لأضفت الى هذين البيتين بيتين لا

يردان على سمع ذي لب فيصدران الا عن استحسان لهما .

فقال محمد : يا ماني ، الرغبة في حسن ما تأتي به حائلة دون كل رهبة ، فهات ما عندك .

فقال :

ظبية كالهلال لو تلحظ الصخـ ... ر بطرف لغادرته هشيما
واذا ما تبسمت خلت ايما ... ض بروق أو لؤلؤا منظوما

فقال : أحسنت يا ماني ، فأجز هذا الشعر :

لم تطب اللذات الا بمن ... طابت بها اللذات مأنوسه
غنت بصوت أطلقت عبرة ... كانت بسجن الصبر محبوسة

فقال ماني :

وكيف صبر النفس عن غادة ... أظلمها ان قلت طاووسه
وجرت ان سميتها بانة ... في جنة الفردوس مغروسه
وغير عدل ان عدلنا بها ... جوهرة في البحر مغموسه

ثم سكت ، فقال محمد : ما عدا في وصفه لها .

فقال ماني :

جلت عن الوصف فما فكرة ... تلحقها بالنعت محسوسه

فقال محمد : أحسنت .

فقالت مؤنسة : وجب شكرك يا ماني ، فساعدك دهرك ، وعطف عليك الفك ، وقارنك سرورك ، وفارقك محذورك ، والله يديم لنا ذلك ببقاء من به اجتمع شملنا .

فقال لها ماني عند قولها « وعطف عليك الفك » مجيبا :

ليس لي الف فيعطفني ... فارقت نفسي الأباطيل
أنا موصول بنعمة من ... حبله بالمجد موصول
أنا مغبوط بنعمة من ... طبعه بالخير مأمول

فأومأ اليه ابن طالوت بالقيام ، فنهض وهو يقول :

ملك قل النظير له زانه الغر البهاليل
طاهري في مواكبه عرفه في الناس مبذول
دم من يشقى بصارمه مع هبوب الريح مطلول
يا أبا العباس صن أدبا حده بالدهر مفلول

فقال محمد : وجب جزاؤك لشكرك على غير نعمة سبقت ، ثم أقبل على ابن طالوت فقال : ليست خساسة المرء ، ولا اتضاع الدهر ، ولا نبو العين عن الظاهر ، بمذهب جوهرية الأدب المركب في الانسان ، وما أخطأ صالح بن عبد القدوس حيث يقول :

لا يعجبنك من يصون ثيابه خوف الغبار وعرضه مبذول
فلربما افتقر الفتى فرأيته دنس الثياب وعرضه مغسول

قال ابن طالوت : فما رأيت أحضر ذهنا منه ، اذ تقول الجارية « عطف عليك الفك » وانشاده عند قولها ذلك :

ليس لي الف فيعطفني فارقت نفسي الأباطيل

قال : فلم يزل محمد مجريا عليه رزقه حتى توفي .

المعتز وولاة العهد

ونمي الى المعتز أن المؤيد يدبر عليه ، وأنه قد استمال جماعة من الموالي ، فحبس المؤيد وأبا أحمد ـ وهما لأب وأم ـ وطولب المؤيد بأن يخلع نفسه من ولاية العهد ، فضرب أربعين عصا الى أن أجاب ، وأشهد على نفسه بذلك .

ثم اتصل بالمعتز أن جماعة من الأتراك اجتمع رأيهم على اخراج المؤيد من حبسه ، فلما كان يوم الخميس لثمان بقين من رجب سنة اثنتين وخمسين ومائتين أخرج المؤيد ميتا .

وأحضر القضاة والفقهاء حتى رأوه ولا أثر فيه ، فيقال : انه أدرج في لحاف مسموم وشد طرفاه حتى مات فيه .

وضيق حبس أبي أحمد ، فكان بين دخوله سر من رأى وما لقي بها من الاكرام وبين حبسه ستة أشهر وثلاثة أيام ، ثم أشخص الى البصرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان بعد قتل المؤيد بخمسين يوما .

ورتب اسماعيل بن قبيحة ـ وهو أخو المعتز لأبيه وأمه ـ مكان المؤيد في ولاية العهد ،

واجتمع قواد الموالي الى المعتز فسألوه الرضا عن وصيف وبغا ، فأجابهم الى ذلك

وفي هذه السنة مات زرافة صاحب دار المتوكل بمصر .

حوادث

وقد كان يوسف بن اسماعيل العلوي غلب على مكة فمات في هذه السنة ، فخلفه بعد وفاته أخوه محمد بن يوسف ، وكان أسن منه بعشرين سنة ، فنال الناس في هذه السنة بسببه جهد شديد ، فبعث المعتز بأبي الساج الأشروسي الى الحجاز ، فهرب محمد بن يوسف ، وقتل خلق من أصحابه .

وفيها أوقع الحسن بن زيد الحسيني بسليمان بن عبد الله بن طاهر ، فأخرجه عن طبرستان .

وفي هذه السنة قدم الى سامرا عيسى بن الشيخ الشيباني من مصر ، ومعه مال كثير ، وستة وسبعون رجلا من سائر ولد أبي طالب من ولد علي وجعفر وعقيل ، كانوا قد خرجوا من الحجاز خوف الفتنة والجهد النازل بالحجاز الى مصر ، فحملوا منها ، فأمر المعتز بتكفيلهم ، والتخلية عنهم ، لما وقف عليه من أمرهم ، وولى عيسى بن الشيخ فلسطين .

وفي هذه السنة (وهي سنة ثلاث وخمسين ومائتين) مات صفوان العقيلي صاحب ديار مضر في حبس سامرا .

وفي هذه السنة كان قتل أهل كرخ سامرا من الفراعنة والأتراك لوصيف التركي ، وتخلص بغا منهم ، واشتد أمر مساور الشاري ، ورتب صالح بن وصيف في موضع وصيف .

موت بغا الصغير

وفي سنة أربع وخمسين ومائتين خرج من سامرا الى ناحية الموصل ، فانتهبت الموالي داره ، وانفض من كان معه من الجيش ، وانحدر في زورق متنكرا فوقع به بعض المغاربة بجسر سامرا ، فقتل ونصب رأسه بسامرا ، وهو بغا الصغير ، ثم أخذ الرأس الى مدينة السلام فنصب على الجسر .

وكان المعتز في حياة بغا لا يلتذ بالنوم ، ولا يخلع سلاحه ، لا في ليل ولا في نهار ، خوفا من بغا ، وقال : لا أزال على هذه الحالة حتى أعلم لبغا رأسي أو رأسه لي .

وكان يقول : اني لأخاف أن ينزل علي بغا من السماء أو يخرج علي من الأرض .

وقد كان بغا عزم على أن ينحدر سرا فيصل الى سامرا في الليل ، ويصرف الأتراك عن المعتز ، ويفيض فيهم الأموال ، فكان من أمره ما وصفنا .

الأتراك والمعتز

ولما رأى الأتراك اقدام المعتز على قتل رؤسائهم ، واعماله الحيلة في فنائهم ، وأنه قد اصطنع المغاربة والفراعنة دونهم ، صاروا اليه بأجمعهم ، وذلك لأربع بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين ، وجعلوا يقرعونه بذنوبه ، ويوبخونه على أفعاله ، وطالبوه بالأموال .

وكان المدبر لذلك صالح بن وصيف مع قواد الأتراك ، فلج وأنكر أن يكون قبله شيء من المال .

فلما حصل المعتز في أيديهم بعث الى مدينة السلام في طلب محمد بن الواثق الملقب بالمهتدي ، وقد كان المعتز نفاه اليها واعتقله فيها ، فأتى به في يوم وليلة الى سامرا ، فتلقاه الأولياء في الطريق ، ودخل الى الجوسق .

وأجاب المعتز الى الخلع ، على أن يعطوه الأمان ألا يقتل وأن يؤمنوه على نفسه وماله وولده ، وأبى محمد بن الواثق أن يقعد على سرير الملك أو يقبل البيعة حتى يرى المعتز ويسمع كلامه .

فأتى بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل ، فلما رآه محمد بن الواثق وثب اليه فعانقه ، وجلسا جميعا على السرير ، فقال له محمد بن الواثق : يا أخي ، ما هذا الأمر ؟

قال المعتز : أمر لا أطيقه ، ولا أقوم به ، ولا أصلح له .

فأراد المهتدي أن يتوسط امره ، ويصلح الحال بينه وبين الأتراك ، فقال المعتز : لا حاجة لي فيها ، ولا يرضونني لها .

قال المهتدي : فأنا في حل من بيعتك .

قال : أنت في حل وسعة ، فلما جعله في حل من بيعته حول وجهه عنه ، فأقيم عن حضرته . ورد الى محبسه ، فقتل في محبسه بعد ان خلع بستة أيام ، على ما قدمنا في صدر هذا الباب .

وقد قالت الشعراء في خلع المعتز وقتله فأكثرت ، ورثته فأحسنت ، فمن ذلك قول

بعض أهل ذلك العصر من قصيدة له :

عين لا تبخلي بسفح الدموع ... واندبي خير فاجع مفجوع
خانه الناصح الشفيق ونالتـ ... ـه أكف الردى بحتف سريع
بكر الترك ناقمين عليه ... خالعيه ، أفديه من مخلوع
قتلوه ظلما وجورا فألفو ... ه كريم الأخلاق غير جزوع
كان يغشى بحسنه بهجة البد ... ر فتلقاه مظهرا للخضوع
وترى الشمس تستكين فلا تشـ ... رق اما رأته وقت الطلوع
لم يهابوا جيشا ، ولا رهبوا السيـ ... ف ، فلهفي على القتيل الخليع
أصبح الترك مالكي الأمر والعا ... لم ما بين سامع ومطيع
وترى الله فيهم مالك الأمـ ... ر سيجزيهم بقتل ذريع

وقال فيه آخر من قصيدة طويلة :

أصبحت مقلتي بدمع سفوحا ... حين قالوا : أضحى الامام ذبيحا
قتلوه ظلما وجورا وغدرا ... حين أهدوا اليه حتفا مريحا
نضر الله ذلك الوجه وجها ... وسقى الله ذلك الروح روحا
أيها الترك سوف تلقون للدهـ ... ـر سيوفا لا تستبل الجريحا
فاستعدوا للسيف عاقبة الأمـ ... ـر فقد جئتم فعالا قبيحا

وقال آخر من قصيدة طويلة أيضا :

أصبحت مقلتي تسح الدموعا ... اذ رأت سيد الأنام خليعا
لهف نفسي عليه ، ما كان أعلا ... ه وأسراره تابعا متبوعا
ألزموه ذنبا على غير جرم ... فثوى فيهم قتيلا صريعا
وبنو عمه وعم أبيه ... أظهروا ذلة وأبدوا خضوعا
ما بهذا يصح ملك ، ولا يغـ ... ـزى عدو ، ولا يكون جميعا

المعتز أول من ركب بحلية الذهب

وكان المعتز أول خليفة أظهر الركوب بحلية الذهب ، وكان من سلف قبله من خلفاء بني العباس ـ وكذلك جماعة من بني أمية ـ يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة والمناطق وأنجاد السيوف والسرج واللجم ، فلما ركب المعتز بحلية الذهب اتبعه الناس في فعل ذلك .

المستعين أول من وسع الاكمام

وكذلك المستعين قبله أحدث لبس الأكمام الواسعة ، ولم يكن يعهد ذلك ، فجعل عرضها ثلاثة أشبار ونحوذلك ، وصغر القلانس ، وكانت قبل ذلك طوالا كأقباع القضاة .

علي بن زيد وعيسى بن جعفر العلويان

وفي سنة خمس وخمسين ومائتين ظهر بالكوفة علي بن زيد وعيسى بن جعفر العلوي ، فسرح اليهما المعتز سعيد بن صالح المعروف بالحاجب في جيش عظيم ، فانهزم الطالبيان لتفرق أصحابهما عنهما .

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب وفاة اسماعيل بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الله ابن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وما نال أهل المدينة وغيرهم من أهل الحجاز في أيامه من الجهد والضيق ، وما كان من أمر أخيه بعد وفاته ، وهو محمد بن يوسف ، مع أبي الساج وحربه اياه .

ولما انكشف من بين يدي أبي الساج سار الى اليمامة والبحرين ، فغلب عليها ، وخلفه بها عقبه المعروف ببني الأخضر الى اليوم .

وقد كان ظهر بناحية المدينة بعد ذلك ابن لموسى بن عبد الله بن موسى بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب .

بعض الطالبيين الذين نالهم مكروه

قال المسعودي : وقد ذكرنا في كتابنا « أخبار الزمان » سائر أخبار من ظهر من آل أبي طالب ، ومن مات منهم في الحبس وبالسم ، وغيرذلك من أنواع القتل : منهم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب ، وهو أبو هاشم ، سقاه عبد الملك بن مروان السم .

ومحمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، حمله سعيد الحاجب من البصرة ، فحبس حتى مات ، وكان معه ابنه علي ، فلما مات الأب خلي عنه ، وذلك في أيام المستعين ، وقيل غير ذلك .

وجعفر بن اسماعيل بن موسى بن جعفر ، قتله ابن الأغلب بأرض المغرب .

والحسن بن يوسف بن ابراهيم بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب ، قتله العباس بمكة .

وحمل في أيام المعتز من الري علي بن موسى بن اسماعيل بن موسى بن جعفر بن محمد ومات في حبسه .

وحمل سعيد الحاجب من المدينة موسى بن عبد الله بن موسى بن الحسن بن علي بن ابي طالب ، وكان من النسك والزهد في نهاية الوصف ، وكان معه ادريس بن موسى ، فلما صار سعيد بناحية زبالة من جادة الطريق اجتمع خلق من العرب من بني فزارة وغيرهم لأخذ موسى من يده ، فسمه فمات هنالك ، وخلصت بنو فزارة ابنه ادريس بن موسى .

وفي خلافة المعتز في سنة اثنتين وخمسين ومائتين كان بدو الفتنة بين البلالية والسعدية بالبصرة ، وما نتج من ذلك من ظهور صاحب الزنج .

وللمعتز أخبار حسان غير ما ذكرنا قد أتينا على مبسوطها في كتابنا « أخبار الزمان » والأوسط ، وبالله التوفيق .

ذِكرُ خِلافَةِ المُهتَدي بالله
مُحَمَّد بن هَارُون الوَاثِق

موجز

وبويع المهتدي محمد بن هارون الواثق قبل الظهر من يوم الأربعاء لليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين ، وأمه أم ولد رومية يقال لها قرب ، ويكنى بأبي عبد الله ، وله يومئذ سبع وثلاثون سنة ، وقيل : تسع وثلاثون سنة ، وانه قتل ولم يستكمل الأربعين سنة في سنة ست وخمسين ومائتين .

فكانت ولايته أحد عشر شهرا ، ودفن بسامرا .

وقيل : ان مولده كان في سنة ثماني عشرة ومائتين .

ذكر جمل من أخباره وسيره
ولمع مما كان في أيامه

وزراؤه

واستوزر المهتدي بالله جماعة على قصر مدته فسلموا منه من قتل وغيره : منهم عيسى ابن فرخانشاه .

قبة المظالم وشيء من سيرته

وبنى المهتدي قبة لها أربعة أبواب ، وسماها قبة المظالم ، وجلس فيها للعام والخاص للمظالم ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وحرم الشراب ، ونهى عن القيان ، وأظهر العدل ، وكان يحضر كل جمعة الى المسجد الجامع ، ويخطب الناس ويؤم بهم ، فثقلت وطأته على العامة والخاصة بحمله اياهم على الطريق الواضحة ، فاستطالوا خلافته ، وسئموا أيامه ، وعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه .

وذلك أن موسى بن بغا الكبير كان عاملا غائبا بالري ، مشتغلا بحرب آل أبي طالب كالحسن بن زيد الحسني ، وما كان من الديلم ببلاد قزوين ودخولهم اياها عنوة وقتلهم أهلها .

فلما نمى الى موسى بن بغا قتل المعتز ، وما كان من أمر صالح بن وصيف والأتراك في ذلك قفل من تلك الديار متوجها الى سامرا ، منكرا لما جرى على المعتز .

الخلاف في مقتل المعتز

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في ذكر أخبار المعتز قتل المعتز مجملا ، ولم نبين كيفية قتله ، وتنازع الناس في ذلك مفصلا ، ورأيت أصحاب السير والتواريخ وذوي العناية

بأخبار الدول قد تباينوا في مقتله .

فمنهم من ذكر أن المعتز مات في حبسه في خلافة المهتدي بالله ، على ما قدمنا من التاريخ حتف أنفه .

ومنهم من ذكر أنه منع في حبسه من الطعام والشراب ، فمات عند قطع مواد الغذاء عنه من المأكل والمشرب .

ومنهم من رأى انه حقن بالماء الحار المغلي ، فمن اجل ذلك حين أخرج الى الناس وجدوا جوفه وارما .

والأشهر في الاخباريين ممن عني بأخبار العباسيين ، أنه أدخل حماما وأكره في دخوله اياه ، وكان الحمام محميا ومنع الخروج منه .

ثم تنازع هؤلاء ، فمنهم من قال انه ترك في الحمام حتى فاضت نفسه ، ومنهم من ذكر أنه أخرج بعد أن كادت نفسه تتلف للحمى ، ثم أسقي شربة ماء مقرورة بثلج ، فنثرت الكبد وغيره ، فخمد من فوره وذلك ليومين خلوا من شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين .

وقد أتينا على مبسوط هذه الأخبار وتنازعهم في هذه الآثار في كتابنا « أخبار الزمان » .

بين المهتدي وموسى بن بغا

ولما اتصل بالمهتدي مسير موسى بن بغا الى دار الخلافة أنكر ذلك ، وكاتبه بالمقام في موضعه ، وألا يحل عن مركزه للحاجة اليه ، فأبى موسى بن بغا الا اغذاذ المسير والسرعة فيه ، حتى وافى سامرا ، وذلك سنة ست وخمسين ومائتين ، وصالح بن وصيف يدبر الأمر مع المهتدي .

فلما دنا موسى من سامرا صاحت العامة في مواضعها والغوغاء في طرقاتها : يا فرعون ، قد جاء موسى .

وكان صالح بن وصيف قد نفر عن المهتدي حين علم بموافاة موسى ، وقال : ان المهتدي راسل موسى في السر في المسير الى سامرا ، والشخوص اليها ، وكاتبه في ظاهر الأمر وراسله ألا يقدم .

وكان رجل من قواد الأتراك يقال له بايكيال قد غلب على الأمر أيضا ، وترأس .

فدخل موسى سامرا حتى انتهى الى مجلس المهتدي وهو جالس للمظالم ، والدار غاصة بخواص الناس وعوامهم ، فشرع أصحاب موسى فدخلوا الدار ، وجعلوا يخرجون العامة منها بأشد ما يكون من الضرب بالدبابيس والطبرزينات والعسف ، فضجت العامة .

فقام المهتدي منكرا عليهم فعلهم بمن في الدار ، فلم يرجعوا عما هم عليه ، فتنحى

مغضبا ، فقدم اليه فرس فركب وقد استشعر منهم الغدر ، فمضى به الى دار يارجوج .

وقد كان موسى بن بغا انصرف عن دار المهتدي لما نظر الى ضجة العامة فيها ، فنزل تلك الدار ، فسير بالمهتدي اليها ، فأقام فيها ثلاثا عند موسى بن بغا ، فأخذ عليه موسى العهود والمواثيق ألا يغدر به ، وكان أكثر الجيش مع موسى بن بغا وكان فيه ديانة وتقشف ، حتى ان الجند تأسوا به ، ولم يكن بشرب النبيذ .

وكان المهتدي في أخلاقه شراسة ، فنافر موسى ، وكاد الأمر أن ينفرج ، والحال ان يتسع ، غير أن موسى تعطف عليه ، وأعملا الحيلة في قتل صالح بن وصيف .

وخاف موسى أن يكون صالح بن وصيف يعمل الحيلة عليهم في حال اختفائه ، فبث في طلبه العيون ، حتى وقع عليه .

فلما علم صالح هجومهم عليه قاتل ومانع عن نفسه فقتل واحتز رأسه وأتى به الى موسى بن بغا، ومنهم من رأى أنه أحمي له حمام وأدخل اليه فمات فيه ، على حسب ما فعل بالمعتز .

وقوى أمر مساور الشاري ، ودنا في عسكره من سامرا ، وعم الناس بالأذى ، وانقطعت السابلة ، وظهرت الأعراب ، فأخرج المهتدي بالله موسى بن بغا وبايكيال الى حرب الشاري ، وخرج معهما فشيعهما ، ثم قفلا من غير أن يلقيا شرا .

مقتل المهتدي

فلما استشعر المهتدي رجوعهما خرج فعسكر بجسر سامرا في جمع من المغاربة والفراغنة وغيرهم من الرسوم ليحارب بايكيال .

وقد قيل : ان بايكيال أقرأ موسى كتابا للمهتدي بقتل موسى ، والفتك به ، وانه كتب الى موسى بمثل ذلك ، وانهما علما بتضريب الأمر بينهما ، فرجعا عما خرجا اليه .

وأشرف بايكيال على المهتدي ، فانصرف موسى على ظهر سامرا متحرجا لقتال المهتدي ، فكانت بين المهتدي وبين بايكيال حرب عظيمة قتل فيها خلق كثير من الناس وانكشف بايكيال واستظهر المهتدي عليه .

فخرج كمين بايكيال على المهتدي وفيه يارجوج التركي فولى المهتدي واصحابه ، ودخل سامرا مستغيثا بالعامة مستنصرا بالناس يصيح في الأسواق فلا مغيث ، وقدامه أناس من الأنصار ، فمضى مؤيسا من النصر الى دار ابن خيعونة بسامرا مختفيا ، فهجموا عليه وعزلوه ، وحملوه منها الى دار يارجوج ، وقيل له : أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها ؟

فقال : أريد أن أحملهم على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل بيته والخلفاء الراشدين .

فقيل له : ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان مع قوم قد زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة ، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم ، وأنت انما رجالك ما بين تركي وخزري وفرغاني ومغربي وغير ذلك من أنواع الأعاجم لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، وانما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا ، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة ؟

فكثر منهم ومنه الكلام والمراجعة في هذا المعنى وأشباهه ، ثم انقادوا اليه على حسب ما ظهر للناس من ذلك .

فلما كاد الأمر أن يتم قام فيهم سليمان بن وهب الكاتب ـ وقيل غيره ـ وقال : هذا سوء رأي منكم ، وخطأ في تدبيركم ، ان أعطاكم بلسانه فنيته فيكم غير هذا .

قال : وسيأتي عليكم جميعا ، ويفرق جمعكم .

فلما سمعوا هذا القول استرجعوا وجاءوه بالخناجر ، فكان أول من جرحه ابن عم لبايكيال ، جرحه بخنجر في أوداجه ، وانكب عليه فالتقم الجرح والدم يفور منه ، وأقبل يمص الدم حتى روي منه ، والتركي سكران .

فلما روي من دم المهتدي قام قائما وقد مات المهتدي ، فقال : يا أصحابنا قد رويت من دم المهتدي كما رويت في هذا اليوم من الخمر .

وقد تنوزع فيما ذكرنا من قتل المهتدي . والأشهر ما ذكرناه من قتله بالخناجر ، ومنهم من رأى أنه عصرت مذاكيره حتى مات ، ومنهم من رأى أنه جعل بين لوحين عظيمين وشد بالحبال الى أن مات ، وقيل قتل خنقا ، وقيل : كبس عليه بالبسط والوسائد حتى مات .

فلما مات داروا به ينوحون ويبكون عليه ، وندموا على ما كان منهم من قتله ، لما تبينوا من نسكه وزهده ، وقيل إن ذلك كان يوم الثلاثاء لأربع عشرة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين .

وكان موسى بن بغا ويارجوج التركي غير داخلين في فعل الأتراك .

سبب حنق الأتراك

وكان حنق الأتراك على المهتدي بسبب قتله بايكيال ، وذلك أن بايكيال وقع بيد المهتدي فضرب عنقه ، ورمى به الى أصحابه ، ومنهم من رأى أنه قتل في الحرب المتقدم ذكرها في الموضع المعروف بجسر سامرا .

قتله لكاتبين

وقد كان المهتدي ، لما أفضت الخلافة اليه ، أخرج أحمد بن اسرائيل الكاتب وأبا نوح

الكاتب الى باب العامة بسامرا يوم الخميس لثلاث خلون من شهر رمضان ، فضرب كل واحد منهما خمسمائة سوط ، فماتا ، وذلك لأمور كانت منهما استحقا عند المهتدي فيما يجب في حكم الشريعة أن يفعل بهما ذلك .

وقتل المهتدي وله من الولد سبعة عشر ذكرا وست بنات .

ابن المدبر

وقد كان المهتدي ولّى أحمد بن المدبر خراج فلسطين ، وكانت له معه أخبار قد أتينا على جميعها فيما سلف من كتبنا ، وأخبار ابن المدبر لما وصل الى فلسطين ولما حمل الى سامرا .

وقيل : ان المعتز بالله كان أخرجه الى الشام .

ولأحمد بن المدبر أخبار حسان ، ولابراهيم بن المدبر أخيه مع صاحب الزنج أخبار حين أسره .

مع طفيلي

قال المسعودي : فمن أخبار احمد بن المدبر المستحسنة مما دونها الناس في أخبار الطفيليين أن أحمد كان قليل الجلوس للمنادمة ، وكان له سبعة ندماء لا يأنس بغيرهم ، ولا ينبسط الى سواهم ، قد اصطفاهم لعشرته ، وأخذهم لمنادمته ، كل رجل منهم قد انفرد بنوع من العلم لا يساويه فيه غيره .

وكان طفيلي يعرف بابن دراج من أكمل الناس أدبا ، وأخفهم روحا ، وأشدهم في كل مليحة افتتانا ، فلم يزل يحتال الى أن عرف وقت جلوس أحمد بن المدبر للندماء ، فتزيا في زي ندمائه ، ودخل في جملتهم ، وظن حاجبه أن ذلك بعلم من صاحبه ومعرفة من أولئك الندماء ، ولم ينكر شيئا من حاله .

وخرج أحمد بن المدبر فنظر اليه بين القوم ، فقال لحاجبه : اذهب الى ذلك الرجل فقل له : ألك حاجة ؟

فسقط في يد الحاجب وعلم أن الحيلة قد تمت عليه ، وأن ابن المدبر لا يرضى في عقوبته الا بقتله ، فمر وهو يجر برجليه ، فقال له : الأستاذ يقول لك : ألك حاجة ؟

فقال : قل له : لا .

فقال له : ارجع اليه فقل له : ما جلوسك ؟

قال : الساعة جلسنا يا بغيض .

فقال : ارجع اليه فقل له : أي شيء انت ؟

فقال : قل له طفيلي يرحمك الله .

فقال له ابن المدبر : أنت طفيلي ؟

قال : نعم أعزك الله .

قال : ان الطفيلي يحتمل على دخوله بيوت الناس وافساده عليهم ما يريدونه من الخلوة بندمائهم والخوض في أسرارهم لخصال : منها أن يكون لاعبا بالشطرنج أو بالنرد ، أو ضاربا بالعود ، أو الطنبور .

فقال : أيدك الله أنا أحسن هذه الأشياء كلها .

قال : وفي أي وظيفة أنت منها ؟

قال : في العليا من جميعها .

قال لبعض ندمائه : لاعبه بالشطرنج .

فقال الطفيلي : أصلح الله الأستاذ فان قُمرت ؟

قال : أخرجناك من ديارنا .

قال : فان قَمرت ؟

قال : أعطيناك ألف درهم .

قال : فان رأيت أيدك الله أن تحضر الألف درهم ، فان في حضورها قوة للنفس والايقان بالظفر . فأحضرت .

فلعبا فغلب الطفيلي ومد يده ليأخذ الدراهم ، فقال الحاجب لينفي عن نفسه بعض ما وقع فيه : أعزك الله انه زعم أنه في الطبقة العليا ، وابن فلان غلامك يغلبه .

فأحضر الغلام ، فغلب الطفيلي ، فقال له : انصرف .

فقال : أحضروا النرد . فأحضرت ، فلوعب فغلب .

فقال الحاجب : ولا هذا يا سيدي في الطبقة العليا من النرد ، ولكن بوابنا فلان يغلبه .

فأحضر البواب ، فغلب الطفيلي ، فقال له : اخرج .

فقال : يا سيدي فالعود ، فأتى بالعود ، فضرب فأصاب ، وغنى فأطرب ، فقال الحاجب : يا سيدي في جوارنا شيخ هاشمي يعلم القيان أحذق منه .

فأحضر الشيخ ، فكان أطرب منه ، فقال له : اخرج .

فقال : فالطنبور ، فأعطي طنبورا فضرب ضربا لم ير الناس أحسن منه ، وغنى غناء في النهاية ، فقال الحاجب : أعز الله الأستاذ فلان المحتكر في جوارنا أحذق منه .

فأحضر المحتكر فكان أحذق منه وأطيب ، فقال له ابن المدبر : قد تقصينا لك بكل جهد ، فأبت حرفتك الا طردك عن منزلنا .

فقال : يا سيدي بقيت معي بابة حسنة ..

قال : ما هي ؟

قال : تأمر لي بقوس بندق مع خمسين بندقة رصاص ، ويقام هذا الحاجب على أربع وأرميه في دبره بهن جميعا وان أخطأت بواحدة منهن ضربت رقبتي .

فضج الحاجب من ذلك ، ووجد ابن المدبر في ذلك شفاء لنفسه وعقوبة ومكافأة له على ما فرطمنه في ادخال الطفيلي الى مجلسه ، فأمر باكافين فأحضرا وجعل أحدهما فوق الآخر وشد الحاجب فوقهما ، وأمر بالقوس والبندق ، فدفع الى الطفيلي ، فرمى به فما أخطأه ، وخلى عن الحاجب وهو يتأوه لما به ، فقال له الطفيلي : أعلى باب الأستاذ من يحسن مثل هذا ؟

فقال : يا قرنان ما دام البرجاس استي فلا .

وللطفيليين أخبار حسان مثل خبر بنان الطفيلي مع المتوكل في اللوزينج ، وما ابتدأ من العدد من الواحد الى ما فوقه من القران ، ولغيره منهم ما قد أتينا على ذكره في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، على الشرح والتمام والكمال ، وانما نورد في هذا الكتاب لمعا مما لم يتقدم له ذكر فيما سلف من كتبنا في هذا المعنى .

سيرة المهتدي

وقد كان المهتدي بالله ذهب في أمره الى القصد والدين ، فقرب العلماء ، ورفع من منازل الفقهاء ، وعمهم ببره ، وكان يقول : يا بني هاشم ، دعوني حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز ، فأكون فيكم مثل عمر بن عبد العزيز في بني أمية .

وقلل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب ، وأمر باخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم ، وعمد الى الصور التي كانت في المجالس فمحيت ، وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين يدي الخلفاء والديوك ، وقتل السباع المحبوسة ، ورفع بسط الديباج وكل فرش لم ترد الشريعة باباحته .

وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها في كل يوم عشرة آلاف درهم ، فأزال ذلك وجعل لمائدته وسائر مؤنه في كل يوم نحو مائة درهم ، وكان يواصل الصيام ، وقيل : انه لما قتل استخرج رحله من الموضع الذي كان يأوي اليه ، فأصيب له سفط مقفل ، فتوهموا أن فيه مالا أو جوهرا ، فلما فتح وجد فيه جبة صوف وغل ، وقيل : جبة شعر ، فسألوا من كان يخدمه ، فقال : كان اذا جن الليل لبسها ، وغل نفسه ، وكان يركع ويسجد الى أن يدركه الصباح ، وانه كان ينام من الليل ساعة من بعد العشاء الآخرة ثم يقوم .

وانه سمعه بعض من كان يأنس اليه قبل أن يقتل وقد صلى المغرب وقد دنا من افطاره

وهو يقول : اللهم انه قد صح عن نبيك محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال : ثلاثة لا تحجب لهم دعوة عن الله : دعوة الامام العادل ، وقد أجهدت نفسي في العدل على رعيتي ، ودعوة المظلوم ، وأنا مظلوم ، ودعوة الصائم حتى يفطر ، وأنا صائم ، وجعل يدعو عليهم وأن يكفي شرهم .

وذكر صالح بن علي الهاشمي قال : حضرت يوما من الأيام جلوس المهتدي للمظالم ، فرأيت من سهولة الوصول اليه ونفوذ الكتب عنه الى النواحي فيما يتظلم به اليه ما استحسنته ، فأقبلت أرمقه ببصري ، اذ نظر في القصص فاذا رفع طرفه الي أطرقت ، فكأنه علم ما في نفسي ، فقال لي : يا صالح ، احسب أن في نفسك شيئا تحب أن تذكره .

قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، فأمسك .

فلما فرغ من جلوسه امرني ألا أبرح ونهض ، فجلست جلوسا طويلا ، ثم دعاني فدخلت اليه وهو على حصير الصلاة ، فقال لي : يا صالح ، أتحدثني بما في نفسك أو أحدثك به ؟

قلت : بل هو من أمير المؤمنين أحسن .

فقال : كأني بك قد استحسنت ما رأيت من مجلسنا ، فقلت : اي خليفة ان لم يكن يقول بخلق القرآن .

طرف من القول بخلق القرآن

فقلت : نعم .

فقال : قد كنت على ذلك برهه من الدهر حتى أقدم على الواثق شيخ من أهل الفقه والحديث من أهل أذنة من الثغر الشامي مقيد طوال، حسن الهيئة، فسلم عليه غير هائب ، ودعا فأوجز ، فرأيت الحياء منه في حماليق عين الواثق والرحمة له ، فقال له : يا شيخ أجب أبا عبد الله أحمد بن أبي دؤاد فيما يسألك عنه .

فقال : يا أمير المؤمنين احمد يقل ويضعف عن المناظرة .

فرأيت الواثق قد صار في مكان الرقة والرحمة له غضبا ، فقال له : أبو عبد الله يضعف عن المناظرة ؟

فقال له : هون عليك يا أمير المؤمنين ، أتأذن في كلامه ؟

فقال له الواثق : قد أذنت لك .

فأقبل الشيخ على أحمد فقال له : يا أحمد ماذا دعوت الناس اليه ؟

فقال : الى القول بخلق القرآن .

فقال الشيخ : مقالتك هذه التي دعوت الناس اليها من القرآن بخلق القرآن ، داخلة في الدين فلا يكون الدين تاما الا بالقول بها ؟

قال : نعم .

قال الشيخ : رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس اليها أو تركهم ؟

قال : تركهم .

قال : فعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم او لم يعلمها ؟

قال : علمها .

قال : فلم دعوت الناس الى ما لم يدعهم اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركهم منه ؟

فأمسك أحمد .

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، هذه واحدة ، ثم قال له بعد ساعة : يا أحمد ، قال الله في كتابه العزيز : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا » ، فقلت أنت : لا يكون الدين تاما الا بمقالتكم بخلق القرآن ، فالله أصدق في اكماله واتمامه أو أنت في نقصانك ؟ فأمسك .

قال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، وهذه ثانية .

ثم قال له بعد ساعة : أخبرني يا أحمد عن قول الله عز وجل في كتابه : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، ان الله لا يهدي القوم الكافرين » ، فمقالتك هذه التي دعوت الناس اليها مما بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم للأمة أم لا ؟ فأمسك .

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، وهذه ثالثة .

ثم قال بعد ساعة : أخبرني يا أحمد لما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقالتك هذه التي دعوت الناس اليها ، والى القول بها من خلق القرآن ، أوسعه أن أمسك عنهم أم لا ؟

قال أحمد : بل اتسع له ذلك .

فقال : وكذلك لأبي بكر وعمر ، وكذلك لعثمان ، وكذلك لعلي ، رضي الله عنهم !

قال : نعم .

فصرف وجهه الى الواثق وقال : يا أمير المؤمنين ، اذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله

صلى الله عليه وسلم ولأصحابه فلا وسع الله علينا .

فقال الواثق : نعم لا وسع الله علينا ان لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه .

ثم قال الواثق : اقطعوا قيده .

فلما فكوا قيده عنه جاذب عليه ، فقال الواثق : دعوه . ثم قال للشيخ : لم جاذبت عليه ؟

قال : لأني عقدت في نيتي أن أجاذب عليه ، فاذا أخذته أوصيت أن يجعل بين كفني وبدني حتى أقول : يا رب ، سل عبدك هذا لم قيدني ظلما وأراع فيّ أهلي .

فبكى الواثق ، وبكى الشيخ وكل من حضر ، ثم قال له الواثق : يا شيخ ، اجعلني في حل .

فقال : يا أمير المؤمنين ، ما خرجت من منزلي حتى جعلتك في حل إعظاما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولقرابتك منه .

فتهلل وجه الواثق وسره ، ثم قال له : أقم عندي آنس بك .

فقال : مكاني في ذلك الثغر أنفع ، أنا شيخ كبير ، ولي حاجة .

قال : سل ما بدا لك .

قال : يأذن أمير المؤمنين لي في الرجوع الى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم .

قال : قد أذنت لك ، وأمر له بجائزة ، فلم يقبلها . فرجعت من ذلك الوقت عن تلك المقالة ، وأحسب أن الواثق رجع عنها .

قال : وعرض على المهتدي يوما دفاتر خزائن الكتب ، فاذا على ظهر كتاب منها هذه الأبيات قالها المعتز بالله وكتبها بخطه ، وهي :

انى عرفت علاج الطب من وجعي ... وما عرفت علاج الحب والخدع

جزعت للحب ، والحمى صبرت لها ... اني لأعجب من صبري ومن جزعي

من كان يشغله عن الفه وجع ... فليس يشغلني عن حبكم وجعي

وما أمل حبيبي ، ليتني أبدا ... مع الحبيب ، ويا ليت الحبيب معي

فقطب وجه المهتدي بالله وقال : حدث وسلطان الشباب . وكان المهتدي كثيرا ما ينشد البيت الأول من هذا الشعر .

خبر نوف عن علي بن ابي طالب

وذكر محمد بن علي الربعي ـ وكان ممن يكثر ملازمة المهتدي ، وكان حسن المجلس ،

عارفا بأيام الناس وأخبارهم ـ قال : كنت أبايت في الليالي المهتدي ، فقال لي ذات ليلة : أتعرف خبر نوف الذي حكاه عن علي بن أبي طالب حين كان يبايته ؟

قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، ذكر نوف قال : رأيت عليا رضي الله عنه ليلة قد أكثر الخروج والدخول والنظر الى السماء ، ثم قال لي : يانوف ، أنائم أنت ؟

قال : قلت : بل رامق أرمق بعيني منذ الليلة يا أمير المؤمنين .

فقال لي : يانوف ، طوبى للزاهدين في الدنيا ، الراغبين في الآخرة ، اولئك قوم اتخذوا أرض الله بساطا ، وترابها ثيابا ، وماءها طيبا ، والكتاب شعارا ، والدعاء دثارا ، ثم قرضوا الدنيا قرضا على منهاج المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام يا نوف . ان الله تعالى أوحى الى عبده عيسى عليه السلام أن قل لبني اسرائيل ألا يدخلوا اليّ الا بقلوب وجلة ، وأبصار خاشعة ، وأكف نقية ، وأعلمهم اني لا أجيب لأحد منهم دعوة ولأحد من خلقي قبلهم مظلمة .

قال محمد بن علي الربعي : فوالله لقد كتب المهتدي هذا الخبر بخطه ، وقد كنت أسمعه في جوف الليل وقد خلا بربه في بيت كان لخلوته وهو يبكي ويقول : يا نوف ، طوبى للزاهدين في الدنيا ، الراغبين في الآخرة . . . ويمر في الخبر الى آخره ، الى أن كان من أمره ما كان مع الأتراك وقتلهم اياه .

علة حب الدنيا

قال محمد بن علي : قلت للمهتدي ذات يوم ـ وقد خلوت به ، وقد أكثر من ذكر آفات الدنيا ومن رغب فيها ، ومن انحرف عنها وزهد فيها ـ : يا أمير المؤمنين ، ما للانسان العاقل المميز مع علمه بجميع آفات الدنيا وسرعة انتقالها وزوالها وغرورها لطلابها يحبها ويأنس اليها ؟

قال المهتدي : حق ذلك له ، منها خلق ، فهي أمه ، وفيها نشأ فهي عيشه ، ومنها قدر رزقه فهي حياته ، وفيها يعاد فهي كفاته ، وفيها اكتسب الجنة فهي مبدأ سعادته ، والدنيا ممر الصالحين الى الجنة ، فكيف لا يحب طريقا تأخذ بسالكها الى الجنة في نعيم مقيم خالدا مخلدا ان كان من أهلها ؟!

وقيل : ان هذا الكلام في جواب علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وأجاب به سائلا سأله عن ذلك ، وهو مأخوذ من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، حين مدح الدنيا وذم الذام لها ، على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في باب ذكر زهده وأخباره .

خروج صاحب الزنج بالبصرة

قال المسعودي : وكان خروج صاحب الزنج بالبصرة في خلافة المهتدي ، وذلك سنة خمس وخمسين ومائتين ، وكان يزعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وأكثر الناس يقول: انه دعي ، آل أبي طالب ينكرونه وكان من أهل قرية من أعمال الري يقال لها ورزنين ، وظهر من فعله ما دل على تصديق رمي به من أنه كان يرى رأي الأزارقة من الخوارج ، لأن أفعاله في قتل النساء والأطف وغيرهم من الشيخ الفاني وغيره ممن لا يستحق القتل يشهد بذلك عليه ، وله خطبة يقول أولها : الله أكبر الله أكبر ، لا اله الا الله والله أكبر ، ألا لا حكم الا للّه .

وكان يرى الذنوب كلها شركا ، وكان أنصاره الزنج ، وكان ظهوره ببئر نخل بـ مدينة الفتح وكرخ البصرة في ليلة الخميس لثلاث بقين من شهر رمضان سنة خمس وخمس ومائتين .

وغلب على البصرة في سنة سبع وخمسين ومائتين ، وقتل ليلة السبت لليلتين خلتا صفر سنة سبعين ومائتين ، وذلك في خلافة المعتمد على الله .

وقد صنف الناس في أخباره وحروبه وما كان من أمره كتبا كثيرة .

وكان أول من صنف أخباره وما كان من بدء أمره ووقوعه الى بلاد البحرين ، وما كـ من خبره مع الأعراب ، محمد بن الحسن بن سهل ، ابن أخي ذي الرياستين الفضل سهل صاحب المأمون ، وهو الرجل الذي كان من أمره مع المعتضد بالله ما قد ذكرناه واشـ قبل ذلك في الناس ، وما كان من أمره الى أن جعله كدجاج على النار وجلده ينتف ويتقرقع .

وقد ذكر الناس صاحب الزنج في أخبار المبيضة وكتبهم ، وقد أتينا على جميع خبره و خبر البلالية والسعدية بالبصرة في الكتاب الأوسط ، فأغنى ذلك عن اعادته ، وسنورد في هـ الكتاب في الموضع المستحق له لمعا من ذكره وما كان من أمره في مقتله .

عمرو بن بحر الجاحظ

قال المسعودي : وفي هذه السنة (وهي سنة خمس وخمسين ومائتين ، وقيل سنة سـ وخمسين ومائتين) ، كانت وفاة عمرو بن بحر الجاحظ بالبصرة في المحرم ، ولا يعلم أحد الرواة وأهل العلم أكثر كتبا منه ، مع قوله بالعثمانية .

وقد كان أبو الحسن المدائني كثير الكتب ، الا أن أبا الحسن المدائني كان يؤدي سمع .

وكتب الجاحظ ـ مع انحرافه المشهور ـ تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ .

وكان اذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع خرج من جد الى هزل ، ومن حكمة بليغة الى نادرة ظريفة .

وله كتب حسان : منها كتاب البيان والتبيين ، وهو أشرفها ، لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم ، وغرر الأشعار ، ومستحسن الأخبار ، وبليغ الخطب ، ما لو اقتصر عليه مقتصر عليه لاكتفى به .

وكتاب الحيوان ، وكتاب الطفيليين ، وكتاب البخلاء ، وسائر كتبه في نهاية الكمال ، مما لم يقصد منها الى نصب ولا الى دفع حق ، ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه ، وكان غلام ابراهيم بن سيار النظام ، وعنه أخذ ، ومنه تعلم .

وحدث يموت بن المزرع ـ وكان الجاحظ خاله ـ قال : دخل الى حالي أناس من البصرة من أصدقائه في العلة التي مات فيها ، فسألوه عن حاله ، فقال : عليل من مكانين : من الأسقام والدَّين .

ثم قال : أنا في هذه العلة المتناقضة التي يتخوف من بعضها التلف وأعظمها نيف وسبعون سنة ، يعني عمره .

قال يموت بن المزرع : وكان يطلي نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته ، والنصف الآخر لو قرض بالمقاريض ما شعر به من خدره وبرده .

قال ابن المزرع : وسمعته يقول : رأيت بالبصرة رجلا يروح ويغدو في حوائج الناس ، فقلت له : قد أتعبت بذلك بدنك ، وأخلقت ثيابك ، وأعجفت برذونك ، وقتلت غلامك ، فما لك راحة ولا قرار ، فلو اقتصدت بعض الاقتصاد .

قال : سمعت تغريد الأطيار في الأسحار ، في أعالي الأشجار ، وسمعت محسنات القيان على الأوتار ، فما طربت طربي لنغمة شاكر أوليته معروفا أو سعيت له في حاجة .

يموت بن المزرع

وكان يموت لا يعود مريضا خوفا من أن يتطير باسمه ، وله أخبار حسان ، وأشعار جياد ، وقد كان سكن طبرية من بلاد الأردن من الشام فمات بها ، وذلك بعد الثلثمائة ، وكان من أهل العلم والنظر والمعرفة والجدل ، وله ولد يقال له مهلهل بن يموت بن المزرع ، وهو شاعر مجيد من شعراء هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، وفيه يقول أبوه

يموت بن المزرع :

مهلهل قد حلبت شطور دهر	فكافحني بها الزمن العنوت
وجاريت الرجال بكل ربع	فأذعن لي الحثالة والرتوت
فأوجع ما أجن عليه قلبي	كريم عضه زمن عتوت
كفى حزنا بضيعة ذي قديم	وأبناء العبيد لها التخوت
وقد أسهرت عيني بعد غمض	مخافة أن تضيع اذا فنيت
وفي لطف المهيمن لي عزاء	بمثلك ان فنيت وان بقيت
وان يشتد عظمك بعد موتي	فلا تقطعك جائحة سنوت
وقل : بالعلم كان أبي جوادا	يقال : ومن أبوك ؟ فقل : يموت
تقر لك الأباعد والأداني	بعلم ليس يجحده البهوت

وللمهتدي أخبار حسان قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا ، والله ولي التوفيق .

ذكر خلافة المعتمد على الله
أحمد بن جعفر المتوكل

موجز

وبويع المعتمد أحمد بن جعفر المتوكل ، يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين ، وهو ابن خمس وعشرين سنة ، ويكنى أبا العباس ، وأمه أم ولد كوفية يقال لها فتيان .

ومات في رجب سنة تسع وسبعين ومائتين ، وهو ابن ثمان وأربعين سنة .

فكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة .

ذكر جمل من أخباره وسيره
ولمع مما كان في أيامه

وزراؤه

ولما أفضت الخلافة الى المعتمد على الله استوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل ، فلما مات عبيد الله استوزر الحسن بن مخلد ، ثم صارت الوزارة الى سليمان بن وهب ، ثم صارت الى صاعد .

حرب صاحب الزنج

وخلع المعتمد على أخيه أبي أحمد الموفق وعلى مفلح ، يوم الخميس مستهل ربيع الأول سنة ثمان وخمسين ومائتين ، وأشخصهما الى البصرة لمحاربة صاحب الزنج ، فأوقع مفلح التركي بصاحب الزنج يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثمان وخمسين ومائتين فأصاب مفلحا سهم في صدغه ، فأصبح يوم الأربعاء ميتا ، وحمل الى سامرا فدفن بها ، وانصرف أبو أحمد عن محاربة صاحب الزنج .

الامام الثاني عشر

وفي سنة ستين ومائتين قبض أبو محمد الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام في خلافة المعتمد ، وهو ابن تسع وعشرين سنة ، وهو أبو المهدي المنتظر ، والامام الثاني عشر عند القطعية من الامامية ، وهم جمهور الشيعة .

وقد تنازع هؤلاء في المنتظر من آل النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة الحسن بن علي وافترقوا على عشرين فرقة .

وقد ذكرنا حجاج كل طائفة منهم لما اجتبته لنفسها واختارته لمذهبها ، في كتابنا المترجم بـ « سر الحياة » وفي كتاب « المقالات ، في أصول الديانات » وما ذهبوا اليه من الغيبة وغير ذلك .

وقد كان المهتدي سير بقبيحة أم المعتز وعبد الله بن المعتز واسماعيل بن المتوكل وطلحة ابن المتوكل وعبد الوهاب بن المنتصر الى مكة ، فلما أفضت الخلافة الى المعتمد بعث بحملهم الى سامرا .

يعقوب الصفار

وفي سنة اثنتين وستين ومائتين كان مسير يعقوب بن الليث الصفار نحو العراق في جيوش عظيمة ، فلما نزل دير العاقول على شاطىء دجلة بين واسط وبغداد ، وقد أتينا في كتابنا « أخبار الزمان » على بدء خبر يعقوب بن الليث ببلاد سجستان ، وكونه في حال صغره صفارا ، وخروجه من مطوعة سجستان الى حرب الشراة ، واتصاله بدرهم بن نصر ، وخبر شادرق مدينة الشراة مما يلي بلاد سجستان ، المعروفة بأوق .

وترقى الأمر بيعقوب الى أن كان من أمره ودخوله بلاد زابلستان ـ وهي بلاد فيروز بن كبك ملك زابلستان ـ وما كان من أمره مع رسول ملك الهند على جسر بسط ودخوله بلاد هراة ثم بلخ ، وإعماله الحيلة الى أن دخل بلاد نيسابور ، وقبضه على محمد بن طاهر بن عبد الله ابن طاهر بن الحسين ، ثم دخوله الى بلاد طبرستان ، ومواقعته الحسن بن زيد الحسنى ، مع ما قدمنا قبل وصفنا من خبر حمزة بن أدرك الخارجي ، وما كان من أمره في أيام عبد الله بن طاهر ، واليه تضاف الحمزية من الخوارج ، وانتهينا بأخبار يعقوب بن الليث من بدئه الى غايته ووفاته ببلاد جندي سابور من كور الأهواز .

فلما نزل يعقوب بن الليث دير العاقول خرج المعتمد فعسكر يوم السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين ومائتين في الموضع المعروف بالقائم بسامرا ، واستخلف ابنه المفوض ، ووصل المعتمد الى سيب بني كوما يوم الخميس لخمس خلون من رجب من هذه السنة ، فواقع الصفار يوم الأحد لتسع خلون من رجب من السنة في الموضع المعروف باضطربد بين السيب ودير العاقول ، فهزم الصفار ، واستباح عسكره ، وأخذ من أصحابه نحو عشرة آلاف رأس من الدواب ، وذلك أنه فجر عليه النهر المعروف بالسيب ، فغشي الماء الصحراء ، وعلم الصفار أن الحيلة قد توجهت عليه ، وقد كان حمل على أصحاب السلطان

في ذلك اليوم بضع عشرة حملة ، وغرق ابراهيم بن سيما ، وقتل بيده خلقا كثيرا ، وطعن محمد بن أوتامش التركي ، وكان يتوهم أنه خادم ، وقال لأصحابه : ما رأيت في عسكرهم مثل هذا الخادم .

وقد كان الصفار في هذا اليوم قصد الميمنة ـ وكان عليها موسى بن بغا ـ وقتل خلقا كثيرا من الناس منهم المغربي المعروف بالمبرقع .

ونجا الصفار بنفسه والخواص من أوليائه ، واتبعه جيش المعتمد وأهل القرى والسواد ، فغنم الأكثر من ماله وعدده ، واستنقذ محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر ، وكان مقيدا ، وكان أسره من نيسابور على ما قدمنا ، ومعه علي بن الحسين من قريش .

وأتى الموفق ـ وكان في القلب ـ محمد بن طاهر ففك قيوده وخلع عليه ، ورده الى مرتبته . وقيل : ان السبب في هزيمة الصفار في ذلك اليوم ـ مع ما ذكرنا من فجر النهر وارتطام الخيول فيه ـ أن نصيرا الديلمي مولى سعيد بن صالح الحاجب كان في الشذوات في بطن دجلة ، فوافى مؤخر عسكر الصفار وسواده ، فخرج من الشذوات فطرح النار في الابل والبغال والحمير والخيول ، وكان في عسكره خمسة آلاف جمل بختي من جمازيات وغيرها ، فتفرقت الابل في العسكر ، وشردت البغال والخيل . واضطرب الناس في مصاف الصفار لما سمعوه ورأوه في عسكره وسواده من ورائهم .

فكانت الهزيمة على الصفار بما ذكرنا ، ويقال : ان يعقوب بن الليث قال في سفرته هذه أبياتا ، وفي مسيره ، وأنه خرج منكرا على المعتمد ومن معه من الموالي اضاعتهم الدين واهمالهم أمر صاحب الزنج ، فقال :

خراسان أحويها وأعمال فارس	وما أنا من ملك العراق بآيس
اذا ما أمور الدين ضاعت وأهملت	ورثت فصارت كالرسوم الدوارس
خرجت بعون الله يمناو نصرة	وصاحب رايات الهدى غير حارس

وكانت وفاة الصفار يوم الثلاثاء لسبع بقين من شوال سنة خمس وستين ومائتين ، على ما ذكرنا بجندي سابور .

وخلف في بيت ماله خمسين ألف ألف درهم وثمانمائة ألف دينار ، وخلفه أخوه عمرو ابن الليث مكانه .

سياسة الصفار

وكانت سياسة يعقوب بن الليث لمن معه من الجيوش سياسة لم يسمع بمثلها فيمن

سلف من الملوك في الأمم الغابرة من الفرس وغيرهم ممن سلف وخلف ، وحسن انقيادهم لأمره ، واستقامتهم على طاعته لما كان قد شملهم من احسانه ، وغمرهم من بره ، وملأ قلوبهم من هيبته .

طاعة أتباعه له

فمما ذكر من ظهور طاعتهم له أنه كان بأرض فارس ، وقد أباح الناس أن يرتعوا ، ثم حدث أمر أراد النقلة والرحيل من تلك الكورة ، فنادى مناديه بقطع الدواب عن الرتع ، وأنه رؤي رجل من أصحابه قد أسرع الى دابته والحشيش في فمها ، فأخرجه من فيها مخافة أن تلوكه بعد سماعه النداء ، وأقبل على الدابة مخاطبا فقال بالفارسية : أمير المؤمنين دوابر أزتر بريدند ، وتفسير ذلك : اقطعوا الدواب عن الرطبة .

وأنه رؤي في عسكره في ذلك الوقت رجل من قواده ذو مرتبة والدرع الحديد على بدنه لا ثوب بينه وبين بشرته ، فقيل له في ذلك ، فقال : نادى منادي الأمير : البسوا السلاح ، وكنت عريانا أغتسل من جنابة ، فلم يسعني التشاغل بلبس الثياب عن السلاح .

وكان الرجل اذا أتاه راغبا في خدمته مؤثرا للانقطاع اليه تفرس فيه ، فاذا أعجبه منظره امتحن خبره واستبرأ ما عنده من رمي أو طعان أو غير ذلك من ثقافة ، فاذا رأى منه ما يعجبه سأله عن خبره وحاله ، ومن أين أقبل ، ومع من كان ، فاذا وافقه ما سمعه منه قال له : أصدقني عما معك من المال والمتاع والسلاح ، فيقف على جميع ما معه ، ثم يبعث أناسا قد رتبوا لذلك ، فيبيعون جميع ذلك ، ويجعلونه عينا أو ورقا ، ويدفع اليه ، ويثبت في الديوان .

ثم تزيح علله في اللباس والسلاح والمأكل والمشرب والدواب والبغال والحمير من اصطبله ، حتى لا يفقد الرجل جميع ما يحتاج اليه من أمره على قدر مكانه ومرتبته ، فان تقم عليه بعد ذلك مذهبه ، ولم يرض احتياره ، سلبه جميع ما أنعم به عليه ، حتى يخرج من عسكره نحو ما دخل اليه ، محتملا بما معه من ذلك العين والورق ، الا أن يكون ذلك الرجل معتضدا ، فيصير له فضل من أرزاقه ، فلا يمنعه ما كان له من متقدم ماله .

وكانت جميع دوابه ملكا له وان أعلافها من قبله ، ولها ساسة ووكلاء يقومون بأمرها الا خصوص دوابهم التي تكون عندهم الا أن ملكها له ، واتخذ لنفسه عريشا من خشب يشبه السرير ، حيثما تولجه من مسيره ، فيكثر الجلوس عليه ويشرف منه على أهل معسكره ، وعلى قضيم دوابه ، ويرمق الخلل من وكلائه ، فاذا رأى شيئا يكرهه بادر بتغييره .

وقد كان انتخب من أصحابه ألف رجل على اختيار لهم ، والغنى الظاهر منهم ، والنكاية

في حروبهم ، فجعلهم اصحاب الأعمدة الذهب ، كل عمود منها فيه ألف مثقال من الذهب ، ثم يليهم في اللباس والغنى فوج ثان هم أصحاب الأعمدة الفضة ، فاذا كان في الأعياد ، أو في الأيام التي يحتاج فيها الى مباهاة الأعداء والاحتفال ، دفع اليهم تلك الأعمدة ، وانما ضربت هذه الأعمدة عدة للنوائب .

وسئل بعض ثقاته ، ممن ينظر حاله ، عن اشتغاله في خلواته ، وعن مجالسته مع أهل بطانته ، وهل يسمر مع أحد أو يجالسه ، فذكر أنه لا يطلع أحدا على سره ولا يعرف أحد بتدبيره وعزمه ، وأكثر نهاره خاليا بنفسه يفكر فيما يريده ، ويظهر غير ما يضمره ، ولا يشرك أحدا فيما يدبره برأي ولا غيره ، وان تفرحه واشتغاله بغلمان صغار يتخذهم ، ويؤدبهم ، ويخرجهم ، ويدعوهم ، ويدفع لهم ما قد عمله لهم من السيور ، يتصاربون بها بين يديه ، ففي هذا أكثر شغله اذا فرغ من تدبيره .

ولما واقع الصفار الحسن بن زيد الحسني بطبرستان - وذلك في سنة ستين ومائتين ، وقيل : سنة تسع وخمسين ومائتين - وانكشف الحسن بن زيد وأمعن يعقوب في الطلب ، وكانت معه رسل السلطان قد قصدوه بكتب ورسالة من المعتمد ، وهم راجعون من طلب الحسن بن زيد ، قال له بعضهم لما رأى من طاعة رجاله وما كان منهم في تلك الحرب : ما رأيت أيها الأمير كاليوم .

قال له الصفار : وأعجب منه ما أريك اياه !

ثم قربوا من الموضع الذي كان فيه عسكر الحسن بن زيد ، فوجدوا البدر والكراع والسلاح والعدد ، وجميع ما خلف في العسكر حين الهزيمة على حاله : لم يلتبس أحد من أصحابه منه بشيء ، ولا دنوا اليه ، معسكرين بالقرب منه من حيث يرونه بالموضع الذي خلفهم فيه الصفار ، فقال له الرسول : هذه سياسة ورياضة راضهم الأمير بها الى أن تأتى له منهم ما أراد .

وكان لا يجلس الا على قطعة مسح ، شبه أن يكون طوله سبعة أشبار في عرض ذراعين أو أرجح ، والى جانبه ترسه وعليه اتكاؤه ، وليس في مضربه شيء غيره ، فاذا أراد أن ينام من ليله أو نهاره ، اضطجع على ترسه ، ونزع راية فيجعلها مخدته ، وأكثر لباسه خفتان مصبوغ فاختي .

وكان من سنته أن للقواد والرؤساء والعظماء عنده مراتب في الدخول بباب مضربه ، بحيث تقع عينه عليهم ، ويرى مداخلهم ، فيرمون مع أطناب الشقاق الى خيمة مضروبة ، بحيث لا يرى هو موضعها ، لكنه يرى مداخلهم اليها ، ومخرجهم منها ، فمن احتاج اليه منهم ، واحتاج الى كلامه أو أمره أو نهيه ، دعاه فأمره ، وكان دخولهم بحيث يقع

نظره عليهم عوضا من السلام عليه .

ولم يكن لأحد أن يتقدم الى باب مجلسه الا رجل من خواصه ، يعرف بالعزيز ، واخوته ، وله من وراء خيمته خيمة تقرب من أطناب مجلسه ، فيها غلمان من خواصه ، فاذا احتاج الى أمر يأمر به صاح بهم ، فخرجوا اليه ، والا فهو في أكثر نهاره وليله في ذلك الموضع لا يقومون على رأسه .

وخيمته من داخل أخبية مطنبة ، كلها يدور فيها خمسمائة غلام ، يبيتون من داخل مضربه ، على كل نفس منهم ثقة ، قد وكل بتفقد أحواله ، لئلا يكون منهم عبث أو فساد ، فهو المأخوذ به ، ويذبح له في كل يوم عشرون شاة ، فتطبخ في خمس قدور من الصفر الكبار ، وله قدور حجارة يتخذ له فيها بعض ما يشتهيه ، وله أرزة في كل يوم وخبيصة وفالوذج مع القدور الخمس ، وهي الوان غليظة ، فيأكل منها ، ويفرق الباقي في الغلمان الذين في داخل مضربه ، ثم أهل عسكره حول مضربه وقربهم منه على حسب مراتبهم عنده .

وقال بعض من ورد اليه برسالة السلطان : ايها الأمير ، أنت في رياستك ومجلسك ليس في خيمتك الا سلاحك ومسح أنت عليه .

قال : ان رئيس القوم يأتم به أصحابه في ما يظهر من أفعاله وسيرته ، فلو استعملت ما ذكرت من الأثاث ، لأثقلنا البهائم ، ولائتم به في فعلي من في عسكري ، ونحن نقطع في كل يوم المهامه والمفاوز والأودية والقيعان ، ولا يصلح لنا الا التخفيف .

وكان قليل الاستعمال للبغال في عسكره ، وكان في عسكره خمسة آلاف جمل بخت ، وأضعاف عددها حمير شهب كالبغال ، وهي الحمير المعروفة بالصفارية ، تحمل الأثقال عوضا من البغال ، وكان السبب في ذلك أنه اذا نزل خليت الجمال والحمير للرعي ، وليس في وسع البغال ذلك .

***

قال المسعودي : وليعقوب بن الليث الصفار ، وعمرو بن الليث أخيه ، سير وسياسات عجيبة ، وحيل ومكايد في الحروب قد أتينا على ذكرها ، وما انتظم لنا من وصفها ، في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وانما نذكر في هذا الكتاب منها لمعا مما لم نعرض لذكره فيما سلف من كتبنا .

وفاة موسى بن بغا

وفي سنة أربع وستين ومائتين ـ وذلك في خلافة المعتضد ـ كانت وفاة موسى بن بغا ،

وفيه يقول بعض الشعراء ، وكان قد امتدحه فلم يصله بشيء :

مات موسى فهان ذاك علينا لم يضرني اذ قيل قدمات شيا
وكذا لا يضيرني موت من لم يسدِ خيرا الي اذ كان حيا

موت المزني

وفي هذه السنة ـ وهي سنة أربع وستين ومائتين ـ مات أبو ابراهيم اسماعيل بن يحيى المزني صاحب المختصر من علم محمد بن ادريس الشفاعي ، يوم الخميس ، لست بقين من شهر ربيع الأول من هذه السنة ، بمصر .

موت جماعة من أهل العلم

وفيها مات أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن بن وهب ابن أخي عبد اللّه بن وهب ، صاحب مالك بن أنس ، وقد روى عن عمه عبد الله بن وهب عن مالك .

وفيها مات يونس بن عبد الأعلى الصبدفي بمصر ، وهو ابن اثنتين وتسعين سنة .

وفيها مات أبو خالد يزيد بن سنان بمصر ، وصلى عليه بكار بن قتيبة القاضي .

وشخص الموفق لمحاربة صاحب الزنج ، في صفر سنة سبع وستين ومائتين .

وقدم الموفق ابنه أبا العباس في ربيع الآخر الى سوق الخميس ، وقد كان الشعراني صاحب العلوي قد تحصن بها في جمع كثير من الزنج ، ففتح هذا الموضع ، وغنم جميع ما كان فيه ، وفتح مواضع كثيرة ، وقتل من كان فيها من الزنج .

وسار الموفق الى الأهواز فأصلح ما أفسده الزنج ، ثم عاد الى البصرة فلم يزل منازلا لصاحب الزنج حتى قتل ، فكانت مدة أيامه أربع عشرة سنة واربعة أشهر ، يقتل الصغير والكبير ، والذكر والأنثى ، ويحرق ويخرب . وقد كان أتى بالبصرة في وقعة واحدة على قتل ثلثمائة ألف من الناس .

من أعمال المهلبي بالبصرة

وقد كان المهلبي من علية أصحاب علي بن محمد بعد هذه الوقعة بالبصرة ، فنصب منبرا بالموضع المعروف بمقبرة بني يشكر ، وكان يصلي يوم الجمعة بالناس ، ويخطب على ذلك المنبر لعلي بن محمد ، ويترحم بعد ذلك على أبي بكر وعمر ، ولا يذكر عثمان ولا عليا في خطبته ، ويلعن جبابرة بني العباس ، وأبا موسى الأشعري ، وعمرو بن العاص ، ومعاوية ابن أبي سفيان ، على ما قدمنا من قوله في هذا الكتاب ، وأنه كان يذهب الى رأي الأزارقة من الخوارج .

ولما ركن من بقي بالبصرة الى هذا الفعل من المهلبي بها اجتمعوا في بعض الجمع ، فوضع فيهم السيف ، فمن ناج سالم ، ومن مقتول ، ومن غريق ، واختفى كثير من الناس في الدور والآبار ، فكانوا يظهرون بالليل ، فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها ، والفيران ، والسنانير ، فأفنوها حتى لم يقدروا منها على شيء ، فكانوا اذا مات منهم الواحد أكلوه ، ويراعي بعضهم موت بعض ، ومن قدر منهم على صاحبه قتله وأكله وعدموا مع ذلك الماء العذب .

وذكر عن امرأة منهم أنها حضرت امرأة تنازع ومعها أختها ، وقد احتوشوها ينظرون أن تموت فيأكلوا لحمها ، قالت المرأة : فما ماتت حتى ابتدرناها فقطعنا لحمها وأكلناها .

وقد حضرت أختها وقد جاءت على النهر ونحن على مشرعة عيسى بن أبي حرب ، وهي تبكي ومعها رأس أختها ، فقيل لها : ويحك ! ما لك تبكين ؟!

قالت : اجتمعوا على أختي فما تركوها تموت موتا حسنا حتى قطعوها ، فظلموني ، فلم يعطوني من لحمها شيئا الا رأسها هذه ، وهي تشتكي ظلمهم لها في أختها . . . ومثل هذا كثير ، وأعظم مما وصفنا .

وبلغ من أمر عسكره أنه كان ينادي فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من ولد هاشم وقريش وغيرهم من سائر العرب وأبناء الناس ، تباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة ، وينادى عليها بنسبها : هذه إبنة فلان الفلاني ، لكل زنجي منهم العشرة والعشرون والثلاثون : يطؤهن الزنج ، ويخدمن النساء الزنجيات ، كما تخدم الوصائف .

ولقد استغاثت الى علي بن محمد امرأة من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب كانت عند بعض الزنج ، وسألته أن ينقلها منه الى غيره من الزنج أو يعتقها مما هي فيه ، فقال لها : هو مولاك وأولى بك من غيره .

وقد تكلم الناس في مقدار ما قتل في هذه السنين من الناس فمكثر ومقلل ، فأما المكثر فانه يقول : أفنى من الناس ما لا يدركه العدد ، ولا يقع عليه الاحصاء ولا يعلم ذلك الا عالم الغيب ، فيما فتح من هذه الأمصار والبلدان والضياع وأباد من أهلها ، والمقلل يقول : أفنى من الناس خمسمائة ألف نفر ، وكلا الفريقين يقول في ذلك ظنا وحدسا ، اذ كان شيئا لا يدرك ولا يضبط .

وكان مقتله على ما بينا آنفا سنة سبعين ومائتين ، وذلك في خلافة المعتمد .

صاعد بن مخلد

وقد كان الموفق بعد ذلك وجه بصاعد بن مخلد في سنة اثنتين وسبعين ومائتين الى حرب

الصفار ، فأمره على من معه من الجيوش ، وشيعه الموفق ، فلما صار الى بلاد فارس تجبر واشتد سلطانه .

وانصرف من المدائن في بعض الأيام فاحتجم في خفة ورانة عليه ، ونمى ذلك الى الموفق وما هو عليه من التجبر ، فقال في ذلك أبو محمد عبد الله بن الحسين بن سعد القطربلي الكاتب في قصيدة طويلة اقتصرنا منها على ما نذكره ، وهو :

تكفهر لما طغى ودان بدين العجم
وأصبح في خفة وفي رانة محتجم

فأشخصه الموفق الى واسط ، فكان مدة مقامه في الوزارة سبع سنين الى أن قبض عليه وعلى أخيه عبدون النصراني .

وماتت جارية لصاعد بعد حبسه ، وكانت الغالبة على أمره ، وكان يقال لها أعفر ، وماتت بعدها بأيام أم الموفق ، ففي ذلك يقول عبد الله بن الحسين بن سعد من أبيات له :

أخذت جعفر برأس القطار ثم قالت : آذنتكم بالبوار
فأجابت أم الأمير ، وقالت : قد أتيناك أول الزوار
وسيأتيك صاعد عن قريب كتبه للبلاء في الاستطار

وأحصى ما وجد لصاعد من الرقيق والمتاع والكسوة والسلاح والآلات في خاصة نفسه ، دون ما وجد لأخيه عبدون ، فكان مبلغه ثلثمائة ألف دينار ، وكان مبلغ غلته في سائر ضياعه ألف ألف وثلثمائة ألف .

ومات صاعد في الحبس ، وذلك في سنة ست وسبعين ومائتين .

وفاة جماعة من الأعيان

وفي سنة سبعين ومائتين كانت وفاة أبي سليمان داود بن علي الأصبهاني ، الفقيه ببغداد . وفيها مات أبو أيوب سليمان بن وهب الكاتب ، وأحمد بن طولون ، وذلك بمصر يوم السبت لعشر خلون من ذي القعدة من سنة سبعين ومائتين ، وله خمس وستون سنة .

أحمد بن طولون وابنه

وكانت ولاية أحمد بن طولون سبع عشرة سنة ، وكان بين الظفر بصاحب الزنج ومرض أحمد بن طولون عشرة أشهر ، ولما يئس أحمد بن طولون من نفسه بايع لابنه أبي

الجيش بالأمر من بعده ، فلما توفي جدد أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون العهد لنفسه .

وقعة الطواحين

ووجه الموفق ابنه أبا العباس لمحاربة أبي الجيش خمارويه في سنة احدى وسبعين ومائتين ، فكانت الوقعة بينهما بالطواحين من أعمال فلسطين يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من شوال في هذه السنة ، فكانت الهزيمة على أبي الجيش .

واحتوى أبو العباس على جميع عسكره ، وأفلت أبو الجيش في جماعة من قواده حتى أتى الفسطاط ، وتخلف غلامه سعد الأعسر فواقع أبا العباس ، فهزمه واستباح عسكره ، وقتل رؤساء قواده ، وجلة أصحابه .

ومضى أبو العباس لا يلوي على شيء حتى أتى العراق ، وقلد أبو الجيش أمر وزراته علي بن أحمد المادراني ، وأبو بكر محمد بن علي بن أحمد المادراني هو المعتقل في يد الاخشيد محمد بن طغج في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) وقد كان على وزارته بمصر هو وولده الحسين بن محمد ، فلما استوزر الاخشيد أبا الحسن علي بن خلف بن طباب وانفصل من دمشق الى الفسطاط قبض عليه وعلى أخيه ابراهيم بن خلف واستوزر أبا الحسن محمد بن عبد الوهاب .

الربيع المرادي

وفي سنة سبعين ومائتين كانت وفاة الربيع بن سليمان ، المرادي ، المؤذن ، صاحب محمد بن ادريس الشافعي ، والراوي لأكثر كتبه عنه بمصر .

وأخبرنا أبو عبد الله الحسن بن مروان المصري وغيره ، عن الربيع بن سليمان ، قال : استعار الشافعي من محمد بن الحسن الكوفي شيئاً من كتبه ، فلم يبعث بها اليه ، فكتب اليه الشافعي :

يا ، قل لمن لم تر عيـ ـن من رآه مثله
من كان من قد راءه ما قد رأى من قبله
ومن كلامنا له حيث عقلنا عقله
لأن ما يجنه فاق الكمال كله
العلم ينهى أهله أن يمنعوه أهله
لعله يبذله لأهله لعله

فبعث اليه محمد بن الحسن بأكثر كتبه التي سأل عنها .

المعتمد والموفق

وبايع المعتمد لابنه جعفر ، وسماه المفوض الى الله ، وقد كان المعتمد آثر اللذة واعتكف على الملاهي ، وغلب أخوه أبو أحمد الموفق على الأمور وتدبيرها ، ثم حظر على المعتمد وحبسه .

فكان أول خليفة قهر وحبس وحجر عليه ، ووكل به بفم الصلح ، وقد كان قبل ذلك هرب وصار الى حديثة الموصل ، فبعث الموفق بصاعد الى سامرا ، وكتب الى اسحاق بن كنداج فرده من حديثة الموصل .

خروج احمد بن طولون

وفي سنة أربع وستين ومائتين كان خروج أحمد بن طولون من مصر مظهرا للغزو في عساكر كثيرة وخلق من المطوعة قد انجذبوا معه من مصر وفلسطين .

فقبل وصوله الى دمشق مات ماجور التركي بدمشق ، وقد كان عليها ، فدخلها أحمد واحتوى على جميع تركته من الخزائن وغيرها ، وسار منها الى حمص ، وسار منها الى بلاد أنطاكية .

ووصلت مقدمته الى بلاد الاسكندرية من شاطىء بحر الروم، ووصل هو الى الموضع المعروف ببغراس من جبل اللكام ، وقد تقدمته المطوعة والغزاة الى الثغر الشامي ، ثم عطف هو راجعا من غير أن يكون تقدم الى الناس معرفة ذلك منه ، حتى نزل مدينة أنطاكية ، وفيها يومئذ سيما الطويل في عدة منيعة من الأتراك وغيرهم .

وقد قدمنا فيما تقدم من هذا الكتاب الخبر عن كيفية بناء أنطاكية ، وقصة سورها ، والملك الباني لها ، وصفة سورها في السهل والجبل .

وقد كان ، قبل نزول أحمد بن طولون على أنطاكية ، وقع بين سيما وبين أحمد المؤيد حروب كثيرة ببلاد جند قنسرين والعواصم من أرض الشام .

وكان سيما الطويل قد عم أذاه أهلها من قتل وأخذ مال ، وكان نزول ابن طولون على باب من أبوابها يعرف بباب فارس تلقاء السوق ، وقد أحاطت عساكره بها ، ونزل غلامه المعروف بلؤلؤ على باب من أبوابها يعرف بباب البحر .

وقد كان لؤلؤ بعد ذلك انحدر الى السلطان مستأمنا ، فأتى الموفق وهو منازل لصاحب الزنج ، فكان من أمره وقتل صاحب الزنج ما قدمنا ذكره فيما سلف من كتبنا من وقوع المشاجرة بين أصحاب لؤلؤ وأصحاب الموفق كما قدمنا أيهم القاتل لصاحب الزنج ، وكادت الحال ان تنفرج بينهم في ذلك اليوم حتى قيل في عسكر الموفق :

كيفما شئتـم فقولوا انمـا الفتـح للولـو

فكان ابن طولون على أنطاكية في آخر سنة أربع وستين ومائتين ، وكان افتتاحه اياها في سنة خمس وستين ومائتين بالحيلة من داخلها من بعض أهلها بالليل ، وقد أخذوا بحراسهم سورها ، فتحدر بعضهم مما يلي الجبل وباب فارس ، فأتى ابن طولون وقد يئس من فتحها لمنعتها وحصانة سورها ، فوعدوه فتحها، فضم اليه عدة من رجالـه ، فتسلقـوا من حيث نزلوا .

واستعد هو في عسكره ، وأخذ أهبته ، وسيا في داره ، فلما انفرج عمود الصبح الا والطولونية قد كبروا على سورهـا ، ونزلـوا منحـدرين اليهـا ، وارتفـع الصـوت ، وكثـر الضجيج .

وركب سيا فيمن تسرع معه من خواصه ، فأرسلت عليه امرأة من أعالي سطح حجر رحا فأتت عليه ، وأخذ بعض من عرفه رأسه فأتى به ابن طولون ، وقد دخل من باب فارس ونزل على عين هنالك ومعه الحسين بن عبد الرحمن القاضي المعروف بابن الصابوني الأنطاكي الحنفي .

فعاث أصحاب ابن طولون ساعة بأنطاكية ، وشمل الناس أذاهم ، ثم رفـع ذلك لساعتين من النهار .

وارتحل ابن طولون يؤم الثغر الشامي ، فأتى المصيصة وأذنة .

وامتنع منه أهل طرسوس ، وفيها يا زمان الخادم ، فلم يكن له في فتحهـا حيلـة ، فرجع عنها وقد أراد الغزو على ما قيل ، والله أعلم ، لأمر بلغه أن العباس ولده قد عصي عليه ، وفزع أن يحال بينه وبين مصر ، فحث في السير ودخل الفسطاط ، ولحق العبـاس ببرقة من بلاد المغرب خوفا من أبيه ، وقد حمل معه ما أمكنه حملـه من الخزائـن والأمـوال والعدد ، وقد أتينا على ما جرى بين أحمد بن طولون وولده العباس من المراسلات في كتابنا « أخبار الزمان » .

يازمان غلام الفتح بن خاقان

وكانت وفاة يازمان الخادم في أرض النصرانية غازيا في جيش الاسلام تحت الحصن المعروف بكوكب ، وكان مولى الفتح بن خاقان ، فحمـل الى طرسـوس ، فدفـن ببـاب الجهاد ، وذلك للنصف من رجب سنة ثمان وسبعين ومائتين .

وكان معه في تلك الغزاة من أمراء السلطان المعروف بالعجيفي ، وابن أبي عيسى وكان على امرة طرسوس ، وكان يازمان في نهاية البلاغة في الجهاد في البر والبحر ، وكان معه رجال

من البحريين لم ير مثلهم ولا أشد منهم ، وكان له في العدو نكاية عظيمة ، وكان العدو يهابه ، وتفزع منه النصرانية في حصونها .

ولم ير في الثغور الشامية والجزرية بعد عمرو بن عبيد الله بن مروان الأقطع صاحب ملطية ، وعلي بن يحيى الأرمني صاحب الثغور الشامية ، أشد اقداما على الروم من يازمان الخادم .

عمرو بن عبيد الله الأقطع

وكانت وفاة عمرو بن عبيد الله الأقطع ، وعلي بن يحيى الأرمني في سنة واحدة ، استشهدا جميعا ، وذلك في سنة تسع وأربعين ومائتين في خلافة المستعين بالله .

وقد كان عمرو بن عبيد الله غازيا في تلك السنة في الملطيين ، فلقي ملك الروم في خمسين ألفا ، فصبر الفريقان جميعا ، فاستشهد عمرو بن عبيد الله ومن كان معه من المسلمين الا اليسير ، وذلك يوم الجمعة للنصف من رجب من هذه السنة .

علي بن يحيى الأرمني

وقد كان علي بن يحيى الارمني انصرف عن الثغر الشامي وولي أرمينية ، ثم صرف عنها ، فلما صار الى بلاد ميافارقين من ديار بكر عدل الى ضياع له هنالك ووقع النفير ، فخرج مسرعا ، وقد أغارت جيوش الروم فقتل علي بن يحيى مقدار أربعمائة نفس ، والروم لا تعلم أنه علي بن يحيى الأرمني . .

وأخبرني بعض الروم - ممن كان قد أسلم وحسن اسلامه - أن الروم صورت عشرة أنفس في بعض كنائسها من أهل البأس والنجدة والمكايد في النصرانية والحيلة من المسلمين .

منهم الرجل الذي بعث به معاوية حين احتال على البطريق فأسره من القسطنطينية ، فأقاد منه بالضرب ، ورده الى القسطنطينية ، وعبد الله البطال ، وعمرو بن عبيد الله ، وعلي بن يحيى الأرمني ، والعريل بن بكار ، وأحمد بن أبي قطيفة ، وقرنياس البيلقاني صاحب مدينة ابريق ، وهي اليوم للروم ، وكان بطريق البيالقة .

وكانت وفاته في سنة تسع وأربعين ومائتين ، وحرس حارس أخت قرنياس ، ويا زمان الخادم في موكبه ، والرجال حوله ، وأبو القاسم بن عبد الباقي .

وقد أتينا على وصف مذهب البيالقة واعتقادهم - وهو مذهب بين النصرانية والمجوسية - وقد دخلوا في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) في جملة الروم ، وقد فسرنا خبرهم في كتابنا « أخبار الزمان » .

من حمية معاوية

فأما خبر معاوية ، وما ذكرناه من خبر الرجل الذي أسر البطريق من مدينة القسطنطينية ، فهو أن المسلمين غزوا في أيام معاوية ، فأسر جماعة منهم فأوقفوا بين يدي الملك ، فتكلم بعض أسارى المسلمين ، فدنا منه بعض البطارقة ممن كان واقفا بين يدي الملك ، فلطم حر وجهه ، فآلمه .

وكان رجلا من قريش فصاح : واسلامه ، أين أنت عنا يا معاوية ؟ اذ أهملتنا ، وضيعت ثغورنا ، وحكمت العدو في ديارنا ودمائنا وأعراضنا .

فنمي الخبر الى معاوية ، فآلمه ، وامتنع من لذيذ الطعام والشراب ، فخلا بنفسه وامتنع من الناس ، ولم يظهر ذلك لأحد من المخلوقين ، ثم أجمل الأمر في اعمال الحيلة باقامة الفداء بين المسلمين والروم ، الى أن فادى بذلك الرجل .

فلما صار الرجل الى دار الاسلام دعاه معاوية فبره ، وأحسن اليه ، ثم قال له : لم نهملك ولم نضيعك ولا أبحنا دمك وعرضك ، ومعاوية مع ذلك يجيل الرأي ويعمل الحيلة .

ثم بعث الى رجل من ساحل دمشق من مدينة صور ، وكان به عارفا ، كثير الغزوات في البحر ، صمل من الرجال ، مرطان بالرومية ، فأحضره وخلا به ، وأخبره بما قد عزم عليه ، وسأله اعمال الحيلة فيه والتأتي له ، فتوافقا على أن يدفع للرجل مالا عظيما ، يبتاع به أنواعا من الطرف والملح والجهاز والطيب والجوهر وغير ذلك ، وابتنى له مركباً لا يلحق في جريه سرعة ، ولا يدرك في مسيرة بنيانا عجيبا .

فسار الرجل حتى أتى مدينة قبرس ، فاتصل برئيسها ، وأخبره أن معه جارية للملك ، وأنه يريد التجارة الى القسطنطينية ، قاصدا الى الملك وخواصه بذلك .

فروسل الملك بذلك ، وأعلم بحال الرجل ، فأذن له في الدخول فدخل خليج القسطنطينية وسار فيه حتى انتهى الى القسطنطينية .

وقد أتينا على مقدار مسافة هذا الخليج واتصاله بالبحر الرومي وبحر مانطس عند ذكرنا البحار فيما سلف من هذا الكتاب .

فلما وصل الى القسطنطينية أهدى للملك وجميع بطارقته ، وبايعهم وشاراهم ، ولم يعط للبطريق الذي لطم وجه القرشي شيئا ، وقصده الى ذلك البطريق الذي لطم الرجل القرشي ، وتأتى الصوري في الأمر على حسب ما رسمه له معاوية .

وأقبل الرجل من القسطنطينية الى الشام ، وقد أمره البطارقة والملك بابتياع حوائج ذكروها ، وأنواع من الأمتعة وصفوها .

فلما صار الى الشام سار الى معاوية سرا ، وذكر له من الأمر ما جرى ، فابتيع له جميع ما طلب منه وما علم أن رغبتهم فيه ، وتقدم اليه فقال : ان ذلك البطريق اذا عدت الى كرتك هذه سيعذلك عن تخلفك عن بره واستهانتك به ، فاعتذر اليه ، ولاطفه بالقصد والهدايا ، واجعله القيم بأمرك ، والمتفقد لأحوالك ، وانظر ماذا يطلب منك حين أوبك الى الشام ، فان منزلتك ستعلو ، وأحوالك تزداد عندهم ، فاذا أتقنت جميع ما أمرتك به وعلمت غرض البطريق منك وأي شيء يأمرك بابتياعه لتكون الحيلة بحسب ذلك .

فلما رجع الصوري الى القسطنطينية ومعه جميع ما طلب منه والزيادة على ما لم يطلب منه ، زادت منزلته ، وارتفعت احواله عند الملك والبطارقة وسائر الحاشية ، فلما كان في بعض الأيام وهو يريد الدخول الى الملك قبض عليه ذلك البطريق في دار الملك وقال له : ما ذنبي اليك ؟ وبماذا استحق غيري أن تقصده وتقضي حوائجه ، وتعرض عني ؟

فقال له الصوري : أكثر من ذكرت ابتدأني وأنا رجل غريب أدخل الى هذا الملك والبلد كالمتنكر من أسارى المسلمين وجواسيسهم ، لئلا ينموا بخبري ويعنوا بأمري الى المسلمين ، فيكون في ذلك فقدي ، واذا قد علمت ميلك الي فلست أحب ان يعتني بأمري سواك ، ولا يقوم به عند الملك وغيره غيرك ، فأمرني بجميع حوائجك ، وجميع ما يعرض من أمورك بأرض الاسلام .

وأهدى الى البطريق هدية حسنة من الزجاج المخروط والطيب والجواهر والطرائف والثياب .

ولم يزل هذا فعله يتردد من الروم الى معاوية ، ومن معاوية الى الروم ، ويسأله الملك والبطريق وغيره من البطارقة الحوائج ، والحيلة لا تتوجه لمعاوية حتى مضى على ذلك سنين .

فلما كان في بعضها قال البطريق للصوري وقد أراد الخروج الى دار الاسلام : قد اشتهيت أن تغمرني بقضاء حاجة وتمن بها علي : أن تبتاع لي بساطا سوسنجرد بمخاده ووسائده يكون فيه من أنواع الألوان من الحمرة والزرقة وغيرهما ، ويكون من صفته كذا وكذا ، ولو بلغ ثمنه كل مبلغ ، فأنعم له بذلك .

وكان من شأن الصوري اذا ورد الى القسطنطينية تكون مركبه بالقرب من موضع ذلك البطريق ، وللبطريق ضيعة سرية وفيها قصر مشيد ومتنزه حسن على أميال من القسطنطينية راكبة على الخليج ، وكان البطريق أكثر أوقاته في ذلك المتنزه ، وكانت الضيعة مما يلي فم الخليج مما يلي بحر الروم والقسطنطينية .

فانصرف الصوري الى معاوية سرا ، وأخبره بالحال ، فأحضر معاوية بساطا بوسائد ومخاد ومجلس ، فانصرف به الصوري مع جميع ما طلب منه من دار الاسلام ، وقد تقدم اليه

معاوية بالحيلة وكيفية ايقاعها .

وكان الصوري فيما وصفنا من هذه المدة قد صار كأحدهم في المؤانسة وفي العشرة ، وفي الروم طمع وشره .

فلما دخل من البحر الى خليج القسطنطينية ـ وقد طابت له الريح وقد قرب من ضيعة البطريق ـ أخذ الصوري خبر البطريق من أصحاب القوارب والمراكب ، فأخبر أن البطريق في ضيعته .

وذلك ان الخليج طوله نحو من ثلمثائة ميل وخمسين ميلا بين هذين البحرين وهما الرومي ومانطس ، على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب ، والضياع والعمائر على هذا الخليج من حافتيه . والمراكب تختلف والقوارب بأنواع المتاع والأقوات الى القسطنطينية ، وهذه المراكب لا تحصى في هذا الخليج كثرة .

فلما علم الصوري أن البطريق في ضيعته فرش ذلك البساط ونضد ذلك الصدر والمجلس بالوسائد والمخاد في صحن المركب ومجلسه ، والرجال تحت المجلس بأيديهم المجاذيف مشكلة قائمة غير قاذفين بها ، ولا يعلم بهم أنهم في بطن المركب الا من ظهر منهم في المركب عمله ، والريح في القلع ، والمركب مار في الخليج كأنه سهم قد خرج من كبد قوس لا يستطيع القائم على الشط أن يملأ بصره منه ، لسرعة سيره واستقامته في جريه .

فأشرف على قصر البطريق وهو جالس في مستشرفه مع حرمه ، وقد أخذت منه الخمر وعلاه الطرب وذهب به الفرح والسرور كل مذهب ، فلما رأى البطريق مركب الصوري غنى طربا ، وصاح فرحا وسرورا وابتهاجا بقدومه .

فدنا من أسفل القصر ، وحط القلع ، وأشرف البطريق على المركب ، فنظر الى ما فيه من حسن ذلك البساط ونظم ذلك الفرش كأنه رياض تزهر ، فلم يستطع اللبث في موضعه حتى نزل قبل أن يخرج ذلك الصوري من مركبه اليه ، فطلع المركب .

فلما استقرت قدمه في المركب ودنا من المجلس ضرب الصوري بعقبه على من تحت البساط من الوقوف ، وكانت علامة بينه وبين الرجال الذين في بطن المركب ، فما استقر دقه بقدمه حتى اختطف المركب بالمجاذيف فاذا هو في وسط الخليج يطلب البحر لا يلوي على شيء ، وارتفع الصوت ، ولم يدر ما الخبر لمعالجة الأمر .

فلم يكن الليل حتى خرج من الخليج وتوسط البحر ، وقد أوثق البطريق كتافا ، وطابت له الريح ، وأسعده الجد ، وحملته المجاذيف في ذلك الخليج ، فتعلق في اليوم السابع بساحل الشام ، ورأى البر ، وحمل الرجل ، فكانوا في اليوم الثالث عشر حضورا بين يدي معاوية بالفرح والسرور لاثلاجه بالأمر وتمام الحيلة .

وأيقن معاوية بالظفر وعلو الجد ، فقال : علي بالرجل القرشي ، فأتـي به ، وقـد حضره خواص النـاس ، فأخـذوا مجالسهـم ، وانغص المجلس بأهلـه ، فقـال معـاوية للقرشي : قم فاقتص من هذا البطريق الذي لطم وجهك على بساط معظم الروم ، فانا لم نضيعك ولا أبحنا دمك وعرضك .

فقام القرشي ودنا من البطريق ، فقال له معاوية : انظر لا تتعد ما جرى عليك منه ، واقتص منه على حسب ما صنع بك ، ولا تتعد ، وراع ما أوجب الله عليك من المماثلة .

فلطمه القرشي لطمات ، ووكزه في حلقه ، ثم انكب القرشي على يدي معاوية وأطرافه يقبلها ، وقال : ما أضاعك من سودك ، ولا خاب فيك أمـل من أملك ، أنـت ملك لا تضام ، تمنع حماك ، وتصون رعيتك ، وأغرق في دعائه ووصفـه ، وأحسـن معـاوية الى البطريق ، وخلع عليه وبره ، وحمل معه البساط ، وأضاف الى ذلك أمورا كثيرة وهدايا الى الملـك ، وقال له : ارجع الى ملكك ، وقـل له : تركت ملك العـرب يقيم الحـدود على بساطك ، ويقتص لرعيته في دار مملكتك وسلطانك .

وقال للصوري : سر معه حتى تأتي الخليج فتطرحه فيه ومن كان أسر معه ممن بادر فصعد المركب من غلمان البطريق وخاصته .

فحملوا الى صور مكرمين ، وحملوا في المركب ، فطابت لهم الريح ، فكانوا في اليوم الحادي عشر متعلقين ببلاد الروم ، وقربوا من فم الخليج ، واذا به قد أحـكم بالسلاسـل والمنعة من الموكلين به ، فطرح البطريق ومن معه ، وانصرف الصـوري راجعـا ، وحمـل البطريق من ساعته الى الملك ومعه الهدايا والأمتعة ، فتباشرت الروم بقدومه ، وتلقوه مهنئين له من الأسر ، فكافأ الملك معاوية على ما كان من فعله بالبطريق والهدايا ، فلم يكن يستضام أسير من المسلمين في أيامه ، وقال الملك : هذا امكر الملوك وأدهى العرب ، ولهذا قدمته العرب عليها ، فساس أمرها ، والله لو همّ بأخذي لتمت له الحيلة علي .

وقد أتينا على خبر معاوية فيما سلف من هذا الكتاب ، وأتينـا على مبسوطـه وأخبـار الوافدين والوافدات عليه من الأمصار فيما سلف من كتبنا ، وان كنا قد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب من أخبار معاوية جملا

وللملوك الروم وبطارقتها ـ ممن سلف وخلف الى هذا الوقت ـ أخبار حسان مع ملوك بني امية والخلفاء من بني العباس في المغازي والسرايا وغيرها ، وكذلك لأهل الثغور الشامية والجزرية الى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) قد أتينا على مبسوطها فيما سلف من كتبنا ، وقدمنا في هذا الكتاب جملا من أخبارهم ومقادير أعمارهم وأيامهم ، ولمعا من سيرهم ، وكذلك أخبرنا عن ملوك الأمم وسيرهم .

محبة المعتمد للهو

قال المسعودي : وكان المعتمد مشغوفا بالطرب ، والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهي .

وذكر عبيد الله بن خرداذبه أنه دخل عليه ذات يوم ، وفي المجلس عدة من ندمائه من ذوي العقول والمعرفة والحجى ، فقال له : أخبرني عن أول من اتخذ العود .

أول من اتخذ العود ونحوه

قال ابن خرداذبه : قد قيل في ذلك يا أمير المؤمنين أقاويل كثيرة : أول من اتخذ العود لمك بن متوشلخ بن محويل بن عاد بن خنوخ بن قاين بن آدم ، وذلك أنه كان له ابن يحبه حبا شديدا ، فمات ، فعلقه بشجرة ، فتقطعت اوصاله حتى بقي منه فخذه والساق والقدم والأصابع ، فأخذ خشبا فرققه وألصقه ، فجعل صدر العود كالفخذ ، وعنقه كالساق ، ورأسه كالقدم والملاوي كالأصابع ، والأوتار كالعروق ، ثم ضرب به وناح عليه ، فنطق العود ، قال الحمدوني :

وناطق بلسان لا ضمير له　　كأنه فخذ نيطت الى قدم

يبدي ضمير سواه في الحديث كما　　يبدي ضمير سواه منطق القلم

واتخذ توبل لمك الطبول والدفوف ، وعملت ضلال بنت لمك المعازف ، ثم اتخذ قوم لوط الطنابير ، يستميلون بها الغلمان ، ثم اتخذ الرعاة والأكراد نوعا مما يصفر به ، فكانت أغنامهم اذا تفرقت صفروا فاجتمعت .

ثم اتخذ الفرس الناي للعود ، والدياتي للطنبور ، والسرياني للطبل ، والسنج الصنج ، وكان غناء الفرس بالعيدان والصنوج ، وهي لهم ، ولهم النغم والايقاعات والمقاطع والطروق الملوكية ، وهي سبع طروق : فأولها سكاف ، وهو أكثرها استعمالا لتنقل الأنهار ، وهو أفصحها مقاطع ، وأمرسه ، وهو أجمعها لمحاسن النغم ، وأكثرها تصعدا وانحدارا ، وما دار وسنان ، وهو أثقلها ، وسايكاد ، وهو المحبوب للأرواح ، وسيسم ، وهو المختلس المنقل ، وحويعران ، وهو الدرج الموقوف على نغمة .

وكان غناء أهل خراسان وما والاها بالزنج ، وعليه سبعة أوتار ، وايقاعه يشبه ايقاع الصنج ، وكان غناء أهل الري وطبرستان والديلم بالطنابير ، وكانت الفرس تقدم الطنبور على كثير من الملاهي ، وكان غناء النبط والجرامقة بالغيروارات ، وايقاعها يشبه ايقاع الطنابير .

وقال فندروس الرومي : جعلت الأوتار أربعة بازاء الطبائع ، فجعلت الزير بازاء المرة الصفراء ، والمثنى بازاء الدم ، والمثلث بازاء البلغم ، والبم بازاء المرة السوداء .

ملاهي الروم

وللروم من الملاهي الأرغل ، وعليه ستة عشر وترا ، وله صوت بعيد المذهب وهو من صنعة اليونانيين ، والسلبان ، وله أربعة وعشرون وترا ، وتفسيره ألف صوت ، ولهم اللورا ، وهي الرباب ، وهي من خشب ، ولها خمسة أوتار ، ولهم القيثارة ، ولها أثنا عشر وترا ، ولهم الصلنج وهو من جلود العجاجيل ، وكل هذه معازف مختلفة الصفة ، ولهم الأرغن ، وهو ذو منافخ من الجلود والحديد .

الهند

وللهند الكنكلة ، وهو وتر واحد يمد على فرعة فيقوم مقام العود والصنج .

حداء العرب

قال : وكان الحداء في العرب قبل الغناء ، وقد كان مضر بن نزار بن معد سقط عن بعير في بعض اسفاره فانكسرت يده ، فجعل يقول : يا يداه ، يا يداه ، وكان من أحسن الناس صوتا ، فاستوسقت الابل وطاب لها السير ، فاتخذه العرب حداء برجز الشعر ، وجعلوا كلامه أول الحداء فمن قول الحادي :

يا هاديا يا هاديا ويا يداه يا يداه

فكان الحداء أول السماع والترجيع في العرب ، ثم اشتق الغناء من الحداء وتحن نساء العرب على موتاها ، ولم تكن أمة من الأمم بعد فارس والروم أولع بالملاهي والطرب من العرب ، وكان غناؤهم النصب ثلاثة أجناس : الركباني ، والسناد الثقيل ، والهزج الخفيف .

أول الغناء في العرب

وكان أول من غنى من العرب الجرادتان ، وكانتا قينتين على عهد عاد لمعاوية بن بكر العملقي ، وكانت العرب تسمى القينة الكرينة ، والعود المزهر ، وكان غناء أهل اليمن بالمعازف وايقاعها جنس واحد ، وغناؤهم جنسان : حنفي ، وحميري ، والحنفي أحسنهما .

ولم تكن قريش تعرف من الغناء الا النصب حتى قدم النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي من العراق وافدا على كسرى بالحيرة ، فتعلم

ضرب العود والغناء عليه ، فقدم مكة فعلم اهلها ، فاتخذوا القينات .

أثر الغناء

والغناء يرق الذهن ويلين العريكة ، ويبهج النفس ويسرها ، ويشجع القلب ، ويسخي البخيل ، وهو مع النبيذ يعاونان على الحزن الهادم للبدن ، ويحدثان له نشاطا ، ويفرجان الكرب ، والغناء على الانفراد يفعل ذلك ، وفضل الغناء على المنطق كفضل المنطق على الخرس ، والبرء على السقم ، وقد قال الشاعر :

لا تبعثن على همومك اذ ثوت غير المدام ونغمة الأوتار

فلله در حكيم استنبطه ، وفيلسوف استخرجه ، أي غامض أظهر ؟ وأي مكنون كشف ؟ وعلى أي فن دل ؟ والى أي علم وفضيلة سبق ؟ فذلك نسيج وحده ، وقريع دهره .

وقد كانت الملوك تنام على الغناء ليسري في عروقها السرور ، وكانت ملوك الأعاجم لا تنام الا على غناء مطرب ، أو سمر لذيذ ، والعربية لا تنوم ولدها وهو يبكي ، خوف أن يسري الهم في جسده ، ويدب في عروقه ، ولكنها تنازعه وتضاحكه حتى ينام وهو فرح مسرور ، فينمو جسده ، ويصفو لونه ودمه ، ويشف عقله ، والطفل يرتاح الى الغناء ، ويستبدل ببكائه ضحكا .

وقد قال يحيى بن خالد بن برمك : الغناء ما أطربك فأرقصك ، وأبكاك فأشجاك ، وما سوى ذلك فبلاء وهم .

قال المعتمد : قد قلت فأحسنت ، ووصفت فأطنبت ، وأقمت في هذا اليوم سوقا للغناء ، وعيدا لأنواع الملاهي ، وان كلامك لمثل الثوب الموشى ، يجتمع فيه الأحمر ، والأصفر ، والأخضر ، وسائر الألوان ، فما صفة المغني الحاذق ؟

المغني الحاذق

قال ابن خرداذبه : المغني الحاذق يا أمير المؤمنين : من تمكن من أنفاسه ، ولطف في اختلاسه ، وتفرع في أجناسه .

قال المعتمد : فعلى كم تنقسم أنواع الطرب ؟

انواع الطرب

قال : على ثلاثة أوجه يا أمير المؤمنين ، وهي طرب محرك ، مستخف لأريحية ، ينعش

النفس ، ودواعي الشيم عند السماع ، وطرب شجن وحزن ، لا سيما اذا كان الشعر في وصف أيام الشباب ، والشوق الى الأوطان ، والمراثي لمن عدم الصبر من الأحباب ، وطرب يكون في صفاء النفس ولطافة الحس ، ولا سيما عند سماع جودة التأليف ، واحكام الصنعة ، اذ كان من لا يعرفه ولا يفهمه لا يسره ، بل تراه متشاغلا عنه ، فذلك كالحجر الجلمد ، والجماد الصلد ، سواء وجوده وعدمه ، وقد قال يا أمير المؤمنين بعض الفلاسفة المتقدمين ، وكثير من حكماء اليونانيين : من عرضت له آفة في حاسة الشم كره رائحة الطيب ، ومن غلظ حسه كره سماع الغناء ، وتشاغل عنه ، وعابه ، وذمه .

منزلة الايقاع وألقابه

قال المعتمد : فما منزلة الايقاع وأنواع الطروق وفنون النغم ؟

قال : قد قال في ذلك يا أمير المؤمنين من تقدم : ان منزلة الايقاع من الغناء بمنزلة العروض من الشعر ، وقد أوضحوا الايقاع ، ووسموه بسمات ، ولقبوه بألقاب ، وهو أربعة أجناس : ثقيل الأول ، وخفيفه ، وثقيل الثاني ، وخفيفه ، والرمل الأول ، وخفيفه ، والهزج ، وخفيفه .

والايقاع : هو الوزن ، ومعنى أوقع وزن ، ولم يوقع : خرج من الوزن ، والخروج ابطاء عن الوزن أو سرعة ، فالثقيل الأول : نقره ثلاثة ثلاثة ، اثنتان ثقيلتان بطيئتان ، ثم نقرة واحدة ، وخفيف ثقيل الثاني نقره اثنتان متواليتان ، وواحدة بطيئة ، واثنتان مزدوجتان .

وخفيف الرمل : نقره اثنتان اثنتان مزدوجتان ، وبين كل زوج وقفة ، والهزج نقرة واحدة واحدة مستويتان ممسكة ، وخفيف الهزج نقره واحدة واحدة متساويتان في نسق واحد أخف قدرا من الهزج .

والطرائق ثمان : الثقيلان الأول والثاني ، وخفيفاهما ، وخفيف الثقيل الأول منهما يسمى بالماخوري ، وانما سمي بذلك ، لأن ابراهيم بن ميمون الموصلي ـ وكان من أبناء فارس ، وسكن الموصل ـ كان كثير الغناء في هذه المواخير ، بهذه الطريقة ، والرمل وخفيفه ، ويتفرع من كل واحد من هذه الطرائق مزموم مطلق ، وتختلف مواقع الأصابع فيها فيحدث لها ألقابا تميزها ، كالمعصور ، والمخبول ، والمحثوث ، والمخدوع ، والأدراج .

والعود عند أكثر الأمم وجل الحكماء يوناني ، صنعه أصحاب الهندسة على هيئة طبائع الانسان ، فان اعتدلت أوتاره على الأقدار الشريفة جانس الطبائع فأطرب ، والطرب : رد النفس الى الحال الطبيعية دفعة ، وكل وتر مثل الذي يليه ومثل ثلثه ، والدستبان الذي يلي

الانف موضوع على خط التسع من جملة الوتر والذي يلي المشط موضوع على خط الربع من جملة الوتر ، فهذه يا أمير المؤمنين جوامع في صفة الايقاع ومنتهى حدوده .

ففرح المعتمد في هذا اليوم ، وخلع على ابن خرداذبه ، وعلى من حضره من ندمائه ، وفضله عليهم ، وكان يوم لهو وسرور .

فلما كان في صبيحة تلك الليلة دعا المعتمد من حضره في اليوم الأول ، فلما أخذوا مراتبهم من المجلس قال لبعض من حضره من ندمائه ومغنيه : صف لي الرقص وأنواعه ، والصفة المحمودة من الراقص ، واذكر لي شمائله .

الرقص وأنواعه

فقال المسؤول : يا أمير المؤمنين ، أهل الأقاليم والبلدان مختلفون في رقصهم من أهل خراسان وغيرهم ، فجملة الايقاع في الرقص ثمانية أجناس : الخفيف ، والهزج ، والرمل ، وخفيف الرمل ، وخفيف الثقيل الثاني وثقيله وخفيف الثقيل الأول ، وثقيله .

والراقص يحتاج الى أشياء في طباعه ، وأشياء في خلقته ، وأشياء في عمله .

فأما ما يحتاج اليه في طباعه فخفة الروح ، وحسن الطبع على الايقاع ، وأن يكون طالبه مرحا الى التدبير في رقصه والتصرف فيه .

وأما ما يحتاج اليه في خلقته فطول العنق والسوالف ، وحسن الدل والشمائل ، والتمايل في الأعطاف ورقة الخصر والخفة وحسن أقسام الخلق ، وواقع المناطق ، واستدارة الثياب من أسافلها ، ومخارج النفس ، والاراحة ، والصبر على طول الغاية ، ولطافة الأقدام ، ولين الأصابع ، وامكان لينها في نقلها .

وفيما يتصرف فيه من أنواع الرقص من الابل ، ورقص الكرة ، وغيره ، ولين المفاصل ، وسرعة الانتقال في الدوران ، ولين الأعطاف .

وأما ما يحتاج اليه في عمله فكثرة التصرف في ألوان الرقص ، واحكام كل حد من حدوده ، وحسن الاستدارة ، وثبات القدمين على مدارهما ، واسواء ما تعمل يمنى الرجل ويسراها ، حتى يكون في ذلك واحدا .

ولوضع القدم ورفعها وجهان : أحدهما أن يوافق بذلك الايقاع ، والآخر أن يتثبط به ، فأكثر ما يكون هو فيه أمكن وأحسن فليكن ما يوافق الايقاع فهو من الحب والحسن سواء ، وأما ما يتثبط به فأكثر ما يكون هو فيه أمكن وأحسن ، فليكن ما يوافق الايقاع مترافعا ، وما يتثبط به متسافلا .

قال المسعودي : وللمعتمد مجالسات ومذكرات ومجالس قد دونت في أنواع من

الأدب ، منها : مدح النديم ، وذكر فضائله ، وذم التفرد بشرب النبيذ ، وما قيل في ذلك من المنثور والشعر ، وما قيل في أخلاق النديم وصفاته وعفافه وأمن عبثه ، والتداعي الى المنادمات والمراسلات في ذلك ، وعدد أنواع الشرب في الكثرة ، وهيئة السماع وأقسامه وأنواعه ، وأصول الغناء ومباديه في العرب ، وغيرها من الأمم وأخبار الاعلام من مشهوري المغنين المتقدمين والمحدثين وهيئة المجالس ، ومنازل التابع والمتبوع وكيفية مراتبهم ، وتعبية مجالس الندماء والتحيات ، كما قال العطوي في ذلك :

حيِّ التحية أصحاب التحيات	القائلين اذا لم تسقهم : هات
أما الغداة فسكرى في نعيمهم	وبالعشي فصرعى غير أموات
وبين ذلك قصف لا يعادله	قصف الخليفة من لهو ولذات

وقد أتينا على وصف جميع ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » مما لم يتقدم له ذكر كصنوف الشراب ، والاستعمال لأنواع النقل اذا وضع ذلك في المناقل والأطباق فنضد نضدا ، ورصف رصفا ، والابانة عن المراتب في ذلك ، ووصف جمل آداب الطبيخ مما يحتاج التابع الى معرفته ، والأديب الى فهمه من المتولدات في معرفة الألوان ، ومقادير التوابل والأبزار ، وأنواع المحادثات ، وغسل اليدين بحضرة الرئيس ، والمقام عن مجلسه ، وادارات الكاسات ، وما حكي في ذلك عن الأسلاف من ملوك الأمم وغيرهم .

وما قيل في الاكثار والاقلال من الشراب ، وما ورد في ذلك من الأخبار ، وطلب الحاجات والاستمناحات من أهل الرياسة على المعاقرات ، وهيئة النديم وما يلزمه لنفسه ، وما يلزم الرئيس لنديمه ، والفرق بين التابع والمتبوع ، والنديم والمنادم ، وما قال الناس في العلة التي من أجلها سمي النديم نديما .

وكيفية الأدب في لعب الشطرنج ، والفرق بينها وبين النرد ، وما ورد في ذلك من الأخبار ، وانتظمت فيه من الدلائل والآثار .

وما ورد عن العرب في اسماء الخمر ، وورود التحريم فيها ، وتنازع الناس في رد غيرها من أنواع الأنبذة عليها قياسا ، ووصف أنواع آنيتها ، ومن كان يشربها في الجاهلية ومن

حرمها ، ووصف السكر ، وما قال الناس في ذلك ، وكيفية وقوعه : أمن الله أم من خلقه ؟ وغير ذلك مما لحق بهذا الباب ، وأتصل بهذه المعاني ، وانما نذكر هذه اللمع منبهين بها على ما قدمنا فيا سلف من كتبنا .

ثورة تنتهي بموت الموفق
وقيام المعتضد

وكان أبو العباس المعتضد محبوسا ، فلما خرج أبوه الموفق الى الجبل خلفه بدار الوزير اسماعيل بن بلبل ، وكان مضيقا عليه ، الى أن وافى الموفق من أذربيجان عليلا مدنفا مورما في بيت من الخشب قد اتخذ له مبطنا بالخز والحرير وفي أسفله حلق قد جعل فيها الدهن فتحمله الرجال على أكتافها نوائب .

وكان وصوله الى بغداد يوم الخميس لليلتين خلتا من صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين ، فأقام بمدينة السلام أياما فاشتدت علته ، وأرجف بموته ، وانصرف اسماعيل بن بلبل وقد يئس منه ، فوجه اسماعيل بن بلبل الى كفهمن ، وقيل الى بكتمر ، وكان موكلا بالمعتضد بالمدائن ، على أقل من يوم من مدينة السلام ، أن ينصرف بالمعتضد والمفوض الى الله ابنه الى بغداد .

فدخل المعتضد اليها في يومه ، واتصل باسماعيل صلاح الموفق ، فانحدر ومعه المعتضد والمفوض في طيارة الى دار ولده .

وقد كان يأنس الخادم ومؤنس الخادم وصافي الحرمي ، وغيرهم من خدم الموفق وغلمانه ، أخرجوا أبا العباس من الموضع الذي كان فيه محبوسا ، وساروا به الى الموفق ، وأحضر اسماعيل بن بلبل والمعتضد والمفوض معه .

وكثر اضطراب القواد والموالي ، وأسرعت العامة وسائر الخدم في النهب ، فانتهبوا دار اسماعيل بن بلبل ، ولم تبق دار جليل ولا كاتب نبيل الا نهبوها ، وفتحت الجسور ، وأبواب السجون ، ولم يبق أحد في المطبق ولا في الحديد الا أخرج ، وكان أمرا فظيعا غليظا ، وخلع على أبي العباس ، وعلى اسماعيل بن بلبل ، وانصرف كل واحد منهما الى منزله ، فلم يجد اسماعيل في داره ما يقعد عليه ، حتى وجه اليه الشاه ابن ميكال ما قعد عليه ، وقام بأمر طعامه وشرابه .

وقد كان اسماعيل اسرع في بيوت الاموال . وأسرف في النفقات والجوائز والخلع والعطايا ، وأمد العرب وأجزل لهم الألزال والأرزاق ، واصطنع بني شيبان من العرب وغيرهم من ربيعة ، وكان يزعم أنه رجل من بني شيبان ، وطالب بخراج سنة مبهمة ، فثقل

على الرعية، وكثر الداعي عليه .

ومكث الموفق بعد ذلك ثلاثة أيام ، ثم توفي ليلة الخميس ، لثلاث بقين من صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين ، ومات وله تسع وأربعون سنة ، وأمه أم ولد رومية ، يقال لها : أسحر ، وكان اسم الموفق طلحة ، وفيه يقول الشاعر :

لما استظل بظل الملك واجتمعت ... له الأمور فمنقاد ومقسور
حطت عليه لمقدار منيته ... كذاك تصنع بالناس المقادير

فلما مات الموفق قام المعتضد فأمور الناس في التدبير مكان أبيه الناصر ، وهو الموفق ، وخلع جعفر المفوض من ولاية العهد ، وقام اسماعيل بن بلبل في الوزارة بعد شغب كثير كان في مدينة السلام .

وكان لأبي عبد الله بن أبي الساج ولخادمه وصيف خطب جليل ، وقيد اسماعيل بن بلبل ، ووجه أبو العباس الى عبد الله بن سليمان بن وهب فأحضره وخلع عليه ورد اليه أمر كتابه : وذلك في يوم الثلاثاء لثلاث بقين من صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين .

ولم يزل اسماعيل بن بلبل يعذب بأنواع العذاب ، وجعل في عنقه غل فيه رمانة حديد ، والغل والرمانة مائة وعشرون رطلا ، وألبس جبة صوف قد صبرت في ودك الأكارع ، وعلق معه رأس ميت .

فلم يزل على ذلك حتى مات في جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين ومائتين ، ودفن بغله وقيوده ، وأمر المعتضد بضرب جميع الآنية التي كانت في خزانته ، فضربت وفرقت في الجند .

غداء المعتمد الذي مات عقيبه

قال المسعودي : وقد كان المعتمد قعد للغداء واصطبح يوم الاثنين لاحدى عشرة ليلة بقيت من رجب الفرد سنة تسع وسبعين ومائتين ، فلما كان عند العصر قدم الطعام ، فقال : يا موشكيره ـ للموكل به ـ ما فعلت الرؤوس بأرقابها ؟

وقد كان قدم من الليل أن يقدم له رؤوس حملان ، وقد فصل فيها أرقابها ، فقدمت ، وكان معه على المائدة رجل من ندمائه وسماره يعرف بقف الملقم ، ورجل آخر يعرف بخلف المضحك ، فأول من ضرب بيده الى الرؤوس الملقم ، فانتزع أذن واحد منها ، ولقمه في الرقاق ، وغمسها في الأصباغ ، وأهوى بها الى فيه ، وأمعن في الأكل .

وأما المضحك فانه يقتلع اللهازم والأعين ، فأكلوا وأكل المعتمد ، وأتموا يومهم ، فأما الملقم صاحب اللقمة الأولى فانه تهرأ في الليل ، وأما المضحك فانه مات قبل الصباح ، وأما المعتمد فأصبح ميتا قد لحق بالقوم .

ودخل اسماعيل بن حماد القاضي الى المعتضد وعليه السواد ، فسلم عليه بالخلافة ، وكان أول من سلم عليه بها ، وحضر الشهود منهم أبو عوف والحسين بن سالم وغيرهم من العدول حتى أشرفوا على المعتمد ومعهم بدر غلام المعتضد يقول : هل ترون به من بأس أو أثر ؟ مات فجأة ، وقتلته مداومته لشرب النبيذ ، فنظروا اليه فاذا ليس به من أثر ، فغسل وكفن وجعل في تابوت قد أعد له وحمل الى سامرا فدفن بها .

وذكروا ـ والله أعلم ـ أن سبب وفاته أنه سقى نوعا من السم في شرابهم الذي كانوا يشربونه ، وهو نوع يقال له البيش يحمل من بلاد الهند وجبال الترك والتبت ، وربما وجدوه في سنبل الطيب ، وهو ألوان ثلاثة ، وفيه خواص عجيبة .

***

وللمعتمد أخبار حسان وما كان في أيامه من الكوائن والحوادث مما كان بخراسان من حروب الصفار وغيره وما كان من ولد أبي دلف بأرض الجبل ، وما كان من العرب من الطولونية وما كان بديار بكر من بلاد وأشر وغيرهما من أحمد بن عيسى ابن الشيخ ، وما كان باليمن ، قد أتينا على مبسوطها وجميع ذلك كله والغرر منه وما حدث في كل سنة من أيامه من الحوادث في كتابينا : « أخبار الزمان » والأوسط ، فأغنى ذلك عن اعادته في هذا الكتاب .

ذكر خلافة المعتضد بالله
أبو العباس أحمد بن طلحة

موجز

وبويع أبو العباس أحمد بن طلحة المعتضد بالله ، في اليوم الذي مات فيه المعتمد على الله عمه وهو يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين ، وأمه أم ولد رومية يقال لها ضرار .

وكانت وفاته يوم الأحد لسبع بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين ، فكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر ويومين ، وتوفي بمدينة السلام وله سبع وأربعون سنة .

وقيل : إنه ولي الخلافة وهو ابن احدى وثلاثين سنة ، وتوفي سنة تسع وثمانين ، على ما ذكرنا ، وله أربعون سنة وأشهر ، على تباين أصحاب التواريخ في كتبهم ، وما أرخوه في أيامهم ، والله الموفق .

اذكر جمل من أخباره وسيره
ولمع مما كان في أيامه
حال الرعية في أيامه

ولما أفضت الخلافة الى المعتضد بالله سكنت الفتن ، وصلحت البلدان ، وارتفعت الحروب ، ورخصت الأسعار ، وهدأ الهرج ، وسالمه كل مخالف ، وكان مظفرا قد دانت له الأمور ، وانفتح له الشرق والغرب ، وأديل له في أكثر المخالفين عليه والمنابذين له ، وظفر بهارون الشاري .

وكان صاحب المملكة والقيم بأمر الخلافة بأمر مولاه ، واليه جميع المعارف في جميع الآفاق ، واليه أمر الجيوش وسائر القواد .

مالية الدولة في عهده

وخلف المعتضد في بيوت الأموال تسعة آلاف ألف دينار ، ومن الورق أربعين ألف ألف درهم ، ومن الدواب والبغال والجمازات والحمير والجمال اثني عشر ألف رأس ، وكان مع ذلك شحيحا بخيلا ينظر فيما لا ينظر فيه العوام .

تقتيره

وحكى عبد الله بن حمدون ـ وكان نديمه وخاصته ، وممن كان يأنس به في خلواته ـ أنه أمر أن تنقص حشمه ومن كان يجري عليه الأنزال من كل رغيف أوقية ، وأن يبتدأ بأمر خبزه ، لأن للوصائف عددا من الرغفان فيها ثلاث لذا وأربع لذا وأكثر من ذلك .

قال ابن حمدون : فتعجبت من ذلك في أول أمره ، ثم تبينت القصة ، فاذا أنه يتوفر من ذلك في كل شهر مال عظيم ، وتقدم الى خزانه أن يختار له من الثياب التسترية والدبيقية أحسنها لتقطيعها لنفسه .

أنواع من قسوته

وكان مع ذلك قليل الرحمة ، كثير الاقدام ، سفاكا للدماء ، شديد الرغبة في أن يمثل بمن يقتله .

وكان اذا غضب على القائد النبيل ، والذي يختصه من غلمانه ، أمر أن تحفر له حفيرة بحضرته ثم يدلى على رأسه فيها ، ويطرح التراب عليه ، ونصفه الأسفل ظاهر على التراب ، ويداس التراب ، فلا يزال كذلك حتى تخرج روحه من دبره .

وذكر من عذابه أنه كان يأخذ الرجل فيكتف ويقيد ، فيؤخذ القطن فيحشى في أذنه وخيشومه وفمه ، وتوضع المنافخ في دبره حتى ينتفخ ويعظم جسمه ثم يسد الدبر بشيء من القطن ، ثم يفصد ، وقد صار كالجمل العظيم ، من العرقين اللذين فوق الحاجبين ، فتخرج النفس من ذلك الموضع ، وربما كان يقام الرجل في أعلى القصر مجردا موثقا ويرمى بالنشاب حتى يموت .

واتخذ المطامير ، وجعل فيها صنوف العذاب ، وجعل عليها نجاح الحرمي المتولي لعذاب الناس ، ولم يكن له رغبة الا في النساء والبناء ، فانه أنفق على قصره المعروف بالثريا أربعمائة ألف دينار ، وكان طول قصره المعروف بالثريا ثلاثة فراسخ .

وزراؤه

وأقر عبيد الله بن سليمان على وزارته ، فلما مات استوزر القاسم بن عبيد الله .

صلاته العيد

وقد كان المعتضد في هذه الستة (وهي سنة تسع وسبعين ومائتين) ركب يوم الفطر وهو يوم الاثنين الى مصلى اتخذه بالقرب من داره ، فصلى بالناس وكبر في الركعة الأولى ست تكبيرات ، وفي الآخرة تكبيرة واحدة ، ثم صعد المنبر ، فحصر ولم تسمع له خطبة ، ففي ذلك يقول بعض الشعراء :

حصر الامام ولم يبين خطبة ... للناس في حل ولا احرام
ما ذاك الا من حياء لم يكن ... ما كان من عي ولا افحام

زواجه بنت خمارويه

وفي هذه السنة قدم الحسن بن عبد الله المعروف بابن الجصاص رسولا من مصر لخمارويه بن أحمد ، ومعه هدايا كثيرة وأموال جليلة وطراز ، فوصل الى المعتضد يوم الاثنين لثلاث خلون من شوال ، وخلع عليه وعلى سبعة نفر معه ، ثم سعى في تزويج ابنة خمارويه من علي المكتفي ، فقال المعتضد : إنما أراد أن يتشرف بنا ، وأنا أزيد في تشريفه ، أنا أتزوجها، فتزوجها .

وتولى ابن الجصاص أمرها وحمل جهازها ، فيقال : انه حمل معها جوهرا لم يجتمع مثله عند خليفة قط ، فاقتطع ابن الجصاص بعضه ، وأعلم قطر الندى بنت خمارويه أن ما أخذ مودع لها عنده الى وقت حاجتها اليه ، فماتت والجوهر عنده ، فكان ذلك سبب غناه واستقلاله .

وقد كانت لابن الجصاص محن بعد ذلك في أيام المقتدر ، وما كان من القبض عليه ، وما أخذ منه من الأموال بهذا السبب وغيره .

وحمل المعتضد صداق قطر الندى وهو بمدينة بلد الى أبي الجيش ، وكان الصداق ألف ألف درهم وغير ذلك من المتاع والطيب ولطائف الصين والهند والعراق .

وكان مما خص به أبا الجيش في نفسه وحباه به بدرة من الجوهر المثمن فيها در وياقوت وأنواع من الجوهر ووشاح وتاج واكليل ، وقيل : قلنسوة وكرزن .

وكان وصولهم الى مصر في رجب سنة ثمانين ومائتين ، وانحدر المعتضد من مدينة بلد والموصل بعد أن حمل ما وصفنا الى مدينة السلام في الماء .

ابن الجصاص

وحدث أبو سعيد أحمد بن الحسين بن منقذ قال : دخلت يوما على الحسن بن الجصاص واذا بين يديه سفط مبطن بالحرير فيه جوهر قد نظم منه سبح ، فرأيت شيئا حسنا ، ووقع في نفسي أن عددها يجاوز العشرين ، فقلت له : جعلني اللّه فداك ، كم عدد ما في كل سبحة ؟

فقال لي : مائة حبة ، وزن كل حبة كوزن صاحبتها لا تزيد ولا تنقص ، قد عدلت كل سبحة وزن صاحبتها ، واذا بين يديه سبائك ذهب توزن بقبان كما يوزن الحطب .

فلما خرجت من عنده تلقاني أبو العيناء فقال لي : يا أبا سعيد ، على أي حال تركت هذا الرجل ؟

فوصفت له ما رأيت .

فقال رافعا رأسه الى السماء : اللهم ان كنت لم تساو بيني وبينه في الغنى، فساو بيني وبينه في العمى ، ثم اندفع يبكي .

فقلت : يا أبا عبد الله ، ما شأنك ؟

فقال : لا تنكر ما رأيت مني ، لو رأيت ما رأيت لضعفت .

ثم قال : الحمد لله على هذه الحالة .

وقال : يا أبا سعيد ، ما حمدت الله تعالى على العمى الا في وقتي هذا .

فقلت لمن يخبر حال ابن الجصاص : بأي شيء ختم هذه السبح ؟

فقال : بياقوتة حمراء لعل قيمتها أكثر مما تحتها .

أبو العيناء

وكانت وفاة أبي العيناء سنة اثنتين وثمانين ومائتين بالبصرة في جمادى الآخرة وكان يكنى بأبي عبيد الله ، وكان قد انحدر من مدينة السلام الى البصرة في زورق فيه ثمانون نفسا في هذه السنة فغرق الزورق ، ولم يتخلص مما كان فيه الا أبو العيناء وكان ضريرا ، تعلق بأطراف الزورق فأخرج حيا ، وتلف كل من كان معه ، فبعد أن سلم ودخل البصرة مات .

وكان لأبي العيناء من اللسان وسرعة الجواب والذكاء ما لم يكن عليه أحد من نظرائه ، وله أخبار حسان وأشعار ملاح مع أبي علي البصير وغيره ، وقد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا .

وحضر مجلس بعض الوزراء فتعارضوا حديث بعض البرامكة وكرمهم وما كانوا عليه من الجود ، فقال الوزير لأبي العيناء ، وقد كان أمعن في وصفهم وما كانوا عليه من البذل والأفضال : قد أكثرت من ذكرهم ووصفك إياهم ، وانما هذا من تصنيف الوراقين وتأليف المحسنين .

فقال له أبو العيناء : فلم لا يكذب الوراقون عليك أيها الوزير بالبذل والجود .

فأمسك عنه الوزير ، وتعجب الناس من اقدامه عليه .

واستأذن يوما على الوزير صاعد بن مخلد فقال له الحاجب : الوزير مشغول فانتظر ، فلما أبطأ اذنه قال للحاجب : ما صنع الوزير ؟

قال : يصلي .

قال:صدقت ، لكل جديدة لذة . . . يعيره بأنه حديث عهد بالاسلام .

وقد كان أبو العيناء دخل على المتوكل في قصره المعروف بالجعفري ، وذلك في سنة ست وأربعين ومائتين ، فقال له : كيف قولك في دارنا هذه ؟

فقال : ان الناس بنوا الدور في الدنيا ، وأنت بنيت الدنيا في دارك !
فاستحسن ذلك ثم قال له : كيف شربك النبيذ ؟
فقال : أعجز عن قليله ، وأفتضح من كثيره .
فقال له : دع هذا عنك ونادمنا .
فقال : أنا امرؤ محجوب ، والمحجوب تتخطرف اشارته ، ويجور قصده ، وينظر منه الى ما لا ينظر اليه ، وكل من في مجلسك يخدمك ، وأنا أحتاج أن أخدم ، وأخرى لست آمن أن تنظر الي بعين راض وقلبك غضبان أو بعين غضبان وقلبك راض ، ومتى لم أميز بين هاتين هلكت ، فأختار العافية على التعرض للبلاء .
فقال : بلغنا عنك بذاء .
قال : يا أمير المؤمنين قد مدح الله تعالى وذم فقال « نعم العبد انه أواب » وقال جل ذكره ، « هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم » . . . فان لم يكن البذاء بمنزلة العقرب يلدغ النبي والذمي فلا ضير في ذلك ، قال الشاعر :

اذا أنـا بالمعـروف لم أك صادقا   ولم أشتم النّكنس اللئيم المذمما
ففيم عرفت الخير والشر باسمه   وشـق لي اللـه المسامـع والفما

قال : من أين أنت ؟
قال : من البصرة .
قال : ما تقول فيها ؟
قال : ماؤها أجاج ، وحرها عذاب ، وتطيب في الوقت الذي تطيب فيه جهنم .
وكان وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان واقفا على رأسه ، قال : ما تقول في عبيد الله ابن يحيى بن خاقان ؟
فقال : نعم العبد ، منقسم بين طاعة الله تعالى وخدمتك .
ودخل ميمون بن ابراهيم صاحب ديوان البريد ، فقال له : ما تقول في ميمون ؟
قال : يد تسرق ، واست تضرط ، وهو بمنزلة يهودي قد سرق نصف خزينة ، له اقدام ومعه احكام ، احسانه تكلف ، واساءته طبيعة . . فأضحكه ذلك منه ، ووصله وصرفه .

هدايا الصفار للمعتضد

وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين وردت هدايا من قبل عمرو بن الليث الصفار : منها

مائة دابة من مهاري خراسان وجمازات كثيرة وصناديق كثيرة وأربعة آلاف ألف درهم .

وكان معها صنم من صفر على مثال امرأة لها أربع أيد وعليها وشاحان من فضة مرصعان بالجوهر الأحمر والأبيض ، وبين يدي هذا المثال أصنام صغار لها أيد ووجوه وعليها الحلي والجوهر ، وكان هذا التمثال على عجل قد عمل على مقدارها تجره الجمازات ، فصير بذلك أجمع الى دار المعتضد .

ثم رد هذا التمثال الى مجلس الشرطة في الجانب الشرقي ، فنصب للناس ثلاثة أيام ثم رد الى دار المعتضد ، وذلك في يوم الخميس لأربع خلون من شهر ربيع الآخر من هذه السنة ، فسمت العامة هذا التمثال شغلا ، لاشتغالهم عن أعمالهم بالنظر اليه عدة هذه الأيام .

وقد كان عمرو بن الليث قد حمل هذا الصنم من مدن افتتحها من بلاد الهند ومن جبالها مما يلي بلاد بسط ومعبر وبلاد الدوار ، وهي ثغور في هذا الوقت (وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) مما يليها من الأكافر والأمم المختلفة حضر وبدو ، فمن الحضر بلاد كابل وبلاد باميان ، وهي بلاد متصلة ببلاد زابلستان والرخج ، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في أخبار الأمم الماضية والملوك الغابرة ان زابلستان تعرف ببلاد فيروز بن كبك ملك زابلستان .

وقد كان عيسى بن علي بن ماهان دخل في طلب الخوارج في أيام الرشيد الى السند وجبالها والقندهار والرخج وزابلستان ، يقتل ويفتح فتوحا لم يتقدم مثلها في تلك الديار ، ففي ذلك يقول الأعمى الشاعر المعروف بابن العذافر القمي :

كاد عيسى يكون ذا القرنين ... بلغ المغربين والمشرقين
لم يدع كابلا ولا زابلستا ... ن فما حولها الى الرخجين

وقد قدمنا فيما سلف من كتبنا الأخبار عن قلاع فيروز بن كبك الملك ببلاد زابلستان التي ليس في قلاع العالم على ما ظهر للناس من ذوي العناية والتنقير ومن أكثر في الأرض المسير أحصن منها ، ولا أمنع ولا أعلى في الجو ، ولا أكثر عجائب منها .

وذكرنا عجائب تلك الديار الى بلاد الطبسين وبلاد خراسان واتصالها بسجستان ، وعجائب المشرقين والمغربين من عامر وغامر ، وما في العامر من الأمم المختلفة الخلق والخلق .

قدوم أهل البصرة على المعتضد

وقد كان أهل البصرة وردوا على المعتضد في مراكب بحرية بيض مشحمة بالشحم والنورة على ما في بحرهم ، ووفد فيها خلق من خطبائهم ومتكلميهم وأهل الرياسة والشرف

والعلم : منهم أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي ، وكان مولى آل جمح من قريش ، وكان ولي القضاء بعد ذلك ، يشكون الى المعتضد ما نزل بهم من محن الزمان ، وجدب لحقهم ، وجور من العمال اعتورهم ، وألحوا بالصياح والضجيج في مراكبهم في دجلة .

فجلس لهم المعتضد من وراء حجاب ، وأمر الوزير القاسم بن عبيد الله وغيره من كتاب الدواوين بالجلوس لهم من حيث يسمع المعتضد خطابهم ، فيقصون لهم بما يشكونه من حكم الدواوين ، ثم أذن للبصريين فدخلوا ، وأبو خليفة في أولهم ، عليهم الطيالسة الزرق والأقناع على رؤوسهم ، ذوو عوارض جميلة وهيئة حسنة .

فاستحسن المعتضد ما رأى منهم ، وكان المبتدىء منهم بالنطق أبو خليفة ، فقال : غمر العامر ، ودثر الظاهر ، واختلفت العواء ، وخسفت الجوزاء ، وأناخت علينا المصائب ، واعتورتنا المحن ، وقام كل رجل منا في ظلمة ، واصطلمت الضياع ، وانخفضت القلاع ، فانظر الينا بعين الامام ، تستقيم لك الأيام ، وتنقاد لك الأنام ، والا فنحن البصريون لا ندفع عن فضيلة ، ولا نتنافس عن جليلة ، وسجع في كلامه ، وأغرق في خطابه .

فقال له الوزير : أحسبك مؤدبا أيها الشيخ ؟

فقال له : أيها الوزير ، المؤدبون أجلسوك هذا المجلس .

قال له الوزير : كم في خمس من الابل ؟

قال له أبو خليفة : الخبير سألت ، في خمس من الابل شاة ، وفي العشر شاتان ، ثم مضى في وصف فرائض الأبل واصفا لما يجب فيها ، ذاكرا للتنازع في موضعه منها ، ثم شرع في البقر والغنم ، بلسان فصيح وخطاب حسن في ايجاز من خطاب وبيان من الوصف .

فبعث المعتضد ـ وقد أعجبه ما سمع ، وأكثر لذلك من الضحك ـ بخادم الى الوزير ، فقال له : اكتب لهم عما يريدون ، وأجبهم الى ما سألوه ، ولا تصرفهم الا شاكرين ، فهذا شيطان قذف به البحر ، ومثله فليفد على الملوك .

أبو خليفة الجمحي

وكان أبو خليفة لا يتكلف الاعراب ، بل قد صار له كالطبع ، لدوام استعماله اياه من عنفوان حداثته ، وكان ذا محل من الاسناد .

وله أخبار ونوادر حسان قد دونت : منها أن بعض عمال الخراج بالبصرة كان مصروفا عن عمله ، وأبو خليفة مصروفا عن قضائه ، فبعث العامل الى أبي خليفة أن مبرمان النحوي صاحب أبي العباس المبرد قد زارني في هذا اليوم الى بعض الأنهار والبساتين ، فأتوه مبكرين

مع من حضرنا من أصحابنا ، وسألوه الحضور معهم ، فجلسوا في سمارية متفكهين قد غيروا ظواهر زيهم حتى أتوا نهرا من أنهار البصرة .

واستحسنوا بعض البساتين فقدموا اليه وخرجوا الى الشط وجلسوا تحت النخل على شط النهر ، وقدم اليهم ما حمل معهم من الطعام وكان أيام المبادي ، وهي الأيام التي يثمر فيها الرطب فيكبسونه في القواصر تمرا وتكون حينئذ البساتين مشحونة بالرجال ممن يعمل في التمر من الأكرة ، وهم الزراع وغيرهم .

فلما أكلوا قال بعضهم لأبي خليفة غير مكن له خوفا أن يعرفه من حضر ممن ذكرنا من الأكرة والعمال في النخل : أخبرني أطال الله بقاءك عن قول الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا » هذه الواو ما موقعها من الإعراب ؟

قال أبو خليفة : موقعها رفع ، وقوله : « قوا » هو أمر للجماعة من الرجال .

قال له : كيف تقول للواحد من الرجال وللاثنين ؟

قال : يقال للواحد من الرجال : ق ، وللاثنين : قيا ، وللجماعة : قوا .

قال : كيف تقول للواحدة من النساء وللاثنتين منهن وللجماعة منهن ؟

قال أبو خليفة : يقال للواحدة : قي ، وللاثنتين : قيا ، وللجماعة : قين .

قال : فأسألك ان تعجل بالعجلة كيف يقال للواحد من الرجال والاثنين والجماعة والواحدة من النساء والاثنتين منهن والجماعة منهم ؟

قال أبو خليفة عجلان : ق قيا قوا ، قي قيا قين .

وكان بالقرب منهم جماعة من الأكرة ، فلما سمعوا ذلك استعظموه ، وقالوا : يا زنادقة ، أنتم تقرأون القرآن بحروف الدجاج .

وعدوا عليهم فصفعوهم ، فما تخلص أبو خليفة والقوم الذي كانوا معه من أيديهم الا بعد كد طويل .

وقد أتينا على نوادر أبي خليفة وأخباره ومخاطبته لبغلته حين ألقته وما تكلم به حين دخول اللص الى داره وغير ذلك في كتابنا الأوسط .

وكانت وفاة أبي خليفة بالبصرة في سنة خمس وثلثمائة .

ابن الشيخ في آمد

وفي سنة ست وثمانين ومائتين في ربيع الأول نزل المعتضد على آمد ، وذلك بعد وفاة احمد بن عيسى بن الشيخ عبد الرزاق ، وقد تحصن بها ولده محمد بن أحمد بن عيسى بن عبد الرزاق ، فبث جيوشه حولها وحاصرها .

فحدث علقمة بن عبد الرزاق قال : حدثنا رواحة بن عيسى بن عبد الملك ، عن شعبة بن شهاب اليشكري ، قال : وجه بي المعتضد الى محمد بن أحمد بن عيسى بن الشيخ لآخذ بالحجة عليه ، فلما صرت اليه واتصل الخبر بأم الشريف أرسلت الي ، فقالت : يا ابن شهاب ، كيف خلفت أمير المؤمنين ؟

قال : فقلت : خلفته والّله ملكا جذلا ، وحكما عدلا ، أمارا بالمعروف ، فعالا للخير ، متعززا على أهل الباطل ، متذللا للحق ، لا تأخذه في الّله لومة لائم .

قال : فقالت لي : هو والله أهل لذلك ومستحقه ومستوجبه ، وكيف لا يكون ذلك كذلك وهو ظل الله الممدود على بلاده ، وخليفته المؤتمن على عباده ، أعز به دينه ، وأحيا به سنته ، وثبت به شريعته .

ثم قالت لي : وكيف رأيت صاحبنا ؟ تعني ابن أخيها محمد بن أحمد .

قال : فقلت : رأيت غلاما حدثا معجبا قد استحوذ عليه السفهاء فاستمد بآرائهم وأنصت لأقوالهم ، فهم يزخرفون له الكلام ، ويوردونه الندم .

فقالت لي : فهل لك أن ترجع اليه بكتاب فلعلنا أن نحل ما عقده السفهاء ؟

قال : قلت : أجل . فكتبت اليه كتابا لطيفا حسنا أجزلت فيه الموعظة ، وأخلصت فيه النصيحة ، وكتبت في آخره هذه الأبيات :

اقبل نصيحة أم قلبها وجع — عليك ، خوفا واشفاقا ، وقل سددا
واستعمل الفكر في قولي ، فانك ان — فكرت ألفيت في قولي لك الرشدا
ولا تثق برجال في قلوبهم — ضغائن تبعث الشنآن والحسدا
مثل النعاج خمول في بيوتهم — حتى اذا أمنوا ألفيتهم أسدا
وداو ذلك والأدواء ممكنة — واذ طبيبك قد ألقى اليك يدا
واعط الخليفة مايرضيه منك ، ولا — تمنعه مالا ولا أهلا ولا ولدا
واردد أخا يشكر ردا يكون له — رد ءا من السوء لم تشمت به أحدا

قال : فأخذت الكتاب ، وسرت به الى محمد بن أحمد ، فلما نظر فيه رمى به الي ، ثم قال : يا أخا يشكر ، ما بآراء النساء تساس الدول ، ولا بعقولهن يساس الملك ، ارجع الى صاحبك .

فرجعت الى أمير المؤمنين ، فأخبرته الخبر عن حقه وصدقه ، فقال : وأين كتاب أم الشريف ؟

قال : فأظهرته ، فلما عرض عليه أعجبه شعرها وعقلها ، ثم قال : اني لأرجو أن أشفعها في كثير من القوم .

فلما كان في فتح آمد ما كان ونزل محمد بن أحمد على الأمان لما عظم القتال وجه الى أمير المؤمنين فقال : يا شعلة بن شهاب ، هل عندكم علم من أم الشريف ؟

قال : قلت : لا والله يا أمير المؤمنين .

قال : امض مع هذا الخادم فانك تجدها في جملة نسائها قال : فمضيت ، فلما بصرت بي أسفرت عن وجهها وأنشأت تقول :

ريب الزمان وصرفه وعتوه كشف القناعا
وأذل بعد العز منـ ـا الصعب والبطل الشجاعا
ولقد نصحت فما أطعـ ـت ،وكم حرمت بأن أطاعا
فأبى بنا المقدور الا أن نقسم أو نباعا
يا ليت شعري هل ترى يوما لفرقتنا اجتماعا

قال : ثم بكت وضربت بيدها على الأخرى ، ثم قالت لي : يا ابن شهاب ، كأني والله كنت أرى ما أرى ، فانا لله وانا اليه راجعون .

قال : فقلت لها : أن أمير المؤمنين قد وجهني اليك ، وما ذاك الا لحسن رأي منه فيك .

قالت : فهل لك ان توصل اليه كتابي هذا بما فيه ؟

قلت : نعم .

فكتبت اليه بهذه الأبيات :

قل للخليفة والامام المرتضى وابن الخلائف من قريش الأبطح
بك أصلح الله البلاد وأهلها بعد الفساد ، وطالما لم تصلح
وتزحزحت بك قبة العز التي لولاك بعد الله لم تتزحزح
وأراك ربك ما تحب فلا ترى ما لا يحب ، فجد بعفوك واصفح
يا بهجة الدنيا وبدر ملوكها هب ظالمي ومفسدي لمصلح

قال : فأخذت الكتاب ، وسرت به الى أمير المؤمنين ، فلما عرضت عليه الأبيات

اعجبته ، وأمر أن يحمل اليها تخوت من الثياب وجملة من المال ، والى ابن أخيها محمد بن أحمد مثل ذلك ، وشفعها في كثير من أهلها ممن عظم جرمه واستحق العقوبة عليه .

حرب مع رافع بن ليث

وكتب المعتضد الى أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف بمواقعة رافع بن ليث وذلك في سنة تسع وسبعين ومائتين ، فسار أحمد بن عبد العزيز الى رافع ، والتقوا بالري لسبع بقين من ذي القعدة من هذه السنة .

وأقامت الحرب بينهم أياما ، ثم كانت على رافع بن ليث ، فولى ، وركب أصحاب ابن أبي دلف أكتافهم ، واستولوا على عسكرهم ، وكان وصول هذا الخبر الى بغداد لست خلون من ذي الحجة من هذه السنة .

محمد بن الحسن بن سهل
يدعو لرجل طالبي

وفي سنة ثمانين ومائتين أخذ ببغداد رجل يعرف بمحمد بن الحسن بن سهل ابن أخي ذي الرياستين الفضل بن سهل ، يلقب بشميلة ، ومعه عبيد الله بن المهتدي .

ولمحمد بن الحسن بن سهل هذا تصنيفات في أخبار المبيضة ، وله كتاب مؤلف في أخبار علي بن محمد صاحب الزنج على حسب ما ذكرنا من أمره فيما سلف من هذا الكتاب ، فأقر عليه جماعة من المستأمنة من عسكر العلوي وأصيبت له جرائد فيها أسماء رجال قد أخذ عليهم البيعة لرجل من آل أبي طالب ، وكانوا قد عزموا على أن يظهروا ببغداد في يوم بعينه ، ويقتلوا المعتضد ، فأدخلوا الى المعتضد فأبى من كان مع محمد بن الحسن أن يقروا ، وقالوا : أما الرجل الطالبي فانا لا نعرفه ، وقد أخذت علينا البيعة له ولم نره ، وهذا كان الواسطة بيننا وبينه ، يعنون محمد بن الحسن .

فأمر بهم فقتلوا ، واستبقى شميلة طمعا في أن يدله على الطالبي ، وخلى عبيد الله بن المهتدي لعلمه ببراءته .

ثم أراد المعتضد بالله بمحمد بن الحسن بجميع الجهات أن يدله على الطالبي الذي أخذ له العهد على الرجال ، فأبى .

وجرى بينه وبين المعتضد خطب طويل ، وكان في مخاطبته للمعتضد أن قال : لو شويتني على النار ما زدتك على ما سمعت مني ، ولم أقر على من دعوت الناس الى طاعته وأقررت بامامته ، فاصنع ما أنت له صانع .

فقال له المعتضد : لسنا نعذبك الا بما ذكرت .

فذكر أنه جعل في حديدة طويلة أدخلت في دبره وأخرجت من فمه وأمسك بأطرافها على نار عظيمة حتى مات بحضرة المعتضد وهو يسبه ويقول فيه العظائم .

والأشهر أنه جعل بين رماح ثلاثة وشد بأطرافها وكتف وجعل فوق النار من غير أن يماسها وهو في الحياة يدار عليها ويشوى كما تشوى الدجاج الى أن تفرقع جسمه ، وأخرج فصلب بين الجسرين من الجانب الغربي .

محاربة بني شيبان

وفي هذه السنة كان خروج المعتضد في طلب الأعراب من بني شيبان ، وقد كانوا عتوا وأكثروا الفساد ، وأوقع بهم مما يلي الجزيرة والزاب في الموضع المعروف بوادي الذئاب ، فقتل وأسر وساق الذراري وسار الى الموصل .

وفي هذه السنة افتتح أبو عبد الله بن أبي الساج المراغة من بلاد أذربيجان فقبض على عبد الله بن الحسين ، واستصفى أمواله ، ثم أتى عليه بعد ذلك .

وفي هذه السنة كانت وفاة أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف .

فتح عمان

وفي هذه السنة افتتح أحمد بن ثور عمان ، وكان مسيره اليها من بلاد البحرين ، فواقع الشراة من الأباضية ، وكانوا في نحو مائتي ألف ، وكان إمامهم الصلت بن مالك ببلاد بروى من أرض عمان ، وكانت له عليهم ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وحمل كثيرا من رؤوسهم الى بغداد فنصبت بالجسر .

وفيها دخل المعتضد بغداد منصرفا من الجزيرة .

وفي هذه السنة كان دخول عمرو بن الليث نيسابور .

ابنة ابن أبي الساج

وفي هذه السنة نقلت ابنة محمد بن أبي الساج الى بدر غلام المعتضد ، وقد أتينا على خبر ابن أبي الساج وما كان من تزويجه ابنته لبدر بحضرة المعتضد ، وما كان من خبر ابن أبي الساج ورحلته عن باب خراسان متوجها الى اذربيجان في الكتاب الأوسط .

مسير اسماعيل بن احمد الى أرض الترك

وفي هذه السنة سار اسماعيل بن احمد ـ بعد وفاة أخيه نصر بن احمد واستيلائه على امرة خراسان ـ الى أرض الترك ، ففتح المدينة الموصوفة من مدنهم بدار الملك ، وأسر خاتون زوجة الملك ، وأسر خمسة عشر ألفا من الترك وقتل منهم عشرة آلاف .

ويقال : إن هذا الملك يقال له طنكش ، وهذا الإسم سمة لكل ملك ملك هذا البلد من ملوكهم ، وأراه من الجنسين المعروفين بالخدلجية .

وقد أتينا فيما سلف من هذا الكتاب على جمل من أخبار الترك وأجناسهم وأوطانهم ، وكذلك فيما سلف من كتبنا .

بين وصيف وعمرو بن عبد العزيز

وفي سنة احدى وثمانين ومائتين كانت الحرب بين وصيف خادم ابن أبي الساج وعمرو ابن عبد العزيز ببلاد الجبل ، وكان من أمره ما ذكرنا فيما سلف من كتبنا .

وكان المعتضد خرج في هذه السنة الى الجبل لأمور بلغته : منها قصة محمد بن زيد العلوي الحسيني صاحب بلاد طبرستان ، فولى ولده عليا المكتفي الري ، وأنزله بها ، وأضاف اليه قزوين وزنجان وأبهر وقم وهمذان .

وانصرف المعتضد الى بغداد وقد قلد عمرو بن عبد العزيز اصبهان وكرخ أبي دلف .

أحداث

وفيها استأمن الى المكتفي على كوره ، وسار الى المعتضد في عدة كثيرة ، وفيها سار طغج بن شبيب أبو الأخشيد صاحب مصر في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) في عساكر كثيرة من دمشق ، فدخل طرسوس غازيا وافتتح ملورية مما يلي بلاد برغوث ودرب الراهب .

وفي هذه السنة نزل المعتضد على حمدان بن حمدون وقد تحصن في القلعة المعروفة بالصوارة نحو عين الزعفران ، وسارع اسحاق ابن أيوب العنبري الى طاعة المعتضد ، ودخل في عسكره ، واستأمن الحسين بن حمدان بن حمدون ومن كان معه من أصحابه الى المعتضد .

وقد أتينا على خبر حمدان بن حمدون وما كان من أمره وصعوده الجبل الجودي وعبوره دجلة وكاتبه النصراني ودخول عسكر المعتضد ليلا الى اسحاق بن أيوب حتى أتى به الى المعتضد ، واخراب المعتضد لهذه القلعة .

وقد كان حمدان أنفق عليها أموالا جليلة ، وهو حمدان بن حمدون بن الحارث بن منصور بن لقمان ، وهو جد أبي محمد الحسن بن عبد الله الملقب بناصر الدولة في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) وما كان من الحسين بن حمدان في طلبه هارون الشاري ، وما كان من أخذ الحسين بن حمدان اياه ، بعد هذا الموضع فيما يرد من هذا الكتاب .

***

مقتل ابي الجيش خمارويه

قال المسعودي : وفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين ذبح أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون بدمشق في ذي القعدة ، وقد كان بنى في سفح الجبل أسفل من دير مروان قصرا ، وكان يشرب فيه في تلك الليلة ، وعنده طغج .

وكان الذي تولى ذلك خادما من خدمهم ، وأتى بهم على أميال فقتلوا وصلبوا ، ومنهم من رمي بالنشاب ، ومنهم من شرح لحمه من أفخاذه وعجيزته ، وأكله السودان من مماليك أبي الجيش .

الخصيان

وقد أتينا على أخبار الخدم من السودان والصقالبة والروم والصين ، وذلك أن أهل الصين يخصون كثيرا من أولادهم كفعل الروم بأولادهم ، وما اجتمع عليه الخصيان من التضاد ، وذلك لما حدث بهم من قطع هذا العضو في كتابنا « أخبار الزمان » وما أحدثته الطبيعة فيهم عند ذلك كما قاله الناس فيهم وما ذكروه من الصفات .

وذكر المدائني أن معاوية بن أبي سفيان دخل ذات يوم على امرأته فاختة ـ وكانت ذات عقل وحزم ـ ومعه خصي ، وكانت مكشوفة الرأس ، فلما رأت معه الخصي غطت رأسها ، فقال لها معاوية : انه خصي .

فقالت : يا أمير المؤمنين : أترى المثلة به أحلت له ما حرم الله عليه ؟

فاسترجع معاوية ، وعلم أن الحق ما قالته ، فلم يدخل بعد ذلك على حرمه خادما ، وان كان كبيرا فانيا .

وقد تكلم الناس فيهم ، وذكروا الفرق بين المجبوب والمسلوب ، وأنهم رجال مع النساء ونساء مع الرجال ، وهذا خلف من الكلام ، وفاسد من المقال ، بل هم رجال ، وليس في عدم عضو من أعضاء الجسد ما يوجب الحاقهم بما ذكروا ، ولا عدم نبت اللحية محيلا لهم عما وصفوا .

ومن زعم أنهم بالنساء أشبه فقد أخبر عن تغيير فعل الباري جل وعز ، لأنه خلقهم رجالا لا نساء ، وذكرانا لا اناثا ، وليس في الجناية عليهم ما يقلب أعيانهم ، ويزيل خلق الباري جل وعز لهم .

وقد قلنا في علة عدم نتن الآباط في الخدم ، وما قالته الفلاسفة ، فيما سلف من كتبنا ، لأن الخادم بطيء لا يوجد لآباطه رائحة ، وهذا من فضائل الخدم .

نقل جثة خمارويه الى مصر

وحمل أبو الجيش في تابوت الى مصر ، وورد الخبر بذلك الى مصر يوم الأحد لخمس ليال خلون من ذي الحجة ، وكان ذبحه لأيام بقيت من ذي القعدة ، فبويع لابنه جيش ـ وكان خمارويه به يكنى ـ من الغد يوم الاثنين ، وأتـى بأبي الجيش الى مصر ، فأخرج من التابوت ، وجعل على السرير ، وذلك على باب مصر ، وخرج ولده الأمير جيش ، وسائر الأمراء والأولياء ، فتقدم القاضي أبو عبد الله محمد بن عبدة المعروف بالعبداني وصلى عليه ، وذلك في الليل .

فحكى أبو بشر الدولابي عن أبي عبد الله النجاري ـ وكان شيخا من أهل العراق ، وكان يقرأ في دور آل طولون ومقابرهم ـ أنه كان في تلك الليلة ممن يقرأ عند القبر ، قد قدم أبو الجيش ليدلي في القبر ونحن نقرأ جماعة من القـراء سبعـة ، سورة الدخـان ، فأحـدر من السرير ، ودلي في القبر ، وانتهينا من السورة في هذا الوقت الى قوله عز وجل : « خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق انك أنت العزيز الكريم » .

قال : فخفضنا أصواتنا وأدغمنا حياء ممن حضر .

من حزم المعتضد

ومما ذكر من خبر المعتضد وحزمه في الأمور وحيله أنه أطلق من بيت المال لبعض الرسوم في الجند عشر بدر ، فحملت الى منزل صاحب عطاء الجيش ليصرفها فيهم ، فنقب منزله في تلك الليلة ، وأخذت العشر البدر .

فلما أصبح نظر الى النقب ولم ير المال ، فأمر باحضار صاحب الحرس ، وكان على الحرس يومئذ مؤنس العجلي ، فلما أتاه قال له : إن هذا المال للسلطان والجند، ومتى لم تأت به أو بالذي نقبه وأخذ المال ألزمك أمير المؤمنين غرمه .

فجد في طلبه ، وطلب اللص الذي جسر على هذا الفعل ، فصار الى مجلسه ، وأحضر التوابين والشرط ، والتوابون : هم شيوخ أنواع اللصوص الذين قد كبـروا وتابـوا ، فاذا جرت حادثة علموا من فعل من هي ، فدلوا عليه ، وربما يتقاسمون اللصوص ما سرقوه ، فتقدم اليهم في الطلب ، وتهددهم ، وأوعدهم ، وطالبهم .

فتفرق القوم في الدروب والأسواق والغرف والمواخير ودكاكين الرواسين ودور القمار ، فما لبثوا أن أحضروا رجلا نحيفا ضعيف الجسم رث الكسوة هين الحالة فقالوا : يا سيدي ، هذا صاحب الفعلة وهو غريب من غير هذا البلد ، وأطبق القوم كلهم على أنه صاحب النقب

ولص المال .

فأقبل عليه مؤنس العجلي فقال له : ويلك ! من كان معك ؟ ومن أعانـك ؟ وأين أصحابك ؟ ما أظنك تقدر على عشر بدر وحدك في ليلة ، ما كنتـم الا عشرة وأقـل ذلك خمسة ، فأقر لي بالمال ان كان مجتمعا ، وعلى أصحابك ان كان المال قد قسم ، فما زاده على الانكار شيئا .

فأقبل يترفق به ويعده أن يثيبه ويرزقه ويعظم جائزتـه ، ويعـده بكل جميل على رده والاقرار به ، ويتوعده بكل مكروه وهو على جحوده وانكاره .

فلما غاظه ذلك وأنكره ويئس من اقراره أخذ في عقوبته ومساءلته ، فضربه بالسوط والقلوس والمقارع والدرة على ظهره وبطنه وقفاه ورأسه وأسفل رجليه وكعابه وعضله ، حتى لم يكن للضرب فيه موضع ، وبلغ به ذلك الى حالة لا يعقل فيها ولا ينطق ، فلـم يقـر بشيء .

فبلغ ذلك المعتضد ؛ فأحضر صاحب الجيش ، فقال له : ما صنعت في المال ؟فأخبره الخبر .

فقال له : ويلك ! تأخذ لصا قد سرق من بيت المال عشر بدر فتبلغ به الموت والتلف حتى يهلك الرجل ويضيع المال ، فأين حيل الرجال ؟

قال : يا أمير المؤمنين ما أعلم الغيب ، ولم تكن لي ففي إمره حيلة غير ما فعلت .

قال : أحضرني الرجل . فأتى به وقد حمل في جل ، فوضع بين يديه وقد عقـل ، فسأله فأنكر ، فقال له : ويلك ! ان مت لم ينفعك ، وان برئت من هذا الضرب ونجوت لم أدعك تصل اليه ، فلك الأمان والضمان على ما تصلح به حالتك ويحمد به أمرك ، فأبى الا الانكار .

فقال : عليّ بأهل الطب ، فأحضروا .

فقال : خذوا هذا الرجل اليكم فعالجـوه بأرفـق العـلاج ، وواظبـوا عليه بالمراهـم والغذاء والتعاهد ، واجتهدوا أن تبرئوه في أسرع وقت .

فأخذوه إليهم ، وأخرج مالا مكان المال وأمر بتفريقه على الجند ، فيقال : انه بريء وصلح في أيام يسيرة .

ثم واظبوا عليه بالطعام والشراب والوطاء والطيب حتى صح وقوي جسمه وظهر لونه ورجعت اليه نفسه ، ثم ذكر به ، فأمر باحضاره .

فلما حضر بين يديه سأله عن حاله ،فدعا وشكر ، وقال : أنا بخير ما أبقى الله أمير

المؤمنين .

ثم سأله عن المال ، فعاد الى الانكار .

فقال له : ويلك ! لست تخلو من أن تكون أخذته وحدك كله أو وصل اليك بعضه ، فان كنت أخذته كله ، فانك تنفقه في أكل وشرب ولهو ، لا أظنك تفنيه قبل موتك ، وان مت فعليك وزره ، وان كنت أخذت بعضه سمحنا لك به ، فأقر لنا به وأقر على أصحابك ، فاني اقتلك ان لم تقر ، ولا ينفعك بقاء المال بعدك ، ولا يبالي أصحابك بقتلك ، ومتى أقررت دفعت اليك عشرة آلاف درهم ، وأخذت لك من أصحاب الجسر مثل ذلك ، ورسمتك من التوابين ، وأجريت لك في كل شهر عشرة دنانير تكفيك لأكلك وشربك وكسوتك وطيبك ، وتكون عزيزا ، وتنجو من القتل ، وتتخلص من الاثم .

فأبى الا الانكار ، فاستحلفه بالله ، فحلف وأظهر له مصحفا واستحلفه فحلف عليه ، فقال : اني سأظهر على المال ، فان أنا ظهرت عليه بعد هذه اليمين قتلتك ولم أستبقك ، فأبى الا الانكار .

فقال له : فضع يدك على رأسي واحلف بحياتي ، فوضع يده على رأسه وحلف بحياته أنه ما أخذه وأنه مظلوم متهم ، وأن التوابين قد تبرأوا به .

فقال له المعتضد : فان كنت قد كذبت قتلتك وأنا بريء من دمك .

قال : نعم .

فأمر باحضار ثلاثين أسود ، بحيث يراهم ويرونه ، وأمرهم أن يتناوبوا في ملازمته فأتت عليه أيام وهو قاعد لا يتكيء ولا يستند ولا يستلقي ولا يضطجع ، وكلما خفق خفقة وجيء فكه وقمع رأسه ، حتى اذا ضعف وقارب التلف أمر باحضاره ، فأعاد عليه ما كان خاطبه به واستحلفه بالله وبغير ذلك من الأيمان ، فحلف على ذلك كله وبما لم يستحلفه به أنه ما أخذ المال ولا يعرف من أخذه .

فقال المعتضد لمن حضر : قلبي يشهد أنه بريء ، وأن ما يقول حق ، وأن التوابين قد عرفوا صاحبه ، وقد أثمنا في هذا الرجل ، وسأله أن يجعله في حل ، ففعل .

ثم أمر باحضار مائدة عليها طعام ، وأحضر بارد الشراب ، وأمره بالجلوس والأكل والشرب ، فأقبل يأكل ويشرب ، ويحث على الأكل ، ويلقم ويعاد الشراب عليه ويكرر ، حتى لم يبق للأكل والشرب موضع ، ثم أمر ببخور وطيب فبخر وطيب ، وأتى له بحشية ريش فوطىء له ومهد ، فلما استلقى واستراح وغفا ، أمر بازعاجه وسرعة ايقاظه ، فحمل من موضعه حتى أقعد بين يديه وفي عينيه الوسن ، فقال له : حدثني كيف صنعت ؟ وكيف نقبت ؟ ومن أين خرجت ؟ والى أين ذهبت بالمال ؟ ومن كان معك ؟

قال : ما كنت الا وحدي ، وخرجت من النقب الذي دخلت منه ، وكان مقابل الدار حمام له كوم شوك يوقد به ، فأخذت المال ورفعت ذلك الشوك والقماش والقصب ، فوضعته تحته وغطيته ، وهو هنالك .

فأمر برده الى فراشه ، فردوه وأضجعوه عليه ، ثم أمر باحضار المال ، فأحضر عن آخره ، وأحضر مؤنس العجلي ، وأحضر الوزير والجلساء ، وقد غطي المال بالبساط ناحية من المجلس ثم أمر بايقاظ اللص وقد اكتفى في النوم وذهب عنه الوسن ، فقال له بحضرة الجميع مثل قوله الأول ، فجحد وأنكر ، فأمر بكشف البساط ، وقال له : ويلك ! أليس هذا المال ؟ أليس فعلت كذا وكذا ؟ يصف له ما كان حدثه به .

فأسقط في يد اللص ، ثم أمر فقبض على يديه ورجليه وأوثق ، ثم أمر بمنفاخ فنفخ في دبره ، وأتى بقطن فحشي في أذنيه وفمه وخيشومه وأقبل ينفخ ، وخلي عن يديه ورجليه من الوثاق ، وأمسك بالأيدي وقد صار كأعظم ما يكون من الزقاق المنفوخة ، وقد ورم سائر أعضائه وعظم جسمه ، وعيناه قد امتلأتا وبرزتا ، فلما كاد أن ينشق أمر بعض الأطباء فضربه في عرقين فوق الحاجبين ، وهما في الجبين ، فأقبلت الريح تخرج منهما مع الدم ولها صوت وصفير الى أن خمد وتلف وكان ذلك أعظم منظر رؤي في ذلك اليوم من العذاب ، وقيل : ان البدر كانت عينا ، وان عددها كان أكثر مما وصفنا .

ابن المغازلي المضحك

وقد كان ببغداد رجل يتكلم على الطريق ، ويقص على الناس بأخبار ونوادر ومضاحك ويعرف بابن المغازلي ـ وكان في نهاية الحذق لا يستطيع من يراه ويسمع كلامه ألا أن يضحك ـ قال ابن المغازلي : فوقفت يوما في خلافة المعتضد على باب الخاصة أضحك وأنادر ، فحضر حلقتي بعض خدمة المعتضد ، فأخذت في حكاية الخدم ، فأعجب الخادم بحكايتي ، وأشغف بنوادري ، ثم انصرف عني .

فلم يلبث أن عاد وأخذ بيدي ، وقال : اني لما انصرفت عن حلقتك دخلت فوقفت بين يدي المعتضد أمير المؤمنين ، فذكرت حكايتك وما جرى من نوادرك فاستضحكت ، فرآني أمير المؤمنين ، فأنكر ذلك مني ، وقال : ويلك ! مالك ؟! .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، على الباب رجل يعرف بابن المغازلي يضحك ويحاكي ، ولا يدع حكاية أعرابي وتركي ومكي ونجدي ونبطي وزنجي وسندي وخادم الا حكاها ، ويخلط ذلك بنوادر تضحك الثكول وتصبي الحليم ، وقد أمرني باحضارك . ولي نصف جائزتك .

فقلت له ، وقد طمعت في الجائزة السنية : يا سيدي : أنا ضعيف وعلي عيلة ، وقد

منّ الله علي بك فما عليك أن أخذت بعضها سدسها أو ربعها ؟ فأبى الا نصفها ، فطمعت في النصف وقنعت به .

فأخذ بيدي وأدخلني عليه ، فسلمت وأحسنت ، ووقفت في الموضع الذي أوقفت فيه ، فرد علي السلام ، وقد كان ينظر في كتاب ، فلما نظر في أكثره أطبقه ثم رفع رأسه الي وقال لي : أنت ابن المغازلي ؟

قلت : نعم يا أمير المؤمنين .

قال : قد بلغني أنك تحكي وتضحك ، وأنك تأتي بحكايات عجيبة ونوادر ظريفة .

قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، الحاجة تفتق الحيلة ، أجمع بها الناس وأتقرب الى قلوبهم بحكاياتها ألتمس برهم وأتعيش بما أناله منهم .

قال : فهات ما عندك وخذ في فنك ، فان اضحكتني أجزتك بخمسمائة درهم ، وإن لم أضحك فما لي عليك ؟

فقلت للحين والخذلان : ما معي الا قفاي فاصفعه ما أحببت ، وكم شئت ، وبما شئت .

فقال لي : قد أنصفت ، ان ضحكت فلك ما ضمنت ، وان أنا لم أضحك صفعتك بهذا الجراب عشر صفعات .

فقلت في نفسي : ملك لا يصفع الا بشيء يسير ، وبشيء خفيف هين .

ثم التفت واذا أنا بجراب أدم ناعم في زاوية البيت ، فقلت في نفسي : ما أخطأ حزري ، ولا أخلف ظني ، وما عسى أن يكون من جراب فيه ريح ، أن أنا أضحكته ربحت ، وان أنا لم أضحكه فأمر عشر صفعات بجراب منفوخ هين ، ثم أخذت في النوادر والحكايات والنفاسة والعبارة .

فلم أدع حكاية اعرابي ولا نحوي ولا مخنث ولا قاض ولا زطي ولا نبطي ولا سندي ولا زنجي ولا خادم ولا تركي ولا شطارة ولا عيارة ولا نادرة ولا حكاية الا أحضرتها وأتيت بها ، حتى نفد جميع ما عندي وتصدع رأسي وانقطعت وسكت ، وفترت وبردت .

فقال لي : هيه ، هات ما عندك ، وهو مغضب لا يضحك ولا يبتسم ولم يبق ورائي خادم الا هرب ، ولا غلام الا ذهب لما استفزهم الضحك وورد عليهم من الأمر .

فقلت : يا أمير المؤمنين قد نفد والله ما معي ، وتصدع رأسي ، وذهب معاشي ، وما رأيت قط مثلك ، وما بقيت لي الا نادرة واحدة .

فقال : هاتها .

فقلت : يا أمير المؤمنين وعدتني أن تصفعني عشرا وجعلتها مكان الجائزة ، فأسألك ان

تضعف الجائزة وتضيف اليها عشرا ، فأراد ان يضحك فاستمسك .

ثم قال : نفعل ، يا غلام خذ بيده .

فأخذ بيدي ومددت قفاي فصفعت بالجراب صفعة ، فكأنما سقط على قفاي قلعة ، واذا فيه حصى مدور كأنه صنجات ، فصفعت به عشرا كادت أن تنفصل رقبتي وينكسر عنقي ، وطنت أذناي ، وقدح الشعاع من عيني ، فلما استوفيت العشرة صحت : يا سيدي ، نصيحة .

فرفع الصفع عني بعد أن عزم على ايفاء ما كنت سألته من أضعاف جائزتي .

فقال : ما نصيحتك ؟

فقلت : يا سيدي انه ليس في الديانة أحسن من الأمانة ، ولا أقبح من الخيانة ، وقد ضمنت للخادم الذي أدخلني عليك نصف الجائزة على قلتها أو كثرتها ، وأمير المؤمنين أطال الله بقاءه بفضله وكرمه قد أضعفها ، فقد استوفيت نصفها ، وبقي لخادمك نصفها .

فضحك حتى استلقى ، واستفزه ما كان قد سمعه مني أولا ، وتحامل له وصبر عليه ، فما زال يضرب بيده ويفحص برجله ويمسك بمراق بطنه ، حتى اذا سكن ضحكه ورجعت اليه نفسه قال : علي بفلان الخادم ، فأتى به ، وكان طوالا ، فأمر بصفعه .

فقال : يا أمير المؤمنين أي شيء قضيتي وأي جناية جنايتي ؟

فقلت له : هذه جائزتي ، وأنت شريكي ، وقد استوفيت نصفها ، وبقي نصيبك منها .

فلما أخذه الصفع وطرق قفاه الصافع ، أقبلت عليه أقول له : قلت لك : اني ضعيف معيل وشكوت اليك الحاجة والمسكنة ، وأقول لك : يا سيدي ، لا تأخذ نصفها ، لك سدسها ، لك ربعها ، وأنت تقول : ما آخذ الا نصفها ، ولو علمت أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وجوائزه صفع وهبتها لك كلها !

فعاد الى الضحك من قولي للخادم ، وعتابي له ، فلما استوفى صفعه وسكن أمير المؤمنين من ضحكه أخرج من تحت تكأته صرة كان قد أعدها فيها خمسمائة درهم .

ثم قال له وقد أراد الانصراف : قف ، هذه كنت أعددتها لك ، فلم يدعك فضولك حتى أحضرت لك شريكا فيها ، ولعلني كنت أمنعه منها .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، أين الأمانة وقبح الخيانة ؟ وددت أنك كنت تدفعها كلها اليه ، وتصفعه مع العشرة أخرى وتدفع له الخمسمائة درهم ، فقسم الدراهم بيننا ، وانصرفنا .

وفاة جماعة

وفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين كانت وفاة اسماعيل بن اسحاق القاضي ، والحارث بن أبي أسامة ، وهلال بن العلاء الرقي .

حرب هارون الشاري

وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين نزل المعتضد تكريت ، وسار الحسين بن حمدان في الأولياء لحرب هارون الشاري ، فكانت بينهم حرب عظيمة كانت للحسين بن حمدان عليه ، فأتى به المعتضد أسيرا بغير أمان ، ومعه أخوه فدخل المعتضد بغداد وقد نصبت له القباب وزينت له الطرقات .

وعبأ المعتضد بالله جيوشه بباب الشماسية أحسن ما يكون من التعبئة وأكمل هيئة ، فاشتقوا بغداد الى القصر المعروف بالحسنى .

ثم خلع المعتضد على الحسين بن حمدان خلعا شرفه بها ، وطوقه بطوق من ذهب ، وخلع على جماعة من فرسانه ورؤساء أصحابه وأهله ، وشهرهم في الناس كرامة لما كان من فعلهم وحسن بلائهم .

ثم أمر بالشاري فأركب فيلا وعليه دراعة ديباج ، وعلى رأسه برنس خز طويل ، وخلفه أخوه على جمل فالج وهو ذو السنامين ، وعليه دراعة ديباج وبرنس خز ، وسيرهما في أثر الحسين بن حمدان وأصحابه .

ثم دخل المعتضد في أثره عليه قباء أسود وقلنسوة مخدودة على فرس صناي عن يساره أخوه عبد الله بن الموفق وخلفه بدر غلامه وأبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب وزيره وابنه القاسم بن عبيد الله .

فأكثر الناس الدعاء له ، وتكاثف الناس في منصرفهم من الجانب الشرقي الى الغربي ، فانخسف بهم كرسي الجسر الأعلى ، وسقط على زورق مملوء ناسا ، فغرق في هذا اليوم نحو من ألف نفس ممن عرف دون من لم يعرف .

واستخرج الناس من دجلة بالكلاليب وبالغاصة ، وارتفع الضجيج ، وكثر الصراخ من الجانبين جميعا .

فبينما الناس كذلك اذ أخرج بعض الغاصة صبيا عليه حلى فاخرة من ذهب وجوهر ، فبصر به شيخ من النظارة طرار فجعل يلطم وجهه حتى أدمى أنفه ، ثم تمرغ في التراب ، وأظهر انه ابنه ، وجعل يقول : يا سيدي ، لم تمت اذ أخرجوك صحيحا سويا لم يأكلك السمك ، ولم تمت ، حبيبي ليتني كحلت عيني بك مرة قبل الموت ، وأخذه فحمله على حمار

ثم مضى به .

فما برح القوم الذين رأوا من الشيخ ما رأوا حتى أقبل رجل معروف باليسار مشهور من التجار حين بلغه الخبر وهولا يشك الا أن الصبي في أيديهم ، وليس يهمه ما كان عليه من حلي وثياب ، وانما أراد أن يكفنه ويصلي عليه ويدفنه ، فخبره الناس بالخبر ، فبقي هو ومن معه من التجار متعجبين مبهوتين ، وسألوا عنه واستبحثوا فاذا لا عين ولا أثر .

وعرف توابو هذا الجسر هذا الشيخ المحتال فأيأسوا أبا الغريق منه ، وذكروا أنه شيخ قد أعياهم أمره وحيرهم كيده ، وأنه بلغ من حيله وخبثه ودهائه أنه أتى يوما من أول الصباح الى باب بعض العدول الكبار المشهورين بالرياسة واليسار ومعه جرة فارغة قد حملها على عاتقه وفأس وزنبيل ، فقام في ثوب خلق ولم يتكلم حتى وضع الفأس في الدكاكين التي على باب ذلك العدل فهدمها ، وجعل ينقي الآجر ويعزله ، فسمع ذلك العدل بهدمها ووقع الفأس والهدم ، فخرج لينظر فاذا الشيخ دائب يهدم دكاكينه التي على باب داره ، فقال : يا عبد الله ، أي شيء تصنع ؟ ومن أمرك بهذا ؟

فجعل الشيخ يعمل عمله ، ولا يلتفت الى العدل ، ولا يكلمه ، فاجتمع الجيران وهما في المحاورة ، فأخذوا بيد الشيخ ، فوكزه هذا ، ودفعه هذا ، فالتفت اليهم فقال : ما لكم ؟ ويلكم ! أي شيء تريدون مني ؟ أما تستحيون ؟ تعبثون بي وأنا شيخ كبير ؟! .

فقالوا : ما لنا والعبث بك ، ويحك ! من أمرك بهذا ؟

قال : ويحكم ، أمرني صاحب الدار .

فقالوا : هذا صاحب الدار يكلمك .

قال : لا والله ما هو هذا .

فلما سمعوا كلامه وغفلته رحموه ، وقالوا : هذا مجنون أو مخدوع خدعه بعض جيران هذا العدل ممن قد حسده على ما أنعم الله تعالى به عليه ، وهم الذين حملوا هذا الشيخ على هذا الفعل .

فلما منعوه من الهدم مضى الى الجرة التي جاء بها ـ وقد كان وضعها الى جانب الباب ـ فأدخل يده فيها كأنه قد خبأ ثيابه فيها ، فصرخ وبكى ، فلم يشك العدل أن محتالا خدعه وأخذ ثيابه فقال : وأي شيء ذهب لك ؟

قال : قميص جديد اشتريته أمس وملحفة لبيتي وسراويل .

فرقوا له جميعا ، ودعاه العدل فكساه ووهب له دراهم كثيرة ، ووهب له الجيران دراهم كثيرة ، وانصرف غانما .

وهذا الشيخ كان يعرف بالعقاب ، ويكنى بأبي الباز ، وله أخبار عجيبة وحيل لطيفة وهو الذي احتال للمتوكل ، حين بايعه بختيشوع الطبيب أنه أن سرق من داره شيئا يعرفه في ثلاث ليال ذكرت من ذلك الشهر فعليه أن يحمل الى خزانة أمير المؤمنين عشرة آلاف دينار ، وأن خرجت هذه الليالي ولم يتم عليه ما ذكرنا فله الضيعة المعين ذكرها في المبايعة .

فأتى بهذا الشيخ في عنفوان شبابه الى المتوكل ، فضمن للمتوكل أن يأخذ من دار بختيشوع شيئا لا ينكره .

وقد كان بختيشوع حرس داره وحصنها في هذه الليالي ، فاحتال هذا الشيخ المعروف بالعقاب بحيل لطيفة الى أن سرق بختيشوع وجعله في صندوق وأتى به المتوكل ، في خبر ظريف ، وأنه رسول لعيسى ابن مريم نزل الى بختيشوع بشمع أسرجه وتخليط عمله وبنج في طعام اتخذه أطعمه لحراس داره في تلك الليلة .

وقد ذكرنا ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » وهذا الشيخ قد برز في مكايده وما أورده من حيله على دالة المحتالة وغيرها من سائر المكارين والمحتالين ممن سلف وخلف منهم .

الكيمياء

ولطلاب صنعة الكيمياء من الذهب والفضة وأنواع الجوهر من اللؤلؤ وغيره وصنعة أنواع الاكسيرات من الأكسير المعروف بالفرار وغيره واقامة الزئبق وصنعته فضة وغير ذلك من خدعهم وحيلهم في القرع والمغناطيس والتقطير والتكليس والبوادق والحطب والفحم والمنافخ أخبار عجيبة وحيل في هذا المعنى قد أتينا على ذكرها ووجوه الخدع فيها وكيفية الاحتيال بها في كتابنا « أخبار الزمان » وما ذكروه في ذلك من الأشعار ، وما عزوه الى من سلف من اليونانيين والروم مثل كليوباترا الملكة ، ومارية ، وما ذكره خالد بن يزيد بن معاوية في ذلك ، وهو عند أهل هذه الصنعة من المتقدمين فيهم ، في شعره الذي يقول فيه :

خذ الطلق مع الأشق   وما يوجد في الطرق
وشيئا يشبه البرقا   فدبره بلا حرق
فان أحببت مولاكا   فقد سودت في الخلق

وقد صنف يعقوب بن اسحاق بن الصباح الكندي رسالة في ذلك ، وجعلها مقالتين يذكر فيها تعذر فعل الناس لما انفردت الطبيعة بفعله ، وخدع أهل هذه الصناعة وحيلهم ، وترجم هذه الرسالة بابطال دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة من غير معادنها .

وقد نقض هذه الرسالة على الكندي ابو بكر محمد بن زكريا الرازي الفيلسوف صاحب

الكتاب المنصوري في صناعة الطب الذي هو عشر مقالات ، وأرى القول أن ما ذكره الكندي فاسد ، وأن ذلك قد يتأتى فعله .

ولأبي بكر بن زكريا في هذا المعنى كتب قد صنفها ، وأفرد كل واحد منها بنوع من الكلام في هذه الصنعة في الأحجار المعدنية والشعر وغير ذلك من كيفية الأعمال ، وهذا باب قد تنازع الناس فيه من فعل قارون وغيره ، ونحن نعوذ بالله من التهوس فيما يخسف الدماغ ، ويذهب بنور الأبصار ، ويكسف الألوان من بخار التصعيدات ورائحة الزاجات وغيرها من الجمادات .

جيش بن خمارويه وأصحابه

وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين كان الفداء بالأسر بين المسلمين والروم في شعبان ، وكان بدؤه الثلاثاء ، وفيه كان مسير جيش بن خمارويه بن أحمد بن طولون من الشام الى مصر في جيوشه ، فخالفه طغج بدمشق بعد ذلك .

وفيها خرج عن عسكر جيش بن خمارويه خاقان المفلحي وبندقة بن كمجور بن كنداج فساروا الى وادي القرى ، ودخلوا مدينة السلام ، فخلع عليهم المعتضد . وفيها كان الشغب بمصر ، وقتل علي بن أحمد الماردائي أبو محمد الماردائي المقبوض عليه في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) بمصر . وقبض على جيش بن خمارويه ، ونصب أخوه هارون بن خمارويه مكانه .

وكانوا قد نقموا على جيش تقدمه لغلامه نجح المعروف بالطولوني وأخيه سلامة المعروف بالمؤتمن ، وقد كان أخوه سلامة هذا بعد ذلك صحب جماعة من الخلفاء منهم القاهر والراضي ، وأراه مع المتقي في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) .

وفاة مقدام الرعيني

وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين كانت وفاة أبي عمرو مقدام بن عمرو الرعيني بمصر ، ليومين بقيا من شهر رمضان ، وكان من جلة الفقهاء ، ومن كبار أصحاب مالك .

وفيها ولي المعتضد يوسف بن يعقوب القضاء بمدينة السلام ، وخلع عليه ، وانتدبه للجانب الشرقي .

مصادرة ابن الطيب السرخسي ومقتله

وفي هذه السنة (وهي سنة ثلاث وثمانين ومائتين) قبض المعتضد عل أحمد بن الطيب ابن مروان السرخسي صاحب يعقوب بن اسحاق الكندي ، وسلمه الى بدر غلامه ، ووجه الى داره من قبض على جميع ماله ، وقرر جوازيه على المال حتى استخرجوه ، فكان جملة ما

حصل من العين والورق وثمن الآلات خمسين ومائة ألف دينار .

وكان ابن الطيب قد ولي الحسبة ببغداد ، وكان موضعه من الفلسفة لا يجهل ، وله مصنفات حسان في أنواع من الفلسفة وفنون من الأخبار .

وقد تنازع الناس في كيفية قتله ، والسبب الذي من أجله كان قتل المعتضد اياه ، وقد اتينا على ما قيل في ذلك في كتابنا المترجم بالأوسط ، فأغنى ذلك عن اعادته في ذلك الكتاب .

رافع بن هرثمة

وفيها ورد الخبر بقتل عمرو بن الليث لرافع بـن هرثمة .

وفي سنة أربع وثمانين ومائتين أدخل الى بغداد رأس رافع بن هرثمة ، ثم صلب ساعة من نهار ، ثم رد الى دار السلطان .

ثورة

وفي هذه السنة كان لأهل بغداد ثورة مع السلطان لصياحهم بالخدم السـودان : يا عقيق ، صب ماء واطرح دقيق ، يا عاق ، يا طويل الساق .

وذلك أن الخدم في دار السلطان منهم اجتمعوا فكلموا المعتضد بما يلحقهم في الأزقة والشوارع والدروب وسائر الطرق من الصغير والكبير من العوام ، فأمر المعتضد بجماعة من العامة ، فضربوا بالسياط ، فشغب العامة لذلك .

شبح يتشكل للمعتضد

وفي هذه السنة ظهر للمعتضد شخص في صور مختلفة في داره ، فكان تارة يظهر في صورة راهب ذي لحية بيضاء وعليه لباس الرهبان ، وتارة يظهر شابا حسن الوجـه ذا لحية سوداء بغير تلك البزة ، وتارة يظهر شيخا أبيض اللحية ببزة التجار ، وتارة يظهر بيده سيف مسلول ، وضرب بعض الخدم فقتله ، فكانت الأبواب تؤخذ وتغلق فيظهر له أين كان في بيت أو صحن أو غيره ، وكان يظهر له في أعلى الدار التي بناها .

فأكثر الناس القول في ذلك ، واستفاض الأمر واشتهر في خواص الناس وعوامهم ، وسارت به الركبان ، وانتشرت به الأخبار ، والقول في ذلك على حسب ما كان يقـع لكل واحد منهم ، فمن قائل : إن شيطانا مريدا صمد له يظهر فيؤذيه ، ومنهم من يقول : إن بعض مؤمني الجن رأى ما هو عليه من المنكر وسفك الدماء فظهر له رادعا وعن المنكر زاجرا ، ومنهم من رأى أن ذلك بعض خدمه كان قد هوى بعض جواريه فاحتال بحيلة فلسفية من بعض العقاقير الخاصة فيضعها في فمه فلا يدرك بحاسة البصر ، وكل ذلك ظن وحسبان ، فأحضر المعتضد المعزمين ، واشتد قلقه ، واستوحش ، وحاز عليه أمره ، فقتل وغرق جماعة

من خدمه وجواريه ، وضرب وحبس جماعة منهم ، وقد أتينا على الخبر في ذلك وما حكي عن أفلاطون في هذا المعنى ، وعلى خبر شغب أم المقتدر بالله والسبب الذي من أجله حبسها المعتضد وأراد قطع أنفها والتشويه بها في كتابنا « أخبار الزمان » .

وفي هذه السنة ورد الخبر بقتل أبي الليث الحارث بن عبد العزيز بن أبي دلف بسيفه لنفسه في الحرب ، وذلك أن سيفه كان على عاتقه مشهرا فكبا به فرسه فذبحه سيفه ، فأخذ عيسى النوشري رأسه وأنفذه الى بغداد .

يوم الأجفر

وفي سنة خمس وثمانين ومائتين وقع صالح بن مدرك الطائي في نبهان وسنبس وغيرهم من طيء بالحاج ، وعلى الحاج جيء الكبير ، وكانت لجيء مع صالح ومن معه من الطائيين حرب عظيمة في الموضع المعروف بقاع الأجفر ، وتشوش الحاج وأخذهم السيف ، فمات عطشا وقتلا خلائق من الحاج ، وأصاب جيء ضربات كثيرة ، وكانت العرب ترتجز في ذلك اليوم وتقول :

ما إن رأى الناس كيوم الأجفر   الناس صرعى والقبور تحفر

وأخذ من الناس نحو من ألفي الف دينار .

وفاة ابراهيم بن محمد الحربي الفقيه

وفي هذه السنة (وهي سنة خمس وثمانين ومائتين) كانت وفاة أبي اسحاق ابراهيم بن محمد الفقيه المحدث في الجانب الغربي ، وله خمس وثمانون سنة ، وكانت وفاته يوم الإثنين لسبع بقين من ذي الحجة .

ودفن مما يلي باب الأنبار وشارع الكبش والأسد ، وكان صدوقا عالما فصيحا جوادا عفيفا ، وكان زاهدا عابدا ناسكا .

وكان ـ مع ما وصفنا من زهده وعبادته ـ ضاحك السن ، ظريف الطبع ، سلس القياد ، ولم يكن معه تجبر ولا تكبر ، وربما مزح مع أصدقائه بما يستحسن منه ، ويستقبح من غيره ، وكان شيخ البغداديين في وقته ، وظريفهم ، وناسكهم ، وزاهدهم ، ومسندهم في الحديث ، وكان يتفقه لأهل العراق ، وكان له مجلس يوم الجمعة في المسجد الجامع الغربي .

وأخبرنا أبو اسحاق ابراهيم بن جابر قال : كنت أجلس يوم الجمعة في حلقة ابراهيم

الحربي ،وكان يجلس الينا غلامان في نهاية الحسن والجمال من الصورة والبزة من أبناء التجار من الكرخيين ، وبزتهما واحدة ، كأنهما روحان في جسد ، إن قاما قاما معا ، وان قعدا قعدا معا .

فلما كان في بعض الجمع حضر أحدهما وقد بان الاصفرار بوجهه والانكسار في عينيه ، فتوسمت أن غيبة الآخر لعلة وقد لحق الحاضر من أجل ذلك الانكسار .

فلما كان الجمعة الثانية حضر الغائب ولم يحضر الذي كان في الجمعة الأولى منهما ، واذا الصفرة والانكسار بيّنان في لونه ونشاطه، فعلمت أن ذلك للفراق الواقع بينهما ، ولأجل الإلفة الجامعة لهما .

فلم يزالا يتسابقان في كل جمعة الى الحلقة ، فأيهما سبق صاحبه الى الحلقة لم يجلس الآخر ، فصح عندي ما كان تقدم في نفسي جواز كونه .

فلما كان في بعض الجمع حضر أحدهما فجلس الينا ، وجاء الآخر فأشرف على الحلقة ، فاذا صاحبه قد سبق ، واذا المسبوق المطلع الى الحلقة قد خنقته العبرة ، فتبينت ذلك في حماليق عينيه ، واذا في يسراه رقاع صغار مكتوبة فقبض بيمينه رقعة من تلك الرقاع وحذف بها في وسط الحلقة ، وانساب بين الناس مارا مستحييا ، وأنا أرمقه ببصري ، وكذلك جماعة ممن كان جالسا في الحلقة .

وكان الى جانبي على اليمين أبوعبد الله علي بن الحسين بن حوثرة ، وذلك في عنفوان الشباب وأوان الحداثة ، فوقعت الرقعة بين يدي ابراهيم الحربي ، فقبض عليها ونشرها وقرأها ، وكان من شأنه فعل ذلك اذا وقعت في يده رقعة فيها دعاء أن يدعو لصاحبها مريضا كان أو غير ذلك ، ويؤمن على دعائه من حضر .

فلما قرأ الرقعة أقبل يتأمل ما فيها تأملا شافيا لأنه رأى ملقيها ، ثم قال : اللهم اجمع بينهما ، وألّف بين قلوبهما ، واجعل ذلك مما يقرب منك ويزلف لديك ، وأمنوا على دعائه كما جرت العادة منهم بفعله .

ثم أدرج الرقعة بسبابته وابهامه وحذفني بها ، فتأملت ما فيها ، وقد كنت مستطلعا نحوها لتبين الملقي لها ، فاذا فيها مكتوب :

عفا الله عن عبد أعان بدعوة	لخلين كانا دائمين على الود
الى أن وشى واشي الهوى بنميمة	الى ذاك من هذا فحالا عن العهد

فكانت الرقعة معي ، فلما كانت الجمعة الثانية حضرا معا واذا الاصفرار والانكسار قد

زالا عنهما ، فقلت لابن حوثرة : اني لأرى الدعوة قد سبقت لهما بالاجابة من الله تعالى ، وإن دعاء الشيخ كان على التمام ان شاء الله تعالى .

فلما كان في تلك السنة كنت ممن حج ، فكأني انظر اليهما بين منى وعرفات محرمين جميعا ، فلم أزل أراهما متآلفين الى أن كهلا ، وأرى انهما في صف أصحاب الديباج في الكرخ ، أو غيره من الصفوف .

ابراهيم بن جابر القاضي

قال المسعودي : وهذا الخبر سمعته من ابراهيم بن جابر القاضي قبل ولايته القضاء ، وهو يومئذ ببغداد يعالج الفقر ، ويتلقاه من خالقه بالرضا ، ناصرا للفقر على الغنى .

فما مضت أيام حتى لقيته بحلب من بلاد قنسرين والعواصم من أرض الشام ، وذلك في سنة تسع وثلثمائة ، واذا هو بالضد عما عهدته ، متوليا القضاء على ما وصفنا : ناصرا ومشرفا للغنى على الفقر ، فقلت له : ايها القاضي ، تلك الحكاية التي كنت تحكيها عن الوالي الذي كان بالري ، وأنه قال لك : ان الخواطر اعترضتني بين منازل الفقراء والأغنياء ، فرأيت في النوم أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال لي : يا فلان ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء شكرا لله تعالى ، وأحسن من ذلك تعزز الفقراء على الأغنياء ثقة بالله تعالى .

فقال لي : ان الخلق تحت التدبير لا ينفكون من أحكامه في جميع متصرفاتهم .

وكنت كثيرا ما أسمعه فيما وصفنا من حال فقره يذم ذوي الحرص على الدنيا ، ويذكر في ذلك خبرا عن علي كرم الله وجهه ، وهو أن عليا عليه السلام كان يقول : ابن آدم ، لا تتحمل هم يومك الذي لم يأت على يومك الذي أنت فيه ، فانه ان يكن من أجلك يأت الله فيه برزقك ، واعلم أنك لن تكتسب شيئا فوق قوتك الا كنت خازنا فيه لغيرك . فركب بعد ذلك الهماليج من الخيل .

ولقد أخبرت أنه قطع لزوجته أربعين ثوبا تستريا وقصبا وأشباه ذلك من الثياب على مقراض واحد ، وخلف مالا عظيما لغيره .

وفاة المبرد

وفي هذه السنة (وهي سنة خمس وثمانين ومائتين) كانت وفاة أبي العباس محمد بن يزيد النحوي المعروف بالمبرد ، ليلة الاثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجة ، وله تسع وسبعون سنة ، ودفن بمقابر باب الكوفة من الجانب الغربي بمدينة السلام .

محمد بن يونس

وفي سنة ست وثمانين ومائتين مات محمد بن يونس الكوفي المحدث ، ويكنى بأبي العباس ، يوم الخميس للنصف من جمادى الآخرة ، وله مائة سنة وست سنين ودفن بمقابر باب الكوفة من الجانب الغربي ، وكان عالي الاسناد .

ابو سعيد الجنابي

وفي هذه السنة كان الفزع من أبي سعيد الجنابي بالبصرة ومن معه بالبحرين خوفا من أن يكبسها ، وكتب الواثقي ـ وهو أحمد بن محمد ، وكان على حربها ـ الى المعتضد بذلك ، فأطلق لسورها أربعة عشر ألف دينار فبنيت وحصنت .

أبو الأغر والأعراب

وفي هذه السنة ظفر أبو الأغر خليفة بن المبارك السلمي بصالح بن مدرك الطائي بناحية فيدمكرا في ذهابهم الى مكة ، وقد كانت الأعراب جمعت لأبي الأغر ليستنقذوا صالحا من يده ، فواقعهم وقتل رئيسهم جحش بن ذيال وجماعة معه ، وأخذ رأسه .

فلما علم صالح بن مدرك بقتل جحش بن ذيال يئس من الخلاص من يد أبي الأغر ، فلما نزل المنزل المعروف بمنزلة القرشي أتاهم غلام بطعام فاستلب منه سكينا ، وقتل نفسه ، فأخذ أبو الأغر رأسه وأظهره بالمدينة ، فتباشر الحاج .

وكانت لأبي الأغر في رجوعه وقعة عظيمة اجتمع هو ونحرير وغيرهما من أمراء قوافل الحاج من الأعراب ، وكانت الأعراب قد اجتمعت وتحشدت من طيء وأحلافها ، فكانت رجالتها نحو من ثلاثة آلاف راجل ، والخيل نحوا من ذلك ، فكانت الحرب بينهم ثلاثا ، وذلك بين معدان القرشي والحاجر ، ثم انهزمت الأعراب وسلم الناس .

وكان ممن تولى مع أبي الأغر الحيلة على صالح بن مدرك سعيد بن عبد الأعلى .

ودخل أبو الأغر مدينة السلام وقدامه رأس صالح وجحش ورأس غلام لصالح أسود ، وأربعة أسارى ، وهم بنو عم صالح بن مدرك ، فخلع السلطان في ذلك اليوم على أبي الأغر ، وطوقه بطوق من ذهب ، ونصب الرؤوس على الجسر من الجانب الغربي ، وأدخل الأسارى المطبق .

احداث

وفي هذه السنة مات اسحاق بن أيوب العبيدي ، وكان على حرب ديار ربيعة .

وفيها شخص العباس بن عمر الغنوي الى البصرة لحرب القرامطة بالبحرين .

وفي هذه السنة كانت الحرب بين اسماعيل بن احمد وعمرو بن الليث صاحب بلخ فأسر عمرو ، وقد أتينا على كيفية أسره في الكتاب الأوسط .

وفي رجب من هذه السنة ، وهي سنة سبع وثمانين ومائتين كان خروج العباس بن عمرو من البصرة في جيش عظيم ومعه خلق من المطوعة نحو هجر ، فالتقى هو وأبو سعيد الجنابي ، فكانت بينهم وقائع انهزم فيها أصحاب العباس ، وأسر وقتل من أصحابه نحو سبعمائة صبرا دون من هلك من الرمل والعطش ، فأحرقت الشمس أجسادهم .

ثم إن أبا سعيد منَّ على العباس بن عمرو بعد ذلك فأطلقه فصار الى المعتضد فخلع عليه .

وبعد هذه الوقعة افتتح أبو سعيد مدينة هجر بعد حصار طويل ، وقد أتينا على مبسوط هذه الحروب والسبب الذي من أجله كانت تخلية أبي سعيد العباس بن عمرو الغنوي في كتابنا الأوسط ، وما كان من أمر العباس بن عمرو مع من بالبحرين من قومه وعصبتهم له .

الداعي العلوي

وفي هذه السنة (وهي سنة سبع وثمانين ومائتين) كان مسير الداعي العلوي من طبرستان الى بلد جرجان في جيوش كثيرة من الديلم وغيرهم ، فلقيته جيوش المسودة من قبل اسماعيل بن أحمد ، وعليها محمد بن هارون ، فكانت وقعة لم ير مثلها في ذلك العصر ، وصبر الفريقان جميعا ، وكانت للمبيضة على المسودة .

ثم كانت مكيدة من محمد بن هارون لما رأى من ثبوت الديلم على مصافها ، فلم ينقض صفوفه ، وولى ، فأسرعت الديلم ونقضت صفوفها ، فرجعت عليهم المسودة ، وأخذهم السيف ، فقتل منهم بشر كثير ، وأصاب الداعي ضربات .

وذلك أن أصحابه لما نقضوا صفوفهم في الغنيمة ولم يعرجوا عليه ثبت مع من وقف لنصره ، فكرت عليهم الجيوش ، فأسفرت الحرب وقد أثخن بالكلوم ، وأسر ولده زيد بن محمد بن زيد وغيره ، وبقي محمد الداعي أياما يسيرة ، وتوفي لما ناله ، فدفن بباب جرجان وقبره هناك معظم الى هذه الغاية .

وقد أتينا على خبره بطبرستان وغيرها وما كان من سيرته ، وخبر بكر بن عبد العزيز بن أبي دلف حين دخل اليه مستأمنا في كتابنا « أخبار الزمان » .

وكذلك ذكرنا خبر يحيى بن الحسين الحسني الرسي باليمن ، وتظافره هو وأبو سعد بن يعفر على ما كان من حروبهم باليمن مع القرامطة ، وما كان من أمرهم مع علي بن الفضل صاحب المذيخرة ، وما كان من قصته ، وخبر وفاته ، وقصة شيخ لاعة صاحب قلعة نحل ،

وخبر ولده الى هذا الوقت بها (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) ونزول يحيى بن الحسين الرسي مدينة صعدة من بلاد اليمن ، وخبر ولده أبي القاسم ، وخبر ولد ولده الى هذه الغاية ، وإنما نذكر في هذا الكتاب لمعا منبهين على ما قدمنا من تصنيفنا مما بسطناه من أخبار من ذكرناه ، وشرحنا من قصصهم وسيرهم وما كان منهم .

المعتضد ووصيف الخادم

وفي هذه السنة (وهي سنة ثمان وثمانين ومائتين) كان دخول المعتضد الى الثغر الشامي في طلب وصيف الخادم ، وراسله مع رشيق المعروف بالخزامي ، واستأمن الى المعتضد وصيف البكتمري وغيره من القواد ، قواد الخادم وأصحابه .

وقد كان وصيف الخادم لما أخذ الأكثر من أصحابه أراد الدخول الى أرض الروم والتعلق بالدروب ، وقد كان المعتضد أسرع في السير من بغداد وستر أخباره ولم يعلم بذلك وصيف مع شدة حذره وتفقده لأمره ، حتى عبر المعتضد الفرات وسار الى الشام ، فلم يفلح جسد المعتضد لذلك لما أتعب نفسه في سرعة السير .

وقد كان المعتضد لما توسط الثغر الشامي خلف سواده بالكنيسة السوداء ، وجرد القواد في طلب وصيف ، فصاروا في طلبه خمسة عشر ميلا الى أن أدركه أوائل الخيل وفيهم خاقان المفلحي ووصيف موشكين وعلى كورة وغيرهم من القواد ، فقاتلهم وصيف ، وذلك في الموضع المعروف بدرب الجب .

فلما أشرف المعتضد ووصيف قد خذله أصحابه وتفرق عنه جمعه ، أسر وأتى به المعتضد ، فسلمه الى مؤنس الخادم ، وأمن جميع أصحابه الا نفرا انضافوا اليه من الثغر الشامي وغيره .

واحرق المعتضد المراكب الحربية ، وحمل من طرسوس أبا اسحاق امام الجامع ، وأبا عمير عدي بن أحمد بن عبد الباقي صاحب مدينة أذنة من الثغر الشامي ، وغيرهم من البحريين مثل البغيل وابنه .

وكان دخول المعتضد الى مدينة السلام في الماء لسبع خلون من صفر سنة ثمان وثمانين ومائتين ، ودخل جعفر بن المعتضد وهو المقتدر ، وبدر الكبير وسائر الجيش على الظهر ، وقد زينت الطرق ، وبين أيديهم وصيف الخادم على جمل فالج وعليه دراعة ديباج وبرنس ، وخلفه على جمل آخر البغيل ، وخلف البغيل ابنه على جمل آخر ، وخلف ابن البغيل على جمل آخر رجل من أهل الشام يعرف بابن المهندس ، وقد لبسوا الدراريع من الحرير الأحمر والأصفر ، وعلى رؤوسهم البرانس ، وطوق وسور خاقان المفلحي وغيره من القواد ممن أبلى

في ذلك اليوم الذي كان فيه أسر وصيف الخادم .

وقد كان المعتضد أراد استحياء وصيف الخادم وأسف على موت مثله لشهامته وشجاعته وجسن حيله واقدامه ، ثم قال : ليس في طبع هذا الخادم أن يرأسه أحد ، بل في طبعه أن يرؤس في نفسه .

وقد كان بعث اليه بعد أن قبض عليه وأوثق بالحديد : هل لك من شهوة ؟

قال : نعم ، باقة من الريحان أشمها ، وكتب من سير الملوك الغابرة أنظر فيها .

فلما رجع الرسول الى المعتضد وأخبره بما سأله أمر له بما طلب ، وأمر من يراعي نظره في الكتب، في أي فصل ينظر ؟ فأخبر أنه يديم النظر في سير الملوك وحروبها ومحنها ، فتعجب المعتضد وقال : هو يهون على نفسه الموت .

وفاة ابن أبي الساج

وفي هذه السنة كانت وفاة أبي عبيد الله محمد بن أبي الساج بأذربيجان ، فاختلفت كلمة أصحابه وغلمانه بعده ، فمنهم من انحاز الى أخيه يوسف بن أبي الساج ، ومنهم من انحاز الى ولده بودار .

بشر بن موسى المحدث

وفي هذه السنة (وهي سنة ثمان وثمانين ومائتين) كانت وفاة أبي علي بشر بن موسى ابن صالح بن صبيح بن عمير ، المحدث ، وله ثمان وسبعون سنة ، ودفن في الجانب الغربي بمقابر باب التين .

عمرو بن الليث

وفي هذه السنة أدخل عمرو بن الليث الى مدينة السلام في جمادى الأولى ، قدم به عبد الله بن الفتح رسول السلطان ، فشهر عمرو ، وأركب على جمل فالج وقد ألبس دراعة ديباج وخلفه بدر والوزير القاسم بن عبيد الله في الجيش ، فأتوا به الثريا ، فرآه المعتضد ، ثم أدخل المطامير .

وقد كان في هذا الوقت ثارت عساكر الشاكرية من قبل طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث غضبا لجده عمرو ، ولحقته ببلاد الأهواز ، وخرجت عن حدود فارس ، واضطرب الأمر ، وبعث المعتضد بعبد الله بن الفتح وأشناس الى اسماعيل بن أحمد ومعهما هدايا ، منها : مائة بدنة ديباج ، منسوجة بالذهب ، مرصعة بالجوهر ، ومنطقة ذهب مرصعة بالجوهر ، وغيرذلك من الجواهر ، وثلثمائة ألف دينار ليفرقها في أصحابه ، ويبعثهم الى بلاد سجستان الى حرب طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث .

وأمر عبد الله بن الفتح أن يحمل في طريقه من خراج ما يجتاز به من بلاد الجبل عشرة آلاف ألف درهم ، ويضيفها الى الثلثمائة ألف دينار ، وسار بدر غلام المعتضد بالله في عساكره الى بلاد فارس من هذه السنة ، فنزل شيراز ، وانكشف عن البلد الشاكرية .

وفاة وصيف الخادم

وفي أول يوم من المحرم ، وهو يوم الثلاثاء من سنة تسع وثمانين ومائتين ، توفي وصيف الخادم ، فأخرج وصلب على الجسر بدنا بلا رأس .

وقد كان الخدم سألوا المعتضد أن يستروا عورته ، فأباح لهم ذلك ، فألبس ثيابا ، ولف عليه ثوب جديد ، وخيط على مكان الثياب من سرته الى الركبتين ، وطلي بدنه بالصبر وغيره من الأطلية القابضة والماسكة لأجزاء جسمه ، فأقام مصلوبا على الجسر لا يبلى الى سنة ثلثمائة في خلافة المقتدر بالله .

وفي هذه السنة شغب الجند والعامة ، فعمدت العامة اليه تماجنا وحطوه من فوق الخشبة ، وقالوا : قد وجب علينا حق الأستاذ أبي علي وصيف الخادم لطول مجاورته لنا وصبره علينا ، ولا يبلى على هذه الخشبة .

فلفوه في رداء بعضهم ، وحملوه على أكتافهم ، وهم نحو من مائة ألف من الناس : يرقصون ويغنون ويصيحون حوله : الأستاذ ، الاستاذ .

فلما ضجروا من ذلك طرحوه في دجلة فغرق في ذلك اليوم منهم قوم في دجلة ، وذلك أنهم شيعوه في الماء سباحة ، فغرق منهم في جرية الماء خلق كثير .

أبو الفوارس القرمطي

وفي هذه السنة أتي بجماعة من القرامطة من ناحية الكوفة ، منهم المعروف بأبي الفوارس ، فأدخلوا على الجمل ، فأمر المعتضد بقتل أبي الفوارس بعد أن قطعت يداه ورجلاه وصلب الى جانب وصيف الخادم ، ثم حول الى ناحية الكنائس مما يلي الياسرية من الجانب الغربي ، فصلب مع قرامطة هناك .

وقد كان لأهل بغداد في قتل أبي الفوارس هذا أراجيف كثيرة ، وذلك أنه لما قدم ليضرب عنقه أشاعت العامة أنه قال لمن حضر قتله من العوام : هذه عمامتي تكون قبلك ، فاني راجع بعد أربعين يوما ، فكان يجتمع في كل يوم خلائق من العوام تحت خشبته ويحصون الأيام ويقتتلون ويتناظرون في الطرق في ذلك .

فلما تمت الأربعون يوما ـ وقد كان كثر لغطهم ، واجتمعوا ، فكان بعضهم يقول : هذا جسده ، ويقول آخر : قد مر ، وانما السلطان قتل رجلا آخر وصلبه موضعه لكي لا

يفتتن الناس ـ فكثر تنازع الناس في ذلك حتى نودي بتفريقهم ، فترك التنازع والخوض فيه .

المعتضد والطالبيون

وكان ورد مال من محمد بن زيد من بلاد طبرستان ليفرق في آل أبي طالب سرا ، فغمز بذلك الى المعتضد ، فأحضر الرجل الذي كان يحمل المال اليهم ، فأنكر عليه اخفاء ذلك ، وأمره باظهاره ، وقرب آل أبي طالب .

وكان السبب في ذلك قرب النسب ، ولما اخبرنا به أبو الحسن محمد بن علي الوراق الأنطاكي الفقيه المعروف بابن الغنوي بأنطاكية ، قال : أخبرني محمد بن يحيى بن أبي عباد الجلي ، قال : رأى المعتضد بالله وهو في سجن أبيه كأن شيخا جالسا على دجلة ، يمد يده الى ماء دجلة ، فيصير في يده وتجف دجلة ، ثم يرده من يده ، فتعود دجلة كما كانت .

قال : فسألت عنه ، فقيل لي : هذا علي بن أبي طالب عليه السلام !

قال : فقمت اليه وسلمت عليه ، فقال : يا أحمد ، إن هذا الأمر صائر اليك ، فلا تتعرض لولدي ، ولا تؤذهم .

فقلت : السمع والطاعة يا أمير المؤمنين .

وغم الناس تأخر الخراج عنهم ، وكان انعام المعتضد عليهم ، فقالت الشعراء في ذلك واكثرت ، ووصفت في أشعارها ذلك وأطنبت ، فممن وصف فأحسن يحيى بن علي المنجم فقال :

يا محيي الشرف اللباب ... ومجدد الملك الخراب
ومعيد ركن الدين فيـ ... ـنا ثابتا بعد اضطراب
فت الملوك مبرزا ... فوت المبرز في الحلاب
أسعد بنيروز جمعـ ... ـت الشكر فيه الى الثواب
قدمت في تأخير ما ... قد قدموه الى الصواب

وقوله :

يوم نيروزك يوم واحد لا يتأخر
من حزيران يوافى أبدا في أحد عشر

وصول قطر الندى للمعتضد

وكان وصول قطر الندى بنت خمارويه الى مدينة السلام مع ابن الجصاص في ذي الحجة سنة احدى وثمانين ومائتين ، ففي ذلك يقول علي بن العباس الرومي :

يا سيد العرب الذي زفت له	باليمن والبركات سيدة العجم
أسعد بها كسعودها بك ، انها	ظفرت بما فوق المطالب والهمم
ظفرت بملأى ناظريها بهجة	وضميرها نبلا ، وكفيها كرم
شمس الضحى زفت الى بدر الدّجى	فتكشفت بهما عن الدنيا الظلم

ولما دخل عمرو بن الليث مدينة السلام من المصلى العتيق رافعا يديه يدعو وهو على جمل فالج ، وهو ذو السنامين ، وكان أنفذه الى المعتضد في هدايا تقدمت له قبل أسره ، فقال في ذلك الحسن بن محمد بن فهم :

ألم تر هذا الدهر كيف صروفه	يكون عسيرا مرة ويسيرا
وحسبك بالصفار نبلا وعزة	يروح ويغدو في الجيوش أميرا
حباهم بأجمال ، ولم يدر أنه	على جمل منها يقاد أسيرا

وفي ذلك يقول محمد بن بسام :

أيها المغتر بالدنيا أما أبصرت عمرا
مقبلا قد أركب الفالج بعد الملك قسرا
وعليه برنس السخطة اذلالا وقهرا
رافعا كفيه يدعو الله اسرارا وجهرا
أن ينجيه من القتل وأن يعمل صفرا

ولما ظهر قتل محمد بن هارون لمحمد بن زيد العلوي أظهر المعتضد لذلك النكير والحزن ، تأسفا على قتله .

وفاة جماعة من الأعيان

وكانت وفاة نصر بن أحمد صاحب ما وراء نهر بلخ في أيام المعتضد ، وذلك في سنة

تسع وثمانين ومائتين ، وصار الأمر الى أخيه اسماعيل بن أحمد .

وكانت وفاة أحمد بن أبي طاهر الكاتب صاحب كتاب « أخبار بغداد » سنة ثمانين ومائتين ، وفيها كانت وفاة أحمد بن محمد القاضي الذي يحدث .

وفي سنة احدى وثمانين ومائتين كانت وفاة أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي مؤدب المكتفي بالله ، في المحرم ، وهو صاحب الكتب المصنفة في الزهد وغيره .

وفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين كانت وفاة أبي سهل محمد بن أحمد الرازي القاضي المحدث .

وانما نذكر وفاة هؤلاء لدخولهم في التاريخ ، وحمل الناس العلم عنهم من الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت وفاة عبيد الله بن شريك المحدث في سنة خمس وثمانين ومائتين ببغداد .

وفيها كانت وفاة بكر بن عبد العزيز بن أبي دلف بطبرستان .

وفيها مات محمد بن الحسين الجنيد .

وفي سنة ثمان وثمانين ومائتين مات أبو علي بشر بن موسى بن صالح بن شيخ بن عميرة البغدادي ، وكانت وفاة أبيه أبي محمد موسى بن صالح بن شيخ بن عميرة الأسدي في سنة سبع وخمسين ومائتين في خلافة المعتمد على الله ، وله نيف وتسعون سنة ، وقبض ولده وهو ابن تسع وتسعين سنة .

وفيها مات أبو المثنى معاذ بن المثنى بن معاذ العنبري في أيام المعتضد .

***

قال المسعودي : وقد ذكرنا من اشتهر من الفقهاء والمحدثين وغيرهم من أهل الآراء والأدب في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط وانما نذكر في هذا الكتاب لمعا ملوحين على ما سلف .

وفاة المعتضد

وكانت وفاة المعتضد لأربع ساعات خلت من ليلة الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين ، في قصره المعروف بالحسنى ، بمدينة السلام ، وقيل إن وفاته كانت بسمّ اسماعيل بن بلبل قبل قتله اياه ، فكان يسري في جسده .

ومنهم من ذكر أن جسمه تحلل في مسيره في طلب وصيف الخادم على ما ذكرنا ، ومنهم من رأى أن بعض جواريه سمته في منديل أعطته اياه يتنشف به ، وقيل غير ذلك مما عنه أعرضنا .

وقد كان أوصى أن يدفن في دار محمد بن عبد الله بن طاهر ، في الجانب الغربي من الدار المعروفة بدار الرخام .

فلما اعتراه الغشي ووقع للموت شكوا في وفاته ، فتقدم الطبيب الى بعض اعضائه فجسه فاحس به وهو على ما به من السكرات ، فأنف من ذلك وركله برجله فقلبه أذرعا ، فيقال : إن الطبيب مات منها ، ومات المعتضد من ساعته .

وسمع ضجة وهو على ما به من الحال ، ففتح عينيه ، وأشار بيديه كالمستفهم ، فقال له مؤنس الخادم : يا سيدي ، الغلمان قد ضجوا عند القاسم بن عبيد الله ، فأطلقنا لهم العطاء . فقطب وهمهم في سكرته ، فكادت أنفس الجماعة أن تخرج من هيبته .

وحمل الى دار محمد بن عبد الله بن طاهر فدفن بها .

***

قال المسعودي : وللمعتضد أخبار وسير وحروب وسير في الأرض غير ما ذكرنا ، قد أتينا على ذكرها والغرر من مبسوطها في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط .

ذكر خلافة المكتفي بالله
علي بن أحمد المعتضد

موجز

وبويع المكتفي بالله ، وهو علي بن أحمد المعتضد ، بمدينة السلام ، في اليوم الذي كانت فيه وفاة أبيه المعتضد ، وهو يوم الاثنين لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين ، وأخذ له البيعة القاسم بن عبيد الله ، وللمكتفي يومئذ نيف وعشرون سنة ، ويكنى بأبي محمد .

فكان وصول المكتفي الى مدينة السلام من الرقة يوم الاثنين لسبع ليال بقين من جمادى الأولى سنة تسع وثمانين ومائتين ، وكان دخوله في الماء ، ونزل قصر الحسنى على دجلة .

وكانت وفاته يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين ، وهو يومئذ ابن احدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر .

فكانت خلافته ست سنين وسبعة أشهر واثنين وعشرين يوما ، وقيل : ست سنين وستة أشهر وستة عشر يوما ، على تباين الناس في تواريخهم ، والله أعلم .

ذكر جمل من أخباره وسيره
ولمع مما كان في أيامه

اسم علي في الخلفاء

ولم يتقلد الخلافة الى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) من خلافة المتقي بالله من اسمه علي الا علي بن أبي طالب والمكتفي .

رد المظالم الى أهلها

ولما نزل المكتفي قصر الحسنى في اليوم الذي كان فيه دخوله الى مدينة السلام خلع على القاسم بن عبيد الله ، ولم يخلع على أحد من القواد ، وأمر بهدم المطامير التي كان المعتضد اتخذها لعذاب الناس ، واطلاق من كان محبوسا فيها ، وأمر برد المنازل التي كان المعتضد اتخذها لموضع المطامير الى أهلها ، وفرق فيهم أموالا ، فمالت قلوب الرعية اليه ، وكثر الداعي له بهذا السبب .

غلب عليه جماعة

وغلب عليه القاسم بن عبيد الله وفاتك مولاه ، ثم غلب عليه بعد وفاة القاسم بن عبيد الله وزيره العباس بن الحسن وفاتك .

وقد كان القاسم بن عبيد الله أوقع بمحمد بن غالب الأصبهاني ، وكان يتقلد ديوان الرسائل ، وكان ذا علم ومعرفة ، وأوقع بمحمد بن بشار وابن منارة لشيء بلغه عنهم ، فأوثقهم بالحديد ، وأحدرهم الى البصرة ، فيقال : انهم غرقوا في الطريق ، ولم يعرف لهم خبر الى هذه الغاية ، ففي ذلك يقول علي بن بسام :

عذرناك في قتلك المسلمين ... وقلنا : عداوة أهل الملل
فهذا المنارى ما ذنبه ... ودينكما واحد لم يزل

ايقاعه ببدر

وقد كانت الحال انفرجت بين القاسم بن عبيد الله وبدر قبل هذا الوقت ، فلما استخلف المكتفي أغراه القاسم ببدر ، وكان ميل جماعة من القواد عن بدر ، فساروا الى حضرة السلطان ، وسار بدر الى واسط ، فأخرج القاسم المكتفي الى نهر ديال ، فعسكر هنالك وجعل في نفس المكتفي من بدر كل حالة يقدر عليها من الشر ، وأغراه به .

فأحضر القاسم أبا حازم القاضي وكان ذا علم ودراية فأمره عن أمير المؤمنين بالمسير الى بدر فيأخذ له الأمان ويجيء به معه ويضمن له عن أمير المؤمنين ما أحب .

فقال أبو حازم : ما كنت أبلغ عن أمير المؤمنين رسالة لم أسمعها منه .

فلما امتنع عليه أحضر أبا عمرو محمد بن يوسف القاضي فأرسل به الى بدر في شذاء ، فأعطاه الأمان والعهود والمواثيق عن المكتفي وضمن له الا يسلمه عن يده الا عن رؤية أمير المؤمنين ، فخلى عسكره ، وجلس معه في الشذاء مصعدين .

فلما انتهوا الى ناحية المدائن والسيب تلقاه جماعة من الخدم فأحاطوا بالشذاء ، وتنحى أبو عمرو عنه الى طيار فركب فيه ، وقرب بدر الى الشط ، وسألهم أن يصلي ركعتين ، وذلك في يوم الجمعة لست خلون من شهر رمضان سنة تسع وثمانين ومائتين قبل الزوال من ذلك اليوم ، فأمهلوه للصلاة .

فلما كان في الركعة الثانية قطعت عنقه ، وأخذ رأسه فحمل الى المكتفي ، فلما وضع الرأس بين يدي المكتفي سجد وقال : الان ذقت طعم الحياة ولذة الخلافة .

ودخل المكتفي الى مدينة السلام يوم الأحد لثمان خلون من شهر رمضان ، ففي محمد ابن يوسف القاضي يقول بعض الشعراء في ضمانه لبدر العهود والمواثيق عن المكتفي :

قل لقاضي مدينة المنصور ... بم أحللت أخذ رأس الأمير ؟

بعداعطائــه المواثيق والعهـ د وعقــد الأمــان في منشور
أين أيمانـك التـي يشهداللــه عـ لى أنهــا يمــين فجور ؟
أين تأكيدك الطــلاق ثلاثا ليس فيهــن نية التخيير ؟
أن كفيك لا تفــارق كفيـ ـه الى أن ترى مليك السرير
يا قليل الحياء ياأكذب الأمـ ـة يا شاهــدا شهــادة زور
ليس هذافعـل القضــاة ،. ولا يحـ ســن أمثالــه ولاة الجســور
قدمضى من قتلــت في رمضان راكعـا بعــد سجــدة التــكبير
أي ذنــب أتيت في الجمعةالزهـ راء في خــير خــير خــير الشهور
فأعدالجــواب للحــكم العا دل مــن بعــد منــكر ونكير
يا بنـي يوسف بن يعقـوب أضحى أهـل بغــداد منــكم في غــرور
شتــت اللــه شملــكم ،وأراني بكم الــذل بعــد ذلك الــوزيـر
أنتــم كلــكم فداء أبــي حا زم المســتقيم كل الأمور

منزلة بدر

قالوا : وكان بدر حرا ، وهو بدر بن خير من موالي المتوكل ، وكان بدر في خدمة ناشيء غلام الموفق صاحب ركابه ، ثم اتصل بالمعتضد وقرب من قلبه ، وخف بين يديه في أيام الموفق .

وكان للمعتضد غلام يقـال له فاتـك ، وكان من أعلى غلمانـه ، فبعـد من قلبـه ، وانحطت مرتبته ، وكان السبب في ذلك أن المعتضد غضب على بعض جواريه فأمر ببيعها ، فدس فاتك من ابتاعها له ، فكان السبب في ابعاده من قلب المعتضد عند نمو ذلك اليه .

وزاد أمر بدر ، وعلت مرتبته ، حتى كان يلتمس الحوائج به من المعتضد ، وكانت الشعراء تقرن مدح بدر بمدح المعتضد ، وكذلك من خاطبه فيما عدا المنظوم من الكلام .

***

قال المسعودي : وأخبرني أبو بكر محمد بن يحيى الصولي النديم الشطرنجي بمدينة السلام ، قال : كان لي وعد على المعتضد ، فما ظفرت به حتى عملت قصيدة ذكرت فيها بدرا أولها :

أيهــا الهاجــر مزحــا لا مجد أجــزاء الــود أن يلقى بصد ؟
لامــير المؤمنــين المعتضــد بحــر جود ليس يعــدوه أحــد

وأبـو النجـم لـمن يقصـده جدول منـه الى البحـر يرد
قدمضى الفطرالى الأضحـى وقد آن أن يقـرب وعـد قد بعد
ما اقتضائي الوعـد أن لسـت على ثقـة من أنـه أخـذ بيد
غـيرأن النفس تهـوى عاجلا وسـوا أعطـى كريم أو وعـد

قال : فضحك وأمر بما وعدني به .

وأخبرنا محمد بن النديم بمدينة السلام ، قال : سمعت المعتضد يقول : أنا آنف من هبة القليل ، ولا أرى الدنيا لو كانت لي أموالها وجمعت عندي تفي بقدر جودي ، والناس يزعمون أني بخيل ، أتراهم لا يعلمون أني جعلت أبا النجم بيني وبينهم أعرف ما مبلغ ما ينفقه يوما فيوما ، لو كنت بخيلا ما أطلقت ذلك له .

وأخبرنا أبو الحسن علي بن محمد الفقيه الوراق الأنطاكي بمدينة أنطاكية قال : أخبرني ابراهيم بن محمد الكاتب ، عن يحيى بن علي المنجم النديم ، قال : كنت يوما بين يدي المعتضد وهو مقطب ، فأقبل بدر ، فلما رآه من بعيد ضحك وقال لي : يا يحيى ، من الذي يقول من الشعراء :

في وجهـه شافـع يمحو اساءته من القلـوب وجيه حيثما شفعا

فقلت : يقوله الحكم بن قنبرة المازني البصري .
فقال : لله دره ! أنشدني هذا الشعر ، فأنشدته :

ويلي على من أطارالنـوم فامتنعا وزاد قلبـي على أوجاعـه وجعا
كأنمـا الشـمس في أعطافـه لمعت حسنا ، أو البدر من أزراره طلعا
مستقبل‌بالذي يهـوى، وان كثرت منه الذنوب، ومعـذور بمـا صنعا
في وجهـه شافـع يمحـو اساءته من القلـوب وجيه حيثما شفعا

قال : وأخذ قوله :
أو البدرمن أزراره طلعا
أحمد بن يحيى بن العراف الكوفي فقال :

بدا وكأنمـا قمـر على أزراره ظلعـا
يحـت المسـك من عرق الجبـين بنـانـه ولعـا

ظهور القرمطي بالشام

وفي سنة تسع وثمانين ومائتين ظهر القرمطي بالشام ، وكان من حروبه مع طغج وعساكر المصريين ما قد اشتهر خبره ، وقد أتينا على ذكره فيما سلف من كتبنا ، وما كان من خروج المكتفي الى الرقة وأخذ القرامطة ، وذلك في سنة احدى وتسعين ومائتين ، وكذلك ما كان من ذكرويه بن مهرويه ووقوعه بالحاج في سنة أربع وتسعين ومائتين الى أن قتل وأدخل الى مدينة السلام .

فداء الغدر وفداء التمام

قال المسعودي : وكان فداء الغدر في ذي القعدة من سنة اثنتين وتسعين ومائتين باللامس بعد ان فادوا بجماعة من المسلمين والروم .

ثم ان الروم غدروا بعد ذلك ، وكان فداء التمام باللامس بين الروم والمسلمين على التمام في شوال من سنة خمس وتسعين ومائتين ، والأمير في الفداءين جميعا رستم ، وكان على الثغور الشامية .

فكان عدة من فدى به من المسلمين في فداء ابن طغان في سنة ثلاث وثمانين ومائتين ، على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب من ذكره ، ألفي نفس وأربعمائة وخمسا وتسعين نفسا من ذكر وأنثى .

وكان عدة من فدى به من المسلمين في الغدر ألفا ومائة وأربعا وخمسين نفسا ، وعدد من فودي به في فداء التمام ألفين وثمانمائة واثنتين وأربعين نفسا .

مالية الدولة

ومات المكتفي وقد خلف في بيوت الأموال من العين ثمانية آلاف ألف دينار ، ومن الورق خمسة وعشرين ألف ألف درهم ، ومن الدواب والبغال والجمازات وغيرها تسعة آلاف رأس ، وكان مع ذلك بخيلا ضيقا .

وأخبرنا أبو الحسن أحمد بن يحيى المنجم المعروف بابن النديم ، وكان من حذاق أهل النظر والبحث وأهل الرياسة من أهل التوحيد والعدل ، وفي أخيه علي بن يحيى يقول أبو هفان :

لربيع الزمان في الحول وقت ... وابن يحيى في كل وقت ربيع
رجل عنده المكارم سوق ... يشتري دهره ونحن نبيع

وظيفته من الطعام

قال : وكانت وظيفة المكتفي بالله عشرة ألوان في كل يوم ، وجدي في كل جمعة ، وثلاث جامات حلواء ، وكان يردد عليه الحلواء ، ووكل على مائدته بعض خدمه ، وأمره أن يحصي ما فضل من الخبز ، فما كان من المكسر عزله للثريد ، وما كان من الصحاح رد الى مائدته من الغد ، وكذلك كان يفعل بالبوارد والحلواء .

نهب ضياعا من أهلها

وأمر أن يتخذ له قصر بناحية الشماسية ، بازاء قطربل ، فأخذ بهذا السبب ضياعا كثيرة ومزارع كانت في تلك النواحي بغير ثمن من ملاكها ، فكثر الداعي عليه ، فلم يستتم ذلك البناء حتى توفي ، وكان هذا الفعل مشاكلا لفعل أبيه المعتضد في بناء المطامير .

قسوة وزيره

وكان وزيره القاسم بن عبيد الله عظيم الهيبة ، شديد الاقدام ، سفاكا للدماء ، وكان الكبير والصغير على رعب وخوف منه ، لا يعرف أحد منهم لنفسه نعمة معه .

وفاة الوزير

وكانت وفاته عشية الأربعاء لعشر خلون من ربيع الآخر سنة احدى وتسعين ومائتين ، وله نيف وثلاثون سنة ، ففي ذلك يقول بعض أهل الأدب ، وأراه عبد الله بن الحسن بن سعد :

شربنا عشية مات الوزير ونشرب ياقوم في ثالثه
فلا قدس اللّه تلك العظام ولا بارك اللّه في وارثه

مقتل عبد الواحد بن الموفق

وكان ممن قتل القاسم بن عبيد الله ، عبد الواحد بن الموفق ، وكان معتقلا عند مؤنس الفحل فبعث اليه حتى أخذ برأسه ، وذلك في أيام المكتفي ، وقد كان المعتضد يعزه ، ويميل اليه ميلا شديدا ، ولم يكن لعبد الواحد همة في خلافة ولا سمو الى رياسة، بل كانت همته في اللعب مع الأحداث .

وقد كان المكتفي أخبر عنه أنه راسل عدة من غلمانه الخاصة ، فوكل به من يراعي خبره وما يظهر من قوله اذا أخذ الشراب منه ، فسمع منه وقد طرب وهو ينشد شعر العتابي حيث يقول :

تلوم على ترك الغنى باهلية طوى الدهر عنهامن طريف وتالد

رأت حولهاالنسوان يمشين خلسة　　مقلدة أجيادهـا بالقلائد
أسرّك أنـي نلـت ما نـال جعفر　　من الملك أومانـال يحيى بن خالد
وأن أمـير المؤمنـين أغصني　　مغصهمـا بالمرهفـات البوارد
ذرينـي تجئنـي ميتتـي مطمئنة　　ولـم أتجشـم هول تلك الموارد
فان نفيسـات الأمـور مشوبة　　بمستودعـات في بطـون الأساود
وان الـذي يسمو الى درك العلا　　ملقـى بأسبـاب الـردى والمكايد

فقال له بعض ندمائه وقد أخذ منه الشراب : يا سيدي ، أين أنت عما تمثل به يزيد بن المهلب :

تأخـرت أستبقـي الحياة فلـم أجد　　حياة لنفسي مثـل أن أتقدما

فقال له عبد الواحد : مه ، لقد أخطأت الغرض ، وأخطأ ابن المهلب ، وأخطأ قائل هذا البيت ، وأصاب أبو فرعون التميمي حيث يقول . . .
قال النديم : حيث يقول ماذا ؟
قال : قال :

وما بي شيء في الوغـى غـير أنني　　أخـاف على فخارتـي أن تحطما
ولوكنـت مبتاعامـن السـوق مثلها　　لدى الـروع مابـاليت أن أتقدما

فلما انتهى ذلك الى المكتفي ضحك ، وقال : قد قلت للقاسم ليس عمي عبد الواحد ممن تسمو همته اليها ، هذا قول من ليس له همة غير فرجه وجوفه وأمـرد يعانقـه وكلاب يهارش بها وكباش يناطح بها وديوك يقاتل بها ، أطلقوا لعمي كذا وكذا ، فلم يزل القاسم بعبد الواحد حتى قتله .
وقد كان المكتفي لما أن مات القاسم وتبين قتله لعبد الواحد أراد نبش القاسم من قبره ، وضربه بالسوط ، وحرقه بالنار ، وقد قيل غير ذلك ، والله أعلم .

مقتل ابن الرومي

وممن أهلكه القاسم بن عبيد الله على ما قيل بالسم في خشكنانجة علي بن العباس بن

جريج الرومي ، وكان منشؤه ببغداد ووفاته بها ، وكان من مختلقي معاني الشعراء ، والمجودين في القصير والطويل ، متصرفا في المذهب تصرفا حسنا ، وكان أقل أدواته الشعر ، ومن محكم شعره وجيده قوله :

رأيت الدهر يجرح ثم يأسو يعوض أو يسلي أو ينسي
أبت نفسي الهلوع لفقد شيء كفى حزنا لنفسي فقد نفسي

ومن قوله العجيب الذي ذهب الى معاني فلاسفة اليونانيين ومن مهر من المتقدمين قوله في القصيدة التي قالها في صاعد بن مخلد :

لما تؤذن الدنيا به من زوالها يكون بكاء الطفل ساعة يوضع
والا فما يبكيه منها ، وانها لأفسح مما كان فيه وأوسع ؟

ومما دق فيه فأحسن وذهب الى معنى لطيف من النظر على ترتيب الجدليين وطريقة حذاق المتقدمين قوله :

غموض الشيء حين تذب عنه يقلل ناصر الخصم المحقق
تضيق عقول مستمعيه عنه فيقضي للمجل على المدقق

ومما أجاد فيه في وصف القناعة قوله :

اذا ما شئت أن تعلـ ـم يوما كذب الشهوه
فكل ما شئت يصدر ك عن المرة والحلوه
وطأ ما شئت يحصنك عن الحسناء في الخلوه
وكم أنساك ما تهوا ه نيل الشيء لم تهوه

وقوله :

بأبي حسن وجهك اليوسفي يا كفى الهوى وفوق الكفي

فيه ورد ونرجس ، وعجيب اجتماع الشتوي والصيفي

وقوله في العنب الرازقي :

ورازقي مخطف الخصور كأنه مخازن البلور
ألين في المس من الحرير وريحه كماء ورد جوري
لو أنه يبقى على الدهور لقرطوه للحسان الحور

ولابن الرومي أخبار حسان مع القاسم بن عبيد الله الوزير ، وأبي الحسن علي بن سليمان الأخفش النحوي ، وأبي اسحاق الزجاج النحوي .

وكان ابن الرومي الأغلب عليه من الأخلاط السوداء ، وكان شرها نهما ، وله أخبار تدل على ما ذكرناه من هذه الجمل مع أبي سهل اسماعيل بن علي النوبختي وغيره من آل نوبخت .

وفاة جماعة من الاعيان

وفي سنة تسعين ومائتين مات عبد الله بن أحمد بن حنبل ، يوم السبت لعشر بقين من جمادى الآخرة .

وفي سنة احدى وتسعين ومائتين كانت وفاة أبي العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب ، ليلة السبت لثمان بقين من جمادى الأولى ، ودفن في مقابر باب الشام في حجرة اشتريت له ، وخلف احدي وعشرين ألف درهم وألفي دينار ، وغلة بشارع باب الشام قيمتها ثلاثة آلاف دينار .

من اخبار ثعلب

ولم يزل أحمد بن يحيى مقدما عند العلماء منذ أيام حداثته الى أن كبر وصار اماما في صناعته ، ولم يخلف وارثا الا ابنة لابنه ، فرد ما له عليها ، وكان هو ومحمد المبرد عالمين قد ختم بهما خاتم الأدباء ، وكانا كما قال بعض الشعراء من المحدثين :

أيا طالب العلم لا تجهلن وعذ بالمبرد أو ثعلب
تجد عند هذين علم الورى ولا تك كالجمل الأجرب
علوم الخلائق مقرونة بهذين في الشرق والمغرب

وكان محمد بن يزيد المبرد يحب أن يجتمع في المناظرة مع أحمد بن يحيى ويستكثر منه ، وكان أحمد بن يحيى يمتنع من ذلك .

وأخبرنا أبو القاسم جعفر بن حمدان الموصلي الفقيه ـ وكان صديقهما ـ قال : قلت لأبي عبد الله الدينوري ختن ثعلب : لم يأبى أحمد بن يحيى الاجتماع مع المبرد ؟

فقال لي : أبو العباس محمد بن يزيد حسن العبارة ، حلو الاشارة ، فصيح اللسان ، ظاهر البيان ، وأحمد بن يحيى مذهبه مذهب المعلمين ، فاذا اجتمعا في محفل حكم لهذا على الظاهر الى أن يعرف الباطن .

وأخبرنا أبو بكر القاسم بن بشار الأنباري النحوي ، أن أبا عبد الله الدينوري هذا كان يختلف الى أبي العباس المبرد يقرأ عليه كتاب سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر ، فكان ثعلب يعذله على ذلك ، فلم يكن ذلك يردعه .

وفاة جماعة من العلماء

وقيل : ان وفاة أحمد بن يحيى ثعلب كانت في سنة اثنتين وتسعين ومائتين .

وفي هذه السنة (وهي سنة احدى وتسعين ومائتين) مات محمد بن محمد الجذوعي القاضي ، وله أخبار عجيبة فيما كان به من المذهب قد أتينا على وصفه ونوادره فيها وما كان له من التعزز في الكتاب الأوسط .

وفي سنة اثنتين وتسعين ومائتين كانت وفاة أبي حازم عبد العزيز بن عبد الحميد القاضي ، يوم الخميس لسبع ليال خلون من جمادى الآخرة من هذه السنة ببغداد ، وله نيف وتسعون سنة .

احداث

وفي هذه السنة تغلب ابن الخليجي على مصر .

وفيها وقع الحريق العظيم ، فأحرق بباب الطاق نحوا من ثلثمائة دكان وأكثر .

وظفر بابن الخليجي في سنة ثلاث وتسعين ومائتين بمصر ، وأدخل الى بغداد ، وقد أشهر ، وقدامه أربعة وعشرون انسانا من أصحابه منهم صندل المزاحمي الخادم الأسود ، وذلك للنصف من شهر رمضان من هذه السنة .

وفيات

وفي سنة أربع وتسعين ومائتين مات موسى بن هارون بن عبد الله بن مروان البزاز المحدث ، المعروف بالحمال ، في يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة بقيت من شعبان ببغداد ، ويكنى أبا عمران ، وهو ابن نيف وثمانين سنة ، ودفن في مقابر باب حرب الى جانب أحمد بن حنبل .

وقد قدمنا العذر فيما سبلف من هذا الكتاب لذكرنا وفاة هؤلاء الشيوخ اذ كان الناس في أغراضهم مختلفين ، وفي طلبهم الفوائد متباينين ، وربما قد يقف على هذا الكتاب من لا غرض له فيما ذكرناه فيه ويكون غرضه معرفة وفاة هؤلاء الشيوخ .

وكانت وفاة أبي مسلم ابراهيم بن عبد الله الكجي البصري المحدث في المحرم سنة اثنتين وتسعين ومائتين وهو ابن اثنتين وتسعين سنة ، وكان مولده في شهر رمضان سنة مائتين .

وقبض أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب وهو في سن أبي مسلم على ما ذكرنا من تنازع الناس في تاريخ وفاته ، وقد كان أبو العباس أحمد بن يحيى قد ناله صمم وزاد عليه قبل موته ، حتى كان المخاطب له يكتب ما يريده في رقاع .

وصف القطائف

وأخبرنا محمد بن يحيى الصولي الشطرنجي قال : كنا يوما نأكل بين يدي المكتفي ، فوضعت بين أيدينا قطائف رفعت من بين يديه في نهاية النضارة ورقة الخبز واحكام العمل ، فقال : هل وصفت الشعراء هذا ؟

فقال له يحيى بن علي : نعم ، قال أحمد بن يحيى فيها :

قطائف قد حشيت باللوز والسكر الماذي حشو الموز
تسبح في آذي دهن الجوز سررت لما وقعت في حوزي
سرور عباس بقرب فوز

قال : وأنشدته لابن الرومي قوله :

وأتت قطائف بعد ذاك لطائف

فقال : هذا يقتضي ابتداء ، فأنشدني الشعر من أوله :

فأنشدته لابن الرومي :

وخبيصة صفراء دينارية ثمنا ولونا زفها لك حزور
عظمت فكادت أن تكون اوزة وثوت فكاد اهابها يتفطر
طفقت تجود بوبلها جوذابة فاذا لباب اللوز فيها السكر

نعـــم السماء هنـــاك ظل صبيبها　　يهمى ، ونعم الأرض ظلت تمطر
يا حسنهـــا فوق الخـــوان ودهنها　　قدامهـــا بصـــهـــيرهـــا يتغرغـــر
ظلنـــا نقشر جلـــدهـــا عـــن لحمها　　وكأن تبـــرا عـــن لجـــين يقشر
وتقـــدمتهـــا قبـــل ذاك ثـــرائد　　مثـــل الـــريـــاض بمثلهـــن يصدر
ومرققـــات كلهـــن مـــزخـــرف　　بالبيض منهـــا ملـــبس ومدثـــر
وأتـــت قطـــائف بعـــد ذاك لطائف　　ترضى اللهـــاة بهـــا ويرضى الحنجر
ضحك الوجود من الطبرزد فوقها　　دمـــع العيون مع الدهـــان يقطر

فاستحسن المكتفي بالله الأبيات ، وأومأ الى أن أكتبها له ، فكتبتها له .

وصف اللوزينج

قال محمد بن يحيى الصولي : وأكلنا يوما بين يديه بعد هذا بمقدار شهر ، فجاءت لوزينجة ، فقال : هل وصف ابن الرومي اللوزينج ؟

فقلت : نعم .

فقال : أنشدنيه .

فأنشدته :

لا يخطئنـــي منـــك لوزينج　　اذا بدا أعجـــب أو عجبا
لـــم تغلـــق الشهـــوة أبوابها　　الا أبـــت زلفـــاه أن يحجبا
لوشاء أن يذهب في صخرة　　لسهـــل الـــطيب له مذهبا
يدور بالنفخـــة في جامه　　دورا ترى الدهـــن له لولبا
عـــاون فيه منظـــر مخبرا　　مستحسن ساعـــد مستعذبا
كالحسن المحســـن في شدوه　　تم فأضحـــى مغـــريا مطربا
مستـــكثف الحشـــو ، ولكنه　　أرق جلدا من نسيم الصبا
كأنمـــا قدت جلابيبـــه　　من أعين القطـــر الـــذي قببا
يخـــال من رقـــة أجزائـــه　　شارك في الأجنحة الجندبا
لـــو أنـــه صور من خبزه　　ثغر لكان الواضـــح الأشنبا
مـــن كل بيضـــاء يود الفتى　　أن يجعل الـــكف لهـــا مركبا
مدهونـــة زرقـــاء مدفونة　　شهبـــاء تحكي الأزرق الأشهبا
ذيق له اللـــوز فما مره　　مرت على الذائـــق الا ابى

وانتقــد الســكــر نقــاده وشارفــوا في نقــده المذهبا
فــلا اذا العــين رأتهــا نبت ولا اذا الضرس علاهــا نبا

فحفظها المكتفي ، فكان ينشدها .

من شعر المكتفي

ومما استحسن من شعر المكتفي لنفسه :

اني كلفـت ، فلا تلحـوا بجارية كأنهاالشمس،بل زادت على الشمس
لهـا من الحســن أعــلاه ، فرؤيتها سعدى ، وغيبتها عن ناظري نحسي

وللمكتفي أيضا :

بلـــغ النفس ما اشتهت فاذا هي قد اشتفت
انمـــا العيش ساعة أنت فيهـا ومـا انقضت
كل من يعـــذل المحب اذا ما هذا سكت

وله أيضا :

من لي بأن يعلــم ما ألقى فيعــرف الـصــبــوة والعشقــا
ما زال لي عبـــدا ، وحبــي له صــيرنــي عبــدا له رقــا
أعتـــق من رقـــي ، ولكنني من حبــه لا أمــلك العتقــا

شراب الدوشاب

وأخبرنا أبو عبد الله ابراهيم بن محمد بن عرفة النحوي المعروف بنفطويه ، قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن حمدون ، قال : تذاكرنا يوما بحضرة المكتفي أصناف الأشربة فقال : فيكم من يحفظ في نبيذ الدوشاب شيئا ؟

فأنشدته قول ابن الرومي :

اذا أجـــدت حبـــه ودبسه ثم أجـدت ضربـــه ومرسه

ثم أطلت في الاناء حبسه شربت منه البابلي نفسه

فقال المكتفي : قبحه الله ! ما أشرهه ! لقد شوقني في هذا اليوم الى شرب الدوشاب .

قصة هريسة

وقدم الطعام ، فوضع بين أيدينا طيفورية عظيمة فيها هريسة ، وقد جعل في وسطها مثل السكرجة الضخمة مملوءة من دسم الدجاج ، فضحكت وخطر ببالي خبر الرشيد مع أبان القاري ، فلحظني المكتفي ، وقال : يا أبا عبد الله ، ما هذا الضحك ؟

فقلت : خبر ذكرته في الهريسة يا أمير المؤمنين ودهن الدجاج مع جدك الرشيد .

فقال : وما هو ؟

قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، ذكر العتبي والمدائني أن أبان القاري تغدى مع الرشيد ، فجاءوا بهريسة عجيبة في وسطها مثل السكرجة الضخمة على هذا المثال من دهن الدجاج .

قال أبان : فاشتهيت من ذلك الدسم ، وأجللت الرشيد من أن أمد يدي فأغمس فيه .

قال : ففتحت بأصبعي فيه فتحا يسيرا ، فانقلب الدسم نحوي ، فقال الرشيد : يا أبان ، أخرقتها لتغرق أهلها ؟

فقال أبان : لا يا أمير المؤمنين ، ولكن سقناه لبلد ميت .

فضحك الرشيد حتى أمسك صدره .

هدية من أبي مضر بن الأغلب

وفي سنة خمس وتسعين ومائتين وردت الى مدينة السلام هدية زيادة الله بن عبد الله ، ويكنى أبا مضر ، وكانت الهدية مائتي خادم أسود وأبيض ، ومائة وخمسين جارية ، ومائة من الخيل العربية ، وغير ذلك من اللطائف .

آل الأغلب بافريقية

وقد كان الرشيد في سنة أربع وثمانين ومائة ـ وذلك بالرقة ـ قلد ابراهيم بن الأغلب أمر افريقية من أرض المغرب ، فلم يزل آل الأغلب أمراء افريقية حتى أخرج عنها زيادة الله بن عبد الله هذا في سنة ست وتسعين ومائتين ، وقيل : في سنة خمس وتسعين ومائتين ، أخرجه من المغرب أبو عبد الله المحتسب الداعية الذي ظهر في كتامة وغيرها من البربر ، فدعا الى عبيد الله صاحب المغرب ، وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب تولية المنصور للأغلب بن سالم السعدي المغرب .

علة المكتفي

قال : واشتدت علة المكتفي بالله بالذرب ، فأحضر محمد بن يوسف القاضي وعبد الله بن علي بن أبي الشوارب ، فأشهدهما على وصيته بالعهد الى أخيه جعفر ، وقد قدمنا ذكر وفاته فيما سلف من هذا الكتاب فأغنى ذلك عن اعادته في هذا الموضع .

قال المسعودي : وللمكتفي بالله أخبار حسان ، وما كان في عصره من الكوائن في قصة ابن البلخي بمصر ، وأمر القرمطي بالشام ، وأمر ذكرويه وخروجه على الحاج ، وغير ذلك مما كان في خلافته ، وقد أتينا على جميع ذلك في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، فأغنى ذلك عن اعادة ذكره .

ذكر خلافة المقتدر بالله
جعفر بن أحمد

موجز

وبويع المقتدر بالله جعفر بن أحمد في اليوم الذي توفي فيه أخوه المكتفي بالله وكان يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين ، ويكنى أبا الفضل ، وأمه أم ولد يقال لها شغب ، وكذلك أم المكتفي أم ولد يقال لها ظلوم ، وقيل غير ذلك .

وكان له يوم بويع ثلاث عشرة سنة ، وقتل ببغداد بعد صلاة العصر يوم الأربعاء لثلاث ليال بقين من شوال سنة عشرين وثلثمائة .

فكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وستة عشر يوما .

وبلغ من السن ثمانية وثلاثين سنة وخمسة عشر يوما ، وقد قيل في مقدار عمره غير ما ذكرنا ، والله أعلم .

ذكر جمل من أخباره وسيره
ولمع مما كان في أيامه

مقتل وزيره

وبويع المقتدر وعلى وزارته العباس بن الحسن الى أن وثب الحسين بن حمدان ، ووصيف بن سوارتكين وغيرهما من الأولياء على العباس بن الحسن فقتلوه وفاتكا معه ، وذلك في يوم السبت لاحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة ست وتسعين ومائتين .

وكان من أمر عبد الله بن المعتز ، ومحمد بن داود وغيرهما ما قد اتضح في الناس واشتهر ، وأتينا على ذكره في الكتاب الأوسط وغيره في أخبار المقتدر بالله .

مصنفات في سيرة المتقدر

وقد صنف جماعة من الناس أخبار المقتدر مجتمعة مع أخبار غيره من الخلفاء ومفردة ، وعمل ذلك في أخبار الدولة من أخبار بغداد .

وقد صنف أبو عبد الله بن عبدوس الجهشياري أخبار المقتدر بالله في ألوف من الأوراق ، ووقع لي منها أجزاء يسيرة .

وأخبرني غير واحد من أهل الدراية أن ابن عبدوس صنف أخبار كل واحد منهم لمعا ،

وانما الغرض جوامع من أخبارهم تبعث على درسه وحفظ ما فيه ونسخه .

عبد الله بن المعتز

وكان عبد الله بن المعتز أديبا ، بليغا ، شاعرا ، مطبوعا ، مجودا ، مقتدرا على الشعر ، قريب المأخذ ، سهل اللفظ ، جيد القريحة ، حسن الاختراع للمعاني ، فمن ذلك قوله :

تقول العاذلات : تعز عنها وأطف لهيب قلبك بالسلو
وكيف وقبلة منها اختلاسا ألذ من الشماتة بالعدو ؟

وقوله :

ضعيفة أجفانه والقلب منه حجر
كأنما ألحاظه من فعله تعتذر

وقوله :

تولى الجهل ، وانقطع العتاب ولاح الشيب ، وافتضح الخضاب
لقد أبغضت نفسي في مشيبي فكيف تحبني الخود الكعاب ؟

وقوله :

عجبا للزمان في حالتيه وبلاء دفعت منه اليه
رب يوم بكيت فيه فلما صرت في غيره بكيت عليه

وقوله في أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات الوزير :

أبا حسن ، ثبت في الأرض وطأتي وأدركتني في المعضلات الهزاهز
وألبستني درعا علي حصينة فناديت صرف الدهر هل من مبارز

وقوله أيضا :

ومن شر أيام الفتى بذل وجهه الى غير من خفت عليه الصنائع

متى يدرك الاحسان من لم تكن له الى طلب الاحسان نفس تنازع

وقوله :

فان شئت عادتني السقاة بكأسها وقد فتح الاصباح في ليلة فما
فخلت الدجا والفجرقد مد خيطه رداء موشى بالكواكب معلما

وقوله :

وأبكي اذا ما غاب نجم كأنني فقدت صديقا أو رزئت حميا
فلو شق من طرف الليالي كواكب شققت لها من ناظري نجوما

ومما أحسن فيه قوله في عبيد الله بن سليمان :

لآل سليمان بن وهب صنائع الـي ومعروف لدي تقدما
هم علموا الأيام كيف تبرني وهم غسلوامن ثوب والدي الدما

وقوله عند وفاة المعتصم بالله :

قضوا ما قضوا من حقه ثم قدموا اماما يؤم الخلق بين يديه
وصلوا عليه خاشعين كأنهم صفوف قيام للسلام عليه

وقوله في فصادة المعتضد بالله :

يا دما سال من ذراع الامام أنت أزكى من عنبر ومدام
قد ظننناك اذ جريت الى الطسـ ـت دموعا من مقلتي مستهام
انما غرق الطبيب شبا المبـ ـضع في نفس مهجة الاسلام

وقوله :

اصبر على حسد الحسو د فان صبرك قاتله

فالنـــار تأكل نفسهـا ان لم تجـد ما تأكله

وقوله :

يطـــوف بالـــراح بيننـــا رشأ محـــكم في القلـــوب والمقل
يكاد لحـــظ العيون حـــين بدا يسفـــك من خده دم الخجل

وقوله :

رشـــأ يتيه بحســـن صورته عبـــث الفتـــور بلحـــظ مقلته
وكأن عقـــرب صدغـــه وقفت لما دنـــت من نار وجنته

وقوله :

اذا اجتنـــى وردة من خده فمه تكونت تحتهـا أخـرى من الخجل

وفاة محمد بن داود الأصفهاني

قال : وكانت وفاة أبي بكر محمد بن داود بن علي بن خلف الأصبهاني الفقيه سنة ست وتسعين ومائتين ، وكان ممن قد علا في رتبة الأدب ، وتصرف في بحار اللغة ، وتفنـن في موارد المذاهب ، وأشفى على أغراض المطالب .

وكان عالما بالفقه منفردا ، وواحدا فيه فريدا ، وألف في عنفوان صباه ، وقبل كماله وانتهائه ، الكتاب المعروف بالزهرة .

ثم تناهت فكرته ، ونسقت قوته ، فصنف الفقهيات ككتابه في الـوصول الى معرفة الأصول ، وكتاب الانذار ، وكتاب الأعذار والايجاز ، وكتابه المعروف بالانتصار على محمد ابن جرير وعبد الله بن شرشير وعيسى بن ابراهيم الضرير .

ومما قال فيه فأحسن في عنفوان شبابه ، وأثبته في كتابه المترجم بالزهرة ، وعزاه الى بعض أهل عصره ، وان كان محسنا في سائر كلامه من منظومه ومنثوره قوله :

على كبـدي من خيفـة البـين لوعة يكاد لهـــا قلبـــي أسى يتصدع

يخاف وقوع البين والشمل جامع فيبكي بعين دمعها متسرع
فلو كان مسرورا بما هو واقع كما هو محزون بما يتوقع
لكان سواء برؤه وسقامه ولكن وشك البين أدهى وأوجع

وقوله :

تمتع من حبيبك بالوداع الى وقت السرور بالاجتماع
فكم جربت من وصل وهجر ومن حال ارتفاع واتضاع
وكم كأس أمر من المنايا شربت فلم يضق عنها ذراعي
فلم أر في الذي لاقيت شيئا أمر من الفراق بلا وداع
تعالى الله كل مواصلات وان طالت تؤول الى انقطاع

وقوله :

لا خير في عاشق يخفي صبابته بالقول ، والشوق في زفراته بادي
يخفي هواه وما يخفي على أحد حتى على العيس والركبان والحادي

وفاة علي بن بسام

وفي سنة ثلاث وثلثمائة في خلافة المقتدر بالله ، كانت وفاة علي بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام ، وكان شاعرا لسنا ، مطبوعا في الهجاء ، ولم يسلم منه وزير ولا أمي ولا صغير ولا كبير . وله هجاء في أبيه واخوته وسائر أهل بيته ، فمما قال في أبيه محمد بن نصر :

بنى أبو جعفر دارا فشيدها ومثله لخيار الدور بناء
فالجوع داخلها ، والذل خارجها وفي جوانبها بؤس وضراء
ما ينفع الدار من تشييد حائطها وليس داخلها خبز ولا ماء

وله فيه :

هبك عمرت عمر عشرين نسرا أترى أنني أموت وتبقى

فلئن عشت بعد يومك يوما لأشقن جيب مالك شقا

وله فيه :

رأى الجوع طبا ، فهو يحمي ويحتمي فلست ترى في داره غير جائع
ويزعم أن الفقر في الجود والسخا وأن ليس حظ في اكتساب الصنائع
لقد أمن الدنيا ، ولم يخش صرفها ولم يدر أن المرء رهن الفجائع

وأنشدني أبو الحسن محمد بن علي الفقيه الوراق الأنطاكي بأنطاكية ، لعلي بن محمد بن بسام ، يهجو الموفق والوزير أبا الصقر اسماعيل بن بلبل ، والطائي أمير بغداد ، وعبدون النصراني ، أخا صاعد ، وأبا العباس بن بسطام ، وحامد بن العباس وزير المقتدر بالله بعد ذلك ، واسحاق بن عمران ، أمير الكوفة يومئذ :

أيرجو الموفق نصر الاله وأمر العباد الى دانيه
ومن قبلها كان أمر العباد لعمر أبيك الى زانيه
فان رضيت رضيت أنه كدالية فوقها داليه
وظل ابن بلبل يدعى الوزير ولم يك في الأعصر الخاليه
وطحان طي تولى الجسور وسقى الفرات وزوقاميه
ويحكم عبدون في المسلمين ومن مثله تؤخذ الجاليه
واحول بسطام ظل المشير وكان يحوك ببرزاطيه
وحامد ياقوم له أمره الى لألزمته الراويه
نعم ، ولأرجعته صاغرا الى بيع رمان حضراويه
واسحاق عمران يدعى الأمير لداهية أيما داهيه
فهذي الخلافة قد ودعت وظلت على عرشها خاويه
فخلِّ الزمان لأوغاده الى لعنة الله والهاويه
فيا رب قد ركب الأرذلون ورجلي من رجلهم عاليه
فان كنت حاملنا مثلهم والا فأرحل بني الزانيه

جمع في شعره هذا جميع رؤساء أهل الدولة في ذلك العصر .

وأنشد أبو اسحاق الزجاج النحوي صاحب المبرد لابن بسام في المعتضد ، وقد ختن ابنه جعفرا المقتدر :

انصرف النـاس من ختان   يدعـون من جوعهـم حزاما
فقلـت : لا تعجبـوا لهذا   فهكـذا تختـن اليتامى

وله أيضا في المعتضد :

الى كم لا نرى ما نرتجيه   ولا تنفـك من أمـل كذوب
لئـن سمـوك معتضـدا فاني   أظنـك سوف تعضـد عن قريب

وله في الوزير العباس بن الحسن ، وابن عمرويه الخراساني ، وكان أمير بغداد يومئذ .

لعـن الله الـذي قلـ   ـد عبـاس الوزاره
والـذي ولى ابـن عمرو   يه ببغـداد الاماره
فوزير شنـج الوجـ   ـه بطـين كالغراره
وقفـا فيه سناما   ن ورأس كالخياره
لم يزل يعـرف بالزو   ر قديمـا والعياره
وأمـير أعـجمـي   كحمار ابـن حماره
رحـل الاسـلام عنا   بتـوليه الاداره

وأنشدني في أبي الحسن جحظة البرمكي المغني :

لجحظـة المحسـن عنـدي يد   أشكرهـا منـه الى المحشر
لما أرانـي وجـه برذونه   وصاننـي عن وجهـه المنكر

وله في أبيه محمد بن نصر بن منصور بن بسام :

خبيصـة تعقـد من سكره   وبرمـة تطبـخ من قنبره

عنـد فتـى أسمـح من حاتم   يطبـخ قدرين على مجمره
وليس ذا في كل أيامه   لكنـه في الدعـوة المنكره
في يوم لهـو فظـع هائل   ومجمـع اللـذات والقرقره
يقـول للآكل من خبزه :   تعسـا لهـذا البطـن ما أكبره

وله في أبيه أيضا :

خبـز أبـي جعفـر طباشير   فيه الأفـاويه والعقاقير
فيه دواء لكل معضلة   للبطـن والصـدر والبواسير
وقصعـة مثـل مدهـن صغرا   تزعـق من حولهـا النواظير
ونيل ما ترتجيه من يده   ما ليس تجـري به المقادير

وله فيه :

بعثـت لأستهـديه عـيرا ولـم أكن   لأعلـم أن العـير صار لنـا صهرا
فوجـه لي كي نستـوي في ركوبه   فيركبـه بطنـا وأركبـه ظهرا

وقال في جماعة من الرؤساء :

قل للرؤوس ومن ترجى نوافلهم   ومـن يؤمـل فيه الرفـد والعمل
ان تشغلونـي بأعمال أصيرها   شغـلا ،والافـفي أعراضـكم شغل

وله أيضا :

مـالـي رأيتـك دائبـا   مستسخطـا أبـدا لرزقك
ارجـع الـى مـا تستحـ   ق فان قوتـك فوق حقك

وله في عبيدالله بن سليمان الوزير :

عبيـد الله ليـس لـه معـاد   ولا عقـل وليس له سداد

رددت الى الحياة فعـدت عنها   لقـول الله لو ردوا لعادوا

وله في القاسم بن عبيدالله بن سليمان :

قل للمـولى دولـة السلطان :   عنـد الـكمال توقـع النقصان
كم من وزير قد رأيت معظما   أضحـى بدار مذلـة وهوان

وله في عبيدالله بن سليمان :

لا بد يا نفس من سجود   في زمـن القـرد للقرود
هبـت لك الـريح يا ابـن وهب   فخـذ لهـا أهبـة الركود

وله في اسماعيل بن بلبل الوزير :

لأبـي الصقـر دولة   مثـلـه في التخـلـف
مزنـة حـين أطمعت   آذنـت بـالتـكشـف

وله في العباس بن حسن الوزير :

تحمـل أوزار البـرية كلها   وزير بظلـم العـالمين يجاهر
ألـم تر أسبـاب الـذين تقدموا   وكيف اتتهـم بالبـلاء الدوائر

وله في الوزير صاعد بن مخلد :

سجدنـا للقـرود رجـاء دنيا   حوتهـا دوننـا أيدي القرود
فما نالـت أناملنـا بشيء   عملنـاه سوى ذل السجود

وله في العباس بن الحسن الوزير :

بنيت على دجلـة مجلسا   تباهـى به فعـل من قد لمضى

فلا تفرحـــن فكم مثـــل ذا رأينـــاه ما تم حتـــى انقضى

وله في الوزير علي بن محمد بن الفرات :

وقفـــت شهـــورا للـــوزير أعدها فلم تثنه نحوي الحقوق السوالف
فلا هو يرعـــى لي رعـــاية مثله ولا أنـا أستحيي الوقـــوف وآنف

وله في أبي جعفر محمد بن جعفر الغربلي :

سـألـــت أبـــا جعفـــر فقـــال : يـدي تقصـــر
فقلـــت لــــه : عـــاجلا يكـــون كـــما تـذكـــر

وله فيه :

لحية كثـة أضر بهـــا النتـــ ـــف ووجــه مشـــوه ملعون
قلـــت لما بدا يجمجـــم في القو ل ويهـــذي كأنـــه مجنون
صدق الله أنـــت من ذكر الله مهـــين ولا يكاد يبين

وله في ابن المرزبان ، وقد كان سأله دابة فمنعه :

بخلـــت عنـــي بمقـــرف عطب فلن ترانـــي ما عشـــت أطلبه
وان تكن صنتـــه فما خلـــ ـــق الله مصونـــا وأنـــت تركبه

وله مما أحسن فيه :

تضمـــن لي في حاجتـــي ما أحبه فلما اقتضيت الوعد قطـب واعتلى
وصـــير عذرا شغلـــه واتصاله ولولا اتصال الشغل ما كان أشغلا

ولعلي بن محمد بن بسام في هذه المعاني أشعار كثيرة ، اكتفينا بذكر البعض عن ايراد ما

هو أكثر منه في هذا الكتاب ، لما قدمنا ذكره فيما سلف قبله من الكتب .

وقد كان أبوه محمد بن نصر بن منصور في غاية السرو والمروءة ، وكان رجلا مترفا ، حسن الزي ، ظاهر المروءة ، مشغوفا بالبناء .

وذكر أبو عبدالله القمي ، قال : دخلت عليه يوما شاتيا ، شديد البرد ببغداد ، فاذا هو في قبة واسعة قد طليت بالطين الأحمر الأرمني ، وهو يلوح بريقا ، فقدرت أن تكون القبة عشرين ذراعا في مثلها ، وفي وسطها كانون بزرافين اذا اجتمع ونصب كان مقداره عشرة أذرع في مثلها ، وقد ملىء جمر الغضى .

وهو جالس في صدر القبة ، عليه غلالة تسترية ، وما فضل عن الكانون مفروش بالديباج الأحمر ، فأجلسني بالقرب منه ، فكدت أتلظى ، فدفع الي جام ماء الورد وقد مزج بالكافور ، فمسحت به وجهي ، ثم رأيته قد استسقى ماء ، فأتوه بماء رأيت فيه ثلجا ، فلم يكن لي وكد الا قطع ما بيني وبينه ، ثم خرجت من عنده الى برد مائع ، وقد قال لي : لا يصلح هذا البيت لمن يريد الخروج منه .

طعام محمد بن نصر

قال : ودخلت عليه في بعض الأيام وهو جالس في موضع آخر في داره ، وقد رفعه على بركة ، وفي صدره صفة ، وهو يشرف منها على البستان ، وعلى حير الغزلان ، وحظيرة القماری وأشباهها ، فقلت له : يا أبا جعفر ، أنت والله جالس في الجنة .

قال : فليس ينبغي لك أن تخرج من الجنة حتى تصطبح فيها .

فلما جلست واستقر بي المجلس حتى أتوه بمائدة جزع لم أر أحسن منها ، وفي وسطها جام جزع ملونة ، قد لوي على جنباتها الذهب الأحمر ، وهي مملوءة من ماء ورد ، وقد جعل سافا على ساف ، كهيئة الصومعة من صدور الدجاج ، وعلى المائدة سكرجات جزع فيها الأصباغ وأنواع الملح ، ثم أتينا بسنبوسق يفور وبعده جامات اللوزينج .

ورفعت المائدة ، وقمنا من فورنا الى موضع الستارة ، فقدم بين أيدينا اجانة صيني بيضاء قد كومت بالبنفسج والخيري ، وأخرى مثلها قد عبىء فيها التفاح الشامي ، قدرنا مقدار ما حضر فيها ألف تفاحة ، فما رأيت طعاما أنظف منه ولا ريحانا أظرف منه ، فقال لي : هذا حق الصبوح ، فما أنسى الى الساعة طيب ذلك اليوم .

قال المسعودي : وانما ذكرنا هذا الخبر عن محمد بن نصر ليعلم أن علي بن محمد ابنه أخبر عنه بضد ما كان عليه ، وأنه لم يسلم من لسانه انسان ، وله أخبار وهجو كثير في الناس قد أتينا على مبسوطها فيما سلف من كتبنا ـ

وما كان من قوله في القاسم بن عبيدالله ودخوله الى المعتضد وهو يلعب بالشطرنج ويتمثل بقول علي بن بسام :

حياة هذا كموت هذا فليس تخلو من المصائب

فلما شال رأسه نظر الى القاسم فاستحيا ، فقال : يا قاسم ، اقطع لسان ابن بسام عنك .

فخرج القاسم مبادرا ليقطع لسانه ، حتى قال له المعتضد : بالبر والشغل ولا تعرض له بسوء .

فولاه القاسم البريد والجسر بجند قنسرين والعواصم من أرض الشام .

وما كان من قوله في أسد بن جهور الكاتب وخبره معه وما عم بهجائه أسدا وغيره من الكتاب وهو :

تعس الزمان لقد أتى بعجائب ومحا رسوم الظرف والآداب
أو ما ترى أسد بن جهور قد غدا متشبها بأجلة الكتاب
وأتى بأقوام لو انبسطت يدي فيهم رددتهم الى الكتاب

وزراء المقتدر

ولما قتل العباس بن الحسن استوزر المقتدر علي بن محمد بن موسى بن الفرات يوم الأربعاء لأربع ليال خلون من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين ، فكانت وزارته الى أن سخط عليه ثلاث سنين وتسعة أشهر وأياما .

واستوزر محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان في اليوم الذي سخط فيه على علي بن محمد بن موسى بن الفرات ، وهو يوم الأربعاء لأربع خلون من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين وخلع عليه ، ولم يخلع على أحد غيره ، وقبض عليه يوم الاثنين لعشر خلون من المحرم سنة احدى وثلثمائة .

وخلع على الوزير علي بن عيسى بن داود بن الجراح يوم الثلاثاء لاحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة احدى وثلثمائة ، وقبض عليه يوم الاثنين لثمان خلون من ذي الحجة سنة أربع وثلثمائة .

واستوزر علي بن محمد بن الفرات ثانية ، وخلع عليه يوم الاثنين لثمان خلون من ذي

الحجة سنة أربع وثلثمائة ، وقبض عليه يوم الخميس لأربع بقين من جمادى الأولى سنة ست وثلثمائة .

وخلع علي الوزير حامد بن العباس يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة ست وثلثمائة ، وأطلق علي بن عيسى في اليوم الثاني من وزارته ، وهو يوم الأربعاء ، وفوضت الأمور اليه ، وقبض على حامد بن العباس .

واستوزر علي بن محمد بن الفرات ، وهي الثالثة من وزارته ، وقد كان ولده محسن بن علي هو الغالب على الأمور في هذه الوزارة ، فأتى على جماعة من الكتاب ثم قبض عليه وعلى ولده ، على حسب ما قدمنا من خبرهما في صدر هذا الباب .

واستوزر المقتدر عبد الله بن محمد بن عبيد الله الخاقاني .

ثم استوزر بعده أحمد بن عبيد الله الخصيبي .

ثم استوزر علي بن عيسى ثانية .

ثم استوزر أبا علي محمد بن علي بن مقلة.

ثم استوزر بعده سليمان بن الحسن بن مخلد .

ثم استوزر بعده عبيد الله بن محمد الكلواذي .

ثم استوزر بعده الحسين بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وهو المقتول بالرقة .

ثم استوزر بعده الفضل بن جعفر بن موسى بن الفرات .

مقتل المقتدر

وقتل المقتدر بالله ببغداد وقت صلاة العصر يوم الأربعاء لثلاث ليال بقين من شوال سنة عشرين وثلثمائة .

وكان قتله في الوقعة التي كانت بينه وبين مؤنس الخادم بباب الشماسية من الجانب الشرقي .

وتولى دفن المقتدر العامة ، وكان وزيره في ذلك اليوم أبا الفتح الفضل بن جعفر بن موسى بن الفرات ، على حسب ما ذكرنا .

وذكر أن الفضل أخذ الطالع في وقت ركوب المقتدر بالله الى الوقعة التي قتل فيها ، فقال له المقتدر : أي وقت هو ؟

فقال : وقت الزوال .

فقطب له المقتدر وأراد ألا يخرج حتى أشرفت عليه خيل مؤنس ، فكان آخر العهد به

من ذلك الوقت .

السادس من بني العباس

وكل سادس من خلفاء بني العباس مخلوع مقتول ، فكان السادس منهم محمد بن هارون المخلوع ، والسادس الآخر : المستعين ، والسادس الآخر : المقتدر بالله .

وللمقتدر أخبار حسان ، وما كان في أيامه من الحروب والوقائع ، وأخبار ابن أبي الساج ، وأخبار مؤنس ، وأخبار سليمان بن الحسن الجماني ، وما كان منه بمكة في سنة سبع عشرة وثلثمائة وغيرها ، وما كان في المشرق والمغرب .

وقد أتينا على جميع ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » مفصلا ، وفي الكتاب الأوسط مجملا ، وذكرنا منه في هذا الكتاب لمعا .

وأرجو أن يفسح الله لنا في البقاء ، ويمد لنا في العمر ، ويسعدنا بطول الأيام ، فنعقب تأليف هذا الكتاب بكتاب آخر نضمنه فنون الأخبار ، وأنواعا من طرائف الآثار ، على غير نظم من تأليف ولا ترتيب من تصنيف على حسب ما يسنح من فوائد الأخبار ، ويوجد من نوادر الآثار ، وتترجمه بكتاب « وصل المجالس بجوامع الأخبار ومخلط الآداب » تاليا لما سلف من كتبنا ، ولاحقا لما تقدم من تصنيفنا .

وفاة موسى بن اسحاق الانصاري

وكانت وفاة موسى بن اسحاق الأنصاري القاضي في خلافة المقتدر ، وذلك في سنة سبع وتسعين ومائتين ، ومحمد بن عثمان بن أبي شيبة الفقيه الكوفي ، ودفن في الجانب الشرقي ، وكان هذان من علماء أهل الحديث وكبار أهل النقل .

غرق البيت الحرام

وورد الخبر الى مدينة السلام ، بأن أركان البيت الحرام الأربعة غرقت ، حتى عم الغرق الطواف وفاضت بئر زمزم ، وأن ذلك لم يعهدوه فيما سلف من الزمان .

وفيات

وفيها كانت وفاة يوسف بن يعقوب بن اسماعيل بن حماد القاضي ، وذلك في شهر رمضان بمدينة السلام ، وهو ابن خمس وتسعين سنة .

وقيل : ان في هذه السنة كانت وفاة محمد بن داود بن علي بن خلف الأصبهاني الفقيه ، وقد قدمنا ذكره ، وأن وفاته كانت في سنة ست وتسعين ومائتين ، وانما حكينا الخلاف في ذلك .

وفي هذه السنة (وهي سنة سبع وتسعين ومائتين) كانت وفاة ابن أبي عوف

البروري ، المعدل ببغداد ، وذلك في شوال ، وهو ابن نيف وثمانين سنة ، ودفن في الجانب الغربي .

وانما نذكر هؤلاء لنقلهم السنن ، واشتهارهم بذلك ، وحاجة أهل العلم وأصحاب الآثار الى معرفة وقت وفاتهم .

وفيها مات أبو العباس أحمد بن مسروق المحدث ، وهو ابن اربع وثمانين سنة ، ودفن بباب آل حرب من الجانب الغربي .

وقد قدمنا في هذا الكتاب أخبار من ظهر من آل أبي طالب في أيام بني أمية وبني العباس ، وفي غيره مما سلف من كتبنا ، وما كان من أمرهم من قتل أو حبس أو حرب .

ظهور طالبي في مصر

وقد كان ظهر بصعيد مصر أحمد بن محمد بن عبد الله بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، فقتله أحمد بن طولون ، بعد أقاصيص قد أتينا عليها فيما سلف من كتبنا .

وانما نذكر من ظهر من آل أبي طالب واللمع من أخبارهم في هذا الكتاب لاشتراطنا فيه على أنفسنا ، من ايراد ذكرهم ومقاتلهم ، وغير ذلك من أخبارهم منذ قتل أمير المؤمنين الى الوقت الذي ينتهي اليه تصنيفنا لهذا الكتاب .

وفاة الرسي

وكانت وفاة يحيى بن الحسين الحسني الرسي بعد أن قطن بمدينة صعدة من أرض اليمن في سنة ثمان وسبعين ومائتين ، وقام بعده ولده الحسن بن يحيى .

ظهور ابن الرضا

وكان ظهور ابن الرضا ـ وهو محسن بن جعفر بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد ـ في أعمال دمشق سنة ثلثمائة ، وكانت له مع أبي العباس أحمد بن كيغلغ وقعة فقتل صبرا ، وقيل : قتل في المعركة ، وحمل رأسه الى مدينة السلام فنصب على الجسر الجديد بالجانب الغربي .

ظهور الأطروش العلوي

وظهر ببلاد طبرستان والديلم الأطروش ـ وهو الحسن بن علي ـ وأخرج عنها المسودة ، وذلك في سنة احدى وثلثمائة ، وقد كان ذا فهم وعلم ومعرفة بالآراء والنحل ، وقد كان أقام في الديلم سنين ، وهم كفار على دين المجوسية ، ومنهم جاهلية ، وكذلك الجيل ، فدعاهم الى الله عز وجل فاستجابوا وأسلموا .

وقد كان للمسلمين بازائهم ثغور مثل قزوين وغيرها ، وبنى في الديلم مساجد .

والديلم : زعم كثير من الناس من ذوي المعرفة بالنسب أنهم من ولد باسل بن ضبة بن أدد ، وأن الجيل من تميم .

وقد قيل : ان دخول الأطروش الى طبرستان كان في أول يوم من المحرم سنة احدى وثلثمائة ، وان في هذا اليوم دخل صاحب البحرين البصرة ، وقتل أميرها طمسك المفلحي .

وقد أتينا على خبر الأطروش العلوي وخبر ولده وخبر أبي محمد الحسن بن القاسم الحسني الداعي واستيلائه على طبرستان ومقتله ، وما كان من الجيل والديلم في أمره في كتابنا « أخبار الزمان » .

وفيات

وكانت وفاة أبي العباس أحمد بن عمر بن سريج القاضي في سنة ست وثلثمائة .

وكانت وفاة أبي جعفر محمد بن جرير الطبري الفقيه ببغداد في سنة عشر وثلثمائة .

وكانت وفاة أبي اسحاق ابراهيم بن جابر القاضي بحلب .

وأدخل الليث بن علي بن الليث ابن أخي الصفار الى مدينة السلام على الفيل في سنة سبع وتسعين ومائتين وقدامه الجيش وحوله ، وقد شهر ، وقيل : ان الليث أدخل الى مدينة السلام في سنة ثمان وتسعين ومائتين .

وفي هذه السنة (وهي سنة ثمان وتسعين ومائتين) مات ببغداد أبو بكر محمد بن سليمان المروزي ، المحدث ، صاحب الجاحظ ، وقيل أيضا : ان وفاته كانت في سنة ثمان وتسعين .

أحداث

وفي هذه السنة كان دخول فارس صاحب مراكب الروم وحربها الى ساحل الشام ، فافتتح حصن القبة بعد حرب طويل ، وعدم مغيث يغيثهم من المسلمين .

وافتتح مدينة اللاذقية فسبى منها خلقا كثيرا .

ووقع بالكوفة برد عظيم الواحدة رطل بالبغدادي ، وريح مظلمة ، وذلك في شهر رمضان ، وانهدم كثير من المنازل والبنيان ، وكان فيها رجفة عظيمة هلك فيها خلق كثير من الناس . . . هذا كان بالكوفة في سنة تسع وتسعين ومائتين ، وكان بمصر في هذه السنة زلزلة عظيمة ، وفيها طلع نجم الذنب .

وفيها غزا دمنانة صاحب الغزو بالبحر الرومي في مراكب المسلمين جزيرة قبرص ، وقد كانوا نقضوا العهد الذي كان في صدر الاسلام : ألا يعينوا الروم على المسلمين ولا المسلمين على الروم ، وأن خراجه نصفه للمسلمين ونصفه للروم .

وأقام دمنانة في هذه الجزيرة أربعة أشهر يسبي ويحرق ويفتح مواضع قد تحصن فيها ، وقد أتينا على خبر هذه الجزيرة فيما سلف من هذا الكتاب عند اخبارنا عن جمل البحار ومبادي الأنهار ومطارحها ، فمنع ذلك من اعادة وصفها .

موت ابن ناجية

وفي سنة احدى وثلثمائة مات عبد الله بن ناجية المحدث بمدينة السلام ، وكان مولده في سنة اثنتي عشرة ومائتين .

ابن الجصاص

وكان القبض على ابن الجصاص الجوهري بمدينة السلام في سنة اثنتين وثلثمائة ، والذي صح مما قبض من ماله من العين والورق والجوهر والفرش والثياب والمستغلات خمسة آلاف ألف وخمسمائة ألف دينار .

وفاة القاسم بن الحسن بن الاشيب

وفيها مات القاسم بن الحسن بن الأشيب - ويكنى أبا محمد - يوم الاثنين لليلتين بقيتا من جمادى الأولى ، وكان من كبار العلماء والمحدثين ، ودفن في الجانب الغربي في الشارع المعروف بشارع الحمالين ، وحضر جنازته محمد بن يوسف القاضي ، وأبو جعفر أحمد بن اسحاق بن البهلول القاضي ، وغيرهما من الفقهاء والعدول والكتاب وأهل الدولة ، وهو أبو أبي عمران موسى بن القاسم بن الحسن المعروف بابن الأشيب ، وهو كبير من فقهاء الشافعيين في هذا الوقت .

غارة البربر على مصر

وفي هذه السنة (وهي سنة اثنتين وثلثمائة) ورد الجيش من الغرب ، فكان لأهل مصر من أصحاب السلطان معهم بمصر حروب عظيمة ، وقتل فيها خلق كثير ، واستأمن رجل من وجوه البرابرة يعرف بأبي جرة الى السلطان ، وسار الى مدينة السلام ، فخلع عليه .

ابن أبي الساج

وفي سنة سبع وثلثمائة أدخل يوسف بن أبي الساج الى مدينة السلام ، وقد شهر على الجمل الفالج وعليه دراعة الديباج التي لبسها عمرو بن الليث ووصيف الخادم ، وعلى رأسه برنس طويل بشقائق وجلاجل ، وحوله الجيوش ومؤنس الخادم وراءه مع سائر أرباب الدولة من أصحاب السيوف .

وقد أتينا على خبر هذه الوقعة التي أسر فيها مؤنس الخادم ابن أبي الساج بناحية أردبيل ، ومن حضرها من الأمراء مثل ابن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان ، وعلي بن

حسان ، وأبي الفضل المروي ، وأحمد بن علي أخي صعلوك وغيرهم من الأمراء والقواد .

وذكرنا تخلية المقتدر لابن أبي الساج ، وخروجه من ديار ربيعة ومضر ومسيره الى أعماله من بلاد أذربيجان وأرمينية .

وما كان من غلامه سبك واستيلائه على عمل مولاه ومفارقته الفارقي .

وما كان من سائر أخبار ابن أبي الساج ومسيره الى واسط ، ثم مسيرة الى الكوفة .

وما كان من خبره في حربه لأبي طاهر سليمان بن الحسن الجنابي وأسره اياه وقتله له نحو الأنبار وهيت حين أشرف على سواده بليق ونظيف غلام ابن أبي الساج .

وما كان في هذه الوقعة وهزمه لبليق ونظيف ، ومسير القرمطي ونزوله على هيت ، وغير ذلك ، وذلك في سنة خمس عشرة وثلثمائة ، فيما سلف من كتبنا .

وكذلك ذكرنا ما كان من مؤنّس الخادم ، ومن كان معه من أولياء السلطان من القتال لجيش صاحب المغرب بمصر ، وذلك في سنة تسع وثلثمائة .

ذكر خلافة القاهر بالله
محمد بن أحمد المعتضد

موجز

وبويع القاهر محمد بن أحمد المعتضد بالله يوم الخميس لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلثمائة .

ثم خلع يوم الأربعاء لخمس خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة ، وسملت عيناه .

وكانت خلافته سنة وستة أشهر وستة أيام ، ويكنى بأبي منصور ، وأمه أم ولد .

ذكر جمل من أخباره وسيره
ولمع مما كان في أيامه

وزراؤه

واستوزر القاهر أبا علي محمد بن علي بن مقلة في سنة احدى وعشرين وثلثمائة ثم عزله .

واستوزر أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان ثم عزله .

واستوزر أبا العباس أحمد بن عبيد الله الخصيبي .

أخلاقه

وكانت أخلاقه لا تكاد تحصل ، لتقلبه وتلونه ، وكان شهما شديد البطش بأعدائه ، وأباد جماعة من أهل الدولة ، منهم مؤنس الخادم ، وبليق ، وعلي بن بليق ، فهابه الناس وخشوا صولته .

واتخذ حربة عظيمة يحملها في يده اذا سعى في داره ويطرحها بين يديه في حال جلوسه ، ويباشر الضرب بتلك الحربة لمن يريد قتله .

فسكن من كان يستعمل على من قبله من الخلفاء التشغب والتوثب عليهم .

وكان قليل التثبت في أمره ، مخوف السطوة ، فأداه ما وصفنا من فعله الى أن احتيل عليه في داره فقبض عليه ، وسملت كلتا عينيه وهو حي في هذا الوقت في الجانب الغربي في دار ابن طاهر ، على ما نمي الينا من خبره واتصل بنا من أمره .

وذلك أن الراضي بالله غيب خبره وقطع ذكره ، فلما بويع ابراهيم المتقي بالله أصيب

القاهر معتقلا في بعض المقاصير ، فأمر به الى دار ابن طاهر ، فاعتقل بها الى هذه الغاية على ما وصفنا .

الخراساني الأخباري
يصف الخلفاء العباسيين للقاهر بالله

وذكر محمد بن علي العبدي الخراساني الأخباري ، وكان القاهر به آنسا ، قال : خلا بي القاهر فقال : اصدقني أو هذه (وأشار اليَّ بالحربة) فرأيت والله الموت عيانا بيني وبينه .

فقلت : أصدقك يا أمير المؤمنين .

فقال لي : انظر (يقولها ثلاثا) .

فقلت : نعم يا أمير المؤمنين .

قال : عما أسألك عنه ، ولا تغيب عني شيئا ، ولا تحسن القصة ، ولا تسجع فيها ، ولا تسقط منها شيئا .

قلت : نعم يا أمير المؤمنين .

قال : أنت علامة بأخبار خلفاء بني العباس ، أخلاقهم وشيمهم من أبي العباس السفاح من دونه .

فقلت : على أن لي الأمان يا أمير المؤمنين .

قال : ذلك لك .

وصف السفاح

قال : قلت : أما أبو العباس السفاح ، فكان سريعا الى سفك الدماء ، واتبعه عماله في الشرق والغرب في فعله ، واستنوا بسيرته ، مثل محمد بن الأشعث بالمغرب ، وصالح بن علي بمصر ، وخازم بن خزيمة ، وحميد بن قحطبة ، وكان مع ذلك بحرا سمحا وصولا جوادا بالمال ، وسلك من ذكرنا من عماله وغيرهم ممن كان في عصره سبيله ، وذهبوا مذهبه ، مؤتمين به .

وصف المنصور

قال : وأخبرني عن المنصور ؟

قلت : الصدق يا أمير المؤمنين ؟

قال : الصدق .

قلت : كان والله أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس بن عبد المطلب وبين آل أبي

طالب ، وقد كان قبل ذلك أمرهم واحدا ، وكان أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم ، وكان معه نوبخت المجوسي المنجم ، وأسلم على يديه ، وهو أبو هؤلاء النوبختية ، وابراهيم الفزاري المنجم ، صاحب القصيدة في النجوم ، وغير ذلك من علوم النجوم وهيئة الفلك ، وعلي بن عيسى الاسطرلابي المنجم .

وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية الى العربية ، منها : كتاب « كليلة ودمنة » ، وكتاب « السند هند » ، وترجمت له كتب أرسطاطاليس ، من المنطقيات وغيرها ، وترجم له كتاب « المجسطي » لبطليموس ، وكتاب « الأرثماطيقي » ، وكتاب « اقليدس » وسائر الكتب القديمة من اليونانية ، والرومية ، والفهلوية ، والفارسية ، والسريانية ، وأخرجت الى الناس ، فنظروا فيها ، وتعلقوا الى عملها .

وفي أيامه وضع محمد بن اسحاق كتاب « المغازي والسير ، وأخبار المبتدأ » ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة ولا مصنفة .

وكان أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه في أعماله وصرفهم في مهماته ، وقدمهم على العرب ، فامتثل ذلك الخلفاء من بعده من ولده ، فسقطت وبادت العرب ، وزال بأسها ، وذهبت مراتبها ، وأفضت الخلافة اليه ، وقد نظر في العلم ، وقرأ المذاهب ، وارتاض في الآراء ، ووقف على النحل ، وكتب الحديث ، فكثرت في أيامه روايات الناس ، واتسعت عليهم علومهم .

قال القاهر : قد قلت فأحسنت ، وعبرت فبينت ، فأخبرني عن المهدي كيف كانت أخلاقه ؟

وصف المهدي

قلت : كان سمحا سخياً كريما جوادا ، فسلك الناس في عصره سبيله ، وذهبوا في أمرهم مذهبه ، واتسعوا في مساعيهم ، وكان من فعله في ركوبه أن يحمل معه بدر الدنانير والدراهم ، فلا يسأله أحد الا أعطاه ، وان سكت ابتدأه المفرق بين يديه ، وقد تقدم بذلك اليه ، وأمعن في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه ، واعلانهم باعتقاداتهم في خلافته ، لما انتشر من كتب ماني وابن ديصان ، ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع ، وغيره ، وترجمت من الفارسية والفهلوية الى العربية ، وما صنفه في ذلك ابن أبي العرجاء ، وحماد عجرد ، ويحيى بن زياد ، ومطيع بن اياس : من تأييد المذاهب المانية ، والديصانية ، والمرقيونية ، فكثر بذلك الزنادقة ، وظهرت آراؤهم في الناس .

وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على

الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم ، وأقاموا البراهينَ على المعاندين ، وأزالوا شبه الملحدين ، فأوضحوا الحق للشاكين ، وشرع في بناء المسجد الحوام ، ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم على ما هما عليه الى هذه الغاية ، وبنى بيت المقدس ، وقد كانت هدمته الزلازل .

وصف الهادي

قال : فأخبرني عن الهادي على قصر أيامه كيف كانت أخلاقه وشيمه ؟

قلت : كان جبارا عظيما ، وأول من مست الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة ، والأعمدة المشهورة ، والقسي الموتورة ، فسلكت عماله طريقته ، ويمموا منهجه ، وكثر السلاح في عصره .

قال : لقد أجدت في وصفك ، وبالغت فيما ذكرت من قولك ، فأخبرني عن الرشيد كيف كانت طريقته ؟

وصف الرشيد

قلت : كان مواظبا على الحج ، متابعا للغزو ، واتخاذ المصانع والآبار والبرك والقصور في طريق مكة ، وأظهر ذلك بها وبمنى وعرفات ، ومدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، فعم الناس احسانه ، مع ما قرن به من عدله ، ثم بنى الثغور ، ومدن المدن ، وحصن فيها الحصون ، مثل طرسوس وأذنة ، وعمر المصيصة ومرعش ، وأحكم بناء الحرب ، وغير ذلك من دور السبيل والمواضع للمرابطين ، واتبعه عماله ، وسلكوا طريقته ، وقفته رعيته مقتدية بعمله ، مستندة بامامته ، فقمع الباطل ، وأظهر الحق ، وأنار الأعلام ، وبرز على سائر الأمم .

وكان أحسن الناس في أيامه فعلا أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور لما أحدثته من بناء دور السبيل بمكة واتخاذ المصانع والبرك والآبار بمكة ، وطريقها المعروفة الى هذه الغاية ، وما أحدثته من الدور للتسبيل بالثغر الشامي وطرسوس ، وما أوقفت على ذلك من الوقوف ، وما ظهر في أيامه من فعل البرامكة وجودهم وافضالهم وما اشتهر عنهم من أفعالهم .

وكان الرشيد أول خليفة لعب بالصولجان في الميدان ورمى بالنشاب في البرجاس ، ولعب بالأكرة والطبطاب ، وقرب الحذاق في ذلك ، فعم الناس ذلك الفعل .

وكان أول من لعب بالشطرنج من خلفاء بني العباس ، وبالنرد وقدم اللعاب ، وأجرى عليهم الرزق ، فسمى الناس أيامه ـ لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها ـ أيام العروس ، وكثير مما يجاوز النعت ويتفاوت فيه الوصف .

وصف ام جعفر
زبيدة بنت جعفر بن المنصور

قال القاهر : فأراك قد قصرت في تفصيل أفعال أم جعفر ، فلم ذلك ؟

قلت : يا أمير المؤمنين ميلا الى الاقتصار ، وطلبا للايجاز .

قال : فتناول الحربة وهزها ، فرأيت الموت الأحمر في طرفها ، ثم برق عينيه مع ذلك فاستسلمت ، وقلت : هذا ملك الموت ، ولم أشك أنه يقبض روحي . فأهوى بها نحوي ، فزغت منها ، فاسترجع وقد أخطأتني .

فقال : ويلك ! أبغضت ما فيه عيناك ، ومللت الحياة ؟

قلت : ما هو يا أمير المؤمنين ؟

قال : أخبار أم جعفر زدني منها .

قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، كان من فعلها وحسن سيرتها في الجد والهزل ما برزت فيه على غيرها ، فأما الجد والآثار الجميلة التي لم يكن في الاسلام مثلها مثل حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز ، فانها حفرتها ، ومهدت الطريق لمائها في كل خفض ورفع وسهل وجبل ووعر ، حتى أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلا الى مكة ، فكان جملة ما أنفقت عليها ـ مما ذكر وأحصى ـ ألف ألف وسبعمائة ألف دينار ، وما قدمت ذكره من المصانع والدور والبرك والآبار بالحجاز والثغور ، وانفاقها الألوف على ذلك ، دون ما كان في وقتها من البذل ، وما عم أهل الفاقة من المعروف والخصب .

وأما الوجه الثاني ـ مما تتباهى به الملوك في أعمالهم ، وينعمون به في أيامهم ، ويصونون به دولهم ، ويدون في أفعالهم وسيرهم ـ فهو أنها أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر ، وصنع لها الرفيع من الوشي ، حتى بلغ الثوب من الوشي الذي اتخذ لها خمسين دينار .

وهي أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري ، يختلفون على الدواب في جهاتها ، ويذهبون في حوائجها برسائلها وكتبها ، وأول من اتخذ القباب من الفضة والآبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق ، واتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر وشمع العنبر ، وتشبه الناس في سائر أفعالهم بأم جعفر .

ولما أفضى الأمر الى ولدها يا أمير المؤمنين قدم الخدم وآثرهم ، ورفع منازلهم ، ككوثر وغيره من خدمه ، فلما رأت أم جعفر شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت الجواري

المقدودات الحسان الوجوه ، وعممت رؤوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداغ والاقفية ، وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق ، فماست قدودهن ، وبرزت أردافهن ، وبعثت بهن اليه ، فاختلفن في يديه ، فاستحسنهن واجتذبن قلبه اليهن ، وأبرزهن للناس ، من الخاصة والعامة ، واتخذ الناس من الخاصة والعامة الجواري المطمومات ، وألبسوهن الأقبية والمناطق ، وسموهن الغلاميات .

فلما سمع القاهر ذلك الوصف ذهب به الفرح والطرب والسرور ، ونادى بأعلى صوته : يا غلام ، قدح على وصف الغلاميات .

فبادر اليه جوار كثيرة قدهن واحد ، توهمتهن غلمانا بالقراطق والأقبية والطرر والأقفية ومناطق الذهب والفضة ، فأخذ الكأس بيده ، فأقبلت أتأمل صفاء جوهر الكأس ونورية الشراب ، وشعاعه ، وحسن أولئك الجواري ، والحربة بين يديه ، وأسرع في شربه ، فقال : هيه .

وصف المأمون

فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ، ثم أفضى الأمر الى المأمون ، فكان في بدء أمره ـ لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره ـ يستعمل النظر في أحكام النجوم وقضاياها ، وينقاد الى موجباتها ، ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كأردشير بن بابك وغيره ، واجتهد في قراءة الكتب القديمة ، وأمعن في درسها ، وواظب على قراءتها ، فافتن في فهمها ، وبلغ درايتها .

فلما كان من الفضل بن سهل ذي الرياستين ما اشتهر وقدم العراق انصرف عن ذلك كله ، وأظهر القول بالتوحيد والوعد والوعيد ، وجالس المتكلمين ، وقرب اليه كثيرا من الجدليين المبرزين والمناظرين كأبي الهذيل وأبي اسحاق ابراهيم بن سيار النظام وغيرهم ممن وافقهم وخالفهم ، وألزم مجلسه الفقهاء ، وأهل المعرفة من الأدباء ، وأقدمهم من الأمصار ، وأجرى عليهم الأرزاق ، فرغب النظار في صنعة النظر ، وتعلموا البحث والجدل ، ووضع كل فريق منهم كتبا ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله .

وكان أكثر الناس عفوا ، وأشدهم احتمالا ، وأحسنهم مقدرة ، وأجودهم بالمال الرغيب ، وأبذلهم للعطايا ، وأبعدهم من التسافه ، واتبعه وزراؤه وأصحابه في فعله ، وسلكوا سبيله ، وذهبوا مذهبه .

وصف المعتصم

ثم المعتصم ، فانه يا أمير المؤمنين سلك في النحلة رأي أخيه المأمون ، وغلب عليه حب الفروسية ، والتشبه بالملوك الأعاجم في الآلة ، ولبس القلانس والشاشيات فلبسها

الناس اقتداء بفعله ، وائتماما به ، فسميت المعتصميات ، وعم الناس افضاله وأمنت به السبل في أيامه ، وشمل الناس احسانه .

وصف الواثق

ثم هارون بن محمد الواثق ، فانه اتبع ديانة أبيه ، وعمه ، وعاقب المخالف ، وامتحن الناس ، وكثر معروفه ، وأمر القضاة في سائر الأمصار ألا يقبلوا شهادة من خالفه ، وكان كثير الأكل واسع العطاء ، سهل الانقياد ، متحببا الى رعيته .

وصف المتوكل

ثم المتوكل يا أمير المؤمنين ، فانه خالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد ، ونهى عن الجدل والمناظرة في الآراء وعاقب عليه ، وأمر بالتقليد ، وأظهر الرواية للحديث ، فحسنت أيامه ، وانتظمت دولته ، ودام ملكه ، وغير ذلك يا أمير المؤمنين مما اشتهر من أخلاقه .

قال القاهر : قد سمعت كلامك وكأني مشاهد للقوم على ما وصفت ، معاين لهم فيما ذكرت ، ولقد سرني ما سمعت منك ، ولقد فتحت أبواب السياسة ، وأخبرت عن طريق الرياسة ، ثم أمر لي بجائزة عجل لي عطاءها في وقتها ، ثم قال لي : اذا شئت فقم ، فقمت .

وقام على أثري بحربته ، فخيل والله لي أنه يرميني بها من ورائي ، ثم عطف نحو دار الخدم ، فما مضت الا أيام يسيرة حتى كان من أمره ما ظهر .

قال المسعودي : وهذا الرجل الذي أخبرت عنه بهذا الحديث له أخبار حسان وهو حي يرزق الى هذه الغاية ، وهي سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة ، مداحا للملوك ، معاشرا لأهل الرياسات ، حسن الفهم ، جيد الرأي .

وفاة ابن دريد

وفي خلافة القاهر بالله ، وهي سنة احدى وعشرين وثلثمائة ، كانت وفاة أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد ببغداد . وكان ممن قد برع في زمننا هذا في الشعر ، وانتهى في اللغة ، وقام مقام الخليل بن أحمد فيها ، وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين ، وكان يذهب في الشعر كل مذهب ، فطورا يجزل . وطورا يرق ، وشعره أكثر من أن نحصيه أو يأتي عليه كتابنا هذا ، فمن جيد شعره قصيدته المقصورة التي مدح بها الشاه بن ميكال ، ويقال إنه أحاط فيها بأكثر المقصور وأولها :

اما ترى رأسي حاكى لونه   طرة صبح تحت أذيال الدجى

واشتعـــل المبيض فـــي مسوده مثل اشتعال النار في جزل الغضى

ومنها :

ان الجـــديديـــن اذا مـــا استوليا علـــى جديـــد أدنياه للبلى

وفيها يقول :

لســـت اذا ما أبهظتنـــي غمرة ممـــن يقـــول : بلـــغ السيل الزبى

ومنها :

وان ثوت بـــين ضلـــوعـــي زفـــرة تمـــلأ ما بـــين الرجـــا الى الرجا

وقد عارضه في هذه القصيدة المقصورة جماعة من الشعراء ، منهم أبو القاسم علي بن محمد بن داود بن فهم التنوخي الأنطاكي ، وهو في وقتنا هذا (وهو سنـة اثنتـين وثلاثـين وثلثمائة) بالبصرة في جملة البريديين ، وأول قصيدته المقصورة التي يمدح فيها تنوخ وقومه من قضاعة :

لولا انتهائـي لـم أطـع نهـي النهى أي مدى يطلـــب من جاز المدى
ان كنـــت أقصرت فما أقصر قلـ ب داميا تدميه ألحـــاظ الدمى
ومقلـــة ان مقلـــت أهـــل الغضا أغضت وفي أجفانهـا جمـر الغضى

وفيها يقول :

وكم ظبـــاء رعيهـــا ألحاظها أسرع في الأنفس من حد الظبى
أسرع من حرف الى جر ، ومن حـــب الى حبـــة قلـــب وحشى
قضاعـــة بـــن مالك بـــن حمير ما بعـــده للمرتقـــين مرتقـــى

وقد سبق الى المقصورة أبو المقاتل نصر بن نصير الحلواني في محمد بن زيد الداعـي

الحسني بطبرستان بقوله :

قفـا خليلي على تلك الربـى   وسائلاهـا أين هاتيك الدمى ؟
أين اللواتـي ربعـت ربوعهـا   عليك باستنجادهـا تشفـى

ولابن ورقاء في المقصورة أيضا :

ما شئـت قل هي المهـا هي القنا   جواهـر بكين أعطـاف الدمى

وممن تأخر موته بعد موت ابن دريد العماني أبو عبد الله المفجع ، وكان كاتبا شاعرا بصيرا بالغريب ، وهو صاحب الباهلي المصري الذي كان يناقض ابن دريد ، فمما جود فيه المفجع قوله :

ألا طـرب الفـؤاد الـى ردين   ودون مـزارهـا ذو الجلهتـين
ألـم خيالهـا وهنـا برحلـي   فولى رعيـة الشرطـين عيني

وقد أتينا على ما كان في أيام القاهر ـ مع قصر مدته ـ من الكوائن في الكتاب الأوسط ، فمنع ذلك من ذكره في هذا الكتاب .

ذكر خلافة الرّاضي بالله
محمّد بن جَعْفر المقتَدِر

موجز

وبويع الراضي بالله محمد بن جعفر المقتدر ، ويكنى أبا العباس ، يوم الخميس لست خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة .

فأقام في الخلافة الى أن مضى من ربيع الأول عشرة أيام ، سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، ومات حتف أنفه بمدينة السلام .

وكانت خلافته ست سنين واحد عشر شهرا وثلاثة أيام ، وأمه أم ولد يقال لها ظلوم .

ذكر جمل من أخباره وسيره
ولمع مما كان في أيامه

وزراؤه

واستوزر الراضي أبا علي محمد بن علي بن مقلة ، ثم استوزر أبا علي عبد الرحمن بن عيسى بن داود بن الجراح ، ثم أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخي ، ثم أبا القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد ، ثم أبا الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات ، ثم أبا عبد الرحمن بن محمد البريدي .

من شعر الراضي

وكان الراضي أديبا شاعرا ظريفا ، وله أشعار حسان في معان مختلفة ، ان لم يكن ضاهى بها ابن المعتز فما نقص عنه ، فمن ذلك قوله في وصف حاله وحال معشوقه اذا التقيا :

يصفر وجهي اذا تأمله ... طرفي ، ويحمر وجهه خجلا
حتى كأن الذي بوجنته ... من دم وجهي اليه قد نقلا

ومن جيد شعره قوله :

يا رب ليل قد دنا مزاره ... يسترني ومؤنسي أزراره
ساق مليح القد كدجاره ... سراجه ، ووجهه مناره

يشـهـد لـي ببـذلـه زناره　　تـاه بخـد ظهـر احمراره
ماس مـع الحمـرة جلنـاره　　أي كثيب قد حوى ازاره ؟
وأي غصـن ضـمـنـت أزاره　　طوع الـكـؤوس ، غره عـذاره
اخفـاؤه تعتـاده أمـراؤه　　لا كان لهـو لم يشـر غباره

وقد كان أبو بكر الصولي يروي كثيرا من أشعار الراضي ، ويذكر حسن أخلاقه وجميل أخباره ، وارتياضه بالعلم وفنون الأدب ، واشرافه على علوم المتقدمين ، وخوضه في بحار الجدليين من أهل الدراية والمتفلسفين .

من محاسن الصولي
أبي بكر

وذكر أن الراضي رأى في بعض متنزهاته بالثريا بستانا مونقا ، وزهرا رائقا ، فقال لمن حضر من ندمائه : هل رأيتم أحسن من هذا ؟

فكل قال أشياء ذهب فيها الى مدحه ووصف محاسنه ، وأنها لا يفي بها شيء من زهرات الدنيا .

فقال : لعب الصولي بالشطرنج والله أحسن من هذا الزهر ومن كل ما تصفون .

وذكر أن الصولي في بدء دخوله الى المكتفي وقد كان ذكر له بجودة لعبه الشطرنج ، وكان الماوردي اللاعب مقدما عنده ، متمكنا من قلبه معجبا بلعبه ، فلعبا جميعا بحضرة المكتفي ، فحمل المكتفي حسن رأيه في الماوردي وتقدم الحرمة والألفة على نصرته وتشجيعه حتى أدهش ذلك الصولي في أول وهلة .

فلما اتصل اللعب بينهما وجمع له الصولي غايته وقصد قصده ، غلبه غلبا لا يكاد يرد عليه شيئا ، وتبين حسن لعبه للمكتفي ، فعدل عن هواه ونصره للماوردي ، وقال له : صار ماء وردك بولا .

قال المسعودي : وقد تناهى بنا الكلام وتغلغل بنا التصنيف الى جمل من أخبار الشطرنج ، وما قيل فيها ، مع ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا لأخبار الهند ومبادىء اللعب بالشطرنج والنرد ، واتصال ذلك بالأجسام العلوية والأجرام السماوية ، فلنذكر جملا مما ذكر في ذلك ، مما لم يتقدم له ذكر فيما سلف من هذا الكتاب .

الخليل بن احمد

وذكر عمرو بن بحر الجاحظ في كتابه في تفضيل صنعة الكلام ، وهي الرسالة المعروفة

بالهاشمية ، أن الخليل بن أحمد من أجل احسانه في النحو والعروض وضع كتابا في الايقاع وتراكيب الأصوات ، وهو لم يعالج وتراقط ، ولامس بيده قضيبا قط ، ولا كثرت مشاهدته للمغنين ، وكتب كتابا في الكلام ، ولو جهد كل بليغ في الأرض أن يتعمد ذلك الخطأ والتعقيد لما وقع له ، ولو أن ممرورا استغرق قوى مرته في الهذيان لما تهيأ له مثل ذلك منه ، ولا يتأتى مثل ذلك لأحد الا بخذلان الذي لا يقي منه شيء .

قال الجاحظ : ولولا أن أسخف الكتاب وأهجر الرسالة وأخرجها من حد الجد الى الهزل حكيت صدر كتابه في التوحيد وبعض ما وصفه في العدل .

انواع آلات الشطرنج

قال : ولم يرض بذلك حتى عمد الى الشطرنج فزاده في الدولاب حملا ، فلعبت به أناس من حاشية الشطرنجيين ، ثم رموا به .

وقد ذكر الناس ممن سلف وخلف أن جميع آلات الشطرنج على اختلاف هيئاتها ست صور لم يظهر في اللعب غيرها ، فأولها الآلة المربعة المشهورة ، وهي ثمانية أبيات في مثلها ، ونسبت الى قدماء الهند ، ثم الآلة المستطيلة وأبياتها أربعة في ستة عشر .

والأمثلة تنصب فيها في أول وهلة في أربعة صفوف من كلا الوجهين ، حتى تكون الدواب منها في صفين .

والبيادق أيضا أمامها صفين ، ومسيرها كمسير أمثلة الصورة الأولى .

والآلة المربعة ، وهي عشرة في مثلها ، والزيادة في أمثلتهاقطعتان تسميان الدبابتين ، ومسيرهما كمسير الشاه الا أنهما يأخذان ويؤخذان .

ثم الآلة المدورة المنسوبة الى الروم .

ثم الآلة المدورة النجومية التي تسمى الفلكية ، وأبياتها اثنا عشر على عدد بروج الفلك مقسومة نصفين ، وينقل فيها سبعة أمثلة مختلفة الألوان على عدد الخمسة الأنجم والنيرين وعلى ألوانهما .

وقد بينا فيما سلف من أخبار الهند كيفية اتصالها بالأجسام السماوية ، وما قيل في عشقها للأشخاص العلوية ، وأن تحرك الفلك لعشقه لما فوقه ، وقولهم في النفس ونزولها عن عالم العقل الى عالم الحس حتى نسيت بعد الذكر وجهلت بعد العلم ، وغير ذلك من تخاليطهم مما يتصل علمه عندهم بمنصوبات الشطرنج .

ثم آلة أخرى تسمى الجوارحية ، استحدثت في زماننا هذا ، وهي سبعة أبيات في ثمانية ، وأمثلتها اثنا عشر في كل جهة منها ستة ، كل واحد من الستة يسمى باسم جارحة من

جوارح الانسان التي بها يميز وينطق ويسمع ويبصر ويبطش ويسعى ، وهي سائر الحواس والحاس المشترك ، وهو الذي من القلب .

وقد ذكرت الهند وغيرها من اليونانيين والفرس والروم وغيرهم ممن لعب بها كيفية صورها ونصبها ومباديها ووجوه عللها والغرائب فيها وتصنيف القوائم والمفردات وأنواع ظرائف المنصوبات .

وقد استعمل لعاب الشطرنج عليها فنون الهزل والنوادر المدهشة ، فزعم كثير منهم أن ذلك مما يبعث على لعبها وانصباب المواد وصحيح الأفكار اليها ، وأن ذلك بمنزلة الارتجاز الذي يستعمله أهل القتال عند اللقاء والحادي عند الاعياء والمائح للغرب عند الاستقاء ، وأن ذلك عدة اللاعب ، كما أن الشعر والارتجاز من عدة المحارب .

وقد قيل فيما وصفنا أشعار كثيرة مما قاله بعض اللعاب ، فمن ذلك :

نوادر الشطرنج في وقتها	أحر من ملتهب الجمر
كم من ضعيف اللعب كانت له	عونا على مستحسن القمر

ومما قيل فيها فأحسن قائلها وبالغ في وصف اللعب بها :

أرض مربعة حمراء من أدم	ما بين الفين موصوفين بالكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها شبها	من غير أن يسعيا فيها بسفك دم
هذا يغير على هذا ، وذاك على	هذا يغير ، وعين الحرب لم تنم
فانظر الى الخيل قد جاشت بمعرفة	في عسكرين بلا طبل ولا علم

ومما قيل فيها فبولغ في وصفها ، واستوعب النظر لأكثر معانيها ، ما قاله أبو الحسن بن أبي البغل الكاتب ، وكان من جلة الكتاب وكبار العمال وممن اشتهر بمعرفتها واللعب بها ، وهو :

فتى نصب الشطرنج كيما يرى بها	عواقب لا تسمو لها عين جاهل
وأبصر أعقاب الأحاديث في غد	بعيني مجد في مخيلة هازل
فأجدى على السلطان في ذاك أنه	أراه بها كيف اتقاء الغوائل
وتصريف ما فيها اذا ما اعتبرته	شبيه بتصريف القنا والقنابل

كلمات في النرد

قال المسعودي : فأما ما قيل في النرد وأوصافها فقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب كيفية نصبها والمحدث للعبها ، على ما حكي من التنازع في ذلك عند ذكرنا أخبار الهند ، وفيها عند ذوي المعرفة بها ضروب من اللعب وفنون من الترتيب ، ووجوه من النصب ، الا أن عدد البيوت واحد لا زيادة فيها ولا نقصان ، على ما تقدم في ذلك من علمها والمعهود في أصولها ، وأن الفصين فيها محكمان ، واللاعب بهما وان لم يكن مختارا ولا خارجا عن حكم الفصين فيها وقضائهما محتاج الى أن يكون صحيح النقل وسابقه صحيح الحساب حسن الترتيب جيده .

وقد قيل في لعبها ووصفها واحكام الفصين فيها وقضائهما على لعابها أشعار كثيرة بالغوا بالقول فيها ، وأغرقوا في استيعاب معانيها ، من ذلك قول بعضهم :

لا خير في النرد لا يغني ممارسها ... حسن الذكاء، اذا ما كان محروما
تريك أفعال فصيها بحكمهما ... ضدين في الحال ميمونا ومشؤوما
فما تكاد ترى فيها أخا أدب ... يفوته القمر الا كان مظلوما

وأخبرني أبو الفتح محمود بن الحسين السندي بن شاهك الكاتب المعروف بكشاجم ، وكان من أهل العلم والرواية والمعرفة والأدب ، أنه كتب الى صديق له يذم النرد ـ وكان بها مشتهرا ـ أبياتا ، وهي :

أيها المعجب المفاخر بالنر ... د ليزهى بها على الاخوان
قد لعمري حرصت جهدا على قمـ ... ـرك لو لم تواتك الفصان
غير أن الأريب يكذبه الظـ ... ـن ويبكي لشدة الحرمان
واذا ما القضاء جاءت بحكم ... لم يحد عن قضائها الخصمان
ولعمري ما كنت أول انسا ... ن تمنى فأخلفته الأماني

وأنشدني أبو الفتح أيضا لأبي نواس :

ومأمورة بالأمر تأتي بغيره ... ولم تبتغ في ذاك غيا ولارشدا
اذا قلت لم تفعل، وليست مطيعة ... وأفعل ما قالت، فصرت لها عبدا

وقد قدمنا في باب أخبار ملوك الهند فيما سلف من هذا الكتاب قول من قال في النرد والفصين : انها جعلت مثلا للمكاسب ، وانها لا تنال بالكيس ولا بالحيل ، وما ذكر عن أردشير بن بابك في ذلك أنه أول من لعب بها ، وأرى تقلب الدنيا بأهلها ، وجعل بيوتها اثني عشر على ترتيب عدد الشهور ، وان كلابها ثلاثون كلبا بعدد أيام الشهور ، وان الفصين مثال للقدر وتلعبه بأهل هذا العالم ، وغير ذلك مما وصفنا من أحوالها ، وما قدمنا من ذكرها في هذا الكتاب وغيره مما سلف من كتبنا .

وذكر بعض أهل النظر من الاسلاميين أن واضع الشطرنج كان عدليا مستطيعا فيما يفعل ، وأن واضع النرد كان مجبرا ، فتبين باللعب بها أنه لا صنع له فيها ، بل تصرفه فيها على ما يوجبه القدر عليه بها .

العروضي يحكي عن الراضي وسعة اطلاعه

وذكر العروضي ـ وهو ممن كان أدب الراضي وغيره من الخلفاء وأبنائهم ـ قال : حدثت الراضي ذات يوم خبرا لقتيبة بن مسلم الباهلي في الكبر وغيره من الخصال التي توجد في أهل الرياسات مما يحمد فيهم وما يكره منهم من الأخلاق ، فكتب ذلك في حال صباه وعنفوان حداثته .

ولقد رأيته مواظبا على درسه الى أن استكمل اتقانه في مجلسه ، فداخله عند ذلك طرب وفرح وأريحية لم أعهدها منه .

ثم قال لي وقد أقبل علي : لعل الزمان أن يبلغ بي أن أتأدب بهذه الخصال ، وأكون في مرتبة من يرتاض بهذه الآداب ، وهو أنه قيل لقتيبة بن مسلم وهو وال على خراسان للحجاج ومحارب للترك : لو وجهت فلانا ـ لرجل من أصحابه ـ الى حرب بعض الملوك على الجيش .

فقال قتيبة : انه رجل عظيم الكبر ، ومن عظم كبره اشتد عجبه ، ومن أعجب برأيه لم يشاور كفيا ، ولم يؤامر نصيحا ، ومن تبجح بالاعجاب وفخر بالاستبداد ، كان من الصنع بعيدا ، ومن الخذلان قريبا ، والخطأ مع الجماعة خير من الصواب مع الفرقة ، ومن تكبر على عدوه حقره ، واذا حقره تهاون بأمره ، ومن تهاون بأمر عدوه ووثق بأمر قوته ، وسكن الى جميع عدته قل احتراسه ، ومن قل احتراسه كثر عثاره .

وما رأيت عظيما تكبر على صاحب حرب قط الا كان منكوبا ومهزوما ومخذولا ، لا والله حتى يكون أسمع من فرس ، وأبصر من عقاب ، وأهدى من قطاة ، وأحذر من عقعق ،

وأشد اقداما من أسد ، وأوثب من فهد ، وأحقد من جمل ، وأروغ من ثعلب ، وأسخى من ديك ، وأشح من ظبي ، وأحرس من كركي ، وأحفظ من كلب ، وأصبر من ضب ، وأجمع من النمل .

وان النفس انما تسمح بالعناية على قدر الحاجة ، وتتحفظ على قدر الخوف ، وتطمع على قدر السبب ، وقد قيل على وجه الدهر : ليس لمعجب رأي ، ولا لمتكبر صديق ، ومن أحب أن يُحَب تحبب .

بين معاوية وقيس بن سعد

قال العروضي : وتذاكرنا يوما بحضرة الراضي بالله في حال صباه ـ وقد حضر جماعة من ذوي العلم والمعرفة بأخبار الناس ممن غبر ـ فانتهى بنا الأمر الى خبر معاويةَ بْن أبي سفيان حين ورد عليه كتاب من ملك الروم أن يرسل اليه سراويل أجسم رجل عنده ، فقال معاوية : لا أعلمه الا قيس بن سعد ، فقال لقيس : اذا انصرفت فابعث الي بسراويلك ، فخلعها ورمى بها .

فقال معاوية : هلا بعثت بها من منزلك ، فقال قيس :

أردت لكيما يعلم الناس أنها سراويل قيس، والوفود شهود
وألا يقولوا: غاب قيس، وهذه سراويل عاد قد نمته ثمود

فقال قائل ممن حضر : قد كان جبلة بن الأيهم أحد ملوك بني غسان طوله اثنا عشر شبرا ، فاذا ركب مسحت قدماه الأرض .

فقال له الراضي بالله : قد كان قيس بن سعد هذا المذكور اذا ركب تخط قدماه الأرض ، واذا مشى بين الناس يتوهمون أنه راكب ، وقد كان جدي علي بن عبد الله بن العباس طويلا جميلا يتعجب الناس من طوله ، وكان يقول : كنت الى منكب عبد الله بن عباس ، وكان عبد الله الى منكب جدي العباس ، وكان العباس بن عبد المطلب اذا طاف بالبيت يرى كأنه فسطاط أبيض .

قال : فتعجب والله من حضر من ايراده هذا الخبر ومن كلامه مع صغر سنه .

طير الكيكم

ثم تذاكرنا عجائب البلدان ، وما خص به كل صقع من الأرض من أنواع النبات والحيوان والجماد من أنواع الجواهر وغيرها ، فقال لي قائل ممن حضر : ان أعجب ما في الدنيا

طير يكون بأرض طبرستان على شاطىء الأنهار شبيه بالباشق ، وأهل طبرستان يسمونه بالكيكم ، وهو صياحه الذي يصيح به ، ولا يصيح في السّنة الا في هذا الفصل (يعني الربيع) فاذا صاح اجتمعت عليه العصافير وصغار الطيور مما يكون في المياه وغيرها ، فتزقه من أول النهار ، حتى اذا كان في آخره أخذ واحدا مما قرب من الطير فأكله ، وكذلك يفعل في كل يوم الى أن ينقضي هذا الفصل الربيعي فاذا انقضى ذلك انعكست عليه الطيور فلا تزال تجتمع عليه وتضربه وتطرده ، وهو يهرب منها ولا يسمع له صوت الى الفصل الربيعي ، وهو طير حسن موشى حسن العينين .

قال : وذكر علي بن زيد الطبيب الطبري صاحب كتاب فردوس الحكمة أن هذا الطائر ليس يكاد يرى ، ولم تر قط قدماه على الأرض معا ، بل يطأ على الأرض باحدى قدميه على البدل لا يطأ الأرض بهما معا في حالة واحدة .

قال : وقد ذكر الجاحظ أن هذا الطير من احدى عجائب الدنيا ، وذلك أنه لا يطأ الأرض بقدميه ، بل باحداهما ، خوفا على الأرض أن تنخسف به من تحته .

قال : والعجب الثاني دودة تكون من المثقال الى الثلاثة تضيء بالليل كضوء الشمع ، وتطير بالنهار ، ويرى لها أجنحة خضراء ملساء ولا جناحين لها ، غذاؤها التراب لا تشبع منه قط ، خوفا أن يفنى تراب الأرض فتهلك جوعا ، وفيها خواص كثيرة ومنافع واسعة .

قال : والعجب الثالث أعجب من الطير والدودة ، من يكري نفسه للقتل ، يعني المرتزقة من الجند .

فاستحسن هذا الخبر من حضر ، فقال أبو العباس الراضي معارضا لهذا المخبر الذي أخبر بالخبر الأول : قد ذكر عمرو بن بحر الجاحظ أن أعجب ما في الدنيا ثلاث : البوم لا يظهر بالنهار خوفا أن تصيبها العين لحسنها وجمالها ، ولما قد تصور في نفسها أنها أحسن الحيوان ، فتظهر بالليل .

والعجب الثاني : الكركي ، لا يطأ بقدميه الأرض ، بل باحداهما ، فاذا وطىء باحداهما لا يعتمد عليها اعتمادا قويا ، ومشى بالتأني ، خوفا من أن تنخسف الأرض من تحته ، لثقله .

والعجب الثالث : الطائر الذي يقعد على بثوق الماء من الأنهار اذا انخرقت ، الذي يعرف بمالك الحزين ، على شبه الكركي ، خوفا من الماء أن يفنى من الأرض فيموت عطشا .

قال العروضي : فافترق من حضره ، وكل متعجب من الراضي مع صباه وصغر سنه

كيف تتأتى منه هذه المذكرات ، مع أن من حضره من أهل الرأي والسن والمعرفة .

قال المسعودي : وقد أتينا فيما سلف من كتبنا على عجائب الأرض والبحار وما فيها من عجائب البنيان والحيوان والجماد والمائع والرجراج ، فأغنى ذلك عن ايرادها في هذا الموضع .

وانما نذكر أخبار الراضي وما كان من أمره في صباه وما أخبر عنه مؤدبه ونظمنا من أخباره ما تأتى لنا ذكره في هذا الكتاب .

الراضي يعد العروضي بمنحة اذا أضحكه

وأخبرنا العروضي قال : سمرت عند الراضي في ليلة شاتية صهابية ، فرأيته قلقا متململا ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، أرى منك خصالا لم أعهدها ، وضيق صدر لم أعرفه ، فقال له : دع عنك هذا ، وحدثني بحديث فان أنت أزلت بحديثك ما أجده من الهم فلك ما علي وما تحتي ، على أن أشترط عليك ازالة الهم والضحك .

قلت : يا أمير المؤمنين ، رحل رجل من بني هاشم الى ابن عمه بالمدينة ، فأقام عنده حولا لم يدخل مستراحا ، فلما كان بعد الحول أراد الرجوع الى الكوفة ، فحلف عليه ابن عمه أن يقيم عنده أياما أخر ، فأقام .

وكان للرجل قينتان ، فقال لهما : أما رأيتما ابن عمي وظرفه ؟ أقام عندنا حولا لم يدخل الخلاء .

فقالتا له : فعلينا أن نصنع له شيئا لا يجد معه بدا من الخلاء .

فقال : شأنكما وذلك .

فعمدتا الى خشب العشر ، فدقتاه ، وهو مسهل ، وطرحتاه في شرابه ، فلما حضر وقت شرابهما قدمتاه اليه ، وسقتا مولاهما من غيره .

فلما أخذ الشراب مأخذه منه تناوم المولى ، وتمغص الفتى من جوفه ، فقال للتي تليه : يا سيدتي ، أين الخلاء ؟

فقالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟

قلت : يسألك أن تغنيه :

خلا من آل فاطمة الديار فمنزل أهلها منها قفار

فغنته .

فقال الفتى : أظنهما كوفيتين ، وما فهمتا عني .

ثم التفت الى الأخرى فقال لها : يا سيدتي ، أين الحش ؟
فقالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟
قالت : يسألك أن تغنيه :

أوحش الدقرات فالدير منها فعناها بالمنزل المعمور

فغنته :
فقال الفتى : أظنهما عراقيتين ، وما فهمتا عني .
ثم التفت الى الأخرى فقال لها : أعزك الله أين المتوضأ ؟
فقالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟
قالت : يسألك أن تغنيه :

توضأ للصلاة وصل خمسا وآذن بالصلاة على النبي

فغنته .
فقال : أظنهما حجازيتين ، وما فهمتا عني .
ثم التفت الى الأخرى فقال لها : يا سيدتي ، أين الكنيف ؟
قالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟
قالت : يسألك أن تغنيه :

تكنفني الواشون من كل جانب ولو كان واش واحد لكفانيا

فغنته .
فقال : أظنهما يمانيتين ، وما فهمتا عني .
ثم التفت الى الأخرى ، فقال لها : يا هذه ، أين المستراح ؟
فقالت لها صاحبتها : ما قال لك ؟
قالت : يسألك أن تغنيه .

ترك الفكاهة والمزاحا وقلا الصبابة واستراحا

فغنته .

والمولى يسمع ذلك وهو متناوم ، فلما اشتد به الأمر أنشأ يقول :

تكنفني السُّلاح وأضجروني على ما بي بتكرير الأغاني
فلما ضاق عن ذاك اصطباري درقت به على وجه الزواني

ثم انه حل سراويله وسلح عليهما ، فتركهما آية للناظرين ، وانتبه المولى في أثر ذلك ، فلما رأى ما نزل بجواريه قال : يا أخي ، ما حملك على هذا الفعل ؟

قال : يا بن الفاعلة لك جوار يرون المخرج صراطا مستقيما لا يدللنني عليه ، فلم أجد جزاء غير هذا ، ثم رحل عنه .

قال : فذهب بالراضي الضحك كل مذهب ، وسلم اليَّ كل ما كان عليه وتحته من لباس وفرش ، فكان مبلغ ثمن ذلك نحوا من ألف دينار .

لبس المأمون الخضرة ثم السواد

وذكر الصولي قال : قال لي الراضي : ما كان السبب في لبس المأمون الخضرة ورفعه السواد ثم لبسه السواد بعد ذلك ؟

قلت : هو ما أخبرنا به محمد بن زكريا الغلابي قال : حدثنا يعقوب بن جعفر بن سليمان قال : لما قدم المأمون بغداد اجتمع الهاشميون الى زينب بنت سليمان بن علي ، وكانت أقعد ولد العباس نسبا ، وأكبرهم سنا ، فسألوها أن تكلم أمير المؤمنين المأمون ، في تغييره الخضرة ، فضمنت لهم ذلك ، وجاءت الى المأمون فقالت : يا أمير المؤمنين ، انك على بر أهلك من ولد علي بن أبي طالب أقدر منك على برهم لنا من غير أن تزيل سنة من مضى من آبائك ، فدع لباسك الخضرة ، ولا تطمعن أحدا فيما كان منك .

قال لها : يا عمة ، ما كلمني أحد في هذا المعنى بكلام أوقع من كلامك ، ولا أقصد منه لما أردت ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي فولى الامرة أبو بكر ، فقد عرفتْ ما كان من أمره فينا أهل البيت .

ثم وليها عمر فلم يتعد فيها فعل من تقدمه .

ثم وليها عثمان فأقبل على بني أمية وأعرض عن غيرهم .

ثم آل الأمر الى علي بن أبي طالب من غير صفو كصفوها لغيره ، بل مشوبة بالأكدار ، فولى مع ذلك عبد الله بن العباس البصرة ، وولي عبيد الله بن العباس اليمن ، وولى قثم البحرين ، وما ترك منهم أحدا الا ولاه ، فكانت هذه في أعناقنا حتى كافأته في ولده بما

فعلت ، ولا يكون بعد هذا الا ما تحبون .

ثم رجع الى لبس السواد .

وللمأمون يا أمير المؤمنين شعر يشاكل معنى ما ذكرت من هذا الخبر وهو قوله :

ألام على شكر الوصي أبا الحسن	وذلك عندي من عجائب ذا الزمن
خليفة خير الناس ، والأول الذي	أعان رسول الله في السر والعلن
ولولاه ما عدت لهاشم امرة	وكانت على الأيام تقضي وتمتهن
فولى بني العباس ما اختص غيرهم	ومن مسه أولى بالتكرم والمنن
فأوضح عبد الله بالبصرة الهدى	وفاض عبيد الله جودا على اليمن
وقسم أعمال الخلافة بينهم	فلا زلت مربوطا بذا الشكر مرتهن

بين القاهر والراضي

وكان القاهر قد عمد الى كثير من الأموال عند قتله لمؤنس وبليق وابنه علي وغيرهم فغيبها ، فلما قبض عليه وسملت عيناه وأفضت الخلافة الى الراضي طولب القاهر بالأموال ، فأنكر أن يكون عنده شيء من ذلك ، فأوذي وعذب بأنواع من العذاب ، وكل ذلك لا يزيده الا انكارا ، فأخذه الراضي وقربه وأدناه ، وطالت مجالسته اياه ، واكرامه له ، وأعطاه حق العمومية والسن والتقدم في الخلافة ولاطفه وأحسن اليه غاية الاحسان .

وكان للقاهر في بعض الحصون بستان نحو من جريب قد غرس فيه النارنج وقد حمل اليه من البصرة وعمان مما حمل من أرض الهند ، قد اشتبكت أشجاره ، ولاحت ثماره كالنجوم من أحمر وأصفر وبين ذلك أنواع الغروس والرياحين والزهر ، وقد جعل مع ذلك في الصحن أنواع الأطيار من القماري والدباسي والشحارير والببغاء ، مما قد جلب اليه من الممالك والأمصار ، وكان ذلك في غاية الحسن .

وكان القاهر كثير الشرب عليه ، والجلوس في تلك المجالس .

فلما أفضت الخلافة الى الراضي اشتد شغفه بذلك الموضع ، فكان يداوم الجلوس والشرب فيه .

ثم ان الراضي رفق بالقاهر ، وأعلمه بما هو فيه من مطالبة الرجال بالأموال ، والحاجة اليها ، ولا شيء قبله منها ، وسأله أن يسعفه بما عنده منها اذ كانت الدولة له ، وأن يدبر تدبيره ، ويرجع في كل الأمور الى قوله ، وحلف له بالأيمان الوكيدة ألا يسعى في قتله ولا

الاضرار به ولا بأحد من ولده ، فأنعم له القاهر بذلك ، وقال : ليس لي مال الا في بستان النارنج .

فصار الراضي الى البستان وسأله عن الموضع ، فقال له القاهر : قد حجب بصري فلست أعرف موضعه ، ولكن مر بحفره فانك تظهر على الموضع ولا يخفى عليك مكان ذلك .

فحفر البستان ، وقلع تلك الأشجار والغروس والأزهار حتى لم يبق منه موضع الا حفره وبولغ في حفره فلم يجد شيئا .

فقال له الراضي : فما ههنا شيء مما ذكرت ، فما الذي حملك على ما صنعت ؟

فقال له القاهر : وهل عندي من المال شيء ؟ انما كانت حسرتي على جلوسك في هذا الموضع وتمتعك به ، وكان لذتي من الدنيا ، فتأسفت على أن يمتنع به بعدي غيري .

فتأسف الراضي على ما توجه عليه من الحيلة في أمر ذلك البستان ، وندم على قبوله منه ، وأبعد القاهر ، فلم يكن يدنو منه خوفا على نفسه أن يتناول بعض أطرافه .

خلق الراضي وعاداته

وكان الراضي كثير الاستعمال للطيب ، حسن الهيئة ، سخيا ، جوادا ، حسن المذاكرة بأخبار الناس وأيامهم ، مقربا لأهل العلم والأدب والمعرفة ، كثير الدنو منهم ، فائضا بجوده عليهم ، ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه في كل يوم الا بصلة أو خلعة أو طيب ، وكانوا عدة ندماء : منهم محمد بن يحيى الصولي ، وابن حمدون النديم ، وغيرهما .

فعوتب على كثرة افضاله على من يحضره من الجلساء ، فقال : انا أستحسن فعل أمير المؤمنين أبي العباس السفاح ، لأنه كانت فيه فضائل لا تكاد تجتمع في أحد ، لا يحضره نديم ولا مغن مله ولا قينة فينصرف الا بصلة أو كسوة قلت أو كثرت ، وكان لا يؤخر احسان محسن لغد ، ويقول : العجب من انسان يفرح انسانا فيتعجل السرور ويؤخر ثواب من سره تسويفا وعدة .

فكان أبو العباس في كل ليلة أو يوم يقعد لشغله لا ينصرف أحد ممن حضره الا مسرورا ، ونحن ان لم تتأت لنا الأمور كتأتيها لمن سلف فانا نواسي جلساءنا ، بل اخواننا ، ببعض ما حضرنا .

وكان سخيا على سائر الأشياء لا يستكثر لأحد من ندمائه كثرة ما يصل اليه على طول الأيام ، حتى كان بعضهم ربما يتأخر عن الحضور لما يترادف عليه من فضله ، وكان الغالب

عليه من الخدم راغب الخادم وزيرك ، ومن الغلمان ذكي وغيره .

الراضي بالله وبجكم التركي

وحدث أبو الحسن العروضي مؤدب الراضي قال : اجتزت في يوم مهرجان بدجلة بدار بحكم التركي ، فرأيت من الهرج والملاهي واللعب والفرح والسرور ما لم أر مثله .

ثم دخلت الى الراضي بالله فوجدته خاليا بنفسه قد اعتراه هم ، فوقفت بين يديه ، فقال لي : ادن ، فدنوت ، فاذا بيده دينار ودرهم ، في الدينار نحو من مثاقيل ، وفي الدرهم كذلك ، عليهما صورة بجكم شاك في سلاحه وحوله مكتوب :

انمـــا العـــز فاعلم   للأمـــير المعظـــم
سيد الناس بجكم

ومن الجانب الآخر الصورة بعينها ، وهو جالس في مجلسه كالمفكر المطرق فقال الراضي : أما ترى صنع هذا الانسان ، وما تسمو اليه همته ، وما تحدثه به نفسه ؟ فلم أجبه بشيء ، وأخذت به في أخبار من مضى من الخلفاء وسيرهم في أتباعهم ، ثم نقلته الى أخبار ملوك الفرس وغيرها ، وما كانت تلقاه من أتباعها ، وصبرهم عليهم ، وحسن سياستهم لذلك ، حتى تصلح أمورهم ، وتستقيم أحوالهم ، فسلا عما عرض لنفسه ، ثم قلت : ما يمنع أمير المؤمنين أن يكون كالمأمون في هذا الوقت حيث يقول :

صـــل النـــدمـــان يوم المهـرجان   بصـــاف مـــن معتقة الدنان
بـــكأس خـــسروانـــي عتيق   فان العيد عيـــد خسروانـــي
وجنبـــنـــي الـــزبيبيـــين طـــرا   فشأن ذوي الـزبيب خلاف شاني
فأشربهـــا وأزعمهـــا حـــراما   وأرجـــو عفـــو رب ذي امتنان
ويشربهـــا ويزعمهـــا حـــلالا   وتلك علـــى الشـــقي خطيئتـــان

قال : فطرب وأخذته أريحيته ، فقال لي : صدقت ، ترك الفرح في مثل هذا اليوم عجز .

وأمر باحضار الجلساء ، وقعد في مجلس التاج على دجلة ، فلم أر يوما كان أحسن منه في الفرح والسرور ، وأجاز في ذلك اليوم من حضره من الندماء والمغنين والملهين بالدنانير

والدراهم والخلع وأنواع الطيب ، وأتته هدايا بجكم وألطافه من أرض العجم ، فسر في ذلك اليوم وجميع من حضره .

***

قال المسعودي : وقد أتينا على ما كان في أيام الراضي من الكوائن والحوادث مجملا ومفصلا في كتابنا «أخبار الزمان، ومن أبادته الحدثان ، من الأمم الماضية والأجيال الحالية والممالك الداثرة » ، وما كان من أمره في حال خروجه مع بجكم الى بلاد الموصل وديار ربيعة ، وما كان بين بجكم وأبي محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان المسمى بعد ذلك بناصر الدولة ، وقصدنا فيما ذكرنا في هذا الكتاب الى الاختصار ، دون الشرح والاكثار ، اذ كان في الاكثار من الأخبار ثقل على القلوب ، وملل للسامع ، وقليل الأخبار ، يغني عن كثير الاقتدار .

ذكر خلافة المتّقي لله
أبو إسحاق ابراهيم بن جعفر المقتدر

موجز

وبويع المتقي لله ، وهو أبو اسحاق ابراهيم بن المقتدر ، لعشر خلون من ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلثمائة .

وخلع وسملت عيناه يوم السبت لثلاث خلون من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة .

وكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهرا وثلاثة وعشرين يوما ، وأمه أم ولد .

ذكر جمل من أخباره وسيره
ولمع مما كان في أيامه

وزراؤه

ولما أفضت الخلافة الى المتقي لله أقر على الوزارة سليمان بن الحسن بن مخلد .

ثم استوزر أبا الحسن احمد بن محمد بن ميمون ، وكان كاتبه قبل الخلافة .

ثم استوزر أبا اسحاق محمد بن أحمد القراريطي .

ثم استوزر أبا العباس أحمد بن عبد الله الأصبهاني .

ثم استوزر أبا الحسن علي بن محمد بن مقلة ، وغلب على الأمر أبو الوفاء توزون التركي .

انتقاض الأمر عليه

واشتد أمر البريديين بالبصرة ، ومنعوا السفن أن تصعد ، وعظم جيشهم ، وكثرت رجالهم ، وصار لهم جيشان : جيش في الماء في الشذوات والطيارات والسميريات والزبازب وهذه أنواع من المراكب يقاتل فيها صغار وكبار ، وجيش في البر عظيم ، واصطنعوا الرجال ، وبذلوا الرغائب ، فانضاف اليهم حجرية السلطان وغلمانه ، وصار جيش السلطان الأتراك والديلم والجيل ونفرا من القرامطة ، وكل ذلك مع توزون .

وكان توزون من رفقاء بجكم والخواص من أصحابه ، فانحدر توزون الى واسط لحرب البريديين ، وكانوا ملكوا واسط وتغلبوا عليها ، فكانت بينهم سجالا ، والمتقي لله لا أمر له ولا نهي .

فكاتب المتقي أبا محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان ناصر الدولة ، وأخاه أبا الحسن

علي بن عبد الله سيف الدولة أن ينجدوه ويستنقذوه مما هو فيه ، ويفوض اليهما الملك والتدبير .

وقد كان قبل ذلك خرج اليهم وتوزون في جملتهم منضاف وغيره من الأتراك والديلم ، وذلك عند قتلهم محمد بن رائق في سنة ثلاثين وثلثمائة ، وانحدارهم الى مدينة السلام ، واستيلائهم على الملك والقيام به وحربهم البريديين ، وما كان بينهم من الوقائع الى أن توجه عليهم ما ذكرنا في كتابنا « أخبار الزمان » من خروج أبي محمد الحسن بن عبد اللّه من الحضرة الى الموصل ، ولحوق أخيه أبي الحسن علي بن عبد اللّه ، وخلاصه مما دبره عليه توزون وجعجع التركي .

وخرج المتقي الى الموصل ، فلما بلغ توزون ذلك رجع الى بغداد وقصد بني حمدان ، فكان التقاؤهم بعكبرا ، فكانت بينهم سجالا ، ثم كانت لتوزون عليهم ، فرجع الى بغداد ، ثم أجمعوا له أيضا ، ورجعوا اليه ، فتركهم حتى قربوا الى بغداد ، فخرج عليهم فلقيهم فهزمهم بعد مواقعات كانت بينهم .

وسار وراءهم حتى دخل الموصل ، وخرج عنها الى مدينة بلد ، فصالحوه على مال حملوه اليه ، فرجع الى بغداد وهو مستظهر بمن معه من الأتراك والجيل والديلم وكمال العدة والكراع .

وسار المتقي الى نصيبين ، ورجع عنها الى الرقة فنزلها ، وذلك لأيام بقين من شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة .

وكاتب الاخشيد محمد بن طغج صاحب مصر فسار الى الرقة وحمل اليه مالا كثيرا ، وأهدى اليه غلمانا وأثاثا وضم اليه قائدا من قواده ، وجمل أمره ، وزاد في حاله ، وبر جميع من معه من وزيره أبي الحسن علي بن محمد بن مقلة ، وقاضي القضاة أحمد بن عبد اللّه بن اسحاق الخرقي ، وسلام الحاجب المعروف بأخي نجح الطولوني ، وجماعة الوجوه والغلمان .

ثم لم يعبر الاخشيد محمد بن طغج الى الرقة ولا الى شيء من جانب الجزيرة وديار مضر ، وعبر المتقي ، وسار الى معسكره من الجانب الشامي ، فكانت بينهم خطوب وأيمان وعهود ، وأبو الحسن علي بن عبد اللّه بن حمدان مقيم بحران على طول مقام المتقي بالرقة .

وقد كان أبو عبد اللّه الحسين بن سعيد بن حمدان سار عن حلب وبلاد حمص عند مسير الاخشيد الى بلاد قنسرين والعواصم ، فانفض جمعه ، وتفرق جنده عنه ، وانضافوا الى أبي الحسن علي بن عبد اللّه ، واتصلت كتب توزون بالمتقي ، وتواترت رسله يسألون الرجوع الى

الحضرة ، وأشهد توزون من حضره من القضاة والفقهاء والشهود ، وأعطى العهود والمواثيق بالسمع والطاعة للمتقي ، والتصرف له بين أمره ونهيه ، وترك الخلاف عليه .

وأنفذ اليه كتب القضاة والشهود بما بذل من الأيمان وأعطى من العهود ، وأشار بنو حمدان على المتقي ألا ينحدر ، وخوفوه من توزون ، وحذروه أمره ، فانه لا يأمنه على نفسه ، فأبى الا مخالفتهم والثقة بما ورد عليه من توزون .

وقد كان بنو حمدان أنفقوا على المتقي نفقة واسعة عظيمة طول مقامه عندهم واجتيازه بهم ، يكثر وصفها ويعسر علينا في التحصيل ايرادها باكثار المخبرين لنا بتحديدها .

وانصرف الاخشيد عن الفرات متوجها نحو مصر ، وانحدر المتقي في الفرات ، فتلقاه أبو جعفر بن شيرزاد كاتب توزون بأحسن لقاء ، وأقام له الأتراك ، ومضى في انحداره حتى دخل النهر المعروف بنهر عيسى .

وسار الى الضيعة المعروفة بالسندية على شاطىء هذا النهر ، فتلقاه توزون هنالك ، وترجل له ومشى بين يديه ، فأقسم عليه أن يركب ففعل ، حتى وافى به الى المضرب الذي كان ضربه له على الشط من نهر عيسى ، وذلك على شوط من مدينة السلام ، فأقام هنالك .

وأنفذ رسلا الى دار طاهر ليحضر المستكفي ، فلما حصل المستكفي في المضرب قبض على المتقي ، ونهب جميع ما كان معه ، وقبض على وزيره أبي الحسن علي بن محمد بن مقلة ، وعلى قاضيه أحمد بن عبد اللّه بن اسحٰق ، ونهب جميع العسكر ، وانصرف القائد الذي كان الاخشيد ضمه الى المتقي ومن معه الى صاحبهم .

وأحضر المستكفي فبويع له ، وكحل المتقي ، فصاح وصاح النساء والخدم لصياحه ، فأمر توزون بضرب الدبادب حول المضرب ، فخفى صراخ الخدم ، وأدخل الى الحضرة ، مسمول العينين ، وأخذ منه البردة والقضيب والخاتم ، وسلم الى المستكفي باللّه ، وبلغ ذلك القاهر ، فقال : قد صرنا اثنين نحتاج الى ثالث ، يعرض بالمستكفي باللّه .

المتقي يطلب رجلا أخباريا
يأنس به

وحدث محمد بن عبد اللّه الدمشقي قال : لما نزل المتقي الرقة كنت فيمن يتصرف بين يديه ، وأقرب منه في الخدمة ، لطول صحبته ، فقال لي في بعض الأيام في الرقة وهو جالس في داره مشرفا على الفرات : اطلب لي رجلا أخباريا يحفظ أيام الناس أتفرج اليه في خلواتي وأستريح به في الأوقات .

قال : فسألت بالرقة عن رجل بهذا الوصف ، فأرشدت الى رجل بالرقة كهل لازم

لمنزله ، فصرت اليه ، ورغبته في الدخول الى المتقي باللّه ، فقام معي كالمكره ، وصرنا الى المتقي فأعلمته باحضاري للرجل الذي طلبه .

فلما خلا وجهه دعا به واستدناه ، فوجد عنده ما أراد ، فكان معه أيام مقامه بالرقة ، فلما انحدر كان معه في الزورق ، فلما صار الى فم نهر سعيد ـ وذلك بين الرقة والرحبة ـ أرق المتقي ذات ليلة ، فقال للرجل : ما تحفظ من أشعار المبيضة وأخبارها ؟

فمر الرجل في أخبار آل أبي طالب الى أن صار الى أخبار الحسن بن زيد وأخيه محمد بن زيد بن الحسن وما كان من أمرهما ببلاد طبرستان ، وذكر كثيرا من محاسنهما ، وقصد أهل العلم والأدب اياهما ، وما قالت الشعراء فيهما .

فقال له المتقي : اتحفظ شعر أبي المقاتل نصر بن نصير الحلواني في محمد بن زيد الحسني الداعي ؟

قال : لا يا أمير المؤمنين ، لكن معي غلام لي قد حفظ بحداثة سنه وحدة مزاجه وغلبة الهمة لطلب العلم والأدب عليه ما لم أحفظ من أخبار الناس وأيامهم وأشعارهم .

قال : أحضره ، ولم أخفيت عني خبر مثل هذا فيكون حضوره زيادة في أنسنا ؟

فأحضر الغلام من زورق آخر ، فوقف بين يديه ، فقال له صاحبه : أتحفظ قصيدة أبي المقاتل في ابن زيد ؟

قال : نعم .

قال المتقي : أنشدنيها .

فابتدأ ينشده اياها :

قصيدة أبي المقاتل في الداعي العلوي

لا تقل بشرى وقل لي بشريان	غرة الداعي ويوم المهرجان
خلقت كفاه موتا وحياة	وحوت أخلاقه كنه الجنان
فهو فصل في زمان بدوي	وابن زيد مالك رق الزمان
فهو للكل بكل مستقل	بالعطايا والمنايا والأمان
أوحد قام بتشييد المباني	فبه استنبط أجناس المعاني
مسرف في الجود من غير اعتذار	وعظيم البر من غير امتنان
وهو من أرسى رسول اللّه فيه	وعلياه المعلى والحسان
سيد عرق فيه السيدان	والذي يكبر عن ذكر الحصان

مختف فكرتـه في كل شيء فهـو في كل محـل ومكان
يعـرف الدهـرعلى ما غاب عنه فـيرى المضمر في شخص العيان
يتنـاءى لفظنـا عنـه ، ولكن هو بالأوصاف في الأذهـان دان
أخرجـت الفاظـه مافي الخفايا وكفـاه الدهر نطـق الترجمان
كافربالله جهـرا والمثاني كل من قال : له في الخلـق ثان
واذا ما أسبـغ الـدرع عليه وانكفـت يمنـاه بالسيف اليماني
بعثـت سطوتـه في الموت رعبا أيقـن الموت بأن الموت فان
يحـدق الأبطـال بالألحـاظ حتى يتـرك المقـدام في شخص الجبان
ملك الموت ينـاديه أجرني منـك، كم تغزو بضرب وطعان؟
لا تكلفنـي فوق الوسـع وارفق فلقد ملـكك اللّـه عناني
يا شقيق القدر المحتـوم كم قد رضـت بالصيلـم عمدا ذا حران
لك يومـان فيوم من لبان يقتفـي يوم أرون أرونان
أنجـزت كفـاك وعدا ووعيدا وأحاطـت لك بالدنيا اليدان
فاذا مـا أروت اليمنـى حباء همـت اليسرى بارواء السنان
جدتـافي النفـع والضر بدارا فهما في كل حال ضرتان
أرخـت كفـاك في الآفـاق حتى ما تلاقـي بسـواك الشفتان
قدمتـك المدح الغر وصالت لك أيضا في أعـاديك الهجان
أنـت لا تحـوي بمعقـول كتاب لك شأن خارج عن كل شان
لك أثقـال أياد مثقلات عجـزت عن حملهـن الثقلان
انمـا مدحـك وحـي وزبور والـذي ضمـت عليه الدفتان
هاكهـا جوهـرة تبـرية تو لي وجـوه الموت تكفـين الحنان
يا امـام الـدين خذهـا من امام ملـكت أشعـاره سبـق الرهان
واستمـع للرمـل الأول ممن كشف المحنـة من غـير امتحان
فاعلاتـن فاعلاتـن فاعلاتن ستـة أجزاؤهـا عنـد الوران
كرة الآفـاق لا تطلـع الا صارت الـريح لها كالصولجان
جليت في صنعـة الألفـاظ مما يرتجيه كل ذي عفـو وجان
أنـت تحكي جنـة الخلـد طباعا والقـوافي فيك كالحـور الحسان
فابق للشعر بقاء الشعـر والشكـ ـر مع الدهـر فنعـم الباقيان

عمـــر رصـــوى بل ثبـــير وشآم وأرام وشماريخ أبان
شهد اللّـــه على ما في ضميري فاستمـــع لفظـــي ترجيع أذان
حسنـــات ليس فيها سيئات مدحـــة الداعـــي، اكتبـــا يا كاتبان

فلم يزل المتقي كلما مر به بيت استعاده ، ثم أمر الغلام بالجلوس ، فلما كان في اليوم الذي لقيه فيه ابن شيرزاد الكاتب سمعه ينشد هذا البيت :

لا تقل بشرى وقل لي بشريان

فقال له الغلام ، وقد كان أنس به ، يا أمير المؤمنين :

دامت البشرى فقل لي بشريان

وقد كان أنشده أولا القصيدة « لا تقل بشرى » وأنشـده ثانيا هذا الوجـه « دامـت البشرى فقل لي بشريان » وذكر له خبر أبي المقاتل مع الداعي ، فوالله ما زال المتقي يقول « لا تقل بشرى » ولا يختار في ذلك الوجه غير ذلك ، فقال له الرقي والغلام : والله لتطيرنا لأمير المؤمنين من اختياره انشاد هذا البيت على هذا الوجه ، فكان من أمره ما ذكرنا .

من صفات الخيل

وحدث محمد بن عبد الله الدمشقي قال : لما انحدرنا مع المتقي من الرحبة وصرنا الى مدينة عانة دعا بالرقي وغلامه فحادثاه ، وتسلسل بهم القول الى فنون من الأخبار ، الى أن صاروا الى ذكر الخيل ، فقال المتقي : أيكم يحفظ خبر سليمان بن ربيعة الباهلي مع عمر بن الخطاب

فقال الغلام : ذكر أبو عمرو بن العلاء يا أمير المؤمنين أن سليمان بن ربيعة الباهلي كان يهجن الخيل ويعربها في زمن عمر بن الخطاب ، فجاءه عمرو بن معد يكرب بفرس كميت فكتبه هجينا ، فاستدعى عليه عمر وشكاه اليه ، فقال سليمان : ادع باناء رجـراج قصـير الجدر ، فدعا به ، فصب فيه ماء ، ثم أتى بفرس عتيق لا شك في عتقه ، فأسرع وبرك وشرب ، ثم أتى بفرس عمرو الذي كان هجن فأسرع فصب سنبكه ومد عنقـه كما فعـل العتيق ، ثم ثنى أحد السنبكين قليلا فشرب .

فلما رأى ذلك عمر بن الخطاب وكان ذلك بمحضره قال : أنت سليمان الخيل .

فقال المتقي : فما عندكم عن الأصمعي وغيره من علماء العرب في صفاتها ؟

قال الرقي : ذكر الرياشي عن الأصمعي قال : اذا كان الفرس طويل أوظفة اليدين قصير أوظفة الرجلين طويل الذراعين قصيز الساقين طويل الفخذين طويل العضدين مفرع الكتفين ، لم يكد يسبق .

وقال : اذا سلم من الفرس شيئان لم يضره عيب سواهما : مغروز عنقه في كاهله ، ومغروز عجزه في صلبه ، واذا جادت حوافره فهو هو ، وأنشدنا المبرد :

ولقدشهدت الخيل تحمل شكتي ... عتد كسرحان القصيمة منهب
فرس اذا استقبلته فكأنه ... في العين جزع من أوال مشزب
واذااعترضت له استوت أقطاره ... فكأنه مستدبر متصوب

وسأل يا أمير المؤمنين معاوية مطر بن دراج : أي الخيل أفضل وأوجز ؟

فقال : الذي اذا استقبلته قلت نافر ، واذا استدبرته قلت زاخر ، واذا استعرضته قلت زافر ، سوطه عنانه ، وهواه أمامه .

قال : فأي البراذين شر ؟

قال : الغليظ الرقبة ، الكثير الجلبة ، الذي اذا أرسلته قال : أمسكني ، واذا أمسكته قال : أرسلني .

قال الغلام : أحسن ما قيل في الفرس ووصفه قول بعضهم :

خير ما يركب الشجاع اذاما ... قيل يوما ألا اركبوا للغوار
كل نهد أقب معتدل الخلـ ... ـق متين الشظى عتيق النجار
سلجم اللحى واسع السحر حداد ... أذن وافي الدماغ والوجه عار
ما حمته الحرار واشتد عليا ... ه فأكدي محدوباً بالعوار
محضر القصر مكرب الرسغ دامي الـ ... ـابط ساعي الجفون والأشفار
مشرف مقبل يخب اذا أد ... بر مستدبر ككر مغار
فهو في خلقه طوال ورحب ... وعراض الى سداد قصار
طال هاديه والذراعان والأضـ ... ـلاع منه فقيم في جفار
ثم طالت وأبدت فخذاه ... فهوكفت الوثوب ثبت الخيار
والرحيب الفروج والجلد والمشفر ... قدام منخر كالوجار
والعريض الوظيف والجنب والأو ... راك والجبهة العريض الفقار

والحديد الفؤاد والسمـــع والعر قوب والـــطـرف حدة في وقـــار
فهوصـــافي الأديم والعـــين والحا فـــر غمبـــر بديهـــة الاحضـــار
والقصيرالـــكراع والظهروالرسـ غ القصيرالعسيب والصلـــب وار
لم تحـن متنـه القطـاة ولـــم يسـ لمه تركيبهـــا الى استئخار
مطمئـن النســـور بـــين حـــزام كـــل لأم احـــم كالمنقـــار
يكفـــت المشي كالـــذي يتخطى طنبـــا أو يشـــق كـــالمسمـــار
واذا ما استمـــر من غـــير ما بأ س به مانـــع من استمرار
لان فاهتـــز مقبـــلا فاذا أد بـــر أهـــوى متـــابـــع الادبار
في تعـــاقيب كالتماثيل أو كالجـ ن أو كالظبـــاء أو كالحوار
فاذا ما طحـــا به الجـــري فالعقـ ـبـــان تهـــوى كواسر الأعسار

من اخبار حلبة الخيل

فلما كان في الليلة الثانية دعا بهما ، فقال: عودا الى ما كنتما عليه البارحة ، واشرعا في أخبار الحلائب ومراتب الخيل فيها .

قال الغلام : يا أمير المؤمنين ، أذكر قولا جامعا أخبرني به كلاب بن حمزة العقيلي ، قال : كانت العرب ترسل خيلها عشرة عشرة أو أسفل ، والقصب تسعة ولا يدخل الحجرة المحجرة من الخيل الا ثمانية ، وهذه أسماؤها :

الأول : السابق ، وهو المجلي ، قال أبو الهندام كلاب : انما سمي المجلي لأنه جلى عن صاحبه ما كان فيه من الكرب والشدة . وقال الفراء : انما سمى المجلي لأنه يجلي عن وجه صاحبه .

والثاني : المصلي ، لأنه وضع جحفلته على قطاة المجلي ، وهي صلاة ، والصلا : عجب الذنب بعينه .

والثالث : المسلي ، لأنه كان شريكا في السبق ، وكانت العرب تعد من كل ما تختار ثلاثة ، أو لأنه سلى عن صاحبه بعض همه بالسبق .

والرابع : التالي ، سمي بذلك لأنه تلا هذا المسلي في حال دون غيره .

والخامس : المرتاح ، وهو المفتعل من الراحة ، لأن في الراحة خمس أصابع لا يعد منها غيرهن ، واذا أومأت العرب من العدد الى خمس فتح للذي يوميء بها يده وفرق أصابعه الخمس ، وذلك أيضا ما يومئون به من غير عقد الحساب ، ثم يكون بعدها الى أن تكون

عشرة فيفتح الذي يومىء بها يديه جميعا ، ويقابل الخمس أصابع بالخمس ، فلما كان الخامس مثل خامسة الأصابع وهي الخنصر سمي مرتاحا .

وسمي السادس حظيا ، لأن له حظا ، وقيل : لأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أعطى السادس قضيبه ، وهي آخر حظوظ خيل الحلبة ، غير أنه له حظ .

وسمي السابع العاطف ، لدخوله الحجرة لأنه قد عطف بشيء وان قل وحسن اذ كان قد دخل الحجرة المحجورة .

وسمى الثامن المؤمل على القلب والتفاؤل كما سموا الفلاة مفازة واللديغ سليما ، وكنوا الحبشي أبا البيضاء ، ونحو ذلك ، فكذلك سموا الخائب المؤمل ، اي إنه يؤمل وان كان خائبا ، لأنه قرب من بعض ذوات الحظوظ بعد .

والتاسع : اللطيم ، لانه لو رام الحجرة للطم دونها ، لانه اعظم جرما من السابع والثامن .

والعاشر : السكيت ، لان صاحبه يعلوه خشوع وذلة ويسكت حزنا وغما ، فكانوا يجعلون في عنق السكيت حبلا ويحملون عليه قردا ، ويدفعون للقرد سوطا ، فيركضه القرد ليعير بذلك صاحبه ، وانشد في ذلك الوليد بن حصن الكلبي :

اذا أنت لم تسبق وكنت مخلفا سبقت اذا لم تدع بالقرد والحبل
وان تك حقا بالسكيت مخلفا فتورث مولاك المذلة بالنبل

أما ذكره النبل فان بعضهم كان يفعل ذلك : ينصب فرسه تم يرميه بالنبل حتى يتعجف ، وقد فعل ذلك النعمان بفرسه النهب .

قال كلاب بن حمزة : ولم نعلم احدا من العرب في الجاهلية والاسلام وصف خيل الحلبة العشرة بأسمائها وصفاتها وذكرها على مراتبها غير محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك ابن مروان ، وكان بالجزيرة بالقرية المعروفة بحصن مسلمة من اقليم بلخ من كورة الرقة من ديار مضر فانه قال في ذلك :

شهدنا الرهان غداة الرهان بمجمعة ضمها الموسم
نقود اليها مقاد الجميع ونحن بصنعتها أقوم
غدونا بمقوودة كالقداح غدت بالسعود لها لأنجم
مقابلة نسبة في الصريح نماهن للأكرم الأكرم

كميت اذا ما تباطى يبل   يفوتْ الخطوط اذا يلجم
فمنهن أحوى ممر اغر   وأجود ذو غرة أرثم
تلألأ في وجهه فرجة   كأنْ تلألؤها المرزم
فقيدت لمدخور ما عندها   لمنتظري انها تنجم
عليهن سحم صغار الشخوص   ثم أهم لحام اتى اسحم
كانهم فوق اشباحها   زرازير في سقف حوم
فصفت على الحبل في محضر   يلي أمره ثقة مسلم
تراضوا به حكما بينهم   فبالحق بينهم يحكم
وربك بالسبق عن ساعة   بمن الناس كلهم أعلم
فقلت ونحن على جدة   من الأرض نيرها مظلم
لقد فرغ الله مما يكون   ومهما يكن فهو لا يكتم
فأقبل في أمرنا نافر   كما يقبل الوابل المنجم
وأتبع فوضى ومرفضة   كما ارفض من سلكه المنظم
أو السرب سرب القطا راعه   من الجو شوذانق مظلم
فواصل من كل قسطالة   كأن عشانينها العندم
وللمرء من فرج ما تستثير   سنابكهن سنا مضرم
فجلى الأغر وصلى الكميت   وسلى فلم يذمم الأدهم
وأردفها رابع تاليا   وأين من المنجد المتهم ؟
وما ذم مرتاحها خامساً   وقد جاء يقدم ما يقدم
وجاء الحظى لها سادسا   فأسهمه حظه المسهم
وسابعها العاطف المستحير   يكاد لحيرته يحرم
وجاء المؤمل فيها يخيب   وعن له الطائر الأشأم
وجاء اللطيم لها تاسعا   فمن كل ناحية يلطم
يخب السكيت على اثره   وذفراه من قبة أعظم
كأن جوانبه بين ذي   جمانة نيط بها قمقم
اذا قيل من رب ذا لم يحر   من الخزي بالصمت يستعصم
ومن لا يعد للحلاب الجياد   وشيك لعمرك ما يندم
وما ذو اقتضاب لمجهولها   كمن ينتميها ويستلزم
فرحنا بسبق شهرنا به   ونيل به الفخر والمغنم

وأحـرزن عن قصبـاتْ الرهان رغـائـب أثقـالهـا تقسـم
برود من القصـب موشية وأكسيـة الخـز والملـحم
فراحـت عليهـن مُنشورة كـأن حـواشيهـن الدم
ومـن ورق صامـت بدرة ينـوء بهـا الأغلـب الأعصم
ففضـت لنهـب خواتيمها وبدرتنـا الدهـر لا تختم
نوزعهـا بـين خدامها ونحـن لهـا منهـم أخدم
وانـا لنرتبـط المعربا ت في اللزبـات فما ترزم
يعـد لهـا المحض بعـد الحليب كما يصلـح الصـبية المفطم
ويخلطهـا بصـميم العيال بمـن له حب هو المحرم
مشاربهـا الصـافيات العذاب ومطعمهـا فهـو المطعم
فهـن بأكنـاف أبياتنـا صوافـن يصـهلن أو حـوم

ومال محمد بن يزيد في كلمته هذه الى أنه لا حظ للثامن ، وجعل للسابع حظا في السبق ، والهندسة اجراء الخيل وتجربتها فيما دون الغاية ، وانما سميت الحلبة حلبة لأن العرب تحلب اليها خيولها من كل مكان .

قال المتقي : أثبتنا ما يجري في هذه الأوقات ودونا ه ، فلم يزالا معه في ذلك يجدد لهما البر الى أن كان من أمره ما قد اشتهر .

وقد تناهى بنا الكلام الى هذا الموضع من خلافة المتقي ، فلنذكر الآن بعض من اشتهر شعره في هذا الوقت ، واستفاض في الناس وظهر .

ابو نصر الخبزارزي

فمنهم أبو القاسم نصر بن أحمد الخبزارزي وهو أحد المطبوعين المجودين في البديهة المعروفين بالغزل ، فمن جيد شعره قوله :

أنضى الهوى جسـدي وبدلنـي به جسـدا تكون من هوى متجسد
ما زال ايجـاذ الهـوى عدمـي الى أن صرت لو أعدمتـه لم أوجد

ومن جيد شعره ما عاتب به ابن لنكك الشاعر ، وهو :

لم لا ترى لصداقتـي تصديقا فينـا ، ولـم تدع الصـديق صديقا؟

ذو العقل لا يرضى بوسم صداقة حتى يرى لحقوقها تحقيقا
فلمن يرجى الحق أن يدعى أخا وعلى الرفيق بأن يكون رفيقا
ان غاب غاب محافظا ، أو حل كا ن مداغبا ، أو قال كان صدوقا

وفي هذا الشعر يقول :

ويكاد من علق الهوى بفؤاده مما تفكر أن يرى زنديقا

وقوله :

أعليك أعتب أم على الأيام ؟ بدأت ، وكنت مؤكدا بتمام
قطع التواصل قربنا بتواعد وقطعت أنت تواصل الأقلام
هلا ألفت اذ الزمان مشتت والالف للأرواح لا الأجسام

وفي هذا الشعر يقول :

عذرا أبا عيسى عسى لك في القلى عذر ، وذا علم بلا اعلام
من غابت الأخبار عنه ودينه دين الامامة قال بالأوهام
خذ من فرائدك الذي أعطيتني فالدر درك والنظام نظامي
حكم معانيها معانيك التي فصلتها لي ، والكلام كلامي

وشعره في الغزل وغيره أكثر من أن نأتي عليه ، وأكثر الغناء المحدث في وقتنا هذا من شعره ، وقد أشيع بموته وأن البريدي غرقه لأنه كان هجاه ، وقيل : بل هرب من البصرة ولحق بهجر والأحساء بأبي طاهر بن سليمان بن الحسن صاحب البحرين .

***

قال المسعودي : وقد أتينا على أخبار المتقي وما كان في أيامه من الكوائن والأحداث على الشرح والايضاح في الكتاب الأوسط الذي كتابنا هذا تال له ، وانما نذكر من أخبارهم في هذا الكتاب لمعا لاشتراطنا فيه على أنفسنا الاختصار والايجاز .

مقتل بجكم

وكذلك أتينا على خبر مقتل بجكم التركي ، وكان مقتله في رجب سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، وما كان من أمره مع الأكراد بناحية واسط ، وما كان من كورتكين الديلمي واستيلائه على جيش بجكم ، وانحدار محمد بن رائق من الشام ومحاربته كورتكين بعكبرا ، ومخاتلته اياه ، ودخوله الحضرة ، وما كان بينهم من الوقعة بالحضرة الى أن انهزم كورتكين واستولى محمد بن رائق على الأمر ، وما كان من البريديين وموافاتهم الحضرة ، وخروج المتقي عنها مع محمد بن رائق الموصلي ، في كتابنا المترجم بـ « أخبار الزمان » فأغنى بذلك عن اعادته في هذا الكتاب ، والله الموفق للصواب .

ذكر خلافة المستكفي بالله
أبو القاسم عبد الله بن علي المكتفي

موجز

وبويع المستكفي بالله ، وهو أبو القاسم عبدالله بن علي المكتفي ، يوم السبت لثلاث خلون من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة ، لسبع بقين من هذا الشهر .

فكانت خلافته سنة وأربعة أشهر الا أياما ، وأمه أم ولد .

ذكر جمل من أخباره وسيره
ولمع مما كان في أيامه

ذكر اول امره

قد قدمنا عندما ذكرنا خلع المتقي لله أن المستكفي بويع له بالسبق على نهر عيسى من أعمال بادوريا بازاء القرية المعروفة بالسندية في الوقت الذي سملت فيه عينا المتقي ، بايع له أبو الوفاء توزون وسائر من حضره من القواد وأهل الدولة ، وأهل عصره من القضاة منهم القاضي أبو الحسن محمد بن الحسين بن أبي الشوارب وجماعة من الهاشميين ، فصلى بهم في يومهم ذلك المغرب والعشاء ، وسار حتى نزل في يوم الأحد بالشماسية .

فلما كان في يوم الاثنين انحدر في الماء راكبا في الطيار الذي يسمى الغزال ، وعليه قلنسوة طويلة محدودة ، ذكر أنها كانت لأبيه المكتفي بالله ، وعلى رأسه توزون التركي ومحمد ابن محمد بن يحيى بن شيرزاد وجماعة من غلمانه ، وسلم اليه المتقي ضريرا ، وأحمد بن عبدالله القاضي مقبوضا عليه ، وحضر بعد ذلك سائر القضاة والهاشميين ، فبايعوا له .

واستوزر أبا الفرج محمد بن علي السامري مدة ، ثم غضب عليه ، وغلب على أمره محمد بن شيرزاد ، وجلس للناس ، وسأل عن القضاة ، وكشف عن أمر شهود الحضرة ، فأمر باسقاط بعضهم ، وأمر باستتابة بعضهم من الكذب وقبول بعضهم لأشياء كان قد علمها منهم قبل الخلافة ، فامتثل القضاة ما أمر به من ذلك .

واستقضى على الجانب الشرقي محمد بن عيسى المعروف بابن أبي موسى الحنفي ، وعلى الجانب الغربي محمد بن الحسن بن أبي الشوارب الأموي الحنفي ، فقالت العامة : الى ههنا انتهى سلطانه ، وانتهى في الخلافة أمره ونهيه .

وقد كان بينه وبين الفضل بن المقتدر الذي يسمى بالمطيع قبل ذلك مجاورة في دار ابن طاهر ، وعداوة في اللعب بالحمام وتطييرها ، واللعب بالكباش والديوك والسمان ، وهو

الذي يسمى بالشام النفخ ، فلما حمل المستكفي الى نهر عيسى ليبايع له هرب المطيع من داره ، وعلم أنه سيأتي عليه .

فلما استقرت للمستكفي طلب المطيع ، فلم يقف له على خبر ، فهدم داره ، وأتى على جميع ما قدر عليه من بستان وغيره .

المستكفي وغلام ضمه له توزون

وذكر أبو الحسن علي بن أحمد الكاتب البغدادي ، قال : لما استخلف المستكفي ضم اليه توزون غلاما تركيا من غلمانه يقف بين يديه ، وكان للمستكفي غلام قد وقف على أخلاقه ونشأ في خدمته ، فكان المستكفي يميل الى غلامه .

وكان توزون يريد من المستكفي أن يقدم المضموم اليه على غلامه الأول ، فكان المستكفي يبعث بالغلام التركي في حوائجه ، اتباعا لمرضاة توزون ، فلا يبلغ له ما يبلغ غلامه .

من أخبار الحجاج مع أهل الشام

قال : وأقبل المستكفي يوما على محمد بن محمد بن يحيى بن شيرزاد الكاتب ، فقال له : أتعرف خبر الحجاج بن يوسف مع أهل الشام ؟ . . .

قال : لا يا أمير المؤمنين .

قال : ذكروا أن الحجاج بن يوسف كان قد اجتبى قوما من أهل العراق وجد عندهم من الكفاية ما لم يجد عند مختصيه من الشاميين ، فشق ذلك على الشاميين وتكلموا فيه ، فبلغ اليه كلامهم ، فركب في جماعة من الفريقين ، وأوغل بهم في الصحراء ، فلاح لهم من بعد قطار ابل ، فدعا برجل من أهل الشام ، فقال له : امض فاعرف ما هذه الأشباح ، واستقص أمرها .

فلم يلبث أن جاء وأخبره أنها ابل .

فقال : أمحملة هي أم غير محملة ؟

قال : لا أدري ، ولكني أعود وأتعرف ذلكَ .

وقد كان الحجاج أتبعه برجل آخر من أهل العراق ، وأمره بمثل ما كان أمر الشامي .

فلما رجع العراقي أقبل عليه الحجاج وأهل الشام يسمعون ، فقال : ما هي ؟

قال : ابل .

قال : وكم عددها ؟

قال : ثلاثون .

قال : وما تحمل ؟
قال : زيتا .
قال : ومن أين صدرت ؟
قال : من موضع كذا .
قال : وأين قصدت ؟
قال : موضع كذا .
قال : ومن ربها ؟
قال : فلان .
فالتفت الى أهل الشام ، فقال :

ألام على عمرو ، ولو مات أو نأى لقل الذي يغني غناءك يا عمرو

فقال ابن شيرزاد : فقد قال يا أمير المؤمنين بعض أهل الأدب في هذا المعنى :

شر الرسولين من يحتاج مرسله منه الى العود ، والأمران سيان
كذاك ما قال أهل العلم في مثل طريق كل أخي جهل طريقان

قال المستكفي : ما أحسن ما وصف البحتري الرسول بالذكاء بقوله :

وكأن الذكاء يبعث منه في سواد الأمور شعلة نار

وعلم ابن شيرزاد استثقال المستكفي لغلام توزون ، فأخبر توزون بذلك فأعفاه منه ، وأزاله عن خدمته .

مسامرة في وصف الخمر

وحدث أبو اسحاق ابراهيم بن اسحاق المعروف بابن الوكيل البغدادي قال : كان أبي قديما في خدمة المكتفي ، فلما كان من أمره ما اشتهر ، صرت في خدمة ابنه عبدالله بن المكتفي ، فلما أفضت الخلافة اليه كنت أخص الناس به .

فرأيته في بعض الأيام وعنده جماعة من ندمائه ممن كان يعاشرهم قبل الخلافة من جيرانه بناحية دار ابن طاهر ، وقد تذاكروا الخمر وأفعالها ، وما قال الناس فيها من المنثور

والمنظوم ، وما وصفت به ، فقال بعض من حضر : يا أمير المؤمنين ، ما رأيت أحدا وصف الخمرة بأحسن من وصف بعض من تأخر ، فانه ذكر في بعض كتبه في الشراب ووصفه أنه ليس في العالم شيء واحد أخذ من أمهاته الأربع فضيلتها وابتزها أكرم خواصها الا الخمرة ، فلها لون النار ، وهو أحسن الألوان ، ولدونة الهواء ، وهي ألين المجسات ، وعذوبة الماء ، وهي أطيب المذاقات ، وبرد الأرض ، وهي ألذ المشروبات .

قال : وهذه الأربع وان كن في جميع المآكل والمشارب متركبة فليس الغالب عليه ما وصفنا من الغالب على الخمر ، قال واصفها : قد قلت في اجتماع الصفات التي ذكرنا فيها :

لست أرى كالراح في جمعها ... لأربع هن قوام الورى
عذوبة الماء ، ولين الهوا ، ... وسخنة النار ، وبرد الثرى

ولما كانت الراح بالموضع الذي وصفناها به ، من الفضل على سائر ما ينال من هذه الدنيا ، كانت الأوصاف أحسن لها من سائر ما ينال ويوصف من صنوف اللذات والمدح بها بما تبعث من فنون الشهوات .

قال : فأما شعاع الخمر فانه يشبه بكل شيء نوري ، من شمس وقمر ونجم ونار ، وغير ذلك من الأشياء النورية .

فأما لونها فيحتمل أن يشبه بكل أحمر في العالم وأصفر ، من ياقوت وعقيق وذهب ، وغير ذلك من الجواهر النفيسة والحلى الفاخرة .

قال : وقد شبهها الأولون بدم الذبيح ، ودم الجوف ، وشبهها غيرهم بالزيت والرازقي وغيرهما ، وتشبيهها بالجوهر الأكرم أفضل لها ، وأحسن في مدحها .

قال : فأما صفاؤها فيحتمل أن يشبه بكل ما يقع عليه اسم الصفاء ، وقد قال بعض الشعراء المتقدمين في صفائها :

تريك القذى من دونها وهي دونه

وهذا أحسن ما قاله الشعراء في وصف الخمر .

قال : وقد أتى أبو نواس في وصفها ووصف طعمها وريحها وحسنها ولونها وشعاعها وفعلها في النفس وصفة آلاتها وظروفها وأدنانها ، وحال المنادمات عليها ، والاصطباح ، والاغتباق ، وغير ذلك من أحوالها ، بما يكاد يغلق به باب وصفها ، لولا اتساع الأوصاف لها ، واحتمالها اياها ، وأنها لا تكاد تحصر ، ولا يبلغ الى غاياتها ، قال : وقد وصف أبو

نواس نورها فقال :

فكأنها في كفه شمس وراحته قمر

وقال :

فعلت في البيت اذ مزجت. مثل فعل الصبح في الظلم
فاهتدى ساري الظلام بها كاهتداء السفر بالعلم

وقال أيضا :

بنت عشر صفت ورقت، فلو صبّـ ـت على الليل راح كل ظلام

وقال أيضا :

اذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا
ترى حيثما كانت من البيت مشرقا وما لم تكن فيه من البيت مغربا

وقال أيضا :

وكأن شاربها لفرط شعاعها في الكأس يكرع في ضيا مقباس

وقال أيضا :

فقلت له : ترفق بي فاني رأيت الصبح من خلل الديار
فقال تعجبا مني : أصبح ولا صبح سوى ضوء العقار
وقام الى الدنان فسد فاها فعاد الليل مصبوغ الازار

وقال أيضا :

وحمراء قبل المزج صفراء دونه كأن شعاع الشمس يلقاك دونها

وقال :

كـأن نـارا بهـا محـرشـة تهـابهـا تـارة وتخشـاهـا

وقال أيضا :

حمراء لولا انكسار الماء لاختطفت نور النواظـر من بـين الحماليق

وقال أيضا :

ينقض منهـا شعــاع كلما مزجت كالشهب تنقض في اثـر العفاريت

وقال :

عتقت في الدنـان حتـى استفادت نور شمس الضحى وبـرد الظلام

وقال :

فجوزهـا عنـي عقـارا ترى لها الى الشرف الأعلى شعاعـا مطنبا

وقال :

قال : ابغني المصباح ، قلت له : اتئد ، حسبي وحسبك ضؤوهـا مصباحا
فسكبـت منهـا في الزجاجـة شربة كانـت لنـا حتـى الصبـاح صباحا

قال : وله في هذا الفن أشياء كثيرة قد وصفها في مشابهة النار ومجانسة الأنوار والرفع للظلام ، وتصيير الليل نهارا والظلم أنوارا مما هو اغراق الواصف واشتطاط المادح .

قال : وليس الى صفة لونها ونورها ما هو أحسن مما وصفها ، اذ ليس بعد الأنوار شيء في الحسن .

قال : فداخل المستكفي سرور وفرح وابتهاج بما وصف ، فقال : ويحك ! فرج عني من هذا الوصف .

قال : نعم يا سيدي .

قال عبدالله بن محمد الناشيء : وقد كان المستكفي ترك النبيذ حين أفضت الخلافة اليه ، فدعا بها من وقته ، ودعا الى شربها .

***

وقد كان المستكفي ـ حين أفضت الخلافة اليه ـ طلب الفضل بن المقتدر ، على حسب ما قدمنا ، لما كان بينهما من العداوة فيما ذكرنا ، وغير ذلك مما عنه أعرضنا ، فهرب الفضل ، وقيل انه هرب الى أحمد بن بويه الديلمي متنكرا ، وأحسن اليه أحمد ولم يظهره ، فلما مات توزون ودخل الديلمي الى بغداد وخرج الأتراك عنها ، صار الى ناصر الدولة أبي محمد الحسن بن عبد اللّه بن حمدان ، وانحدر معه هو وابن عمه أبو عبد الله بن أبي العلاء .

فكان بينه وبين ابن بويه الديلمي من الحرب ما قد اشتهر ، وانحاز الديلمي الى الجانب الغربي ومعه المستكفي والمطيع مختف ببغداد ، والمستكفي يطلبه أشد الطلب ، وأنزل المستكفي في بيعة النصارى المعروفة بدرنا من الجانب الغربي .

فذكر أبو اسحاق ابراهيم بن اسحاق المعروف بابن الوكيل ، ومنزلته من خدمة المستكفي ما قدمنا .

قال : كان المستكفي في سائر أوقاته فازعا وجلا من المطيع أن يلي الخلافة ، ويسلم اليه فيحكم فيه بما يريد ، فكان صدره يضيق لذلك ، فيشكو ذلك في بعض الأوقات الى من ذكرنا ممن كان يألفه من ندمائه فيشجعونه ويهونون عليه أمر المطيع ، الى أن قال لهم في بعض الأيام : قد اشتهيت أن نجتمع في يوم كذا كذا فنتذاكر أنواع الأطعمة وما قال الناس في ذلك منظوما ، فاتفق معهم على ذلك .

فلما كان في اليوم الذي حضروا أقبل المستكفي فقال : هاتوا ، ما الذي أعده كل واحد منكم ؟

لابن المعتز في وصف سلة كوامخ

فقال واحد منهم : قد حضرني يا أمير المؤمنين أبيات لابن المعتز يصف سلة فيها سكارج كوامخ .

فقال هاتها .

قال :

أمتع بسلة قضبان أتتك وقد حفت جوانبها الجامات أسطار
فيها سكارج أنواع مصففة حمر وصفر ، وما فيهن انكار
فيهن كامخ طرخون مبوهرة وكامخ أحمر فيها وكبار
أعطته شمس الضحى لونا فجاء به كانه من ضياء الشمس عطار
فيهن كامخ مرزنجوش قابله من القرنفل نوع منه مختار
وكامخ الدارصيني فليس له في الطعم شبه ، ولا في لونه عار
كأنه المسك ريحا في تنسمه حريف في طعمه والريح معطار
وكامخ الزعترالبري أن له لونا حكاه لدينا المسك والقار
وكامخ الثوم لما أن بصرت به أبصرت عطرا له بالأكل أمار
كأن زيتونها فيها ظلام دجى في الجنب منه من المقورأسفار
اذا تأملت ما فيهن من بصل كأنهن لجين حشوه نار
وسلجم مستدير القد خالطه طعم من الخل قد حازته أسطار
كأن أبيضه فيه وأحمره دراهم صففت فيهن دينار
في كل ناحية منها يلوح لها نجم الينا بضوء الفجر نظار
كأنها زهرة البستان قابلها بدر وشمس واظلام وأنوار

قال المستكفي : تحضر هذه الجونة بعينها على هذا الوصف ، وهاتوا ، فلسنا نأكل اليوم الا ما تصفون .

في وصف سلة نوادر

فقال آخر من الجلساء : يا أمير المؤمنين ، لمحمود بن الحسين الكاتب المعروف بكشاجم في صفة سلة نوادر :

متى ننشط للأكل فقد أصلحت الجونه
وقد زينها الطاهي لنا أحسن ما زينه
فجاءت وهي من أطيـ ب ما يؤكل مشحونه
فمن جدي شويناه وعصبنا مصارينه
ونضدنا عليه نعـ نع البقل وطرخونه

وفـرخ وافـر الزور أجدنـا لك تسمينه
وطيهـوج وفروج اجدنـا لك تطحينه
وسنبوسجـة ملقوّة في أثـر طردينه
وحمـراء من البيض الى جانـب زيتونه
وأوسـاط شطيرات بزيت الماء مدهونة
يولـدن لذي التخـ ـمة جوعـا ويشهينه
ترنـج بكسـور النـ ـد بالعنبـر معجونه
وحـريف من الجبن به الأوسـاط مقرونه
وطلـع كالـلآلي في سمـوط الغيد مكنونه
وخـل ترعف الآنا ف منـه وهـي مختونه
وباذنجـان بوران به نفسـك مفتونه
وهليون وعهـدي بـ ك تستعـذب هليونه
ولوزينجـة في الدهـ ن والسـكر مدفونه
وعنـدي لك رستيجـ ـة مطبـوخ وقنينه
وسـاق وعـدت بالوصـ ل منـه عطفـة النونه
له شدة ألحاظ وفي ألفاظـه لينه
وقمـري يغنيك لحونـا غـير ملحونه
ألا يا من لمحزون نأى عن دار محزونه
فما عذرك في أن لا ترى من سكره طينه

فقال المستكفي : أحسنت وأحسن القائل فيما وصف ، ثم أمر باحضار كل ما يجري في وصفه مما يمكن احضاره .

لابن الرومي في وصف وسط

ثم قال : هاتوا ، من معه شيء في هذا المعنى ؟
فقال آخر : في هذا المعنى لابن الرومي في صفة وسط :

يا سائلي عن مجمـع اللذات سألـت عنـه أنعـت النعات
فهـاك ما أنشأتـه من قصه مسلـما من شوبـه ونقصه
خذ يا مريد المـأكل اللذيذ جردقتـي خبـز من السميذ

لم تر عينا ناظر مثليهما فقشر الحرفين عن وجهيهما
حتى اذا ما صارتا طفاطفا فأضف على أحداهما تفايفا
من لحم فروج ولحم فرخ تدوب جوذاباهما بالنفخ
واجعل عليها أسطرا من لوز معارضات أسطرا من جوز
اعجامها الجبن مع الزيتون وشكلها النعنع بالطرخون
حتى ترى بينهما مثل اللبن مقسومة كأنها وشي اليمن
واعمدالى البيض السليق الأحمر فدرهم الوسط به ودنّر
وترب الاسطر بالملح ، ولا تكثر ، ولكن قدرا معتدلا
وردد العينين فيه لحظا فان للعينين منه حظا
ومتع العين به مليا وأطبق الخبز وكل هنيا
وامسك بنابيك وأكدم تسرع فيما قد بنيت هدما
طورا ترى كحلقة الدولاب حروفه ودوره كالداب
وتارة مثل الرحى بلا سغب قد شذبت عنها بنابيك السذب
لهفي عليها وأنا الزعيم بمعدة شيطانها رجيم

في وصف سنبوسج

وقال آخر : يا أمير المؤمنين ، لاسحاق بن ابراهيم الموصلي في صفة سنبوسج :

يا سائلي عن أطيب الطعام سألت عنه أبصر الأنام
اعمد الى اللحم اللطيف الأحمر فدقه بالشحم غير مكثر
واطرح عليه بصلا مدورا وكرنبا رطبا جنيا أخضرا
والق السذاب بعده موفرا ودار صيني وكف كزبرا
وبعده شيء من القرنفل وزنجبيل صالح وفلفل
وكف كمون وشيء من مري وملء كفين بملح تدمر
فدقه يا سيدي شديدا ثم أوقد النار له وقودا
واجعله في القدر وصب الماء من فوقه واجعل له غطاء
حتى اذا الماء فنى وقلا ونشفته النار عنه كلا
فلفه ان شئت في رقاق ثم احكم الأطراف بالالزاق
أو شئت خذ جزءا من العجين معتدل التفريك مستلين

فابسطه بالسويق مستديرا ثم اطفرن أطرافه تطفيرا
وصب في الطابق زيتا طيبا ثم اقله بالزيت قليا عجبا
وضعه في جام له لطيف ووسطه من خردل حريف
وكله أكلا طيبا بخردل فهو ألذ المأكل المعجل

في وصف هليون

فقال آخر : يا أمير المؤمنين ، لمحمود بن الحسين بن السندي كشاجم الكاتب في وصف هليون :

لنارماح في أعاليها أود مفتلات الجسم فتلا كالمسد
مستحسنات ليس فيها من عقد لها رؤوس طالعات في جسد
مكسوة من صنعة الفرد الصمد منتصبات كالقداح في العمد
ثوب من السندس من فوق برد قد أشربت حمرة لون يتقد
كأنها ممزوجة حمرة خد قد قرصت حمرته كف حرد
فخالطته حمرة خد ويد كأنها في صحن جام أو برد
منضدات كتناضيد الزرد نسائج العسجد حسنا منتضد
كأنها مطرف خز قد مهد لو انها تبقى على طول الأبد
كانت فصوصا لخواتيم الخرد من فوقها مزي يعليها يطرد
يجول في جانبها جزر ومد مكسوة من زيتها ثوب زبد
كأنه من فوقه حين لبد شراك تبر أو لجين قد مسد
فلو رآها عابد أو مجتهد أفطر مما يشتهيها وسجد

في وصف أرزية

فلما فرغ منها قال له المستكفي : هذا مما يتعذر وجوده في هذا الوقت بهذا الوصف في هذا البلد ، الا أن نكتب الى الاخشيد محمد بن طغج يحمل الينا من ذلك البر من دمشق ، فأنشدونا فيما يمكن وجوده .

قال آخر : يا أمير المؤمنين ، لمحمد بن الوزير المعروف بالحافظ الدمشقي في صفة أرزية :

للّــه در أرزة وافى بها طاه كحسـن البـدر وسـط سماء
أبقى من الثلـج المضـاعف نسجه من صنعـة الأهـواء والأنداء
وكأنهـا في صحفـة مقدودة بيضـاء مثـل الـدرة البيضاء
بهـرت عيون الناظـرين بضوئها وتـريك ضوء البـدر قبـل مساء
وكأن سكرهـا على أكنافها نور تجسـد فوقهـا بضياء

في وصف هريسة

فقال آخر : يا أمير المؤمنين ، أنشدت لبعض المتأخرين في هريسة :

ألـذ مـا يأكلـه الانسان اذا أتـى من صيفـه نيسان
وطالـت الجـديـان والخرفـان هريسة يصـنعهـا النسوان
لهـن طيب الـكف والاتقان يجمـع فيهـا الطـير والحملان
وتلتقـي في قدرهـا الأذهان واللحـم والالية والشحمان
وبعـده اوزة سمـان والحنـطة البيضـاء والجلبان
وبعـد هذا اللـوز والابان جودهـا بطحنـه الطحـان
وبعـده الملـح وخولنجـان قـد تعبـت لعقـدهـا الأبدان
تخجـل من رؤيتهـا الالوان اذا بدت يحملهـا الغلمان
تضمهـا الصحفـة والخوان وفوقهـا كالقبـو خيزران
يمسـكه سقف له حيطان مقبـب ومـا له أركان
أبرزهـا للآكل الولدان تفتـر من لهيبهـا العينان
والمرء فيهـا فلـه مكان يؤثرهـا الجائـع والشبعان
ويشتهيهـا الأهـل والضيفان لهـا على أضرابهـا السلطان
تصفـو به العقـول والأذهان وانتفعـت بأكلهـا الأبدان
أبدعهـا في عصره ساسان وأعجبـت كسرى أنـو شروان
اذا رآهـا الجائـع الغرثان لم يعـط صبـرا معهـا الجيعان

في وصف المضيرة

وقال آخر : يا أمير المؤمنين ، لبعض المتأخرين في صفة المضيرة :

ان المضيرة في الطعام كالبدر في ليل التمام
اشراقها فوق الموا ئد كالضياء على الظلام
مثل الهلال اذا بدا للناس في خلل الغمام
في صحفة مملوءة للناس من جزع التهام
قد أعجبت لأبي هريـ رة اذ أتت بين الطعام
حتى لقد مال الهوى بهواه عن طلب الصيام
ولقد رأى في أكلها حظا فبادر بالقيام
ولقد تنكب أن يكو ن مؤاكلا عند الامام
اذ ليس ثم مضيرة تشفي السقيم من السقام
لا غرو في اتيانها من غير اتيان الحرام
فهي اللذيذة والغريـ بة والعجيبة في الأنام

في وصف جوذابة

وقال آخر : يا أمير المؤمنين ، لمحمود بن الحسين في صفة جوذابة :

جوذابة من أرز فائق مصفرة في اللون كالعاشق
عجيبة مشرقة لونها من كف طاه محكم حاذق
نسيجة كالتبر في حمرة وردية من صنعة الخالق
بسكر الأهواز مصبوغة فطعمها أحلى من الرائق
غريقة في الدهن رجراجة تدور بالنفخ من الذائق
لينة ملمسها زبدة وريحها كالعنبر الفائق
كأنها في جامها اذ بدت تزهر كالكوكب في الغاسق
عقيقة صفرتها فاقع في جيد خود بضة عاتق
أحلى من الأمن أتى مؤمنا الى فؤاد قلق خافق

وقال آخر : يا أمير المؤمنين ، معي لبعض المحدثين في صفة جوذابة :

وجوذابة مثل لون العقيق وفي الطعم عندي كطعم الرحيق
من السكر المحض معمولة ومن خالص الزعفران السحيق

مغرقـة بشحـوم الدجاج وبالشحـم ، أكرم بهـا من غريق
لذيذة طعـم اذا استعملت وفي اللـون منهـا كلـون الخلوق
عليهـا الـلآلىء من فوقها تضـم جوانبهـا ضم ضيق
يرددهـا في الانـا نفخة ومـا في حلاوتهـا من مطيق

في وصف قطائف

وقال آخر : يا أمير المؤمنين ، لمحمود بن الحسين كشاجم في صفة قطائف :

عندي لأصحابي اذا اشتد السغب قطـائف مثـل أضابـير الكتب
كأنـه اذا ابتـدى من الكثب كوافـر النحـل بياضـا قد ثقب
قد مج دهـن اللـوز مما قد شرب وابتـل ممـا عام فيه ورسب
وجـاء ماء الـورد فيه وذهب فهـي عليه حبـب فوق حبب
اذا رآه والـه القلـب طرب مدرج تدريج أبنـاء الكتب
أطيب منـه أن تراه ينتهب كل امـرىء لذتـه فيا أحب

فأقبل المستكفي على معلم كان يعلمه في صبـاه طيب النفس ، وكان يضحـك منـه ويستظرفه ، فقال له : قد أنشدنا ما سمعت ، فأنشدنا أنت .

لأبي نواس في وصف باطرنجا

قال : لا أدري ما قال هؤلاء ، وما أنشدوا ، غير أني مضيت في أمس يومنا هذا أدور حتى أتيت باطرنجا ، فرأيت رياضها ، فذكرت قول أبي نواس فيها ، فوالله لقد شجاني ، وذهب بي كل مذهب .

فقال له المستكفي : وما الذي قال أبو نواس ، ووصف من أمرها ؟

قال :

نوم عينيك يا ابـن وهـب غرار ولنـار الهـوى بقلبـك نار
باطرنجـا بهـا ثوائـي، ولي فيـ ـها اذا دارت الكؤوس اعتبار
من حديثي انـي مررت بهـا يو ما وقلبـي من الهـوى مستطار
وبهـا نرجس ينـادي غلامي قف فقـد أدركت لدينـا العقار
وتغنـي الـدراج واستمطـر اللهـ ـو وجـادت بنورهـا الأزهار

فانثنينا الى رياض عيون ناظرات ما ان بهن احورار
ومكان الجفون منها ابيضاض ومكان الأحداق منها اصفرار
بينا نحن عندها صرخ الور د : الينا يأأيها السمار
عندنا قهوة تغافل عنها دهرها فالوجود منها خمار
وانثنينا للورد من غير أن تنـ بو عن النرجس المضاعف دار
فرأى النرجس الذي صنع الور د فنادى مستصرخا يا بهار
ورأى الورد عسكرين من الـ صفر فنادى فجاءه الجلنار
واستجاشا تفاح لبنان لما حميت من وطيسها الأوتار
واستجاش البهار جيشا من الأتـ رج فيه صغاره والكبار
فرأيت الربيع في عسكرالصفـ ر وقلبي يشفه الاحمرار
ليس الا لحمرة من خدود من أناس بغوا علينا وجاروا

فلم أر المستكفي منذ ولي الخلافة أشد سرورا منه في ذلك اليوم ، وأجاز جميع من حضر من الجلساء والمغنين والملهين ، ثم أحضر ما حضره في وقته من عين وورق مع ضيق الأمر اليه ، فواللّه ما رأيت له بعد ذلك يوما مثله ، حتى قبض عليه أحمد بن بويه الديلمي ، وسمل عينيه .

وذلك أن الحرب لما طالت بين أبي محمد الحسين بن عبد اللّه بن حمدان ـ وكان في الجانب الشرقي ومعه الأتراك ـ وابن عمه الحسين بن سعيد بن حمدان ، وبين أحمد بن بويه الديلمي في الجانب الغربي ، والمستكفي معه ، اتهم الديلمي المستكفي بمساءلةبني حمدان ومكاتبتهم بأخباره ، واطلاعهم على أسراره ، مع ما كان قد تقدم له في نفسه ، فسمل عينيه ، وولي المطيع .

وأعمل الديلمي الحيلة في البيات بالديلم ، فحملهم في السفن مع بوقات ودبابات في الليل ، وألقاهم في مواضع كثيرة من الشارع الى الجانب الشرقي ، فتوجهت له على بني حمدان الحيلة ، فخرجوا نحو الموصل من بعد أحداث كثيرة بين الأتراك وبينهم ببلاد تكريت .

واستوثق الأمر لأحمد بن بويه الديلمي ، وشرع في عمارة البلد ، وسد البثوق ، على حسب ما ينمو الينا من أخباره ، واتصل بنا من أفعاله ، على بعد الدار ، وفساد السبل ، وانقطاع الأخبار ، وكوننا ببلاد مصر والشام .

قال المسعودي : ولم يتأت لنا من أخبار المستكفي ـ مع قصر أيامه ـ غير ما ذكرنا ، واللّه الموفق للصواب .

ذكر خلافة المُطيع لله
أبو القاسم الفضل بن جعفر المقتدر

موجز مبدئه

وبويع المطيع للّه ، وهو أبو القاسم الفضل بن جعفر المقتدر ، لسبع بقين من شعبان سنة أربع وثلاثين وثلثمائة ، وقيل : انه بويع في جمادى الأولى من هذه السنة ، وغلب على الأمر ابن بويه الديلمي ، والمطيع في يده لا أمر له ولا نهي ، ولا خلافة تعرف ، ولا وزارة تذكر .

وقد كان أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد يدبر الأمر بحضرة الديلمي ، فيما يأمر الوزارة برسم الكتابة ، ولم يخاطب بالوزارة الى أن استأمن الحسين بن عبد اللّه بن حمدان الى الجانب الغربي ، وخرج معه عند خروجه الى ناحية الموصل ، الى أن اتهمه بتغريته الأتراك عليه ، فسمل عينيه ، وقد قيل : ان أبا الحسن علي بن محمد بن علي بن مقلة يعرض الكتب على الديلمي والمطيع ، ويتصرف برسم الكتابة ، لا برسم الوزارة في هذا الوقت ، وهو جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وثلثمائة ، ولم نفرد بجوامع تاريخ المطيع بابا مفصلا عن أخباره كافرادنا لغيره مما سلف ذكره في هذا الكتاب لأنا في خلافته بعد .

قال المسعودي : وقد كنا شرطنا على أنفسنا في صدر كتابنا هذا أن نذكر مقاتل آل أبي طالب ومن ظهر منهم في أيام بني أمية وبني العباس ، وما كان من أمرهم من قتل أو حبس أو ضرب ، ثم ذكرنا ما تأتى لنا ذكره من أخبارهم ، من قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ، وبقي علينا من ذلك ما لم نورده ، وقد ذكرناه في هذا الموضع ، وفاء بما تقدم من شرطنا في هذا الكتاب .

طالبي يظهر بصعيد مصر
أيام ابن طولون

فمن ذلك أنه ظهر بصعيد مصر أحمد بن عبد اللّه بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم ابن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ، فقتله أحمد بن طولون ، بعد أقاصيص قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا ، وذلك نحو سنة سبعين ومائتين .

وكان خروج أبي عبد الرحمن العجمي على أحمد بن طولون بصعيد مصر وما كان من أمره الى أن قتل .

ظهور محسن بن الرضا
بدمشق

ومن ذلك ظهور ابن الرضا ، وهو محسن بن جعفر بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، في أعمال دمشق سنة ثلثمائة ، فكانت له مع أميرها أحمد بن كيغلغ أحداث فقتل صبرا ، وقيل : قتل في المعركة ، وحمل رأسه الى مدينة السلام فنصب على الجسر الجديد بالجانب الغربي .

ظهور الأطروش بطبرستان

وظهر ببلاد طبرستان والديلم الأطروش ، وهو الحسن بن علي بن محمد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وأخرج عنها المسودة ، وذلك في سنة احدى وثلثمائة .

وقد كان أقام في الديلم والجبل سنين ، وهم جاهلية ومنهم مجوس ، فدعاهم الى الله تعالى فاستجابوا وأسلموا الا قليلا منهم في مواضع من بلاد الجبل والديلم في جبال شاهقة وقلاع وأودية ، وبنى في بلادهم مساجد ، وقد كان للمسلمين بازائهم ثغور مثل قزوين وشالوس وغيرهما من بلاد طبرستان .

وقد كان بمدينة شالوس حصن منيع وبنيان عظيم بنته ملوك فارس ، يسكن فيه الرجال المرابطون بازاء الديلم ، ثم جاء الاسلام فكان كذلك الى أن هدمه الأطروش .

وقد كان بين الأطروش والحسن بن القاسم الحسني الداعي حروب على بلاد طبرستان ، فكانت بينهم سجالا .

وكان الحسن بن القاسم الحسني الداعي وافى الري ، وذلك في سنة سبع عشرة وثلثمائة في جيوش كثيرة من الجبل والديلم ومعه ما كان بن كاكي الديلمي أحد فتاك الديلم ووجوهها ، فأخرج عساكر نصر بن أحمد بن اسماعيل بن أحمد صاحبه عنها ، واستولى عليه وعلى قزوين وزنجان وقم وأبهر وغير ذلك مما اتصل بالري .

فكتب المقتدر الى نصر بن أحمد بن اسماعيل بن أحمد صاحب خراسان ينكر عليه ذلك ويقول : اني ضمَّنتك المال والدم ، فأهملت أمر الرعية ، وأضعفتها وأهملت البلد ، حتى دخلته المبيضة ، وألزمه اخراجهم عنه .

فوقع اختيار نصر صاحب خراسان على انفاذ رجل من أصحابه من الجبل ، يقال له أسفار بن شيرويه ، وأخرج معه ابن المحتاج ، وهو أمير من أمراء خراسان ، في جيش كثير ليحارب من مع الداعي وما كان ابن كاكي من الديلم لما بين الجبل والديلم من الضغائن والتنافر .

فسار أسفار بن شيرويه الجبلي فيمن معه من الجيوش الى حدود الري ، فكانت الوقعة بين أسفار بن شيرويه الجبلي ، وبين ماكان بن كاكي الديلمي ، فاستأمن أكثر أصحاب ماكان بن كاكي الديلمي وقواده ، مثل مشيز وتالجين وسليمان بن شركلة الأشكري ، ومرد الأشكري ، وهشونة بن أومكر في آخرين من قواد الجبل ، فحمل عليهم ماكان في نفر يسير من غلمانه سبع عشرة حملة ، وصبرت له عساكر خراسان ، ومن معه من الأتراك ، فولى ماكان ، ودخل بلاد طبرستان .

وانهزم الداعي بين يديه ، وما كان على حاميته ، فلحقته خيول خراسان والجبل والديلم والأتراك ، فيهم أسفار بن شيرويه ، ومضى ما كان لكثرة الخيول ، وانحاز الداعي وقد لحق بقرب آمل قصبة بلاد طبرستان الى طاحونة هنالك ، وقد تخلى عنه من كان معه من الأنصار ، فقتل هنالك ، ولحق ما كان بالديلم .

واستولى أسفار بن شيرويه على بلاد طبرستان ، والري ، وجرجان ، وقزوين ، وزنجان ، وأبهر ، وقم ، وهمذان ، والكرخ ، ودعا لصاحب خراسان ، واستوثقت له الأمور ، وعظمت جيوشه ، وكثرت عدته ، فتجبر وطغى ، وكان لا يدين بملة الاسلام ، وعصى صاحب خراسان ، وخالف عليه ، وأراد أن يعقد التاج على رأسه ، وينصب بالري سريرا من ذهب للملك ، ويتملك على ما في يديه مما قد ذكرنا من البلاد ، ويحارب السلطان وصاحب خراسان .

فسير المقتدر هارون بن غريب في الحال نحو قزوين ، فكانت له معه حروب ، فانكشف هارون ، وقتل من أصحابه خلق كثير ، وذلك بباب قزوين .

وقد كان أهل قزوين عاونوا أصحاب السلطان ، فقتلوا منهم عدة ، فكانت لهم بعد هزيمة هارون بن غريب مع الديلم حروب ، وسار اليهم أسفار بن شيرويه ، فأتى على خلق عظيم بها ، وملك القلعة التي في وسط قزوين ، وتدعى بالفارسية : كشوين ، وهو الحصن الذي كان للمدينة أولا في نهاية المنعة ، مما كانت الفرس جعلته ثغرا بازاء الديلم وشحنته بالرجال ، لأن الديلم والجبل ـ مذ كانوا ـ لم ينقادوا الى ملة ، ولا استحبوا شرعا .

ثم جاء الاسلام ، وفتح الله على المسلمين البلاد ، فجعلت قزوين للديلم ثغرا هي وغيرها ، مما أطاف ببلاد الديلم والجبل ، وقصدها المطوعة والغزاة ، فرابطوا وغزوا ونفروا منها ، الى أن كان من أمر الحسن بن علي العلوي الداعي ، الأطروش ، واسلام من ذكرنا من ملوك الجبل والديلم على يديه ما تقدم ذكره في صدر هذا الباب من خبره ، والآن فقد فسدت مذاهبهم وتغيرت آراؤهم ، وألحد أكثرهم .

وقد كان قبل ذلك جماعة من ملوك الديلم ورؤسائهم يدخلون في الاسلام ، وينصرون

من ظهر ببلاد طبرستان ، من آل أبي طالب ، مثل الحسن ومحمد ابني زيد الحسيني .

وخرب أسفار بن شيرويه قزوين لما كان من فعل أهلها ومعاونتهم أصحاب السلطان على رجاله ، وقلع أبوابها ، وسبى ، وأباح الفروج ، وسمع المؤذن يؤذن على صومعة الجامع ، فأمر أن ينكس منها على أم رأسه ، وخرب المساجد ، ومنع الصلوات .

فاستغاث الناس في المساجد في أمصار المشرق ، واستفحل أمره ، وسار صاحب خراسان يريد الري ، لحرب أسفار بن شيرويه في عساكره ، وانفصل عن مدينة بخارى ، وهي دار مملكة صاحب خراسان في هذا الوقت ، وعبر نهر بلخ فنزل مدينة نيسابور .

وسار أسفار بن شيرويه الى الري ، وجمع عساكره ، وضم اليه رجاله من الأطراف ، وعزم على محاربة صاحب خراسان .

فأشار عليه وزيره ـ وهو مطرف الجرجاني ، وكان يخاطب بالرئيس ـ أن يلاطف صاحب خراسان ، ويراسله ويطمعه في المال واقامة الدعوة ، فان الحرب تارات ، وأوقاتها سجال ، والانفاق عليها من رأس المال ، فان جنح الى ما دعوته اليه وراسلته به ، والا فالحرب بين يديك ، لأن من معك من الأتراك وأكثر فرسان خراسان انما هم رجاله ، وانما قد تملكتهم بالاحسان اليهم ، ولا تدري لعله اذا قرب منك صاروا مع صاحبهم .

فقبل قوله ، وأمر بمكاتبته .

فلما وردت الكتب على صاحب خراسان أبى أن يقبل شيئا من ذلك ، وعزم على المسير اليه ، فأشار عليه وزيره أن يقبل منه ما بذل ، وأن يرضى منه بما تحمل من الأموال ، واقامة الدعوة ، فان الحرب عثراتها لا تقال ، ولا يدري الى ما تؤول ، لأن الرجل قوي بالمال والرجال ، فان هزم لم يكن في ذلك كبير فتح ، اذ كان رجلا من رجالك انتدبته لحرب عدوك وضممت اليه عساكرك وغلمانك ، فخالف عليك ، وان كانت ـ وعائذ بالله ـ عليك لم تستقل من ذلك .

فشاور صاحب خراسان ذوي الرأي من قواده وأصحابه فيما قال وزيره فسددوا رأيه ، وصوبوا قوله ، فجنح الى قولهم ، وما أشير عليه ، فأجاب أسفار بن شيرويه الى ما سأل ، وأعطاه ما طلب من بعد شروط اشترطها عليه من حمل أموال وغير ذلك .

فلما ورد الكتاب على أسفار بن شيرويه قال لوزيره : هذه أموال عظيمة قد اشترط علينا حملها ، ولا سبيل الى اخراجها من بيت المال ، فالواجب أن نستفتح خراج هذه البلاد .

فقال له وزيره : ان في استفتاح الخراج في غير وقته مضرة على أرباب الضياع ،

وخراب البلاد ، وجلاء لكثير من أهل الضياع قبل ادراك غلاتهم .

قال له أسفار : فما الوجه ؟

قال الوزير : الخراج انما يخص بعض الناس من أرباب الضياع خاصة ، وههنا وجه يعم سائر الناس من أرباب الضياع وغيرهم من المسلمين ، وسائر أهل الملل من أهل هذه البلاد وغيرهم من الغرباء ، من غير ضرر عليهم ولا كثير مؤنة ، بل اعطاء شيء يسير ، وهو أن تجعل على كل رأس دينارا ، فيكون في ذلك ما اشترط علينا حمله من المال وزيادة عليه كثيرة ، فأمره أسفار بذلك .

فكتب أهل الأسواق والمحال من المسلمين وأهل الذمة حتى وصل في الاحصاء الى من في الفنادق والخانات من الغرباء من التجار وغيرهم .

وحشر الناس الى دار الخراج بالري وسائر أعمالها ، فطولبوا بهذه الجزية ، فمن أدى كتب له براءة بالأداء مختومة على حسب ما تكتب براءة أهل الذمة عند أدائهم الجزية في سائر الأمصار .

فأخبرني جماعة من أهل الري ، وغيرهم ممن طرأ عليهم من الغرباء من التجار وغيرهم ـ وأنا يومئذ بالأهواز وفارس ـ أنهم أدوا هذه الجزية وأخذوا هذه البراءة بأدائها .

فاجتمع من ذلك أموال عظيمة حمل منها ما اشترط عليه ، وكان الباقي من ذلك ألف ألف دينار ونيفا ، وقيل : أضعاف ما ذكرنا على حسب الخلائق الذين بالري وأعمالها .

ورجع صاحب خراسان الى بخارى .

وعظم أمر أسفار على خلاف ما عهد ، وبعث برجل من أصحابه كان صاحب جيش من الجبل يقال له مرداويج بن زيار الى ملك من ملوك الديلم مما يلي قزوين ، وهو صاحب الطرم من أرض الديلم ، وهو ابن أسوار المعروف بسلار الذي ولده في هذا الوقت صاحب أذربيجان وغيرها ، ليأخذ عليه البيعة لأسفار بن شيرويه والعهد والدخول في طاعته .

فسار مرداويج الى سلار فتشاكيا ما نزل بالاسلام من أسفار بن شيرويه ، واخرابه البلاد ، وقتله الرعية ، وتركه العمارة والنظر في عواقب الأمور ، فتحالفا وتعاقدا على التظافر على أسفار والتعاون على حربه .

وقد كان أسفار سار في عساكره الى قزوين ، وقرب من تخوم الديلم من أرض الطرم من مملكة ابن أسوار منتظرا لصاحبه مرداويج بن زيار وأنه ان لم ينقد ابن أسوار الى طاعته ورجع اليه رسوله بما لا يحب وطىء بلاده .

وسلار هذا هو خال علي بن هودان المعروف بابن حسان ملك آخر من ملوك الديلم ،

وهو الذي قتل بالري ، قتله ابن أسوار هذا في خبر يطول ذكره .

فلما قرب مرداويج من عساكر اسفار راسل قواده وكاتبهم في معاونته على الفتك بأسفار ، وأعلمهم مظاهرة سلار عليه .

وقد كان القواد وسائر أصحابه سئموا أيامه وملوا دولته ، وكرهوا سيرته ، فأجابوا مرداويج الى ذلك . فلما دنا من الجيش استشعر أسفار بن شيرويه البلاء ، وعلم توجه الحيلة عليه ، وأن لا ناصر له من أصحابه ولا غيرهم لما تقدم من سوء سيرته ، فهرب في نفر من غلمانه . فوافى مرداويج ، وقد فاته أسفار ، فاستولى على الجيش وحاز الخزائن والأموال وأحضر وزير أسفار المعروف بمطرف الجرجاني فاستخرج منه الأموال وأخذ البيعة على القواد والرجال ، وفرق فيهم الأموال من الأرزاق والجوائز ، وزاد في انزالهم ، وأحسن اليهم بما لم يكونوا يعرفونه من أسفار .

ومضى أسفار الى نحو مدينة السارية من بلاد طبرستان فلم يجد له ملجأ يقصده ، وحار في أمره ، فرجع يريد قلعة من قلاع الديلم منيعة تعرف بقلعة الموت ، وكان فيها شيخ من شيوخ الديلم يعرف بأبي موسى مع عدة من الرجال ، قبله ذخائر أسفار بن شيرويه وكثير من خزائنه وأمواله .

وكان مرداويج لما توجه له ذلك ، وملك الجيش والأموال خرج يتصيد على أميال من قزوين نحو الطريق الذي سلكه أسفار ليستعلم أمره ، وأي البلاد سلك ، والى أي القلاع لجأ ، فمال الى القلعة فنظر الى خيل يسيرة في بعض الأودية ، فأسرع أصحابه نحوها ليأخذوا خبرها ، فوجدوا أسفار بن شيرويه في عدة يسيرة من غلمانه يؤم القلعة ليأخذ ماله فيها من الأموال ويجمع الرجال من الديلم والجبل ويعود الى حرب مرداويج بن زيار فأتى عليه مرداويج .

فلما وقعت عينه عليه نزل فذبحه من ساعته ، وأقبل رجال الديلم والجبل نحو مرداويج ، لما ظهر من بذله واحسانه الى جنده ، وتسامع الناس بادراره الأرزاق على جنده ، فقصدوه من سائر الأمصار ، فعظمت عساكره ، وكثرت جيوشه ، واشتد أمره ، ولم يسعه ما في يديه من الأمصار ، ولا كفى رجاله ما فيها من الأموال ، ففرق قواده الى بلاد قم وكرخ ابن أبي دلف والبرج وهمذان وأبهر وزنجان .

فكان ممن أنفذ الى همذان ابن أخت له في جيش كثيف مع جماعة من قواده ورجاله ، وكان بها جيش للسلطان مع أبي عبد الله محمد بن خلف الدينوري السرماني ، ومعه خفيف غلام أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان في جماعة من قواد السلطان ، فكانت لهم مع الديلم

حروب متصلة ووقائع كثيرة ، وعاون أهل همـذان أصحـاب السلطـان فقتـل من رجـال مرداويج خلق كثير من الديلم والجبل نحو أربعة آلاف ، وقتل ابن أخت مرداويج صاحب الجيش والمعـروف بأبـي الـكراديس بـن علي بن عيسى الطلحـي ، وكان من وجــوه قواد مرداويج ، وولت الديلم نحو مرداويج أوحش هزيمة .

فلما أتاه الخبر وضجت أخته ورأى ما نزل بها من أمر ولدها ، سار عن الري في جيوشه حتى نزل مدينة همذان على الباب المعروف بباب الأسد .

وانما سمي هذا الباب بباب الأسد لأن أسدا من حجارة كان على ربوة من الأرض على الطريق المؤدية الى الري وجادة خراسان أعظم ما يكون من الأسد كالثور العظيم أو كالجمل البارك كأنه أسد حي حتى يدنو الانسان منه فيعلم أنه حجر قد صور أحسن صورة ومثل أقرب ما يكون من تمثيل الأسد .

فكان أهل همذان يتوارثون أخبارهم عن أسلافهم مستفيضا.فيهم أن الاسكندر بن فيلبس بنى همذان حين انصرافه من بلاد خراسان ورجوعه من مطافـه من الهنـد والصـين وغيرهما ، وأن ذلك الأسد جعل طلسما للمدينة وسورها ، وأن خراب البلد وفناء أهلهـا وهدم سورها والقتل الذريع يكون عند كسر ذلك الأسد وقلعه من موضعه ، وأن ذلك من وجهة الديلم والجبل .

وكان أهل همذان يمنعون من يجتاز بهم من العساكر والسابلة والمتولعة من أحداثهم أن يقلبوا ذلك الأسد أو يكسروا شيئا منه ، ولـم يكن ينقلب لعظمه وصلابة حجره الا بالخلق الكثير من الناس .

وقد كان عسكر مرداويج الذي سيره مع ابن أخته الى همذان نزلوا على هذا البـاب وانبسطوا في تلك الصحراء قبل الوقعة بينهم وبين أصحاب السلطان ، فقلب على ما ذكر هذا الأسد فكسر ، فكان من أمر الواقعة ما ذكرنا ، وذلك على طريق الولع من الديلم .

فلما سار مرداويج ونزل على هذا الباب ، ونظر الى مصارع أصحابه ، وقتل أهـل همذان لابن أخته ، اشتد غضبه لذلك ، فكانت بينه وبين أهل همذان ثورة ، ثم ولى القوم وقد أسلمهم قبل ذلك أصحاب السلطان ، ورحلوا عنهم ، فقتلوا في اليوم الأول ، في قول المقلل من الناس على ما ذكر لنا ممن أدركه الاحصاء ممن حمل السلاح في المعركة ، نحوا من أربعين ألفا ، وأقام السيف يعمل فيهم ثلاثة أيام والنار والسبي .

ثم نادى برفع السيف في اليوم الثالث ، وأمن بقيتهم ، ونادى أن تخرج شيوخ البلد ومستوروه اليه .

فلما سمعوا النداء أملوا الفرج ، فخرج من وثق بنفسه ، من الشيوخ وأهل الستر ، ومن لحق بهم ، فخرجوا الى المصلى ، فدخل اليه صاحب عذابه ، وكان يقال له : السقطي ، فسأله عن أمره فيهم ، فأمره أن يطوف بهم الديلم والجبل بحرابهم وخناجرهم فيؤتى عليهم ، فأطافت بهم الرجال من الديلم ، فأتى على القوم جميعا ، وألحقوا بمن مضى منهم .

وبعث منها بقائد من قواده ، يعرف بابن علان القزويني وكان يلقب بخواجه ، وذلك أن أهل خراسان اذا عظموا الشيخ فيهم سموه خواجه ، في عسكر من عساكره الى مدينة الدينور ، ومن همذان اليها ثلاثة أيام ، فدخلها بالسيف ، وقتل من أهلها في اليوم الأول سبعة عشر ألفا في قول المقلل ، والمكثر يقول : خمسة وعشرين ألفا .

فخرج اليه في مستوري أهل الدينور وصوفيتها وزهادها رجل يقال له ابن مشاد وبيده مصحف قد نشره ، فقال لابن علان المعروف بخواجه : أيها الشيخ ، اتق الله وارفع السيف عن هؤلاء المسلمين ، فلا ذنب لهم ولا جناية يستحقون بها ما قد نزل بهم .

فأمر بأخذ المصحف من يده ، فضرب به وجهه ، ثم أمر به فذبح ، وسبى وأباح الأموال والدماء والفروج .

وبلغت عساكر مرداويج وجنوده الى الموضع المعروف بالشجرتين ، وهو فرز بين بلاد الجبل وأعمال حلوان مما يلي العراق ، وذلك بين بلاد طرر والمطامير ومرج القلعة ، قتلا وسبيا ، وغنم الأموال .

ثم ولت جيوشه راجعة وقد غنمت الأموال ، وقتلت الرجال ، وملكت الأولاد ، وأخذوا الغلمان وتملكوهم ، وسبوا من بلاد الدينور وقرماسين والزبيدية الى حيث ما بلغوا مما وصفنا من البلاد مما أدركه الاحصاء من الجواري العواتق والغلمان ، في قول المقلل خمسين ألفا ، وفي قول المكثر مائة ألف .

فلما تم لمرداويج ما وصفنا وحملت اليه الأموال والغنائم بعث بها الى أصبهان بجماعة من قواده في قطعة من عساكره ، فملكوها ، وأقيمت لهم الأنزال والعلوفات ، وعمرت لهم قصور أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف العجلي ، وهيئت له البساتين والرياض ، وزرع له فيها أنواع الرياحين على حسب ما كان في آل عبد العزيز .

فسار مرداويج الى أصبهان ، فنزلها وهو في نحو خمسين ألفا ، وقيل : أربعين ، سوى ما له بالري وقم وهمذان ، وسائر أعماله من العساكر .

وقد كان أنفذ جماعة من قواده وعساكره مع أبي الحسن محمد بن وهبان الفضيلي ، وهو

الذي استأمن بعد ذلك الى السلطان ، ثم قصد بعد ذلك الى محمد بن رائق ، وهو بالرقة من بلاد ديار مضر ، قبل دخول الشام ومحاربته الاخشيد محمد بن طغج ، فاحتال عليه رافع القرمطي ، وكان من قواد ابن رائق ، حتى فرق بينه وبين عسكره وغرقه في الفرات ، وذلك نحو رحبة مالك بن طوق .

وقد أتينا على خبره ، وما كان من الحيلة في أمره ، ومدة بقائه في الماء مقيدا الى أن خرج ، ثم قتل بعد ذلك ، في الكتاب الأوسط في أخبار محمد بن رائق .

وسار ابن وهبان فيمن معه من العساكر الى صقع كور الأهواز ، وذلك على طريق مناذر وتستر وأيذج ، واحتوى على هذه البلاد وجبى أموالها ، وحمل ذلك الى مرداويج .

فطغى مرداويج وتكبر ، وعظمت جيوشه وأمواله وعساكره ، وضرب سريرا من الذهب رصع له بالجوهر ، وعملت له بدلة وتاج من الذهب ، وجمع في ذلك أنواع الجواهر ، وقد كان سأل عن تيجان الفرس وهيئاتها ، فصورت له ومثلت فاختار منها تاج أنو شروان بن قباذ .

وكان نمي اليه من كتابه ومن أطاف به من أتباعه ، من دهاة العالم وشياطينه ، أن الكواكب ترمي بشعاعها الى بلاد أصبهان ، فيظهر بها ديانة ، وينصب بها سرير ملك ، وتجبى له كنوز الأرض ، وأن الملك الذي يليها يكون مصفر الرجلين ويكون من صفته كيت وكيت ، وأن مدة عمره في الملك كذا وكذا ، ثم يتلوه من ولده من بعده في هذه المملكة أربعون ملكا ، وقربوا له الزمان في ذلك وحددوه ، وتقربوا اليه بأشياء من هذه المعاني مما مال اليه هواه واستدعاه منهم واستهواه ، وأظهر أنه المصفر الرجلين الذي يتملك الأرض .

وكان معه من الأتراك نحو أربعة آلاف مماليك له في خاصته ، دون من في عسكره من الأتراك ، مع ما عنده من الأمراء والأتراك ، وكان سيىء الصحبة لهم ، كثير القتل فيهم ، فعملوا على قتله ، وتحالفوا وقد كان على المسير الى مدينة السلام ، والقبض على الملك ، وتولية أصحابه مدن الاسلام بأسرها في شرق البلاد وغربها مما في يد ولد العباس ، وغيرهم ، فأقطع الدور ببغداد لأهله ، ولم يشك أن الأمر في يده والملك له .

فخرج ذات يوم الى الصيد وهو فرح مسرور ، وانصرف وهو كذلك لما قد تم له الأمر وتأتي له من الملك ، فدخل الحمام بعد رجوعه في قصر أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف العجلي بأصبهان ، فدخل اليه غلام من وجوه الأتراك ، وهو بجكم ، وكان من خواص الغلمان ، ومعه ثلاثة نفر من وجوه الأتراك أرى أحدهم نوزون مدبر الدولة بعد بجكم ، فقتلوه .

فخرج بجكم ومن معه ، وقد كان أعلم الأتراك بذلك فكانوا له متأهبين دون سائر من في العسكر ، فركبوا من فورهم ـ وذلك في سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة في خلافة الراضي ـ وتفرق الجيش عند وقوع الضجة ، وانتهب بعض الناس بعضا ، وأخذت الخزائن وانتهبت الأموال .

ثم ان الجبل والديلم ثابوا واجتمعوا وتشاوروا ، وقالوا : ان بقينا على ما نحن عليه من التحزب بغير رئيس ننقاد اليه هلكنا .

فاجتمع أمرهم على مبايعة وشمكير أخي مرداويج ـ وتفسير وشمكير بالعربية : الآخذ ، وتفسير مرداويج : معلق الرجال ، وقد يكتب مزداويج بالزاي ـ فبايعوا وشمكير بعد أن تفرق كثير من الجيش ، ففرق فيهم كثيرا مما بقي من الأموال ، وأحسن اليهم ، وتوجه فيمن معه من العساكر الى الري فنزلها .

وسار بجكم التركي فيمن معه من الأتراك وقد جمعوا أنفسهم الى أن يخلصوا من الديلم ، وسار الى بلاد الدينور فجبى منها الخراج وأخذ كثيرا من الأموال ، وسار الى النهروان ، على أقل من يومين من مدينة السلام ، فراسل الراضي ، وكان الغالب على أمره الساجية وعدة من الغلمان الحجرية ، فأبوا أن يتركوه يصل الى الحضرة خوفا أن يغلب على الدولة .

فمضى بجكم لما منع من الحضرة الى واسط الى محمد بن رائق ، وكان مقيما بها ، فأدناه ، وحياه ، وغلب عليه ، وقوي أمر بجكم واصطنع الرجال ، وضعف أمر ابن رائق عنه ، فكان من أمره ما قد اشتهر .

وقد قدمنا ذكره فيما سلف من كتبنا من اختفائه وخروج بجكم مع الراضي الى الموصل ومعهم علي بن خلف بن طباب الى ديار بني حمدان من بلاد الموصل وديار ربيعة ، وظهور محمد بن رائق ببغداد ، ومعاونة الغوغاء له ، ومسيره الى دار السلطان ، وقتله لابن بدر السيرافي ، وخروجه عن الحضرة ومن تبعه من الجبل والقرامطة ، مثل رافع وعمارة وغيرهما ، وكانوا أنصاره ، ومسيره الى ديار مضر ، ونزوله الرقة ، وما كان بينه وبين نميرة ، ودخول يأنس المؤنسي في جملته ، ومسيره الى جند قنسرين والعواصم ، واخراجه طريفا السكري عنها وتوليته الثغر الشامي .

وقد أتينا في الكتاب الأوسط الذي كتابنا هذا تال له ، والأوسط تال لكتابنا « أخبار الزمان ، ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة » على ما كان منه ، ومحاربته الاخشيد محمد بن طغج بالعريش من بلاد مصر ، وانكشافه ، ورجوعه الى

دمشق ، وما كان من قتله لأخي الاخشيد محمد بن طغج باللجون من بلاد الاردن ، وما كان قبل وقعة العريش بينه وبين عبد الله بن طغج ، وما كان معه من القواد ، وانكشافهم عنه ، واستئمان من استأمن منهم اليه ، مثل محمد بن تكين الخاصة وتكين الخاقاني غلام خاقان المفلحي وغيرهما ، وغير ذلك من أخباره وأخبار غيره .

وذكرنا مقتل طريف السكري في سنة ثمان وعشرين وثلثمائة على باب طرسوس ، وما كان من وقعته مع الثميلية ، وهم غلمان ثميل الخادم ، فأغنى ذلك عن اعادته مبسوطا في هذا الكتاب .

وانما تغلغل بنا الكلام في التصنيف فيما ذكرنا من أخبار الديلم والجبل وما كان من أمر أسفار بن شيرويه ومرداويج عند ذكرنا لآل أبي طالب وأمر الداعي الحسن بن القاسم الحسني صاحب طبرستان ومقتله ، وخبر الأطروش الحسن بن علي الحسني .

***

قال المسعودي : وقد أتينا على ذكر سائر الأحداث والكوائن في أيام من ذكرنا من الخلفاء والملوك في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وذكرنا في هذا الكتاب ما يكتفي به الناظر فيه ، وانتهى بنا التصنيف فيه الى هذا الوقت ، وهو جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وثلثمائة ، ونحن بفسطاط مصر ، والغالب على أمر الدولة والحضرة أبو الحسن أحمد بن بويه الديلمي المسمى معز الدولة ، وأخوه الحسن بن بويه صاحب بلاد أصبهان وكور الأهواز وغيرها المسمى ركن الدولة ، وأخوهما الأكبر ، والرئيس فيهم المعظم علي بن بويه الملقب بعميد الدولة المقيم بأرض فارس ، والمدبر منهم لأمر المطيع أحمد بن بويه معز الدولة ، وهو المحارب للبريديين بأرض البصرة ، والمطيع معه على حسب ما ينمو الينا من أخبارهم .

ودللنا في كتابنا هذا بالقليل على الكثير ، وبالخبر اليسير على الجليل الخطير ، وذكرنا في كل كتاب من هذه الكتب ما لم نذكره في الآخر الا ما لا يسع تركه ، ولم نجد بدا من ايراده لما دعت الضرورة الى وصفه .

وأتينا على أخبار أهل كل عصر ، وما حدث فيه من الأحداث ، وما كان فيه من الكوائن الى وقتنا هذا ، مع ما أسلفناه في هذا الكتاب من ذكرنا البر والبحر ، والعامر منهما والغامر ، والملوك وسيرها ، والأمم وأخبارها .

المؤلف يعد بتأليف كتاب
في الأخبار

وأرجو أن يفسح الله تعالى لنا في البقاء ، ويمد لنا في العمر ، ويسعدنا بطول الأيام ،

فنعقب تأليف هذا الكتاب بكتاب آخر نضمنه فنونا من الأخبار ، وأنواعا من ظرائف الآثار ، على غير نظم من التأليف ، ولا ترتيب من التصنيف ، على حسب ما يسنح من فوائد الأخبار ، ويوجد من نوادر الآثار ، ونترجمه بكتاب « وصل المجالس بجوامع الأخبار ومختلط الآثار » تاليا لما سلف من كتبنا ، ولاحقا بما تقدم من تصنيفنا .

وجميع ما أوردناه في هذا الكتاب لا يسع ذوي الدراية جهله ، ولا يعذر في تركه والتغافل عنه .

فمن عد أبواب كتابي هذا ولم يمعن النظر في قراءة كل باب منه لم يبلغ حقيقة ما قلنا ، ولا عرف للعلم مقداره .

فلقد جمعنا ما فيه في عدة سنين باجتهاد وتعب عظيم ، وجولان في الأسفار ، وطواف في البلدان من الشرق والغرب في كثير من الممالك غير مملكة الاسلام .

فمن قرأ كتابنا هذا فليتدبره بعين المحبة ، وليتفضل بهمته باصلاح ما أنكر منه مما غيره الناسخ وصحفه الكاتب ، وليرع لي نسبة العلم ، وحرمة الأدب ، وموجبات الرواية ، وما تجشمت من التعب فيها ، فان منزلتي فيه وفي نظمه وتأليفه بمنزلة من وجد جوهرا منثورا ذا أنواع مختلفة وفنون متباينة فنظم منها سلكا ، واتخذ عقدا نفيسا ثمينا باقيا لطلابه .

وليعلم من نظر فيه أني لم أنتصر فيه لمذهب ، ولا تحيزت الى قول ، ولا حكيت عن الناس الا مجالس أخبارهم ، ولم أعرض فيه لغير ذلك .

فلنذكر الآن الباب الثاني من جامع التاريخ على حسب ما قدمنا الوعد بايراده في صدر هذا الكتاب وبالله أستعين ، وعليه أتوكل .

ذكر جامع التاريخ الثاني
من الهجرة إلى هذا الوقت

وهو جمادى الاولى سنة ست وثلاثين وثلثمائة
الذي فيه انتهينا من الفراغ من هذا الكتاب

تقدمة

قد أفردنا فيما سلف من هذا الكتاب بابا في تاريخ العالم والأنبياء والملوك الى مولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومبعثه الى هجرته ، ثم ذكرنا هجرته الى وفاته ، وأيام الخلفاء والملوك الى هذا الوقت ، على حسب ما يوجبه الحساب ، وما في كتب السير وأصحاب التواريخ ممن عني بأخبار الخلفاء والملوك .

ولم نعرض فيما ذكرنا من ذلك لما في كتب الزيجات مما ذكره أصحاب النجوم ، على حسب ما يوجبه تاريخهم . . فلنذكر في هذا الباب جميع ما أثبتوه في كتب زيجات النجوم من الهجرة الى هذا الوقت المؤرخ ، ليكون ذلك أكثر لفائدة الكتاب ، وأجمع لمعرفة تباين أصحاب التواريخ من الأخباريين والمنجمين ، وما اتفقوا عليه من ذلك .

المبدأ ومقابلة من تاريخ الاسكندر

فالذي وجدناه من ذلك في كتاب الزيجات أن الابتداء في يوم الجمعة مستهل المحرم سنة احدى للتروية ، وذلك يوم ستة عشر من تموز سنة تسعمائة وثلاثة وثلاثين لذي القرنين .

وكانت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة سنة احدى بعد أن مضى منها شهران وثمانية أيام ، فمكث بها حتى قبض صلى الله عليه وسلم تسع سنين واحد عشر شهرا واثنين وعشرين يوما ، فذلك عشر سنين وشهران .

زمن أبي بكر

أبو بكر الصديق رضي الله عنه : سنتين وثلاثة أشهر وثمانية أيام ، فذلك اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثمانية أيام .

زمن عمر

عمر بن الخطاب رضي الله عنه : عشر سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوما ، فذلك اثنتان وعشرون سنة وأحد عشر شهرا وخمسة وعشرون يوما .

وكانت الشورى بعد عمر ثلاثة أيام ، فذلك اثنتان وعشرون سنة وأحد عشر شهرا وثمانية وعشرون يوما .

عثمان

عثمان بن عفان رضي الله عنه : احدى عشرة سنة وأحد عشر شهرا وتسعة عشر يوما ، فذلك أربع وثلاثون سنة وأحد عشر شهرا وسبعة عشر يوما .

علي

علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أربع سنين وسبعة أشهر ، فذلك تسع وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة عشر يوما .

والى بيعة معاوية بن أبي سفيان ستة أشهر وثلاثة أيام ، فذلك أربعون سنة وشهران وعشرون يوما .

معاوية

معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه : تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة وعشرون يوما ، فذلك تسع وخمسون سنة وستة أشهر وخمسة وعشرون يوما .

يزيد بن معاوية

يزيد بن معاوية : ثلاث سنين وثمانية أشهر ، فذلك ثلاث وستون سنة وشهران وخمسة عشر يوما .

معاوية بن يزيد

معاوية بن يزيد بن معاوية : ثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوما ، فذلك ثلاث وستون سنة وستة أشهر وسبعة أيام .

مروان

مروان بن الحكم : أربعة أشهر ، فذلك ثلاث وستون سنة وعشرة أشهر وسبعة أيام .

عبدالله بن الزبير

عبدالله بن الزبير : ثماني سنين وخمسة أشهر ، فذلك اثنتان وسبعون سنة وثلاثة أشهر وسبعة أيام .

عبدالملك بن مروان

عبدالملك بن مروان حتى قتل ابن الزبير : سنة وشهرين وستة أيام ، فذلك ثلاث وسبعون سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام .

ذكر أيّام بَني مَروَان بْن الحَكم

عبد الملك بن مروان بن الحكم : اثنتي عشرة سنة وأربعة أشهر وخمسة أيام .

الوليد بن عبدالملك : تسع سنين وتسعة أشهر وعشرين يوما .

سليمان بن عبد الملك : سنتين وسبعة أشهر وعشرين يوما .

عمر بن عبدالعزيز بن مروان : سنتين وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوما .

يزيد بن عبدالملك : أربع سنين ويوما واحدا .

هشام بن عبدالملك : تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام ، فذلك مائة سنة وأربعة وعشرون سنة وثلاثة أشهر وستة أيام .

الوليد بن يزيد بن عبدالملك حتى قتل : سنة وشهرين وعشرين يوما ، فذلك مائة سنة وخمس وعشرون سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرون يوما ، وكانت الفتنة بعد مقتله شهرين وخمسة وعشرين يوما ، فذلك مائة سنة وخمس وعشرون سنة وثمانية أشهر واثنان وعشرون يوما .

يزيد بن الوليد بن عبدالملك : شهرين وسبعة أيام ، فذلك مائة وخمس وعشرون سنة وأحد عشر شهرا ويوم واحد .

ابراهيم بن الوليد بن عبدالملك حتى خلع : شهرين وأحد عشر يوما ، فذلك مائة سنة وست وعشرون سنة وشهر واثنا عشر يوما .

مروان بن محمد حتى قتل : خمس سنين وشهرين ، فذلك مائة سنة واحدى وثلاثون سنة وثلاثة أشهر واثنا عشر يوما .

ذكر الخلفاء من بني هاشم

أبو العباس عبدالله بن محمد : أربع سنين وثمانية أشهر ويومين ، فذلك مائة سنة وخمس وثلاثون سنة وأحد عشر شهرا وأربعة عشر يوما ، وحتى انتهت البيعة الى المنصور أربعة عشر يوما ، فذلك مائة سنة وخمس وثلاثون سنة وأحد عشر شهرا وثمانية وعشرون يوما .

أبو جعفر عبدالله بن محمد المنصور : احدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وثمانية أيام ، فذلك مائة وسبع وخمسون سنة وأحد عشر شهرا وستة أيام ، وحتى انتهى الخبر الى المهدي اثني عشر يوما ، فذلك مائة وسبع وخمسون سنة وأحد عشر شهرا وثمانية عشر يوما .

المهدي : عشر سنين وشهرا واحدا وخمسة أيام ، فذلك مائة سنة وثمان وستون سنة وثلاثة عشر يوما ، وحتى انتهى الخبر الى الهادي ثمانية أيام ، فذلك مائة سنة وثمان وستون سنة وشهر واحد ويوم واحد .

الهادي : سنة واحدة وشهرا واحدا وخمسة عشر يوما ، فذلك مائةسنة وتسع وستون سنة وشهران وستة عشر يوما .

الرشيد : ثلاثا وعشرين سنة وشهرين وستة عشر يوما ، فذلك مائة واثنتان وتسعون سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام ، وحتى انتهى الخبر الى الأمين ابنه اثني عشر يوما ، فذلك مائة سنة واثنتان وتسعون سنة وخمسة أشهر وخمسة عشر يوما .

الأمين حتى خلع وحبس : ثلاث سنين وخمسة وعشرين يوما ، فذلك مائة وخمس وتسعون سنة وستة أشهر وعشرة أيام ، ومكث محبوسا يومين ، فذلك مائة وخمس وتسعون سنة وستة أشهر واثنا عشر يوما ، وأخرج وبويع له وحارب وحوصر حتى قتل سنة وستة أشهر وثلاثة عشر يوما .

المأمون : عشرين سنة وخمسة أشهر واثنين وعشرين يوما ، فذلك مائتان وسبع عشرة سنة وستة أشهر وتسعة عشر يوما .

المعتصم : ثماني سنين وثمانية أشهر ويومين ، فذلك مائتان وستة وعشرون سنة وشهران وتسعة عشر يوما .

الواثق : خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام ، فذلك مائتان واحدى وثلاثون سنة وأحد عشر شهرا وأربعة وعشرون يوما .

المتوكل : أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وسبعة أيام ، فذلك مائتان وست وأربعون سنة وتسعة أشهر ويوم واحد .

المنتصر : ستة أشهر ، فذلك مائتان وسبع وأربعون سنة وثلاثة أشهر ويوم واحد ،

والى أن انحدر المستعين الى مدينة السلام سنتين وتسعة أشهر وثلاثة أيام ، فذلك مائتان وخمسون سنة وأربعة أيام ، والى أن بويع للمعتز بسامرا عشرة أيام ، فذلك مائتان وخمسون سنة وأربعة عشر يوما ، والى أن خطب للمعتز بمدينة السلام أحد عشر شهرا وعشرين يوما ، فذلك مائتان واحدى وخمسون سنة وأربعة أيام ، والى أن خلع المعتز ثلاث سنين وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوما ، فذلك مائتان وأربع وخمسون سنة وستة أشهر وسبعة وعشرون يوما ، والى بيعة المهتدي يومين ، فذلك مائتان وأربع وخمسون سنة وسبعة أشهر .

المهتدي : أحد عشر شهرا وثمانية عشر يوما ، فذلك مائتان وخمس وخمسون سنة وستة أشهر وسبعة عشر يوما .

المعتمد : ثلاثا وعشرين سنة وثلاثة أيام ، فذلك مائتان وثمان وسبعون سنة وستة أشهر وعشرون يوما .

المعتضد : تسع سنين وتسعة اشهر ويومين فذلك مائتان وثمان وثمانون سنة وثلاثة اشهر واثنان وعشرون يوماً .

المكتفي : ست سنين وستة أشهر وعشرين يوما ، فذلك مائتان وأربع وتسعون سنة وعشرة أشهر واثنا عشر يوما .

المقتدر حتى خلع : احدى وعشرين سنة وشهرين وخمسة أيام ، فذلك ثلثمائة سنة وست عشرة سنة وتسعة عشر يوما .

ابن المعتز حتى خلع : يومين ، فذلك ثلثمائة سنة وست عشرة سنة واحد وعشرون يوما .

المقتدر حتى قتل : ثلاث سنين وتسعة أشهر وثمانية أيام ، فذلك ثلثمائة وتسع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسعة عشر يوما .

القاهر حتى خلع : سنة وستة أشهر وعشرة أيام ، فذلك ثلثمائة سنة واحدى وعشرون سنة وأربعة أشهر وتسعة أيام .

الراضي : ست سنين وأحد عشر شهرا وثمانية أيام ، فذلك ثلثمائة وثمان وعشرون سنة وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما .

المتقي : ثلاث سنين وتسعة أشهر وسبعة عشر يوما ، فذلك ثلثمائة واثنتان وثلاثون سنة وشهر واحد وثلاثة أيام .

المستكفي : سنة وثلاثة أشهر ، فذلك ثلثمائة سنة وثلاث وثلاثون سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام .

المطيع لله الى غرة جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وثلثمائة : سنتين وثمانية أشهر وخمسة عشر يوما ، فذلك ثلثمائة وخمس وثلاثون سنة وأربعة أشهر الا ثلاث ليال .

***

قال المسعودي : وسنو الهجرة قمرية ، وبين هذا التاريخ وتاريخ أصحاب الأخبار والسير تفاوت من زيادات الشهور والأيام ، ومعولنا ـ فيما ذكرنا من التاريخ من الهجرة الى هذا الوقت ـ على ما وجدنا في كتب الزيجات ، اذ كان أهل هذه الصناعة يراعون هذه الأوقات ، ويحصلون علمها على التحديد ، والذي نقلناه من التاريخ فمن زيج أبي عبدالله محمد بن جابر البناني وغيره من الزيجات الى هذا الوقت ، فأما ما قدمنا ذكره في هذا الكتاب ـ من الهجرة الى هذا الوقت ـ فانا نعيد ذكره مفصلا في هذا الباب ، لكي يقرب تناوله على الطالب له ، ولا يبعد عما ذكرناه من الزيجات .

من مبعث الرسول

فالذي صح من تاريخ أصحاب السير والأخبار من أهل النقل والآثار ، أنه بعث صلى الله عليه وسلم ، وهو ابن أربعين سنة ، فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة ، وهاجر عشرا ، وقبض وهو ابن ثلاث وستين سنة ، صلى الله عليه وسلم .

أبو بكر : سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام .

عمر بن الخطاب : عشر سنين وستة أشهر وأربع ليال .

عثمان بن عفان : اثنتا عشرة سنة الا ثمانية أيام .

علي بن أبي طالب : أربع سنين وتسعة أشهر وثماني ليال .

الحسن بن علي : ستة أشهر وعشرة أيام .

معاوية بن أبي سفيان : تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة وعشرين يوما .

يزيد بن معاوية : ثلاث سنين وثمانية أشهر الا ثماني ليال .

معاوية بن يزيد : شهرا واحدا وأحد عشر يوما .

مروان بن الحكم : ثمانية أشهر وخمسة أيام .

عبدالملك بن مروان : احدى وعشرين سنة وشهرا ونصفا .

الوليد بن عبدالملك : تسع سنين وثمانية أشهر ويومين .

سليمان بن عبدالملك : سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيام .

عمر بن عبدالعزيز : سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام .

يزيد بن عبدالملك : أربع سنين وشهرا ويومين .

هشام بن عبدالملك : تسع عشرة سنة وسبعة أشهر واحدى عشرة ليلة .

الوليد بن يزيد : سنة وشهرين واثنين وعشرين يوما .

يزيد بن الوليد : خمسة أشهر وليلتين .

مروان بن محمد : خمس سنين وعشرة أيام .

عبدالله بن محمد السفاح : أربع سنين وتسعة أشهر .
المنصور : اثنتين وعشرين سنة الا تسع ليال .
المهدي : عشر سنين وشهرا وخمسة عشر يوما .
الهادي : سنة وثلاثة أشهر .
الرشيد : ثلاثا وعشرين سنة وستة أشهر .
الأمين : أربع سنين وستة أشهر .
المأمون : احدى وعشرين سنة سواء .
المعتصم : ثمان سنين وثمانية أشهر .
الواثق : خمس سنين وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوما .
المتوكل : أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسع ليال .
المنتصر : ستة أشهر .
المستعين : ثلاث سنين وثمانية أشهر .
المعتز : أربع سنين وستة أشهر .
المهتدي : أحد عشر شهرا .
المعتمد : ثلاثا وعشرين سنة .
المعتضد : تسع سنين وتسعة أشهر ويومين .
المكتفي : ست سنين وسبعة أشهر واثنين وعشرين يوما .
المقتدر : أربعا وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وستة عشر يوما .
القاهر : سنة وستة أشهر وستة أيام .
الراضي : ست سنين وأحد عشر شهرا وثمانية أيام .
المتقي : ثلاث سنين وأحد عشر شهرا وثلاثا وعشرين يوما .
المستكفي : سنة وثلاثة أشهر .
المطيع الى غرة جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وثلثمائة : سنة وثمانية أشهر وخمسة عشر يوما .

ونحن نؤمل من الله تعالى البقاء والزيادة في العمر ، لنزيد في هذا الكتاب ما يحدث في أيامهم ، وما يكون في المستقبل من دولتهم .

فهذا جمل التاريخ من الهجرة الى هذا الوقت ، وهو جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وثلثمائة ، وقد أوردنا في الكتاب ما ذكره الفريقان جميعا ، لكي لا يبعد فهم ذلك على مريده

والطالب له ، ان شاء الله تعالى .

مبدأ الآخذ بتاريخ الهجرة

والتاريخ من المولد الى هذا الوقت معلوم ، ومن المبعث الى الوفاة معروف غير مجهول ، ولا يتعذر تناوله على ذي الدراية من هذا الكتاب ، الا أن معول الناس أن بدء التاريخ من الهجرة ، على حسب ما بينا فيما سلف من كتبنا من مشاورة عمر الناس في التاريخ عند حدوث أمور وجب تدوينها ، وما قاله الناس من كل فريق منهم ، وأخذه بقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أن يؤرخ بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتركه أرض الشرك ، وأن ذلك كان من عمر رضي الله عنه في سنة سبع عشرة أو ثماني عشرة ، على حسب التنازع في ذلك ، والله أعلم .

ذكر تسمية من حج بالناس
من أول الإسلام الى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة

أول من حج بالناس
نيابة عن الرسول

قال المسعودي : فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة في شهر رمضان ، سنة ثمان من الهجرة ، ورجع الى المدينة ، واستعمل عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية على مكة ، فحج بالناس سنة ثمان ، وقيل : بل حج الناس أوزاعا ليس عليهم أحد .

ثم حج أبو بكر

ثم كانت سنة تسع ، فحج بالناس أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، حين خرج من المدينة مع ثلثمائة ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معه عشرين بدنة ، ثم أرسل على أثره علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، فأدركه بالعرج ومعه سورة براءة ، فأذن بها يوم النحر عند العقبة ، فأقام أبو بكر الحج ، وخطب أبو بكر بمكة قبل التروية بيوم ، ويوم عرفة بعرفة ، ويوم النحر بمنى .

حجة الوداع

ثم كانت سنة عشر ، فحج بالناس سيد المرسلين ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي هذه السنة توفي .

أيام الخلفاء الراشدين

ثم كانت سنة احدى عشرة ، فحج بالناس عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
ثم كانت سنة اثنتي عشرة ، فحج بالناس أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه .
ثم كانت سنة ثلاث عشرة ، فحج بالناس عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه .
ثم كانت سنة أربع عشرة ، فحج بالناس عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
ثم كانت سنة خمس عشرة ، فحج بالناس عمر بن الخطاب .
ثم كانت سنة ست عشرة ، فحج بالناس عمر بن الخطاب .
ثم كانت سنة سبع عشرة ، فحج بالناس عمر بن الخطاب .
ثم كانت سنة ثماني عشرة ، فحج بالناس عمر بن الخطاب .
ثم كانت سنة تسع عشرة ، فحج بالناس عمر بن الخطاب .
ثم كانت سنة عشرين ، فحج بالناس عمر بن الخطاب .
ثم كانت سنة احدى وعشرين ، فحج بالناس عمر بن الخطاب .

ثم كانت سنة اثنتين وعشرين ، فحج بالناس عمر بن الخطاب .

ثم كانت سنة ثلاث وعشرين ، فحج بالناس عمر بن الخطاب . ثم قتل رضي الله عنه آخر ذي الحجة .

ثم كانت سنة أربع وعشرين ، فحج بالناس عبدالرحمن بن عوف .

ثم كانت سنة خمس وعشرين ، فحج بالناس عثمان بن عفان الى سنة أربع وثلاثين .

ثم كانت سنة خمس وثلاثين ، فحج بالناس عبدالله بن عباس بأمر عثمان وهو محصور .

ثم كانت سنة ست وثلاثين ، فحج بالناس عبدالله بن عباس .

ثم كانت سنة سبع وثلاثين ، بعث علي بن أبي طالب على الموسم عبدالله بن العباس ، وبعث معاوية بن أبي سفيان يزيد بن شجرة الرهاوي ، فاجتمعا بمكة ، وتنازعا الامارة ولم يسلم أحدهما لصاحبه ، فاصطلحا على أن يصلي بالناس شيبة بن عثمان بن أبي طلحة بن عبدالله بن عبدالعزي بن عثمان بن عبدالدار حاجب البيت الجمحي ، ففعل ذلك .

ثم كانت سنة ثمان وثلاثين ، فحج بالناس قثم بن عباس نائب مكة .

ثم كانت سنة تسع وثلاثين فحج بالناس شيبة بن عثمان .

ثم كانت سنة أربعين والتنازع بين معاوية والحسن بن علي في الخلافة ، فحج بالناس المغيرة بن شعبة عن كتاب ، يقال : انه افتعله عن معاوية .

في زمن بني أمية

ثم كانت سنة احدى وأربعين فحج بالناس عتبة بن أبي سفيان .

ثم كانت سنة اثنتين وأربعين ، فحج بالناس عتبة بن أبي سفيان .

ثم كانت سنة ثلاث وأربعين ، فحج بالناس مروان بن الحكم .

ثم كانت سنة أربع وأربعين ، حج معاوية بن أبي سفيان .

ثم كانت سنة خمس وأربعين ، حج بالناس مروان بن الحكم .

ثم كانت سنة ست وأربعين ، حج بالناس عتبة بن أبي سفيان .

ثم كانت سنة سبع وأربعين ، حج بالناس عتبة بن أبي سفيان .

ثم كانت سنة ثمان وأربعين ، حج بالناس مروان بن الحكم .

ثم كانت سنة تسع وأربعين ، حج بالناس سعيد بن العاص .

ثم كانت سنة خمسين حج بالناس يزيد بن معاوية .

ثم كانت سنة احدى وخمسين فحج بالناس معاوية بن أبي سفيان .
ثم كانت سنة اثنتين وخمسين ، حج بالناس سعيد بن العاص عامين .
ثم كانت سنة أربع وخمسين ، حج بالناس مروان بن الحكم .
ثم كانت سنة خمس وخمسين ، حج بالناس مروان بن الحكم .
ثم كانت سنة ست وخمسين فحج بالناس عتبة بن أبي سفيان .
ثم كانت سنة سبع وخمسين ، حج بالناس الوليد بن عتبة عامين .
ثم كانت سنة تسع وخمسين ، حج بالناس عثمان بن محمد بن أبي سفيان .
ثم كانت سنة ستين حج بالناس عمرو بن سعيد بن العاص .
ثم كانت سنة احدى وستين ، حج بالناس الوليد بن عتبة بن أبي سفيان .
ثم كانت سنة اثنتين وستين ، حج بالناس الوليد بن عتبة بن أبي سفيان .
ثم كانت سنة ثلاث وستين ، حج بالناس عبدالله بن الزبير ، الى سنة احدى وسبعين .
ثم كانت سنة اثنتين وسبعين فحج بالناس الحجاج بن يوسف ، فأتوا منى ولم يطوفوا بالبيت العتيق .
ثم كانت سنة ثلاث وسبعين فحج بالناس الحجاج أيضا ، وقتل عبدالله بن الزبير .
ثم كانت سنة أربع وسبعين فحج بالناس الحجاج بن يوسف .
ثم كانت سنة خمس وسبعين ، حج بالناس عبدالملك بن مروان .
ثم كانت سنة ست وسبعين حج بالناس الى سنة ثمانين أبان بن عثمان بن عفان .
ثم كانت سنة احدى وثمانين حج بالناس سليمان بن عبد الملك بن مروان .
ثم كانت سنة اثنتين وثمانين حج بالناس أبان بن عثمان بن عفان .
ثم كانت سنة ثلاث وثمانين حج بالناس الى سنة خمس وثمانين هشام بن اسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي .
ثم كانت سنة ست وثمانين حج بالناس العباس بن الوليد بن عبدالملك .
ثم كانت سنة سبع وثمانين حج بالناس عمر بن عبدالعزيز بن مروان .
ثم كانت سنة ثمان وثمانين حج بالناس الوليد بن عبدالملك .
ثم كانت سنة تسع وثمانين حج بالناس عمر بن عبدالعزيز .
ثم كانت سنة تسعين حج الناس عمر بن عبدالعزيز .
ثم كانت سنة احدى وتسعين حج بالناس الوليد بن عبدالملك .

ثم كانت سنة اثنتين وتسعين حج بالناس عمر بن عبدالعزيز .
ثم كانت سنة ثلاث وتسعين حج بالناس عثمان بن الوليد بن عبدالملك ، وقيل : بل عبدالعزيز بن الوليد بن عبدالملك .
ثم كانت سنة أربع وتسعين حج بالناس مسلمة بن عبدالملك .
ثم كانت سنة خمس وتسعين حج بالناس بشر بن الوليد بن عبد الملك .
ثم كانت سنة ست وتسعين حج بالناس أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم .
ثم كانت سنة سبع وتسعين حج بالناس سليمان بن عبد الملك .
ثم كانت سنة ثمان وتسعين حج بالناس عبد العزيز بن عبد الله ابن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية .
ثم كانت سنة تسع وتسعين ، حج بالناس أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم .
ثم كانت سنة مائة حج بالناس أبو بكر أيضا .
ثم كانت سنة احدى ومائة حج بالناس عبد العزيز بن عبد الله أمير مكة .
ثم كانت سنة اثنتين ومائة حج بالناس عبد الرحمن بن الضحاك الفهري .
ثم كانت سنة ثلاث ومائة حج بالناس عبد الله بن كعب بن عمير بن سبع بن عوف بن نصر بن معاوية النصري .
ثم كانت سنة أربع ومائة حج فيها أيضا .
ثم كانت سنة خمس ومائة حج بالناس ابراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومي .
ثم كانت سنة ست ومائة حج بالناس هشام بن عبد الملك .
ثم كانت سنة سبع ومائة حج بالناس ابراهيم بن هشام المخزومي ، الى سنة اثنتي عشرة ومائة .
ثم كانت سنة ثلاث عشرة ومائة حج بالناس سليمان بن هشام بن عبد الملك .
ثم كانت سنة أربع عشرة ومائة حج بالناس خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم ابن العاص بن أمية .
ثم كانت سنة خمس عشرة ومائة حج بالناس محمد بن هشام بن اسماعيل بن الوليد بن المغيرة .
ثم كانت سنة ست عشرة ومائة حج بالناس الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وهو ولي عهد .
ثم كانت سنة سبع عشرة ومائة حج بالناس خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم ابن أبي العاص ، وقيل : مسلمة بن عبد الملك .

ثم كانت سنة ثماني عشرة ومائة حج بالناس محمد بن هشام بن اسماعيل .
ثم كانت سنة تسع عشرة ومائة حج بالناس مسلمة بن هشام بن عبد الملك أبو شاكر ، وقيل : بل مسلمة بن عبد الملك .
ثم كانت سنة عشرين ومائة حج بالناس محمد بن هشام بن اسماعيل .
ثم كانت سنة احدى وعشرين ومائة حج بالناس محمد بن هشام بن اسماعيل ، الى سنة أربع وعشرين ومائة .
ثم كانت سنة خمس وعشرين ومائة حج بالناس يوسف إبن أخي الحجاج بن يوسف .
ثم كانت سنة ست وعشرين ومائة حج بالناس عمر بن عبد الله بن عبد الملك .
ثم كانت سنة سبع وعشرين ومائة ، حج بالناس عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز .
ثم كانت سنة ثمان وعشرين ومائة حج بالناس عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز .
ثم كانت سنة تسع وعشرين ومائة حج بالناس عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان ، وكان أبو حمزة المختار بن عوف الخارجي من الأزد داعية المعروف بطالب الحق قد وقف وخرج تلك السنة ، فكلمه الناس حتى نزل عبد الواحد يصلي بالناس ويخرج الى منزله .
ثم كانت سنة ثلاثين ومائة ، حج بالناس محمد بن عبد الملك بن مروان .
ثم كانت سنة احدى وثلاثين ومائة حج بالناس الوليد بن عروة بن محمد بن عطية السعدي بكتاب افتعله على لسان عمه عبد الملك بن محمد وهو والي الحجاز واليمن لمروان بن محمد .
قال المسعودي : فهذا آخر ما حج بنو أمية .

في عهد بني العباس

ثم كانت سنة اثنتين وثلاثين ومائة فحج بالناس داود بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب .
ثم كانت سنة ثلاث وثلاثين ومائة حج بالناس زياد بن عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان الحارثي .
ثم كانت سنة أربع وثلاثين ومائة حج بالناس عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .
ثم كانت سنة خمس وثلاثين ومائة حج بالناس سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس .

ثم كانت سنة ست وثلاثين ومائة حج بالناس أبو جعفر المنصور ، وفيها بويع لأبي جعفر المنصور .

ثم كانت سنة سبع وثلاثين ومائة حج بالناس اسماعيل بن علي بن عبد الله بن العباس .

ثم كانت سنة ثمان وثلاثين ومائة حج بالناس الفضل بن صالح بن علي .

ثم كانت سنة تسع وثلاثين ومائة حج بالناس العباس بن محمد بن علي .

ثم كانت سنة أربعين ومائة حج بالناس أبو جعفر المنصور .

ثم كانت سنة احدى وأربعين ومائة حج بالناس صالح بن علي .

ثم كانت سنة اثنتين وأربعين ومائة حج بالناس اسماعيل بن علي .

ثم كانت سنة ثلاث وأربعين ومائة حج عيسى بن موسى بن محمد بن علي .

ثم كانت سنة خمس وأربعين ومائة فحج بالناس السريّ بن عبد الله بن الحارث بن العباس ابن عبد المطلب .

ثم كانت سنة ست واربعين ومائة حج بالناس عبد الوهاب بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس .

ثم كانت سنة سبع وأربعين ومائة حج بالناس أبو جعفر المنصور .

ثم كانت سنة ثمان وأربعين ومائة فحج بالناس جعفر بن أبي جعفر المنصور ، وقيل : محمد بن ابراهيم الامام ، وقيل : بل المنصور .

ثم كانت سنة تسع وأربعين ومائة حج بالناس عبد الوهاب بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن علي .

ثم كانت سنة خمسين ومائة حج بالناس عبد الصمد بن علي .

ثم كانت سنة احدى وخمسين ومائة حج بالناس محمد بن ابراهيم بن محمد بن علي .

ثم كانت سنة اثنتين وخمسين ومائة حج بالناس أبو جعفر المنصور .

ثم كانت سنة ثلاث وخمسين ومائة حج بالناس المهدي محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي .

ثم كانت سنة أربع وخمسين ومائة حج بالناس محمد بن ابراهيم بن محمد بن علي .

ثم كانت سنة خمس وخمسين ومائة حج بالناس عبد الصمد بن علي .

ثم كانت سنة ست وخمسين ومائة حج بالناس العباس بن محمد بن علي .

ثم كانت سنة سبع وخمسين ومائة حج بالناس ابراهيم بن يحيى بن محمد بن علي .

ثم كانت سنة ثمان وخمسين ومائة حج بالناس ابراهيم بن يحيى ايضا .

ثم كانت سنة تسع وخمسين ومائة حج بالناس يزيد بن منصور بن عبد الله بن شهير

ابن يزيد بن مثوب الحميري .

ثم كانت سنة ستين ومائة حج بالناس المهدي محمد بن المنصور .

ثم كانت سنة احدى وستين ومائة فحج بالناس الهادي موسى بن المهدي ، وهو ولي عهد .

ثم كانت سنة اثنتين وستين ومائة حج بالناس ابراهيم بن جعفر بن أبي جعفر .

ثم كانت سنة ثلاث وستين ومائة حج بالناس علي بن محمد بن المهدي .

ثم كانت سنة أربع وستين ومائة حج بالناس صالح بن أبي جعفر .

ثم كانت سنة خمس وستين ومائة حج بالناس صالح أيضا .

ثم كانت سنة ست وستين ومائة حج بالناس محمد بن ابراهيم بن محمد بن علي .

ثم كانت سنة سبع وستين ومائة حج بالناس ابراهيم بن يحيى بن محمد بن علي .

ثم كانت سنة ثمان وستين ومائة حج بالناس علي بن محمد المهدي .

ثم كانت سنة تسع وستين ومائة حج بالناس سليمان بن أبي جعفر المنصور .

ثم كانت سنة سبعين ومائة حج بالناس هارون الرشيد .

ثم كانت سنة احدى وسبعين ومائة ، حج بالناس يعقوب بن المنصور .

ثم كانت سنة اثنتين وسبعين ومائة فحج بالناس عبد الصمد بن علي .

ثم كانت سنة ثلاث وسبعين ومائة حج بالناس هارون الرشيد : خرج محرما من عسكره الى مكة .

ثم كانت سنة أربع وسبعين ومائة حج بالناس هارون الرشيد الى سنة تسع وسبعين ومائة .

ثم كانت سنة ثمانين ومائة حج بالناس موسى بن عيسى بن محمد بن علي .

ثم كانت سنة احدى وثمانين ومائة حج بالناس هارون الرشيد .

ثم كانت سنة اثنتين وثمانين ومائة حج بالناس موسى بن عيسى .

ثم كانت سنة ثلاث وثمانين ومائة ، حج بالناس العباس بن موسى المهدي .

ثم كانت سنة أربع وثمانين ومائة ، حج بالناس ابراهيم بن المهدي .

ثم كانت سنة خمس وثمانين ومائة ، حج بالناس المنصور بن المهدي .

ثم كانت سنة ست وثمانين ومائة ، حج بالناس هارون الرشيد .

ثم كانت سنة سبع وثمانين ومائة حج بالناس عبد الله بن العباس بن محمد علي ، وقيل منصور بن المهدي .

ثم كانت سنة ثمان وثمانين ومائة ، حج بالناس هارون الرشيد .

ثم كانت سنة تسع وثمانين ومائة ، حج بالناس العباس بن موسى بن عيسى بن محمد ابن علي .

ثم كانت سنة تسعين ومائة ، حج بالناس عيسى بن موسى بن محمد .

ثم كانت سنة احدى وتسعين ومائة ، حج بالناس العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر المنصور .

ثم كانت سنة اثنتين وتسعين ومائة ، حج بالناس العباس بن عبد الله أيضا .

ثم كانت سنة ثلاث وتسعين ومائة ، حج بالناس داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي .

ثم كانت سنة أربع وتسعين ومائة ، حج بالناس علي بن الرشيد .

ثم كانت سنة خمس وتسعين ومائة ، حج بالناس داود بن عيسى بن موسى .

ثم كانت سنة ست وتسعين ومائة ، حج بالناس العباس بن موسى ، الى ثمان وتسعين .

ثم كانت سنة تسع وتسعين ومائة ، حج بالناس محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي ، ووثب ابن الأفطس العلوي بمكة فقبض عليها فتنحى محمد بن داود ، وخرج الناس فوقفوا بغير امام ، فلما كانوا بالمزدلفة طلع عليهم ابن الأفطس فأقام لهم باقي حجتهم .

ثم كانت سنة مائتين ، حج بالناس أبو اسحاق المعتصم .

ثم كانت سنة احدى ومائتين حج بالناس اسحاق بن موسى بن عيسى بن محمد بن علي .

ثم كانت سنة اثنتين ومائتين ، حج بالناس ابراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو أول طالبي أقام للناس الحج في الاسلام ، على أنه أقامه متغلبا عليه ، لا مولى من قبل خليفة ، وكان ممن سعى في الأرض بالفساد ، وقتل أصحاب ابراهيم بن عبيد الله الحجبى وغيره في المسجد الحرام ، ويزيد بن محمد بن حنظلة المخزومي وغيره من أهل العبادة .

ثم كانت سنة ثلاث ومائتين ، حج بالناس عبد الله بن جعفر بن سليمان بن علي .

ثم كانت سنة أربع ومائتين ، حج بالناس عبيد الله بن الحسن بن عبد الله بن العباس ابن علي بن أبي طالب ، من قبل المأمون ، وهو واليه على الحرمين .

ثم كانت سنة خمس ومائتين ، حج بالناس عبيد الله بن الحسن أيضا .
ثم كانت سنة ست وسبع ومائتين ، حج بالناس أبو عيسى بن الرشيد .
ثم كانت سنة ثمان ومائتين ، حج بالناس صالح بن الرشيد ، ومعه زبيدة ، الى سنة عشر ومائتين .
ثم كانت سنة احدى عشرة ومائتين ، حج بالناس اسحاق بن العباس بن محمد بن علي .
ثم كانت سنة اثنتي عشرة ومائتين ، حج بالناس المأمون .
ثم كانت سنة ثلاث عشرة ومائتين ، حج بالناس أحمد بن العباس .
ثم كانت سنة أربع عشرة ومائتين ، حج بالناس اسحاق بن العباس بن محمد بن علي .
ثم كانت سنة خمس عشرة ومائتين ، حج بالناس عبد الله بن عبيد الله أيضا .
ثم كانت سنة ست عشرة ومائتين ، حج بالناس عبد الله بن عبيد الله أيضا .
ثم كانت سنة سبع عشرة ومائتين ، حج بالناس سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي .
ثم كانت سنة ثماني عشرة ومائتين ، حج بالناس سليمان أيضا .
ثم كانت سنة تسع عشرة ومائتين ، حج بالناس صالح بن العباس بن محمد .
ثم كانت سنة عشرين ومائتين ، حج بالناس صالح بن العباس أيضا .
ثم كانت سنة احدى وعشرين ومائتين ، حج بالناس أيضا صالح بن العباس ابن محمد .
ثم كانت سنة اثنتين وعشرين ومائتين ، حج بالناس محمد بن داود بن عيسى بن محمد ابن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب . ثم كذلك الى سنة ست وعشرين ومائتين .
ثم كانت سنة سبع وعشرين ومائتين ، حج بالناس جعفر المتوكل بن المعتصم بن الرشيد .
ثم كانت سنة ثمان وعشرين ومائتين ، حج بالناس الى سنة خمس وثلاثين ومائتين محمد ابن داود بن عيسى .
ثم كانت سنة ست وثلاثين ومائتين ، حج بالناس محمد المنتصر بن المتوكل ، ومعه جدته شجاع .
ثم كانت سنة سبع وثلاثين ومائتين ، حج بالناس علي بن موسى بن جعفر بن المنصور .

ثم كانت سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، الى سنة احدى وأربعين ومائتين ، حج بالناس عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن علي بن عبد الله بن عباس .

ثم كانت سنة اثنتين واربعين ومائتين ، حج بالناس الى سنة أربع وأربعين ومائتين عبد الصمد بن موسى بن محمد بن ابراهيم الامام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

ثم كانت سنة خمس واربعين ومائتين ، حج بالناس الى سنة ثمان وأربعين ومائتين محمد ابن سليمان بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم الامام .

ثم كانت سنة تسع وأربعين ومائتين ، حج بالناس عبد الصمد بن موسى بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله .

ثم كانت سنة خمسين ومائتين حج بالناس جعفر بن الفضل بن موسى بن عيسى بن موسى ويلقب بشاشات .

ثم كانت سنة احدى وخمسين ومائتين ، فوقف بالناس اسماعيل بن يوسف العلوي المقدم ذكره فيما مضى من هذا الكتاب ، وبطل الحج الا يسيرا . لأن اسماعيل هذا طلع على الحجاج وهم بعرفة في جموعه ، فقتل من المسلمين خلقا عظيما حتى زعموا أنه كان يسمع بالليل تلبية القتلى ، وكان شأنه في الفساد عظيما .

ثم كانت سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، حج بالناس كعب البقر محمد بن أحمد بن عيسى ابن جعفر بن المنصور .

ثم كانت سنة ثلاث وخمسين ومائتين ، حج بالناس عبد الله بن محمد بن سليمان بن عبد الله الرسي .

ثم كانت سنة أربع وخمسين ومائتين ، حج بالناس علي بن الحسن بن اسماعيل بن العباس بن محمد بن علي .

ثم كانت سنة خمس وخمسين ومائتين ، حج بالناس علي بن الحسن أيضا .

ثم كانت سنة ست وخمسين ومائتين ، حج بالناس كعب البقر محمد بن أحمد بن عيسى ابن جعفر بن المنصور .

ثم كانت سنة سبع وخمسين ومائتين ، حج بالناس الفضل بن العباس بن الحسن بن اسماعيل بن العباس بن محمد بن علي .

ثم كانت سنة ثمان وخمسين ومائتين ، حج بالناس الفضل بن العباس ايضا .

ثم كانت سنة تسع وخمسين ومائتين ، حج بالناس ابراهيم بن محمد بن اسماعيل بن جعفر بن سليمان بن علي بن برية .

ثم كانت سنة ستين ومائتين ، حج بالناس ابن برية أيضا .

ثم كانت سنة احدى وستين ومائتين ، حج بالناس الفضل بن العباس بن الحسن بن اسماعيل بن العباس بن محمد بن علي .

ثم كانت سنة اثنتين وستين ومائتين ، حج بالناس الفضل بن العباس أيضا .

ثم كانت سنة ثلاث وستين ومائتين ، حج بالناس الفضل بن العباس أيضا .

ثم كانت سنة أربع وستين ومائتين ، حج بالناس الى سنة ثمان وسبعين ومائتين خمس عشرة حجة متوالية هارون بن محمد بن اسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس .

ثم كانت سنة تسع وسبعين ومائتين ، حج بالناس الى سنة سبع وثمانين ومائتين تسع حجج متوالية أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن داود بن عيسى بن موسى .

ثم كانت سنة ثمان وثمانين ومائتين ، حج بالناس محمد بن هارون بن العباس بن ابراهيم بن عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور .

ثم كانت سنة تسع وثمانين ومائتين ، حج بالناس الفضل بن عبد الملك بن عبد الله بن العباس بن محمد بن علي ، ولم يزل يحج بالناس كل سنة الى سنة خمس وثلثمائة .

ثم كانت سنة ست وثلثمائة حج بالناس أحمد بن العباس بن محمد بن عيسى بن سليمان ابن محمد بن ابراهيم الامام ، وهو المعروف بأخي أم موسى الهاشمية قهرمانة شغب أم المقتدر بالله .

ثم كانت سنة سبع وثلثمائة ، حج بالناس أحمد بن العباس أيضا .

ثم كانت سنة ثمان وثلثمائة ، حج بالناس الى سنة احدى عشرة وثلثمائة اسحاق بن عبد الملك بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد .

ثم كانت سنة اثنتي عشرة وثلثمائة ، حج بالناس الحسن بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس .

ثم كانت سنة ثلاث عشرة وثلثمائة ، حج بالناس أبو طالب عبد السميع بن أيوب بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد خليفة لعمه الحسن ، وكذلك سنة أربع عشرة وثلثمائة .

ثم كانت سنة خمس عشرة وثلثمائة ، حج بالناس عبد الله بن سليمان بن محمد الأكبر عبد الله بن عبيد الله بن محمد المعروف بأبي أحمد الأزرق خليفة للحسن بن عبد العزيز العباسي .

ثم كانت سنة ست عشرة وثلثمائة ، حج بالناس أبو أحمد الأزرق أيضا .

ثم كانت سنة سبع عشرة وثلثمائة ، فدخل سليمان بن الحسن صاحب البحرين مكة ، وقد حضر عمر بن الحسن بن عبد العزيز المقدم نسب أبيه لاقامة الحج خليفة لأبيه ، فكان من أمر الناس ما كان فيما قدمنا ذكره فيما سلف من هذا الكتاب ، ولم يتم حج في موسم سنة سبع عشرة وثلثمائة هذه من أجل حادثة القرامطة لعنهم الله الا لقوم يسير غزوا وأقيم حجهم دون امام ، وكانوا رجالة .

ثم كانت سنة ثمان عشرة وثلثمائة ، فحج بالناس عمر بن الحسن بن عبد العزيز الهاشمي خليفة لأبيه الحسن بن عبد العزيز .

ثم كانت سنة عشرين وثلثمائة ، حج بالناس فيها عمر بن الحسن بن عبد العزيز خليفة لأبيه أيضا ، ولم يزل يحج بالناس الى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة ، وهو على قضاء مكة في هذا الوقت وهو جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وثلثمائة ، واليه قضاء مصر وغيرها .

***

المؤلف يختم كتابه بذكر صنيعه

قال أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي رحمه الله : قد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب أنواعا من الأخبار ، وفنونا من العلم من أخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والملوك وسيرها ، والأمم وأخبارها ، وأخبار الأرض والبحار ، وما فيها من العجائب والآثار ، وما اتصل بذلك ، ليستدل به على ما سلف من كتبنا ، ومدخلا الى ما تقدم من تصنيفنا في أنواع العلوم مما قدمنا ذكره ، ولم نترك نوعا من العلوم ، ولا فنا من الأخبار ، ولا طريفا من الآثار ، الا أوردناه في هذا الكتاب مفصلا ، أو ذكرناه مجملا ، أو أشرنا اليه بضرب من الاشارات ، او لوّحنا اليه بفحوى من العبارات ، من أخبار العجم والعرب والكوائن والأحداث في سائر الأمم .

تخويف المؤلف لمن يغير في كتابه

فمن حرف شيئا من معنى هذا الكتاب أو أزال ركنا من مبناه ، أو طمس واضحة من معانيه ، أو لبس شاهرة من تراجمه ، أو غيره ، أو بدله ، أو انتحله ، أو اختصره ، أو نسبه الى غيرنا ، أو اضافه الى سوانا ، أو أسقط منه ذكرنا ، فوافاه من غضب الله وسرعة نقمته وفوادح بلاياه ما يعجز عنه صبره ، ويحار له فكره ، وجعله الله مثلة للعالمين ، وعبرة للمعتبرين ، وآية للمتوسمين ، وسلبه الله ما أعطاه ، وحال بينه وبين ما أنعم به عليه من قوة ونعمة مبدع السموات والأرض ، من أي الملل كان أو الآراء ، انه على كل شيء قدير .

وقد جعلنا هذا التخويف في أول كتابنا هذا وآخره ، وكذلك نقول في سائر ما تقدم من تصنيفنا ، ونظمناه من تأليفنا ، فليراقب امرؤ ربه ، وليحاذر منقلبه ، فالمدة يسيرة ، والمسافة قصيرة ، والى الله المصير .

معذرة المؤلف

وقد قدمنا الاعتذار فيما سلف من هذا الكتاب من سهو ان عرض ، أو تصحيف أو تغيير من الكاتب ان وقع ، ولما قد دفعنا اليه ، من الأسفار المتواترة ، والحركة المتصلة ، تارة مشرقين ، وتارة مغربين ، وطورا متيامنين ، وطورا متشائمين ، وما يلحقنا من سهو الانسانية ، ويصحبنا من عجز البشرية ، عن بلوغ الغاية ، وتقصي النهاية .

ولو كان لا يؤلف كتابا الا من حوى جميع العلوم اذن ما ألف أحد كتابا ، ولا تأتى له تصنيف ، لأن الله عز وجل يقول : « وفوق كل ذي علم عليم » .

جعلنا الله ممن يؤثر طاعته ، ويوفق لرشده ، ونسأله أن يمحو بخير شرا ، وبجد هزلا ، ثم يعود علينا بعد ذلك بعفوه ، ويتغمدنا بفضله ، انه جواد منان ، لا اله الا هو رب العرش العظيم ، وصلى الله على سيد الأنام محمد وعلى آله الطاهرين وسلم تسليما .

تم بحمد الله وتوفيقه طبع الجزء الثاني ، وبه يكون قد تم طبع كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ! تصنيف الرحالة الكبير والمؤرخ الجليل أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، وتحقيق فضيلة الأستاذ الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ عفا الله تعالى عنه ـ بشركة الاعلانات الشرقية ، مؤسسة الطباعة لدار التحرير للطبع والنشر . والله عنده حسن الثواب .

كتاب التحرير

فهرس المجلد الثاني
من
مروج الذهب للمسعودي

الموضـوع | الصفحـة

الموضـــوع	الصفحـــة

الموضـــوع	الصفحـــة

الموضــوع	الصفحــة

الموضـــوع	الصفحـــة

الموضـوع	الصفحـة

الموضـــوع	الصفحــة

الموضــوع	الصفحــة

الموضـــوع	الصفحـــة

الموضـوع	الصفحـة

الموضـــوع	الصفحـة

الموضـــوع	الصفحـــة

الموضـــوع | الصفحـــة

الموضـــوع	الصفحـــة

الموضــوع	الصفحــة

الموضـــوع	الصفحـــة

الموضـــوع	الصفحـــة

الموضـــوع	الصفحـــة

الموضـــوع	الصفحـــة

الموضــوع	الصفحــة

الموضـــوع	الصفحــة

الموضـــوع	الصفحـــة

الموضـــوع | الصفحـــة

الموضـوع	الصفحـة

الموضـــوع	الصفحـــة

الموضـــوع | الصفحـــة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة